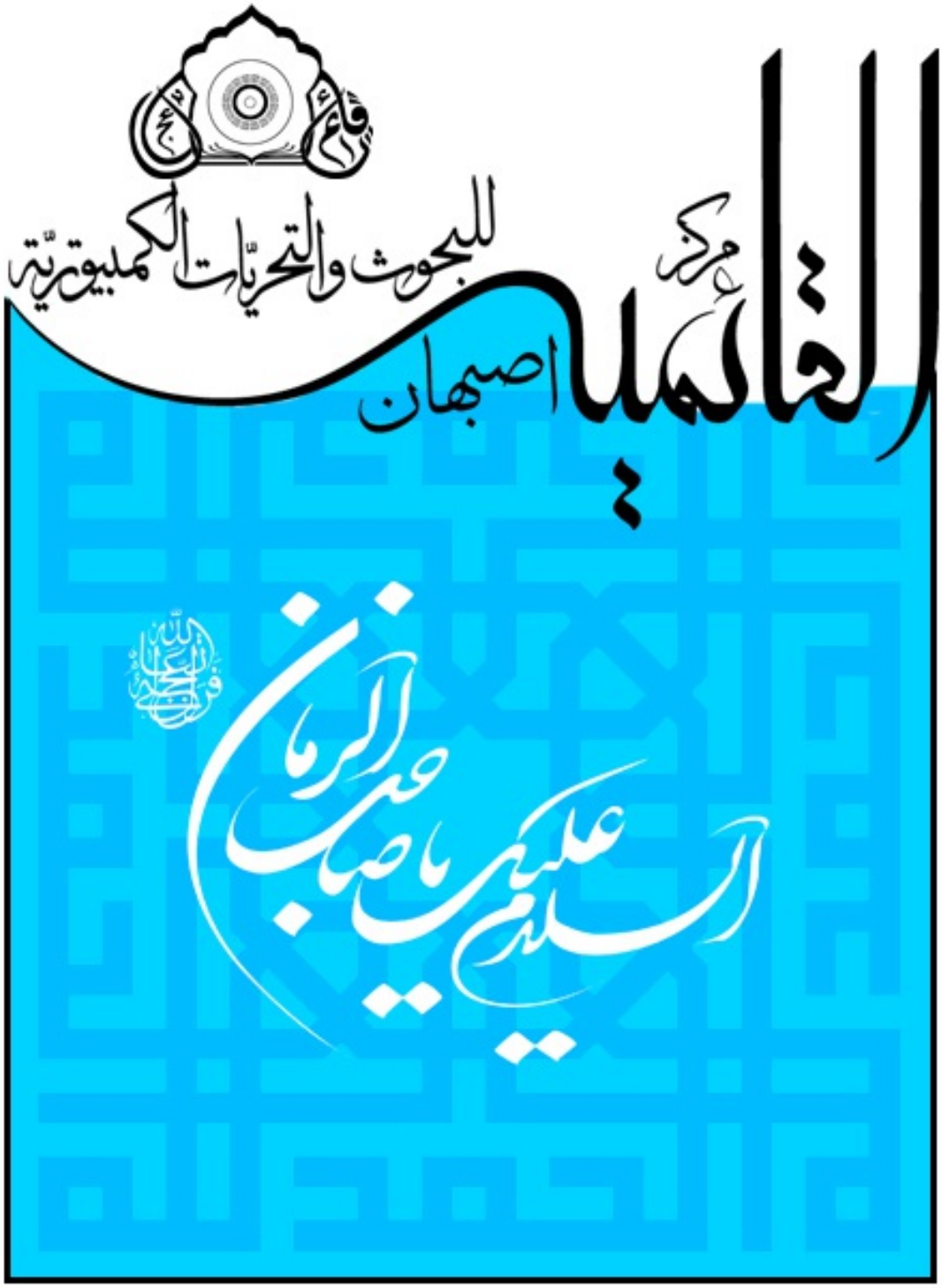

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الواسطة في معرفة أحوال الإنجليز

كشف المخبأ عن فنون أوروبا

1834 - 1857

أحمد فارس الشدياق

حققها وقدم لها: قاسم وهب

بسم الله الرحمن الرحيم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة

كاتب:

احمد فارس شدیاق

نشرت فی الطباعة:

دار السویدی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة ----- ۳۹
اشارة ----- ۳۹
[تصدیر] ----- ۳۹
استهلال ----- ۴۰
المقدّمة ----- ۴۱
دیباجة المؤلف ----- ۴۶
مسار الرحلة الانطلاق ----- ۴۸
القسم الأول الواسطة فی معرفة أحوال مالطة ----- ۴۹
اشارة ----- ۴۹
فی تخطیط مالطة معربا ----- ۴۹
شیء عن جغرافیة مالطة و تاریخها ----- ۴۹
فتح المسلمین لمالطة ----- ۵۱
لغة مالطة ----- ۵۲
جزیرة غودش ----- ۵۳
فی هواء مالطة و منازهها و غیر ذلک ----- ۵۳
فی فالتة قاعدة جزیرة مالطة ----- ۵۷
اشارة ----- ۵۷
وصف دورها ----- ۵۷
من شروط الإیجار ----- ۵۸
مرافق الدور ----- ۵۸
طرق المدینة ----- ۵۸
ملاحظات و مآخذ ----- ۵۹

وسائل الترفیه و التسلیة ----- ۶۰
مسرح فالتة ----- ۶۱
کنانس فالتة ----- ۶۲
المدرسة الجامعة ----- ۶۲
تعلیم و مکتبات و مطابع و مرافق أخری ----- ۶۲
معلومات إحصائیة ----- ۶۳
سوق المأکول ----- ۶۴
أشهر الصنائع فی مالطة ----- ۶۴
ممّا یکره فی مالطة ----- ۶۵
ممّا یحمد فی مالطة ----- ۶۶
فی عادات المالطیین و أحوالهم و أخلاقهم و أطوارهم ----- ۶۶
ملابسهم و حلیهم ----- ۶۶
من عادات الإنکلیز فی مالطة ----- ۶۷
عادة المالطیین فی الأکل ----- ۶۸
مراقدهم و مجالسهم ----- ۶۹
عادتهم فی الزواج ----- ۷۰
التسرّی و البغاء ----- ۷۰
آداب الجنازة فی مالطة ----- ۷۱
خلقهم و أخلاقهم و شیء من عاداتهم ----- ۷۱
فی الإنکلیز و حکومتهم فی مالطة ----- ۷۴
تساهل حکومة الإنکلیز فی مالطة ----- ۷۴
من سنن الإنکلیز و شرائعهم ----- ۷۵
أخلاق الإنکلیز فی مالطة ----- ۷۷
نساء الإنکلیز فی مالطة ----- ۷۷

فی موسیقی أهل مالطة و غیرهم ---- ۷۸
الموسیقی: تعریفها، ضوابطها عند القدماء ---- ۷۸
موسیقی الإفرنج الآن ---- ۷۸
اختلاف الأذواق ---- ۷۸
ألحان الإفرنج ---- ۷۹
الفرق بین ألحان العرب و الإفرنج ---- ۷۹
استخراج علم العروض ---- ۸۰
آراء فی الطرب ---- ۸۱
غناء أهل مالطة ---- ۸۱
غناء المغاربة و أصل الحداء ---- ۸۱
عودة إلی غناء الإفرنج ---- ۸۲
فی لغة أهل مالطة ---- ۸۲
لغتهم فرع من العربیة ---- ۸۲
موقفهم من العربیة ---- ۸۳
مناقشات وردود ---- ۸۳
تعصّب المالطیین ضد العرب ---- ۸۴
لفظهم للحروف ---- ۸۵
استطراد فی تنافر الحروف ---- ۸۵
فی الإبدال و جوازه ---- ۸۵
عودة إلی نطقهم الحروف ---- ۸۶
من شعرهم ---- ۸۶
ما بقی فی لغتهم من فصیح العربیة ---- ۸۸
مما یضحک من کلامهم ---- ۸۸
من قبیح عادتهم فی الکلام ---- ۸۹

قوة العربية و تمكنها ----- ۸۹
القسم الثانى المسمى بكشف المخبا عن تمدّن أوربا ----- ۹۰
اشارة ----- ۹۰
من مالطة إلى إنكلترة ----- ۹۰
مسينة ----- ۹۰
صقلّية ----- ۹۰
نابولى ----- ۹۰
شيفتا فكيه ----- ۹۰
ليفورنو ----- ۹۱
جينوى ----- ۹۱
لمحة تاريخية ----- ۹۱
مرسيلية ----- ۹۱
فى الطريق إلى ليون ----- ۹۲
مدينة ليون ----- ۹۲
فى الطريق إلى باريس ----- ۹۳
كالى ----- ۹۳
فى الطريق إلى لندرة ----- ۹۳
الدكطرلى ----- ۹۴
البحث عن الطعام ----- ۹۴
الوصول إلى بارلى ----- ۹۴
لمحة عن إنكلترة ----- ۹۵
معلومات إحصائية ----- ۹۵
الشروع فى ترجمة التوراة ----- ۹۶
متاعب الإقامة فى القرية ----- ۹۶

الغنی و الفقر فی إنکلترة ---- ۹۶
سبب فقر الفلاحین ---- ۹۷
نمط عیش الفلاحین ---- ۹۷
صعوبة الحیاة فی الریف ---- ۹۷
مزروعاتهم و ثمارهم ---- ۹۸
أرض إنکلترة ---- ۱۰۰
بین إنکلترة و فرنسا ---- ۱۰۰
ما یجلبونه من المأکول و المشروب ---- ۱۰۰
فی صفة حیواناتهم ---- ۱۰۱
فائدة فی عمر الحیوان ---- ۱۰۱
بناؤهم و مساکنهم ---- ۱۰۱
تاریخ استخدام الحجر فی البناء ---- ۱۰۲
استخراج الحجر فی أوربا ---- ۱۰۳
ما یفعله العاطلون عن العمل ---- ۱۰۳
فقراء الإنکلیز ---- ۱۰۳
من مفاخر الإنکلیز ---- ۱۰۳
رأی فی دعواهم ---- ۱۰۴
المنائر فی أوربا ---- ۱۰۴
أعظم منارة فی إنکلترة ---- ۱۰۴
منارة الإسکندریة ---- ۱۰۴
عجائب الدنیا ---- ۱۰۵
هواء إنکلترة ---- ۱۰۵
الشتاء فی إنکلترة ---- ۱۰۵
تغیّر المناخ فی أیار و حزیران ---- ۱۰۷

شکواهم من البرد ----- ۱۰۷
ألفتهم للنار ----- ۱۰۷
أثر المناخ فی حیاة البشر ----- ۱۰۷
اختراع البارومتر ----- ۱۰۸
أیام السنة فی مدینة أوربیة ----- ۱۰۸
المعادن فی إنکلترة ----- ۱۰۸
أماکن وجود الذهب ----- ۱۰۸
أوستراليا ----- ۱۰۹
نبذة عن أمیرکا ----- ۱۰۹
کالیفورنیا ----- ۱۰۹
عودة إلی معادن إنکلترة ----- ۱۱۰
ضرب الدنانیر فی إنکلترة ----- ۱۱۰
الذهب و لیونته ----- ۱۱۰
نقود الذهب و الفضة ----- ۱۱۰
معدن الفضة ----- ۱۱۰
معدن النحاس ----- ۱۱۱
معدن الحدید و تجارته عند الإنکلیز ----- ۱۱۱
الفحم الحجری فی إنکلترة ----- ۱۱۲
استخراج الفحم و إنتاجه فی بعض دول أوربا ----- ۱۱۲
القصدیر ----- ۱۱۲
إبرة المغنطیس ----- ۱۱۲
اختراع الکومباس ----- ۱۱۳
الألماس ----- ۱۱۳
سکک الحدید و مصالح أخری ----- ۱۱۳

سکک الحدید فی أوربا و أمیرکا ---- ۱۱۴
عودة إلی سکک الحدید فی بریطانیا ---- ۱۱۵
سکک الحدید فی بروسیة ---- ۱۱۵
عودة إلی إنکلترة ---- ۱۱۵
القطارات فی فرنسا و إنکلترة ---- ۱۱۶
حوادث القطارات و السفن ---- ۱۱۶
مقارنة بین أرتال الإنکلیز و الفرنسیین ---- ۱۱۶
محل المنسیّات ---- ۱۱۶
اللقطة فی الحدیث الشریف ---- ۱۱۷
خلق الإنکلیز و صفاتهم ---- ۱۱۷
نساء الإنکلیز ---- ۱۱۸
خصال مکروهة فی النساء ---- ۱۱۹
تقشف نساء الإنکلیز ---- ۱۱۹
کدح نساء الإنکلیز ---- ۱۲۰
حبّهم للسمرة ---- ۱۲۰
النّور فی إنکلترة ---- ۱۲۰
شیء من تاریخهم ---- ۱۲۱
عن نساء الإنکلیز و نساء الفرنسیین ---- ۱۲۱
تفشّی الأمیّة فی الریف الإنکلیزی ---- ۱۲۲
عامّتهم و فهم التوراة ---- ۱۲۲
نساء الفلاحین و الشؤون المنزلیة ---- ۱۲۳
تمهید فی طبقات المجتمع الإنکلیزی ---- ۱۲۳
عاداتهم و أخلاقهم ---- ۱۲۳
مصاریف العسکری فی أوربا ---- ۱۲۴

لمحة عن جيوش أوربا ---- ۱۲۴
عساكر الإنكليز ---- ۱۲۵
من طبع الإنكليز ---- ۱۲۵
جهلهم المدن و البلاد ---- ۱۲۶
غناؤهم ---- ۱۲۶
عودة إلى طبعهم ---- ۱۲۶
ملاقاتهم و اجتماعهم ---- ۱۲۶
من طبعهم أيضا ---- ۱۲۷
من منكر عاداتهم ---- ۱۲۷
ممّا قيل فى اللحى ---- ۱۲۷
عودة إلى عادات الإنكليز ---- ۱۲۹
تهافتهم على الشهرة ---- ۱۲۹
رأى فيما ترجموه إلى لغتهم من العربية ---- ۱۳۰
حوار مع دكطر لى ---- ۱۳۱
مع شيخ العربية فى أكسفورد ---- ۱۳۳
مع أستاذ آخر ---- ۱۳۳
مثال على علمهم بالعربية ---- ۱۳۳
كمبريج و أكسفورد ---- ۱۳۴
تفاؤلهم و تشاؤمهم ---- ۱۳۵
عرّافات و منجّمون ---- ۱۳۸
الجريمة فى بلاد الإنكليز ---- ۱۴۰
عقوبة من يؤذى الحيوان ---- ۱۴۱
أحكامهم ---- ۱۴۱
شرع الإنكليز ---- ۱۴۲

کتّاب الصکوک ----- ۱۴۳
نبذة عن کلام الإنکلیز ----- ۱۴۴
عادتهم فی المکاتبة ----- ۱۴۵
عادتهم فی الزیارة و اللقاء ----- ۱۴۵
خاتمة و رأی ----- ۱۴۶
ما یحمد من خصالهم ----- ۱۴۶
مصلحة البرید (البوسطة) ----- ۱۴۸
نقودهم و معاملاتهم ----- ۱۴۹
عدم التعنّت علی النساء ----- ۱۴۹
شیوع الأمن ----- ۱۴۹
صدقهم فی الوعد ----- ۱۵۰
تریثهم فی البت فی الأمور الخطیرة ----- ۱۵۰
الفرق بیننا و بینهم ----- ۱۵۰
عودة إلی حمید خصالهم ----- ۱۵۱
من طبع الإنکلیز ----- ۱۵۳
إمکان خداعهم ----- ۱۵۳
عودة إلی طباعهم ----- ۱۵۴
الفرق بین عامّتهم و خاصّتهم ----- ۱۵۴
نبذة عن ملوکهم ----- ۱۵۵
معاشرة علیّة الإنکلیز لأزواجهم ----- ۱۵۶
موقف الفرنسیین من نسائهم ----- ۱۵۷
ولایة الرجل علی المرأة ----- ۱۵۷
عادة نساء الکبراء فی السلام ----- ۱۵۷
مما یحمد نبلائهم ----- ۱۵۸

من غریب طباعهم ----- ۱۵۸
تهکّم الإنکلیز بالإرلندیین ----- ۱۵۹
عودة إلی غریب طباعهم ----- ۱۶۰
حبّ کبرائهم للسمعة ----- ۱۶۰
نفوذ السیدات و سهولة خداعهن ----- ۱۶۰
اتّصافهم بالکبر و العجرفة ----- ۱۶۱
أنواع الکذب ----- ۱۶۳
الغنی عند الإنکلیز ----- ۱۶۴
منافع العلم ----- ۱۶۴
عادة النبلاء فی الإرث ----- ۱۶۵
ما یحمد من الکبراء و ما یذم ----- ۱۶۵
من غریب عاداتهم ----- ۱۶۵
من عادتهم فی الزواج ----- ۱۶۶
ما یحمد من تربیتهم للأطفال ----- ۱۶۷
ولادات نادرة ----- ۱۶۸
عادتهم فی الجنازة ----- ۱۶۸
عادتهم فی العیادة ----- ۱۶۸
جزعهم عند المصیبة ----- ۱۶۹
عادتهم فی المأدب ----- ۱۶۹
فی الشای ----- ۱۷۱
عادتهم فی المآدب الحافلة ----- ۱۷۱
جهلهم بالطبخ ----- ۱۷۲
أکلهم اللحم المنتن ----- ۱۷۳
طعامهم و شرابهم ----- ۱۷۳

صلاتهم و طقوس عبادتهم ---- ۱۷۴
کهنتهم و کنائسهم ---- ۱۷۵
نفوذ الکنیسة المتأصلة ---- ۱۷۶
التوجه إلی برستول ---- ۱۷۷
وصف مدینة برستول ---- ۱۷۸
وصول قاضی المدینة ---- ۱۷۸
طائفة الکویکرس ---- ۱۷۸
مؤسس طائفة الکویکرس ---- ۱۸۰
الموحدون ---- ۱۸۱
مرقب برستول العجیب ---- ۱۸۱
المزمرة أو التنویم المغنطیسی ---- ۱۸۱
رحلة إلی بعض جبال والس ---- ۱۸۲
العودة إلی برستول ---- ۱۸۴
فی بلدة باث ---- ۱۸۴
جلتنهام ---- ۱۸۴
من کلوستر إلی أکسفورد ---- ۱۸۴
الانتقال من القریة إلی کمبریج ---- ۱۸۵
فی الطریق إلی بلدة الدکطر نیکلسون ---- ۱۸۵
إقلیم بنریث ---- ۱۸۶
التوجه إلی سکوتلاند ---- ۱۸۶
مدینة لیفربول ---- ۱۸۶
مدینة منشستر ---- ۱۸۷
المعامل فی بریتانیا ---- ۱۸۷
صادرات بلاد الإنکلیز بالمقارنة مع فرنسا و غیرها ---- ۱۸۷

تطور الصناعة فی بلاد الإنجلیز ----- ۱۸۸
نبذة عن تاریخ صناعة النسیج ----- ۱۸۸
الشای و التبغ ----- ۱۸۸
ملابس قدماء الإنجلیز ----- ۱۸۸
أرک ریت و استنباط آلة الغزل ----- ۱۸۸
صناعة نسج الحریر ----- ۱۸۹
الأمم و التجارة ----- ۱۸۹
الإنکلیز من الحرب إلی التجارة ----- ۱۸۹
الفرنسیون و حیازة الألقاب ----- ۱۹۰
فلتیر یمدح التجارة ----- ۱۹۰
منشستر بین القدیم و الحدیث ----- ۱۹۰
التلغراف و أنواعه ----- ۱۹۱
رؤیة التلغراف و وصف آلیة عمله ----- ۱۹۱
تطور صناعة التلغراف ----- ۱۹۳
فی أیدنبورغ قاعدة سکوتلاند ----- ۱۹۴
تمثال ولطر سکوت ----- ۱۹۴
قصر الملکة ماری استوارت و قصتها ----- ۱۹۴
عودة إلی أیدنبورغ ----- ۱۹۷
کلاسکو ----- ۱۹۷
العودة إلی کمبریج و إنجاز ترجمة التوراة ----- ۱۹۸
التأهب للسفر من لندرة إلی باریس ----- ۱۹۸
فائدة عن التوراة ----- ۱۹۸
التوجه إلی باریس ----- ۱۹۹
نصیحة للمسافرین ----- ۱۹۹

فی بولون ---- ۱۹۹
جواز السفر ---- ۲۰۰
عرب الأندلس و أوربا ---- ۲۰۰
هدیة هارون الرشید لشارلمان ---- ۲۰۰
البابا یأخذ العلم عن عرب الأندلس ---- ۲۰۰
فی الإبداع و الاختراع ---- ۲۰۱
اختراع الساعة ---- ۲۰۱
بدء التمدن فی أوربا ---- ۲۰۳
مدینة بولون ---- ۲۰۳
الوصول إلی باریس ---- ۲۰۳
نبذة عن فرنسا و إحصاءات متنوعة ---- ۲۰۴
إحصاءات دولیة مقارنة ---- ۲۰۴
وصف باریس ---- ۲۰۵
مدارس باریس ---- ۲۰۷
إدارة هذه المدارس ---- ۲۰۷
المستشفیات و المارستانات و نفقاتها ---- ۲۰۷
معلومات عن سکانها و أسواقها ---- ۲۰۸
الأکادیمیات و المکتبات فی باریس ---- ۲۰۸
المطبعة الملکیة ---- ۲۰۹
جسور المدینة و قنوات المیاه ---- ۲۰۹
مهنیون و مرافق مختلفة ---- ۲۰۹
مسارحها ---- ۲۰۹
دار الأوبرا و الحفلات التنکّریّة ---- ۲۱۰
النوادی و المراقص ---- ۲۱۰

الكنائس ---- ۲۱۰
أسواق متنوعة ---- ۲۱۰
إيرادات و مصروفات ---- ۲۱۰
الوزراء ---- ۲۱۱
البريد ---- ۲۱۱
أوجه الاختلاف بين باريس و لندرة ---- ۲۱۱
مواضع لا نظير لها ---- ۲۱۴
البلفار ---- ۲۱۴
بالى روايال (القصر الملوكى) ---- ۲۱۵
الشانزلزى ---- ۲۱۵
بلاس دو لاكنكورد ---- ۲۱۶
عمود نابوليون الأول ---- ۲۱۶
الباساج ---- ۲۱۷
متنزه بوا دو بولون ---- ۲۱۷
الصروح الفاخرة فى باريس ---- ۲۱۷
اللوفر ---- ۲۱۷
قصر التولرى ---- ۲۱۸
قصر لوكزمبور ---- ۲۱۸
هوتل دوفيل و صروح أخرى ---- ۲۱۹
مجتمع التجار ---- ۲۱۹
البنک (المصرف) ---- ۲۱۹
كنائس باريس ---- ۲۲۰
نوطردام ---- ۲۲۰
لامدلين ---- ۲۲۰

البنثیون ----- ۲۲۰
صان صلبیس ----- ۲۲۰
نوطردام دلورت ----- ۲۲۰
مارستان السقط ----- ۲۲۱
مدفن نابولیون ----- ۲۲۱
بستان النباتات ----- ۲۲۱
بین باریس و لندرة ----- ۲۲۲
مواسم الحظ و الفرج ----- ۲۲۲
القصور فی ضواحی باریس ----- ۲۲۲
قصر صان کلو ----- ۲۲۲
قصر فرسای ----- ۲۲۳
قصر صان جرمان ----- ۲۲۳
عنایة الملک بجمال باریس ----- ۲۲۳
ملابس أهل باریس ----- ۲۲۴
نساء فرنسا ----- ۲۲۴
العرافات و النطق بالمغیّبات ----- ۲۲۴
أخلاق الفرنساویة ----- ۲۲۶
مکانة الأمة الفرنسیة ----- ۲۲۸
بعض من نبغ من الفرنسیس ----- ۲۲۹
دور الفرنسیین فی التاریخ ----- ۲۲۹
حروب و نفقات ----- ۲۳۰
حروب نابولیون و نهایته ----- ۲۳۱
تواطؤ الدول علی نابولیون ----- ۲۳۱
من أبطال فرنسا ----- ۲۳۱

مورو ----- ۲۳۱
جان دارک ----- ۲۳۲
تعقیب ----- ۲۳۷
ما یمیز باریس عن لندرة ----- ۲۳۷
موازنة بین فرنسا و إنکلترة ----- ۲۳۹
رأی أخیر فی کل من الفرنسیین و الإنکلیز ----- ۲۳۹
التوجه إلی لندرة لمشاهدة معرض التحف ----- ۲۴۰
فی معرض التحف ----- ۲۴۰
داردوق نرثمبلاند ----- ۲۴۱
المنطاد ----- ۲۴۱
طلب الحمایة الجنسیة الإنکلیزیة و شروطها ----- ۲۴۲
العودة إلی باریس و مدح الملک لویس نابولیون ----- ۲۴۳
قصیدة أخری فی مدح لویس نابولیون ----- ۲۴۶
الشروع بتألیف کتاب الفاریاق ----- ۲۴۷
کتاب کلستان ----- ۲۴۷
محاکاة الشدیاق لصاحب کلستان ----- ۲۴۷
إنجاز کتاب الفاریاق ----- ۲۴۹
أسفار متصلة بین لندرة و باریس ----- ۲۴۹
بین نفقات باریس و لندرة ----- ۲۴۹
عن البواخر و السفر بین البلدین ----- ۲۵۰
الکلام علی لندن أو لندرة ----- ۲۵۰
لندن أغنی مدن العالم و أکبرها ----- ۲۵۰
موقع المدینة و إحصائیات متنوعة ----- ۲۵۰
من ولد فیها من الشعراء و من دفن فیها منهم ----- ۲۵۱

تزايد سكانها و مساكنها ----- ۲۵۱
سفن و مرافق و استهلاک ----- ۲۵۱
حرفيون و صنّاع ----- ۲۵۲
أشهر المواضع ----- ۲۵۲
عمود نلسون ----- ۲۵۲
نبذة عن نلسون و أعماله ----- ۲۵۳
كنيسة ماربولس ----- ۲۵۳
شطر المدينة و جسورها ----- ۲۵۳
واقعة واطرلو و هزيمة نابوليون ----- ۲۵۴
نفق التايمس ----- ۲۵۴
البواخر و المراكب التى تجرى فى نهر التايمس ----- ۲۵۵
الفرق بين حوافل باريس و لندرة ----- ۲۵۵
سوّاق العواجل فى كل من لندرة و باريس ----- ۲۵۶
أجور النقل فى كل منهما ----- ۲۵۶
اختراع العواجل بين الفرنسيين و الإنكليز ----- ۲۵۶
إمداد لندرة بالماء ----- ۲۵۶
الحوافل فى إنكلترة ----- ۲۵۶
جمعيات التأمين فى لندرة ----- ۲۵۷
محلات الصيارفة فى لندرة ----- ۲۵۷
منشئات البر و الاحسان فى لندرة و ما يليها ----- ۲۵۷
مصروفات و تبرعات ----- ۲۵۸
فقراء لندرة ----- ۲۵۹
منع التسول ----- ۲۵۹
زى أولاد المدارس ----- ۲۵۹

الجمعیات و المصالح الجلیلة فی لندرة أهلیة ---- ۲۶۰
الشرطة فی لندرة ---- ۲۶۰
مفاضلة بین شرطة لندرة و شرطة باریس ---- ۲۶۱
المطاعم و المقاهی و المسارح و دور الأوبرا ---- ۲۶۱
عن التمثیل و الممثلین ---- ۲۶۱
التراجیدی و الکمیدی ---- ۲۶۲
نقد و تعلیق ---- ۲۶۴
العرب و المسرح الیونانی ---- ۲۶۴
نماذج من تمثیلهم ---- ۲۶۴
الرقص فی مسارحهم ---- ۲۶۶
مبدأ التمثیل ---- ۲۶۶
دور البانورامة ---- ۲۶۶
دار الاختبارات العلمیة ---- ۲۶۶
مجلس المشورة: تفاصیل و أرقام ---- ۲۶۶
من التقالید المتبعة ---- ۲۶۷
المتحف البریطانی ---- ۲۶۷
مکتبة المتحف ---- ۲۶۸
رأی و تعقیب ---- ۲۶۸
متاحف أخری ---- ۲۶۸
تعلیق ---- ۲۶۹
من المبانی الجلیلة: البنک و محتویاته ---- ۲۶۹
الکمرک ---- ۲۷۰
التبغ ---- ۲۷۰
مبنی البرید العام (المألک) إحصائیات و أرقام ---- ۲۷۰

إحصائيات مقارنة ---- ۲۷۱
أول من رتّب البريد ---- ۲۷۱
نوادى لندرة ---- ۲۷۱
كنائسها العظام ---- ۲۷۱
إيرادات و مصروفات و شيء عن الأساقفة و رجال الدين ---- ۲۷۲
بيت الهند ---- ۲۷۳
مذهب البراهمة ---- ۲۷۳
النزاع على الهند ---- ۲۷۴
معلومات إحصائية عن الهند ---- ۲۷۵
ما بلغته دولة الإنكليز من السطوة و العز ---- ۲۷۵
مخترعون و مخترعات ---- ۲۷۵
من تاريخ الملاحة ---- ۲۷۶
غنائم و خسائر ---- ۲۷۶
ما أنشأته إنكلترة من البواخر ---- ۲۷۷
اختراع البارود فى أوربا ---- ۲۷۷
الصينيون و البارود ---- ۲۷۷
استعمال البارود فى الحرب ---- ۲۷۷
اختراع بديل عن البارود ---- ۲۷۷
بدء استعمال الأسلحة النارية الطبنجة و المدفع ---- ۲۷۸
عودة إلى المبانى العظيمة و انتخاب ضابط البلد ---- ۲۷۸
مأدبة فاخرة ---- ۲۷۸
عودة إلى ضابط البلد و مهماته ---- ۲۷۹
من المبانى العظيمة ---- ۲۷۹
كلدهال ---- ۲۷۹

برج لندن: تاریخه و محتویاته ---- ۲۷۹
قصور صاحب الملک ---- ۲۸۰
قصر باکنهام ---- ۲۸۰
قصر صان‌جامس ---- ۲۸۱
عن ملوک الإنکلیز و غیرهم ---- ۲۸۱
الملکة فکتوریا ---- ۲۸۱
شیء عن إیراد الممالک و ما خصص للملوک ---- ۲۸۲
مدیونیة الدول ---- ۲۸۳
نبذة عن الملک عند الإنکلیز ---- ۲۸۴
واجبات الملک و حقوقه ---- ۲۸۴
حدائق لندرة ---- ۲۸۴
ما تتصف به لندرة مقارنة بباریس ---- ۲۸۵
المطاعم و المقاهی ---- ۲۸۵
السکن ---- ۲۸۵
الحوانیت ---- ۲۸۶
أعظم طریق فی لندرة ---- ۲۸۷
لیلة الأحد فی لندرة ---- ۲۸۷
طریق أکسفورد ---- ۲۸۸
طریق استراند ---- ۲۸۸
طریق بیکادیلی و طرق أخری ---- ۲۸۸
وسائط النقل ---- ۲۸۸
أضواء لندرة ---- ۲۸۸
اختراع الغاز و استخدامه فی الإضاءة ---- ۲۸۹
منازل الأعیان و العظماء فی لندرة ---- ۲۸۹

جحیم لندرة ----- ۲۹۰
جهل الإنکلیز بالطبخ و میلهم إلی الغش ----- ۲۹۰
سبق الفرنسیین و تخلّف الإنکلیز ----- ۲۹۱
طعامهم و طریقتهم فی الأکل ----- ۲۹۱
المقاهی و روادها ----- ۲۹۱
ملاحظات و مآخذ ----- ۲۹۱
المسبت (الکلوروفورم) ----- ۲۹۲
عودة للملاحظات و المآخذ ----- ۲۹۲
الصحافة فی لندرة ----- ۲۹۳
حریة الصحافة بین لندن و باریس ----- ۲۹۳
اعتماد الصحف علی الإعلان ----- ۲۹۴
بدایات الصحافة المطبوعة فی الغرب ----- ۲۹۴
اختراع الطباعة ----- ۲۹۴
دخول التمدن و المعارف إلی بلاد الإفرنج ----- ۲۹۵
الدانیزیون و عداؤهم للعلم ----- ۲۹۵
عودة إلی الطباعة و انتشارها ----- ۲۹۵
الرقابة و حریة الطبع ----- ۲۹۶
اشتهار الطباعة فی بلاد الإنکلیز و تطورها ----- ۲۹۶
أهمیة اختراع الطبع ----- ۲۹۶
اختراع الورق و تطور صناعته ----- ۲۹۷
فصل فی الستی ----- ۲۹۷
مرکز لندن التجاری ----- ۲۹۷
مرکز عالمی لتجارة الجملة ----- ۲۹۷
تجار أغنیاء و لیسوا ظرفاء ----- ۲۹۸

الفرق بین تجارنا و تجارهم ----- ۲۹۸
تنافسهم فی العمل فی هذا الخط ----- ۲۹۸
فیه تم تألیف هذا الکتاب ----- ۲۹۹
مکان کالحبس ----- ۲۹۹
أرفع الأمکنة و أشرفها عندهم ----- ۲۹۹
ملحق إشارة ----- ۲۹۹
کشاف حضاری و فهارس ----- ۳۰۱
اشارة ----- ۳۰۱
الأعلام ----- ۳۰۱
(أ) ----- ۳۰۱
(ب) ----- ۳۰۱
(ج) ----- ۳۰۲
(ح) ----- ۳۰۲
(خ) ----- ۳۰۲
(د) ----- ۳۰۳
(ر) ----- ۳۰۳
(س) ----- ۳۰۳
(ش) ----- ۳۰۳
(ص) ----- ۳۰۴
(ط) ----- ۳۰۴
(ع) ----- ۳۰۴
(غ) ----- ۳۰۴
(ف) ----- ۳۰۴
(ق) ----- ۳۰۵

(ک) ----- ۳۰۵
(ل) ----- ۳۰۵
(م) ----- ۳۰۵
(ن) ----- ۳۰۵
(ه) ----- ۳۰۶
(و) ----- ۳۰۶
(ی) ----- ۳۰۶
الأجناس و القبائل ----- ۳۰۶
(ب) ----- ۳۰۶
(ت) ----- ۳۰۶
(ر) ----- ۳۰۶
(ط) ----- ۳۰۶
(ع) ----- ۳۰۷
(ف) ----- ۳۰۷
(ق) ----- ۳۰۷
(ک) ----- ۳۰۷
(م) ----- ۳۰۷
(ی) ----- ۳۰۷
الأماکن ----- ۳۰۷
(أ) ----- ۳۰۷
(ب) ----- ۳۰۸
(ج) ----- ۳۰۸
(ح) ----- ۳۰۹
(د) ----- ۳۰۹

(ر) ----- ۳۰۹
(س) ----- ۳۰۹
(ش) ----- ۳۰۹
(ص) ----- ۳۱۰
(ط) ----- ۳۱۰
(ف) ----- ۳۱۰
(ق) ----- ۳۱۰
(ک) ----- ۳۱۰
(ل) ----- ۳۱۱
(م) ----- ۳۱۱
(ن) ----- ۳۱۲
(ه) ----- ۳۱۲
(و) ----- ۳۱۲
(ی) ----- ۳۱۲
التضاریس ----- ۳۱۲
(ب) ----- ۳۱۲
(ج) ----- ۳۱۳
(ن) ----- ۳۱۳
النباتات ----- ۳۱۳
(أ) ----- ۳۱۳
(ب) ----- ۳۱۳
(ت) ----- ۳۱۳
(ج) ----- ۳۱۳
(ح) ----- ۳۱۴

(خ) ----- ۳۱۴
(د) ----- ۳۱۴
(ذ) ----- ۳۱۴
(ر) ----- ۳۱۴
(ز) ----- ۳۱۴
(س) ----- ۳۱۴
(ش) ----- ۳۱۴
(ص) ----- ۳۱۵
(ع) ----- ۳۱۵
(ف) ----- ۳۱۵
(ق) ----- ۳۱۵
(ک) ----- ۳۱۵
(ل) ----- ۳۱۵
(م) ----- ۳۱۵
(ن) ----- ۳۱۶
(ه) ----- ۳۱۶
الحیوانات ----- ۳۱۶
(أ) ----- ۳۱۶
(ب) ----- ۳۱۶
(ث) ----- ۳۱۶
(ج) ----- ۳۱۶
(ح) ----- ۳۱۷
(خ) ----- ۳۱۷
(د) ----- ۳۱۷

(ذ) ----- ۳۱۷
(ر) ----- ۳۱۷
(س) ----- ۳۱۷
(ض) ----- ۳۱۷
(ط) ----- ۳۱۸
(ع) ----- ۳۱۸
(غ) ----- ۳۱۸
(ف) ----- ۳۱۸
(ق) ----- ۳۱۸
(ک) ----- ۳۱۸
(ل) ----- ۳۱۸
(م) ----- ۳۱۸
(ن) ----- ۳۱۸
(و) ----- ۳۱۹
(ی) ----- ۳۱۹
المواد و المعادن ----- ۳۱۹
(أ) ----- ۳۱۹
(ب) ----- ۳۱۹
(ت) ----- ۳۱۹
(ح) ----- ۳۱۹
(خ) ----- ۳۱۹
(ذ) ----- ۳۲۰
(ر) ----- ۳۲۰
(ز) ----- ۳۲۰

(ش) ----- ۳۲۰
(ص) ----- ۳۲۰
(ط) ----- ۳۲۰
(ع) ----- ۳۲۰
(غ) ----- ۳۲۰
(ف) ----- ۳۲۰
(ق) ----- ۳۲۱
(ک) ----- ۳۲۱
(م) ----- ۳۲۱
(ن) ----- ۳۲۱
أدوات و وسائل ----- ۳۲۱
(أ) ----- ۳۲۱
(ب) ----- ۳۲۲
(ت) ----- ۳۲۲
(ث) ----- ۳۲۲
(ح) ----- ۳۲۲
(خ) ----- ۳۲۲
(د) ----- ۳۲۲
(ر) ----- ۳۲۳
(ز) ----- ۳۲۳
(س) ----- ۳۲۳
(ش) ----- ۳۲۳
(ص) ----- ۳۲۳
(ط) ----- ۳۲۴

(ظ) ----- ۳۲۴
(ع) ----- ۳۲۴
(ف) ----- ۳۲۴
(ق) ----- ۳۲۴
(ک) ----- ۳۲۴
(م) ----- ۳۲۵
(ن) ----- ۳۲۶
(ه) ----- ۳۲۶
الأسلحة ----- ۳۲۶
(ب) ----- ۳۲۶
(د) ----- ۳۲۶
(س) ----- ۳۲۶
(ط) ----- ۳۲۶
(م) ----- ۳۲۶
الصناعات ----- ۳۲۷
(أ) ----- ۳۲۷
(ب) ----- ۳۲۷
(ص) ----- ۳۲۷
النقود ----- ۳۲۷
(ب) ----- ۳۲۷
(ج) ----- ۳۲۷
(د) ----- ۳۲۸
(ر) ----- ۳۲۸
(ش) ----- ۳۲۸

(ص) ----- ۳۲۸
(ف) ----- ۳۲۸
(ل) ----- ۳۲۸
أمراض و کوارث ----- ۳۲۸
(ح) ----- ۳۲۸
العقاقیر و العطور و البخور ----- ۳۲۹
(ح) ----- ۳۲۹
(ک) ----- ۳۲۹
(ن) ----- ۳۲۹
الأطعمة و المشروبات ----- ۳۲۹
(أ) ----- ۳۲۹
(ب) ----- ۳۲۹
(ج) ----- ۳۲۹
(ح) ----- ۳۲۹
(خ) ----- ۳۳۰
(د) ----- ۳۳۰
(ذ) ----- ۳۳۰
(ر) ----- ۳۳۰
(ز) ----- ۳۳۰
(س) ----- ۳۳۰
(ش) ----- ۳۳۱
(ض) ----- ۳۳۱
(ط) ----- ۳۳۱
(ع) ----- ۳۳۱

(ف) ----- ۳۳۱
(ق) ----- ۳۳۱
(ک) ----- ۳۳۲
(ل) ----- ۳۳۲
(م) ----- ۳۳۲
(ن) ----- ۳۳۲
(ه) ----- ۳۳۲
اللباس ----- ۳۳۲
(أ) ----- ۳۳۲
(ب) ----- ۳۳۲
(ث) ----- ۳۳۳
(ج) ----- ۳۳۳
(ح) ----- ۳۳۳
(خ) ----- ۳۳۳
(س) ----- ۳۳۳
(ش) ----- ۳۳۳
(ص) ----- ۳۳۳
(ط) ----- ۳۳۴
(غ) ----- ۳۳۴
(ق) ----- ۳۳۴
(ک) ----- ۳۳۴
(ل) ----- ۳۳۴
(م) ----- ۳۳۴
(ن) ----- ۳۳۴

الحلی و المجوهرات ----- ۳۳۴
(أ) ----- ۳۳۵
(ت) ----- ۳۳۵
(خ) ----- ۳۳۵
(س) ----- ۳۳۵
(ش) ----- ۳۳۵
(ق) ----- ۳۳۵
(ن) ----- ۳۳۵
الهیئات و التنظیمات ----- ۳۳۵
(أ) ----- ۳۳۵
(ج) ----- ۳۳۵
(ح) ----- ۳۳۶
(د) ----- ۳۳۶
(م) ----- ۳۳۶
المنشآت و المؤسسات ----- ۳۳۶
(ب) ----- ۳۳۶
(ج) ----- ۳۳۶
(ح) ----- ۳۳۶
(د) ----- ۳۳۶
(س) ----- ۳۳۷
(ف) ----- ۳۳۷
(ق) ----- ۳۳۷
(م) ----- ۳۳۷
(ن) ----- ۳۳۸

(ه) ----- ۳۳۸
الأسواق ----- ۳۳۸
(أ) ----- ۳۳۸
(ب) ----- ۳۳۸
(س) ----- ۳۳۹
المعالم الأثرية ----- ۳۳۹
(أ) ----- ۳۳۹
(ب) ----- ۳۳۹
(ت) ----- ۳۳۹
(ج) ----- ۳۳۹
(س) ----- ۳۳۹
(ش) ----- ۳۳۹
(ص) ----- ۳۳۹
(ع) ----- ۳۴۰
(ق) ----- ۳۴۰
(م) ----- ۳۴۰
(ن) ----- ۳۴۰
(ه) ----- ۳۴۱
(ج) ----- ۳۴۱
(ک) ----- ۳۴۱
(م) ----- ۳۴۱
الکتب ----- ۳۴۱
(أ) ----- ۳۴۲
(ت) ----- ۳۴۲

(س) ----- ۳۴۲
(ک) ----- ۳۴۲
فنون (ت) ----- ۳۴۲
(غ) ----- ۳۴۲
العادات ----- ۳۴۲
فهرس المعلومات ----- ۳۴۴
جمل لها دلالات خاصة ----- ۳۴۴
المصطلحات ----- ۳۴۶
(أ) ----- ۳۴۶
(ب) ----- ۳۴۶
(ج) ----- ۳۴۶
(ذ) ----- ۳۴۶
(ح) ----- ۳۴۶
(ر) ----- ۳۴۶
(س) ----- ۳۴۷
(ص) ----- ۳۴۷
(ط) ----- ۳۴۷
(ع) ----- ۳۴۷
(ق) ----- ۳۴۷
(ک) ----- ۳۴۷
(م) ----- ۳۴۷
(ی) ----- ۳۴۷
الأجناس و القبائل ----- ۳۴۸
المحتویات ----- ۳۴۸

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۳۴۸

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة

اشارة

نام کتاب: الواسطة فی معرفة أحوال مالطة

نویسنده: شدیاق، احمد فارس

تاریخ وفات مؤلف: ۱۸۸۷ م

موضوع: جغرافیای کشورها

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: الموسسة العربیة للدراسات و النشر- دار السویدی

مکان چاپ: بیروت- ابوظبی

سال چاپ: ۲۰۰۴ م

نوبت چاپ: اول

=========

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة وکشف المخبا عن فنون أوروبة ۱۸۳۴-۱۸۵۷

alwastah fi ma'rfah a'houal maltah wkshf almkhba a'n fnoun a'ouroubah ۱۸۳۴-۱۸۵۷

تألیف: أحمد فارس الشدیاق تاریخ النشر: ۰۱/۰۹/۲۰۰۴

تقدیم: قاسم وهب

ترجمة، تحقیق: قاسم وهب الناشر: المؤسسة العربیة للدراسات والنشر

النوع: ورقی غلاف عادی، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۵۷۹ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۱ التوفیر: ۲.۴ ($۱۵٪)

اللغة: عربی

[تصدیر]

...« و من الغریب هنا أنّه قد جرت العادة عند العامّیة بأن یبیعوا نساءهم بیعا لعدم إمکان طلاقهن، و صورته أنّه إذا شعر الرجل بأن زوجته تحبّ آخر عرض علیها الانتقال إلیه، فإذا تراضیا أخذها و باعها لعاشقها بمحضر شهود، و قبض منه ما یؤذن بصحّة البیع، و تخلّص بعد ذلک من تبعتها.

و فی أخبار العالم ما نصّه: رجل باع زوجته فی حانة لرجل بخمسة شلینات و نصف، و قبض الثمن بحضرة شهود، و ذهب بها المشتری، و لما کان الغد ندم زوجها علی ما فعل، و استقال فی البیع فلم یقبل.».

نص الرحلة ص ۲۵۵

...« إلا أنّه لا ینبغی أن تفهم من هذا أن الأمور الخطیرة عندهم تبتّ فی الحال، فإنّ لها من التوقیف و التعیین ما یعیی به صبر المنتظر، إذ لا یبرم عندهم أمر من أول وهلة إلا أن یستفرغ فیه البحث و التروّی، فعلی قدر ما یهون علیهم ارتجال المقال، یصعب علیهم ارتجال الفعال، حتی إنّ دیوان المشورة لا یبتّ شیئا إلا بعد استفراغ الکلام فیه، و إنّما المراد أنّهم لا یعدون بما لا نیة لهم علی وفائه

کما یحدث فی بلادنا، فیبقی الموعود رهین الأمانی یطعم الملث، و یسقی الوعود، ثم لا یحصل من بعد ذلک علی شیء، فینتج منه التکذیب من قبل الموعود، و التنکید من قبل الواعد. و فی الجملة فلیس بین الإنکلیز عرقوب، و لا أشعب.».

نص الرحلة ص ۲۲۷

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷

استهلال

تهدف هذه السّلسلة بعث واحد من أعرق ألوان الکتابة فی ثقافتنا العربیة، من خلال تقدیم کلاسیکیّات أدب الرّحلة، إلی جانب الکشف عن نصوص مجهولة لکتاب و رحّالة عرب و مسلمین جابوا العالم و دوّنوا یومیّاتهم و انطباعاتهم، و نقلوا صورا لما شاهدوه و خبروه فی أقالیمه، قریبة و بعیدة، لا سیما فی القرنین الماضیین اللذین شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربیة لدی النّخب العربیة المثقفة، و محاولة التعرّف علی المجتمعات و النّاس فی الغرب، و الواقع أنه لا یمکن عزل هذا الاهتمام العربی بالآخر عن ظاهرة الاستشراق و المستشرقین الذین ملأوا دروب الشّرق، و رسموا له صورا ستملأ مجلدات لا تحصی عددا، خصوصا فی اللغات الإنکلیزیة و الفرنسیة و الألمانیة و الإیطالیة، و ذلک من موقعهم القوی علی خارطة العالم و العلم، و من منطلق المستأثر بالأشیاء، و المتهیء لترویج صور عن «شرق ألف لیلة و لیلة» تغذّی أذهان الغربیین و مخیّلاتهم، و تمهّد الرأی العام، تالیا، للغزو الفکری و العسکری لهذا الشرق. و لعل حملة نابلیون علی مصر، بکل تداعیاتها العسکریة و الفکریة فی ثقافتنا العربیة، هی النموذج الأتمّ لذلک.

فقد دخلت المطبعة العربیة إلی مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸

لتؤسس للظاهرة الإستعماریة بوجهیها العسکری و الفکری.

علی أن الظّاهرة الغربیة فی قراءة الآخر و تأویله، کانت دافعا و محرضا بالنسبة إلی النخب العربیة المثقفة التی وجدت نفسها فی مواجهة صور غربیّة لمجتمعاتها جدیدة علیها، و هو ما استفز فیها العصب الحضاری، لتجد نفسها تملک، بدورها، الدوافع و الأسباب لتشدّ الرحال نحو الآخر، بحثا و استکشافا، و تعود و معها ما تنقله و تعرضه و تقوله فی حضارته، و نمط عیشه و أوضاعه، ضاربة بذلک الأمثال للناس، و لینبعث فی المجتمعات العربیة، و للمرة الأولی، صراع فکری حاد تستقطب إلیه القوی الحیّة فی المجتمع بین مؤید للغرب موال له و متحمّس لأفکاره و صیاغاته، و بین معاد للغرب، رافض له، و مستعدّ لمقاتلته.

و إذا کان أدب الرحلة الغربی قد تمکن من تنمیط الشرق و الشرقیین، عبر رسم صور دنیا لهم، بواسطة مخیّلة جائعة إلی السّحری و الأیروسیّ و العجائبیّ، فإن أدب الرحلة العربی إلی الغرب و العالم، کما سیتّضح من خلال نصوص هذه السلسلة، رکّز، أساسا، علی تتبع ملامح النهضة العلمیّة و الصناعیّة، و تطوّر العمران، و مظاهر العصرنة ممثلة فی التطور الحادث فی نمط العیش و البناء و الاجتماع و الحقوق. لقد انصرف الرّحالة العرب إلی تکحیل عیونهم بصور النهضة الحدیثة فی تلک المجتمعات، مدفوعین، غالبا، بشغف البحث عن الجدید، و بالرغبة العمیقة الجارفة لا فی الاستکشاف فقط، من باب الفضول المعرفی، و إنما، أساسا، من باب طلب العلم، و استلهام التجارب، و محاولة الأخذ بمعطیات التطور الحدیث، و اقتفاء أثر الآخر للخروج من حالة الشّلل الحضاریّ التی وجد العرب أنفسهم فریسة لها. هنا، علی هذا المنقلب، نجد أحد المصادر الأساسیة المؤسّسة للنظرة الشرقیة المندهشة بالغرب و حضارته، و هی نظرة المتطلّع إلی المدنیّة و حداثتها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹

من موقعه الأدنی علی هامش الحضارة الحدیثة، المتحسّر علی ماضیه التلید، و التّائق إلی العودة إلی قلب الفاعلیة الحضاریة.

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من کتب الرحلات العربیة إلی العالم، هو الکشف عن طبیعة الوعی بالآخر الذی تشکّل عن طریق

الرحلة، و الأفكار التى تسرّبت عبر سطور الرّحالة، و الانتباهات التى ميّزت نظرتهم إلى الدول و الناس و الأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكّل ثروة معرفيّة كبيرة، و مخزنا للقصص و الظواهر و الأفكار، فضلا عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوى على الطريف و الغريب و المدهش مما التقطته عيون تتجوّل و أنفس تنفعل بما ترى، و وعى يلمّ بالأشياء و يحلّلها و يراقب الظواهر و يتفكّر بها.

أخيرا، لا بد من الإشارة إلى أن هذه السّلسة التى قد تبلغ المائة كتاب من شأنها أن تؤسس، و للمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريّة تكشف عن همّة العربىّ فى ارتياد الآفاق، و استعداده للمغامرة من باب نيل المعرفة مقرونة بالمتعة، و هى إلى هذا و ذاك تغطى المعمور فى أربع جهات الأرض و فى قارّاته الخمس، و تجمع إلى نشدان معرفة الآخر و عالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب و المسلمين من خلال تلك الرحلات التى قام بها الأدباء و المفكرون و المتصوفة و الحجاج و العلماء، و غيرهم من الرّحالة العرب فى أرجاء ديارهم العربية و الإسلامية.

محمد أحمد السويدى

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۱

المقدّمة

أحمد فارس الشدياق ۱۸۰۴- ۱۸۸۷ م «هو أحد أقطاب الأدب العربى العظام، نشأ فى لبنان، و شبّ فى مصر و مالطة، و اكتهل فى باريس و لندن و تونس، و شيّخ فى القسطنطينية، فمات ابن ثلاث و ثمانين، ما أحوجته الثمانون إلى ترجمان، و لم تأخذ من ذلك الرأس شيئا، فبقى عوده غضّا، و نفسه خضراء كما شهد بذلك جرجى زيدان».

بهذه العبارة الموجزة لخّص مارون عبّود ترجمة الشدياق، الذى حمله الاضطهاد الدينى على الخروج من وطنه شابّا غضّ الإهاب، ليعود إليه فى صندوق مقفل بعد أن نيّف على الثمانين، و ترك فى الدنيا دوّيا و لا دوىّ المتنبّى!

ينتسب فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر إلى سلالة المقدّم رعدا بن المقدم خاطر الحصرونى المارونى الذى تولّى جبّة بشرّى (لبنان) فى أوائل القرن التاسع عشر. فهو ينتمى إلى أسرة خاضت غمار السياسة فى الدنيا و الدين، و اكتوت بنارها؛ فمات أبوه و جدّه و أخوه دفاعا عن حرّية الرأى، فليس غريبا أن ينشأ الولد على ما كان آباؤه.

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲

ولد فارس بن يوسف الشدياق فى عشقوت من أعمال كسروان سنة ۱۸۰۴ م، ثم انتقلت به أسرته إلى الحدث بجوار بيروت سنة ۱۸۰۹ م، فنشأ الصبى فيها، و ظهرت عليه علائم النجابة و الذكاء؛ فأرسله أبوه إلى مدرسة «عين ورقة» فى كسروان، المدرسة التى تخرّج فيها نخبة من رجال النهضة العربية الحديثة و أعلامها. حيث أتمّ فيها دروسه الابتدائية، كما تلقّى دروسا فى اللغة و الأدب على أخيه أسعد الذى كان من نوابغ زمانه.

بدأ الشدياق ينظم الشعر فى سنّ مبكّرة، و كان ميله إلى قراءة الفصيح من الكلام، و التعمّق فى متون اللغة واضحا لا يحتاج إلى دليل، تسعفه فى ذلك مكتبة والده التى كانت حافلة بالكتب المتنوّعة. و لكن الفتى سرعان ما فجع بموت أبيه، و هو لم يجاوز السادسة عشرة؛ فاضطرّ إلى السعى المبكر فى سبيل العيش؟ فاشتغل بنسخ الكتب و تحبيرها، فلم يجد ذلك مجزيا، ممّا دفعه لأن يعمل بائعا متجوّلا، و لكن سعيه خاب هذه المرّة أيضا، فعمل كاتبا عند الأمير حيدر الشهابى صاحب التاريخ المعروف باسمه، و لكنّه سرعان ما واجه حدثا خطيرا غيّر مجرى حياته، ألا- و هو نكبة أخيه أسعد الذى اعتنق المذهب الإنجيلىّ (البروتستانتى) على يد المرسلين الأمريكان؛ فغضب عليه البطريك المارونى، و أوعز إلى رجاله؛ فقبضوا عليه، و احتجزوه فى أحد الأديرة، و ساموه أنواعا من العذاب؛ ليرجع عمّا ذهب إليه، فازداد تمسّكا برأيه، و إصرارا على موقفه، ممّا أدى إلى موته و هو فى ميعة الشباب، فأثارت هذه الحادثة حفيظة أخيه فارس، و دفعته هو الآخر إلى اعتناق البروتستانتية، مثلما دفعت بالمرسلين الأمريكان إلى إرساله إلى مصر خوفا عليه من أن يصيبه

ما أصاب أخاه، فسافر إليها سنة ۱۸۲۵ م ليعلّم اللغة العربية فی مدارسهم. و بقی فيها زمنا معلّما و متعلّما؛ حيث قرأ علی بعض الأساتذة الكبار مثل: نصر الله الطرابلسی الحلبی، و محمد شهاب الدين محرّر الوقائع المصرية بعض كتب اللغة و الأدب، إلی أن تمكن من النحو و الصرف، و الاشتقاق، كما تقرّب من حاكم مصر، و من خيرة علمائها، و لم يلبث أن عيّنه الشيخ رفاعة الطهطاوی فی إدارة تحرير الوقائع المصرية.

مكث الشدياق فی مصر تسع سنوات تعرّف خلالها بعائلة الصولی السوريّة المقيمة بمصر، فصاهرها، و رزق من زواجه ولدين هما: سليم و فائز، ثم رغب إليه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳

المرسلون الأمريكان أن يذهب إلی مالطة ليعلّم العربية فی مدرستهم؛ فسافر إليها سنة ۱۸۳۴ م، و تولّی هناك- إلی جانب التعليم- تصحيح ما يطبع فی مطبعتهم، و منشوراتهم العربية. فأقام فی مالطة أربعة عشر عاما منصرفا إلی التدريس، و التأليف، و التصحيح.

يقول جرجی زيدان فی تراجم مشاهير الشرق: «و لا يكاد يوجد كتاب مطبوع فی مطبعة مالطة، إلا و كان هو مؤلفه، أو مترجمه، أو مصحّحه».

و من جملة ما ألّفه فی هذه الجزيرة كتاب «الواسطة فی معرفة أحوال مالطة» الذی سيأتی الكلام عليه لا حقا.

و فی سنة ۱۸۴۸ طلبته جمعية ترجمة التوراة فی لندرة من حاكم مالطة عن طريق وزير خارجية إنكلترة لمساعدة الدكتور لی «Lee» فی ترجمة التوراة إلی العربية، فتوجّه إليها، و فی طريقه مرّ بعدد من المدن الأوروبيّة إلی أن وصل إلی إنكلترة التی أقام فيها نحو ثمانی سنوات، اختلف فی أثنائها إلی باريس عدّة مرّات. و فی هذه المدينة ألّف كتابه الشهير «الساق علی الساق فيما هو الفارياق».

علی أن المحصّلة الهامة لهذه السياحة الأوربية كانت تأليف كتابه الذی نحن بصدد تقديمه للقرّاء.

و مما تجدر الإشارة إليه أن الشدياق خلال إقامته فی مالطة، و أوروبا بقی محافظا علی لباسه الشرقی، و طربوشه التركی، علی الرغم من نظرات الاستهجان، و الاستغراب، و السخرية التی كانت تلاحقه فی حلّه و ترحاله، ممّا يدلّ علی تماسكه، و اعتداده بما ينطوی عليه من موروث حضاریّ يقيه من الذوبان السريع فی مجتمع ناهض و متمدّن، لكنّه مغاير و مختلف فی جوانب كثيرة عن المجتمع الذی نشأ به، و تمثّل قيمه الأخلاقية و الحضارية علی نحو عميق.

و فی سنة ۱۸۵۷ استدعاه باي تونس للحضور إليها إثر قصيدة كان قد مدحه بها أثناء زيارة الباي لفرنسا، فأرسل فی طلبه دارعة خاصة ليبحر علی متنها من فرنسا مع عائلته إلی الحاضرة التونسية، ثم عهد إليه تحرير جريدة «الرائد التونسی» و هی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴

الجريدة الرسمية للحكومة التونسية آنذاك. و فی تونس أعلن الشدياق إسلامه، و سمّی نفسه أحمد فارس الشدياق فی الوقت الذی ذاع فيه صيته فی الشرق و الغرب علی السواء، ممّا حمل السلطان العثمانی عبد المجيد علی استدعائه من تونس إلی الآستانة؛ فاستأذن الباي قاصدا عاصمة الخلافة العثمانية، حيث قوبل بالتّرحاب من قبل كبرائها، ثم أسند إليه تصحيح المطبوعات الرسميّة للدولة العليّة.

و فی سنة ۱۸۶۱ أصدر من الآستانة جريدته الأسبوعية «الجوائب»، فاحتلت مكان الصدارة بين الصحف العربية آنذاك، مثلما أحرزت مكانة مرموقة لدی الأوساط الصحفية و السياسية فی الغرب، فنقلت عنها كبريات الصحف الغربية رأيها فی سياسة الشرق و أحواله؟ لذا عدّت لسان حال السياسة الشرقية الناطق فی عاصمة الخلافة العثمانية. هذا إلی جانب كونها منبرا لكبار أدباء العصر و مفكّريه من أمثال: الازجی، و الشرتونی، و رشيد الدحداح، و بطرس البستانی، و سواهم من أعلام القرن التاسع عشر.

و ظل الشدياق عاملا فی حقل التأليف و الصحافة حتی سنة ۱۸۸۴ حيث اعتراه ضعف فی بصره حال دون متابعة القراءة و الكتابة.

و فی سنة ۱۸۸۶ زار مصر، و لقی فيها حفاوة بالغة من قبل ساستها و علمائها، لكن مقامه فيها لم يطل، فغادرها إلی الآستانة حيث وافاه الأجل فی العشرين من أيلول (سبتمبر) سنة ۱۸۸۷، و كان لوفاته أثر كبير فی حواضر الشرق و الغرب، فرثاه الكبراء و العظماء، و نقل

جثمانه إلی لبنان عملا بوصیّته، و دفن بمقابر المسلمین فی الحازمیّة قرب بیروت.

و بعد: فإن ریادة الشدیاق لم تکن کلمة تقال فی معرض التقریظ و المدح، بقدر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵

ما تعنی العمل الدؤوب الذی لا یعرف الکلل فی عصر عمّ فیه الجهل و التخلّف، و وهت تلک الأواصر التی تصل حاضر الأمة بماضیها لتتمکن من استشراف المستقبل علی أساس من الوعی بالذّات، و من ثم الوعی بالآخر الذی قطع أشواطا فی مضمار التمدّن و الرقیّ.

فاللغة العربیة لسان الأمّة، و ذاکرتها، و مخزن عبقریتها، و وسیلتها للتعبیر عن حاجات العصر، کانت قد غلبت علیها العجمة، و الرکاکة، و أثقلتها قیود الصنعة، فبدت عاجزة عن مواکبة العصر و مستجدّاته، إلی أن قیّض الله لها تلک النخبة المستنیرة ممّن اخترقوا حجب الجهل، و بدّدوا بمشاعل قرائحهم ظلمات التخلّف و الرکود؟ لیعیدوا إلی هذه اللغة حیویّتها، و قدرتها علی الاستجابة لمتطلّبات النهوض و الإصلاح.

و کان الشدیاق فی مقدمة هؤلاء الأعلام؟ إذ وجّه جلّ اهتمامه إلی بعث العربیّة من رقدتها، و إحیاء آدابها و کنوزها، و لعلّ خیر دلیل علی ذلک عناوین کتبه من مثل:

- سرّ اللیال فی القلب و الإبدال، و هو کتاب لغوی تحلیلی یقع فی ۶۰۰ صفحة من القطع الکبیر.

- الجاسوس علی القاموس. ألّفه فی الآستانة، ینتقد فیه القاموس المحیط للفیروز آبادی و یقع فی ۷۰۰ صفحة من القطع الکبیر.

- منتهی العجب فی خصائص لغة العرب، نحا فیه نحوا لم یسبق إلیه، و یقع فی عدّة مجلّدات، و لکنّه فقد فی الحریق الذی أصاب منزله فی الآستانة. هذا إلی جانب مساهماته الکثیرة فی جریدة الجوائب علی مدی ثلاثة عقود تقریبا.

لکن اهتمام الشدیاق بشؤون اللغة و الأدب لا یعنی البتّة أنّه قصر عنایته علی هذا المجال فحسب، بل توجّه فی کتبه الأخری و مقالاته العدیدة إلی التبشیر بحقائق العصر الحضاریة، و محاربة الجهل و التعصّب، و الوقوف فی وجه الظلم، و تندرج فی هذا السیاق دعوته إلی تخلیص المرأة من القیود الجائرة، التی حالت دون مساهمتها الفاعلة فی بناء المجتمع الحدیث، و ذلک بتعلیمها، و تهذیبها، و تأکید إنسانیتها، و فتح

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶

سبل الحیاة أمامها؛ لتساهم فی قیادة المجتمع و تطویره.

لقد وجّه الشدیاق عنایته إلی کلّ ما یمکّن الأمّة من الیقظة، و الإصلاح الشامل فی کافّة مناحی الحیاة؛ للّحاق برکب المدینة الحدیثة علی أساس من خصوصیّة الأمّة الحضاریّة و الأخلاقیّة التی تمیّزها عن سواها من الأمم. لأنّه خبر مدنیّة الغرب عن کثب، و خالط أهلها، و وقف علی منجزاتها العلمیة و التقنیة وقوف الفاحص المدقّق؛ لیعرف حقیقتها، و یمیّز جوهرها من عرضها، و صالحها من طالحها مسلّحا بصر العلماء، و جلدهم و أمانتهم؛ لیدوّن هذه التجربة فی هذه المعلمة الطریفة التی نحن بصدد إحیائها بعد مضیّ ما یقرب من قرن و ربع القرن علی آخر طبعة لها.

یقع هذا الکتاب فی جزأین: الأول هو: الواسطة فی معرفة أحوال مالطة»، و الثانی: «کشف المخبّا عن فنون أوربا» و قد تصدّرت الکتاب بجزأیه مقدّمة واحدة تبین الغرض من تألیفه.

ففی الجزء الأول: یبیّن المؤلّف حسب تعبیره «ما ظهر من أمر هذه الجزیرة و ما بطن، و یکشف مخبأها لمن رغب فیها، أو عنها» و لکن الکتابة عن هذه الجزیرة وحدها، لا- تروی له غلیلا- أو تضیف إلی وصفه لها فوائد تاریخیّة خطیرة؛ فاغتنم فرصة سفره إلی بلاد الإنکلیز المتمدّنة؛ لیشفع واسطته برحلة أکبر خطرا، و أعمّ نفعا؛ فقیّد خواطره، و مشاهداته حینا، و نقل أحیانا أخری من الکتب «ما لیس للفکر فیه مسرح، و للطّرف إلیه مطمح» راجیا من کلّ ذلک أن یقتدی قومه بتلک المفاخر و المآثر، و بما فی بلادهم من التمدّن، و البراعة و التفنن، و بما حقّقوه «من المصالح المدنیّة، و الأسباب المعاشیة، و انتشار المعارف العمومیّة، و إتقان الصنائع، و

تعمیم الفوائد و المنافع».

ففی حدیثه عن مالطة، یستهلّ کلامه بلمحة جغرافیة و تاریخیة تحدّد موقعها علی الخریطة، و تذکر تعاقب الفاتحین علیها إلی أن أصبحت تحت الحمایة البریطانیة.

ثم یفرد فصلا خاصّا للحدیث عن هوائها، و منازهها، و یخصّ قاعدتها «فالتة» بوصف مفصّل لدورها، و شوارعها، و أسواقها، و کنائسها، و مدارسها، و لا یغادر معلما من معالمها دون أن یتناوله بالذکر. ثم یفیض بالحدیث عن عادات المالطیین فی أفراحهم و أتراحهم، و أنماط عیشهم، و تباین أحوالهم، و طبقاتهم، کما یصف ملابسهم،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷

و حلیّهم، و مراقدهم، و مجالسهم، إلی غیر ذلک من شؤون حیاتهم المختلفة.

ثم یفرد فصلا خاصّا لحکومة الإنکلیز فی مالطة، و یصفها بالتساهل و اللین مع أهل الجزیرة، فالحکم فیها مالطی، و إن یکن الحاکم إنکلیزیا. لن معظم موظّفی الدولة من أهل الجزیرة، و لیسوا من الإنکلیز. ثمّ یتطرّق إلی الحدیث عن سنن الإنکلیز و شرائعهم، و أخلاقهم، و یصف نساءهم بأنّهنّ «مخالفات لمن فی بلادهنّ فهنّ بمعزل عن الحسن و الجمال، و أکثرهنّ فقم وشوه، و لا فضیلة لهن إلا فی کونهنّ یحسنّ القراءة و الکتابة، و یؤسسن العلم فی أولادهن علی صغر».

و بعد أن ینهی حدیثه عن الإنکلیز یعود للحدیث عن موسیقی المالطیین و غنائهم، ثم یوازن بین موسیقی العرب و موسیقی الإفرنج مبیّنا وجوه الاتفاق و الاختلاف. أمّا أهل مالطة «فإنّهم فی الغناء مذبذبون کما فی غیره، فلاهم کالإفرنج، و لا کالعرب، فأهل القری لیس لهم إلا أغانی قلیلة، و إذا غنّوا مطّوا أصواتهم أصواتهم مطّا فاحشا تنفر منه المسامع».

أما لغة المالطیین، فهی فی رأیه عربیة فاسدة، تخللتها ألفاظ أعجمیة، و ربّما بقی فی هذه اللغة ألفاظ أفصح من نظائرها فی مصر و الشام! و مّا بقی عندهم من فصیح العربیة: دار نادیة، و حقها ندیّة، و هی أفصح من قول أهل مصر و الشام ناطیة، و قابلة: أی دایة. و خطر و مخاطرة، أی رهان، و غرفة، أی علیّة ... إلخ.

و الشدیاق فی کل ما یصف دقیق الملاحظة، یتتبع التفاصل الصغیرة، و الجزئیّات؛ فیصفها أدق وصف، مع قدرة فائقة علی التحلیل و النفاذ إلی أعماق الظواهر و المشاهد التی یطالعها هنا أو هناک.

أما الجزء الثانی من هذا الکتاب، فهو من أهم و أخطر ما کتب عن تمدّن أوربا فی منتصف القرن التاسع عشر، إذا استطاع مؤلّفه أن یلمّ بجوانب الحیاة کافّة فی کلّ من إنکلترة و فرنسا إلمام المعاین و الباحث، فقد تحدّث عن عادات الإنکلیز، و تقالیدهم،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸

و عقائدهم، و شرائعهم، و ذکر منها ما یسوء و ما یسرّ، و أشاد بحبّهم للعمل، و احترامهم للحقوق العامّة، و حسن إدارتهم، و ضبطهم للمصالح العمومیة، و حبّهم لبلادهم، ثم بیّن الفرق بین خاصّتهم و عامّتهم فی العادات و الأخلاق، و السلوک.

فعامّتهم علی حد تعبیره: «لا تکاد خلائقهم و عاداتهم ترضی أحدا من البشر ممّن کان ذا ذوق سلیم، و طبع مستقیم».

کما تحدّث عن الفروق بین سکان المدن، و سکان القری، و ذلک بعد معاینته المباشرة للعدید من الحواضر، و الأریاف فی کل من إنکلترة، و والس، و إرلاند، فجاءت أوصافه للبریطانیین وافیة. ثمّ توقّف طویلا عندما أنجزوه فی میادین الحیاة کافّة من فنون و علوم و صناعة و تجارة، و لم یخف فضوله لمعرفة حقیقة ما اخترعوه، و استحدثوه من آلات عجیبة کالتلغراف، و القطار، و المطبعة و غیرها.

و لما انتقل إلی باریس تناولها بالوصف الدقیق و الشامل لکلّ ما فیها من دور و شوارع و أسواق و منازه، و مبان، و مصانع، و ملاه، و مطاعم ثمّ وصف الناس و عاداتهم و طباعهم، و عقد مقارنات کثیرة بین باریس و لندرة، و من ثم بین الإنکلیز و الفرنسیس من حیث الطباع و الأخلاق، و العادات، و النظم، و المعارف، و المخترعات. و شفع ذلک کلّه بإحصاءات دقیقة و موثقة عن فرنسا و إنکلترا و سواهما من دول أوربا إلی جانب الدول المتّحدة (أمریکا). و یمکن للقارئ الاطلاع علی تفاصیلها بالصیغة التی اعتمدها الشدیاق

نفسه، و بالکیفیة التی أرادها.

و بعد هذا التعریف الموجز بالکتاب و مؤلّفه لا بدّ من التذکیر بأن الشدیاق توخّی ممّا قدّمه عن تمدّن أوربا أن ینقل لأبناء جلدته الخبر الیقین من موقع الرائد، لا من موقع السائح الذی یستمتع بما یری؛ فیلتقط من المشاهد ما یروق له، أو ما یمتع به قرّاءه، کما أنّ معرفة هذه الحضارة و التعریف بها ضرورة لازمة من ضرورات الإصلاح و النهوض.

و لعلّ مواکبة الشدیاق- أثناء وجوده فی مصر- لمساعی محمد علی باشا الجادّة لبناء دولة عصریّة مستفیدا ممّا أنجزه الغرب، و ما نمی‌إلیه عن مساع تونسیة مماثلة،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹

کانت من الأسباب التی حفزته إلی تقرّی هذه المدنیّة و فحصها عن کثب. یضاف إلی ذلک معرفته بالشیخ رفاعة الطهطاوی أحد أقطاب النهضة الحدیثة فی مصر، و صاحب الرحلة المعروفة ب «تخلیص الإبریز فی تلخیص باریز» حیث من المرجّح أن تجعله أکثر اقتناعا فی ارتیاد الغرب و التحقّق ممّا یقال فیه أو عنه.

فلمّا سنحت له الفرصة فی السفر إلی إنکلترة، و الإقامة فیها لسنوات سارع إلی تدوین هذه التجربة فی کتاب شامل یزّ به سلفه الطهطاوی، الذی کان یکنّ له الکثیر من الاحترام، و یجعله دلیلا و مرشدا لمن تتوق نفسه إلی معرفة الغرب، و ما أنجزه من التقدم و الرقیّ.

إن من یمعن النظر فی سیرة الشدیاق، لا سیّما أثناء إقامته فی أوربا یلحظ أنّه لم یتوقّف عن السعی للوصول إلی سلاطین زمانه فی کل مناسبة، لعلّه یجد عند أحدهم خطوة تمکّنه من أن یسعد فی ظلّه من جهة، و لیضع فی خدمته مواهبه و قدرته علی المساهمة فی الإصلاح و التنویر من جهة ثانیة.

و سرعان ما قاده الحظ إلی تونس، حیث استقدمه «الباي» من باریس کما أسلفنا، و کان هذا الحاکم المصلح آنذاک یعمل علی تحدیث بلاده، و بناء دولته علی أسس عصریة، و قد أسند تنفیذ هذه المهمّة إلی خیر الدین باشا التونسی أحد المصلحین الکبار، و أحد أرکان النهضة و الإصلاح فی الأقطار الإسلامیة، و الذی رآه الشدیاق جدیرا بأن یهدی إلیه مدوّنته عن حضارة الغرب، مشفوعة بقصیدة عصماء یعدّد فیها مناقبه. یقول فی مطلعها:

إذا کان خیر الدین عنّی راضیا فما ضائری أن أغضب الدهر و الوسعا

هو البحر جودا و الصباح صباحة و نور الدجی نفعا و لطف الصّبا طبعا

فأثابه خیر الدین بخاتم من الماس ذکره الشدیاق فی هذه القصیدة، ثم طبع الکتاب بمطبعة الدولة التونسیة سنة ۱۲۸۳ ه.

و ربما کان الشدیاق فی هدیّته تلک «کجالب التمر إلی هجر» کما «أنّ العوان لا تعلّم الخمرة» فالوزیر التونسی لم یکن خبیرا بشؤون السیاسة و الإدارة فحسب، بل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰

کان مفکرا بعید النظر، و مثقفا مرموقا یتقن العربیة و الترکیة و الفرنسیة، و قد أقام فی باریس لسنوات عدیدة، و فی الفترة التی کان الشدیاق یتنقل فیها بین لندن و باریس، ثم انکبّ خیر الدین علی دراسة التجربة الأوربیّة، و وضع عنها کتابه الهام:

«قوم المسالک فی معرفة أحوال الممالک»، و هو أحد المراجع الرئیسة لدارسی الفکر العربی فی عصر النهضة.

لذا فإنه من غیر المتوقّع أن تلقی رحلة الشدیاق فی تونس من الفضول المعرفة ما یجری فی الغرب ما لقیته رحلة الطهطاوی فی مصر من الحفاوة و الانبهار. و علی کل حال، فإن إقامة الشدیاق فی تونس لم تطل؛ بسبب اضطراره لقبول دعوة السلطان عبد المجید إلی الآستانة بعد الاستئذان من الباي، فربما وجد فی حاضرة الدولة العلیّة ما لم یجده فی تونس. کما أن الآستانة کانت إحدی العواصم الکبری فی العالم التی تتطلّع إلیها الأعین، و تهفو نحوها أفئدة الحالمین بمکانة لائقة من أمثال الشدیاق، الذی تحقق له ما أراد، فلقّبته

صحف الغرب ب «السیاسی الشهیر، و الإخباری الطائر الصیت، و قد خاطبه الملوک و الأمراء، و العظماء فی سائر أقطار العالم، و وجدوا بین أوراقه بعد وفاته مئات من الکتب واردة علیه من عظماء العالم و ملوکهم».

و فی الختام فإنه لا بدّ القول بأننی لّما کلّفت بتحریر هذا الکتاب، و إخراجه إلی النور، اعتمدت الطبعة الأولی الصادرة بتونس سنة ۱۲۸۳ ه و التی تفضّل بتزویدی بها الأخ الأستاذ نوری الجرّاح، و قد بذلت الکثیر من العناء فی قراءتها، و ضبطها، و تصحیحها، و سدّ ما اعتاها من نقص، ثم شرح ما تخلّله من الغریب الذی شغف به الشدیاق شغفا عظیما!،- و سوف یلحظ القارئ ذلک فی هوامش الکتاب- و لکنّنی بعد الانتهاء من العمل فیها تمکّنت من الحصول علی الطبعة الثانیة التی أصدرها المؤلف من الآستانة من مطبعة الجوائب سنة ۱۲۹۹ ه، فألفیتها مختلفة عن الأولی، و من الصعب إدخال تعدیلات المؤلّف علیها، ممّا اضطرّنی إلی ترک الأولی، و اعتماد الثانیة التی أضاف إلیها «بعض أقوال سدیدة، و أخبار مفیدة، و أشیاء أخری

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱

من قبیل الإحصائیات» المستجدّة فی أوربا بعد صدور الطبعة الأولی.

و علی الرغم ممّا ذکره المؤلّف عن هذه الطبعة الثانیة من أنّه «بذل الوسع فی ضبطها و تحریرها و تهذیبها، فقد وجدت فیها العدید من الأخطاء المطبعیّة، و سواها فصوّبتها، و أشرت إلی بعضها فی الهامش، و أغفلت الإشارة إلی البعض الآخر للتّخفیف علی القارئ، و التخفیف من حواشی الکتاب. ثم قمت بوضع علامات الترقیم المناسبة فی المتن، و قسمت موضوعات الکتاب إلی فقر تسهّل علی القارئ متابعة ما یقرأ، و زوّدت کل فقرة أو أکثر بعنوان، أو عبارة موجزة تلخّص الفکرة التی اشتملت علیها.

و للتمییز بین ما وضعته من الحواشی علی الکتاب، و ما وضعه المؤلف، کتبت کلمة المؤلف عقب کل حاشیة وضعها. و لک ما نرجوه من وراء ذلک کلّه هو إحیاء هذه التحفة، و إخراجها فی ثوب یلیق بأهمیتها، و مکانة صاحبها، و لوضعها فی نهایة المطاف فی متناول القارئ المعاصر، و الله الموفق للصواب.

قاسم محمد وهب

السویداء- سوریة فی ۱۲/ ۵/ ۲۰۰۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳

دیباجة المؤلف

الحمد لله الذی أحصی کلّ شیء کتابا، و أعدّ للمتقین جزاء حسابا، و ألهم ابن آدم أن یضرب فی الأرض و یکدح لنفسه کدحا، و یجوب مناکب البلاد و یسعی لیدرک نجحا، و الصلاة و السلام علی سیّدنا محمد رسوله الذی بهرت آیات نبوته الناظرین، و بزغت شمس دینه فأفل منها سها الکافرین، و نادی بالحق فزهق الباطل و أمحی طلله، و أنذر فأرهب و بشّر فأرغب، و طاب مقاله و مقوله و مقوله، خیر من دعا و أمر، و نهی و زجر، و وعد فأنجز، و قال أطنب أو أوجز، و أرشد فهدی، و أجدی من اجتدی، صلاة و سلاما دائمین، متلازمین متلائمین، و علی آله و عترته، و أصحابه و عشیرته، ما سری الساری، و طلعت الدراری.

أما بعد فإن الأسفار طالما ذکرها الذاکرون، و بالغ فی وصفها الواصفون، فمدحها من علت مروءته، و سمت همّته، و ذمّها من قصر عنها، و لم یجن منها. فمنهم من شبه صاحبها بدرّ إن لم ینقل لم یکن فی التیجان منضودا، و بهلال إن لم یسر لم یصر بدرا مشهودا، و منهم من زعم أنها الحاملة علی الذل، المضیّعة لحسب المرء و الموقعة له فی الضّلّ، و الخمول

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴

و عدم الشکل، و إن الشیء إنّما یرزن إذا کان فی مستقره، حتّی عرفوا الظلم أنّه وضع الشیء فی غیر مقرّه، و معلوم أنّ محلّ العرب مباین لمحل العجم، فکان أحد الفریقین إذا جاوز محلّه فقد ظلم، الی غیر ذلک من تناقض العبارات و الاعتبارات، کما جرت بذلک

عادة البلغاء فی المحاورات، إذ کلّ حکم و قضیة من القضایا الجاریة أطالوا فیها المقال، و جالوا فیها من حیث لا مجال، کاعتزال الناس و الانفراد عنهم، و المخالطة لهم و الأخذ منهم، فبعضهم اثر الأول، و ودّ أن یقضی عمره علی قنة جبل، و بعضهم شبّه الزحام بمنهل عذب لذی الأوام، و أمثال ذلک لا تحصی، و لا تعدّ و لا تستقصی، فکان الرکون إلی ما قالوا، و المعوّل علی ما فیه جالوا و أطالوا، غیر هاد وحده سبیلا قویما، و لا شاف کلیما إلا إذا امتحن الناقد اللبیب بنفسه أیّ الفریقین أصدق قیلا، و أهدی سبیلا، و أطلع علی ماذا حملهم علی الذم و القدح، و الثناء و المدح، و ماز المعلم من المجهل، و الحالی من المعطّل، فهو حینئذ خبیر و أیّ خبیر، غیر مفتقر إلی ناصح منهم و مشیر، و الحاصل أنّ لکل امرىء شأنا یعنیه و مطلبا هو مقتفیه، و أن ما قضی الله یکون، سواء ذمّ الذامّون أو مدح المادحون، هذا و قد کنت فی عنفوان شبابی، و جدّة جلبابی، و إزهار سنّی، و ازدهار ذهنی، لهجا بالسفر و الاغتراب، و الترحّل عن الوطن و الأصحاب إلی بلد ینضر فیه غرسی، و تطیب فیه نفسی، و اقتبس فیه من مصابیح العلم قبسا، و ألقی إذ الدهر لی موحش خلیلا- یصادقنی مؤنسا، حتی أدّتنی أعمال حابطة، إلی جزیرة مالطة، فألفیتها لا کما أمّلت، و کابدت منها ما لا یفی بما عنه ترحّلت، فعنّ لی أن أظهر ما بطن منها، و أکشف مخبّأها لمن رغب فیها أو عنها، فألّفت فیها کتابا سمّیته «الواسطة إلی معرفة مالطة» ثم لمّا رأیت أن هذا الشرح لا- یروی غلیلا- و لا- یشفی علیلا- لکونه مقصورا علی وصف الجزیرة، و هی من الصغر بحیث لا- تمکّن الواصف من أن یطیل فیها من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵

القول ماثورة، أو یضیف إلیه فوائد تاریخیة خطیرة، ظل خاطری حائما علی مورد التألیف، و قلبی هائما بسفر طریف، إلی أن مکّنتنی التقادیر الممکنة، بعد لبثی علی تلک الصخرة الدرنة، نحو أربع عشرة سنة، من السفر إلی بلاد الإنکلیز المتمدّنة، فاغتنمت هذه الفرصة عجلا و ظننت أنی أدرکت أملا، و عوّلت علی أن أشفع تألیف الواسطة برحلة یعظم وقعها، و یعم نفعها، فصرت أقید ما عنّ لی من الخواطر فی وصفهم، و تارة أنقل من الکتب ما لیس فیه للفکر مسرح، و للطرف إلیه مطمح، فإن شؤونهم متشعبة، و أحوالهم مستغربة، و أنحاءهم شتّی، و مقاصدهم تستغرق وصفا و نعتا، و یعلم الله أنی مع کثرة ما شاهدت فی تلک البلاد من الغرائب، و أدرکت فیها من الرغائب، کنت أبدا منغّض العیش مکدّره، کمن فقد وطره، و لزمته معسرة، لا یروقنی نضار و لا نضرة، و لا نعمة و لا مسرّة، و لا طرب و لا- لهو، و لا- حسن و لا- زهو، لما أنی کنت دائم التفکر فی خلوّ بلادنا عما عندهم من التمدن، و البراعة و التفنن، ثم تعرض لی عوارض من السلوان بأن أهل بلادنا قد اختصّوا بإخلاق حسان، و کرم یغطّی العیوب و یستر ما شان، و لا سیّما الغیرة علی الحرم، و صون العرض عمّا من هذا الصوب یذم، ثم أعود إلی التفکر فی المصالح المدنیة، و الأسباب المعاشیة، و انتشار المعارف العمومیة، و إلی إتقان الصنائع، و تعمیم الفوائد و المنافع، فیجفل ذلک السلوان، و أعود إلی الأشجان، و کذا کانت حالة السیّد الأکرم المونس، أمیر الأمراء حسین باشا من أمراء تونس، فإنه لبث فی باریس مدّة طویلة، و خواطره ببلاده أبدا مشغولة، فکان یلازمه الأرق، و الهم و القلق، حتی مکّنه الیوم البری تعالی من تحسین تلک الحاضرة، و إمدادها بالمرافق الوافرة، فلله الحمد علی بلوغ أربه، و حصول مطلبه، فإن تبهیة الأمصار الإسلامیة، أشهی إلیّ و الله من کل أمنیة، کیف لا و عن المسلمین کان أخذ التمدن و الفنون فی الأعصر الغوابر، و کانوا قدوة فی جمیع المناقب و المفاخر، و المحامد و المآثر، و هذا التفکّر و الأسف، و التفکّن المستأنف، کثیرا ما حملنی علی الإضراب عن التألیف، لعلمی أنّ کلامی فیه لا یکون إلا دون

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶

التأریف و التعریف، و أنّی لمثلی أن یدرک جمیع ما عند أولئک الناس من الاختراع، و الإحداث و الإبداع، إلا أنّ رغبتی فی حب إخوانی علی الاقتداء بتلک المفاخر، هی التی سهّلت علیّ هذا الخطب و أطالت باعی القاصر، فأمسکت القلم من بعد إلقائه مرارا، و توکّلت علی الباری المعین أن یکشف لذهنی ما عنه توارى، و یدنی إلی فکری ما شطّ عنه مزارا، و حرّرت هذه الرحلة و سمّیتها «کشف المخبا عن فنون أوربا» و ذلک لأنی لم أقتصر فیها علی شرح ما عند الإنکلیز وحدهم من الفنون، بل استطردت إلی وصف

غیرهم أیضا و الحدیث ذو شجون، و لیکن معلوما عند القارئ، و السامع و الدارى، أنّی فی کل ما وصفت به الإنکلیز و الفرنسیس و غیرهم من أهل أوربا، لم یمل بی هوى و لا غرض بغضا أو حبّا، إذ لیس لی حذل مع أحد منهم و لا ضلع، و لا انحراف و لا میل و لا ضرّ و لا نفع، و إنّما رویت عنهم ما رویت، و حکیت ما حکیت، بحسب ما ظهر لی أنّه الصواب، فلا ینبغی أن یحمل قولی على ضغن أو إغضاب، و أعوذ بالله من أن أبخس الناس أشیاءهم، فأتعمد القول فیما شأنهم و ساءهم، إلا أنّه لا ینکر أنّ الإنسان محلّ النقص و المعیب، و أنّه قلّ من ینظر إلی نفسه بعین المصیب، و کذا کنت أقول للإنکلیز، فلم یکن أحد منهم ینکر قولی أو ینسبه إلی التعجیز، ثم إنّی بعد الفراغ من تحریر الرحلة المشار إلیها عرضت عوارض کثیرة، و أحوال خطیرة، کحرب أمیرکا و بولاند مثلا، و کزیادة فی عدد سکان الممالک أو فی أعمالهم ممّا استعظمه الناس و صار لهم شغلا، من جملة ذلک ما جرى فی الممالک الإسلامیة من التحسین و التنظیم، و الترتیب و التتمیم، إلا أنی رایت إیداعها فی الرحلة نصبا مستأنفا، و شغلا لا ینتهی و لا یستوفی، فصرفت عنه صفحا، و صدفت کشحا، إذ حوادث الدهر أکثر من أن یحصرها ذکر، أو یحیط بها زبر.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷

مسار الرحلة الانطلاق

مالطة ۲ أیلول ۱۸۴۸

مرسی مسینة ۳ أیلول

صقلّیة

نابولی ۴ أیلول

شیفتا فکیه ۵ أیلول

لیفورنو ۶ أیلول

جینوى ۷ أیلول

مرسیلیة ۸- ۱۰ أیلول

مدینة لیون ۱۰ أیلول

باریس ۱۴- ۲۷ أیلول

کالی أو کالس ۲۷ أیلول

لندرة ۲۷ أیلول

ویر

رویستان

بارلی ۳۰ أیلول

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸

التوجه إلی برستول

جبال والس

العودة إلی برستول

بلدة باث

جلتنهام

کلوستر

اجتاز عدة بلدان منها استورد

أکسفورد

قریة صغیرة قبل کمبریج

کمبریج

لندرة

دارنکطون

بنریث

سکوتلاند

لیفربول

منشستر

أیدنبورغ

کلاسکو

کمبریج

لندرة

من لندرة إلی بولون

باریس

لندرة

باریس

لندرة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹

القسم الأول الواسطة فی معرفة أحوال مالطة

اشارة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱

فی تخطیط مالطة معربا

شیء عن جغرافیة مالطة و تاریخها

اعلم أن تخطیط مالطة هو فی ۲۲ درجة و ۴۴ دقیقة من الطول و فی ۲۵ درجة و ۴۵ دقیقة من العرض، أمّا موقعها فی الکرة فإن بعض الجغرافیین ألحقوه بإفریقیة بالنظر إلی المکان، و بعضهم ألحقه بجزائر إیطالیة بالنظر إلی عادات أهل مالطة و أحوالهم و دیانتهم، و المراد بذلک أنها من أوربا فممّن ألحقها بإفریقیة بثولومی، و ممّن ألحقها بأوربا بلینوس و سطرابوس، و دلیلهما علی ذلک کونها علی بعد ستّین میلا من رأس باسرو و علی مائتین من کلبیه نومینا أرکولی، و المحل الأول أقرب إلی أوربا و الثانی أقرب إلی إفریقیة. قال:

فأمّا عرضها فاثنا عشر میلا، و طولها عشرون، و دورتها ستّون و قاعدتها الآن هی المدینة المسمّاة فالتة، فأما فی الأعصر السالفة فکانت نوتابیلی و یقال لها الآن المدینة، و موقعها فی وسط الجزیرة فی أرفع موضع منها، و کأن الجزیرة منقسمة بها الی شطرین: أحدهما یمتدّ جهة الشرق، و الآخر جهة الغرب، و الذی بنی فالتة کان أحد أمراء الإفرنج و سمّاها باسمه، و ذلک سنة ۱۵۷۶ و هی علی ربوة بقرب البحر یقال لها شبراس.

قلت زعم بعض المالطیین أنّ أصل هذه الکلمة شبر الرأس، و بعضهم أنّها جبل رأس و عندی أنّها شعب الرأس. قال فی الصحاح: شعب الرأس شأنه الذی یضمّ قبائله، و هو کنایة عن أصل الشیء و مجتمعه کما أن قبائل الرأس مرجعها إلی الشعب، و یحتمل أنها سمّیت بشیب الرأس لأن أهل مالطة إذ ذاک کانوا یناصبون المسلمین الحرب و الثأر، و کلّ فریق ملاق من فریقه ما یشیب الرأس.

و ذکر بولیه المؤلف الفرنساوی أن قاعدة هذه الجزیرة سمیت باسم الأمیر لا فالیت رئیس طریقة الفرسان، ولد فی سنة ۱۴۹۴ و مات فی سنة ۱۵۶۸ و کان شهیرا بالبأس

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲

و الإقدام، و أوّل ما استولی علیه من الجزیرة عند محاصرته المسلمین بها برج صانت المو ثم قوی علیهم و أخرجهم منها. قال المؤلف: ثم خلفه باولودل مونتی فأتمّ بناءها فی الثامن عشر من أیار، و ذلک فی سنة ۱۵۷۱ و قبل بنائها کان مقام الزعماء المنتسبین إلی طریقة مار یوحنا فی برملة و البرغو بشرقی فالتة، و یقال للثانیة فیتوریوزا أی المنصورة؛ لحرب انتصر فیها أهل مالطة علی المسلمین و ذلک فی سنة ۱۵۵۶.

قال: و فی ضواحی هذه المدینة قریة اسمها الفلوریانة، و هی أعمر جمیع قری الجزیرة، و جملتها أربع و عشرون قریة، و هی جدیرة بأن تسمّی أمصارا لکثرة سکّانها، و حسن بنائها، و کنائسها.

و عدد أهل الجزیرة کلّهم نحو ۱۲۰۰۰۰ نفس، و لفالتة مرسیان أحدهما کبیر یعدّ من أعظم المراسی و ذلک لسعته عدّة بوارج مع الأمن، و لکونه فی وسط بحر الروم فمن ثم کانت الجزیرة بهذا الاعتبار أعظم محل للتجارة علی أن تلک المخازن العدیدة و الشؤون الرحیبة المبنیة عند هذا المرسی تغری الظاعن و المقیم بتعاطی التجارة فیها، و الثانی صغیر و هو مرسی المراکب التی ترد من البلاد المشوبة بالوباء، و یقال له مرسا مشطو محرّفة عن مرسی الشّط. أمّا هواء الجزیرة فالغالب علیه الاعتدال غیر أن أرضها صخرة لا تصلح من أصلها للحرث، و مع ذلک فإن السنبلة الواحدة تخرج فی تربتها التی لیست بالطیّبة و لا الردیئة ست عشرة سنبلة أ عشرین، و فی عام الخصب ثمانی و ثلاثین، و فی الجیّدة إحدی و ستّین. و أخصّ أصناف غلالها التی یتّجر بها القطن، و قد یبعث منه إلی جهات مختلفة فی أوربا مقدار جزیل إلا- أن بخس ثمنه رغّب الأهلین عنه إلی غیره، فصاروا یصرفون همّتهم فی تربیة التوت فإن فیه نفعا کبیرا، و قد علم بالتجربة أنّه یتحصّل منه حریر أعلی من حریر إیطالیة- قلت و قد علم بالتجربة أیضا أن دود القز لا یعیش فی هذه الجزیرة و المؤلف إنّما کتب هذا عند الشروع فی تربیة التوت قال: و فی هذه الجزیرة تنمو الأشجار المثمرة لأصناف الفاکهة الطیبة کالرمان و التفاح و العنب و الإجاص، و أعظمها الأترج.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳

فأما عدد الأهلین الآن بالنظر إلی صغر الجزیرة فإنه عظیم جدّا و لم یعهد من قبل قطانها کانت تحوی هذا المقدار و إنما یعلم أنها کانت مأهولة بأسرها إلا أن بعض جهات منها خلت عن السکان کما یستدلّ علی ذلک من الآثار الباقیة، و ما وصل إلینا من أسماء بعض قری لا- وجود لها. و سبب ذلک- فیما قیل- أن المالطیین حین کانوا تحت ولایة الأرجونیین وجدوا أنفسهم عرضة لغزو المسلمین المتتابع و لهجوم لصوص أفریقیة، فجعلوا مقرّهم شرقی المدینة صیانة لعرضهم و مالهم، و أخلو الجهة الغربیة.

و ذکر بعض الجغرافیین أنّ مالطة کانت تسمّی فی القدیم هیبریة و قال بعض: إنه لم یوجد فی بلاد أوربا جزیرة عرفت بهذا الاسم و إنما هو اسم مدینة قدیمة فی صقلیة، ثم عرفت أخیرا باسم کامرینة. و لما استوطن الفینیقیون هذه الجزیرة سمّوها أوجاجیة، و سمّاها

الیونانیون: ملیتة، و اشتهر ذلک فی سنة ۸۲۲ قبل المیلاد، و سمّاها المسلمون مالطة، و معنی میلیسة أو میلیتة فی لغة الیونان النحل، و زعم قوم أنّها سمّیت باسم میلیتة ابنة دوریس علی جهة التعظیم، و هو مشتقّ من میلت فی السریانیة، و هو اسم إله، و یعرف فی غیرها بجونوا، و لا یبعد أن یکون ذلک أیضا فی اللغة الفینیقیة. قال: و روی بعض المؤرخین أن بناء مدینة فوتابیلی کان بعد الطوفان بنحو ألف و أربعمائة سنة، و أعظم ما فیه عبرة من مبانیها قبل تاریخ النصاری هیاکل جونوا و أبروسربین و هرکولیس و أبولو فموقع الأول هو بین فیتوریوزة و صانت أنجلو.

و یحکی أن ملک نومیدیة الذی کان دأبه غزو مالطة کان قد أخذ منه قطعة بدیعة من العاج و أهداها إلی أستاذه، ففرح بها أولا غایة الفرح، و لکن لمّا علم أنّها أخذت من الهیکل ردّها إلی الملک و التمس منه أن یعیدها فی محلها و موقع هیکل أبروسربین فی قلعة تسمّی مطرفة و قد وجد فیه آثار، و موقع هیکل هرکولیس فی جهة الجزیرة الجنوبیة بالقرب من مرسی سیروکو (أی مرسی الشرق) و هو من بناء الفینیقیین، و قد وجد فیه آثار کثیرة. و موقع هیکل أبولو عند فوتابیلی و هو من بناء الإغریقیین، و کان ذا رونق عظیم، و یقال إن جملة ما أنفق فی بنائه بلغ سبعمائة و تسعین سسترسیا، و قد علم ذلک من وجود صنم نصبه له مجلس عام، و وجد أیضا آثار حمام فی محل اسمه قرطین.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴

و ممن ذکر حکومة مالطة من الشعرآء الأقدمین أومیروس و أوفیدیوس، و یفهم من کلام الأول أن القبیلة التی یقال لها الفیاکنس هم أول من استوطنوا هذه الجزیرة، و کانوا ذوی قوة و بأس، ثم خلفهم الفینیقیون، و هم من جهات صور و صیدا و ذلک سنة ۱۵۱۹ قبل المیلاد و کانوا أهل سعی و کسب و تجارة، فلبثوا فیها نحو أربعمائة و خمسین سنة حتی تغلب علیهم الإغریقیون ثم سلّموها للقرطاجنیین، و ذلک نحو سنة ۵۲۸ قبل المیلاد، ثم جاء من بعدهم الرومانیون فی سنة ۲۸۳ من التاریخ المذکور فأقرّوا فیها أحکامهم و سننهم. و أعظم ما حدث فی دولة الرومانیین ممّا لا ینبغی أن یهمل ذکره قدوم ماربولس، و انکسار السفینة به و بمن کان معه، و ذلک سنة ۵۸ فی عهد القیصر طیباریوس فی موضع یقال له الآن خلیج ماربولس و منذ ذلک الوقت تنوّر أهل الجزیرة. ثم بعد انقراض دولة الرومانیین منها استولت علیها قبیلة الفندلس، ثم القوث، ثم تغلب علی هؤلاء البلیساریون و طردوهم منها و ألحقوها بحکومة البلاد الشرقیة، و بقیت کذلک إلی سنة ۷۸۰ فاخذوا فی هضم الرعیة، فقاموا علیهم و سلّموا الجزیرة للمسلمین.

فتح المسلمین لمالطة

قلت ذکر فی کتاب الجمع و البیان فی أخبار القیروان أن مالطة فتحت فی أیام أبی الغرانیق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب، توفی سنة إحدی و ستّین و مائتین، و إنما لقّب بالغرانیق لأنه کان مشغوفا بالصید. روی أنه بنی قصرا فی السهلین لصید الغرانیق أنفق فیه ثلاثین ألف دینار، فکنّی بهذه الکنیة و کان فی غایة الجود إلا أنه غلب علیه اللهو و الطرب و الأکل و الشرب، و لم یزل مقیما علی لذّاته طوال عمره.

انتهی. فعلی هذا فلا معنی لقول المؤلف و سلّموا الجزیرة للمسلمین.

قال ثم قام الأمیر روجر النورمانی بعدها بمائتی سنة، و استردّ الجزیرة، و ألحقها بصقلیة، فبقیت کذلک نحو سبعین سنة. و لمّا تزوج القیصر هنری السادس سلطان جرمانیة ولیّة عهد صقلیة دخلت مالطة فی حکومته، و ذلک سنة ۱۲۶۶ و بقیت کذلک اثنتین و سبعین سنة، و فی أثناء ذلک ولی أخولویس ملک فرنسا حکم صقلیة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵

و مالطة معا، و بعد سنتین تغلّب علیه الأمیر بطرس الأراجونی، ثم آل أمرها إلی الملک کرلوس ملک صقلیة فولّی علیها الفرسان من نظام مار یوحنا برضی الأهلین و اتفاق دول أوربا، و کان قد جری هذا النظام عندهم أولا ثم لما نبغ نابولیون و استولی علی البلاد

سلّمت له الجزيرة على أن يرخّص للأهلين فى التصرف بحقوقهم إلا أن الفرنسيس لم يلبثوا أن هتكوا بعض السنن القديمة، و انتهكوا حرمة الكنائس، فتحزب عليهم المالطيون تحزبا لم يخل عن سفك دم كثير منهم، و عن تلف أموالهم إلى أن أتت الإنكليز فسلّموها لهم، و كان ذلك فى سنة ۱۸۰۰.

قلت: لمّا دخلها نابوليون وجد فيها ألفا و مائتى مدفع و مائتى ألف رطل من البارود، و أربعين ألف بندقية و عدّة بوارج، و ۵۰۰، ۴ أسير من المسلمين، فأطلقهم، و ذلك فى سنة ۱۷۹۸.

قال: فأما أخذ المسلمين لها فإنه كان من باب المصادقة أولى منه من المغالبة و عاملوا الأهلين أولا بالرفق و المياسرة و وقّروا سننهم و أحكامهم، و امتزجوا بهم للغاية حتى كأن الجيلين واحد كما يتبين ذلك من بقاء لغتهم فيهم.

لغة مالطة

قال: أمّا لغة مالطة فذهب بعضهم إلى أنّها عربية فاسدة، و ذهب آخرون إلى أنّها فينيقيّة لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين، بل ظلّوا فيها آمنين محافظين على لغتهم، و ما برحت مستعملة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها، و أنها لم تتغير فى مدّة القرطاجنيين لأن لغة هؤلاء أيضا كانت فينيقية.

و مع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلّق بأخلاقهم، و السلوك بسننهم أينما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم، و الدليل على ذلك أنّ الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سموا المالطيين بربرا، و لم يكن يطلق هذا الاسم إلا على من جهل اللاتينية و اليونانية.

قال: ثم بقيت فى دولة المسلمين أيضا، و لم تتغير و إنّما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية، و يؤيد كونها فينيقيّة مشابهة بعض ألفاظ منها للغتنا نحو بير و صيد فإنهما

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶

فى الفينيقية: بر وصد، و غير هذا كثير ممّا له لفظ واحد و معنى واحد فى كلتا اللغتين، و الحاصل أن مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية و إن كانت قريبة من هذه أيضا.

قلت: دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت، فإن البير و الصيد ينطق بهما فى لغتهم كما فى لغتنا سواء ما عدا موافقتهما فى تصريف الافعال و الأسماء و فى الضمائر، و غير ذلك من أساليب الكلام كما سيأتى بيان ذلك.

و من الغريب أنّ المؤلّف لا يعرف الفينيقية و لا العربية و لا المالطية و إن كانت لغته، و يتعرّض للحكم و الاستدلال فكيف يحكم على الشىء و هو يجهله، و كيف يقول أولا: إنّ لغة المسلمين بقيت فى أهل مالطة لشدّة الالتحام الذى كان بين الفريقين، ثم يقول الآن إنها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها، و إنما حمله على هذا بغضته و بغضة أهل بلاده للعرب، و تبرئة أنفسهم أنهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين؛ إذ كان هؤلاء كما ذكر أرباب جدّ و تجارة، و العرب عند أهل مالطة كناية عن الهمج؛ و ذلك لجهلهم التواريخ، و لأنهم لا يرون الآن إلا صعاليك المغاربة. و الظاهر أن المسلمين الذين فتحو مالطة لم يكونوا من أهل العلم و التمدّن كالذين كانوا فى صقلية و غيرها؛ فإنّى لم أجد فيما قرأت قط من كتب الأدب و التواريخ قال المالطى، و السيوطى رحمه الله لم يغادر فى كتاب الأنساب الذى سمّاه لبّ اللباب أحدا من أهل العلم إلا و ذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة.

قال أمّا جزيرة (غودش) و تسمّى بالإفرنجية كوتزو فزعم بعض: أن هذه اللفظة يونانية و معناها مركب مستدير، و هى كأنها ذيل انقطع من مالطة، و طولها اثنا عشر ميلا فى عرض ستّة و أهلها نحو خمسة عشر ألفا، و جملة قراها ستّ، و مدينتها تسمّى الربط (كأنه محرّف عن الربض) و فيها أثار قلعة قديمة. و بقول الجزيرة و فاكهتها طيّبة جدّا و كذا عسلها حتى إن الأقدمين كانوا يفضّلونه على عسل جبل هبلا. و يرد منها إلى مالطة قوارب كثيرة مشحونة بالفاكهة و البقل و السمك.

و حکومتها ملحقة بمالطة، و کذا کانت فی الزمن القدیم. و زعم بعض أن مالطة و غودش و کمونة کانت فی الأصل جزیرة واحدة و حدث لها من الزلازل ما فرّقها.

(انتهی المنقول من کتاب مختصر ألّفه مکلف فی تاریخ مالطة)

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷

جزیرة غودش

و أقول قد رأیت جزیرة غودش غیر مرّة أمّا اسمها فأظنه محرّفا عن لفظة الهودج سمّاها بها المسلمون لشدّة شبهها به، کما سموا الجزیرتین الأخرین کمونة و فلفلة لصغرهما، إلا ان أهلها ینطقون بها بالغین المعجمة لا بالمهملة کما ینطق به أهل مالطة، و لا أعلم فی لغتهم کلمة غیرها قلبت فیها الهاء غینا، فأما قلب الجیم شینا فکثیر.

أما أرضها فأحسن من أرض مالطة و لا سیّما کون حقولها مکشوفة للنظر کحقول فرنسا و إنکلترة، لا کحقول أهل مالطة کما یأتی، و هی أزکی ثمرا و نباتا و أهلها أخلص طویة، و فیها الحمیر و البغال ضلیعة لکنّها غیر فارهة، و ربّما بیع الحمار منها بأربعین لیرة.

أما شجرها فإن التفاح لا یکاد یکون أکبر من العلیق فی الشام، و شجر التین منبسط علی الأرض، و لیس فیها من شجر الجوز سوی شجرة واحدة، و فیها أیضا نخلة لکنّها لا تثمر. و أسماء قراها و مواضعها کلّها عربیة محضة. و ممّا أضحکنی من خرق أهلها أنّهم یدرسون القمح علی البهائم من دون نورج، و ذلک بأن یربطوا مثلا کل زوج منها فی قرن و یمشوهما علی السنابل فیثور هذا ناحیة و ذاک أخری، و کذا هی فی مالطة. و من غرابة أرض غودش أن جمیع محالها مزروعة محروثة إلا ما قابل مالطة فکأنه من قبیل مراعاة النظیر. أما کمونة فلیس فیها سوی بیت واحد و کنیسة، و أرضها قلیلة الجدوی.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸

فی هواء مالطة و منازهها و غیر ذلک

إنما قدمت هذا الفصل من کلامی لأهمیته فإن العافیة خیر ما ملک الإنسان، و إن أرضا لتأکل من نازلها لجدیرة بان لا یؤکل منها. فأقول قد تقدّم فیما مرّ بک موقع هذه الجزیرة، و بقی الآن الکلام علی هوائها من حیث هو هو فإن الهواء لا یعرف غالبا من مجرد نسبة الموقع، أما اشتقاق اسمها إن کان عربیا فمن م ل ط و معظمه یدل علی التجرد و الخلو، أو التجرید و الإخلاء، فتکون قد سمّیت بذلک لخلوّها عن الغیاض و الجبال و الانهار و غیرها. و فی القاموس: و مالطة کصاحبة د (أی بلد)، و کان علیه أن یذکر خصوص کونها جزیرة فإنه کثیرا ما یتعقب الصحاح بمثل ذلک. فأما قوله أولا ملط شعره حلقه، ثم قوله بعد فاصل و الأملط من لا شعر علی جسده، و قوله فی أول المادة الملط الخبیث لا یرفع له شیء إلا سرقه، ثم قوله عند الآخر و امتلطه اختلسه، فن اختلاط الترتیب فی الترکیب.

و ممّن ذکر مالطة أیضا المطران جرمانوس فرحات فی کتابه المسمّی (باب الإعراب عن لغة الأعراب) قال: و مالطة جزیرة عاصیة متقاصیة قرب صقلیة سکانها لصوص البحر. قلت: لعلّ تألیفه هذا الکتاب کان قبل سفره إلی رومیة و إلا لما قال متقاصیة، أو أنه جاء بها للمجانسة. أما قوله سکّانها لصوص البحر فینبئ بما کان لأهلها حینئذ من الشهرة الذمیمة عند أهل المشرق، و کأن هذه الصفة کانت غالبة علیهم حتی أنسته أن یقول: لغتهم العربیة، و دینهم النصرانیة.

فأما الصحاح فذکر ملطیة فی بلاد أرمینیة و الآن تعدّ من البلاد الترکیة. أما هواء مالطة فلا یحمده من ألف البرور الواسعة لأنه کثیر التقلّب فیختلف فی اللیل و النهار عدّة مرار فقد یکون فی الصباح صحو فلا تشعر إلا و الغیم قد طبّق أعنان السماء، فیکفهرّ الجوّ و یهیج البحر و تثور الزوابع، و تزمر الریاح فترقص لها الأبواب، بل قد یکون فی النهار برد و فی اللیل حرّ، هذا فی الشتاء. فأما فی

الصیف فلا ترى فی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹

الجو لطخة سحاب و لا غادیة أصلا، و فصل الشتاء یبتدئ فیها منشهر تشرین الأول، و ینتهی إلی أیار، و الباقی صیف شدید، و إن وقع فی خلال ذلک یوم معتدل فتأتی فیه نفحة من الریح باردة و أخری حارّة، أو تکون النعور و هی من الریاح، ما فاجأک ببرد و أنت فی حرّ، أو عکسه. و فی الجملة فإنها جدیرة بأن تسمّی مخزن الریاح، فهی لا تخلو منها باردة کانت أو حارة، و أکثر ریاحها فی الصیف السافیاء تأتی بغبار و تراب دقیق تطیّره علی وجوه الناس، و تدخله فی الدیار من خصاص الزجاج.

و من الغریب أن الریح الشرقیة التی تکون فی الشتاء زمهریرا تصیر فی الصیف سموما فتتشقّق بها أخشاب المنازل و هی مصبوغة، و تصرصر بها روافد السقوف، و یجفّ بها الزجاج و یتصلّب؛ فیکسر بأدنی مسّ، و یقرمد بها الجلد و الورق بل یتأثّر بها الحدید و النحاس و العظم و نحوه، و ینتن شمع الشحم فتکون الشمعة فی البیت کالجیفة، و قد تبلغ درجات الحرّ فیها فوق المائة فیقضی الومد حینئذ باللباس الخفیف من الکتان، و بالنوم من دون غطاء. و أکثر أهل مالطة ینامون لیلا علی السطوح لکون سطوح دیارهم غیر مسنّمة بخلاف دیار فرنسا و إنکلترة، و إذا مشی الإنسان خطوات فی الصیف، یعوم فی عرقه ثم لا یلبث أن تلفحه لفحة من الریح؛ فینبغی أن یکون أحذر من غراب. هذا و لمّا کانت أرض الجزیرة خالیة عن الأجم و الغیاض و الجبال و الأنهار إذ هی عبارة عن صحن فی وسط البحر فمتی أصابتها الشمس مسحتها مسحا علی السواء فلا ملطا فیها من شیء، و ربّما زاد حرّها أیضا بسبب النار التی تخرج من جبل صقلیة، و مع قربها من إیطالیة فلیس فی دیارها رخام کدیار تونس و لیس فی شیء منها میاه جاریة کدیار الشام.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰

و من جملة الأسباب التی تجعل شتاها عارما مکروها کون بنائها من حجر رطب لو جعل فی مقمأة بضع سنین لأکلأ، و حین یستخرج أولا- من مقطعه یکون أخضر مائیا و لا یبیضّ إلا إذا نصب للهواء و الشمس سنین، و من خواصّه أنه قابل للنقش، فلهذا تری منه فی الدیار و الکنائس نصمات شتّی، و قد یبعث منه علی سبیل التجارة إلی جمیع البلاد، و کثیرا ما تتواری الشمس فی هذا الفصل فلا تطلّ فیه و لا من شباک، فاین هذا من شتاء مصر حین یترحّب بالشمس طالعة، و تشیّع غاربة، و فی الصیف یطفو نیلها فیرطّب الأرض و ینتظم به شمل الأحباب و عقود المسرّات.

و إذا اتفق فی مالطة یوم صحو فی الشتاء رأیت الناس جمیعا یعدّدون محاسنه و یصفونه، و یلهون عن سوء أیامهم الأخر حین إذ الریاح تأخذ بناصیة السائر، و المیاه تهطل من أنف کلّ سحاب، و الزکام ملازم للأنوف، و السعال قابض علی الحلقوم، و أشد ما یسوء منها استمرار الریاح أیاما متوالیة من دون مطر فإنه قد یأتی علیها من السنین ما لا یغزر فیه المطر و الریاح مع ذلک لا تهدأ أصلا، و قد احتاجوا فی بعض السنین إلی الغیث غایة الاحتیاج حتی فرض علیهم أسقفهم دعاء للاستمطار فی الکنائس مع الصیام، و الریح مع ذلک تزید عصوفا فقلت:

و لّما لم یطق کانون قطرا تولّی و هو یحبق بالریاح

فیا قوم اغسلوا بالدمع فیه وجوهکم و صوموا عن سفاح

و فی الجملة فإن صیف مالطة و شتاءها شاقّان جاهدان یهجمان بغتة، فآخر ذنب الشتاء معقود بناصیة الصیف فلیست کمصر و الشام، فإن الإنسان فیهما یتعوّد علی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱

تخالف الفصول شیئا فشیئا و لیس من علامات الربیع شیء بمالطة سوی تکاثر البراغیث، فهی آفة من الآفات. و لا- من علامات الخریف سوی تناثر أوراق الشجر المعدودات، و مع ذلک فإن کثیرا من الإنکلیز یأتون إلیها لیقضوا فیها الشتاء. أما عام المطر فیها فی الصیف فسببه قلّة الشجر و الغیاض، فإن السحب إذا مرّت فوقها لم تجد ما تجذب منه رطوبة.

و لعلّ الأدویـة و العقاقیر التی تبقی مـدّة طویلة فی مالطة تفسد بالکلیّة، و یزول ما بها من الخاصّة فإن التبغ و النشوق و الخمر إذا بقیت فیهـا زمانـا یزول طیبهـا رأسا لأن مبلّط الـدیار و حیطانها و سـقوفها من حجر نـد کما مرّ، فإذا وضـعت مثلا ملحا فی خزانـة لا یلبث أن ینـدی کأنّه خلط بالماء، و کـذلک تعفّن المأکولات و المشـروبات إذا وضـعت فی مخدع من خشب مصـبوغ؛ فإن النداوة تسـری إلی الصـبغ، و لـذلک کان البدل و هو داء المفاصل شائعا فی مالطة و قلّ من یسـلم منه. و قد أصـبت به أول سـنة فکنت أقوم فی الصـباح موجع الأعضـاء لاـ أنشـط إلی شـیء، و مـا زال ذلـک یتزایـد بی حتی لزمت الفراش، فلمّـا عادنی الطبیب و رأی مبلّط المنزل أخبرنی بالسبب فعظم علیّ ذلک، ثمّ لمّا سمعت بأن أکثر الناس ممتیّون به هان علی ما لاقیت و تأسّیت بهم.

و دواء هذا الداء الإقامة فی محلّ مواجه للشـمس عند طلوعها. و قد کان یعلو کتبی من أثر النداوة عطن یلتصق به بعض الورق ببعض، و من جعل مرقـده قرب حائط فلا یأمن غائلـة صداع أو وجع أسـنان، و من یکن ذا علّة فی صدره فأعظم خطر علیه التعرّض للریح بعد أن یکون فی محلّ دفیء مع أن الغالب علی أهل مالطـة الشدّة و القوة غیر أنهم ولدوا علی هذه الحال فلا تؤثّر فیهم رداءة المکان و لا الزمان، و ممّا توصـی به الأطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسمّاة فلانله صیفا و شتاء أمّا فی الشتاء فللدفء، و أمّا فی الصیف فلتنشیف العرق، و منع ضـرر الریـح النافـذة فی المسـام حتی إنّهم یخشون من الریـح علی الحیوانـات فـإنّهم إذا أوقفوا الحصان فی سـیره أداروا وجهه إلی غیر جهة الریح و قس علی ذلک.

أمّا أرض مالطة فإنها ملطة صـخرة جرداء قلیلة الثری و الشجر و النبات، و دائرها کلّه صخر لا ینبت فیه شیء إلا أنه لشدّة اجتهاد أهلها، و فرط کدحهم ینبت فیها أکثر أصناف البقول و الفاکهة، لکن غلتها لا تکفیهم أکثر من أربعة أشهر، و الباقی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲

یجلب إلیهم من بلاده فیجلبون القمح و القطانی من مصـر، و من بلاد الترک و الروم، و یجلبون الفاکهة و الخمر من صـقلیة، و البقر و الضأن و الزیت من إفریقیة و هلم جرّا.

و زعم بعض أنّ ترابها مجلوب فی الأصل من صـقلّیة، و تری شجر الخرنوب و الصبّار التی لا تتوقّف علی کثیر من الثری أعزّ من شجر الجوز فی الشام، أما شـجر الخرنوب فیکون لا صقا بالأرض کأنما هو أزرار و مکبسة، و أمّا الصبّار فتراه محوطا بالجدران العالیة کأنّما هو حدیقـة، و ینوطون بکـلّ منّهـا ورقـة من الثوم منعـا لإصابـة العین مع أنّهـا ممّا تنبو عنه العین، و إذا سألت أحـدهم عن قلّـة الغیاض عندهم قال:

نحن معاشر الإفرنج لا نصرف همنا إلا إلی زرع الأرض. فما أقلّ ظلّهم و أکثر ظلمهم!.

و إذا ضـحیت إلی الخلاء وجـدت بین کل حقلین جـدارا عالیا لحجز رؤیـة ما دونه، فأین هذه من سـهول فرنسا و إنکلترة البادیة للعین علی نضرتها و ریعها، و علی کثرة ما فیها من أکادیس الغلال و العشب من دون ناطور یحفظها، أو حائط یسترها.

و یوجـد فی مالطة أکثر أصـناف الأشـجار المثمرة و البقول المأکولة، و فاکهتهم طیّبة فی الجملة إلا اللیمون الحلو، و قصب السـکر، و الخیار، فأمّا الصبّار فأکثره نوی، و کذا الرمّان. و أکثر الفاکهة یباع فجّا، و قلّما یدعونها تنضج خوفا من اللصوص أن تسرقها.

و جمیع أصـنافها أرخص منها بمصـر، و التین علی أصـناف متنوّعـة و العنب لا یـدوم أکثر من ثلاثـة أشـهر، أما الاترنج فإنه یدوم نحو سبعة أشهر و یرسل منه إلی بلاد الإنکلیز و غیرها کالطرفة. فإمّا ما یأتیها من الثمر من صقلّیة فإنّما هو سداد من عوز.

و عندهم من الفاکهة أصـناف لا توجد فی بلادنا، منها صـنف یقال له الفراولی و هو حب أحمر صغیر بقدر ثمر العلیق حامض یصلحه السـکر، و أخر یقال له نصـبلی و هو شبیه بالمشـمش، أو بعین البقر و نواه کبیر، و آخر اسـمه زربی و هو أشـبه بالزعرور شدیـد الفجیّة یجعلونه أعذاقا کأعذاق التمر؛ فینضج منه کل یوم حبّات، و یدوم العذق بجملته أشـهرا و لا یعرفون حفظ الفاکهة إلی أوان الشتاء کما یفعل فی بلاد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳

الإفرنج، فإن العنب و التفاح فی فرنسا و إنکلترة لا ینقطعان أصلا. أما بقولهم فغیر طیبة، و ذلک لکثرة مائیتها فإذا رأیتها فی السوق سرّک نضارتها و لکن متی طبخت جاءت مسیخة، حتی إن البصل و الفجل و ما أشبههما ممّا طبعه الحرافة لا طعم له عندهم، لا بل إذا جلبت من بلاد أخری یتغیّر طعمها، و کذا الکرنب، و الباذنجان و نحوه. و لا یکاد یبدو نوع منها إلا و یغلط و یجسو. و من الغریب أن نباتها مع کونه بهذه الصفة فعسلها فی غایة الجودة، و مما لا یوجد عندهم من الخضرة الکوسی و القثّاء، و الملوخیة و من غیرها اللبن و القشطة و السمن، و إنّما یجلبون نفایة هذا أحیانا من طرابلس الغرب. و أهل مالطة جمیعا یتقزّزون منه، و یطبخون إدامهم بشحم الخنزیر.

أما ماؤها فإنه ماء المطر مخزونا فی الآبار غیر سائغ فما شربه ذو تعب أو ظمأ إلا و أصابه سعال، و کثیرا ما یحدث عن شربة واحدة نفث الدم، فشتّان بینه و بین ماء النیل الذی یطیب شربه علی التعب و الظمأ و لا یزید الشارب إلا صحة و نماء جسم، فلا ینبغی لأحد أن یشرب من ماء مالطة إلا ترشّفا. و نقل عن أرسطو أن الماء الراکد الذی لا تقع علیه الشمس لا یکون إلا ثقیلا و تتولد فی مادة طینیّة.

أمّا حدائقها فأشهرها حدیقة صانت أنطونیو مقر الحاکم فی الصیف، و هی التی نزل بها الأمیر بشیر شهاب بأهله، أخلاها له الحاکم إجلالا لشأنه و هی نضیرة حسنة الوضع إلا أنها فی منخفض من الأرض، و لیس فیها مقاعد أو مواضع لیأکل فیها المتفرّج أو یشرب، و لیس للمالطیین عادة أن یأخذوا إلی مثل هذه المتنزّهات طعاما لا- فی الأعیاد و لا- فی غیرها اتباعا لعادة الإنکلیز إذ لا یمکن لهم الجلوس إلا- علی کرسی، فغایة حظّهم من ذلک إنّما هو المشی أو أن یضع أحدهم ذراعه بذراع صاحبه و یمشیان الخیلاء أو أن یمشی وحده و هو یصفر و یمکو. و علی تقدیر وجود رصف عندهم أو روضة فلا یعرفون کیف ینبسطون عندهما سوی بالمشی، و أعرف رصفا یسمّی البیاتا أنیقا جدا، و لکن لیس فیه محل للقهوة، و لا مثلوج و لا مطعم، و لا آلة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۴

طرب و لا کرسی یجلس علیه. و لو کان مثله فی باریس أو فی مصر أو الشام لرأیته من أوله إلی أخره مرصوفا بالکراسی و المتّکآت و مشتملا علی کل ما تطیب به النفس. و فی الجملة فإن الإنکلیز و المالطیّة جمیعا لا ذوق لهم فی مثل هذه الأمور.

ثم البوسکیت و معناه الغیضة و هو علی بعد ثلاث ساعات من فالتیة و هو سیء المنحدر قلیل الجدوی، فإنه عبارة عن شجرات معدودات و زهرات شعث لا صنعة فی تنبیتها إلا أن فیه قبوة فیها عین نضّاحة، و حولها مائدة و مقاعد من حجر یقعد علیها الآکلون، فهذا الموضع أنزه موضع فی الجزیرة، و ذاک الماء أعذب ماء بها، و بقربه برج کان فی القدیم سجن یعذّب فیه من یخالف الکنیسة کما کانت العادة أیضا فی إسبانیا و غیرها.

ثم المطحلب و هو أنظر من البوسکیت و أبعد لکونه عند أقصی مالطة طولا، و فیه برکة یعلو ماءها طحلب و کان الموضع سمّی به. و نواعیرهم نحو نواعیر الشام و مصر.

و أهل تونس و طرابلس یستعملون السانیة و هی فی اللغة الناقة یسقی علیها و یطلقونها علی البستان.

و الحاصل أنّ جزیرة مالطة لا تعجب من الإفرنج إلا القلیل، و ذلک لأنّهم إذا جاؤوها لم یجدوا فیها شیئا غریبا لا یوجد فی بلادهم، فإن کل ما فیها إن هو إلا نفایة ما عندهم. هذا و لیس منهم من یرغب فی علم اللغة المالطیة إذ کانوا یعلمون أنها عربیة فاسدة، و لیس فیها من الصنائع و الفنون ما یجهله أهل الرستاق منهم فضلا عن المتمدنین، و انما هی مجاز یجوزون منها إلی الشرق. نعم إنّ بعضا من المظلومین فی إیطالیا و خصوصا صقلیة یأتون الیها للاستئمان، و إنها لما کان موقعها بین عدّة برور شرقیة و غربیة حصلت علی هذه الشهرة و لا سیّما الآن فإنه قد یتعذر السفر إلی بعض جهات الشرق من دون المرور بها.

فأمّا العرب فربّما لا تعجب منهم أحدا و ذلک لأن أهل مالطة جمیعا یکرهون

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵

جنس العرب و المسلمین علی الإطلاق، و منتهی الذم عندهم أن یقولوا عربی بسکون الراء علی أنّها فی جمیع لغات الإفرنج بالفتح، و لا یمکن أن یخطر ببالهم أن من العرب من هو ذو أدب و کیاسة، بل لا یکادون یظنون أن اللغة العربیة یتکلّم بها غیر المسلمین. و حیث کانوا یعلمون أن الإفرنج ینسبونهم إلی العرب زادت بغضتهم له، فما أحد ممن ألف الحظ فی الحمام و البساتین و الغیاض و المواسم و التأنق فی المطاعم یترک بلاده و یأتی إلی هذه الصخرة الصمّاء.

هذا و من یکن من العرب ذا غیرة علی لغته فلا یطیق أن یسمع الکلام المالطی علی فساده. و مع کون هذه الجزیرة قریبة جدّا من تونس و طرابلس فما بها أحد منهما سوی عابر طریق قال الشاعر:

و أصعب ما یلقی الفتی فی زمانه إذا حلّ نجم السعد فی برج نحسه

إقامته فی أرض من لا یودّه و صحبته مع غیر أبناء جنسه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶

فی فالتة قاعدة جزیرة مالطة

اشارة

هذه المدینة هی مقر الحاکم الإنکلیزی و أعجب ما فیها حصانة أسوارها و حسن مرسیها. أما الأسوار فربّما کان نصف أحدها من صخر و تمامه مبنی بناء.

و أما المرسی فقد مرّ ذکره، و الغالب علیها الرونق و البهجة حیث کان بناءها من الحجر کما مرّ، و طیقانها مزجّجة و لا سیّما إذا عرضتها من بعد، غیر أنها خالیة من المنایر و نحوها فهی بدونها کالهامة القرعاء.

وصف دورها

و أحسن ما یستحبّ من دیارها کونها مبنیة من الحجر علی صفّ مستو فلا تری فیها دارا خارجة عن الخط أصلا غیر أنها متفاوتة الارتفاع و لیست مرتّبة فی وضع الغرف و المساکن، فإن الدار الکبیرة تکون عبارة عن علیّة واسعة طویلة ثم صف حجرات متنافذة المدخل، فلا یمکن للإنسان أن ینفرد بواحدة منها دون الأخری.

فأما الدیار الصغیرة، و لا سیّما القدیمة، فهی خالیة عن الترتیب أصلا و منجورها یصبغ غالبا فی کل سنة، و حیطانها ملبّسة بالورق المنقوش کما فی بلاد أوروبا إلا أنّ طاقاتها لا تفی بالمراد، فإن بین الأهلین حقوقا فی المطالّ، فلا یمکن فتح الطیقان

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷

فی جمیع الحیطان، و ما عدا ذلک فإن لها رواشن خارجة من الحائط موضوعة بحیث تمنع النور و الهواء، و هی عالیة لا یمکن لمن یکون فی الحجر أن یری منها شیئا إلا إذا کان واقفا فیها أو جالسا علی کرسی و هی أشبه بما یسمّیه أهل الشام کشکا، و یقال إن وجود هذه الرواشن بمالطة هو أحد الأدلّة علی کونهم عربا إذ هی لا توجد فی بلاد الإفرنج إلا فی ما فتحته العرب منها، و ربّما کان فی الدار الواحدة ثلاثة رواشن، و قلّ أن تجد دارا ذات ثلاث طبقات صالحة للسکنی، و الأغلب اثنتان، و إن وجد فالثالثة إنّما تکون للوازم الدار. و قلّ أن تری فیها دارا مبلّطة بالرخام حتی إنّ قصر الحاکم لیس فیه و لا بلاطة منه، و إنّما المستعمل فی دیار کبرائهم البلاط المعروف، و لکن یدهنونه بالزیت مرارا بعد أن یکشط وجهه فیصیر له لون کالکهرباء، و کذلک قلّ أن تری فی الدیار التی تکری خزائن أو مخادع أو رفوف، و إنما یلزم شراء ذلک علی حدته و لیس فیها و لا فی غیرها فوارات و لا ساحات فسبحة کدیار دمشق و لا إسطبلات. و من کان عنده فرس ربطه فی الخارج، و أقل من ذلک الممارات فإنّهم یشترون مؤنتهم یوما فیوما بل ربّما إذا

ادّخروها فسدت کما تقدم، و یرون ذلک تخفیفا للکلفة فإن صاحب العیلة إذا ربی فی منزله الحیوان، و خزن المونة و اتّخذ الخبز کان له و لأهله شغل شاغل، و لعل سبب ذلک فی الأصل عدم انتقال الأسعار.

و مما یقبح ذکره هنا أن أکثر البیوت الصغیرة لیس فیها مراحیض؛ فیرفع أهلها أقذارهم فی وعاء، و یقذفون بها فی الطرق لیلا فیأتی الکنّاسون للطرق صباحا و یزیلونها. و قد کانت العادة من قبل أن المحبوسین لجرائرهم هم الذین ینظّفون الطرق بأن یخرج بهم شرطی و هم مقیّدون. و الظاهر أنّ المالطیین قبل مجیء الإنکلیز إلی جزیرتهم لم یکن عندهم مراحیض و إنّما کانوا یستغنون عنها بثقوب ینقبونها فی أسفل الدار، و کانوا غیر محتاجین إلیها أصلا کما قال الشاعر:

من یکن عیشه کعیشک هذا فلتکن داره بغیر کنیف

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸

من شروط الإیجار

و قلّ أن توجد دار بأثاثها و فرشها کما فی مدن الإفرنج و من شروط الإیجار أن یستأجر الإنسان الدار علی ثلاثة أشهر فما فوق ذلک و یعطی الأجرة سلفا، و قبل انقضاء المدّة بأیّام یؤذن المستأجر ربّها بأنه یرید أن ینتقل منها أو یجدد استئجارها، فإذا انقضت المدّة و لم ینتقل لزمه إعطاء الأجرة، غیر أنّه لا یسوّغ للمالک أن یرمی بأمتعة المستأجر أو یخرجه کرها، و إنّما علیه أن یضرب له أجلا و لو شهرا، و إذا عرضت دار للکراء کتب صاحبها ورقة تؤذن بذلک، و ألصقها ببابها إذ لیس عندهم شیخ حارة تتجمّع عنده المفاتیح کما فی مصر. و من استأجر دارا فلا بدّ و أن یدخلها مبیّضة مصبوغة المنجور، و صبغ الخشب عادة حمیدة فإنه أبهی للنظر و أبقی للخشب، و قد تظهر به الدار بهیة فی الخارج، و ربّما کان داخلها بخلاف ذلک، و هی عکس العادة عندنا، فإن خارج دیار مصر و الشام مظنّة للهمجیة مع أن داخلها منقوش مزخرف، و سبب ذلک أنّ الحکّام فی السابق کانت أیدیهم ممتدّة لأخذ أموال الناس فلم یکن أحد من الرعیّة یتظاهر بالغنی لا فی بناء و لا فی لباس. أما صبغ الزجاج فی مالطة فغیر مستعمل. ثم لیس علی عزب أراد أن یسکن بین المتزوجین من حرج، و لا- حرج علیه أیضا فی الصعود إلی سطحه، و لا- یطلب منه ضامن من حیث أدبه و حسن تصرفه و لکن من حیث کونه قادرا علی الأداء.

مرافق الدور

و للدیار آبار یجتمع فیها الماء من المطر، فإذا نفذ التمس صاحب الدار من ناظر الأقنیة فأمده بماء من عین جاریة، و سواء فی ذلک القریب و الغریب، و من لا- بئر له استسقی من العین المشاعة. و کثیرا ما تجعل المطابخ تحت الأرض، و لها خروق فی سطح الطریق لیدخل منها الضوء فتکون سقوفها مساویة لسطح الطریق و کذا هی مطابخ لندرة غالبا. و لا تخلو کلّ دار من فسحة صغیرة لقوارب الزهور و من هذه الزهور مالا رائحة له و لا وجود له فی بلادنا. و فی الدیار الکبیرة و لا سیّما التی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹

یتبوّؤها الإنکلیز أجراس صغیرة مدلاة بأسلاک حدید نافذة فی الغرف، و یتّصل بها شرائط من حریر، فإذا أراد المخدوم إحضار الخادم جبذ الشریطة فسمع الخدم صوت الجرس من کل جهات الدار، و هذا أوفق من التصفیق بالیدین و ربّما کتبوا علی صفحة الباب: اقرع الباب، أو أطنّ الجرس و کذا العادة فی بلاد الإنکلیز، و لکن لیس فی الأبواب هنا خروق لوضع المکاتیب کما فی دیار لندرة.

طرق المدینة

أما طریق المدینة فإن الماشی فیها أبدا یصعد و یهبط کحیزوم السفینة فی الأمواج غیر أنّ لها درجا یهوّن من صعبها و یمکن المشی علی حافّاتها تحت المطر، و لکل طریق حافّتان عن الیمین و الشمال لممر الناس، و مرور الخیل و العجلات فی الوسط، و قد کانت جمیعها سابقا مبلّطة، فکانت کرقعة العجلات علیها لا تطاق، فاقتلعت الإنکلیز بلاطها من الوسط و جعلوا بدله ترابا و حصی فقال أهل مالطة: إن الإنکلیز دأبهم أن یحربوا بلادهم کما حربوهم من قبل فی أخذهم مدافع النحاس و وضعهم مکانها أخری من حدید. و الحقّ یقال إن فرش الطرق بالتراب و الحصی یجعلها فی الصیف مثارا للنقع، و فی الشتاء مناقع للوحل. و إنما فعلت الإنکلیز ذلک مراعاة لرضی بعض الأعیان الذین لهم عواجل، فلنفع هؤلاء وحدهم أغمضوا عن نفع العامّة و هذا دأبهم من أنهم یراعون خاطر العلیة دون الجمهور، و الباقی من الحجر علی الحافتین متی تصبه الشمس فی الصیف یصر مسدرا.

هذا و لما کان أهل مالطة أحرص الناس علی ملابسهم و أحذیتهم کان خروجهم فی الطرق و لا سیّما فی الشتاء قلیلا فتبقی الطرق دائما نظیفة، فأما فی لندرة فإن النساء یخرجن صیفا و شتاء و یلبسن نحو قباقیب تقیهم من الوحل؛ فلهذا تکون طرقها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰

و سخة جدّا. و قد رأیت کثیرا من الإفرنج یعجبون بنظافة طرق مالطة و یفضّلونها علی کثیر من طرق المدن العظیمة بأوروبا غیر أن زوایا کل منها ممتلئة قذرا و نجاسة و منها ما لا یمکن لاثنین أن یمشیا فیه معا و فی کل زاویة فانوس مرکوز علی دعائم من حدید یوقد اللیل کلّه و مثل هذه الفوانیس لا یوجد فی لندرة و باریس إلا فی أضیق الطرق و أرداها و قد بلغنی بعد تحریر هذا الکتاب أن أنوار فالتة تستعمل الآن من الغاز.

ملاحظات و مآخذ

ثم لا یخفی أن الإفرنج دأبهم أن یشنعوا علی العرب و الترک أن بلادهم غیر نظیفة الطرق و لا مرتبة الأسواق، و قد ملأوا الکتب بذلک، و لم أر منهم من مدح مدینة ما إلا أنهم قد أفرطوا فی ذلک فإن أکثر هولاء یذهب إلی بلادنا مستوفزا و یرقد فی الخانات، فلا تمکن له مشاهدة ما فیها من الدیار الرحیبة و المنازه الفسیحة التیّرة، فیتأذّی ممّا عانی، و یحمل ذلک علی مناکب البلاد جزافا، و یغضّ النظر عن سیّئات بلاده. فإن حوانیت أهل الحرف و الصنائع فی فالتة و غیرها أیضا متفرّقة فی جمیع أطراف المدینة، فربّما کان دکان الحدّاد تحت دار قاض أو مطران، و لا تزال أصوات المطارق بالغة مسامعه، و کذا الزوانی، ففی کل طریق هنا تری منهن جملة حتی قدّام قصری الحاکم و المطران، و کثیرا ما یتّفق أن صاحب العیلة یستأجر دارا بجانب زانیة تکون إذ ذاک غائبة فلا یدری بها حتی إذا تبوأ محله أقبلت تجرّ ذیول عهرها، فمتی قدمت البحریة سمعت لهم و لهن ضجیجا منکرا، و لا تزال تسمع سفلة أهل البلد هنا یغنّون فی اللیالی و یزأطون و لا وازع لهم. فهل هذا یعدّ من الترتیب؟ أما أصوات الأجراس من الکنائس فبلیة کبری، و بالجملة فإنه قلّما یتهنأ الإنسان هنا فی سکنی دار.

ثم إنه لیس فی فالتة حمّام منظور یتطهّرون به من نجاستهم، فإذا اضطروا إلی کشط الوسخ عن أبدانهم استحمّوا فی البحر. نعم إنه یوجد محل أطلق علیه لفظ

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱

الحمّام و لکنّه لیس فی صفة الحمّامات التی فی بلاد المسلمین؛ إذ هو عبارة عن مغطس فقط من دون تکییس و لا تکبیس و لا عرق، علی أنه غال جدّا و نحوه حمّامات سائر بلاد الإفرنج من حیث الکیفیّة لا من حیث الغلاء. و المتنکلزون من المالطیین یقلّدون مواسیهم فی اتخاذهم مغاطس من قصدیر أو خشب فی دیارهم، و یدّعون أن ذلک أسلم للجسم و أنظف، و لعمری لیس السبب فی عدم الحمّامات هنا إلا رداءة الهواء، فإن من کان فی محل دفیء و خرج منه مقابلا للریح لا یأمن أن یمنی بداء.

و کنت قد ذکرت یوما لبعض الأطبّاء عاداتنا علی الحمام و تنغّصت لفقده، فقال لی: لو أن عندنا حمّامات لما کان من یستحم فیها. و

قوله هذا يحتمل معنيين فإما أن يكون قد أراد أن المالطيين لا يستعملون ذلك أو أن الحمّام يميت الناس حتى لا يعود أحد يدخله، و هذا دأب هولاء فی الاعتذار عمّا لا يوجد فی بلادهم فإنهم يقولون إنه غير نافع أو غير موافق كجواب آخر، و قد سألته عن وجود رفائين للجوخ و الشال الكشميری، فقال: نحن الإفرنج لا نعنی بمثل هذه الصنائع مع أنّهم أعظم الناس اقتصادا و توفيرا و أكبرهم هنا يرقع سراويله من دبر و يمشی كذلك من دون رداء يستر رقعته.

و ليس فی هذه المدينة كلّها مصطبة يقعد عليها، فلا يمكن للإنسان الجلوس إلا فی بيته أو فی محل قهوة، نعم إنه يوجد مصطبة عند قصر الحاكم و لكن لا يقعد عليها إلا الأوباش، فإن القعود عند الإنكليز على هذه الصفة عيب، و تابعهم المالطيون على هذا. و يقال: إنّه كان فی المدينة سابقا عدّة مصاطب فأزالها الإنكليز إلحاقا لها بلندرة.

فأمّا محال القهوة فی فالتة فإنها عبارة عن مخازن مظلمة ليس فيها شبّاك يطل على البحر أو على حديقة، و إذا أطلت الجلوس جاءك الساقی و مسح المائدة قدّامك إشارة إلى أنه ينتظر غيرك، أو كأنه يقول بلسان الحال لقد أبرمت بی فمتى تفارق.

و لا يمكن لأحد أن يقعد ناحية البحر ساعة واحدة لأنها جميعها قذرة، و لا يمكن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲

له فی المطالّ المرتفعة الكاشفة على البحر أن يأكل أو يشرب أو يدخّن احتراما لنساء الإنكليز و فی شواطی البحر حيث يعوم الناس مدّة خمسة أشهر لن ترى كنّا أو عرشا أو خيمة و إنما ينصب السابح حرّ وجهه للشمس فيحترق قبل طلوعه من الماء. و فی الحقيقة فإن الإنكليز جعلوا مالطة خالية عن المنازه و المثابات السارّة أصلا.

و من أعظم أسباب الحظ عند المالطيين الذهاب فی القوارب ليالی الصيف ليغتسلوا فی البحر، فتذهب الرجال و النساء معا و يقضون هزيعا من الليل بالسباحة و الغناء.

و القوارب فی مرسى فالتة كثيرة جدّا و كلّها مصبوغ ظريف و لكن ليس فيها مقاعد كقنج مصر، و لا زرابی أو زخرفة كقوارب الأستانة إلا أن هذه خطر على راكبها؛ فإنها لخفّتها تميد من أدنى شیء. و لقائل أن يقول إن المالطيين هم مثل الإنكليز فی كونهم لا يلاحظون فی لوازمهم سوى مجرد المصلحة بقطع النظر عن الترفه و الطلاوة، فإن متكآتهم و رواشينهم و كراسيهم و قواربهم و سروج خيلهم ليست مجعولة إلا لقضاء الحاجة فقط. و أغرب من ذلك حوانيتهم فإن التاجر لا يزال واقفا من الصباح إلى المساء و قلّ من كان عنده كرسی له أو للمشترى، و فی هذا الأخير خالفوا الإنكليز.

و يقولون للقارب «دعيصة» و كأنه تصغير دعصة الرمل، شبهوه بها لاستدارته و صغره، و هذا دأب العرب فی أنّهم يسمّون الأشياء الغريبة عنهم بما ألفوه فی بلادهم، فإن قلت إذا كان هذا دأب العرب فمن أين للمالطيين ذلك؟ قلت لا ينكر أحد أن اللغة المالطية هی عربية و أن المسلمين حين استولوا عليها (أی الجزيرة) كما مرّ هم الذين سمّوا هذه الأشياء و إنّما لم يقولوا قاربا مع كونها عربية فصيحة، لأن فی اللغة المالطية أشياء كثيرة عدل بها عن استعمالها الأصلی، و استعير لها اسماء مشابهة لها، أو مجاورة، فيقولون مثلا للقليل: «فتيت»، بسكون الفاء و كسر التاء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳

الأولى و سكون الياء و التاء لثانية)، و للكثير «وسق» (بكسر الواو و سكون السين و القاف)، و للحصان «زامل» بالإمالة و هو ما كأنه يظلع من الدواب لنشاطه، و للقرية «رحل» (بل حل بفتح الحاء و سكون اللام) و هو فی اللغة مسكن الرجل، و ما يستصحبه من الأثاث و غير ذلك.

وسائل الترفيه و التسلية

و من ذلك أی الحظ عندهم التماشی أمام قصر الحاكم حين يعزف بآلات الطرب العسكرية فيذهب إلى هناك جميع المتشبعين

المتکیسین فترنو الرجال إلی النساء و تـدلّ النساء علی الرجال و من ذلک الأعیاد الکنائسیة و هی کثیرة جـدّا، فإنّ لکلّ قـدّیس عیـدا مختصّا به فی زمن مخصوص و مکان معلوم، فیرحل إلیه عند اقترابه المتلهّون، و یقضون ما تیسّر لهم من اللذّات و سـماع الموسیقی و رؤیة لعب النار و ما أشبه ذلک و لا بدّ للأوباش فی هذه الأعیاد أن یسکروا و یفحشوا ما أمکن.

و من ذلک حلبة السباق و قد تکون فی الخیل و الحمیر و القوارب و السابق یفوز بالخطر. و من ذلک زحلوقة لهم یحضرها ألوف من الناس و هی أنّهم یربطون خشـبة طویلة کصاری المرکب إلی سفینة، و یدهنونها بما تزلّ عنه القدم، و ینصبون أمامها غرضا ثم یمشون إلیه علی تلک الخشبة، فمن زلّ عنها وقع فی البحر.

و من ذلک ثلاثة أیّام فی المرفع (أی الکرنیفال) و هی الأحد و الاثنین و الثلاثاء یلبس فیها الرجل کالمرأة و المرأة کالرجل و یتزیّنون بهیئات متنوّعـة و أشـکال مختلفـة، و یغطّون وجوههم بجلود علی هیئـة الوجه (أو الحیوان)، و یطوفون فی المدینة حیاری سـکاری، و یسـمّون هـذا التشـکّل مسـکرة و کأنه محرف عن المسـخرة، و لا یتحاشون فی هـذه المدّة شـیئا من الخلاعة و القصف و المنکرات. و یومئذ تغصّ الطرق بالناس و المواکب فإذا أصبح یوم الأربعاء ذهبوا إلی الکنائس و نثروا الرماد علی رؤوسهم إشعارا بالإنابة، و من ثم یقال لهذا الیوم أربعاء الرماد، و هذا الاسم باق عند الإنکلیز مع

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴

إلغاء هذه العادة عندهم، و معنی الکرنیفال رفع اللحم أی إزالته.

و ممّا جرت به العادة فی هـذه الأیام أن الحاکم یولم ولیمـة فاخرة و یـدعو إلیها وجوه أهل البلـد بتـذاکر یرسم فیها بقدومهم بملابس مسـخریة، فیلبّونه و یستأجرون هذه الثیاب من الحوانیت، فیقف لهم فی غرفة فی قصره، و کلّما قدمت علیه عیلة انحنت له، فاحتفل بها، فإذا انقضـی السـلام شـرعوا فی الرقص، و کلّما رقصت النساء قیلا أخذهن الرجال إلی المائدة لیأکلن أو یشربن ما شئن، ثم یعدن إلی الرقص حتی مطلع الفجر، فتتفرق الأصـحاب، و ربّما اتّخذ بعض جشعی المالطیین من تلک المائدة خبنة و هی ما یحمل من الطعام فی الکم، و کنت أذهب إلی تلـک الـدعوی بزیّ المـألوف، فیخـالوننی من السـاخرین، و کـانوا یسـألوننی: هـل فی بلادکم مثل ذلک؟ فأجیب مغالطا: إن لم یکن هذا فخیر منه. و لعمری قبیح بالرجل الفاضل أن یری راقصا کالولد.

مسرح فالتة

و من أعظم مواضع الحظ و اللـذات الملهی و هو المسـمّی عنـدهم بلفظة الثیاطر أو الثیاطرو، و لیس فی فالتة کلّها سوی ملهی واحد، و جلّ اللاعبین فیه من إیطالیا و لکن لیسوا من الطراز الأول، و سیأتی الکلام بالتفصیل علی ذلک، إن شاء الله تعالی، فإنی التزمت إیجاز الکلام علی هذه الأمور فی مالطة لیکون مناسبا لأحوالها إذ جمیع ما فیها إن هو إلا مختصر من بلدان أوروبا.

و الظاهر أن المسـلمین کـانوا یطلقون علی هـذا الموضع اسم الملهی، فقـد کتب عمرو بن العـاص إلی عمر بن الخطـاب مـا نصّه: إنی فتحت مدینـة المغرب و لا أقـدر أن أصف مـا فیها، غیر أن فیها أربعـة آلاف حمّام، و اثنی عشـر ألف بقّال، یبیعون البقل الأخضـر، و أربعة آلاف یهودی یؤدّون الجزیة، و أربعمائة ملهی. غیر أنّ هذا القدر کثیر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵

علی أیّ مدینـة کـانت، فإن بـاریس، و مـا أدراک مـا باریس، لا تحوی إلا ثلاثین ملهی، و یحتمل أن المراد بالملهی هنا کل موضع یکون للّهو، فیـدخل فیه موضع الحکایـات، و المشـی، و الاجتمـاع، و نحو ذلـک. و أمّـا قوله: بقّال. ففی القاموس فی ب ق ل و البقال لبیاع الأطعمة عامیة، و الصحیح البدّال و نحوه قوله فی ب د ل غیر أنّه فسّر القربق فی باب القاف بأنه دکّان البقال فلیحرر.

و من الغریب أن أحـد المشـعوذین الطلیانیین أبـدی فی ملهی فالتـة من التمثیل و التخییل أمورا غریبـة، ثم أراهم أیضا منشورا من البابا بالرخصة له فی هذه الحرفة فصدّقه کلّ من رآه، فهلا کان هذا المنشور أیضا من جملة شعوذاته.

کنائس فالتة

و من المبانی العظیمة فی هذه المدینة الکنائس، و هی حسنة البناء متقنة مزخرفة بالنقوش و الدمی و التماثیل و الصور مزیّنة بالأرجوان و الاستبرق و أدوات الفضّة و الذهب، و فیها عشرون کنیسة علی هذا النسق، و أعظمها کنیسة صان جوان، و هی مبلّطة کلّها بالرخام المنقش المصور علیه صور أعیان مالطة الأقدمین المدفونین فیها، و فی صدر الکنیسة تمثالان للمسیح و لصان جوان رافعا یده فوق رأسه (أی رأس المسیح) یعمّده، و هما من الحجر، یراهما الداخل من الباب أکبر من الرجل الجسیم، و بخارج الکنیسة صفحة ساعة یعلم منها الساعات و الأیام و الشهور و السنون و إذا هرب جرسها سمع صوته کل من فی المدینة فیضبطون ساعاتهم علیها، و فی هذه الکنائس من الذهب و الفضّة و التحف ما یغنی جمیع صعالیک مالطة، و لکل یوم من الأسبوع بدلة للقسّیس خصوصیة، و قس علی ذلک أیام الآحاد و الأعیاد و الأحوال الطارئة، کالزواج و المعمودیة و الموت، و فی الحقیقة فإن کثرة الکنائس الحسنة فی جزیرة مالطة علی نحسها لمما یعجب منه.

و فی کل قریة تری ثلاث کنائس، فأکثر و أوّل افتخار المالطیین إنّما هو بکثرة کنائسهم؛ إذ لیس عندهم شیء آخر یتباهی به، و التفاخر صفة قائمة فی النفوس.

و إذا سرت إلی قریة ما متنزّها فلا تکاد تصل إلا و تحدق بک جماعة لیروک

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶

کنائسهم. و جملة ما یصرف علی الکنائس و القسّیسین یبلغ ثلاثین ألف لیرة فی العام، و لا یعرفون ضرب الأجراس بالحبال کما یفعل الإنکلیز، و إنما یصعدون إلی قبّة الجرس و یحرّکون مطرقته بالید بما تنقبض منه النفس و یشمئزّ الطبع.

المدرسة الجامعة

و من ذلک مدرسة جامعة یعلم فیها الفنون و اللغات، و فیها کنت أعلم اللغة العربیة إلا أن المالطیین یتعلّمون کل شیء ما عدا لغتهم. و فی مدّة الصیف یعطّل المعلّمون نحو ثلاثة أشهر و أجرهم غیر ممنون، و عند انقضائها یعیّن یوم لاجتماع التلامذة و مشائخهم فی حجرة فی المدرسة، و فی الصدر مائدة علیها کتب، ثم یقوم أحد المشائخ و هو فی الغال صاحب المعانی و البیان، فیلقی علی الحاضرین خطبة، ثم تقرأ أسماء من نبغوا فی العلم من الطلبة و یعطون من تلک الکتب ما یلیق بهم. و ربما حضر الحاکم بنفسه لهذا، و لا بدّ من أن یعطی لکل معلّم دفتر یکتب فیه أسماء الطلبة و ما یحصّلونه من الفنون، و یشترط علیه أن لا یعلّم تعلیما مغایرا للدیانة الکاثولیکیة الرومانیة.

تعلیم و مکتبات و مطابع و مرافق أخری

و من الغریب أنّ أهل مالطة مع کون لغتهم فرعا عن العربیة فلیس منهم من یحسن قراءتها و التکلّم بها، و إذا شاء أحد أن یفتح مکتبا بمالطة تمتحنه علماء هذه المدرسة أوّلا فإذا رأوه أهلا لذلک أعطی رخصته من الدیوان فیه، و جملة ما یصرف علی هذه المدرسة و علی مکاتب أخری فی القری فی کل سنة نحو ثلاثة آلاف و ثلاثمائة لیرة.

و من ذلک دار کتب موقوفة باللغات الإفرنجیة فمن شاء أن یطالع کتابا منها ذهب إلی هناک و استوعبه، و إن کان من الوجوه یحضره إلی منزله. و عدّة ما فیها ثلاثة و ثلاثون ألف سفر، و لیس فیها من الکتب العربیة ما تحته طائل.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷

و فی المدینة أیضا عدّة حوانیت مشحونة بأصناف الکتب لیس فیها خرم و لا نقصان، و یمکن أن یقال إن الکتب بأوروبا أرخص ما

یکون لا جرم أن المولع عندهم بالعلوم مع سعة ذات الید لأسعد الناس، لأنه إذا شاء أن یتعلّم أیّ فن کان وجد له فیه شیخا، و لأن الکتب و الأدوات اللازمة لذلک الفن حاضرة عتیدة یجدها بأهون سعی، و لا یخشی فی الکتاب خرما کما ذکرنا و لا تحریفا، فکل کتبهم مصحّحة، و لأن المدارس الوقفیة تعلّم فیها العلوم مجانا أو یعطی فی مقابلة ذلک شیء زهید، فطالب العلم فی مالطة یعطی فی الشهر شلینین و نصفا، و طالب اللغة شلینا واحدا، و لعمری إنّ طالب العلم فی لغتنا لو لم یصدّه عن المطالعة إلا تعذّر وجود نسخة صحیحة لکفاه ذلک عذرا فضلا عن نصبه و حرمانه و خموله.

و فی فالتة سبع مطابع إحداها للمیری تطبع فیها الأوامر و النواهی التی تصدر من دیوان الحکم، و الباقی للأهلین، و فیها أیضا دار لصحف الأخبار الواردة من أوروبا، و داران للصرف توضع فیها الأموال، و منارة فیها فانوس کبیر لهدایة السفن، و عدة مکاتب للصبیان و البنات یعلم فیها القراءة و الکتابة و الحساب و التطریز و الخیاطة، و غیر ذلک. غیر أنّ الأولاد تغلب علیهم لغتهم و تمنعهم عن التکلّم بغیرها إذ کانت هی اللغة الغالبة، و إلی الآن لم یعلم من نساء مالطة من نبغت فی المعارف و التألیف، فغایة ما یتعلّمن إنّما هو أن یقرأن بعض کتب کنائسیة. و قد کان فی السابق دار معدّة لتلقی النغول، و تربیتهم، و قد بطلت الدار و بقیت عادة النغول و عادة التبنی من الیتامی. و فیها ثلاثة مستشفیات أحدها للعسکر و الثانی للرجال و الثالث للنساء. و من لم یکن لها مأوی تأوی إلی هذا المستشفی و تمکث فیه ما شاءت، و بخارجها أیضا أربعة أخری أحدها للمجانین، و أکثر جنون أهل مالطة یکون عن وساوس فی الدین، و قد رأیت فیه عجوزا تهذی و تقول: الیوم عید کما أمر بذلک القسیس، و الثانی للمرضی من العساکر البحریة، و الثالث للفقراء، و الرابع للطاعنین فی السن العاجزین عن تحصیل معاشهم المادین لوداع الدنیا یدا و المغمضین عن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۸

درزها و نعیمها عینا قد أصبحوا من هذه الحیاة علی شفا جرف هار یعتبر بهم اللبیب، و یتّعظ بهم المستهتر فی حب هذه الدنیا الغرور إذ تراهم کالأغرار من الأولاد قد انحنت منهم القدود لما استوی عندهم داعی الأجل، و أظلمت منهم الأبصار بعد أن أضاء فیهم صبح المشیب و انحلّت منهم القوی بعد أن غلّت منهم الأفکار و النهی، فثم یقضون ما بقی من ظمء حیاتهم بکان و صار.

معلومات إحصائیة

و فی فالتة عدّة فنادق للمسافرین بهیّة ذات حجرات مفروشة عتیدة أجرة کلّ منها فی الیوم نصف شلین فی الأقل. و فیها من الذکور أکثر من اثنی عشر ألفا و خمسمائة نفس، و من الإناث أکثر من أحد عشر ألفا و ثمانمائة و سبعین، جملة ذلک أربعة و عشرون ألفا و ثلاثمائة و سبعون نفسا. و من القناصل أربعة عشر، و من القسیسین نحو مائتین و خمسین، و سبعة أدیار للرهبان و الراهبات.

و جملة ما فی الجزیرة کلّها من الکنائس الکبار سبع و سبعون، و من الصغار مائتان و أربع و أربعون، و من الأدیار واحد و عشرون، و من الأطبّاء مائة و تسعة و عشرون، و من الدوائیة و العقاقیریة تسعة و أربعون، و من کتّاب الصکوک و العقود مائة و أربعون، و من أصحاب الموسیقی مائة و ثلاثة و ستّون، و من المعلّمین فی المکاتب مائة و اثنان و أربعون، و من المصوّرین مائة و ثلاثة و تسعون، و من المتوظفین فی خدمة المیری خمسمائة و واحد و ثلاثون، و من المرتب لهم عمریات و لا شغل لهم ثلاثمائة و ستّون، و من التجار ستّمائة و ستّة و ثلاثون، و من السماسرة مائة و اثنان و سبعون، و من اصحاب الحوانیت ألفان و ستمائة و أربعون، و من المزارعین ثلاثة آلاف و ثلاثمائة و ستّة و عشرون، و من الفلاحین ثمانیة آلاف و سبعمائة و ستّون، و من صاغة الفضّة و الذهب

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۹

مائتان و اثنان و ثلاثون، و من النجّارین ألف و مائتان و ثلاثة و ثمانون، و من الأساکفة ألفان و أربعمائة، و من الغزّالین و الغزّالات ثمانمائة و أربعون، و من النسّاجین و النسّاجات ثلاثة عشر ألفا و ستّون، و من الخیّاطین تسعمائة و اثنان و ثمانون، و من لفّافی ورق التبغ تسعمائة و ثلاثون، و من الخدّام ثلاثة آلاف و مائة و عشرون، و من أصحاب القوارب ستّمائة و اثنان و أربعون، و من الساعاتیّة

ستّة و عشرون، و من المتعلّمین فی المدرسة الجامعة و فی غیرها ثلاثة آلاف و ثمانمائة و ثلاثة و ثلاثون، و من الدیار الکبار إحدی و عشرون ألفا و مائتان و اثنتان و ستّون، و من البیوت الصغار ألفان و مائتان و واحد و سبعون، و من الحجرات علی حدتها ثمانیة آلاف و ثلاث و أربعون، و من الدکاکین ثلاثة آلاف و خمسمائة و عشرون، و من المخازن خمسمائة و ستّون، و من الشون للقمح خاصّة مائة و سبع و عشرون، و من الذین لا عمل لهم من الأعیان ستّة آلاف و مائتان و تسعة و ستّون، و من العامّة نحو أربعین ألفا، و جملة من یزید عمرهم علی الثمانین سنة سبعمائة و ثلاثة و سبعون، و جملة ما یولد فیها فی السنة أربعة آلاف و أربعمائة، و جملة أهل الجزیرة نحو مائة ألف نفس منهم أحد عشر ألفا و خمسون من الإنکلیز، و سبعمائة و سبعون من الغرباء.

کثیرون إن عدّوا قلیلون إن رجوا، فهم دون عدّ العشر إن تنو خیرا

و أقسم أنّی صرت للمال کارها لأن صار لی ام المالطیین مذکرا

و جملة ما یرد إلیها فی السنة من المسافرین ثمانیة آلاف و مائتان و ستّة عشر، و ما یصدر عنها تسعة آلاف و خمسمائة و ثلاثون.

سوق المأکول

و فی فالتة سوق تباع فیها سائر أصناف المأکول، فتجد فیها جمیع أنواع السمک و اللحم کالبقر و الضأن و العجل و الدجاج و الطیر، أمّا السمک فإنه لذیذ جدّا، و أمّا اللحم فأطیب أنواعه الخروف الصغیر یذبحونه و هو دون ثلاثة أشهر فیکون ألذ من لحم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۰

الطیر، و هذه الطرفة النفیسة لا وجود لها فی لندرة و لا فی باریس. أما الطیر فإنه قلیل جدّا و لا عیب علی من یشتری نصف دجاجة بل ربعها أو جناحیها أو رأسها بل مصارینها، کلّ ذلک من اقتصادهم، فإنهم أعظم الخلق خبرة به، و لا عیب أیضا علی من یذهب بنفسه و یشتری مؤنة یومه و إن یکن قاضیا بل النساء السیدات یفعلن ذلک أیضا، و متی اشترت شیئا تحمّله أحد الأولاد الذین مهنتهم الحمل، و هم کثیرون، و کذلک لا عیب علی من یشتری من البقول و الحلیب ما قیمته فلس واحد فقط.

و لیس فی المدینة حمیر فارهة للرکوب کحمیر مصر، و إنما یذهب الناس فی عواجل و هی لیست کعواجل الإفرنج و لیس لسائقها مقعد فیها، و إنّما یمشی بجانبها علی رجلیه الحافیتین، و متی رأی أصحابها أحدا مقبلا ازدحموا علیه و لا ازدحام حمّارة مصر.

أشهر الصنائع فی مالطة

و لیس فی مالطة کلّها مصانع للساعات أو الزجاج أو الأدوات الحربیة و الأقمشة و غیرها، فأشهر الصنائع عندهم النجارة و الخیاطة و السکافة و الحدادة و النساجة و الصیاغة، و أخص أعمال النجارین الکراسی و المتکآت و الموائد و الخزائن و الصنادیق و الأصونة و نحو ذلک، و قد یحسنون أیضا انشاء المراکب و عمل الحدادة مقصور علی سرر النوم، و ما یلزم للبناء و عمل الصیاغة من الذهب إنّما هو الشنوف و الخواتم و السلاسل و الأسورة و أشکال طیور و زهور، و الأبازیم و الإبر و نحوها. و من الفضة الملاعق و المغارف و أباریق القهوة و الشای و الأقداح و الأطباق و المسارج و أوعیة السکر و نحوه. فأما النساجة فلا تتعدّی شقق الفوط و أغطیة الفرش و قلوع المراکب، و من هذا الأخیر یبعث إلی بلاد المسلمین مقدار جزیل.

و لیس من أهل هذه الصنائع من یصل إلی درجة الإنکلیز و الفرنسیس فی الجودة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۱

و الإتقان إلا أعمال المالطیة وثیق متین فإذا اشتریت مثلا حذاء أو ثوبا مخیطا بقی مدّة لا یحتاج إلی تصلیح. أما عمل الإنکلیز منها فحسن فی الظاهر لکنّه لا یبقی علی الاستعمال، و عمل الفرنسیس ما بینهما. و من الرسوم الحسنة فی مالطة أنّه إذا أراد أحد شراء شیء من الفضّة و الذهب ذهب إلی قیم الصنعة و سأله عن قیمته، فیزنه و یکتب له تذکرة بذلک، فأمّا الجعل فموکول إلی التراضی، و

الغالب فی مشتری الجواهر أن یکون أنقص من التثمین.

ممّا یکره فی مالطة

و ممّا یکره بمالطة کثرة المتسولین و إلحاحهم بالسؤال حتی إنهم یقرعون الأبواب وقت الغداء و یجرون مع الماشی، و لا یبرحون مستجدین حتی یفوزوا بشیء و هم یرون أن حقّا علی الموسرین أن یواسوهم بأموالهم، و إذا أعطیت أحدهم مرّة فکأنّما قد دوّن ذلک علیک فی الدستور، فأینما یرک یلزمک. و أول کلامهم فی الاجتداء قولهم «عن روح مسیرک» أی أبیک أو «عن أرواح البورکاتوریو» أی المطهر، و کان بعضهم یقول لی «عن روح المحمد تیعک»، و التوسل فی باریس و لندرة ممنوع.

و مما یکره أیضا ما عدا طنطنة أجراس الکنائس المتتابعة أصوات الباعة الذین یطوفون فی الأسواق لبیع الفاکهة و البقول و السمک و الحلیب و الماء، فإن فغر أفواههم، و مطّ اصواتهم، و فظاعة لحنهم علی اختلاف معنییه لممّا یستعاذ منه. کیف لا و هم یقولون للتفاح: تفّیح، و للرمّان: رمّین، و للبطیخ: بتیح (بالحاء المهملة)، و للخیار «حیار» (بالحاء المهملة أیضا) و للإجاص «لنجاس» بکسر اللام و سکون النون، و للدلاع «دلیع» و للخبز «حبس» و للماء «للما» (بکسر الام الأولی و سکون الثانیة و قصر الألف) و للخوخ «حوح» (بالحائین المهملتین) و ما أشبه ذلک. فلا یمکن للعربی استماع ذلک و لا سیّما إذا کان فی الیوم مرارا من أشخاص ذوی شراسة و فظاظة.

و علی ذکر الخوخ یحسن هنا إیراد ما قاله بعض الأدباء و فی الناس من یبدل الخاء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۲

المعجمة حاء مهملة، فیقول فی خوخ حوح و فی خلخال حلحال و هی مستحسنة من الغلمان و الجواری، و کذلک إبدال السین ثاء و علیه قول الشاعر:

و أهیف کالهلال شکوت وجدی إلیه بحسنه و أطلت بثی

و قلت له: فدتک النفس منی تحز فی الثواب فقال بثّ

قلت هذه اللفظة ذکرها صاحب القاموس بالضم فقال «و بس بمعنی حسب» أو هو مسترذل و أهل مالطة یبدلون سینها زایا و یکسرون أوّلها، و أهل تونس و طرابلس لا یعرفونها و یستعملون بدلها لفظة «برکة» و هی قبیحة جدّا.

و قلت أنا فی ملیحة مالطیة:

بدت فی الثیاب السود و الوجه زاهر و ماست بقدّ یخجل الغصن الغضّا

لها منطق عذب علی قبح لحنه و فی حسن من تهواه عن لحنه إغضا

إلا أنّ هولاء الباعة لیسوا من هذا الطراز و لا جرم أنّ النطق یوثّر فی ذی الذوق السلیم أکثر من الحسن، و أنّه من خصوصیات الإنسان، و الحسن یوجد فی جمیع المخلوقات.

و لقائل أن یقول إن النظر إلی ذی جمال رائع بغتة یدهش له و یتاثر به أکثر من استماع متکلم بلیغ من أول وهلة، قلنا هذا علی اعتقاد الناطقیة فیه، فلو فرضنا أن الناظر یری جمیلا معتقدا أنه أخرس و قبیحا منطقیا لتأثر بالثانی دون الأول.

و أشذّ ما یکره فی هذه الجزیرة هو أن الأوباش و الأوغاد یتردّدون حیث تتردّد الخاصّة و ذوو الفضل، فقلّما رأیت مکانا خالیا منهم، إذا لقوا أحدا من الوجوه سلقوه بألسنتهم و لمزوه، فعلی الکریم أن یجتنب محضرهم و یتباعد عن مثابتهم. و أسوأ من ذلک أن القضاة یعتبرون هولاء الأنجاس عند التحاقّ و التخاصم اعتبار الخیرین من الناس، و هذا الذی جرّأهم علی التمادی فی القبائح، و هولاء الأراذل إذا شربوا قدحا واحدا من الخمر طافوا الأسواق و هم زائطون ضاجّون یظهرون بذلک طاقتهم علی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۳

الإنفاق. و فی لیالی الآحاد و الأعیاد تغصّ بهم المسالک فلا یطیق أحد سماع غنائهم و لغطهم.

هذا و کثیرا ما تری الملاحین و البحریین سکاری فی الأسواق حیاری، و إذا صرعتهم الخمر فی الطریق یمرّ الناس بهم، و لا یبالون و ربما سرق منهم و هم علی هذه الحالة ما بقی لهم من الحانة، أو جرّدوا عن ثیابهم و هم لا یشعرون، و ربّا تقاءی أحدهم ثم عاد إلی الشرب إلا أن منزلة السکاری من عسکر المدینة أجلّ من العسکر البحریة، فإن أولئک یجررون إلی مقامهم تجریرا و هولاء یغادرون صرعی عرضة للناهبین.

ممّا یحمد فی مالطة

و ممّا یحمد فی مالطة عدم العقارب و الحیّات و سائر الهوام المضرة، و إن وجدت فلا سمّ لها. و أهل مالطة یزعمون أن ذلک من کرامة ماربولس حین ألقی الثعبان من یده فی النار. و أخبرنی ثقة بأن الحیّات فی جزیرة کرید أیضا لا سمّ لها، و أهل إیطالیا یقولون: إن مار بولس أزال السمّ من أفواه الحیّات فانتقل إلی أفواه أهل مالطة، و زعم بعض من الإنکلیز أن ماربولس لم یمرّ بمالطة، و إنّما کان مروره بملطیة، إلا أنه یکثر عندهم البقّ و الذباب و هذا یوسخ کل شیء أبیض و العناکب تلقی لعابها بین کل شیئین، أمّا العثّة فإنّها لا تلحس الصوف لحسا کما یقول صاحب القاموس و إنّما تسترطه استراطا، و فی معنی العناکب قلت:

غدا بیتی کثیر الفرش لما تهلهل فیه نسج العنکبوت

فلا عجب إذا ما قلت یوما لکید الناس إنی ذو بیوت

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۴

فی عادات المالطیین و أحوالهم و أخلاقهم و أطوارهم

ملابسهم و حلیهم

عادة أهل مالطة المتشبّعین فی اللباس کعادة الإفرنج، إلا أن نساءهم یلبسن و شاحا من الحریر الأسود، و علی رؤوسهم غطاء منه أیضا من دون برنیطة، و أقبح شیء فی الصیف رؤیة هذه الثیاب السود، و قد یحاکی بعضهن نساء الإنکلیز فی الزی، و لکن متی ذهبن إلی الکنیسة لبسن زیهن الأصلی، توهّم أن اللون الأسود ألیق بالکنیسة و أولی بالقنوت، و هو کوهم الجهلة من نصاری الشام أن من یلبس سراویل فوق ثیابه لا یلیق به أن یتقدّم إلی محراب الکنیسة.

أما أهل القری فإن الرجال منهم یثقبون آذانهم و یتقرّطون بأقراط من الذهب، و یرخون سوالف مجعدة من أفوادهم إلی طلاهم، و هاتان صفتان من صفات الإناث، و یلبسون طرابیش مختلفة الألوان مسدلة علی أکتافهم و هی شبیهة بالأجربة، و یمشون حفاة و یتحزّمون بأحزمة، و منهم من یتختم بعدّة خواتم من ذهب و یجعل أزرار صدریته منه، أو من الفضة، و یحمل سترته علی کتفه و یمشی حافیا مشیة المفراح البطر، و إن الجزّار منهم أو الخمار، و نحوهما لیخرج فی الأعیاد و فی أصابعه عشرة خواتم من الذهب، و مثلها فی سلسلة ساعته، و فی صدریته أزرار کثیرة من الذهب، أو الفضة. أما النساء فإن من کان لها حذاء لا تلبسه إلا إذا جاءت المدینة، و هی معجبة به حتی إذا خرجت منها تأبطته.

و جمیع الأعیان فی مالطة یخرجون فی الصیف من دون أردیة تستر أدبارهم خلافا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۵

لعادة الإفرنج فی أوربا، و المتکیس الغیسانی منهم هو الذی یزنق سراویله علی فخذیه و إلیتیه حتی لا یعود یمکنه التقاط شیء من الأرض، فإذا صعد فی درج و نحوه استعمل الحیلة حتی لا تنقدّ من دبر، و أکثرهم یفخم فخذیه و مؤخره بحشو فی السراویل، و یستر

کل عظم ناتئ فی بدنه و یبدی ما ینبغی أن یستر فإذا مشی أحدهم علی هذه الصفة نظر إلی عطفیه کالزوزک و إلی سراویله و حذائه معجبا بما لدیه.

و للنساء زهو و عجب إذا مشین أکثر من زهو الرجال فتری المرأة تخطو کالعروس المزفوفة إلی بعلها و هی ممسکة بطرف الوشاح بالید الیسری، و بطرف غطاء رأسها بالیمنی، فتکون علی هذه الحالة أشغل من ذات النحیین، فمتی أوین إلی بیوتهن لبسن أخلق ما عندهن من الثیاب و سواء فی ذلک الفقراء و الأغنیاء و الرجال و النساء، و هذا هو أحد الأسباب التی حبّبت إلی المالطیین تجنّب المعاشرة و المخالطة، و ربّما عدّت المرأة التی تبقی فی منزلها بلباس حسن من المتبرّجات، و إذا زرت أحدهم فلا یستحی أن یقول مهلا فإن زوجتی تبدّل ثیابها لتحضر بین یدیک، و منهم من تبقی فی بیتها بغیر حذاء، ثم إذا خرجت فی یوم الأحد لبست جوارب من حریر و کفوفا منه و تبهرجت غایة ما یمکن، فإن المالطیین یتفخّلون فی الأعیاد کل التفخّل بخلاف الإنکلیز هنا فإنهم یبقون علی حالة واحدة. و فی الجملة فإنّ هم هؤلاء الناس کلّه مصروف فی التفاخر بالریاش و هو شأن حدیث النعمة.

و متی کانت إحدی نساء مالطة حاملا- مشت الخیلاء و رفعت بطنها لیراها کل من مرّ بها. و متی أبصرت ذا شوهة رسمت شکل الصلیب علی بطنها تعوّذا من سریان الشوهة الی الجنین، و إذا شمّت فی الطریق رائحة طبیخ و توحّمت علیه بعثت

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۶

تستهدی منه.

أمّا حلی النساء فالذهب غالبا للأغنیاء، و الفضّة للفقراء إلا أنه قلّ أن تری امرأة من دون حلی من ذهب، و أصناف الحلی الشنوف و یقولون لها مسالت. و فی لغة أهل الغرب مصالت. و الأسورة یلبسنها فوق الأکمام و الإبر و الخواتم و السلاسل و الساعات، و یندر جدّا تحلیهن بالجواهر النفیسة و إنّما تتحلّی بها الخواتین فی الرقص و الولائم و قد یجزی عنها الجزع، و فی الجملة فلیس لنساء مالطة و لا لنساء الإفرنج جمیعا کثیر من الحلی کما لنساء مصر و الشام، و إنّما إعجابهن مقصور علی نظافة الثیاب، و اتخاذها بحسب الزی، و کما أن لباس رجال الإفرنج لا یخلو من إخلال بالحیاء، کذلک کان لباس نسائهم أدعی إلی الحشمة و التصاون من لباس نسائنا.

فأمّا تغییر الزی عندهم فإنه نافع لأصحاب التجارة و مضرّ بعامّة الناس فإنه یقضی بمصاریف حدیثة غیر ضروریة، و منشأ هذا التغییر یکون فی باریس فتطبع صورته علی أوراق و ترسل إلی جمیع البلاد، و هذا دأب الناس من أنهم إذا رغبوا عن رذیلة أقبلوا علی غیرها، فإن الإفرنج لمّا رغبوا عن المزرکش و المرقّش من الثیاب و عدوّها من دأب الصبیان أولعوا بتغییر الشکل، هذا و لمّا کان لباس الإفرنج فی الشتاء لا- یتعدّی اللون الأسود من الجوخ و غیره، و فی الصیف لا یتعدّی الثیاب البیض، لم یکن لأسواقهم و مواسمهم بهجة، و لیس ما تسرّ رؤیته إلا- ملابس العسکر و بعض النساء، و لا شکّ أنّ حبّ الألوان الزاهیة طبیعی لأنّا نراه فی الأولاد، و هم یقولون إن المیل إلیه من طبع الهمج، و إنما میلهم إلی الألوان مقصور علی فرش دیارهم و أثاثها، و الحق یقال إن ملابس الإفرنج أوفق للعمل و أدعی إلی قلّة المصروف فإنها ما عدا کونها مزنقة و هو أصل فی الاقتصاد، فهی عاریة عن کلفة الرقم و الوشی، و ربّما کانت أدعی إلی النظافة أیضا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۷

من عادات الإنکلیز فی مالطة

و من عادة الإنکلیز هنا الإکثار من الثیاب البیض و الإقلال من الجوخ و نحوه، فإن الغنی منهم لا یکون له أکثر من ثلاث حبّات أو أربع، و لکن قد یکون له ستّون قمیصا و عشرون سروالا من الکتّان، و عشرون ملاءة للفرش، و قس علی ذلک. و قد رأیت کثیرا من الأعیان هنا لهم جبب قد تلبّد علی أزیاقها الوسخ و العرق لا سیّما أنّ منهم لمن یرخی شعر رأسه حتی یصل إلی قذاله، فتراه إذا نزع برنیطته تتطایر هبریته علی کتفیه، و مع ذلک فهم یحلقون شواربهم بدعوی النظافة، و من الإنکلیز من یلبس کلّ یوم قمیصا و یحلق فی

کلّ صباح، و ربّما فعل ذلک فی النهار مرّتین و ذلک مطرد سواء کانوا فی البر أو البحر، و منهم من یجعل صدر القمیص أو طوقه و أطراف کمیه منفصلة عنه، فیغیّرها فی کل یوم، و ممّا یحمد عند الإفرنج استعمال النشا فی الثیاب البیض حین تغسل فإنها تأتی بها جدیدة.

و الغسّالات فی مالطة لا یغسلن إلا بالماء البارد؛ فإن وضع الید فی الماء السخن و مقابلة الریح بعده یعقب ضررا. و صابونهم أحسن من صابون فرنسا، و دونهما صابون الإنکلیز. و عندی أن أحسن صابون فی بلاد أوروبا هو صابون قسطیلیة فی إسبانیا، و الظاهر أنه من صنعة العرب فإن أهل تونس لا یزالون یصنعون شیئا منه علی لونه و هیئته و لکن شتّان ما بینهما. و أجرة غسل القمیص بمالطة صلدی واحد، و فی باریس ثلاثة، و فی لندرة أربعة أو خمسة.

عادة المالطیین فی الأکل

أمّا عادة المالطیین فی الأکل، فللموسرین الشوربة فی الغداء و اللحم و الخضر و الخمر، و فی العشاء السمک و السلطة. و أفخر شیء عندهم لحم الخنزیر إلا أنّهم لا یکثرون منه و من غیره کما یکثرون من أکل الخبز بخلاف عادة الإنکلیز، أمّا الفقراء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۸

فإن أحدهم لیأکل رطلا- من الخبز من أرطالهم بخمس حبّات من الزیتون أو بقطعة من الجبن أو بصحناة و الرطل المالطی هو نحو رطلین من أرطال مصر، و ثمنه نحو قرش، و لهذا کان المالطیّون جمیعا کثیری اللهه بذکر الخبز، فإذا زارک أحد مثلا و سألته عن أهله، قال لک: کلّهم طیبون یأکلون الخبز. أو کأن یقول الطبیب هو من یأکل الخبز. و إذا أردت أن تشتری شیئا من أحد التجار، و لم توفه ثمنه، قال لک: أنا قائم بمؤنة عیلة تأکل الخبز. و إذا رأیت أحدا یأکل بعیدا عنک رفع إلیک ما فی یده، و قال: «اک یعجبک» أی إن یک یعجبک، و إن کان یعلم أن اقترابک منه محال. ثم لا یخفی أن خبز الإفرنج یکون کبیرا جاهضا یقطعونه بالسکین، و الحکمة فی ذلک الاقتصاد، فإن الآکل إذا قطع منه شیئا و أبقی منه ما أبقی فلا یکون الحرص علی الباقی عیبا، و ربّما جیء بالفضلة منه إلی المائدة مرّات بخلاف عادة الشرقیین، فإن الرغیف إذا قطع منه شیء فلا یؤتی به إلی السفرة و هو ناقص؛ فذلک یعد لؤما و بخلا- غیر أن جعل الرغیف کبیرا یوجب عدم نضج لبّه، فخبز أهل مالطة یکاد لبّه و هو الجزء الأکبر منه ینعصر؛ فلا یمکن أکله إلا بعد یوم و هو أردأ خبز فی بلاد الإفرنج فإنه ما عدا کونه معجونا بالأرجل حامض و غیر مرئ غیر أنه فیما أظن لیس مخلوطا بأجزاء کثیرة کخبز الإنکلیز، و عندهم نوع من الخبز مستدیر مثل خبزنا یسمّونه الفطایر، و یأکلونه علی نوع التفکّه، و قد سألت عن سبب قلّته و عدم بیعه فی جمیع الحوانیت، فقالوا: إنه موجب لزیادة المصروف لطیبته. و هم إذا جاعوا أکلوا منه ما یکسر الجوع فقط.

و عامة المالطیین یطبخون الدم و یستبقون إلی أکله، و کنّا إذا أردنا أن نذبح دجاجة أخذ الذابح دمها و هو لنا من الشاکرین، و هم و جمیع الإفرنج یأکلون السلاحف البحریة و حیوانات أخر ممّا نتقزّز نحن منه.

و قد بلغنی أنّ من المالطیین من إذا فجع بشیء فجاءه أکل فأرا أو ضفدعا لإزالة الدهشة، و کیف کان فإن أخسّ الفلاحین بمالطة یعرف من أنواع الطبیخ ما لا یعرفه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۶۹

أکبر تاجر فی بلاد الإنکلیز؛ فإنّهم یطبخون اللحم مع جمیع البقول الغالب أن الإفرنج لا نظافة لهم فی الطبخ من حیث کانت خدّاماتهم أبدا مکشوفات الرؤوس فیتناثر شعرهن فی الطبیخ، و لأنهم قلیلا ما یبیّضون آنیة الطبخ حتی إن هذه الصنعة فی مالطة تکاد أن تعد من المفقود، و أکثر آنیة الطبخ عند الإنکلیز من الحدید و هو أسلم عاقبة، و أهل مالطة مثل غیرهم من الإفرنج فی کونهم یأکلون المخنوق، و زادوا علیهم فی أکلهم المیتة من الدجاج و نحوها. و إذا دعوت أحدا منهم إلی مأدبة لم یکن منه فی خلال التهامه ما بین یدیه إلا الثناء علی نفسه بأنه قلیل الأکل و علی ذلک قولی:

لئام إذا ما زرتهم فی بیوتهم کرام إذا زاروک ما أمکن اللحس

و لو وسعت أفواههم غیر ما بها لکان لکلّ بین أنیابه فأس

و قلت أیضا:

لجاری ثغر للهم القری و ذمّ الوری منتهی حدّه

فلا شیء أسهل من فتحه و لا شیء أصعب من سدّه

و کلّهم یأکلون الثوم و البصل نیئا فلا تزال رائحة أفواههم منتشرة.

مراقدهم و مجالسهم

أمّا مراقدهم فإنّهم یرقدون غالبا علی سرر من حدید و المتنکلزون منهم یتّخذون فی الصیف سررا منه، و فی الشتاء من الخشب، و فرشهم متعدّدة و ثیرة، و قد سمعت أن غیر الأغنیاء یتّخذون فرشا عالیة و لکن لا یرقدون علیها و إنّما ینضّدونها للمفاخرة و المباهاة، و الأطبّاء هنا یقولون إنّ الرقود علی فرش القطن مضعف للجسم، و إنّ حبل اللیف أو التبن إذا نفش کان خیرا منه، و فرش الأغنیاء من الصوف.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۰

و عامّة المالطیین یجعلون أقذارهم فی وعاء تحت السریر فلا طاقة لأحد علی أن یدخل مراقدهم فی الصباح، و لا بدّ من أن یرقد الرجل مع زوجته و إن تقادم علیهما الزواج و هرما فیه و أروحا. فأمّا الأوباش و السفلة فتراهم راقدین فی الهاجرة علی حافّات الطرق کبّا علی وجوههم. و قد جاء فی الحدیث: «نوم الشیاطین علی وجوههم». و إذا زرت موسرا منهم بادر إلی أن یریک ما عنده من الفرش و الأثاث، و قبل کل شیء یریک فراشه. و لم تجر العادة عندهم أن یتّخذوا فرشا للزائرین کما فی بلادنا. و ممّا حرم منه أهل مالطة من أسباب الترفّه و الاستراضة الاستواء علی الأرائک و الزرابی الوثیرة، فلا یقعدون إلا علی الکراسی، نعم إنّهم یتّخذون متکآت من خشب و لکن من دون نمرقة علیها و لا حشیة، و ناهیک بمن یقعد یومه کلّه علی کرسی خارج منزله، أو یظلّ واقفا کالتجار، ثم یأتی منزله لیقعد علی کرسی، فکأنّما لسان حالهم یقول ما قال أبو نواس: «و داونی بالتی کانت هی الداء» أو ما قال الأعشی:

و کاس شربت علی لذة و أخری تداویت منها بها

أو ما قال ابن درید فی مقصوته:

حینا هی الداء و أحیانا بها من دائها إذا یهیج یشتفی

أو ما قاله البحتری:

تداویت من لیلی بلیلی فی الهوی کما یتداوی شارب الخمر بالخمر

فائدة یحسن استطرادها هنا و هی: إن مداواة الشیء بنظیره لا- بنقیضه لیس من مخترعات أطباء النمسا کما شاع، فقد ذکر العلامة الدمیری فی کتاب «حیاة الحیوان» عند ذکر النحل ما نصّه: «روی البخاری و مسلم و الترمذی عن أبی سعید

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۱

الخدری رضی الله عنهم، قال: جاء رجل إلی النبی صلّی الله علیه و سلّم، فقال: إنّ أخی استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلا. فسقاه، ثم جاء فقال: یا رسول الله، إنی سقیته عسلا فلم یزده إلا استطلاقا. فقال علیه السلام: اسقه عسلا. ثم جاء الثانیة و الثالثة و الرابعة، فقال علیه السلام: اسقه عسلا. فقال: لقد سقیته فلم یزده إلا استطلاقا. فقال صلّی الله علیه و سلم: اسقه عسلا صدق الله و کذب بطن أخیک. فسقاه فبرئ». قال الدمیری: «اعلم إنه قد اجتمعت الأطباء فی مثل هذا العلاج علی أن تترک الطبیعة و فعلها، فإن احتاجت إلی معین علی الإسهال أعینت ما دامت القوة باقیة، و أما حبسها فضرر عندهم و استعجال مرض».

عادتهم فی الزواج

أما عاداتهم فی الزواج فهو أن یعاشر الرجل المرأة قبل أن یتزوجها مدّة طویلة، و ربّما أقام علی ذلک ثلاث سنین فأکثر، و عندی إن الزواج من دون مشاهدة البنت و معرفة أحوالها من أضرّ ما یکون و لا سیّما عند النصاری لعدم إباحة الطلاق عندهم، غیر أن طول العشرة أیضا لا خیر فیه لأن البنت لا تزال مع خطیبها علی أحسن الأخلاق حتی إذا تزوّجت و عرفت أن لا فراق تخلّقت بالأخلاق التی تعجبها، و لا یخفی أن النساء فی بلاد الإفرنج هنّ اللواتی یمهرن الرجال، فالأغنیاء من المالطیین یعطون الزوج نحو مائتی لیرة، و الذین هم من الوسط یؤثّثون له منزله من فرش و کراسی و موائد و آلات الطبخ، و ینقدونه شیئا من الدراهم، و الفلاحون یعطونه دجاجا و بیضا و نحو ذلک، و علی الزوج أن یهادی حماه بأحذیه.

و عندی إن لکل من الغربیین الذین یمهرون الزوج و من الشرقیین الذین یمهرون المرأة وجها، و ذلک أنّ الشرقیین ینهمون علی الزواج و هم غیر محنّکین و لا مادة لهم، فیحتاج أبو البنت إلی أن یأخذ من الزوج مهرا ثقة بأنّه قادر علی القیام بما تعرض له، و لأنّ الرجال هم قوّامون علی النساء. أمّا الإفرنج فلأن رجالهم غالبا یتحاشون الزواج لما یعقبه من التکالیف الشّاقة لأنّ مونتهم غالیة و نساءهم متشبّهات بالرجال أخلاقا و لاستغنائهم عنه بکثرة المؤجرات، فوجب علی المرأة فی هذه الحال أن تساعد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۲

الرجل.

و أهل مالطة أشدّ الخلق تهافتا علی الزواج، فإنّ الرجل منهم لیتزوج و کسبه فی الیوم قرشان (أی نصف ریال و تسعة نواصر) و هما لا یشبعانه خبزا و إداما و إنّما یثق بأنّ زوجته تساعده علی الشغل و تکسب مثله. و آفة نسائهم حسن الخلق دون حسن الخلق فإنّ المرأة تجری وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب، فلا یهمها کون الرجل فقیرا أو جاهلا أو شریرا غیر أن النساء هنا لا یحترمن أزواجهن، فکثیرا ما تعارض المرأة زوجها و تخطّئه و تسفهه بحضرة الناس، و کلّهنّ إذا تکلّمن یرفعن أصواتهنّ إلی حدّ یبقی الغریب عنده مبهوتا.

و کانت عادتهن فی القدیم أن لا یتبرجن للشبان و لا یخطرن فی الطرق، و لا یتعلّمن القراءة و الکتابة، و متی خطبن احتجبن عن الأخطاب، و ربما کان الرجل یخطب بنتا بواسطة أمّه و أخته من دون أن یراها، أمّا الآن فقد تخلّقن بأخلاق نساء الإنکلیز فی مخالطة الرجال و مماشاتهم و الذهاب معهم إلی المراقص و الملاهی، و کثیرا ما تهرب البنت من حجر والدیها و تمکث مع من تهوی، و کثیر من النساء الغنیات الطاعنات فی السن یتزوجن الفتیان البطّالین فیمکث الرجل مع زوجته طاعما کاسیا. و الذی علیه حکمة النساء هنا إیثار الأقارب علی الزوج فإنّهن یقلن: إنّ الزوج إذا مات یعوّض بمثله و لا کذلک الأقارب، و هنّ کنساء الإنکلیز فی أنّهن لا یتزوجن إلا من کان فی سنّهن إلا إنّهن یخالفنهن فی کونهن یتزوجن علی صغر، و إذا مشی الرجل مع زوجته مشیا محاذیین لا متماسکین بالأذرع کالإفرنج إذ لا بدّ للمرأة أن تمسک ثیابها کما ذکرنا آنفا.

و کثیرا ما یخرج الرجال وحدهم و یغادرون نساءهم فی البیوت. و أکثر أهل الحانات بمالطة متزوج، و اللبیب منهم من یتزوج حسناء لتسقی الشّرب و تنادمهم، فیجتمع عندها من العساکر البحریة و البریة زمر شتی.

التسرّی و البغاء

و الفجّار من أهل مالطة الذین دابهم کسب المال بأی وجه کان یتظاهرون بأنّهم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۳

طالبون للإحصان حتی إذا حصلوا علی المهر فرّوا به إلی البلاد البعیدة، ثم المتعه أو التسرّی أمر مستفیض عند جمیع أهل مالطة، و قد

تترک المرأة المتزوّجة بعلها و تهوی فی إثر من تهوی، و کذا الرجال. و أعرف کثیرا من العیال قد فارق منهم الزوج زوجته و أقام مع أخری و أقامت هی مع آخر، و تسرّی أبوه بنساء و أقامت بناته مع رجال أو صرن بغایا، و البغایا فی هذه الجزیرة لسن ذوات ثروة و لا جمال رائع الا ما نـدر، فلا تجـد لإحداهن دارا علی حدتها أو خادما لکنهن فی الغالب غیر وقحات و لا متهافتات علی الرجال، بل هنّ لعمری أصون لسانـا من المتزوّجـات و أکثر ماء وجه، إذ لا یحـدّقن فی الرّجال کالمتزوّجات و لا ینتقـدن السـحنة و الزی و لا یتشـبثن مثلهن بالنمیمـة و یتردّدن علی الکنائس کثیرا، و لیس منهنّ من تریـد أن تموت فی الـذنوب کما هی عبارتهن، و حین یأتین الفاحشـة یغطین وجوه صور القدیسین التی فی حجرهن أو یقلبنها تأدّبا و تورّعا، و فی الجملـة فإن أهل مالطـة جمیعا رجالا و نساء یغلب علیهم الشبق و السفاح.

آداب الجنازة فی مالطة

أمّـا عـادتهم فی آداب الجنـازة فکعـادة الإفرنـج فی أنهم لاـ یقیمون المـآتم علی المیت، فلاـ تعرف أن أحـدا من الأهلین مات إلا من صحف الأخبـار، و هی عادة حمیـدة، فإنّ العویل و النحیب فضـلا عن کونهما لا یحییان مائتا و لا یردّان فائتا أو کما قال الشاعر: «و لم یرجع الموتی حنین المآتم» یلقیان الهمّ و الرعب فی قلوب السامعین، و إنّما یلبسون الحـداد علی المیّت مدّة طویلة، و یدفنونه بعد أربع و عشـرین ساعة، و ربّما أرسـلت الجیران إلی أهل المیّت و ضـیمة کما فی برّ الشام. أما علیّة الإنکلیز فلا یدفنون المیّت إلا بعد أسـبوع فی الأقل کما فی بلادهم، و إذا مات لحد المالطیین طفل صـغیر أقبلت علیه الأصـحاب تهنّئه قائلین: «نفرح لک بالجنة» و متی ولد لهم ولد وضعوا تحته التبن لیکون سقوطه علیه تشبیها بالمسیح، و إذا مات أحد من ضبّاط

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۴

العساکر شیّعت جنازته، و آلات الموسـیقی معزوف بها وراءها، و الجنـد مصاحبـة لها، فإذا فرغوا من دفنها أطلقوا البنادق دفعة واحدة إشارة إلی أنّه مات بعزّ دولته و سلطانه.

خلقهم و أخلاقهم و شیء من عاداتهم

أمّا خلق المالطیین فالغالب علیهم السـمرة و الربعیـة فی القوام و سواد الشـعر و العیون و غلظ الحواجب و شـدّة البنیـة، و هم فی الغالب أجمل من النساء، و کثیر من النساء هنا لهنّ شوارب أو عوارض أو عنافق و منهنّ من تحلقها، و من الإفرنج من یسـتحبّ ذلک فیهن. و قد أسلفت لک زهوهن و عجبهن بما یتحلّین به من اللباس و الحلی.

أمّا أخلاقهم فالغالب علی أعیانهم لین الجانب و البشاشة، فإذا سألت أحدا منهم علی شـیء أجابک و هو باشّ بک مسـتأنس إلیک. و من طبعهم جمیعا الکدح، و التدبیر، و الاقتصاد فلا یتحمّلون ضنک العیش محافظة علی عادات قدیمة ضارّة.

و لا یتجشّم أحـدهم اسـتخدام نفر اظهر لشأنه و رفعته، و لا النفقات الزائدة فی الأعیاد و الزواج، و لا تتقلّد نساء الأغنیاء منهم قلائد من الماس و غیره، و إن الماجـد منهم یزور صاحبه بـدون احتفال، و الغنی یـذهب إلی السوق صـباحا و یشتری مونـة یومه، و إن الماجـدة تزور صاحبتها و لا تلهی إحداهما عن الشغل، و ذلک بأن تأخذ معها شیئا تشتغل به، و هی التی تقوم بتدبیر البیت، فلا تکل أموره إلی الخادمـة، و أکبرهم من عنـده خادم و خادمة. و قد شاهدت رئیس أطبّاء المستشـفی غیر مرّة ینصب الحبال علی سـطحه، و ینشـر علیها الثیاب المغسولـة قطعـة قطعة، و متی نشـفت الثیاب حلّوا الحبال و وضـعوها فی محل مصون، و رأیت أیضا بعض القناصل ینصب رایته بیـده، و الفقراء منهم لا یوقـدون سـراجا فی اللیالی المقمرة، و أکثر الرجال یسـلمون مصـروفهم بید نسائهم حتی إنّهم یحتاجون بعدها إلی أن یطلبوا منهنّ ثمن التبغ

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۵

و نحوه، و جمیع نسائهم مقتصدات و نشیطات إلی العمل و قلّ منهن من تتعاطی التجارة.

و من طبعهم جملة و تفصیلا الفضول و التلهّی بالإسفاف من القول و العمل، فإذا أکبّ أحد مثلا لالتقاط شیء من الأرض ازدحمت علیه زمر، و لا یزال أحدهم یجری من جهة، و آخر من أخری حتی تغصّ بهم الطریق، و لا یبرحون ذاکرین للشیء یحدث أیاما حتی یجد غیره. و متی جری أمر عرفت أصله و مبدأه و غایته من الجائین و الذاهبین، و لا بدّ لکلّ من طغامهم أن یقص قبل رقوده کلّ ما جری له أثناء النهار، و ربّما أخبر به غیر مرّة و زوّر و رقّش حتی یخال نفسه بعد ذلک صادقا، و أن یتطلّع و هو سائر فی الطریق علی کل من یمرّ به، فتراه کأنّما یسلّم علی الناس ذات الیمین و ذات الشمال.

و کثیر منهم دأبهم الحضور فی المحکمة لاستماع الدعاوی، فإذا خرجوا بثّوها فی کلّ موضع. و لا یمکن أن ینقلوا حدیثا إلا و یزیدون فیه، فإذا ألمّ بعین إنسان قذی، قال: إنّه عمی. و یبدهون الرجل بأن یقولوا له: قد رأینا زوجتک تنظر من الشبّاک أو تحدّث فلانا أو فلانة. و یقولون للمرأة فی حقّ زوجها مثل ذلک. و إذا اشتریت من أحدهم شیئا یخبر أهلک به، و متی رأوا غریبا نظروا إلیه متفرّسین، و تنصّتوا لاستماع کلامه لیعرفوا بأی لغة یتکلّم، و یصفون حاله فی وجهه بأن یقول أحدهم للأخر:

«هذا الرجل من بلد کذا، و قد أطال المکث هنا، و لعلّه لا یمکث بعد، فإنّه کان أولا سلیما، و کأنّه الآن مریض» فیقول الآخر: «و إلی أین یذهب أعساه یجد بلدا خیرا من بلدنا و قد صار مقصد الواردین و الصادرین». و ربّما دعت إحدی النساء صواحبها لرؤیته و هی تلکزهن و تومئ إلیه. و لا تکاد تخاطب أحدا فی الطریق إلا و تری زمرة قد أحدقت بک، و لا یکاد أحد یأتی أمرا إلا و تتناقله الرواة، و یسیئون الظن فی متزوّج عاشر عزبا أو فی عزب دخل دار متزوّج. و لا غرو فإن هذا شأن من لا یری فی بلده شیئا یشغل الخاطر من الأمور الخطیرة و یکون محصورا فی صخرة قرعاء راسبة فی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۶

البحر، فإن حصر الفطن یکون من حصر العطن. و من طبعهم التکشّف و بث ما هم فیه من الأحوال و الاستقصاء عن حال المخاطب، فاذا صحبت منهم أحدا لا یلبث أن یطلعک علی کمیّة دخله و خرجه، و کیفیّة عمله، و یقول: لیت لی مال فأتنعّم به، و لو کنت من المثرین لأکلت أطایب المأکول و لبست أفخر الملبوس فیا سعد من عاش عیش المترفّهین، فأخبرنی أنت: ما دخلک؟ و کیف عیشک؟ و من أین تشتری ثیابک و حاجتک؟ و من یزورک؟ و هلم جرّا. فأمّا حبّهم لکسب المال فهو بحیث لم یغادر لشیء سواه قیمة. و منهم من یسافر إلی البلاد الشاسعة و یعرّض نفسه للامتهان و الابتذال، حتی إذا أحرز المال رجع إلی وطنه متبذّخا متشبّعا، یمرح فی الأسواق مرح من ازدهته النعمة و أبطره الحظ. و لا شیء یعجبهم فی الدنیا مثل بلادهم، و لا تزال تسمعهم یتبجّحون بها و بأحوالها، و إذا سألت أحدا منهم عنها أجابک بلسان ذلق عمّا کانت علیه من الغبطة و السعادة، و آلت إلیه من سوء الحظ.

و هم فی محبّتها کالیهود فی محبّة صهیون، و من الغریب مع هذا التفاخر أنک إذا ذکرت لأحدهم أفراد قومه لم تلق راضیا عن أحد منهم؛ فأول نعت ینعته به قوله:

هو أبله، أو هو شحیح، فکأن قوله: «نحن المالطیین شأننا کذا» یرید به وحدة نفسه.

أمّا مفاخرتهم بالألقاب فأکسی لهم من اللباس، قلّ أن تری أحدا منهم ممّن یقرأ و یکتب إلا و له لقب طبیب، أو فقیه، أو بارون، أو مرکیز، أو دکطر علی أنّهم لا یملکون به مسکة من العیش. و من طبعهم التعقّب للزّلات و التعنّت و الاغتیاب، فیتعقّبون الناس فی مشیتهم و لبستهم و لهجتهم و سحنتهم، فلا یکاد یعجبهم شیء.

و ما من خصلة حمیدة إلا و یجعلونها قبیحة، فإذا کان الإنسان کریما قالوا: إنّه مبذّر، و إن کان مقتصدا قالوا: إنّه شحیح. و لا یبرحون مبربرین علی الإنکلیز و متظلّمین منهم، و یدّعون بأنّهم من بعد قدومهم إلی جزیرتهم ضاقت علیهم مذاهب المعیشة، و غلت الأسعار حتی اضطروا إلی أن یهاجروا من بلادهم التی یصفونها بأنّها حنینة،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۷

مع أن لدولة الإنكليز فی هذه الجزيرة عدّة سفائن حربية نفقة كلّ منها فی اليوم نحو مائتی ليرة، و ترى عساكرها لا يبرحون يخرجون من حانة و يدخلون أخرى حتى ينفقوا آخر فلس معهم، حتى صار معلوما عند الجميع أن الأسار إنّما تغلوا بوجود هذه السفن، ثم إذا سافرت أخذ الذين ألفوا البيع لها فی الدمدمة و التسخط من كساد ما عندهم، فإن الأهلين كلّهم لا ينفقون ما تنفق سفينة واحدة منها.

هذا و إن الإنكليز قد أنشؤوا فيها جملة مصالح و معالم لم تكن للمالطيين فی حسبان، فقد كان بعض أصحابی بالإسكندرية كلّفنی بأن أسأل ناظر الديوان عن تركة والده، و قد توفی بمالطة، و هل كان تحت حماية الإنكليز أو لا، فلمّا سألته أجابنی بعد البحث بأن ديوان مالطة قبل قدوم الإنكليز لم يكن له دفاتر مصحّحة يرجع إليها، و إنما كانت عبارة عن أوراق يوميّة غير منظومة، على أن المالطيين أنفسهم يقرّون بأن حكّامهم فی القديم كانوا ينالون من عرضهم لأنهم كانوا قد حرّموا الزواج على أنفسهم، حتى إنّه تجمّع فی دار معدّة للنغول نحو ألف ولد يزنّ فی كونهم أولادهم، فكانوا يقولون فيهم: إنّهم عل قسيسين يورّون بذلك أن الحكّام المتشبّهين بالقسيسين يكفلونهم لكونهم آباءهم، أو أن الاولاد يصيرون قسيسين، و لكن دأب أهل الجهالة أن يستطيبوا الماضی على الحاضر، و يطمعوا فی أن الآتی يكون خيرا منهما. و من ذلك كراهيتهم للغرباء و لا سيّما العرب، و لن يقدر أحد أن يستخلص منهم عشيرا، و ما يكون له بين ظهرانيهم صديق إلا إذا كان يربّی جرو كلب.

و لعمرى لو أن مالطيا افترى على غريب و خاصمه لتألّبوا على الغريب من كل أوب، من دون أن يعلموا السبب، و هم مائلون بالطبع إلى البطش و الفتك، و إن كثيرا منهم لا يمشون إلا و معهم سكاكين يخفونها فی ثيابهم، و مدخل العتاب بينهم مسدود، فأوّل سبّهم قولهم يحرق دين القديس تيعك. و من جهلهم أنّهم لا يفهمون ما المراد بالدّين هنا فإنّ مرادفه عندهم فی غير السبّ منقول من الطليانی، و الظاهر أن المسلمين حين ولايتهم عليهم كانوا يتلقّونهم بهذه التحية؛ فتداولوها هم من بعدهم.

و منهم قوم يتنصّتون إلى ما يجرى بين المرء و صاحبه أو زوجته من الحديث، فإذا صحّ

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۸

لهم جرّ منفعة من ذلك انتهزوا فرصتها فورا و اختلقوا عليه أكذوبة.

و للمالطيين جميعا لهجة واحدة، و إشارات واحدة، فالرجال إذا وقفوا يهزّون أفخاذهم من الورك إلى القدم، و إذا وصفوا أحدا بالنحول رفعوا السبابة و أمالوها يمينا و شمالا، و إذا أشاروا إلى أمر معتدل سوى رفعوا الكفّ اليمنى و رجّفوها، و إذا أرادوا الكثرة ضمّوا الأصابع على الإبهام و حرّكوها عليه، و إذا أرادوا النفی أمرّوا الأنامل من تحت الذقن، و إذا أشاروا إلى حسن امرأة جمعوا الكف و أمرّوها على الصدغ، إشارة إلى تجعيد سوالفها، و إذا أرادوا وصف شیء بالطيبة أرخوا اليد اليمنى و نفضوها مرّات، و إذا سألوا الرجل عن زوجته قالوا له: كيف المرة. و إذا زار أحدهم صاحبه فأوّل ما يحيّی به صاحب المنزل و يجعل تحية الست الأخيرة، و إذا ذكروا اسم ولد صغير ذكروا اسم الله عليه، و إذا أوقدوا المصباح فی المساء قالوا تحية المساء.

و الفلاحون لا يصرّحون بعدد سنی سنّهم، فيقولون مثلا: أربعون و عشرة. و لعل ذلك واصل إليهم من اليهود فإن العدد عندهم فيما أعلمه مكروه.

و من العجب هنا أن الناس يحبّون التكاثر فی كل شیء حتى فی القبائح و الرذائل إلا فی العمر، و لا يتحاشى أحدهم إذا زارك أن يجیء معه بواحد أو اثنين جريا على عادة العرب، و يبادرون إلى تهنئة النفساء حال وضعها، و تزدحم عليها الجيرة حتى العذارى، و تأتی أصحاب الآلات، و يعزفون أمام البيت و هی آخذة فی الطلق، و يزأطون عندها كما يزأطون فی الأعراس. أمّا تحمسهم فی الديانة ففوق تحمس أهل إرلاند، و قد مرّ بك عدد الكنائس و القسيسين و ثروتهم و ملابسهم الكنائسية، و كما أن أهل إرلاند يسكرون و يفحشون فی عيد صان باطرك، كذلك المالطيون يسكرون و يفحشون فی عيد صان باولو، بل فی سائر الأعياد، و إذا استأجر مالطی دارا كان قد سكنها يهودی فلا يدخلها إلا إذا رشّ عليها القسيس الماء المبارك، و كذلك لو انتقل مثلا مركب و نحوه من ملك مسلم أو إنكليزی فلا بد و أن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۷۹

یعمّدونه، و هم یعمّدون أیضا أجراس الکنیسة جمیعها، و کذا الأجراس الصغیرة التی ینقس بها أمام القربان، و یقیمون لها کفلاء من الرجال و النساء ممّا عرف بالأشابین، و قد عمّدوا مرّة جرسا فی کنیسة صان باولو، و کان کفیله الحاکم و زوجته، لکونه کان کاثولیکیا، و یقولون: إن دعوة الجرس مستجابة، فأوّل ما یحدث رعد أو برق یبادرون إلی الضرب به.

و یعمّدون المولود من أول یوم ولادته، و لو کانت فی شدّة الزمهریر، و لا بدّ من أن یکون ذلک فی الکنیسة لا فی البیوت، و من یقف ینظر إلی القربان و هم طائفون به من دون أن یسجد له فقد عرّض نفسه للخطر، و قیل إنهم قتلوا مرّة رجلا من بحریة الإنکلیز و کان قد مرّ بهم و لم یسجد له، فتناولوه ضربا و وخزا فحمل قتیلا، و مرّة أخری وقف بهم أحد ضبّاط العسکر، و ظلّ واقفا فهجم علیه قسیس ورمی بغطاء رأسه فشکاه للحاکم فأخبر الحاکم الأسقف بذلک فحبس القسیس فی داره مدّة، ثم أطلقه، فذهب القسیس إلی رومیة فأکرمه البابا و أعاده إلی الأسقف و أمره بإعلاء درجته، فلمّا بلغ الحاکم ذلک نفاه من البلد، و یقولون إن شکل الصلیب مخلوق فی جثّة کل إنسان، و ذلک بأن یبسط یدیه و هو رافع رأسه، و إن اسم مریم العذراء مرسوم أیضا فی کلّ کف فإن خطوط الکف الأصلیة تشبه حرف المیم باللاتینیة، و نحو من هذا ما وجدت فی بعض الکتب العربیة من أن اسم النبی صلّی اللّه علیه و سلّم مکتوب فی کلّ جثة، فإن المیم تشبه الرأس و الحاء تشبه الصدر و المیم تشبه الصرّة و الدال تشبه الساق.

و فی أیام الصیام و فی یومی الأربعاء و السبت لا تصرّح باعة الحلیب باسم ما یبیعونه، و إنّما یقولون: هون تا الأبیض. و لفظة تا محرّفة عن متاع بمعنی صاحب، کما یستعملها أهل تونس و طرابلس، و فی غیر هذه الأیام یقولون حلیب. و مع شدّة تحمسهم هذه فإنّهم یبیعون و یشترون أیام الآحاد و الأعیاد کما فی غیرها، و الدیّن منهم من یفتح فیها دکانه إلی الظهر فقط. و قد رأیت کثیرا من مدن إیطالیة و لم أر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۰

فیها تماثیل عدیدة فی الطریق کما یری فی مدینة فالتة.

و قد کانت هذه التماثیل فی الزمن القدیم ملاذا یعتصم به أهل الجنایات، فکان القاتل إذا فرّ ولطئ تحت تمثال منها ینجو من قصاص الشرع، و قد بطلت الآن هذه العادة. و ینبغی هنا أن نذکر أن المالطیین یأنفون من أن یطلقا اسم النصاری علی الإنکلیز، و إذا تزوّج إنکلیزی مالطیة علی ید قسیس إنکلیزی فإن زواجه غیر شرعی.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۱

فی الإنکلیز و حکومتهم فی مالطة

تساهل حکومة الإنکلیز فی مالطة

لما کانت هذه الصخرة البحریة عزیزة علی الإنکلیز لموقعها فی بحر الروم کما لا یخفی کان لهم فی حکومتهم بها من التساهل و التسامح ما لم یکن فی بلادهم، و یمکن أن یقال: إن الحکم هنا مالطی، و ان یکن الحاکم إنکلیزیّا فإن القضاء و فقهاء الشرع و کتّاب الصکوک و المتوظفین فی الدواوین و شرطة الدیوان جمیعهم مالطیّون، و لیس علی الناس مکس و لا ضریبة، و لا یدفع مکس فی الکمرک إلا علی الحنطة و المسکرات و البهائم و هو قلیل جدّا.

و من اقتنی مرکبا أو خیلا- أو استخدم خدمة فلا- یؤدّی علی ذلک شیئا، و کذا الذین یبیعون بقول الأرض و ثمرها، و لیس لخزنة الدولة من إیراد هذه الجزیرة و لا فلس واحد، و إنّما یصرف جمیعه فی لوازمها و جملته تبلغ تقریبا ۲۰۰، ۱۰۴ و تفصیلها من دیوان الکمرک نحو ۷۰۰، ۶۵، و من الدکاکین ۶۰۰، ۱، و من المحاکم ۷۰۰، ۲، و من بوسطة المکاتیب ۱۸۰، و من تقیید الصکوک ۱۳۰،

و من خراج الأرض ۷۰۰، ۲۳ و من المزاد ۲۰۰، و من الکرنتینة ۳۵۰، ۳، و من المراکب ۹۰۰، ۳، و من مصالح أخر ۷۰۰، ۱.

یصرف منها مرتب وظائف و سنویات ۰۰۰، ۴۳، منها: ۰۰۰، ۵ للحاکم و لحدیقته ۴۰۰، و لکاتب سرّه، و هو من الإنکلیز ۰۰۰، ۱، و للکاتب الثانی ۵۰۰، و لناظر الخزنة ۳۵۰، و لمدیر الحسابات ۶۰۰، و لمستوفی الأموال ۵۰۰، و لناظر الکمرک مثلها، و لکبیر القضاة ۶۰۰، و لکبیر الشرطة ۴۵۰، و لناظر المرسی ۴۰۰ و لناظر الکرنتینة ۳۰۰، و لقسیس الحاکم ۵۰۰، و لأسقف مالطة ۰۰۰، ۲، و للمصروف علی المستشفیات و غیرها من الأفعال الخیریة ۴۰۰، ۴، و علی المدرسة الجامعة و قد تقدّم ذکرها ۷۰۰، ۲، و علی المرتزقین و المتقاعدین ۲۵۰، ۱۳، أمّا مصاریف عسکر الإنکلیز و هم ثلاث کتائب، فمن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۲

خزنة الدولة و للعسکری فی الیوم نحو شلین، و یقال: إن إیراد مالطة منقسم إلی ثلاثة أثلاث: الثلث الأول للمیری، و الثانی للکنائس من الوقف و التسبیل، و الثالث لأصحاب الأملاک.

فقد تبیّن لک رفق دولة الإنکلیز بحال المالطیین جیر و لو أن جزیرتهم کانت أکبر مما هی الآن بمائة مرّة لما کان إیرادها کلّه مکافئا لمکس صنف واحد فی إنکلترة، و حسبک أن مکس الملط وحده هناک ینیف علی خمسة ملایین لیرة. و من تساهلهم معهم أنّهم یرخصون لهم فی التطواف بالقربان و تماثیل القدیسین، سواء کانت من خشب أو جص أو غیر ذلک. مع أنه مغایر لعقائد کنیسة الإنکلیز، لا بل یطوف معهم جوقة من العسکر، و هم عازفون بآلات الطرب، أمام التمثال. و لا غرو فإن الدولة فرضت لصنم فی بلاد الهند اسمه جوجرنوت ۰۰۰، ۵۶ روبیة، و هی عبارة عن ۰۰۰، ۲۶ ریال و لغیره أیضا من الأصنام مرتّب وافر، و لکهّان الهنود وظائف یرتزقونها من الدیوان فی کل عام.

قیل و یوجد فی الهند نحو ۸۵۱، ۱۴ محلا مخصّصا لعبادة الهنود، یبلغ مصروفها من طرف الدولة نحو ۰۰۰، ۳۵ لیرة، و قد صرف مرّة علی إقامة عید من أعیادهم ۰۰۰، ۴۰ روبیة مع ما لزم لهیکل الصنم، و فی هذه الأعیاد الکبار تطلق المدافع من السفن و القلاع و یمشی أمام الصنم طائفة العازفین من الجیش.

و فی عید إلقاء جوز الکوکو فی نهر الهند ینزل ذوو الأمر و الحکم من الدولة و یأخذونه من الکهنة بعد أن یصلّی علیه، ثم یلقونه فی النهر، و حینئذ تنشر السفن رایاتها المتلوّنة، و تطلق المدافع منها و من الأبراج. و کذلک یفعلون فی الأهلة إظهارا لشعائر الإسلام، و کل ذلک دلیل علی أن الدولة لا تبالی بمباینة المذاهب و الادیان فی ممالکها إذا کانت هذه الأدیان غیر مانعة من أداء ما یلزم أداؤه للخزنة من المال، و للتاج من الطاعة. و قد حاول مرّة حاکم مالطة، و کان علی مذهب البروتستانط، أن یبطل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۳

عادة المسخرة یوم الأحد فی المرفع علی ما تقدّم ذکره، فإن الإنکلیز یحترمون هذا الیوم غایة الاحترام کما ستعرفه، و إذا بالمالطیین جمیعهم تألّبوا علیه و ماجوا یطوفون و هم یسبّونه و یقبّحون علیه بألقاب سمجة و إشارات منکرة، حتی إن بعضهم حاکاه فی زیّه و هیئته، و جعل علی رأسه قرونا، ثم أحدقوا بکنیسة الإنکلیز، و هم عاکفون علی العبادة، و زاد ضجیجهم و لغطهم هناک، حتی لم یسع الحاکم و حشمه غیر الفرار إلی حدیقته خارج المدینة، و ما زالوا مذ ذلک الحین یلحفون فی طلب حاکم من مذهبهم حتی صدر أمر من الدولة بعزل الحاکم المذکور؛ فجاءهم حاکم من أهل إرلاند أکثر تحمّسا منهم، و هو الذی وقف شاهدا علی معمودیة الجرس.

من سنن الإنکلیز و شرائعهم

و من سنن الإنکلیز فی بلادهم أن تغلق جمیع الحوانیت فی یوم الأحد إلا دکاکین العقاقریة و الحانات التی تباع فیه الجعة و الشراب إلا أن هذه تغلق أیضا عند إقامة الصلاة، فأمّا فی مالطة فلا حرج علی أحد منهم أن یبیع و یشتری فیه أی شیء کان، ثم إنّی لست ممّن یتصدّون إلی تبدیل القوانین و الأحکام و لا ممّن یتحرّشون بالأحکام مخافة أن یعزلونی عن ولایة قلمی، و لا یتأتّی لرجل مثلی أن

یصلح شریعة دولة قدیمة و لا سیّما شریعة الإنکلیز؛ فإنها عندهم لا تقبل التبدیل و التحریف و کل عادة من عاداتهم تقوم مقام سنّة إلا أن بیداء أصولهم و أحکامهم تظهر لبصری الکلیل القاصر فی غایة البعد عن الإدراک، أمّا أولا فلأن قصاص کثیر من الإساءات و الجنایات یفتدی عندهم بغرامة للمیری، فإذا افتری مثلا لئیم علی کریم و لطمه بحضرة الناس، أو هتر عرضه غرم شیئا من الدراهم للخزنة و خرج من بین یدی القاضی علی أشر خلق مما کان علیه، فتکون مصلحة الحکّام علی هذا ازدیاد الخصام و الشر بین الناس لأن خیرهم إنّما هو من شر الطغام. فیالیت شعری ما نفع الکریم بعد أن یسبّ و یفتری علیه أن یری غریمه مؤدّیا للمیری ثمن عرضه و شرفه؟ و کیف تصحّ

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۴

التسویة بین العباد و الله تعالی لم یسوّ بینهم، بل فضّل بعضهم علی بعض، فجعل اللئام یبذلون ماء وجوههم و یمتهنون أنفسهم فی تحصیل معیشتهم، و جعل ذوی الأدب و العرض ینزّهون أنفسهم عن الشین و المنکر؟ فهل من العدل أن لا یجعل بینهما فرق فی الأحکام و المعاملة؟ و إلا لزم أن نقول: إن من یساوی بینهما و هو الحاکم ینبغی أن یکون مساویا لمن فرض علیه الحکم، فلو تعمّد رجل مثلا للطم الحاکم علی وجهه و هو جالس علی کرسی الحکم أفعساه کان یغرم دریهمات لخزنة الدلة؟ و هل من العدل أن تری لئیما ینازع کریما علی شیء هو أدنی من أن یخطر بباله؟ نعم تصحّ التسویة بین غریمین تجهل حالهما، فأمّا الحاکم الشرعی الذی یعرف بلاده، و یخبر فاضلهم من مفضولهم، فلا ینبغی له أن یسوّی بین کل مدّع و مدّعی علیه، کما أنّه لا ینبغی أن یوزن الذهب فی میزان الخشب و فضلا عن ذلک فإن من ضرب مثلا مرّة لا یصح أن یجری علیه حکم من دأبه و دیدنه الضرب، و إلا لزم أن نقول: إن أهل اللغة أعقل و أحکم من أهل الشرع حیث فرّقوا بین الضارب و الضراب و الضروب.

هذا و لمّا کان الظاهر من حکم الإنکلیز أنّه مبنی علی التسویة کانت الأوباش من أهل مالطة مثل أهل الفضل منهم فی أنه لا یقبل للفاضل کلام علی المفضول، و لا یفصل بین اللئیم و الکریم منهم غیر الشهود، و إن کان اللئیم معروفا بلؤمه و رذائله، و ربّما طلبت باعة المأکولات فی شیء قیمته درهم عشرة دراهم فلا یمکن للمشتری أن یعارضهم بشیء، و إذا أبی أن یشتری لم یخل من تطاول البائع علیه، و قس علی ذلک أصحاب القوارب و الحمّالین، و غیرهم من السفلة. فأی إنصاف هنا أن یرخّص لهولاء فی هذا التعدی و الطغیان، ثم یقال: إن ذلک تسویة؟ ثم أی إنصاف أن یرخّص للباعة فی أن یخلطوا الموائع، و أن یضعوا السمک و اللحم الذی نشم فی الخموم فی الثلج حتی یتطرّی، و فی أن یبیعوا الفج من الأثمار، و أن یجعلوا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۵

سعر الشیء الواحد متفاوتا علی قدر تفاوت الساعات، و أن تطوف السکاری فی الأسواق ضاجّین زائطین بالغناء و اللغط، ثم یقال: إن ذلک حریّة؟ لعمری إن المحتسب فی بلادنا خیر من هذه الحریّة لأن الحریّة إنّما تکون حمیدة مفیدة ما إذا روعی فیها مصلحة عمومیة علی أخری خصوصیة لا بالعکس، فتبّا لحریة تفضی إلی تسوید اللئیم علی الکریم.

و هذا الفساد الحاصل فی البیع و الشراء فی مالطة هو بعینه فی لندرة کما سنذکره فی محلّه، و سببه أنّه لّما کان ذووا الأحکام هنا و هناک لا یأکلون سوی أطیب المأکول و لا یشربون سوی أفخر المشروب غفلوا عن مصلحة الجمهور و ظنّوا أنّ سمنهم موجب لصحة جمیع عباد الله. و من فساد الأحکام هنا أیضا أنّه إذا کان لأحد حقّ علی آخر و أراد سجنه لزمه أن یقوم بمؤنته، و إن یکن المدیون لصّا أو متعدّیا، و کان المحق عادلا فاضلا. و لا یخفی أن فی ذلک حظرا للثقة و الائتمان لأنّ حبس الغریم لا ینفع الدائن شیئا، و أن السجن لکثیر من الأشقیاء المناحیس خیر لهم من خصاصهم. و لّما کان هولاء السفلة مفرطین فی القبائح و الشرور علی ما ذکرنا کان من أهم الأشیاء علی الحرّ أن یتجنّبهم ما أمکن، و لیس علیه أن یحترز من الأعیان و ذوی الأمر و النهی فإنهم لا یتطاولون علی أحد لما یعلمون من قضیة التسویة، بخلاف العادة فی البلاد الشرقیة، فإن أصحاب المناصب هم الذین یخشی بأسهم و شرّهم.

و من فساد الأحکام أیضا أن القضاة تقبل شهادة أی شاهد کان سواء کان سکیرا أو شریرا، و کذا شهادة النساء و الأولاد مقبولة فمتی

قبل الشاهد الصليب مضت شهادته، و الإنكليز يحلفون على الإنجيل، و متى أقيمت دعوى حشد الناس لاستماعها و إن تكن من الأمور التى كتمها أولى من إذاعتها، و هنا أيضا أنكر التسوية لأنه إذا حدث مثلا أمر مرّة بين والد و ولده، أو رجل و امرأته و كانوا من ذوى الفضل و أفضى ذلك إلى التحاكم لا ينبغى أن يجعل بمنزلة دعوى رجل على آخر بأنه سرقه أو شتمه. ثم إن من الأصول المقرّرة عند الإنكليز أن كل من يدخل أرضا تحت حكومتهم يصير حرّا و تجرى عليه أحكامهم، و قد جاء مالطة كثير ممّن كان لهم عبيد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۶

و إماء فأجبروا على تحرير رقيقهم. و من يقم خمس عشرة سنة و يعلم أنّه كان فى خلال ذلك حسن التصرف و السلوك حقّ له أن يطلب الحماية الجنسية، و لكن يلزمه أداء نحو عشرين ليرة، و هذه الحماية هى أنفع من حماية الإنكليز التى تعطى من بلادهم كما سنبيّن ذلك.

و للحاكم عشرة مشيرين من أعيان الأهلين يشاورهم فى المصالح العائدة إلى بلادهم، و فى كل خمس سنين يعزل، و ربّما أقام أكثر إذا طلبت الرعيّة ذلك. و فى قصره ستة عشر ألف بندقية، و عشرون ألف مزراق، و أربعة آلاف درع، و ألفا طبنجة.

أخلاق الإنكليز فى مالطة

أما أخلاق الإنكليز هنا فهى مغايرة لأخلاق جنسهم فى بلادهم فلا يصح لمن رآهم أن يحكم بأن جميع الإنكليز مثلهم، فإن هولاء متكبرون صلفون مع البخل و الشح- و بئس الكبر و الشح إذا اجتمعا- و ما أحد منهم إلا و يظنّ بأنّه هو فاتح هذه الجزيرة ببأسه و سيفه و لا سيّما ضبّاط العسكر، فإنهم على قنة الصّلف و التبذّخ. و إذا دخلت على أحد من هولاء الفاتحين و هو يأكل فلا يتكلّف أن يدعوك إلى طعامه، بل ربّما غضب على جميع أهل داره على عدم منعهم إيّاك من الدخول كما قلت:

إذا زرت أرحبهم دارة توهّم غولا قد اغتالها

يغلّق أبوابه إن نوى فطورا و يحكم إقفالها

و من كان فيهم له خادم يظن المعالى قد طالها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۷

إذا تتبوأ كرسيّه و بثّك من زوجه حالها

يرى أنه محسن مفضل و أنّ الماثر قد نالها

و إذا زرته و أقمت عنده إلى وقت غدائه و أردت الذهاب فلا يدعوك إلى الطعام معه، و من طبعهم حب الانفراد و العزلة، فإن أحدهم ربّما أقام شهرا تامّا من دون مشاهدة الناس استغناء عنهم برؤية ما عنده من فاخر المتاع، و بقراءة صحف الأخبار، أمّا عندنا فالأخبار لا تعرف إلا بالنقل و الرواية، فلم يكن لنا بدّ من الاجتماع ليلا، و من سوء أدب بعضهم هنا أنّهم يجعلون فى أعناقهم شريطة فيها زجاجة، فكلّما لمحوا امرأة فزعوا إلى الزجاجة ليستثبتوها بها.

نساء الإنكليز فى مالطة

و فى ليالى الرقص عندهم ترقص بنت الرجل منهم مع عدّة زيرة و هو ناظر إلى ذلك بعين شكرى من الابتهاج و لا سيّما حين يخاصرونها، و كما أن الرجال هنا ليسوا براموز حسن على أهل إنكلترة كذلك كانت النساء مخالفات لمن فى بلادهن، فإنهن هنا بمعزل عن الحسن و المال و أكثرهن فقم و شوه، و من الغريب أنّه مع ترفههن و ركوبهن الخيل فى كل يوم غالبا فلن يرى فيهن بادنة، و لا فضيلة لهن إلا فى كونهن يحسنّ القرآة و الكتابة، و يؤسسن العلم فى أولادهن على صغر، فإن الولد لا يبلغ هنا خمس سنين إلا و يكون قادرا على القراءة. أمّا عندنا فيذهب سن الصبا باطلا، فمتى أخذ بعد ذلك فى التعلّم وجده بعيد المأخذ صع المرتقى، و أشهد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۸

لو أن نساء بلادنا يترشّحن فی المعارف علی صغر لفضلن نساء جميع الإفرنج فضلا باهرا، فإنّهنّ أرقّ أذهانا، و أسرع فهما. و الحاصل أن الإنكليز هنا رجالا و نساء ليسوا من خيرة بلادهم، و أن كبرهم و عتوّهم و جشعهم جعلهم مبغضين عند جميع المالطيين، فما من مالطی تسنح له فرصة لأذی إنكليزی إلا و ينتهزها، فأمّا المتوظفون منهم فی خدمة الحكومة، فإنّما هم راضون عن أصحاب السياسة لا عن أفراد الإنكليز المجاورين لهم.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۸۹

فی موسيقی أهل مالطة و غيرهم

الموسيقی: تعريفها، ضوابطها عند القدماء

قبل الدخول فی هذا الباب الحرج ينبغی أن أستاذن أصحاب أهل الفن فی التطفّل علی هذا النحو، و إن كنت لا أعدّ من جملتهم غير أنی علمت منه ما يمكننی أن أعرف المستقيم منه من غير المستقيم؛ فأقول قال بعض الفلاسفة: إن فن الموسيقی فضلة من المنطق أخرجها العقل بالصوت؛ لما لم يمكن إخراجها بالقياس.

فمن أول المنطق بالاصطلاحی قال: معناه أن أركان هذا الفن ذهنية بناء علی أن المتقدّمين كانوا يتعاطونه بالسماع و الذوق فيرسم السامع ما يسمعه من الأصوات فی مخيّلته و ذاكرته دون مشاهدته لدلائله، و هكذا يتلقّاه التلميذ عن معلّمه بالترسّم عن ظهر القلب و الاتباع مع الملكة التی ترسّخ فی مخيلته تلك الترجيعات، و لهذا كان المعوّل عليه فی تحصيل هذا الفن ملكة الذوق.

موسيقی الإفرنج الآن

أمّا الإفرنج فقد جعلوا الآن ترجيع الصوت و إيقاعه داخلا تحت حسّ المشاهدة؛ فدلّوا عليه بنقوش و رسوم معلومة كما دلّت الحروف علی المعانی، فلم يكن تحصيله متوقّفا علی ذاكرة و عظيم معاناة كما فی السابق، فمن كان منهم عارفا بمخارج النغم، و رأی تلك العلامات أمكن له أن يخرج عليها أی صوت كان من دون أن تتقدّم له سابقة فيه و إذا اجتمع منهم عشرون رجلا و كانت أمامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۰

اختلاف الأذواق

و يرد علی هذا التأويل أنّه لو كانت الموسيقی فضلة من المنطق لكانت واحدة الاستعمال كما أن المنطق واحد الضوابط، علی أن الناس متغايرون فيها تغايرا شديدا، فإن ألحان العرب لا تطرب غيرهم بل هولاء أيضا مختلفون، فإن أهل مصر لا يطربون لألحان أهل الشام، و ألحان الإفرنج لا تطرب أحدا من هؤلاء.

و علی تأويل المنطق بالمعنی اللغوی، و هو المراد هنا، فقد جاء فی شرح رسالة ابن زيدون لسلطان المتأدبين ابن نباتة ما نصّه: «النغم فضل بقی من المنطق لم يقدر اللسان علی إخراجه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان علی الترجيع لا علی التقطيع، فلمّا ظهر عشقته النفس، و حنّ إليه القلب» و المراد بالترجيع لا التقطيع أن يكون الصوت ممتدّا ينحی به لا متقطّعا كأصوات الهجاء، فإذا كان فن الموسيقی و الحالة هذه فضلة من المنطق علی هذا التأويل لزم أن نقول: إن لكل جيل من الناس محاسن فی الغناء مقصورة عليهم فقط، فإن لكل لغة محاسن و عبارة لا توجد فی غيرها، و الواقع بخلاف ذلك فإن لغتی الصين و الهند مثلا تشتملان علی محسنات لا توجد فی

غیرهما إلا أن أنغامهم خالیة من ذلک.

ألحان الإفرنج

أمّا ألحان الإفرنج فلا یطرب لها منّا إلا من ألفها، و هی عندهم علی أربعة أنواع:

الأول: و هو أحسنها، ما یتغنی به فی الملاهی مثل الموشحات عندنا مع مدّ الصوت و ترجیعه، و خفضه، و رفعه، و ترقیقه، و تفخیمه، و ترجیفه، و فیه تدخل حماسة و تحریض و تذمیر.

و الثانی: و هو یشبهه ما یرتّل به فی الکنائس و لا یکاد یکون به ترجیف.

و الثالث: ما یغنّی به فی المحزنات و البثّ، و فی هذا النوع یستعملون غناء رقیقا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۱

أشبه بالنجوی، فمن یسمعه یلحّن ما المراد به و إن یکن جاهلا- باللغة، کما إذا رأیت شخصا مجهشا للبکاء فإنک تعلم إجهاشه بالبدیهة، و إن لم تعرف سببه.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة؛ ص ۹۱

الرابع: ما یتغنی به فی المضحکات و المحاورات و هذا یقل فیه الترجیع، و یکثر فیه النبر، و تطریبه إنّما هو من حیث أنهم یصلونه بأشیاء کثیرة، و حرکات مضحکة فیضحکون فیه و یقهقهون و یبکون، و یتثاءبون و یعطسون و یحاکون به قیق الدجاج و صداح العصافیر و غیرها. و فی کلّ من هذه الأنواع یستعملون المساجلة، و هی مطربة جدّا و أکثرها فی النوع الأخیر، و یوفقون علیه ألفاظا مولّدة غریبة. و کما أن لهم غناء مضحکا کذلک لهم رقص یحمل الثکلی علی القهقهة.

الفرق بین ألحان العرب و الإفرنج

أمّا العرب فإنهم یقولون: إن الرصد یشجی، و السیکاه یفرح، و الصّبا و البیات یحزنان، و الحجازی ینعش و ینغش و هلم جرّا. و الفرق بین الفریقین من عدّة وجوه:

الأول: إن الإفرنج لیس لهم صوت مطلق للإنشاد من دون تقیید بتلک النقوش، فلو اقترحت علی أحدهم مثلا أن یغنّی بیتین ارتجالا کما یفعل عندنا فی القصائد و الموالیات لما قدر، و هو غریب بالنسبة إلی براعتهم فی هذا الفن لأن الإنشاد علی هذا النوع طبیعی، و قد کان عندهم من قبل أن تکون النقوش و العلامات، فیالیت شعری کیف کانوا ینشدون قبل أن نبغ غویدو داریتسو فی إیطالیا.

الثانی: إنه إذا اجتمع منهم عشرة مغنیین و أرادوا إخراج موشّح أخذ بعضهم فی بعض أرکانه من مقام و بعض فی البعض الآخر من مقام غیره، فإن کانت الأغنیة مثلا من الرصد غنّی واحد جزءا من هذا المقام بصوت جهیر، و آخر جزءا من النوی بصوت رقیق، و آخر جزءا من الجواب بصوت عال، فیسمعه السامع من عدّة مقامات، و یسمّی ذلک عندهم هرمونی، أی أن الأصوات تتألف علی الغناء، و فی هذه الطریقة فوائد و مخاسر، أمّا الفوائد فلأن السامع یسمع فی وقت واحد موشحا واحدا من عدّة مقامات بأصوات

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۲

مختلفة، فهو یصنع قصیدة واحدة من جمیع بحور العروض. و أمّا المخاسر فلأن السمع لا یتمکّن کلّ التمکن من إدراک جمیع مخارج تلک الأصوات المتغایرة. و هذه الطریقة عندی علی الآلات أحسن منها علی الأصوت.

الثالث: إن غناء الإفرنج هو مثل قراءتهم فی أنه لا یخلو من حماسة و تهییج فضلا عن التشویق و التطریب و الترقیص، فغناء الحماسة و التهییج هو الذی یکون به ذکر القتال، و أخذ الثأر، و الذب عن الحقیقة، فإذا سمعه الجبان و لا سیّما من الآلات العسکریة هانت علیه روحه. أمّا الغناء العربی فکلّه تشویق و غرامی، و أجدر به أن یکون جامعا لمعنی الطرب، و هو خفّة تصیب الإنسان من فرح أو حزن،

فإذا سمع أحد منّا صوتا أو آلة شغف قلبه الغرام، فبدت صبابته، و حنّتنفسه كما يحنّ الإلف إلى إلفه حتى يصير عنده آخر الفرح ترحا. و لا غرو إن صعد منه الزفرات، و أذرف العبرات فإن السرور إذا تفاقم أمره و تكامل بدره دبّ فيه محاق الشجن، و اختلط به الحزن حتى يستغرق صاحبه فی بحر من الوجد، و يشتعل بنار من الهيام، و على ذلك ورد قولهم طربه و شجاه من الأضداد.

الرابع: إنّ الإفرنج لا قرار لأصواتهم إلا على الرصد، نعم إن جميع الأنغام يوجد لها مقامات فی آلاتهم، بل توجد أنصافها و أرباعها، إلا مقامين منها لا أنصاف لهما، إلا إنهم لا يقرّون إلا على المقام الأول، و قد سمعت منهم الرهاوىّ و البوسليك و الأصفهانی، أمّا غيرها فلم اسمعه قط بل قد سمعت منهم بعض أغان من أغانينا أوقعوها على آلاتهم فكانت كلّها رصدا. و قد و الله طالما وقفت السمع على أن أسمع منهم أنغامنا فخبت حتى اعترتنی الحيرة؛ فإنّی من جهة كنت أرى آلاتهم بديعة الصنعة على كثرتها و أفكر فی أن العلوم انتهت إليهم، و الفنون قصرت عليهم، و إن عندهم فی هذا الفن بدائع كثيرة فاتتنا على ما سبق ذكره. و من جهة أخرى أرى أن براعتهم كلّها إنّما هی من مقام الرصد، نعم إنّ هذا المقام هو أول المقامات و إنه يغنّی منه فی مصر و تونس أكثر ممّا يغنّی من غيره إلا أن فضل الصّبا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۳

و البيات و الحجازی لا ينكر أيضا، ثم أعود فأقول: لا غرو أن يكون قد فاتهم أيضا بدائع فی هذا الفن، كما فاتهم فی غيره أشياء أخرى، و ذلك ككثرة بحور العروض عندنا، و كبعض محسنات الكلام، و كالسجع فی الكلام المنثور إذ ليس عندهم سوى المنظوم و هو فی الإنشاء كالصوت المطلق فی الغناء، فإن السجع مقدّم على النظم، و كعجزهم أيضا عن لفظ الأحرف الحلقية. و قد سألت مرّة أحد أهل الفن منهم فقلت: إن المقامات موجودة عندكم و عندنا على حد سوى و كذا أنصافها، فبقی الكلام على استعمالها، فإنّا لو استعملنا مثلا نصفا من الأنصاف مع مقامه، و أنتم تستعملونه مع مقام آخر، بحيث يظهر لنا أنه خروج، فمن أين تعلم الحقيقة؟. فما كان منه الا أن قال: إن هذا الفن قد وضع عندهم عليأصول هندسيّة لا يمكن خرمها؛ فلا يصح أن يستعمل مقام إلا مع مقام آخر، على أنی كثيرا ما سمعت منهم خروجا فاحشا على شغفی بألحانهم. و قد شاقنی يوما وصف المادحين إلى سماع قينة بلغ من صيتها أنّها غنّت فی مجلس قيصر الروس، فلمّا سمعتها طربت لرخامة صوتها، و طول نفسها فی الغناء إلا أنی سمعت منها خروجا بحسب ما وصل إليه إدراكی. و لو تيقّن أن ألحان الروم التی يرتلون بها اليوم فی كنائسهم هی كما كان يتغنّی به فی أيام الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلا آخر على قصور ألحان الإفرنج؛ فإن أنغام الروم مقاربة لأنغامنا.

الخامس: إن أكثر أصحاب الآلات عندهم لا يحسنون إخراج أنصاف النغم و أرباعها ما لم تكن مرسومة لهم، إلا صاحب الكمنجة، فأمّا النای ففيه خروق شتّى غير السبعة، لكل اثنين منهما طباقة، إذا سدّ منها منخر جاش منخر، غير- أن الصنعة فی إحكام سدّها و استعمالها تقارب صنعة تغيير نقل الأصابع عندنا، و هذه الأنصاف و الأرباع فی النغم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۴

مثل الروم، و الإشمام فی النحو. و فی الجملة فإن للإفرنج حركات فی هذا الفن خارجة عن ذوقنا و أخرى لا يمكن محاكاتهم بها، و ممّا مرّ تفصيله تعلم أن إنشادهم فی الحماسة و الفخريات غير معروف عندنا، و إنّ مطلق الصوت عندنا غير معروف عندهم، و من الغريب أنه مع كثرة ما عندهم من الآلات و الأدوات فقد فاتهم العود على محاسنه و النای من القصب، فإن نايهم هو بمنزلة الزمر عندنا على أن أكثر العلماء قرّر أن أصل الموسيقی مأخوذ عن صوت الريح فی القصب، و قال بعض: إنه عن صداح الطير.

و غيره: إنه عن خرير الماء. و آخرون: إنّه عن أصوات مطارق طوبال قين.

و أول من ضبط أصول هذا الفن يوبال و ذلك فی سنة ۸۰۰ قبل الميلاد.

و كان اختراع النای فی سنة ۱۵۰۶ و نسب إلى هيجنيس.

استخراج علم العروض

و علی ذکر مطارق القین فقد ورد فی شرح مقامات الحریری فی ترجمة الخلیل أن أول من استخرج العروض و حصر أشعار العرب به الخلیل بن أحمد أبو عبد الرحمن الفراهیدی الأزدی. و کان سببه أنّه مرّ بالبصرة فی سوق القصّارین فسمع الکدنیق أی المطرقة بأصوات مختلفة، سمع من دار «دق»، و سمع من أخری «دق دق»، و سمع من أخری «دقق دقق»، فأعجبه ذلک، فقال: و الله لأضعن علی هذا المعنی علما غامضا، فوضع العروض علی حدود الشعر الخ.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۵

آراء فی الطرب

و أشجی آلة من آلالات الإفرنجیة هی (الکنشرتینة) و هی فرع من فروع الأرغن و نحو من المنفخ یفتح و یطبق، و هی من مخترعات و ینسطون. و من المعلوم أنّه کلّما رقّت طباع الناس، و لطفت أخلاقهم کانوا إلی الحاضرة فی مضمار الطرب أسبق، و لشذا عبیره أنشق، فإن المولع بغر المعانی و نکات الکلام لا یسمع الألحان إلا و یتصور معها من الحسن ما یهیم به وجدا قبل أن یشعر الغبی بمجرّد معرفة کونها غناء، و لا سیّما إذا کان الإنشاد معربا و الوقت معجبا. و قد جاء فی شرح لامیة العجم للعلامة الصفدی من لم یحرکه العود و أوتاره، و الربیع و أزهاره فهو فاسد المزاج بعید العلاج.

و قال أفلاطون: من حزن فلیسمع الأصوات الطیّبة فإن النفس إذا حزنت خمد نورها فإذا سمعت ما یطربها و یسرّها اشتعل منها ما خمد.

و قال إسحق بن إبراهیم الموصلی شرّ الغناء و الشعر الوسط لأن الأعلی منها یطرب و الدنیء یضحک و یعجب، و الوسط فلا یطرب و لا یضحک. و من الغلط البیّن أن یقول أحد: إنی لم أطرب لهذه الألحان لجهلی باللغة فإن أصل الطرب إنّما یکون عن الصوت لا عن الکلام المتغنّی به.

غناء أهل مالطة

أمّا أهل مالطة فإنّهم فی الغناء مذبذبون کما فی غیره أیضا فلا هم کالإفرنج و لا کالعرب، فأهل القری منهم لیس لهم إلا أغانی قلیلة، و إذا غنّوا مطّوا أصواتهم مطّا فاحشا تنفر المسامع منه، فمضاهاتهم للإفرنج هی فی اقتصارهم علی الرصد، و للعرب فی أنّهم إذا اجتمع منهم طائفة للغناء لم یخرجوا أصواتهم إلا من مقام واحد، و یقوم أحدهم ینشد، و یردّ علیه الباقی.

أمّا الأعیان منهم فإنّهم یتعلّمون الألحان الطلیانیة. و أکثر العمیان بمالطة صنعتهم العزف بالآلات فمتی قدم أحد من سفر، أو ولد له ولد، أو تزوج، أو عمّد ولده أو ترقّی إلی رتبة، أو کسب مکسبا جزیلا بادروا إلی تهنئته، و لا یخفی عنهم شیء ممّا حدث فی بلدهم.

و یقال: إن إحدی بنات الأعیان فجرت مرّة و کتمت حبلها عن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۶

أهلها ثم غابت أیّاما حتی وضعت ولدها، فلمّا رجعت إلی بیتها أقبلت زمرة منهم یعزفون أمام الدار، فسألهم أبوها ما سبب ذلک فأخبروه بوضع ابنته ففطن حینئذ لغیابها.

غناء المغاربة و أصل الحداء

و الذی یظهر لی أن الأنغام التی کان یتغنّی بها فی أیّام الخلفاء کانت أشبه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة، و اللازمة التی تستعملها المغاربة فی غنائهم هی (دی دی) کقول أهل مصر و الشام (یا لیل) و کقول الترک أمان، و فی القاموس: ما کان للناس حداء، و ضرب أعرابی غلامه و عضّ أصابعه فمشی و هو یقول دی دی أراد یا یدی، فسارت الإبل علی صوته، فقال له: الزمه، و خلع

علیه فهذا أصل الحداء.

و أسماء الأنغام عند المغاربة مخالفة لأسمائها عندنا، و هم یزعمون أنهم نقلوا هذا الفن عن أهل الأندلس، و أهل تونس أکثر ترسّلا منهم، و الظاهر أن الموالی من خصوصیات أهل مصر و الشام و کذلک النای و القانون. و الغالب فی من غنّی صوتا و أجاد أن یظن أن لم یبق ذو أذن واعیة إلا و سمعه، و إذا لم یجد الفتی لنفسه عذرا و ذلک بأن یتنحنح أو یسعل فیحیل القصور علی شیء طرأ علیه، هذا إذا کان المغنی غیر متّخذ الغناء له صنعة، فأمّا من درب فیه فقلّ أن یعرض له خروج لأن الصوت کالآلة کلّما زاد استعمالا زاد جلاء.

عودة إلی غناء الإفرنج

و کما أن غناء أهل مصر أطرب و أعلی من غناء جمیع العرب کذلک کان غناء الطلیانیین أعلی من غناء سائر الإفرنج، و ذلک لکثرة ما فی لغتهم من الحرکات، فهی مثل لغتنا صالحة للغناء و العروض، و لکون أصواتهم صادرة عن صدورهم. أمّا لغة الإنکلیز فلکثرة السواکن فیها لا- تطاوع علی الغناء الذی فیه مد و ترجیع إلا- بتحویل الألفاظ عن وجهها، و خرم قواعد النطق بها، و إنّما یحسن بها الأغانی المضحکة،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۷

و أصواتهم کلّها من أزوارهم، و کأن المغنّی منهم یغنّی و قد غصّ بلقمة، و جمیع الإفرنج یقولون: إن غناء العرب من خیاشیمهم. و علی فرض تسلیم ذلک فما یکون منافیا للإشجاء و التطریب، فإن اللغة الفرنسیس لا یتکلّم بها إلا مع الغنة، و هی مع ذلک أشجی لغات الإفرنج جمیعا، و ربّما طرب لها من سمعها أول مرّة من عمره.

و قد رأیت من الإفرنج من کان یطرب للأنغام المصریة و لکن غبّ طول مکث بمصر، و کان فی أول أمره یأنف منها و یقول: إنّها محزنة، و لا یخفی أن للعادة تأثیرا فی جمیع الأحوال و خصوصا فی المنطق و الألحان، و ناهیک أن الأطفال عندنا و عند الإفرنج ترقد علی الغناء، فتعتاد علیه مذ الصبی، فإذا امتزج بأمزجتها کان سماع غیره ضد المألوف، و أهل مالطة یرقدون أطفالهم علی ما هو أشبه بنواح النذّابات فی بلادنا. و لو لا العادة لما عجزت الإفرنج مع حکمتها عن النطق بأحرف الحلق، و هی التی وفّت حقّ نسائهم جزافا و بخست نساءنا حقّهن.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۸

فی لغة أهل مالطة

لغتهم فرع من العربیة

اعلم صانک الله عن الزلل و سدّدک إلی صواب القول و العمل أن اللغة المالطیة فرع من دوحة العربیة، و شیصة من تمرها، و هی یتکلّم بها فی جزیرتی مالطة و غودش، و سواء فی ذلک العامّة و الخاصّة، غیر أن هؤلاء یتعلّمون أیضا الطلیانیة و الإنکلیزیة لاحتیاجهم إلی الأولی فی المعاملات، و التجارات، و کتب الشرع و غیرها، و لتنافسهم فی الثانیة لکونها لغة أرباب الحکم، و ذلک لأن اللغة المالطیة لم تدوّن فیها علوم، و لم یشهر فیها کتب فهی عبارة عن الفاظ یتداولونها فیما هو من مقتضیات الأحوال الساقطة دون أن تفی بحاجتهم فیما یقصدونه من وصف أو نسیب أو وعظ، فإذا أرادوا ذلک فزعوا إلی الطلیانیة و هو دلیل علی سفالة طبعهم حیث لم یحافظوا من اللغة إلا علی المبتذل، و إذا أخذوا من الطلیانیة ما مسّت الحاجة إلیه ملطوه و ألحقوه بترکیب لغتهم، کقولهم مثلا: (ما یرنشیش) أی ما یوافق و (کونشیته) أی عرفته. ففی الأول یاء المضارعة و الشین التی یزیدونها بعد النفی کما تزاد أیضا فی اللغة

المتداولة الآن فی مصر و الشام و هی مختصرة من لفظة شیء، و فی الثانیة ضمیر المتکلم و الغائب و کقولهم (عندی بیاشیر) أی سرور، فیجعلون الظرف خبرا مقدّما و النکرة مبتدأ مؤخرا فهو جار علی قواعد العربیة، و قد قلت فیها:

تبّا لها لغة بغیر قراءة و کتابة عین بلا إنسان

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۹۹

تتبلبل الألباب فی ترکیبها و یکلّ عنها کلّ حدّ لسان

أذنابها و رؤوسها عربیة فسدت و أوسطها من الطلیانی

فإن قیل: إن الأذناب و الرؤوس هنا کنایة عن أوائل الألفاظ و أواخرها کأداة المضارعة و ال التعریف و نون الوقایة، و هذه باقیة علی الأصل، فلم وصفتها بالفساد؟

قلت إن أداة المضارعة مکسورة عندهم علی کلّ حال، و کذا أداة التعریف، و الضمیر غیر ظاهر، فإنهم یلفظون به کالواو، و یحتمل أیضا أن یکون (فسدت) دعاء فی المعنی. و مع کثرة ما بقی عندهم من مفردات العربیة و جملها و تألیفها و لا- سیّما فی الأمور المتعارفة کما ذکر، فقد ذهب عنهم مرادف الأب و إنّما یقولون (مسار) بالإمالة و کأنّها محرّفة عن (موسیو) بالفرنسیس، فإن حقّ التلفظ بها أن یکون (مونسیور)، و کذلک ذهبت عنهم کلمة التحیة صباحا و مساء، فیقولون: (بون جورنو علیک)، و لعلّ سبب ذلک أن المسلمین لما افتتحوا جزیرتهم کانت التحیة بینهم (السلام علیکم) و کان استعمالها مقصورا علیهم کما هو فی بلادنا، فلم تعرف بین الأهلین.

و لیس هذا بأعجب من ذهاب تحیات العرب العاربة عن المستعربین، و قولهم الآن (صباح الخیر) الظاهر أنّه مولّد.

و من الغریب أن بعض أعیان المالطیین یحاکون الإفرنج فی أطوارهم و هیئاتهم حتی إذا نطقوا بلغة أنفسهم زال عنهم ذلک الرواء، و انجلی ذلک الإبهام، و إذا تکلّموا خلطوا جملة إیطالیانیة بأخری من لغتهم لکن هذه هی الغالبة فإنّها لغتهم فی الطفولة، و قد أخبرنی أحد فضلائهم أنه أقام مدّة طویلة فی إیطالیة فکان حینئذ یقدر خواطره و أفکاره بلغة أهلها، ثم لما رجع إلی مالطة لم یلبث أن عاد إلی تقدیرها بلغته، فصدق علیه قول الشاعر:

کل امرئ راجع یوما لشیمته و إن تخلّق أخلاقا إلی حین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۰

موقفهم من العربیة

و أغرب منه أن المالطیین یأنفون من تعلّم العربیة بسبب المثلیة بینها و بین لغتهم و هو عین السبب الذی یوجبه علیهم لکونهم و الحالة هذه لا- یعانون فی تعلّمها مشقّة و عناء، و مع أن المالطیین الذین یعاملون أهل العربیة کثیر، و القاطنین فی بلادهم هم أکثر فما أحد منهم یهمه أن یتعلّم العربیة قراءة و کتابة، علی أنک تجد فی جمیع بلدان أوروبا أفرادا یدرسونها حقّ دراستها.

مناقشات وردود

ثم إن آراء الناس لمّا کان من شأنها التفاوت و التباین فی جلاء الحقائق و لا سیّما إذا کان محل البحث غیر منتسق علی و تیرة واحدة، و کانت اللغة المالطیة تشتمل علی ألفاظ من لغات مختلفة اختلفت فیها الأقوال و الأحکام، فزعم بعضهم أنّها فینیقیة لوجود کلمتین فیها منها و هما (البیر، و الصید) کما مرّ بک فی أول هذا الکتاب، و زعم آخرون أنّها حبشیة لوجود لفظة واحدة فیها و هی (المنبر)، فإنّ معناها عندهم الکرسی الذی تلد علیه المرأة کما هو فی الحبشیة، و هو وهم علی ما تحقّقته من أهل اللغة المذکورة.

و علی فرض صحّة ذلک فلا ینکر أحد أنّ کثیرا من الکلام العربی الذی بقی فی أهل مالطة مستعمل بطریقة المجاز إمّا بذکر اللازم و

إرادة الملزوم، و إمّا بتخصیص العام و تعمیم الخاص کقولهم مثلا: و حلت للوقوع فی الأمر الصعب، و أصله الوقوع فی الوحل خاصّة، و نحو الطّلاب للمتکفّف، و هو اسم فاعل للمبالغة من طلب فی کل أمر و نحو مغلوب للنحیف و هو اسم مفعول من غلب، و هو لازم له غالبا، و فتیت أی قلیل، و هو من فتّ الشیء إذا کسرته و صغّرت جرمه، و أشباه ذلک ما لا یحوج

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۱

إلی برهان، فیکون المنبر علی هذا ممّا عدل به عن وجه استعماله تجوّزا، کما أنه عدل به أیضا فی العربیة الفصحی من التعمیم إلی الخاص، فإن معنی النبر فی اللغة الارتفاع، فالمنبر علی هذا آلة الرفع، أو محله، ثم خصّ ص عند قوم بمحل الخطبة و عند غیرهم بکرسی الولادة، و إنّما قلت آلة الرفع أو محله فقد قام الإمام الخفاجی علی شرح درّة الغواص ما نصّه: «هذا تحقیق بدیع لما فیه من الفرق بین اسم الآلة التی تتناول بالید و غیرها، فیتعیّن کسر الأول إلا شذوذا فیفتح بعض من الثانی کمرقاة و منارة لأنّه من وجه آلة و من وجه مکان، و هو فرق لطیف قلّ من تنبّه له أو نبّه علیه.

و الحاصل أنه لا شکّ فی کون المالطیة عربیة، و لکنّی لست أدری أصل هذا الفرع أشامی هو أم مغربی؟ فإن فیها عبارات من کلتا الجهتین و الغالب علیها الثانیة، غیر أن الألفاظ الدینیة من الأولی، فیقولون مثلا: (القدّاس، و القدّیس، و التقربن، و الأسقف، و ما أشبه ذلک) مما لا یفهمه أهل المغرب. و من المالطیین من یقرّ بأنّ لغتهم غیر فینیقیة و لا حبشیة و لکن لا یکادون یقرّون بأنّها فرع العربیة مکابرة و عنادا.

و لا یخفی أن کلّ لغة فی العالم لا بدّ و أن یدخلها بعض ألفاظ أجنبیة إمّا للحاجة إلیها، أو لتقارب أهل اللغتین و اختلاطهما کالعرب و الفرس مثلا و الرومانیین و الیونانین فی الزمن السابق.

و هذه اللغة العربیة مع سعتها و غزارة موادها و کثرة تصاریفها لم تخل عن ألفاظ بعضها من الفارسیة، و بعضها من الیونانیة، و بعضها من الحبشیة و الهندیة و السریانیة و العبرانیة. و لم یقل أحد إن العربیة فرع عن هذه اللغات، فکیف لعقلاء مالطة أن یقولوا: إن لغتهم فینیقیة بسبب وجود کلتین منها فیها؟ و أقبح من ذلک أنّهم یظنّون أنّ فساد لغتهم و انعکاسها عن أصلها العربی لیس من العیب فی شیء قیاسا علی أن الطلیانیة انفسخت علی اللاتینیة و استقلّت بصیغ خاصّة بها دون الأصل و هو مدفوع بأن العربیة لم تنقض دولتها بعد کما انقضت اللاتینیة حتی تستقل المالطیة بقلیل موادها، و بأن المالطیة لم یؤلّف فیها شیء إلی الآن من کتب العلم و الأدب، و لم یتکلم بها أقوام، فالفرق واضح، و الحاصل أنّهم لا یرون فسادها و لا یشعرون بقبحها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۲

ضرورة أنّهم لم یطّلعوا علی محاسن أصلها الذی حلّئوا عنه.

نعم إن أهل الشام و مصر و الحجاز و غیرهم قاصرون عن اللحاق بأهل العربیة الفصحی، و لکن ما منهم إلا من یشعر بقصوره عنها، و یدری عظم التفاوت بین الطرفین، و کلّ یودّ لو یصل إلی درجة الکمال فی معرفتها، و کنت ذات یوم سائرا مع جماعة منهم فأخذ أحدهم یصف لغتهم، و جعل من محاسنها اجتماع الألفاظ العجمیة فیها کأنه یقول: إنّها انتقت ما شاق وراق فمثلها مثل العجوز التی رأت زوجها یزنی.

تعصّب المالطیین ضد العرب

و لشدة تعصّب المالطیین علی أهل العربیة و تشنیعهم علیهم، إذ کان منتهی السّب عندهم أن یقولوا عربی، کان الإنکلیز و سائر الإفرنج أقرب منهم إلی تعلّمها غالبا، و لو کان عند أولئک رکن منها عظیم، و ذلک أن المالطی العنید إذا سمع فی العربیة مثلا لفظة خرج، و کانت عادته منذ نطق أن یقول حرج فلا یری فی ذلک کبیر فرق، و لا یری أن نقطة صغیرة تقوّم المعنی أو تفسده بخلاف من یتعلّم من أول الأمر أن یقول الکلمة علی حقّها. و کانوا إذا سمعونی و صاحبی نتکلّم قالوا لیس من فرق کبیر بین اللغتین إلا عجمة

فی لغتهم یعنوننا، و لا یخطر لهم ببال أن لغة لم تضمّن بطون الأوراق، و لم تضبطها الأحکام النحویة لا تکفی النوع الإنسانی.

و قد تصدّی مرّة أحد مؤلفیهم إلی تألیف کتاب نحو فیها، فکتب بعد طالعته:

«ألف بتو اللغة المالطیة»، ثم ذکر العین بعد الألف، فکان خلفا لأن جمیع اللغات التی تبتدئ بهذا العنوان تکتب فیها الباء بعد الألف، فلمّا وقفت علی ذلک کتبت له:

یا قائلا ألفا بتّو و بعدها ألف عین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۳

إن کان ذا البدء مینا فکل ذا النحو مین

و یقال: إن جمیع اللغات القدیمة و الحدیثة تبدأ بالألف إلا الحبشیة فإنه فیها الحرف السابع عشر، و الظاهر من ترتیب حروف المعجم فی العربیة و السریانیة و العبرانیة أنّها أی العربیة لا ارتباط بینها و بینهما.

لفظهم للحروف

أهل مالطة یلفظون الغین أینما وقعت عینا، و الخاء حاء، و الفلاحون منهم یلفظون القاف همزة، و یشمّون الألف فی نحو قال و باع الضمة، و هو غریب فإن الضم أیضا عند الهمج من أهل الشام، و ینطقون بالضاد دالا و بالطاء تاء، و لا یلفظون العین إذا کانت متطرفة أصلا فیقولون تلا أی طلع و سما أی سمع، و یقال: إنّهم کانوا فی القدیم یلفظون الثاء علی حقّها. و ممّا یضحک منه أن الفلاحین إذا خدموا أهل فالتة غیّروا لهجتهم فلفظوا الغین عینا، و الخاء حاء توهّم أن لغة هولاء هی الفصحی.

و أهل غودش یمیلون الألف فی نحو فیها و منها، و الجمیع ینطقون بالجیم نطق أهل الشام إلا فی قولهم جدی فإنّهم یلفظونها کأهل مصر، و الظاهر أن حق لنطق به أن یکون قریبا من مخرج الشین کما فی لغة أهل الشام.

استطراد فی تنافر الحروف

ففی المزهر فی الفائدة الخامسة من النوع التاسع، و هو معرفة الفصیح ما نصّه: قال الشیخ بهاء الدین فی عروس الأفراح قالوا التنافر یکون إمّا لتباعد الحروف جدّا أو لتقاربها، فإنّها کالطفرة و المشی فی القید. نقله الخفاجی فی سر الفصاحة عن الخلیل بن أحمد و تعقبه بأن لنا ألفاظا حروفها متقاربة و لا تنافر فیها کلفظ الشجر و الجیش و الفم، و قد یوجد البعد و لا تنافر کلفظ العلم و البعد، ثم رأی الخفاجی أنّه لا تنافر فی البعد و إن أفرط بل زاد فجعل تباعد الحروف شرطا للفصاحة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۴

فی الإبدال و جوازه

و قال الاشمونی عند ذکر الإبدال: الشین أبدلت من ثلاثة أحرف: الکاف، و الجیم، و السین. فالکاف نحو أکرمتک قالوا أکرمتش، و هی کشکشة تمیم کما تقدم، و الجیم کما فی قوله إذ ذاک حبل الوصال مدمش أی مدمج، قال ابن عصفور:

و لا یحفظ غیره، و سهّل ذلک کون الجیم و الشین متّفقین فی المخرج. إلا أنّه یظهر أیضا أن الجیم کثیرا ما تبدل من القاف و الکاف مما یؤید مذهب أهل مصر، فمن إبدالها من القاف قولهم: قفّ العشب و جفّ و المقذاف و المجذاف، و قلمه و جلمه، و القشم و الجشم، و شق و شج، و القرقس و الجرجس، و قصّ و جزّ، و تلقف الحوض و تلجف، و الشرق و الشرج، و نظائر ذلک کثیرة. و من إبدالها من الکاف قولهم کد وجد، و کهد و جهد، و أکن و أجن، و کرع و جرع، و کلبة الزمان و جلبته، و المکالحة و المجالحة، و عکر به و عجر، و الرکس و الرجس، و ما أشبه ذلک.

فعلی هذا یکون استعمال أهل مصر له صحیحا و یؤیده ما ورد فی المزهر فی النوع الرابع عشر قال: المهمل علی ضربین ضرب لا یجوز ائتلاف حروفه فی کلام العرب البتّة، و ذلک کجیم تؤلّف مع کاف، أو تقدیم کاف علی جیم، و کعین مع غین أو حاء مع هاء. و أیضا فإنهم یعرّبون مرّة بالجیم و أخری بالقاف، مثال الأول: الدیزج و النبریج، و مثال الثانی: الرستاق و الفرزدق. و ربّما أبدلت من الحرفین معا کقولهم سهجة و سهکه و سحقه. و الذی یظهر لی أن ذلک لغة لبعض العرب، غیر أن أهل الصعید و المغاربة و أهل الحجاز ینطقون بها کأهل الشام.

عودة إلی نطقهم الحروف

ثم إن أهل غودش ینطقون بالأحرف الحلقیة علی حقّها إلا أنّهم یکسرون ما قبل الواو الساکن فیقولون: مکسور و مفتوح، و یضمون ما قبل الألف نحو قاعد، و هلم جرا. و یقولون منکم و علیکم بکسر الکاف، و هی لغة ربیعة، و قوم من کلب کما فی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۵

المزهر فی النوع الحادی عشر، و تسمّی الوکم. و یقولون منهم و بینهم و هی أیضا لغة کلب.

من شعرهم

و من سفهاء المالطیین من یدّعی النظم بلغتهم هذه الفاسدة، و یقال له عندهم التقبیل، فمن ذلک قولهم:

ین حنینا ساین نسافر ساین نسافر ما ناحدکش معی

مور وهیا بالسلامه الله یظمک فی المحبة تیعی

و بقی هنا حل ما أعجم من الألفاظ قوله ین بمعنی أنا، و حنینا بمعنی حبیب منادی محذوف منه حرف النداء، و من الغریب هنا أن المنادی إذا کان عظیما خطیرا یدخلون علیه أداة النداء من الطلیانیة فیقولون أو مولای، و إذا کان حقیرا أدخلوا علیه أداة النداء من العربیة، فیقولون یا تفاح یا عنب، و قوله ساین نسافر هی مثل قول عامّة مصر و الشام رایح أسافر. و ما ألطف هنا عبارة الإمام الزمخشری فی شرحه لامیة العرب اذ قال: و أمّا المستقبل و إن کان معدوما فی الحال، و لکن هو مار إلی الوقوع.

و النون فی نسافر علامة للمفرد المتکلم لا الجمع فإنه نسافرو و هی لغة أهل المغرب، و الشین فی ناحدکش لازمة عندهم بعد النفی و الاستفهام کما فی العربیة الدارجة.

و من أهل الشام من یراها أیضا لازمة و لو بعد الجملة، فیقولون: ما هو کتیرش فکأن إبرازها ضربة لازب. و میعی أصله معی و مور فعل أمر من مار أی ذهب، و هو فی اللغة کذا، و هیا اسم فعل بمعنی أقبل، و ذکره صاحب القاموس مکرّرا و فسره بأنه زجر، و هو غریب و لا یبعد أن یکون أصله حی.

و یطربنی ما روی عن ذلک الأعرابی الذی سمع رجلا یدعو آخر بالفارسیة یقول له

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۶

زود، فقال لأصحابه ما یقول؟ قالوا یقول: عجّل؛ فقال ألا یقول: حیّ هلک؟ و علی حیّ هلک تخرج أحجیة بدیعة. و یظمک أصله: إمّا یزمک، أو یضمک و ما قبل الضمیر المنصوب مضموم، و هذا من بعض آثار محاسن العربیة القدیمة فی هذه البلاد، و الباء من المحبة مفتوحة فتحة مشبعة، و کذا هی فی کل مکان به علامة التأنیث نحو طیبة و کبیرة، و هی أیضا من تلک الآثار، و أحسن من الإمالة، فأمّا تیعی فقد خبط فیها بصراؤهم خبط عشواء و ذلک لأنّهم یدخلون بین المضاف و المضاف إلیه لفظة تا فیقولون مثلا: الدار تا الطبیب. فمنهم من زعم أنّها من الطلیانیة فإنّ المضاف فیها یفصل عن المضاف إلیه بلفظة دی، و منهم من زعم أنّها من السریانیة فإنها فیها کذلک، ثم إذا أضافوا تا إلی الضمیر برزت معه العین فیقولون تاعنا؛ فلهذا لم یدرکوا أصلها، و الصحیح أنّها محرّفة من متاع

فإن أهل المغرب یدخلونها کثیرا فی الإضافة و یبتدئون بالمیم ساکنة علی عادتهم من الابتداء بالساکن، و تقصیر اللفظ، و ربّما قالوا نتاع بالنون ساکنة أیضا.

فأمّا العین فإن المالطیین لا یکادون ینطقون بها إذا وقعت آخر الکلمة فیقولون: تلا و قلا فی طلع و قلع کما ذکرنا آنفا، و یحذفونها أیضا فیما إذا اتصل به ضمیر فیقولون طلیت و قلیت جریا علی حذفها بغیر اتصال الضمیر، و قلب العین ألفا أو همزة من أسالیب العرب کما فی تفصی و تفصع، و أقنی و أقنع، و الشما و الشمع، و تکأکأ و تکعکع، و زقاء الدیک و زقاعه، و زأزأ و زعزع أی حرک، و بدأ و بدع، و امرأة خبأة و خبعة، أی تختبئ تارة و تبدو أخری، و الخباء و الخباع، و الخبء و الخبع، و نظائر ذلک کثیرة حتی قلبوها أیضا متوسّطة کما فی تأرّض و تعرض، و دأم الحائط و دعمه. فأمّا تلیین الهمزة ألفا فأشهر من البینة علیه.

و ممّن حرّف أیضا لفظة متاع أهل مصر فقلبوا المیم باء، و هی لغة لبعض العرب کما فی درّة الغواص، فیقولون: با اسمک فی ما اسمک. و اعلم أن فصل المضاف عن المضاف إلیه بأداة أسلوب حسن یفید التنصیص، و ذلک ما إذا کان المضاف منعوتا بنعت صالح لأن یعود علی المضاف إلیه أیضا، کما فی «عذاب الله العظیم»، بخلاف ما لو کان بینهما فاصل، و الأرجح رجوعه إلی المضاف کما فی المغنی.

و من نظم المالطیین أیضا، و هو معنی حسن، و لکنّه مکسوّ قبیح اللفظ و السبک:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۷

المحبوب تاقلی سافر لیلی و نهاری نبکیح

جعلتلو بدموعی البحر و بالتنهیدات تا قلبی الریح

و هو یشبه قول لسان الدین الخطیب:

و البحر قد خفقت علیک ضلوعه و الریح تبتلع الزفیر و ترسل

و مثله قول القاضی الفاضل:

کأن ضلوعی و الزفیر و أدمعی طلول و ریح عاصف و سیول

و قول إبراهیم بن سهل الإشبیلی:

إذا أنست رکبا تکفّل شوقها بنار قراه و الدموع بورده

و مثله ما ذکره علی بن ظافر فی بدائع البدائه:

«شراعها من فؤادی و بحرها من دموعی».

و بقی هنا إصلاح فاسد اللفظ: فنقول قد مرّ شرح تا أنها تکون بین المضاف و المضاف إلیه و نبکیح الحاء مبدلة من الهاء و هی لغة للعرب أیضا، فیقولون: المله و المیح، و الهاضوم و الحاضوم و المده و المدح، و تاه و تاح، و شقه النخل و شقحها، و قوله البحر محرکة جار علی القیاس من أن الاسم الثلاثی الذی أوسطه حرف حلق یجوز الفتح فیه نحو: شعر و شعر، و نهر و نهر. قال الإمام الخفاجی فی شرح درّة الغواص:

قال ابن جنّی فی المحتسب قرأ سهیل بن شعیب السهمی جهرة و زهرة فی کل موضع محرکا، و مذهب أصحابنا فی کل حرف ساکن بعد فتح لا یحرّک إلا علی أنه لغة فیه کالنهر و النهر و الشعر و الشعر. و مذهب الکوفیین أنه یجوز تحریک الثانی لکونه حرفا حلقیا قیاسا مطردا کالبحر و البحر. و ما أری الحق إلا معهم.

و ممّا أنشدنیه أحدهم بمحضر جماعة:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۸

ینا اشتقت نجی فوق سدتک نجی شبیهه تا عصفور

نطفی المصباح بجوانحی نعطیک بوسه و نرجع نمور

فقلت له: لو قلت نأخذ بوسه لکان أولی لأنّ من یأخذ هنا خیر ممّن یعطی، فلم یفهم، و استعادنیها فأعدتها علیه فلم یفطن لها لا هو و لا- هم أیضا، لأن المعاریض و المطارحات عندهم فی کساد عظیم، و المراد بالسدّة عند المالطیین نفس الفراش، و هو فی اللغة باب الدار، و عندی أنّ قدماء المالطیین کانوا همجا یرقدون علی الأبواب فسمّوا کلّ مرقد سدّة، کما أنّهم سمّوا کلّ مکنسة مسلحة و هی فی الأصل آلة للسلح و هکذا کانوا یستعملونها، ثم أطلقوها علی کلّ ما ینظّف به المکان، و لهذا نظائر کثیرة، إلا أن أهل طرابلس الغرب یستعملون السدّة أیضا بمعنی الفراش.

و قد ذکرت یوما لأحد من یتوسّم فیه الأدب من أهل مالطة سعة العربیة فی البدیع و خصوصا التوریة، فقال: و کذا هی المالطیة. و ذکر هذه الجملة و هی عندک تینا تا اللحم، فقال: تینا هنا یحتمل أن تکون مضارعا من تیته یرید من آتیته أو أعطیته، و تا اللحم یحتمل أن یکون معناها ما یخصّ اللحم أی ثمنه، و عندک هنا إغراء، و علی المعنی الثانی یحتمل أن تکون لفظة تینا مفرد التین و تا اللحم مضاف إلیها أی تینة لحم و المعنی عندک تینة لحم کنایة عن الإست، و إغراؤهم بعند لیس علی القیاس فإنّهم یدخلونها علی الأفعال خاصّة، و من توریاتهم أیضا قولهم: علاه من غیر ماء یوهمون به من غلاء السعر.

ما بقی فی لغتهم من فصیح العربیة

و ممّا بقی عندهم من فصیح العربیة قولهم دار نادیة، و حقّها ندیّة و لکنّها أفصح من قول أهل مصر و الشام ناطیة. و قابلة أی دایة، و خطر و مخاطرة أی رهان، و غرفة أی علّیة، و قولهم فی الدعاء عمروا و تمروا، و بدا لی أی عنّ لی، و تطاول، و یشرف و صدید و بطحاء و تجالدوا و هو أفصح من تعارکوا، و زفن أی رقص، و بوقال و هی أفصح

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۰۹

من قول أهل الشام شربة أو نعارة، و یماری أی لا یقنع بالحق، و یشرق بالماء، و یستقصی، و فرصاد للتوت، و سفّود. و أهل الشام یقولون: سیخ و شیش. و قد ورد فی کلام النابغة الذبیانی بقوله: «سفود شرب نسوه عند مفتأد» و تقزّز أی تباعد من الأدناس، و عسلوج للقضیب، و جلّوز و هو البندق الذی یؤکل، و لکن هذه الألفاظ کلّها مستعملة فی الغرب؛ و بهذا یترجّح أن أصل المالطیین من المغاربة. و من ذلک ضمّهم آخر الفعل المضارع أحیانا نحو: یحسبک و یبدلک، و قولهم: وعدة وزنة، و هما اسمان من وعد و وزن لا مصدران، و لذلک سلم فاؤهما کما قال الحماسی:

و إذا أتی من وجهة بطریفة لم أطّلع مما وراء خبائه

قال الشارح و من روی من وجهه فمعناه من سفره الذی توجّه إلیه، و یروی: لم أطّلع ماذا وراء خبائه. و معنی البیت لم أعرض نفسی علیه متعرّفا ما جاء به من سفره لیشرکنی فی طرفه یجعلنی أسوة نفسه.

مما یضحک من کلامهم

و مما یضحک من کلامهم قولهم هذا رجل من الکلاب و امرأة من الحمیر یعنون:

ذکرا و أنثی لأنّه لیس عندهم لفظ مرادف لهما فیضطرّون إلی هذا التعبیر القبیح، و یقولون عمل اللحیة أی حلق وجهه، و کذلک إذا حلق شعر عانته أیضا. و یقول أحدهم للآخر عند الإبانة و الإفصاح ین نکلمک بالمالطی، فکأنه یقول إنّ هذا الکلام قد بلغ من البیان بحیث لا یبقی للسامع محلّ للشّکّ فیه، و یکثرون من جملة «قال لی» یکرّرونها فی أثناء الکلام مرارا، و إذا قصدوا توکید خبر کرّروا اللفظ خمس مرّات فأکثر، فیقولون: ما ریتوش قط قط قط قط قط، و ما کان لیش فلوس خلاف دا بز بز بز بز بز أی بس و خاده أی أخذه کله کله کله و ما یسوی شی شی شی شی. و نحو ذلک. و من أوزان کلامهم فاعلة للمصدر فیقولون: عملته

بالواقفة أو بالقاعدة، قال شارح الشافية: اعلم أن مجيء المصدر على وزن فاعلة أقل من مجيئه على وزن مفعول كالعافية نحو عافاه الله عافية، و العاقبة نحو عقب فلان مكان أبيه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۱۰

عاقبة، و كالباقية كقوله تعالى: فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ أى بقاء، و كالكاذبة كقوله تعالى: لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ أى كذب. و أهل الشام يقولون: يطلع بالطالع، و ينزل بالنازل. و من ذلك وزن فعل بالضم نحو سدد و صرر و هو نادر، و الأسماء الثلاثة التى أوائلها ضمّة يتبعونها ضمة أخرى نحو عمر و شغل و هو أيضا جار على القياس. و كذلك التى أوائلها كسرة نيتبعونها كسرة أخرى نحو عجل و رجل.

من قبيح عادتهم فی الكلام

و من قبيح عادتهم فى الكلام هم و سائر الإفرنج توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون محاشاة، فيقولون مثلا: إنّى أحبك ما دمت حيّا، و هذا الحرّ يقتلك، و هذا النبات يقطع لك مصارنك أى مصارينك، و هذا التراب يعميك، و إذا مت جاء الطبيب و شرّح جسمك عضوا عضوا، أو يقول لك العائد لا- تله عن دائك فإنه قتّال، و غير ذلك ممّا يقتضى فيه الإطلاق ألا ترى ما قاله سيد الفصحاء و البلغاء حبك الشيء يعمى و يصم، و لم يقل يعميك و يصمك و إن يكن المعنى عليه.

فأمّا إمالة صوتهم عند الكلام، هى التى تسمّيها الإفرنج امفازس، فغريبة على من لم يتعود سماعها فإنّ لهم مدّا فى الصوت، و خفضا غير مألوف لأهل العربية حتى إن الإنكليز المولودين بمالطة يجرون هذه الإمالة فى لغة أنفسهم انعداء من المالطيين، و قد يعدّ هذا النوع عند الإفرنج من لوازم الفصاحة و لكن ليس كالذى يجريه المالطيون فإنّهم فيه مشطّون، و هو يكاد أن يكون فى العربية مفقود الاسم و المسمّى أو لعلّه هو اللهجة، و قد لا حظت فى أثناء قراءة المشايخ أنّهم كانوا يمدّون صوتهم عند التباس المعنى ترويا فيما يستقبلونه، فكان هذا المدّ ضرب منه.

و ممّا يضحك أيضا أن للمالطيين لازمة فى الكلام يكرّرونها و هى سميتش محرّفة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۱۱

عن سمعت فعلا ماضيا و الشين لازمة بعد الاستفهام كما هى بعد النفى، و لمّا كان الإنكليز يسمعونها منهم مرارا أطلقوها علما على من يجهلون اسمه عند النداء، و على الولدان الذينيخدمون الطعام.

قوة العربية و تمكنها

ثم إن بقاء اللغة العربية فى جزيرة مالطة و لو محرّفة مع عدم تقييدها فى الكتب دليل على ما لها من القوة و التمكن فيمن تصل إليه من الأجيال، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعدّدة ودّوا لو يحملون أهلها على التكلّم بلغاتهم فلم يتهيأ لهم، و بقوا محافظين على ما عندهم منهم خلفا بعد خلف، و هؤلاء الإنكليز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات جميعا و أشهرها، و ما تهيأ لهم أن يعمّموها عند المالطيين؛ نعم إن الخاصّة منهم يتعلّمونها و لكن ليسوا عليها بمطبوعين؛ فإن محاوراتهم بين أهليهم إنّما هى بالمالطية لا غير، و ليس الطبع كالتطبّع، و لا الكحل كالتكحّل.

و يقال: إنّ الذى تحصّل عند أهل مالطة من العربية ممّا هو مأنوس الاستعمال و غير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة، مع أن الذى جمع ذلك جرى على طريقة الإفرنج من أنّهم يقيدون فى كتب اللغة جميع الألفاظ المشتقّة كاسم الفاعل و المفعول و الآلة و الاسم المنسوب، و إلا لكان هذا القدر كافيا فى المحاورات للإفصاح عمّا فى الخاطر، فأمّا فى الكتب فلا، و لا أحسب الكلام المستعمل الآن فى برّ مصر و الشام يزيد على هذا القدر، غير أن أهل الشام فيما أظن أكثر مواد من أهل مصر كما أن هؤلاء أحسن منهم نسق عبارة و

الله أعلم.

تمّ الجزء الأول المسمّی بالواسطة إلی معرفة مالطة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۱۳

القسم الثانی المسمی بکشف المخبا عن تمدّن أوربا

اشارة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۱۵

من مالطة إلی إنکلترة

مسینة

أقول بعد الحمد لله إنه فی الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثانی یوم من أیلول سنة ۱۸۴۸ سافرنا من مالطة إلی إنکلترة، و بعد نحو ساعتین غابت عنّا أرضها و لکن لم أقل کما قال الشریف الرّضی:

و تلفتت عینی فمذ خفیت عنا الطلول تلفّت القلب

و بعد خمس ساعات ظهرت لنا أرض جزیرة صقلّیة، و فی نحو الساعة الثامنة من صباح الغد أرسینا فی مرسی مسینه، و کان فیه یومئذ بوارج ملک نابولی لحصار البلد، فکانت تطلق المدافع علیه، و یأتیها جوابها من القلعة، فلذلک لم نقم بها إلا بعض دقائق.

صقلّیة

و یقال إنّ سکان صقلّیة الأقدمین کانوا من إسبانیا، و کان یقال لهم سیکاننی، ثم قدم إلیها الأطروسکان من إیطالیا فی سنة ۱۲۹۴ قبل المیلاد، ثم استوطنها الفینیقیّون و الیونانیون، ثم جاء القرطاجنیون و استولوا علی الجزیرة کلّها إلی أن أخرجهم منها الرومانیّون، و فی سنة ۸۲۱ للمیلاد فتحها المسلمون و جعلوا مقرّ الحکومة فی بالرمو، و لبثوا فیها مائتی سنة إلی أن أخرجهم منها الأمیر روجر الرومانی. و فی تاریخ الروانیین لغیبون أنّها فتحت فی زمن المأمون فی سنة ۸۲۳، و زعم بعض المؤرّخین أنّها کانت متّصلة بالأرض ففصلتها الزلازل المتتالیة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۱۶

نابولی

و فی نحو الساعة الحادیة عشرة من صباح الاثنین بلغنا نابولی، و هی مدینة ظریفة مشهورة بکثرة العواجل و الملاهی و الحظ و المتنزّهات الزهیة و الفاکهة الرخیصة الطیّبة.

و فیها عدّة کنائس حسنة، و أحسن طرقها حیث الحوانیت العظام الطریق المسمی تولیدو. و لو لا أنّ مملکة نابولی عرضة للزلازل لکانت أحسن بقاع الأرض لخصبها و اعتدال هوائها.

شیفتا فکیه

ثم سافرنا منها فی ذلک الیوم فوصلنا إلی شیفتا فکیه فی صباح الثلاثاء فأقمنا فیها ساعات، و لیس فیها شیء یقرّ العین.

لیفورنو

ثم سافرنا منها یوم الثلاثا و قد تزوّدنا بعض فاکهة فوصلنا إلی لیفورنو فی صباح الأربعاء، و ظاهر هذه المدینة للناظر دون ظاهر نابولی لکنّها من داخل أکبر، و طرقها أوسع و بناؤها من الآجر المحکم و دیارها شاهقة إلا أنّها لیس لطرقها ممشی علی الجوانب للناس، و کذا هی مدینة نابولی و مرسی لیفورنو حسن، و فیها ملهی و عدّة أعلام و مدارس للیهود یقال: إنه أعظم مدارس لهم فی أوربا، و مکتبة موقوفة و هی ذات أشغال، و تجارة أهلها نحو (۰۰۰، ۷۶) و فی القرن الثالث عشر لم تکن إلا قریة حقیرة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۱۷

جینوی

ثم سافرنا منها إلی جینوی فبلغناها فجر الخمیس، و هذه المدینة مشهورة بکثرة الصروح العالیة و الدیار الشاهقة جدّا، و فیها قصور کثیرة من المرمر، و بساتین ناضرة و فاکهة طیّبة، و هی فی نجوة من الأرض متفاوضة الوضع، و طرقها أضیق من طرق لیفورنو، و لهذا کانت عواجلها أقل من تلک، إلا أنّ الشمس لا تستحکم فی مسالکها لکثرة شرفات الدیار المائلة، فکأنّها مبنیّة من أصلها لحجب الشمس.

و فیها حوانیت بهیجة و لا سیّما حوانیت الصاغة و لها قنطرة قدیمة شاهقة جدّا إذا نظرت منها إلی الحضیض هالک ارتفاعها. و فیها الفاکهة الطیّبة، و الخبز النظیف، و محل قهوة فی غیضة أنیقة، و هی فی الحقیقة نزهة للناظرین و ما أشبّهها إلا بدمشق، و لیس علی من یدخلها إن یدفع شیئا.

لمحة تاریخیة

کان تأسیسها فی سنة ۷۰۷ قبل المیلاد، و کانت فی زمن دولة الرومانیین حافلة غنّاء. و فی القرن الحادی عشر امتدّت تجارتها بحرا و برّا، و فی مدّة الحروب الصلیبیة صارت مضاهیة لفینیسیه فی الغنی و الثروة حیث کانت موردا للعساکر التی کان یراد تجریدها إلی البلاد المشرقیة، ثم وقع فیها من الفتن و التحزّب ما أضعف دولتها فدخلت فی حمایة دولة فرنسا، ثم فی عهدة شارلکان (أی کارلوس الخامس الشهیر) فاستخلصها من الفرنسیس، و صارت تتحزّب مع إسبانیا علیهم، و فی سنة ۱۷۹۶ استولی علیها الفرنسیس أیضا و فی سنة ۱۸۰۰ حاصرهم فیها الإنکلیز و الروس و عساکر أوستریا حصارا دیدا فاضطروا إلی تسلیمها، ثم رجعت إلی عهدة فرنسا.

و فی سنة المهادنة و هی سنة ۱۸۱۴ سلّمت لملک سردینیة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۱۸

مرسیلیة

ثم سافرنا منها یوم الخمیس بعد الظهر فبلغنا مرسیلیة فی الساعة العاشرة من صباح یوم الجمعة، و لهذه المدینة مرسی عظیم یسع ألفا و مائتی سفینة و لا یزال مشحونا بالبواخر. و لکثرة ورود المراکب إلیها قطعوا خلیجا من البحر و وصلوه به.

و فیها عدّة مکاتب و ملهی یعدّ من أحسن ملاهی أوربا، و بستان للنباتات، و مکتبة موقوفة، و مصرف فسیح أعنی البورس. و فی ضواحیها أکثر من خمسة آلاف دار، و لها تجارة واسعة مع المشرق و إفریقیة و أمیرکا و إنکلترة و البحر الأسود، کان تأسیسها فی سنة ۵۹۹ قبل المیلاد، و کانت فی الزمن القدیم ملحقة بولایات الرومانیین و منها توصّلوا إلی فتح فرنسا.

و فی هذه المدینة محال عظیمة للقهوة مغشاة حیطانها، و سقوفها بالمرایا و النقوش و التماثیل، و أمامها مصاطب یقعد علیها الناس، و

إن لم يشتروا شيئا منها. و أهل المدينة يصرفون فيها أكثر أوقاتهم كل طبقة منهم تنتاب منها محلا خاصا. و فی بعضها ترى قيانا حسانا يغنين و هنّ كاشفات الصدور، و عند ملهاها عدّة ديار تسكنها المومسات يستدعين الغادی و الرائح، و هی وسخة الحارات و الأطراف لكنها بهيّة الحوانيت و الديار مبلّطة الطرق. و ليس فی ديارها مراحيض و إنّما يجمعون أقذارهم فی وعاء إلى أن يأتی رجل معه عجلة و عليها برميل كبير فيناولونه الوعاء فيفرغه فی البرميل. و ما يجمعه فيه فإنه يبيعه لتدميل الأرض، و لا أعرف مدينة أخرى بهذه الصفة، و منهم من يقذف بالأقذار أمام البيوت ليلا فلهذا يشم الماشی فی أكثر طرقها رائحة كريهة، و ماؤها فی بعض الديار أجاج و لعدم الاكتفاء به نهروا إليها نهرا كبيرا من مسافة نحو ستّين ميلا فأحوج ذلك إلى أن ينقبوا له بعض الجبال، ثم بنوا عليه جسرا عظيما يشتمل على نحو ثلاثة صفوف من القناطر بعضها فوق بعض، و فی كلّ صفّ خمسون قنطرة، و ارتفاع علياها من الحضيض نحو مائة و عشر أذرع، و عرض الماء الجارى فيه تسع أذرع و نصف فی علوّ مثلها، و جميع أحجار هذا الجسر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۱۹

ضخمة جزيلة، و بعد إجراء هذا النهر كثرت عندهم الحياض و العيون و وفرت الفاكهة و البقول، و صارت بساتينها فی غاية الريع و النضارة.

و فی هذه المدينة عدّة عرصات محفوفة بالشجر يتمشّی فيها الناس، و تضرب فيها آلات الطرب العسكرية، و فی أحد هذه المماشی حوانيت تفتح خمسة عشر يوما فی السنة تجمع إليها جميع التحف و الطرائف و أكثر البلعة فيها بنات حسان فإذا مررت بحانوت حرت بين أن تنظر إلى البائعة أو إلى البياعة. و فيها يوجد أيضا محالّ للعب و الغناء و اللهو و مشاهدة غرائب الأشياء مصوّرة على خارج المحل دليلا على وجود أعيانها فی داخله.

و قد أخبرنی من يوثق به أنّه شاهد فيها امرأة و رجلا قد عصب على عينيها بمنديل لكيلا تبصر الحاضرين، ثم جعل يأخذ من بعضهم خاتما و نحوه و يجعله فی كفه مطبقة عليه ثم يسال المرأة عمّا بيده فتجيبه و لا تخطىء، و إنّه أخذ مرّة درهما قيمته عشرون فرنكا و سألها فقالت: فی يدك درهم قيمته عشرون فرنكا. فقال: و يحك ليس فی هذه البلاد درهم على هذا الضرب. فقالت: إنّه من ضرب الصين. و كان كذلك، و سألها مرّة أخرى عن درهم فرنساوی فأجابته بأنه يساوی كذا، و قد ضرب فی عام كذا، فلمّا سمعت ذلك أعظمته لما أنه كان أول مرّة طرق مسمعی، ثم لما شاهدته عدّة مرار بمرأى العين فی باريس و لندرة سقط اعتباره من بالی إذ تحقّقت أن مع السؤال الذی يلقيه الرجل على المغمض العينين ينبهه على نوع ذلك الشیء المسؤول عنه بلحن من القول لا يدركه إلا هو و على كل حال ففی التلقين و التلقن حذق و دربة. و فی الجملة فإن مرسيلية إنّما يستحسنها من قدم إليها من البلاد المشرقية لا من باريس و لندرة.

فی الطريق إلى ليون

ثم سافرنا من هذه المدينة فی الساعة الرابعة يوم الأحد فی سكّة الحديد، فكان البحر عن شمالنا و الجبال و الغياض عن يميننا فلم يكن منظر أبهج منه، و أظن أن بلاد فرنسا أكثر بلاد الدنيا غياضا و حدائق. و كثيرا ما كنّا نسير فی حافلة المجدّ نحو ساعة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۰

بين الأجم، و السبب فی تكثيرها احتياجهم إلى الوقود بخلاف بلاد الإنكليز فإن أكثرها سهول و مروج و حقول لاستغنائهم عن الحطب بفحم الحجر، و فی فرنسا الجنوبية تنبت جميع الأشجار المعروفة عندنا، و ذلك كالتين و البردقان و العنب و الزيتون و الليمون ممّا هو معدوم فی بلاد الإنكليز، غير أن كروم العنب عندهم لا تبلغ فی النمو و الكبر كروم الشام. و فی مسافة الطريق دخل الرتل فی قبوة مظلمة منقورة فی الصخور فسار فيها نحو عشر دقائق فكان أمرا عظيما لمن لم ير مثله من قبل.

مدينة ليون

ثم بلغنا مدینة لیون بعد سفر نحو أربع ساعات لم یغب فیها عن أبصارنا ذلک المنظر الأنیق، و هذه المدینة و سخة الطرق غیر أنها حسنة الموقع، و حوانیتها واسعة عظیمة، و فیها معامل لثیاب الحریر و القماش، و حریرها مشهور. فأمّا الشریط و نحوه فإنه یصنع فی صنت اتیان، و لها مماش حسنة، و ملهی عظیم، و مکاتب عدیدة، و مدرسة ملوکیة، و محکمة جلیلة هی من فاخر البناء، و مکتبة موقوفة، و متحف، و بستان للنباتات، و عدد أهلها (۰۰۰، ۳۳۰) و فیها یجتاز نهران أحدهما یقال له: رون و الثانی صون تسیر فیهما بواخر مشحونة بالبضائع و المیرة تمر علی جملة مدن من بلاد فرنسا، ثم یلتقیان و یصیران نهرا واحدا ممتدا إلی بحر مرسیلیة، و لا تکاد تمضی سنة من دون أن تزخر شواطئه علی الأرضین، و قد طغی فی هذه السنة حتی کانت الناس تسیر فی شوارع المدینة فی قوارب، فهدم کثیرا من البیوت و الجسور؛ و أهلک کثیرا من الماشیة و الناس و أتلف الغلال فیما جاوره؛ فانتخی سائر سکان فرنسا إلی إمدادهم و إغاثتهم، و اقتدی بهم الإنکلیز أیضا. و علی هذا النهر جسور من حدید و حجر و عدّة مغاسل للنساء.

فی الطریق إلی باریس

ثم سافرنا منها فی الساعة الرابعة من یوم الثلاثاء فی حافلة المجدّ المعروف

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۱

بالدلیجانس فبلغنا برجا فی الساعة السادسة من الیوم الثانی، و منها سافرنا فی سکة الحدید إلی باریس فوصلنا الیها فی الساعة الرابعة من صباح الخمیس، و سیأتی وصف هذه المدینة بعد فراغی من وصف إنکلترة إن شاء الله، و إنما أقول هنا إنّا لما وصلنا إلیها کانت السیاسة جمهوریة إذ کانوا قد خلعوا الملک لویس فیلیب عنا لملک ففرّ بنفسه و أهله إلی بلاد الإنکلیز ملجأ الفارّین، و مأمن القارّین، و مهما حصل فیها و قتئذ من الشغب و سفک الدماء فلم یکد الإنسان یتمیّز المفجوع من أهلها من المغبوط؛ فإن منتزهاتها لم تزل حافلة بالناس. ثم بعد أن لبثنا یومین فی باریس سافرنا فی سکة الحدید إلی کالی أو کالس و ذلک فی الساعة الثانیة بعد الظهر من یوم الأربعاء الواقع فی السابع و العشرین من أیلول؛ فبلغناها فی الساعة السابعة مساء.

کالی

و کالی هذه إحدی فرض فرنسا المقابلة لإنکلترة، و هی دون بولون، و کانت سابقا تحت استیلاء الإنکلیز أیام حروبهم مع الفرنسیس، و بقیت فی أیدیهم مائتین و ثلاث عشرة سنة، ثم استرجعها الفرنسیس فی عصر الملکة مارى سنة ۱۵۵۸، فلمّا بلغها الخبر أظهرت الحزن الشدید ما قیل إنه کان سبب موتها و قالت: أموت و فی قلبی اسم کالی مکتوبا. فکانت کالی عندها أخت حتّیعند الفراء. بقیت نورماندی و انجو و مین و طورین و بواتو و بریتانی و غیرها بید الإنکلیز نحو سنة ۲۹۲.

فی الطریق إلی لندرة

و أوفق لنا أن باخرة معدّة للسفر إلی لندرة فرکبنا فیها و سارت ماخرة بنا، و أول ما دخلت فی نهر التامس انحجبت عنّا الشمس و اکتسی الجو سحابا، و کان یوما ماطرا مظلما یقضی بالأسف علی شمس مالطة، و هذا النهر یختلط بالبحر الملح و تسیر فیه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۲

السفینة نحو خمس ساعات إلی لندرة، و السفر فیه بهیج من جهة أن السفینة تسیر فیه سیرا خفیفا لا اضطراب فیه، و تری فیه من البواخر الصاعدة و المنحدرة ما یشغل الخاطر، و له عند الإنکلیز شأن عظیم. و یحکی عن الملک جامس الأول الذی ألحق حکومة مملکة سکوتلاند بإنکلترة أنّه لّما نقم علی أهل لندرة أشیاء أنکرها أراد أن ینتقل دیوانه منها فقال له ضابط البلد- و یقال له بلغتهم میر-: إذا

کان لا بد من ذلک فلا تنقل نهر التامس معک. و هو کلام بلیغ یشیر إلی إن أهل المدینة ربّما یستغنون عن الملک بوجود هذا النهر لأنه من أعظم الأسباب المیسرة للتجارة، و لو لاه لما حصلت لندرة علی هذه الثروة و السعة.

و المأکول و المشروب فی هذه السفن، التی تنقل الرکاب من فرض بلاد فرنسا و أکثرها للإنکلیز، غالیان جدّا، فإن قنینة الشراب فی تلک الفرض تساوی فرنکا و فی السفن ستّة فرنکات، و قس علی ذلک.

ثمّ لما بلغنا لندرة أخذت أثقالنا إلی الکمرک، و فتشت فلم یجدوا فیها ما یوجب الأداء، إلا أنا أدّینا علی کلّ صندوق و کلّ حاجة مستقلة نحو خرج و غیره نصف شلین، ثم تبوأنا محلا فی إحدی الدیار، و بعد أن استرحنا سافرنا منها فی سکة الحدید إلی بلدة «ویر» بقصد المسیر منها إلی القریة التی یسکن فیها الدکطر لی الذی اعتمدته الجمعیة لأن یکون معارضا ترجمتی بالأصل الذی أترجم منه.

الدکطر لی

و کان للمذکور شهرة عظیمة عند الإنکلیز فی معرفة اللغات الشرقیة، و کان فی مبدأ أمره نجّارا لکنّه أکبّ علی العلم، و قد فات الثلاثین سنة، فحصّل معلومات غیر یسیرة، غیر أنّه لم یتمکّن من اللغات التی حاولها، و سیأتی ذکره بعد هذا.

البحث عن الطعام

و حیث کان اسم القریة المذکورة مکتوبا علی أثقالنا فلمّا بلغ الرتل إلیها وضعوها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۳

فی الموقف، و نحن لم نشعر بذلک، و بقینا سائرین فیها حتی إذا وقف مرّة ثانیة سألنا عنها فأخبرنا بأنّا تجاوزناها بنحو ثلاثة أمیال، فرجعنا إلیها مشاة فوجدنا حاجاتنا سالمة، فسرت فی طلب شیء للأکل، فلم أجد فیها مطعما، فقلت لأحد الوقوف:

ألا نجد طعاما هنا؟

قال: هلمّ معی. فأخذنی إلی الجزّار، و ذلک لأن مرادف لفظة الطعام عندهم یستعمل غالبا فی اللحم.

قلت: إنی أرید شیئا آکله؛ فدلّنی علی حانوت بقربه، فتوجّهت فلم أجد إلا الخبز. قلت: ما الخبز وحده أرید. فدلّنی علی دکان آخر، فذهبت فوجدت به الفطیر فقط، فعدت خائبا، و لقیت بعض الشرطة فقلت له: ألا تهدینی إلی محل للأکل؟

فدلّنی علی موضع زعم أنه شهیر یقصده جمیع المسافرین، فتوجّهت فوجدت صاحبته امرأة ضخمة فظّة تحاول إظهار السیادة و الإمارة فی وجه قاصدیها، فسألتها:

هل عندک ما یؤکل؟ قالت: ما عندی سوی البیض، فتبلّغنا بما عندها، و رجعنا إلی الموقف حتی جاء الرتل الذی یسیر إلی رویستان و هی قریة جامعة. و قد ذکرت هذه الحادثة هنا دلیلا علی ما یری من الفرق بین بلاد الإنکلیز و فرنسا، فإن القری الحافلة فی هذه و لا سیّما التی یقف فیها المسافرون یوجد فیها کل ما یشتهی الإنسان من المأکول و المشروب، و حین کنّا نسافر فیها و تقف حافلة المجدّ کنّا نری النساء یتسابقن إلینا حاملات لأطباق الفاکهة الطیّبة و یعرضنها علی السّفر، و کنّا نجد أیضا فی المطاعم کلّ ما تشتهیه الأنفس.

الوصول إلی بارلی

ثم سرنا إلی رویستان و منها إلی قریة بارلی و هی علی بعد ثلاثة أمیال منها، فبلغناها فی الساعة الحادیة عشرة لیلا، فتوجّهت إلی دار الدکطر لی فوجدته مستعدّا لتلقّی الأحلام السعیدة، فقال لی: قد کتبت إلیّ الجمعیة تخبرنی بقدومک؛ فینبغی أن تذهب اللیلة لتبیت فی خان القریة. فبتنا فیها، و فی الغد کتب إلی الجمعیة یخبرهم بأنّه أکرم مثوای، و عنی بإنزالی منزلا مریحا؛ فشکروه علی عنایته.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۴

و کانت مدّة سفری من مالطة إلی هذا المنفی فی ثمانیة و عشرین یوما.

لمحة عن إنکلترة

ثم قبل الشروع فی الترجمة و فی ذکر شیء من أحوالی ینبغی هنا أن أقدّم کلاما فی أحوال إنکلترة علی وجه الاختصار فإنّ تفصیل ذلک مرجعه إلی کتب التاریخ و الجغرافیة، فأقول: إن الرومانیین کانوا یسمّونها: بریتانیا، و فی اللاتینی المتعارف تسمّی: إنکلیا و فی لغة أهلها انکلاند، و معنی لاند: أرض، و حین یذکرون بریتانیا فإنّما یعنون بذلک إنکلترة و والس و إرلندة، و هی منقسمة إلی اثنین و خمسین کونیا أی ولایة منها اثنتا عشرة ولایة هی الأصول، و أشهر مدنها: دوفر، و نرویش، و هل، و نیوکاستل، و لیفربول، و برستول، و فلموث، و بلیموث، و بورتسموث، و اکسفور، و برمنهام، و منشستر، و شفیلد، و نوتنهام، و کمبریج، و یورک، و باث، و شلتنهام. و هی کثیرة معادن الحدید و الفحم و القصدیر و الرصاص و النحاس، و حیواناتها ضلیعة حسنة الصورة، و بها مراع واسعة و مروج نضیرة، و فیها نحو خمسین نهرا تصلح للسفر أشهرها التامس، و جبالها قلیلة لا یبلغ أعلاها أکثر من مائة ذراع، و طول الجزیرة کلّها لا یزید علی ثمانمائة میل، و عرضها فی بعض الجهات ثلاثمائة، و فی بضها أقل.

معلومات إحصائیة

و قبل فتح الرومانیین لها لم یکن عنها خبر یعتمد علی صحّته، و قد غزوها مرّتین و ذلک فی سنة ۲۶ و ۵۵ للمیلاد، و کان عدد أهلها حینئذ نحو ملیون، و فی سنة ۱۸۵۱ بلغ عددهم (۲۶۲، ۴۵۲، ۱۷) نفسا، و عن غیبون أن الرومانیین کانوا یحسبون بریتانیة مغاصا للّؤلؤ، و هو الذی دعاهم إلی فتحها. و بعد حرب أربعین سنة استولوا علی أقصی أطراف الجزیرة.

و عدد من ولد فیها و فی والس فی سنة ۱۸۵۴ بلغ (۵۰۶، ۶۳۴) أنفس، و عدد من مات ۲۳۹، ۲۳۸، و فیها ۰۷۷، ۱۱ أبرشیة. و یقال: إنّها کانت فی الزمن القدیم متّصلة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۵

بأرض فرنسا.

و نقلت من جرنال التیمس: إنه یوجد فی إنکلترة و إرلاند أربعة و خمسون قاضیا فی المحاکم العلیا تبلغ وظیفتهم ۸۰۴، ۲۴۱ لیرة و ثلاثمائة و خمسة و تسعون قاضیا فی المحاکم الأدنی تبلغ وظیفتهم ۶۶۳، ۲۹۲ لیرة، فتکون جملة القضاة ۴۴۹، و جملة وظائفهم ۴۴۷، ۵۳۴ لیرة. قال و لکبیر القضاة عشرة آلاف لیرة فی کل سنة، و لقاضی محکمة الاستدعاء ستة آلاف.

و یوجد ۵۸۶، ۱۸ من القسیسین المنتمین إلی الکنیسة المتأصلة و ۵۲۱، ۵۸ من قسیسی الکنیسة البابویة، و ۴۷۷، ۱ من طلبة علم اللاهوت، و المدرسین فیه، فتکون الجملة ۶۴۷، ۳۰ و عدد فقهاء الشرع ۴۲۲، ۱۸ ما عدا ۷۶۳، ۱۶ ما بین وکیل دعوی و کاتب صکوک و نحو ذلک، و عدد الأطباء ۷۲۸، ۱۸ ما عدا التلامذة الذین دخلوا فی سلک المتطبّبین و ۱۶۳، ۱۵ ما بین جرّاح و دوائی، و یضاف إلیهم أکثر من ألف و مائة من معالجی الأسنان و ۴۳۰ صانعا لآلات الجراحة. فأصحاب هذه الحرف الثلاث أعنی القسیسیة و الفقهیة و الطبیة، و من یتعلق بهم و ینضمّ إلیهم یبلغون ۷۳۰، ۱۱۰ و عدد المؤلفین و أهل الأدب ۸۶۶، ۲ منهم أربعمائة و ستة و ثلاثون مؤلفا یکتبون لناشری الکتب، و ۳۰۲، ۱ ما بین کاتب و ناشر.

و عدد أهل الصنائع الظریفة ۶۰۰، ۸ من جملتهم الرّسّامون، و عدد المدرسین فی العلوم أربعمائة و ستة و ستون، و عدد المهندسین ۰۰۹، ۳ و جملة المشتغلین بالتعلم و التخریج ۳۴۴، ۱۰۶ منهم ۳۷۸، ۳۴ رجالا و ۹۶۶، ۷۱ نساء و فی عداد الأول یعملون فی المکاتب و ۳۷۱، ۴ یعلمون مطلق التعلیم و ۱۴۹، ۳ یعلمون الموسیقی و ۵۳۰، ۱ یعلمون اللغات و ۵۵۴ یعلمون الهندسة، و فی القسم الثانی أعنی

النساء ۸۸۸، ۴۱ یعلمن فی المکاتب و ۲۵۹، ۵ یعلمن مطلقا ۶۰۶، ۲ یعلمن الموسیقی، و یوجد أکثر من ألفین من اللاعبین و اللاعبات فی الملاهی، فمن الرجال ۳۹۸، ۱ و من النساء ۶۴۳ و من أهل الموسیقی الرجال ۶۶۸، ۳ و من النساء ۴۳۲ و عدد الذین هم فی الخدمة المدنیة ۶۹۸، ۷۱ فی خدمة الإدارة المدنیة و ۷۸۵، ۲۹ فی خدمة دواوین المیری و ۷۶۸، ۳ فی خدمة دولة الهند و مقامهم فی بریتانیا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۶

الشروع فی ترجمة التوراة

ثم إنی أخذت فی أن أذهب إلی الدکطر لی فی کل یوم لأترجم التوراة ثم أعود إلی منزلی ملازما له، فلم تمض علیّ أیام حتی عیل صبری؛ لأنّ هذه القریة التی قدّر الله أن أسعد الناس بترجمتی فیها کانت من أنحس قری الإنکلیز، علی أن جمیع قراهم لا تلیط بقلب الغریب لما سیأتی.

متاعب الإقامة فی القریة

و لم یکن فیها للأکل غیر اللحم و الزبدة المخلوطة بالجزر، و الخبز و الجبن و اللبن المذیق و البیض و الکرنب، و ذلک یغنی عن ذکر ما هو معدوم فیها، علی أن هذه اللوازم إنّما کانت نفایة ما یوجد فی المدن. و من عادة الإنکلیز أن یکون لهم بالقرب من القری بلیدة یباع فیها ما یلزم لهم من المأکول و المشروب و الملبوس و الأثاث؛ فیذهب إلیها الفلاحون مرّة فی الأسبوع و یشترون ما یلزمهم، و قد یمرّ علی البیوت لیلا رجل ینفخ فی البوق تنبیها علی ذهابه إلی تلک البلیدة فمن شاء أن یشتری شیئا کلّفه به و جزاه علی ذلک. و قد یمرّ أیضا تجار بعجلات فیها نحو البن و الشای و السکر، أو یکون معهم راموز هذه الأشیاء لیبعثوا منها للمشتری من حوانیتهم. و بمثل هذه الأسباب المتنوعة و الصعوبة المبرحة یحصّل الإنسان ما لا بدّ له لقوام عیشه.

أمّا محار البحر و السرطان و الإنکلیس، و هذا الذی یسمّونه «لبستر»، و هو أطیب ما یؤکل عندهم، و هو فی شکل البرغوث و أکبر من السرطان فلا وجود لها البتّة. و أمّا السمک فلا یرد منه إلی مرّة فی کل ثلاثة أشهر، علی أن جمیع أصناف سمکهم مسیخة إلا صنفا منها یقال له: سمن، و هو طیب لکن لا بالنسبة إلی سمک بلادنا. و قد یضعونه فی الثلج لیلا و یعرضونه للبیع نهارا، فربّما کان

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۷

عمر السمکة بعد صیدها أطول منه قبله. و لکن ربیب الثلج هذا لا وجود له إلا فی المدن.

الغنی و الفقر فی إنکلترة

و من قدم إلی لندرة و رأی فیها تلک الحوانیت العظیمة و الأشغال الجمّة و الغنی و الثروة حکم علی جمیع الإنکلیز بأنّهم أغنیاء سعداء، و لکن هیهات؛ فإنّ أهل القری هنا کأهل القری فی الشام بل هم أشدّ قشفا. و کثیرا ما تقرأ حکایات تدلّ علی بؤسهم، و قشف معیشتهم ممّا لا یقع فی بلاد أخری. فمن ذلک حکایة عن حائک شکا حاله إلی إحدی النساء المخدومات فقال: «یا سیدتی إنّی حائک و إنّ لی امرأة و ثلاثة أولاد بقوا من عشرة فجعت بهم، و دخلی من کدّی اللیل و النهار لا یزید علی سبعة شلینات فی الأسبوع، و لکن علیّ أن أعطی منها شلینا واحدا لأجل النول، و أربعة فی الشمع الذی أسهر علیه. فقالت له: و کیف تعیش علی هذا الدخل القلیل؟ قال: علی قدر الإمکان. ألا و قد مضی علینا ستة أشهر لم نشتر فیها رطلا واحدا من اللحم، بل لا نقدر علی مشتری الحلیب إلا بالجهد؛ فجلّ طعامنا إنّما هو الشعیر و حساء الماء. و قد یکون لنا فی بعض أیام الآحاد ادام من البطاطس. أمّا أنا فلا أبالی فإنّی قد ألفت البوس، و الضنک، و مذ سنین عدیدة لم أعرف شیئا من الدنیا سوی الکدّ و الکدح المبرح علی قلّة الأجرة، و لکن

همّی بالأولاد، و بأمّهم النحیفة.

فقوله: إنّه لم یقدر علی شراء الحلیب مع کونه فی الریف أرخص الأشیاء بالنسبة إلی غیره یغنیک عن مزید البیان فیما یکابده هؤلاء الناس. و کثیرا ما تقرأ أیضا فی صحف الأخبار عن أناس ترکوا أولادهم من الإملاق، أو ماتوا من الجوع و البرد، أو النوم علی الأماکن القذرة، أو اعتفدوا فماتوا جوعا. نعم إنه یوجد مستشفیات و ملاجئ یقوم بها الأهلون إمدادا للفقراء و العاجزین و نحوهم إلا أنها ربّما کان عدد من فیها لا یقبل الزیادة، أو کان اللبث فیها ضنکا أو الدخول إلیها صعبا و نحو ذلک.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۸

و قد یبلغ من فقرهم أنهم یترکون طفالهم بغیر معمودیة لئلا یعطوا القسیس مصروفها. و أعرف فی القریة المذکورة أولادا کثیرین لم یتعمّدوا مع أنّهم من رعیة الکنیسة المتأصّلة التی توجب المعمودیة و لا تأذن لمن مات غیر معمّد أن یدفن فی مدافنها فتنزله منزلة المنتحر.

سبب فقر الفلاحین

و سبب فرط فقر الفلاحین هنا هو کون الأرض قد دحاها الله تعالی لأن تکون ملک الأمراء و الأشراف فقط، فیستاجرها منهم أناس مأمونون، و یستخدمون بعض الفلاحین فی حرثها و استغلالها، فلهذا لن تجد فی القریة أحدا ذا رواء و ریاش إلا مستأجر الأرض، و قسیس القریة علی أنه لا یلی شیئا من أمور أولاده الروحیین سوی الخطبة فیهم یوم الأحد لأنّه یستخدم تحت یده قسیسا یعطیه نحو ثمانین لیرة فی السنة، و یلقی علیه أحمال الکنیسة، و هذا المبلغ هو دون وظیفة طباخ الأسقف فی بلاد الإنکلیز، فعلی هذا القسیس أن یعمّد أولاد الرعیة، و أن یدفن الموتی منهم، و یزوّج أحداثهم، و یعود مرضاهم و غیر ذلک.

نمط عیش الفلاحین

و عدد ملاک الأرض فی إنکلترة نحو ستّین ألف عیلة لا غیر، و قلّما یذوق هؤلاء المساکین اللحم، فجلّ أکلهم الخبز و الجبن، فجزّار القریة لا یذبح شاة أو بقرة إلا مرّة فی الأسبوع و لا یبیع من اللحم إلا نصف رطل أو ربعه، و إذا ذبح شاة فلا یسلخها و یجزر لحمها إلا بعد یوم، و البقرة بعد یومین أو ثلاثة. نعم إنّه قد یربّی أحدهم خنزیرا فی دویرته و یذبحه و یتّخذ لحمه کالقورمة التی تتّخذ فی برّ الشام، و یطعم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۲۹

منه فی أیام الآحاد. و من کان ذا یسر قلیل اشتری قطعة لحم فی یوم السبت و طبخها و تبلغ بها عامّة الأسبوع باردة؛ إذ لیس تسخین الطعام مألوفا عندهم فهم أحری أن یأکلوه بائتا مذ أیام من أن یسخّنونه، و لمّا طلبت من المرأة التی کنت نازلا عندها تسخین طعام بقی لی من الغداء لم تکد تفهم منی إلا بعد شرح و تفسیر، و راح کلّ منّا یتعجّب من صاحبه.

و لیس فی القری مواضع للّهو و الحظّ، و إذا أرادوا اللهو عمدوا إلی أجراس الکنیسة یضربونها فتقوم عندهم مقام آلات الطرب. و من الحظ عندهم أن یجلس الرجل مع امرأته ینظران إلی الخنانیص التی یربّیانها أو إلی ما یزرعانه من خسیس البقول فی عرصته، فإنّ لکلّ منهم فی الغالب بضع أذرع من الأرض أمام بیته یزرع فیها نحو الفجل و الکرنب و ما أشبه ذلک و لو لا ذلک لکانت عیشتهم شرّا من عیشة البهائم.

صعوبة الحیاة فی الریف

و قد تری فی القریة دکّانا فیه نفایة ما یباع من الشمع و الصابون و السکر و البن و الشای، و بیتا حقیرا یباع فیه شیء من البصل و

البطاطس و الحلویات الردیئة و التفاح المسیخ تنظرها من طاقة البیت، و لو اشتریت ذلک جمیعه لما بلغت قیمته خمسین قرشا. و فی أوان الشتاء لا یمکن للإنسان أن یخرج من منزله لاستنشاق الهواء و ذلک لکثرة الوحل فی الطریق فقد یمکث عدّة أیّام رهین بیته. و لیس فی القری خیل أو حمیر أو بغال أو عواجل تکری فلیس إلا- مرکوب النعل، و قد یکون لبعض المتشبّعین عجلة یحرکونها بأرجلهم إذا أرادوا أن یذهبوا من قریة إلی أخری فتجری بهم من دون حصان و لا حمار، و بعضهم یکون له عاجلة صغیرة مفتوحة یجری بها حصان صغیر فمثل ذلک لا یدفع علیه شیء للمیری؛ فأما العواجل المعتادة، و الخیل فلا بد من الأداء علیها کما سیأتی بیانه فی محله.

و کنت کلّما اضطررت إلی المؤنة ذهبت إلی البلدة ماشیا، و مرّة اضطررت إلی أن أذهب فی التابوت الذی ینقل فیه الدّمان، لکنّه کان فارغا. و علی فرض أن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۰

یسکن غنی إحدی هذه القری فلا یمکنه أن یتنعّم بغناه إذ لا یجد فیها إلا ما یجده الفقیر، إلا أن یجلب مؤنته من لندرة و غیرها. و یعلم الله أنی مدّة إقامتی فی تلک القریة المشؤومة لم یکن لی هم إلا بتحصیل لوازم المعیشة فکنت أجلب بعض القطانی من کمبریج، و بعض النقل من رویستان، و المزر من لندرة فی سکة الحدید، و لکن لّما وجدته غالیا اقتصرت عن جلبه، فاستولی علیّ ضعف المعدة و وهن فی رکبی لم أحس به فی عمری قط، فإن مزر القری ردیء إذ لیس منه إلا ما ینبط بالمنبطة دون المرعی فی زجاج، و هو کالدواء سواء إلا أنه غیر نافع، و قد غشی علی مرّة فی دار دکطر لی و أنا أترجم، فأمر خادمته بأن تتدارکنی بکسرة خبز مشویة.

أمّا الصیف فإنّه و إن یکن غیر مزهق إلا أنّه منغّص لعدم وجود البقول المرطبة فیه، و لعوز الفاکهة کما ستعلم و لا سیّما أنّ أکثر شرب أهل الریف إنّما هو من مناقع من ماء المطر، و أکثرها یعلوه الطحلب فإذا نشفت عمدوا إلی الآبار و هی قلیلة یدّخرونها إلی الحاجة، و هی أیضا من المطر، إلا أن الإنکلیز قلّما یشربون الماء فإنّهم یستغنون عنه بالجعة. و قد مضی علینا فی الصیف نحو شهرین لا نذوق فیهما شیئا من الفاکهة و الخضرة إلا ما ندر، و فی شهر نیسان انقطع عنّا المذیق الذی کنّا نشتریه لأجل القهوة؛ لأنّهم کانوا یسقونه الخنازیر، و لا یبیعونه فاضطررنا إلی أن نتوسّل بإحدی النساء لتشفع فینا عند صاحبة البقرة فی إمدادنا کل یوم بما یکفی للقهوة فقط، ففعلت، ثم جاءت مبشّرة لنا بقبول خالص شفاعتها فی المذیق، و أنّ صاحبة البقرة رضیت بأن تبیعنا کل یوم بنصف بنی تفضّلا و تکرّما فأوسعناها شکرا و ثناء و مطأطأة رأس و انحاء، و فی هذا الشهر المبارک لم یکن یوجد شیء من الفاکهة، و لا من البقول و کانت البصلة الصغیرة تباع ببنی مع أنّ الحقول کلّها کانت ناضرة زاهیة، فالمارّ فیها هو کراکب البحر و هو ظامئ.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۱

مزروعاتهم و ثمارهم

و أکثر ما یزرع الإنکلیز فی حقولهم إنّما هو القمح و الشعیر و اللفت و البطاطس، و أصل جلب هذه إلیهم من أمیرکا فی سنة ۱۵۸۶. فأمّا البقول فیزرعونها فی عرصات الدیار لمؤنتهم فقط، و هی قلیلة جدّا. و لّما کان جلّ علف البقر من اللفت کان لحمها و لبنها لا یخلوان من طعمه، و إذا زرعوا البقول فلا بدّ و أن یضعوا معها شیئا من الملح و الجیر، و یکثرون من تدمیلها فلهذا لا تکون زکیة إلا أنها تنمو نموّا فاحشا، فإن الفول قد یعلو مقدار قامة الربعة، و کذا اللوبیاء و القمح و الشعیر و الرشاد یبلغ أطول من ذراع، و نحو ذلک الخس و النعناع و الکرفس، و قد تبلغ الکرنبة قدر الجرّة الکبیرة، و تکون التفاحة أو الإجاصة نحو البطیخة الصغیرة، و قس علی ذلک البصل و الکراث، حتی إن الحیوانات البریّة و البحریة تکبر عندهم غایة الکبر، فإنّ السرطان یکون فی قدر رأس ا آدمی، و قد وزن مرّة دیک حبشی فبلغ أربعین رطلا و کان ارتفاعه ثلاثة أقدام.

و أصل جلب الجزر إلی هذه البلاد کان من هولاندة و لم ینبت هنا قبل سنة ۱۵۴۰ و لکنّه لم یکن أولا فی هذا الکبر، و أصل جلب

القنبيط كان من جزيرة قبرس، و كان منذ ستّين سنة يرسل منه من هنا إلى بلاد البورتوغال على سبيل الهدية و الطرفة.

و يحرثون على الخيل و البقر جميعا و حين يزرعون القمح و غيره يمدّون خيطا من أول الحقل إلى آخره حتى تأتى الأتلام مستقيمة، و فى كثير من البقاع يخافون عليه من آفة تعرض له من الدود فيزرعون بينه حشيشا سمّيا ليقتل الدود فإذا حصدوا القمح حصدوا معه الحشيش أيضا، و باعوه على حدته، و ربّما أغفل فبقى مختلطا بالقمح، و طحن معه. فقد قرأت فى كثير من صحف الأخبار أن كثيرا ماتوا من الخبز، و هذا هو أيضا سبب وضعهم الملح مع البقول فأعجب لقوم يطبخون طعامهم بلا ملح، و يملّحون مزروعاتهم و يسمونها.

و ممّا لا ينبت عندهم شجر البردقان و الليمون الحلو و الحامض و قصب السكر و الموز و اللوز و الفستق و التين و المشمش و الخوخ و الدراق و الصنوبر و التمر و الرمّان و هذا الأخير لا يعرفون ماهيته و الصبّار و الآس و الزيتون و البطيخ و القثاء و الباذنجان و الباميا و الملوخية

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۲

و الحمّص و العدس و الماش، و قل وجود الخرشف و الخيار و السفرجل، و شجر التوت لا يرى الا للفرجة.

و الطيب من فاكهتهم إنّما هو الإجاص و التفاح، و قد يكبران حتى تملأ الواحدة منهما الكف، هذا الأخير يدوم الشتاء كله فى المطامر و لكن يباع فى القرى على قلّة، و أصل جلبه إليهم كان من برّ الشام و ذلك فى سنة ۱۵۲۲، فأما البردقان فيرد إلى المدن الكبيرة من إسبانيا و البرتوغال، و كذا العنب، و قد يربّون شجرهما فى بيوت من زجاج و يسخنونها بالنار لأن حرارة هوائهم لا تكفى لإنباتهما، و لكن يكون سعره أغلى من سعر المجلوب إليهم، و ما ينبت فى غير هذه البيوت من العنب فإنّه يبقى حثرا، و هو ما لا ينع و يبقى حامضا صلبا.

و عندهم ثلاثة أصناف من الثمار أو أربعة كحبّ الآس عندنا، و هى قليلة الجدوى و لا سيّما كونها لا تقوى على الرياح فأقلّ نسمة تذهب بها، و كذلك عندهم ثلاثة أصناف أو أربعة من البقول لا توجد عندنا و هى أيضا تافهة.

و يحقّ لى أن أقول بعد الاختبار و التحرّى، إنّ جميع ما ينبت فى بلاد الإنكليز هو دون ما ينبت فى فرنسا فى الطيبة و الزكاء، و جميع ما ينبت فى هذه هو دون ما ينبت فى برّ الشام، و ما أرى العلّة فى ذلك سوى كثرة السرقين فى الأرض و قلّة الحرارة فى السماء. نعم إنّ جميع ما ينبت عندهم هو أكبر جرما ممّا ينبت عندنا كما تقدم، و لكن شتّان ما بين الكبر و الطعم إلا أن الإنكليز يتنافسون فى كلّ شىء ضخم.

أمّا أنواع الرّياحين و الزهور و الأشجار غير المثمرة فكثيرة عندهم، و عنايتهم بها أشدّ من عنايتهم بالبقول المأكولة، على أنّ جلّ أزهارهم لا عرف له، غير أنى رأيت عندهم جملة أنواع من الزهور ذكية الرائحة ممّا هو فى مالطة لا رائحة له أصلا، و كثيرا ما يذكرها المؤلفون فى كتبهم و تلهج بها النساء فى محاوراتهن حتى أن إحداهن سجنت مرّة فكانت صواحبها يهادينها بباقات من الزهر.

و فى أعياد ميلادهن يطرفن به، فيغنى ذلك عن طرف القماش و الجواهر، فهى فى الواقع صلة الرحم، و سبب الوداد.

و إذا رقصت امرأة فى ملهى و أعجبت الحاضرين نقّطوها بباقة، و على ذكر التنقيط

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۳

يعجبنى قول ابن المعتز فى مليح جدّر:

يا قمرا جدّر لما استوى فزاده حسنا فزدنا هموم

كأنه غنّى لشمس الضحى فنقّطته طربا بالنجوم

قلت و أهل اللغة أهملوا هذا الحرف بهذا المعنى، و الضمير فى زاده يرجع إلى التجدير المفهوم من الفعل، و هو ردّ على الحريرى حيث منع أن يقال جدّر بالتشديد لكونه ليس للتكثير.

أرض إنكلترة

أمّا ارض إنكلترة فكلّها سهل محروث مزروع تشبه أرض البقاع فی الشام فلن ترى فيها بقعة واحدة بورا، فكأنّها جميعها لرجل واحد ذی عيال فی كونها لا يغادر منها محطّ قدم من دون منفعة، فلا ترى إلا غياضا و حقولا و مروجا و ديارا. و الظاهر أن بلاد الإنكليز أعظم حرثا، و أعمر من بلاد فرنسا و كل شیء فيها من نام و حيوان تراه فی غاية الريع و النمو. و كنت قبل حضوری إليها أحسبها كلّها جبالا لما كنت أسمع من شدّة بردها، فإذا هی قاع صفصف. و قرأت فی بعض الأخبار أن قيمة ما تحصّل من غلالها فی سنة ۱۸۴۷ بلغت ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۴ ليرة، و قس على ذلك سائر السنين.

و أحسن بقعة فی الأرض يغادرونها مرعى للضأن، و مسرحا؛ فلهذا كان لحم الضأن عندهم فاخرا جدا. و مع شدّة عنايتهم بتربية الماشية فإنهم يحتاجون إلى جلب الجلود من الروسية و الغرب الاقصى، و ثمن ما يجلبونه منها يبلغ فی السنة ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۵ ليرة يذهب نحو نصفها فی عمل الأحذية و الباقی فی غير ذلك.

بين إنكلترة و فرنسا

و فی بعض الصحف أن فی كل من إنكلترة و فرنسا يربی نحو خمسة و ثلاثين

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۴

مليونا من الغنم، و من كلّ من العددين يحصّل قدر من الصوف متساو إلا أنّ غنم فرنسا يحصّل من لحمها أقل ممّا يحصّل من تلك، و قد يبلغ الحاصل من إقليم شستر من الجبن مبلغ وافر، و ما يحصّل من لبن البقر فی فرنسا يبلغ مليون ليتر، ثمن كلّ ليتر نحو عشرة من الصنتيم، و ما يحصّل من لبن البقر فی إنكلترة يبلغ ضعفی هذا القدر، و يباع بضعفی قيمة ذلك. و الإنكليز يربّون ثمانية ملايين من الماشية فی أحد و ثلاثين مليون جريب، و الفرنسيس يربون عشرة ملايين فی ثلاثة و خمسين مليون جريب.

و جزارو فرنسا يذبحون فی السنة غالبا أربعة ملايين من الماشية تبلغ خمسين مليون كيلو غرام، و الإنكليز يذبحون مليونين و لا يذبحون من العجل قدر ما يذبح عند أولئك.

و الحاصل فی فرنسا من الحليب مائة مليون فرنك، و من اللحم أربعمائة مليون، و من الحرث مائتا مليون، و الحاصل فی إنكلترة من الحليب أربعمائة مليون فرنك، و من اللحم خمسمائة مليون فيكون الحاصل من كل بقرة فی إنكلترة من الحليب و اللحم فقط أكثر من الحاصل من البقرة فی فرنسا من اللبن و اللحم و الحرث معا، هذا ما نقلته و فيه نظر.

ما يجلبونه من المأكول و المشروب

و مع خصب أرضهم، و كثرة غلالهم كما بيّناه آنفا، فإنهم يجلبون كثيرا من المأكول و المشروب من البلاد الأجنبية فقد قرأت أنّه فی مدّة ستّة أشهر جلبوا من البق ۲۳۷، ۱۲ رأسا، و من الغنم ۲۶۸، ۲۹ و من البيض ۷۴۵، ۴۵۴، ۵۶ بيضة، و فی سنة ۱۸۵۰ جلب من الجبن ۰۰۰، ۲۷ طن، و فی سنة ۱۸۴۶ جلب من إرلندة من البقر اثنان

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۵

و ثمانون ألفا و خمسمائة و اثنان و تسعون رأسا، و من الغنم مائة ألف و ثلاثمائة و ستّة و ستّون، و من الخنزير ثلاثمائة و أحد و ثمانون ألفا و سبعمائة و أربعة و أربعون، و قيمة ما جلب من البطاطس فی عام واحد بلغت نحو عشرين ألف ليرة، و قس على ذلك الزبدة و الفاكهة و القطانی، و بهذا يتبيّن لك ما يلزم لأعالی هؤلاء القوم و أسافلهم.

و فی الحقيقة فإن إنكلترة قد ضاقت بأهلها؛ و لهذا يهاجر منها فی كل سنة نحو مائتی ألف و خمسين ألفا. و أحسن أقاليمها فی

النضارة و الریع إقلیم کنت، و فی کثرة أشجار الفاکهة دوفنشیر، و إذا دخلت حمی ششیر فهرول.

فی صفة حیواناتهم

أمّا حیواناتهم فعلی نسق بقولهم من الکبر و الضخامة منها الخیل، و هی نوعان:

ضلیع ضخم و هو ما یستعمل فی جرّ الأثقال فتری الحصان کالبرج المرصوص و یحمل أربعمائة رطل من أرطالهم و ثمنه مائة لیرة، و الثانی خفیف ممشوق و هو للرکوب و السباق أو لجرّ عواجل العظماء، و ربّما مشی فی الساعة ثمانیة عشر میلا. و یقولون:

إنّ خیلهم أعتق من خیل العرب، و إن یکن أصل بعضها من تلک. و یقال: إنه فی زمن الملکة الیصابت لم یکن فی جمیع مملکة إنکلترة أکثر من ألفی فرس، و بقرهم تعظم فی عظم جوامیس مصر، و لحمها طیّب إلا أنه کثیر الدم، و هی حسنة الخلقة و الشکل، و کذلک غنمهم تسمن سمنا فاحشا، و هی أیضا ملیحة، و لکن لیس لها ألایا کغنم الشام، و لعلّها هی النوع الذی یقال له القهد، و الهر عندهم ظریف و هو أحری بأن تحلق الحواجب علی فقده من هر قدماء المصریین. أمّا الحمیر فإنّها قبیحة، و غیر فارهة علی قلّة وجودها، و لا وجود للبغال عندهم و ندر رؤیة المعزی.

و ممّا منّ الله به علی هذه البلاد أن لیس فیها حیّات و لا عقارب و لا رتیلا، و لا سوام أبرص، و لا ابن آوی یعوی فی اللیل، و لا نمر یأکل الدجاج، و لا بعوض یمنع من النوم، و لا براغیث فی الربیع إلا نادرا، و یکثر عندهم الجرذان تسمع شقشقتها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۶

و هی تجری تحت مخشّب البیوت، و کذا البق لکثرة الألواح فی منازلهم.

قال فی أبجدیة الأوقات: هذا الجرذ الأسمر الذی یسمّی جرذ نوردی غلطا هو أعظم رزیئة فی دیارنا، و أصل مجیئه إلینا کان من بلاد العجم، و بعض البلاد الجنوبیة فی آسیة کما هو الظاهر من کلام بالاس و غیره حیث قال: إنّه فی سنة ۱۷۲۹ زحفت أسراب جرذان لا تحصی من البراری الغربیة إلی أسطراخان حتی لم یکن ردّها بوجه ما، و فی أوسط القرن السادس عشر زحفت حتی دنت من باریس إلا أنّ کثیرا من جهات فرنسا لم یزل خالیا من هذه البلیة.

فائدة فی عمر الحیوان

قال بعض: إنّ الحصان یعیش من ثمانی سنین إلی اثنتین و ثلاثین سنة، و الثور ۲۰، و البقرة ۲۳ و الحمار ۳۳. و أصل نتاجه فی بلاد العرب و البغل ۱۸. و الشاة من الغنم ۱۰ و الکبش ۱۵ و الکلب من ۱۴ إلی ۲۵ و الخنزیر ۲۵ و العنز و الحمام ۸ و القط ۱۰ و الوز ۲۸ و الببغاء من ۳۰ إلی ۱۰۰ و الیمام من ۵۰ إلی ۲۰۰. هکذا نقلته و هو غریب فإن الحمام و الیمام من جنس واحد.

و قال آخر: الدب یعیش ۲۰ و نحوه الکلب و الذئب و الثعلب من ۱۴ إلی ۱۶ و الأسد نحو ۷۰ و القط فی الجملة ۱۴ و الأرنب ۷ سنین، و الفیل قد یعیش ۴۰۰ سنة، و الخنزیر ۳۰ و الکرکدن ۲۰ و الفرس من ۲۵ إلی ۳۰ و الجمل نحو ۱۰۰ و البقرة ۱۵ و الضأن قلّما یجاوز ۱۰ سنین، و الوعل یعمّر طویلا، و الدلفین ۳۰، و النسر قد یعیش ۱۰۴ سنین، و الغراب ۱۰۰ و السلحفاة ۱۰۷ و نوع من الحیتان اسمه والس و لعلّه الدخس یعیش ۱۰۰۰ سنة.

بناؤهم و مساکنهم

أما بناؤهم فمن الآجر الأحمر أو الأبیض، و قد یصبغون خارج الدیار أو یکلّسونه، ثم یرسمون علیه خطوطا تبدیه کأنّه حجارة مربّعة متساویة لا یدرکها إلا من دنا منها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۷

و ترسّمها. و تبقی علی ذلک سنین بخلاف بیوت لندرة فإنّها لّما کانت هدفا للدخان و الضباب لم تلبث أن تسودّ کما سنذکر ذلک إن شاء الله. و لهم فی تجدید الأبنیة مهارة غریبة و ذلک أنّهم إذا أرادوا مثلا هدم دار هدموا أولا أسفل جدرانها و أسندوا القائم منها بعضائد، ثم بنوا الأسفل فربّما نجز الهدم و البناء فی وقت واحد.

و بعض البیوت یبنون خارجها کالسفینة من قطع خشب یعارضون بعضها ببعض، ثم یطیّنونها و ربّما کانت تلک الأخشاب قدیمة. و فی الجملة فإن بیوت الفلاحین حسنة مهندسة، غیر أن منها ما یکون أصغر من سطحه، فإن السطوح عندهم علی ثلاثة أنواع: الأول من ألواح المکاتب التی یتعلم علیها الخط، و هی للدیار الکبیرة.

و الثانی: من الخزف، و هو للبیوت الوسط. و الثالث: من التبن، فهذا یکون قبیح المنظر، و هو یرقّع کما یرقّع الثوب، و یقولون: إنّه أحسن من غیره شتاء و صیفا فإنّه فی الشتاء یمنع البرد و یردّ الثلج، و فی الصیف یمنع الحرّ.

و لا یکون السطح عندهم إلا مسنّما. و الفاصل بین ألواح الزجاج فی الشبابیک أکثره قضبان رصاص بدلا من الخشب، و ربّما کان الزجاج مربّعا أو مخمّسا فیکون للعین أنیقا و حیث کان فی السابق ضریبة للمیری علی الطیقان إذا زادت علی ثمانیة کان الناس یتحاشون من مجاوزة هذا الحد، و لکنّه الآن أبطل تمتعا بنور الله و هوائه، و لکن قام مقامها ضریبة أخری. و کل دار لا بد و أن یکون فیها عدة مواقد للنار، و أسرّتهم کلّها من خشب لا من حدید، و الغالب أن أرض منازلهم تکون مفروشة باللبد أو البسط من الزرابی، و أثاثهم بین بین، و قلّ أن تری عندهم من الصور إلا صورة کبیر العائلة، و صورة الخیل فی السباق أو صورة أرانب و کلاب.

أمّا بیوت الأغنیاء و المترفین فلا شیء أجمل منها لإحکام بنائها، و حسن ترتیبها و حیطانها من داخل مغشّاة بالورق الفاخر المنقش، و طیقانها محکمة الوضع کبیرة قطع الزجاج و هو یقارب البلور فی الصفاء و البریق، و درجها و أرضیتها من الخشب المتین و لهم إسراف زائد فی الأثاث فإنّ أسرّتهم و موائدهم و أصونتهم و کراسیهم و خزائن کتبهم کلها من الخشب المسمی بالماهیکون، و قد تبلغ قیمة ذلک فی الجملة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۸

نحو ۵۰۰ لیرة، و مع ذلک فلن تری لسیدة الدار حلیا من الماس، أو شالا من الکشمیری و هی عکس عادتنا. و من إسرافهم أن یغطوا الدرج بالجوخ المنقوش، أو الزرابی الفاخرة و فوقها الکتّان النفیس یدوسون علیه. و مراحیضهم فی غایة النظافة و الترتیب حتی إن الفرنسیسإذا ذکروا مرحاضا علی هذه الصفة قالوا: إنّه مرحاض إنکلیزی. و کنت مرّة ضیفا لأحد نجلائهم فلمّا أصبحت طلبت الکنیف فدللت علیه و إذا هو فی غایة الزخرفة و الإحکام حتی إنی أحجمت عن فتحه و استعماله، و خطر ببالی حینئذ ما قاله بعض الظرفاء فی نجیل أنفق علی کنیف له سبعمائة درهم قد استدانها «لیت شعری ما الذی یرید أن یخرأ فیه؟».

و إجارة المسکن للغریب إنّما تکون بالأسبوع و لا بدّ أن یخبر أهل المنزل قبل خروجه بأسبوع، فإذا علموا ذلک تهاونوا فی خدمته، و إذا استأجر أحد مسکنا فی دار من مستأجر الدار و فرشه و کان المستأجر لا یؤدّی غلّة الدار إلی مالکها حقّ للمالک أن یستولی علی کلّ شیء فی الدار. ثم إن البناء فی الأصل کان من الخشب و الطین، ثم من الآجر، ثم من الحجارة غیر المهندمة. فلمّا تمدّن الناس و تبحّروا فی الصنائع صار من المرمر.

تاریخ استخدام الحجر فی البناء

و البناء من الحجر عرف عند أهل صور من القدیم، ثم اشتهر عند جمیع الأجیال، و لم یعرف فی إنکلترة قبل سنة ۶۷۰ و کان المحدث له راهبا اسمه بنادیکتوس. و أول جسر بنی منه فی هذه البلاد کان فی سنة ۱۰۸۷. أمّا البناء من الآجر فإنّما عرف عن الرومانیین. و فی سنة ۱۸۸۶ أمر ألفرید ملک الإنکلیز باستعماله، و فی سنة ۱۵۹۸ استحسن تعمیمه. و کان بناء لندرة إذ ذاک من الخشب غالبا. و أما الزجاج فیقال: إن أول من تعلّم صنعته هم أهل مصر فإنّهم أخذوها عن هرمس. و قال بلینیوس: بل کان اختراعه

فی سوریة، و کان له معامل فی صور من القدیم، و قد ذکره الرومانیون

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۳۹

فی عهد طیبیریوس، و علم من أنقاض بومبای أن الزجاج وضع فی الطیقان سنة ۷۹ قبل المیلاد.

استخراج الحجر فی أوربا

و أول ما اشتهر اتخاذه فی أوربا کان فی إیطالیا، ثم عرف فی فرنسا، ثم فی إنکلترة، و فی سنة ۱۱۷۷ استعمل فی دیار بعض الأعیان و لکنّه کان مجلوبا، و یفهم من کلام فلتیر: إن أول من شهره فی بلاد الإنکلیز رجل من فرنسا و ذلک فی سنة ۱۱۸۱، و فی سنة ۱۵۵۷ أنشئ له معمل، و فی سنة ۱۶۳۵ أکسب رونقا و صفاء، و فی زمن و لیم الثالث أتقن إلی الغایة.

ما یفعله العاطلون عن العمل

و من سوء التدبیر فی بلاد الفلاحین أنه لا یقام فی القریة من الشرطة إلا واحد؛ فلذلک یکثر فیها الحریق و السرقة، فإن أهل القریة إذا لم یستخدمهم مستأجر الأرض یبقون معطّلین متترّعین إلی ارتکاب کلّ شر، فیعمدون إلی إحراق أکادیس القمح و الحشیش المکدّسة فی الحقول فی لیلة ذات ریح، فتسری النار إلی بعض البیوت، و لیس من یطفئها، ثم لا تلبث أن تلاشیه بالکلیة و تسری إلی غیره، فربّما احترقت القریة کلّها فی لیلة واحدة. و فی مدّة شهرین من إقامتی بتلک القریة وقع خمس عشرة حریقة فی أکداس الغلال، و کان سبب ذلک من هؤلاء المعطّلین عن الشغل تشفّیا من غیظهم من مستأجر الأرض، و رأیت آثار قریة کانت تشتمل علی خمسین بیتا احترقت بأجمعها فی لیلة واحدة، بل إن کثیرا من هؤلاء الفجّار ینهبون الکنائس، و قد یدخلون الدیار من مداخن المواقد النافذة إلی السطح، و یسرقون ما قدروا علیه، و فی کل لیلة قبل النوم یوصی المخدوم خادمه و المخدومة خادمتها بإطفاء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۰

النار و النور.

أمّا العاجزون و السّقط فإنّهم یمکثون فی المستشفی، و یقوم بنفقتهم القادرون من الرعیّة، فإنّ الحکومة لا تنفق شیئا من المستشفیات، و لا علی تصلیح الطرق، و لا علی ترتیب الشرطة أیضا إلا أنّ أکثر الناس یستنکفون من المکث فی المستشفی کما ذکرنا سابقا.

فقراء الإنکلیز

و قد تقرر عند الإنکلیز جمیعا أن التصدّق علی الفقراء یحملهم علی الکسل و التوانی، فما یعطون فقیرا إذا مرّوا به ولو کان عریانا اعتمادا علی وجود هذه المستشفیات، و یمکن أن یقال: إنّ أکثر فقرهم هو من انهماکهم فی شرب المسکرات، فإنک ترری منهم فقراء کثیرین بأخلاق من الثیاب و مهما یکسبوه ینفقوه فی الجعة، و لا یزالون یکرعون منها حتی تجحظ عیونهم، و تنعقد ألسنتهم عن الکلام، و لا یزالون یلهجون بذکرها فهی عندهم فی الشتاء للتسخین و فی الصیف للترطیب. و مع ذلک فهم بالنسبة إلی أهل المدن الجامعة أصحی و أعفّ، کما أنهم أسخی منهم و أکرم، و هذه خطّة عامّة فی جمیع البلاد، فإنّ أهل المدن لما کان احتیاجهم إلی أسباب المعیشة و الرفاهیة أکثر کان الکرم فیهم أقل. و ذکر الطبیب بوخان أنه عرف فی زمانه نساء بعن أولادهن بالجعة.

من مفاخر الإنکلیز

ثم إن الإنکلیز طالما افتخروا بهناء العیش فی دیارهم، و هو عبارة عن أمرین، أحدهما: التمتع بکل ما یلزم للإنسان فی معیشته. و الثانی: ترتیب وضع الأشیاء المتمتّع بها، و هو أن یکون لکلّ شیء موضع خاص به و لکلّ موضع شیء، فمن غسل یدیه مثلا فی طست

علی مائدة، ثم تناول المنشفة من جانب المائدة من دون أن یغادر موضعه، و یفتش علیها؛ فقد اتّصف بأنّه متهنّئ، و قس علی ذلک. و الحقّ

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۱

یقال: إن الإنکلیز فی ذلک أعظم الناس ترتیبا، و أحکمهم وضعا للأشیاء و کأنّهم إنّما ورثوا هذه الخلّة کابرا عن کابر، و من تعوّد علی هذه الحال عندهم فلا یمکنه أن یتهنّأ بعدها فی معیشته فی البلاد المشرقیة. قالوا: و علی هذا الأصل بنیت بیوتنا بحیث إذا تبوأها أحد لا یحب أن یخرج منها، و لا سیّما وضع مواقدهم، فإنّها تسع من الفحم ما شئت، و بذلک یحصل لهم الدفء فی الشتاء و هو من ألزم ما یکون.

و عندهم نحو ثمانمائة ألف دار مفردة یقال لها: کوتاج، لا یمکن لغیرهم من الناس أن یعیش فی مثلها حالة کونها منفردة.

رأی فی دعواهم

فأمّا دعواهم بأنّ مباقلهم مریعة غضّة، بحیث تکفی لکلّ ما یلزم لهم، و أن أثاثهم و أدواتهم وافیة بالمراد حتی لا یمکن للشهوانی أن یقترح شیئا زائدا علیها، فلیست فی محلّها، فقد مرّ بک کثیر من البقول و الفاکهة لا ینبت عندهم، و یمکن أن یقال: إن ذلک غیر ضائر من لم یتعوّد علیه، فأمّا من جهة الأثاث فإنّ جمیع سکان أوربا المتمدنین مشترکون فیه علی أنّهم محرومون من کثیر من الملاهی و الفرج.

المنائر فی أوربا

هذا و کما أن أرض إنکلترة کلّها محروث عامر کذلک کانت شطوطها بأجمعها مرصّعة بالمنایر و الأعلام لهدایة السفن، فإنّ فی سواحلهم مائتی منارة لا تزال أنوارها متّقدة اللیل کلّه. و جملة المنایر التی فی سواحل فرنسا الشمالیة و الغربیة، ۸۹ و التی فی هولاد ۲۶ و مصاریف منایرهم تؤخذ من رسم یجعل علی السفائن المشحونة التی تمرّ بها، و هو یختلف، و قد یبلغ فی السنة مائتین و خمسین ألف لیرة ینفق نحو ثلثیه فی لوازمها، و یدّخر الباقی لأجل ترمیمها.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۲

أعظم منارة فی إنکلترة

أعظم منارة بنیت فی إنکلترة ممّا یجدر بأن یعدّ من عجائب الدنیا منارة ادسطون و ذلک فی سنة ۱۶۷۰ و لکن طمی علیها الماء فی إحدی السنین فأبادها رأسا فلم یبق منها سوی قطعة سلسلة من حدید.

منارة الإسکندریة

و أول منارة عرفت فی الزمان القدیم المنارة التی بنیت علی صخر فاروس قبالة الإسکندریة، و کانت من المرمر الأبیض العجیب الصنعة، و ذلک فی عهد بطلیموس فیلادلفوس ملک مصر سنة ۲۸۲ قبل المیلاد، فکان النور یوقد فی قنّتها دائما لهدایة السفن إلی مرسی المدینة المذکورة حتی قیل: إنّها کانت تری من مسافة مائة میل و هو مظنّة للإنکار. و یقال: إنّ مصاریفها بلغت ۳۰۰،۰۰۰ لیرة إنکلیزیة بحساب أن الدراهم کانت من ضرب مصر. و قد عدّت من عجائب الدنیا السبع، و بلغت من الشهرة و العجب بحیث أن اسمها أطلق علی کل منارة بنیت بعدها إلی یومنا هذا تقریبا. و فی تاریخ مصر لعبد اللطیف البغدادی أن بعض ذوی العنایة ذکروا أن طولها ۲۵۰ ذراعا و أن بعضهم قاسها فوجدها ۲۳۳ ذراعا، و هی ثلاث طبقات. الطبقة الأولی مربّعة و هی مائة ذراع، و الطبقة الثانیة مثمّنة و

طولها ۸۱ ذراعا و نصف ذراع، و الطبقة الثالثة مدوّرة و طولها ۳۱ ذراعا و نصف ذراع. قال: و فوق ذلک مسجد ارتفاعه نحو عشر أذرع.

عجائب الدنیا

و عجائب الدنیا فیما عدّه بعضهم ما عدا ما ذکر هی: أهرام مصر، و الموزلیوم، و هو قبر بناه أرطمیسیا لموزلوس ملک قاریا، و هیکل دیانة ابنة جوبیتر فی افسوس، و أسوار مدینة بابل و حدائقها المتدلّیة، و صنم الشمس من نحاس فی رودس، و یقال له:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۳

قولوسوس و صنم جوبیتر، و قیل: إن جوبیتر هو هبل عند جاهلیة العرب. قلت: و من العجب فی هذه العجائب أنّهم لم یعدّوا منها سدّ الصین؛ فقد قال فلتیر: إنّ دورته مسافة ألف و خمسمائة میل، مرتفعا علی جبال شامخة و منحدرا فی أماکن و عرة المرتقی، و عرضه فی جمیع هذه المواضع عشرون قدما، و ارتفاعه أکثر من ثلاثین و هو أعظم من أهرام مصر فی القدر و المنفعة. بناه أهل الصین حاجزا بینهم و بین التتر، و ذلک فی سنة ۱۳۷ قبل المیلاد.

هواء إنکلترة

أمّا هواء إنکلترة فإنّه کثیر التقلّب یختلف فی الیوم الواحد مرّات، و بینما یکون الجو صاحیا و السماء نقیّة إذا بالغیم قد طبق الأفق و تراکم حتی تحسب أنّها لم یکن شمس قط. و قد یبلغ درجات الهواء فی یوم ثلاثین و فی غده خمسین، و مع ذلک فلا یصح أن یحکم علیه بأنّه و خیم و لا- سیّما علی من ألفه؛ فإنّ الغالب علی بنیة الإنکلیز الضلاعة و الشدة و إنّ کثیرا منهم یعمّرون فوق المائة سنة. و فی مدّة ثلاث سنین مات فی إنکلترة و والس ۲۶۶ شخصا و عمرهم من المائة فصاعدا. و مات رجل فی کورة «هولی وود» و قد بلغ من العمر مائة و ثلاث عشرة سنة، و بقی متمتّعا بجمیع حواسه، و أوصی وصیّة مبینة، و لم یعرف المرض إلا قبل موته بساعة واحدة.

الشتاء فی إنکلترة

و متی تمّ لهم صحو یوم تام رأیت الناس جمیعا یلهجون بمحاسنه و یذکرون بهجته فهو عندهم عید و موسم. و فی الحقیقة فإنّه إذا انجلی الغیم، و ظهرت الشمس فی الجوّ لم یکن شیء أبهج من ذلک؛ فإن بلادهم کلّها مروج و غیاض کما ذکرنا سابقا. و قد تری فی الأشجار المتصافّة ألوانا مختلفة، و تری الحقول کأنّها بسط من سندس أخضر، و لا یخفی أنّ هواء الرستاق و الریف أصح و أسلم من هواء المدن الکبار التی یکثر فیها الدخان و العفونات و الأقذار إلا أنّه لا یمکن الخروج فی الریف شتاء حین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۴

تکون المسالک وحلة، فلهذا یمکن أن یقال: إنّ أهل المدن أکثر حرکة و ریاضة من أهل الأریاف، و بذلک تحصل الموازنة ما بین طیب هواء هولاء، و وخامته عند أولئک، و قد سبقت الإشارة إلیه. فأمّا من ابتلی بالسّل و الربو، أوضیق الصدر فلا یصح له مقام من هذه البلاد أیّا کان.

و کما أنّ لیالیهم فی الشتاء تکون طویلة جدّا، فإنّ النهار إذ ذاک عبارة عن ثمانی ساعات، کذلک تکون فی الصیف قصیرة جدّا؛ فإنّ النهار فی شهر حزیران یکون ستّ عشرة ساعة و نصفا؛ فیکون اللیل کلّه کالشفق إلا أن یلبس الجوّ الغیم و الدکنة.

و لنذکر لک جملة من الکلام علی الهواء هنا لتتخذها قانونا تقیس علیه، فأقول:

إنّه فی الثانی عشر من شهر تشرین الأول أحوج البرد إلی أیقاد النار، و کنّا نری أهل القریة کلّهم یصطلون، فحذونا حذوهم، و بقیت

الشمس أياما عديدة لا ترى إلا لمحا، و كانت تطلع فی الساعة السادسة، و تغرب فی الخامسة، و لا يكاد يكون بعد غروبها شفق.

و فی الواقع فإن النار عندهم تقوم مقام الشمس، فإنّهم ينشّفون عليها الثياب، و يتلذّذون بالنظر إليها و لا سيّما إذا كانت ذات لهب. و قد بلغت منهم ألفتهم بها بحيث إذا جلسوا فی الصيف حين يستغنون عنها يطوفون بالموقد و يؤثرونه على الجلوس عند الشبابيك، إلا أنه من يجلس عند الموقد فلا بدّ له من أن يغسل يديه و وجهه فی اليوم مرارا حتى إن غلالته تتسخ من أثر الفحم من تحت ثيابه. و فی الرابع و العشرين من الشهر المذكور كانت الشمس تطلع فی الساعة السابعة، و تغيب قبل الساعة الخامسة. و فی السادس من تشرين الثانی كانت تطلع عند الثامنة، و تغيب بعيد الرابعة. و فی هذا الشهر يكثر وقوع الضباب فيأخذ بالكظم إذ المشی فيه لا يخلو من بعض أذى بالبصر، و يسمّون هذا الشهر «نحّار الأعناق».

و قبل عيد الميلاد كان صحو عظيم؛ فكانت الشمس ترى عامة النهار، و لم يكن البرد يحوج إلى الاصطلاء، و إنّما كنّا نوقد النار لمجرد الارتياح إلى رؤيتها كما هی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۵

عادتهم، و فی السنة الثانية قبل العيد المذكور أصحت السماء مدّة يومين كاملين فظهرت الشمس فيها من ساعة شروقها إلى غروبها، و لكن وقع برد شديد جمدت منه المياه حتى فی الآنية فلم يكن كبّ السلحفاة مانعا له كما قال صاحب القاموس، و كانت الأولاد تطفر على المناقع و البرك كما تطفر على الصخرة الصماء و إذا كسرتها تشققت عن ألواح كلوح الباب.

و التزحلق على الجليد عادة شائعة عند جميعهم حتى إن البرنس ألبرت زوج الملكة يطفر مع خواصه فی موضع خاص به، و حين يتزحلقون يلبسون نعالا- كالقباقيب و هو عدهم من الأمور الرياضية. و كنّا نرى الصقيع على وجه الأرض كأنّه ملح مرشوش، و كان الماء يجمد على زجاج الطيقان، و إذا ألقيت منه على الأرض لم يلبث أيضا أن يجمد. أمّا المطر فلم يقع إلى وقت الميلاد إلا رذاذا، و قلّما ينزل فی غيره أيضا سحّا كما ينزل فی برّ الشام و مالطة. و إذا انقطع عنهم شهرا فأكثر لا يستسقونه بالأيدی كما يفعل المالطيّون لأن ثراهم لا يزال نديا من المطر السابق، و أكثر وقوعه فی الخريف و الربيع.

فأمّا الرّعد فقد مضى الشتاء كلّه و لم نسمع له قصفة و إنما سمعناه فی أيّار و الشمس حارّة، و كان شهر نيسان أبرد من آذار، و فی أواسطه سقط ثلج و برد شديد، و كان آخر آذار أبرد من أوّله فقد احتجبت فيه الشمس أيّاما متوالية.

و فی اوائل العام الثانی غطّى الثلج وجه الأرض و السطوح و رؤوس الشجر و لم يكن البرد شديدا كما يكون عند سقوط الصقيع. و يقال: إن كثيرا يهلكون فی الطريق حينئذ إذا لم يكونوا خبيرين بها فيقعون فی مهواة على حين غفلة فيعطبون، و ربّما سقط على الشاء فی الحقول فتضلّ الطريق. و قد سمعت أن امرأة سقط عليها الثلج و هی تحت شجرة تستذری بها فلم يمكنها التحوّل من موضعها فلبثت هناك بضع أيام حتى جاء من أخرجها منه، و قد سقطت أصابع يديها و رجليها، و بقيت بعد ذلك

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۶

حيّة. و يقال: إن بقاء الثلج فی المزارع أيّاما نافع للزرع و لا شیء أشقّ على الماشی من المشی عليه حين يذوب بخلاف ما إذا كان متلبّدا.

و للإنكليز لهج عظيم فی محاوراتهم و كتبهم بمحاسن أيار لانكسار حدّة البرد فيه إلا- أنّه فی الواقع من أنحس الشهور، و ذلك لانقطاع الفاكهة و البقول فيه إلا ما ندر.

و فی أوله تدور الصبيان و البنات يغنون و يجتدون من أهل البيوت و من المارّين فی الطريق. و كان قدماء الإنكليز يرقصون فيه فی الحقول و المزارع، و يجعلونه يوم مسرّة و طرب حتى إن السّفلة فی لندرة يعيدونه إلى الآن فيتخذون نحو شجرة و يرقصون حولها فی الشوارع، و فی أوائل شباط يطوف الأولاد أيضا يغنون لفالنتين و هو عندهم يوم تزاوج الطيور، و فيه يتهادی الشبان و الشابات بالرسائل و الأشعار على طروس مزخرفة.

تغيّر المناخ فی أيار و حزيران

و من أول شهر حزيران إلى العشرين منه حصل حرّ يقرب من حرّ مالطة فكانت الشمس تبدو من أول النهار إلى آخره، ثم اكفهرّ الجوّ، و دهم البرد، و وقع المطر الغزير، و حين اشتداد الحرّ يبلغ ثمانين درجة (إنكليزية)، و غاية البرد عشرون. و أبرد الرياح عندهم هی الشرقية، ثم الشمالية. أمّا الغربية فلا تكاد تأتی من دون مطر، و الغالب حينئذ أن تنكسر سورة البرد، و يعقبه دفء مغر بالكسل و العجز حتى يودّ الإنسان أن تعود الريح الباردة، و إن طارت عنه الثياب. و بما مرّ بك من تقلّب حال الهواء تعلم أنّه لا يحسن أن يترجم إلى لغتهم قول بعضهم من قصيدة يمدح بها الملكة و هو:

تلوی الرياح مثانی الرمل عاصفة حتى تصيب أراضيها فتعتدل

و هو نظير قول المتنبی:

إذا أتتها الرياح الهوج من بلد فما تهبّ بها إلا بترتيب

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۷

لكن بيت المتنبی سالم من الضرورات. و قلت أنا من قصيدة طويلة:

ما إن يحيل حؤول فی هوائهم هوی نفوسهم عن مذهب الخير

إشارة إلى أنّ تقلّب الهواء عندهم لا يغيّر طباعهم عن فعل الخير، و الخير بالكسر الكرم و الشرف و الأصل و الهيئة.

شكواهم من البرد

و فی الحقيقة فإنّه عند شدّة البرد هنا لا يفكر الإنسان إلا فی الاصطلاء، و لا تزال تسمع من كلّ من تلقاه لفظة البرد، و إذا تفوه بها فرك يديه و تأفّف ليدلّ على صدق ما يقول و لا سيّما النساء، حتى إنّهم ربّما قالوا ذلك فی يوم لا برد فيه، فكأن ألسنتهم مرنت على ذلك. و كثيرا ما تقرأ ذلك أيضا فی كتبهم، و يسمّون المرأة «رفيقة الموقد» و الإضافة بتقدير عند. و قد جرت العادة عندهم بأنه لا يحرّك النار إلا من كان من أهل البيت، أو من طالت ألفته بهم.

ألفتهم للنار

و فی الجملة فإن النار أليفهم مدة ثمانية أشهر فی السنة، و بهذا تعلم أنهم لا يرون فی وصف الجنة نعيما لأن الإنسان إذا كان مقرورا لا يشتهی أن يسمع بذكر المياه و الظلال و الأشجار، بل كانوا يقولون: تلك الجنة نيرانها مضطرمة، و مواقدها محتدمة، و حضبها معتّد، و حطبها منضّد، و فحمها مؤبّد، و مسعرها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۸

مخلّد، فهنيئا للمصطلين، و طوبی للمستدفئين، أليس أن عبادة النيران فی بلاد الفرس نشأت عن البرد كما قال ابن صاره فی المعنی:

أحلّ لنا ترك الصيام بأرضكم و شرب الحميّا و هو شیء محرّم

فرارا إلى نار الجحيم فإنّها أرقّ علينا من شلير و أرحم

لئن يك ربی مدخلی فی جهنّم ففی مثل هذا اليوم طابت جهنّم

أثر المناخ فی حياة البشر

ثم إنه لا يخفی أنّ أهل البلاد الحارّة يكونون أذكی ذهنا، و أسرع فهما من أهل البلاد الباردة، إلا أنّهم لا يكون لهم جلد على

الأعمال الشّاقّة لغلبة الترهل عليهم، و لا عظم همّة لمباشرة المساعی الخطيرة، و لا يمكن أن يلحقوا أهل البلاد الباردة فی العزّ و الغنی، إلا أن يكون لبعض البلاد مزيّة خاصة بوجود المعادن و غيرها كبلاد الهند مثلا. أمّا سكان البلاد الباردة فيتحمّلون مشاقّ الأعمال، و يستطيعون إدمان السعی و يعمّرون أكثر؛ و لهذا كان جلّ الفاتحين و الغازين من الشمال، و كأن جزيرة العرب مستثناة من هذا الحكم، إلا أنّ أيّامهم فی الشتاء تكون قصيرة جدّا؛ فيضطرون إلی العمل ليلا. و ربّما كنبت أيديهم من شدّة البرد.

و فی كتاب منسوب إلی أرسطو: أن أهل البلاد الحارّة يعمّرون أكثر من أهل البلاد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۴۹

الباردة؛ لأن الحرارة الطبيعية يتأتّی حفظها فی الأولی أكثر من الثانية، و لا أری قوله مطابقا للواقع إلا أن يحمل قوله: البلاد الباردة علی معنی: المفرطة فی البرودة، و البلاد الحارّة علی معنی المعتدلة فی الحرارة.

اختراع البارومتر

و لنختم الكلام علی ميزان الهواء بما لا يخلو من فائدة فنقول: إن أصل اختراعه فيما علم كان فی إيطاليا. و فی سنة ۱۶۲۶ ألّف صنطوريا الطبيب فی بدوی كتابا، و ادّعی فيه أنه مخترعه، و ادّعی أيضا هذه الدعوی رجل من هولاند اسمه كرنيليوس دريبل، و بعد البحث و التدقيق علم أن الأول سبق إلی الدلالة علی اتخاذه، و أن الثانی عرف خواصه من قبل أن يسمع شيئا عن ذلك.

أيام السنة فی مدينة أوربية

و نقلت بعض الكتبأنه حسبت أيام السن فی مدينة وبانه علی مدة خمس و سبعين سنة، فكان فی خلال السنة من أيام الصحو ۱۲۷ يوما، و من المطر ۱۱۰ و من الثلج ۱۳۵ و من الرعد و البرق ۱۹. و أقول: إن هذا القدر من أيام الضباب هو أكثر مما يقع بلندرة فإن جلّه هنا إنّما يقع فی شهر تشرين الثانی.

المعادن فی إنكلترة

أمّا معادن إنكلترة فأشهرها القصدير و الصفر و الحديد و الفحم، و هذان الأخيران أقنی و أنفع لهم من سائر المعادن النفيسة، إذ لو لا هما لم يتأتّ لهم إنشاء ألوف من البواخر، و من سكك الحديد، و من الغاز، و غير ذلك. و ليس كلّ البلاد التی فيها معادن الذهب و الفضة أغنی من غيرها، فإن من المعادن ما تقوم نفقة استخراجه بفائدته فلا يحصل منه إلا مجرّد الافتخار بوجوده، و إنّما العمدة علی سهولة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۰

إيشائه و قلّة مصروفه.

أماكن وجود الذهب

و أكثر ما يوجد الذهب فی إفريقية، و يابان، و جنوب أميركا. و هذا الأخير عثر عليه الإسبانيول فی سنة ۱۴۹۲ و من ذلك التاريخ إلی سنة ۱۷۳۱ جلب منه إلی أوربا ستّة آلاف مليون شذرة. قيمة كلّ منها ثمانية ريالات أميركانية، و يكثر وجوده أيضا فی جبال أورال بالروسية. و يوجد منه معدن فی كورنول، و فی كلو بإرلاند.

و أكثر ما يأتی الإنكليز من الذهب فإنّما هو من أوستراليا و كاليفورنيا قيل: إنّهم يجلبون منه فی كلّ سنة عشرين مليون ليرة. و أوّل من اطلع عليه فی الأولی إدورد هرغافس، و ذلك فی سنة ۱۸۵۱ فاطلع أرباب الحكم علی ذلك طمعا فی الجائزة فأجازوه و ولّوه خولية

أرض الميرى. و من جملة ما وجد فيه قطعة ذهب ابريز وزنت مائة و ستة أرطال. و وجد أيضا فى موضعين منها إلى غاية تشرين الأول سنة ۵۲/ ۴۲۲، ۵۳۲، ۲ أوقية إنكليزية أو مائة و خمسة أطنان، أى طنلاته، و بلغت قيمة الذهب الذى بعث منها إلى الخارج نحو تسعة ملايين ليرة، و من ذلك الوقت تتابع وروده إلى بلاد الإنكليز.

أوسترالیا

و يحتمل أن فى أوستراليا معادن أخرى و كنوزا جزيلة لم تكشف إلى الآن، فمتى كشفت تكون داعية لعجب أهل الدنيا. و هذه الجزيرة هى أكبر جزيرة فى المسكونة، و أصغر أرض قارة، فإنّها دون أميركا بنحو ستّة أضعاف. و كان استعمار الإنكليز إياها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۱

بعد انفصال أميركا عن بلادهم. و فى سنة ۱۸۵۴ بلغ عدد أهلها ۷۹۸، ۲۳۶ نفسا، و هى أقل بلاد الدنيا إناثا.

نبذة عن أمیرکا

فأما أميركا فأول من كشفها رجل من جينوى اسمه كرستوفر كولمبوس، و ذلك فى سنة ۱۴۹۲ قيل: إذا صارت مملكة الدول المتحدة فى أميركا مأهولة كهولاند، فتكون تسع تسعمائة مليون من الناس، و هو نصف سكّان المسكونة. و أهلها الآن سبعة و عشرون مليونا. و حين كان الإنكليز يبنون مجلس الشورى بلندرة كان الأميركانيون مشتغلين بتمدين بلادهم؛ فأنشؤوا سبعة و عشرين ألف ميل و خمسمائة ميل لسكّة الحديد، بلغت نفقتها نحو ثلاثمائة مليون ليرة، و فى غضون ذلك أنشأ الإنكليز تسعة آلاف ميل كلفتهم نحو المبلغ المذكور. و الذى ورد إلى خزنة الدولة فى سنة ۱۸۵۷ من جميع موارده بلغ نحو ثمانية و عشرين مليون ريال و نصف مليون.

و كان المبلغ الفاضل فيها نحو عشرين مليونا. و بلغت مصاريف الدولة سبعين مليونا و كانت محال البوسطة فيها فى سنة ۱۸۲۷ سبعة آلاف، و فى سنة ۱۸۳۷/ ۱۷۷، ۱۱ و فى سنة ۴۷/ ۱۴۶، ۱۵ و فى سنة ۵۷/ ۵۸۶، ۲۶ و كان مواضع امتدادها طولا فى سنة ۲۷/ ۳۳۶، ۱۰۵ ميلا و فى سنة ۳۷/ ۲۴۲، ۱۴۱ ميلا و فى سنة ۴۷/ ۸۱۸، ۱۵۳ ميلا و فى سنة ۵۷/ ۶۰۱، ۲۴۲ ميل. و فى المملكة المذكورة تسعة آلاف رتل لسكة الحديد، و هو عبارة عن إجراء رتل واحد لكل ثلاثة أميال. و وجدت فى كتاب آخر أن طول سكك الحديد فى أميركا كان فى سنة ۵۷/ ۴۶۶، ۲۱ ميلا، و أنه فى سنة ۱۸۲۸ و هى

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۲

أول سنة ابتدؤوا فيها بهذه المصلحة لم يكن عندهم إلا ثلاثة أميال، فانظر إلى هذا الفرق.

کالیفورنیا

و كان كشف كاليفورنيا فى سنة ۱۵۳۵ و كانت فى سنة ۱۸۴۶ من أعمال مكسيكو تحت استيلاء دولة إسبانيا، ثمّ استولت عليها الدول المتحدة. و كان كشف الذهب فيها فى سنة ۱۸۱۷ و قيل: إنّه كان معروفا قبل هذا التاريخ لبعض أشخاص و لكن كانوا يكتمونه. و هذه اللفظة محرفة عن لفظتين من اللغة الإسبانيولية معناهما:

الفرن الحامى و لا يبعد أن يكون ذلك عربيا؛ فإن كالى محرّف عن قالى، من قليت اللحم و نحوه، و فورنيا من الفرن. و قيمة ما يخرج من هذا الصّقع فى السنة يبلغ خمسة ملايين، و بلغت قطعة الذهب من ذلك إلى خمسة و عشرين رطلا، فكان الرجل يسعد من كدّه و قميصه لم يتّسخ. و يحكى أنّ الدول المتحدة لما بلغها خبر وجود الذهب فى هذا الإقليم أرسلت حاكما إليه فما كان بعد وصوله إلا أن حمل المعزقة، و أقبل يحفر عن الذهب مع الحافرين.

عودة إلى معادن إنكلترة

قال بعضهم: أمّا معادن إنكلترة فكثيرة و غنية فقد عدّ طاخيطوس من جملتها الذهب و الفضّة. و فی عهد الملك جامس الأول كشف معدن رصاص استخرج منه كثير الفضة. و يوجد فی «كورنول» أكثر من خمسين معدنا للنحاس. و نقلت من بعض الإحصائيات الصحيحة أن جملة ما خرج من الذهب من بلاد الإنكليز من سنة ۱۸۱۶ إلى سنة ۱۸۴۶ بلغ خمسة و تسعين مليونا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۳

ضرب الدنانير فی إنكلترة

و قيل: إن أول ضرب الدنانير عندهم كان فی سنة ۱۲۵۷ و أول ضرب الدنانير الرائجة المحكمة كان فی سنة ۱۳۴۴ و كان ضرب الجينی فی سنة ۱۶۷۳ و كان مبلغ ما ضرب من النقود فی أيام الملكة أليصابت ۰۰۰، ۸۳۲، ۵ ليرة. و فی أيام جامس الأول ۰۰۰، ۵۰۰، ۲ و فی أيام جورج الثانی ۵۷۶، ۹۶۶، ۱۱ و فی أيام جورج الثالث ۵۸۶، ۵۰۱، ۷۴ و فی أيام جورج الرابع ۶۶۳، ۸۲۷، ۱۰ و فی زمان الملكة فكطوريا و ذلك من سنة ۱۸۳۷ إلى سنة ۴۸/ ۴۵۷، ۸۸۶، ۳۹. و يقال: إن ضرب الدراهم و الدنانير من مخترعات أهل ليديا (من بلاد الأناطول) و ذلك فی سنة ۸۶۲ قبل الميلاد، أمّا الفلوس فذكرها أوميروس فی سنة ۱۱۸۴ قبل التاريخ المذكور.

الذهب و ليونته

و الذهب الإنكليزی قيه اثنان و عشرون قيراطا من الذهب، و قيراطان من النحاس.

و يقال: إنّ حبّة الذهب يمكن تقسيمها إلى ثمانية عشر مليون جزء ظاهرة، و يمكن أيضا تطريقها و مدّها حتى تصير خمسا و ستّين إصبعا مربّعة، و إنّ الصفحة منها تصير إلى جزء من ثلاثمائة من أجزاء الإصبع. و يذهب بها حتى إلى جزء من عشرة ملايين. و أول استعمال خيوط الذهب كان فی إيطاليا سنة ۱۳۵۰ و لما كان هذا الجوهر ألين جميعا لجواهر و أصفاها كان لا يستعمل إلا مخلوطا بالصفر أو الفضّة.

نقود الذهب و الفضة

و نقلت من جرنال التيمس سنة ۱۸۵۲ أن مبلغ نقود الفضة و الذهب فی الدنيا بأسرها قيمته أربعمائة مليون ليرة. منها مائتان و خمسون مليونا فضة، و الباقی ذهب.

و نقلت من غيره أيضا أن مبلغ الذهب الذی كان متداولا فی سنة ۱۸۴۸ فی الدنيا بأسرها كان ستمائة مليون ليرة، و أن الإمداد السنوی كان من ثمانية ملايين إلى

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۴

تسعة. و أنّه لسبب كشف معدن الذهب فی أوستراليا و كاليفورنيا صار الذهب المتداول الآن يبلغ أكثر من ثمانمائة مليون. فمن كاليفورنيا خرج من سنة ۱۸۴۹ إلى سنة ۱۸۵۳ خمسة و ستّون مليونا و تسعمائة ألف، و من أوستراليا خمسة و ثلاثون مليونا و ذلك من سنة ۱۸۵۴ إلى سنة ۱۸۵۶.

معدن الفضة

أمّا معدن الفضة فقيل: إن أحسن ما عرف منه كان فی فی لا باز و ذلك سنة ۱۶۶۰ فكان من لينه و حسنه يقطع كالبلّور. و فی سنة

۱۷۴۹ أرسلت قطعة منه إلی إسبانیا فبلغت ۳۷۰ رطلا، و حفر عن قطعة فی معدن بنورویج و أرسلت إلی متحف کوبنهاغن فبلغت ۵۶۰ رطلا، و قیمتها ۶۸۰، ۱ لیرة. و کانت آنیة الفضة نحو الأقداح و المغارف تعدّ فی سنة ۱۳۰۰ فی بلاد الإنکلیز من الإسراف، و وجودها فی البلاد المذکورة إنّما یکون مختلطا بغیرها من الجواهر.

معدن النحاس

أما معدن النحاس فقد مرّ ذکره فی کورنول. و یقال: إن أعظم معادنه فی مملکة السوید، و یقال أیضا: إن الحبة من هذا الجوهر إذا حلّت فی ملح النشادر تجزأت إلی أکثر من اثنین و عشرین ألف جزء.

معدن الحدید و تجارته عند الإنکلیز

أمّا معدن الحدید عندهم فیستخرج منه فی کلّ سنة أکثر من ثمانمائة طن.

و یقال: إنّه أول ما عرف وجود الحدید کان علی جبل ایدای و ذلک فی سنة ۱۴۳۲ قبل المیلاد، و زعم الیونانیون أنّهم هم أول من عثروا علیه کما أن أهل فینیقیة أول من عثر علی الزجاج، إلا أنّا نعلم من التوراة أن أول من قان الحدید طوبال قاین.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۵

و قال آخر: «إن تجارة الحدید فی بلاد الإنکلیز کما هی الآن من إبداع هنری کورت لأنّا قبل سنة ۱۷۸۳ کنّا نجلب جلّ لوازمنا من الحدید المصنوع من سواحل بحر البلتیک، و لم تکن طریقة لصنع هذا الجوهر الذی یصدق علیه أن یسمّی جوهر الجواهر سوی تطریقه بمطارق ضخمة ثقیلة بعد إحمائه فی فرن، و هو أسلوب قدیم یجری مع قدم أیام الخرافات، و ما عدا ما کان یتبعه من التعب و الکلال فکان یلزم له أجم کثیرة لتفی بالوقود اللازم لإحمائه، و حیث لم یکن عندنا منها ما یکفی کان لا بدّ لنا من استجلابه من الروسیة و السوید حیث الأجم کثیرة، و الحدید یسهل صنعه فیها بالنسبة إلی هذا الصقع و إلی سعره فیها. فکانت معادننا الجزیلة تبقی معطّلة إلی أن قام هنری کورت المذکور، و أعمل فکره الثاقب فی ابتکار طریقة جدیدة تکثر بها منافع هذا المعدن، و تقلّ الصعوبة فی صنعه؛ فأدّاه الاجتهاد و التّبحّر إلی إحداث فرن هواء بواسطة لهیب النار المنبعث من فحم الحجر، فکان یحمی به الحدید و هو تبر و یصفّیه ثم یجعله قصبانا مسبوکة من دون فحم و لا مطرقة. و لکن لم یتهیّأ له إتقان هذا الحمل إلا بعد أن أنفق علیه عشرین ألف لیرة، و منذ ذلک الوقت استغنینا عن حدید السوید و النورویج.

ثم لم تمض أربع عشرة سنة حتی صار ما یصنع منه فی بلادنا قدر ما کنّا نجلبه من بحر البلتیک، ثم صار ما یصنع منه علی هذا المنوال موازیا لمائتی ألف طن، منها خمسون ألفا ترسل إلی الخارج. و هذا القدر هو ما کنّا نفتقر إلی جلبه سابقا من البلاد الأجنبیة. و قد صنع منه فی سنة واحدة من هذه السنین المتأخرة فی معمل بوالس أکثر ممّا کان یصنع منه فی المملکة بضعفین. فأعظم به من اختراع یعدّ من أعظم الأسباب الموجبة لثروة أهل هذه البلاد، و لاستقلالهم بأعمالهم؛ إذ لو لاه لم یتأتّ إنشاء سککک الحدید، و البواخر و غیرها. و لا یخفی ما فی ذلک من المنافع فهو لنا بمنزلة إبرة المغنطیس لکشف الدنیا الجدیدة. فما أجدر مخترعه بأن یحسب ندّا لواط، و ما أخلق بلادنا بأن تظهر کونها ممنونة له علی مرّ الأیّام إلی أن قال: و مع أنّه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۶

أنفق فی هذا العمل الجلیل عشرین ألف لیرة، و مهّد لبلادنا طریقة فاقت بها علی جمیع الممالک، لم تجازه علی ذلک بل عاملته بالکنود، علی أنه تحقّق و ثبت أن ما أکسبها من فوائد هذا الاختراع یبلغ ستمائة ملیون لیرة، و أفاد أیضا مؤنة ستمائة ألف من الصنّاع.

و قد کان الرومانیون فی الزمن القدیم یصفّحون قعور سفنهم بالرصاص، و کان ثمنه إذ ذاک أغلی ممّا هو الآن بأربعة و عشرین ضعفا، و یقال: إن أحسن صبغ للشعر، هو ما یتّخذ من الرصاص و هو فی نفس الأمر سم.

الفحم الحجری فی إنکلترة

أمّا فحم الحجر فإن أهل بریتانیا الأقدمین کانوا یستعملونه، و إن لم یذکر ذلک الرومانیون فیما ذکروا من أحوال هذه الجزیرة، و أوّل کشفه کان فی نیوکاستل بإنکلترة سنة ۱۲۸۴ و زعم بعض أنه قبل هذا التاریخ. و کان قد منع أولا من استعماله بدعوی أنّه مضرّ بالصّحّة حتی إن الحدّادین کانوا لا یوقدون إلا الحطب. و فی سنة ۱۳۸۱ اتّخذ کأنّه صنف للتجارة؛ فصارت الناس تجلبه من المحل المذکور إلی لندرة، ثمّ عمّ استعماله فیها، و ذلک فی سنة ۱۴۰۰. فأمّا فی جمیع إنکلترة فلم یعم قبل سنة ۱۶۲۵. و یوجد منه معدن فی نورثمبرلند فی سهل فسیح امتداده ۷۲۳ میلا- مربعا، و قریب منه سائر الأماکن. و الموجود منه فی والس فقط یکفی إنکلترة علی المعدّل الذی ینفق منه الآن ألفی سنة.

و المنصرف منه فی بریتانیة فی کل سنة ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۵ طن. و فی سنة ۵۷ وصل إلی مرسی لندرة ۵۰۰، ۱ سفینة مشحونة بالفحم، و بلغت کمیة ما ورد إلیها منه بحرا و برّا ۷۰۸، ۳۶۸، ۴ أطنان. و المستخرج منه من درهام و من نورثمبرلند یبلغ فی السنة ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۴ طن یصرف منها فی لوازم لندرة ۰۰۰، ۰۰۰، ۶ و فی لوازم البلاد الخارجیة ۰۰۰، ۵۰۰، ۲ و قدر ذلک لأجل الغاز، و الباقی فی مهمات أخری.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۷

و قال آخر یوجد فی إنکلترة و إرلاند ۰۰۰، ۴ میل مربع تحتوی علی معادن فحم لم تکشف بعد، و مسافة جریب واحد سمکه ثلاث أقدام یوازی ما یخرج من فحم ۹۴۰، ۱ جریبا من الأجم و الغیاص، و معادن الفحم المفتوحة الآن فی دربی تبلغ ۲۴۰ معدنا یعمل فیها ۰۰۰، ۲۰ نفس. و معادن یورک شیر ۳۴۳ معدنا. و یوجد أیضا فی سکوتلاند معادن کثیرة منها محفور، و مها غیر محفور.

استخراج الفحم و إنتاجه فی بعض دول أوربا

و قیل: إن أصل استخراج الفحم کان فی بلجیک فی سنة ۱۱۹۸ ثم عرف فی إنکلترة. و الذی یخرج منها یبلغ خمسة أضعاف أکثر ممّا یخرج من غیرها من أی أرض کانت، و ما یحصّل من مسافة ۲۷۵، ۱ کیلومترا مربعا من بلجیک یبلغ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵ طن، و ما یحصّل من ۵۰۰، ۲ من القیاس المذکور فی فرنسا لا یزید علی ۰۰۰، ۶۰۰، ۴ طن. و کان المصروف من الفحم فی فرنسا فی سنة ۱۷۸۰/ ۰۰۰، ۴۰۰ طن، و فی سنة ۱۸۴۵ بلغ ۰۰۰، ۰۰۰، ۶.

القصدیر

أمّا القصدیر فوجوده فی بلاد الإنکلیز من قدیم الزمان و أول من اتّجر فیه معهم أهل فینیقیة لأنهم هم أول من عرف خاصیة إبرة المغنطیس، و من قبل أن غزا القیصر یولیوس هذه الجزیرة کان الرومانیون و الیونانیون یسمعون بوجود جزیرة جهة الشمال توجد فیها معادن هذا الصنف، و کانوا یسمونها «کستیریدس» أی جزیرة القصدیر.

و بقیت هذه التجارة مقصورة علی الفینیقیین أحقابا عدیدة، و کان الیونانیون کثیرا ما یبعثون إلیهم جواسیس لیتعرّفوا أیّ برّ ینزلون؛ فلم یقدروا. و الذی یبعث من هذا الصنف إلی البلاد الخارجیة یبلغ فی السنة ألفا و خمسمائة طن غیر مصنوع، و ثمن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۸

المصنوع و الصفائح منه ۰۰۰، ۴۰۰ لیرة.

إبرة المغنطیس

أمّا استعمال إبرة المغناطیس فی هدایة السفن فلا یعلم فی أی عصر ابتدأ، و إنما یعلم أن خاصیّة ما فی جذب الحدید و الفولاذ کانت معروفة لقدماء الیونانیین، و إنّ استعماله فی السفر کان معروفا لأهل الصین من عهد بعید. و لا یبعد أن اشتهاره فی أوربا کان کاشتهار صناعة الطب فی کونه أخذ عن العرب إذ لم یعرف شأنه فیها إلا بعد أن فتح المسلمون غوثا فی إسبانیا، إلا أن العلم به لم یکن تامّا. و یحتمل أنّ العرب أخذته عن أهل الصین. و یقال: إن علم هؤلاء به فی أرجح الظن کان فی سنة ۲۶۳۴ قبل المیلاد. و هنا محل للبحث. إلاـ أنّ الیسوعیین الذین جعلوا دأبهم التنقیر عن علوم اولئک القوم، و عن عادیاتهم، و کذا کلابروت النمساوی العالم البارع، و مستر دافس، کلّهم حکوا العبارة التی تدلّ علی استعمال أهل الصین هذا الحجر فی ذلک التاریخ.

ثمّ لمّا کانت الإفرنج تسافر إلی بلاد المسلمین فی الحرب الصلیبیة کانوا یذکرون وجود هذا السر الغریب فی تلک البلاد، و کان من جملتهم الکردینال فتری و فنسنت دوبوفای. و کانت العرب تهتدی به فی البرّ. و لم تشهر معرفة استعماله فی أوربا إلا فی سنة ۱۲۶۹. فأمّا الانتفاع به فلم یشهر إلا فی القرن الرابع عشر، و أول من أجری ذلک رجل من نابولی اسمه فیلافیوجیوجیا. و قال آخر لم یشهر ذکر المغنطیس فی کتب الإنکلیز قبل أیام إدورد الثالث، و کان یسمّی حجر السفر. و أول سفینة سارت بهدایته کان فی سنة ۱۳۳۸.

أمّا رسم النقط فلم یعلم مخترعه. و زعم الفرنسیس أنّه من مخترعاتهم، و أن رسم النقط الأربع الأصلیة إنّما هو رسم عمّا یقال له «فلور دولی» أی زهر السوسن،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۵۹

و لکن هنا بحث؛ فإن زهر السوسن إنّما هو رسم عمّا یسمی بالعربیة موسالا (لعلّها مسلّة) و کانت العرب تتّخذها لدلالة الإبرة.

اختراع الکومباس

فأمّا اخترع أداة الإبرة المسماة عند الإفرنج بالکومباس فإنه کان من رجل من فینیسیا یقال له: مرکوس باولوس و ذلک فی سنة ۱۲۶۰ و بعضهم نسبه إلی فیلافیوجیوجیا المذکور. و زعم بعض أنّه کان معروفا فی الصین سنة ۱۱۱۵ قبل المیلاد و کأن ذلک سهو. نعم إنه کان عندهم آلة تتحرّک بنفسها مصوّبة إلی الجنوب لهدایة المسافرین بحرا و برّا، فظنّها الناس الآلة المعروفة. قال: و قد ثبت أن المذکور هو الذی استنبط تعلیق هذه الإبرة کما نراها الآن و ذلک سنة ۱۳۰۲ فأمّا وضع الصندوق لها و کیفیة ترکیبها به فمن اختراع أحد قسیسی الإنکلیز، و یقال له ولیم باولو و ذلک فی سنة ۱۶۰۸.

الألماس

و لنختم کلامنا علی المعادن بذکر الألماس فنقول: إنه وجد فی معدن هذا الجوهر ببرازیل حجر زنته ۱۶۸۰ قیراطا، و أرسل إلی دیوان البورتوغال فقوّم بمائتین و أربعة و عشرین ملیونا من الریالات، و قوّمه بعضهم بستین ملیونا لا غیر. وزنة حجر الألماس الذی عند قیصر الروسیة ۱۹۳ قیراطا. و اشتری ملک فرنسا حجرا کانت زنته ۱۰۶ قراریط. و فی سنة ۱۸۵۰ جلب الإنکلیز حجرا من الهند زنته ۸۰۰ قیراط إلا أنه لجهل الرجل الذی قطعه نقص حتی جاء ۲۷۹ قیراطا، و قدره کالبیضة و قیمته ملیونا لیرة.

و فی هذه الأیام الأخیرة جلب حجر من برازیل زنته ۲۵۴ قیراطا یذهب نصفه فی القطع.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۰

سکک الحدید و مصالح أخری

أمّا مصلحة سکک الحدید فی بلاد الإنکلیز فهی أعظم المصالح التی شغلت منهم خواطر الأغنیاء و المستربحین و المستنبطین، فإن مجموع رأس المال الذی وضع فیها یبلغ مائة ملیون لیرة، و مجموع رأس المال الذی وضع فی أشغال القطن یبلغ أربعین ملیونا، و الذی

فی أشغال الصوف ثمانیة عشر، و الذی فی الحدید أحد و عشرون، و الذی فی الحریر ستة عشر، و مجموع رأس المال الذی وضع فی أشغال الحدید فی بلاد الدول المتحدة ثلاثون ملیونا.

و یحکی عن رجل فی بلاد الإنکلیز أنّه کان فی الأصل بزّازا خاملا فتعاطی أشغال هذه السکک فحصل له توفیق فیها و نجاح و ما زال یزید نجاحا حتی استغنی غنی لم یذکر مثله فی التواریخ قط؛ فیقال إنه صار یتولّی أشغال خمسین ألفا من الصنّاع یعملون تحت یده، و الذی فاق فی شهرة الغنی فی التواریخ القدیمة رجل من أهل رومیة یقال له: کاسیلیوس أزیدوروس. قیل إنّه لمّا مات ترک ۱۱۶، ۴ عبدا و ۶۰۰، ۳ ثور ۰۰۰، ۲۰۰ رأس من البهائم، و ثلاثة ملایین لیرة. و حیث تسمع بأن رجلا بمفرده غنی جدّا فاحکم علی کثیرین بأنّهم فقراء جدّا.

ثم إنه لما نشّم بعض المحترفین من الإنکلیز فی إنشاء سکک الحدید، و لهج بها المتکسّبون لم یکن أحد یصدّق أنّها تصل إلی ما وصلت الیه، بل کان کثیر یستخفّون بها و یسخرون ممن وجّه همه إلیها، فقد کتب فی بعض صحف الأخبار منذ عشرین سنة ما نصّه: أمّا هؤلاء المصطرفون الذین یخیّل لهم أن ینشئوا سکک الحدید فی جمیع جهات المملکة حتی یستغنی بها عن السفن و العجلات و العواجل و الحوامل و غیرها مما یرکب الناس فیه برّا و بحرا، فإنّا ننزلهم و تصوراتهم هذه التی هی أضغاث أحلام، منزلة من هو غیر جدیر بأن یشغل به الخاطر.

و أوّل سکّة وضعت فی هذه البلاد کانت فی جهة نیوکاستل فی اوائل الرن السابع عشر، و لکن کانت قضبانها من خشب، و کان المقصود منها نقل الفحم علیها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۱

إلی المرفأ، ثم انشئت سکة أخری فی ویت هافن، و ذلک فی سنة ۱۷۳۸. و أعظم سکة وضعت بعدها کانت فی کلبروک دال فی سنة ۱۷۸۶. ثم کان أعظم السکک و أطولها سکة لیفربول، و منشستر، بدئ بها فی سنة ۱۸۲۶ و فتحت فی سنة ۱۸۳۰.

و مذ ذلک الحین شرعت جماعات کثیرة فی انشاء سکک شتّی فی إنکلترة و فرنسا و بلجیک و غیرها. و فی سنة ۱۸۳۴ کان صنف من الرتل المسمّی الناقل یسیر فی الساعة ستة أمیال. و فی سنة ۱۸۲۹ کان صنف آخر یسمّی «الشاروخ» یسافر خمسة عشر میلا. و فی سنة ۱۸۳۴ سافر صنف یسمّی «طیار النار» عشرین میلا فی الساعة.

و فی سنة ۱۸۳۹ سافر صنف آخر یسمّی «نجم الشمال» سبعة و ثلاثین میلا. و الآن صار الناقل یسافر سبعین میلا فی الساعة. و کان فی مبدأها ینفق علیها من الفحم أکثر ممّا ینفق الآن بخمسة أضعاف، و قس علی ذلک سائر المصاریف. و قد علم من خلاصة مجلس الشوری المنوط به إقرار هذه المصلحة أن الحصص الأصلیة و ما یلحقها من الاستقراض الخاص بجمیع جماعات سکک الحدید الکائنة فی بریتانیة بلغ ثلاثمائة و ستّة و ثلاثین ملیونا من اللیرة. و بلغ عدد المسافرین فی افی المملکة المذکورة فی بعض السنین ۴۰۴، ۳۶۷، ۵ تحصّل منهم، و ممّا أخذ أیضا علی البهائم و الرسائل ۶۰۵، ۴۲۴، ۵ لیرات. و عدد مجموع سکک الحدید فیها بلغ مائتین و اثنتین و عشرین سکة. تجری أسلاک التلغراف فی ثلثیها. و فی سنة ۱۸۵۰ تحصّل من إیراد سکک الحدید فی جمیع أوربا ۰۰۰، ۳۰۰، ۲۳ لیرة. و کان نصف ذلک من إیراد سکک ابریتانیا. و هذا جدول أطوال السکک المعروفة فی الدنیا:

سکک الحدید فی أوربا و أمیرکا

فی بریتانیة ۷، ۸۰۳ میل إلی سنة ۵۴

فی أمیرکا ۳، ۸۰۰ إلی غایة ۴۸

فی إیطالیة ۰، ۱۱۵ إلی غایة ۴۸

فی الدنیمرک ۱۰۶ إلی غایة ۴۸

فی جرمانیا ۱، ۵۷۰ إلی غایة ۴۸

فی بلیجیک ۱، ۰۹۵ میل إلی غایة ۴۸

فی فرنسا ۲، ۲۰۰ إلی غایة ۴۸

فی کوبا ۸۰۰ إلی غایة ۴۸

فی الروسیا ۵۲ إلی غایة ۴۸

مستعمرات الإنکلیز ۰۰۰، ۱ إلی غایة ۴۸

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۲

فی هولاند ۲۰۰ إلی غایة ۴۸ فی هند الشرق ۵۰۰ إلی غایة ۴۸

و المیل عبارة عن ۸۶۰، ۱ یاردة، و الیاردة عبارة عن نحو ذراع و نصف.

عودة إلی سکک الحدید فی بریطانیا

و فی سنة ۵۶ امتدت سککک الحدید فی بریتانیا إلی ۰۵۴، ۸ میلا- أنفق فیها ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۸۶ لیرة، و منها أکثر من خمسین میلا فی صخور منقورة، و مساحة تلک الأمیال ۵۵۰ یارداً مکعبا، و یجد لهذه السککک خمسة آلاف مزجیة و هی الآلة التی یقال لها انجن، و فی کل سنة تسیر الأرتال ثمانین ملیون میل، و مصروف المزجیات من الفحم فی کل سنة ملیون طن. و فی خدمة الجمعیات القائمة بهذه المصلحة تسعون ألفا ما بین رئیس و مرؤوس. و فی سنة ۵۴ کان عدد من سافر فی هذه السککک أحد عشر ملیونا و استفید منهم أکثر من عشرین ملیون لیرة و هو نحو ثلث إیراد الدولة. و المصروف من الحدید علی تبدیل القضبان و الأدوات فی کل سنة عشرون ألف طن، و یقطع أیضا للوازمها نحو ثلاثمائة ألف شجرة، و کل رتل یحمل فی مجمل الحساب مائتی شخص، و بلغ ما أعطی لأصحاب الأرض تعویضا لهم عما أخذ من أملاکهم نحو سبعین ملیون لیرة. و أسلاک التلغراف ممتدة ۲۰۰، ۷ میل، و یلزم لها من سککک الحدید ما طوله ۰۰۰، ۳۶ میل. و عدد المستخدمین فی التلغراف ثلاثة آلاف، و کل واحد من خمسین من أهل إنکلترة یتوقف معاشه و قوام أمره علی هذه السککک.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۳

و قال آخر: بلغ الحاصل من إیراد سککک الحدید فی بریتانیا فی سنة ۵۷ ثلاثة عشر ملیونا و ذلک بحساب فائدة ۴ فی المائة. و قال آخر کان فی أواسط سنة ۶۰/ ۴۵۰، ۱۲۷ رجلا مستخدما فی سککک الحدید فی جمیعا لمملکة و المشروع فیها الین یستخدم فیه ۹۲۳، ۵۳ فتکون الجملة ۳۷۳، ۱۸۱ و عدة المواقف ۶۰۱، ۳.

سکک الحدید فی بروسیة

ثم رأیت بعد ذلک فی بعض صحف الأخبار أن طول سککک الحدید فی مملکة بروسیة بلغ فی سنة ۵۹/ ۱۶۲، ۳ میلا- و أن رأس المال الذی عیّن لذلک بلغ ۰۰۰، ۰۸۰، ۴۴ لیرة فیکون ۹۴۰، ۱۳ لیرة علی کل میل، و بلغ عدد المسافرین فی السنة المذکورة ما عدا العسکر ۶۶۸، ۲۷۹، ۱۹ و مقدار البضائع التی نقلت فیها ۰۱۲، ۷۶۱، ۹۰۴، ۱۱ طنّا، و مقدار ما تحصّل منها ۴۴۰، ۳۹۹، ۵ لیرة أعنی ۷۰۷، ۱ لیرات من کل میل.

عودة إلی إنکلترة

هذا ما تیسر لی نقله من الکتب، و من صحف الأخبار. و أقول: إنی سمعت من غیر واحد أن أعظم سکة فی إنکلترة هی التی یسافر بها

من لندرة إلی برستول. فإنه أنفق فی إنشائها نحو ستّة ملايين ليرة و إيرادها فی كلّ شهر مائة و خمسون ألف ليرة، ثم إن الرتل الذی يقف فی عدّة مواضع يسير فی الساعة نحو عشرين ميلا. فأمّا الرتل المخصوص فإنه يسير فی الغالب أكثر من خمسين ميلا و هو يمرّ كالبرق الخاطف فإذا رأيته هالك مرّه و ربّما وقفت له الأرتال البطيئة خشية المصادمة. و المحسوب أن الجعل علی كل ميل فی المحل الأول قرش و نصف، و فی الثانی قرش، و فی الثالث نصف قرش. و مما مرّ تعلم أن منشئ هذه السكك هم جماعات يخرجون مالا من ملكهم و يشتركون فيها دخلا و خرجا فإذا أراد أحد أن يبيع حصّته فيها اشتراها آخر.

و لباس المستخدمين فيها كلباس الشرطة، بل أحسن.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۴

و فی طول السكّة يقيمون رجالا يتعهّدون القضبان، و يحافظون علی تنظيف الطرق فقد يتّفق أن بعض الأعداء يكسر قضيبا منها فيكون فی ذلك هلاك نفوس شتّی.

القطارات فی فرنسا و إنكلترة

و ممّا ينبغی أن يلاحظ هنا أن الأرتال الفرنسيس أقل عرضة للمصادمة و الخطر من الأرتال الإنكليزية؛ فكل يوم تسمع فی بلاد الإنكليز عن عطب عرض لأحد الأرتال، و لهذا كانت الشيوخ و العجايز عندهم يأنفون من السفر فيها، و يوثرون السفر فی بعض مراكب البرّ علی قديم عادتهم. و سبب كثرة هذه الأخطار عندی هو أن مديری المزجيات كغيرهم من أبناء جنسهم فی الانهماك فی شرب المسكرات، فيشربون و هم مباشرو الآلة حی يغرب عنهم الرشد و الصواب.

حوادث القطارات و السفن

ففی سنة ۵۶ هلك فی بريتانية فی هذه السكك ۲۸۱ نفسا و أصيب نحو ۴۰۰ و ذلك ما بين مجروح و أرب. و قس علی ذلك خطر السفن. فقد تلف لهم فی السنة المذكورة علی سواحل المملكة فقط ألف و تسعمائة و تسع و خمسون سفينة.

و المعلوم فی مجمل الحساب أنه يفقد لهم فی كلّ شهر مائتا سفينة. و مع ذلك فهم أغنی الناس جميعا فتعجّب.

مقارنة بين أرتال الإنكليز و الفرنسيين

ألاحظ أيضا أن الإنكليز إذا عملوا شيئا فإنما يراعون فيه وجه التكسّب و المصلحة فقط، و الفرنسيس يضيفون إلی ذلك راحة المسافر و رونق المحل و كسب الثناء. فإن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۵

المحل الثانی فی أرتال الإنكليز لا يكون إلا مقاعد من خشب إذا قعد عليها الإنسان بضع ساعات ألم غاية الألم، فأمّا عند الفرنسيس فإنها تكون شبه الأريكة يقعد المسافر عليها ما قعد و لا يملّ. و قس علی ذلك البواخر. و مواقف الأرتال فی فرانسا أحسن منها فی إنكلترة غالبا و أبهج. و فی بعضها تكون مطاعم عظيمة يجد الإنسان فيها كل ما يشتهی بخلاف مواقف الإنكليز. فإنّ ما فی مطاعمها كريه، و لا- سيّما القهوة فإنّها عبارة عن حساء القطانی؛ و لهذا كان أكثر المسافرين من الإنكليز يتزوّدون من بيوتهم ما يلزم لهم مدّة السفر، و يأكلون و هم قاعدون فی العواجل، و قلّ منهم من يتغذّی فی المطاعم، و ما أری الحق إلا معهم، فإنّ تلك المطاعم فضلا عن غلائها ربما أورثت الآكل هيضة تمنعه عن السفر.

محل المنسيّات

و فی کلّ من هذه المواقف یکون محل للحاجات التی ربّما ینساها المسافرون هناک لسبب العجلة أو الذهول، فتبقی هناک محفوظة حتی إذا علم صاحبها ردّت علیه فی الحال و إلا أبقیت فیه سنتین، ثم تباع و یوزّع ثمنها علی خدمة الموقف، و لا سیّما الذین أصیبوا منهم فی أبدانهم. و اتفق مرّة لرجل أن نسی کواغد مالیة بمائة و خمسین لیرة، فلمّا عرف اسمه ردّت علیه، و اتفق لی أیضا أنی کنت نسیت خرجا فی کالی و لّما استقرّ بی المقام فی القریة تفقّدته، و علمت بأنه بقی هناک؛ فکتبت إلی مدیر الموقف فیها فلم یلبث أن أرسله إلی.

اللقطة فی الحدیث الشریف

و یحسن هنا أن نذکر ما یناسب المقام ممّا أورده البخاری فی باب اللّقطة من صحیحه قال: حدّثنی محمد بن بشار: حدّثنا غندر: حدّثنا شعبة عن سلمة قال:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۶

سمعت سوید بن غفلة قال: لقیت أبیّ بن کعب رضی الله عنه فقال: أخذت صرّة فیها مائة دینار، فأتیت النبی صلّی الله علیه و سلّم، فقال: عرّفها حولا- فعرّفتها، فلم أجد من یعرفها، ثم أتیته فقال: عرّفها حولا، فعرّفتها، فلم أجد من یعرفها، ثم أتیته ثلاثا فقال: احفظ وعاءها و وکاءها، فإن جاء صاحبها، و إلا فاستمتع بها.

و یروی: استمتع بها بحذف الفاء قال ابن مالک فی التوضیح: فیه حذف جواب إنّ الأولی، و حذف شرط إنّ الثانیة و حذف الفاء من جوابها. فإنّ الأصل فإن جاء صاحبها أخذها، و إن لم یجئ فاستمتع بها. و التعریف ذکر اللّقطة و الضالة، و طلب من یعرفها انتهی ملخصا من شرح شواهد التحفة الوردیة للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادی. فیکون مدیرو المواقف علی هذا آخذین بهذا الحکم إلا أن فی الأمر بتعریف الضالة من الفضل ما فاتهم.

خلق الإنکلیز و صفاتهم

أمّا خلق الإنکلیز فالغالب علی الرجال الشقرة و توسّط القامة مع الضلاعة و القوة و شدّة العصب و زرقة العیون و صغر الأنوف، و الظاهر أن الشقرة لا تتوقف علی البرد وحده و إنّما أخص أسبابها الدم، فإنّ أهل جبل لبنان لیس لهم صفاء هذا اللون الذی یری فی هذا الجیل، و الغالب فی علیتهم امتداد القامة و الرشاقة، ثم إنّ الحسن هنا فی الرجال منقسم إلی ثلاثة أقسام.

الأول: فی العسکر، فإنّهم ینتخبون ممن حسن وجها، و اعتدل قدّا، و یلحق بهم الشرطة.

الثانی: فی خدّام الکبراء و الأمراء، فإنّ السیدات یتنافسن فی الغسّانی و لا یتناولن شیئا إلا من ید ملیح، و إن یکن الشیء المتناول قبیحا.

الثالث: فی الکتّاب الذین تستخدمهم التجار المثرون، و أصحاب المحترفات و المثابات الحافلة حیث یکثر تردّد الخواتین للشراء و غیره، فإنّ ذلک أدعی إلی حملهن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۷

علی الإسراف. و ما عدا هذه الأنواع الثلاثة فقلّ أن تبصر ملیحا. فأمّا فی باریس فلم ألحظ ذلک إلا فی دکاکین اللّحّامین حیث تنتاب الخوادم لشراء اللحم، و الذی یظهر فی الجملة أنّض رجال الفرنسیین أجمل من نسائهم، و من رجال الإنکلیز، و أنّ نساء هؤلاء أجمل من رجالهم و من نساء أولئک.

و من العجب أنّ الإنکلیز قد یبلغ أحدهم السبعین و لا یخطّه الشیب لا فی رأسه و لا فی عارضه، و إنّما یغلب علیهم فی هذه السن الدّرم و الدّرد أعنی: سقوط الأسنان. و عندی أن أعظم أسباب الشیب فی الأصل هو الهمّ و الخوف من ظلم الولاة و ذی الإمرة، فإن

أحد الإنكليز إذا كان يملك مثلا مليون ليرة لم يخش أن أميره، بل ملكه ينفس عليه بذلك، لا بل يتباهى به ما شاء لاعتقاده أنّ غناه و غنى أمثاله موجب لغنى الدولة و شرفها، و لا يخشى أيضا أن يتطاول عليه فى حقوقه أحد ممّن هو أعلى منه فإنّ الجميع فى الحقوق متساوون، و إنّ القاضى و الجرنال عتيدان لكلّ من الغنى و الصعلوك، و النبيه و الخامل. و حسبك أنّ بعض باعة الشراب أقام دعوى على دوك كمبريج ابن عم الملكة فما وسعه إلا الحضور بين يدى القاضى.

ثمّ الغالب عليهم أيضا الكلوح و العبوس، و لا سيّما أهل القرى و إن يكن جوّهم أصفى من جوّ أهل المدن، و ذلك لأنّ فى المدن كثيرا من الملاهى و الملاعب، و من العازفين بآلات الطرب. فمتى سمعت الأم الموسيقى أخذت طفلها و رقّصته عليها أو غنّت له فيدرب بذلك؛ فيغرس فيه حب الطرب و الخفّة و البشاشة. فأمّا البلاد الخالية من ذلك فلا بدّض و أن ترى وجوه أهلها عابسة باسرة و طباعهم بليدة.

نساء الإنكليز

أمّا نساء الإنكليز فلونهن البياض المشرب بحمرة، و عيونهن شهل أو زرق فى الغالب، و شعرهن أسود غالبا و إن اشتهر خلافه إلا فى حواجبهم، فقلّ أن تكون حالكة. و أسنانهن أحسن ممّا يظن فى أمثالهن ممّن ربّى فى البلاد الباردة. و قد زيّن

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۸

بشطاط القوام، و الذّلف أى صغر الأنف، و البلج، و امتلاء الساعدين، و لطف اليدين و مشق الأصابع، و بالعنق، و رقّة الشفتين، و أسالة الخدّ. و شعر أهدابهن و حواجبهن لا كثير و لا قليل، و لا مزية لهن فى الصلوتة على غيرهن، و هنّ أحسن نساء الإفرنج قاطبة صفاء لون، و نعومة بشرة و أعضادا و ترائب و أعناقا.

و قد ذاكرت كثيرا ممّن رآهن و رأى غيرهن فكلّهم فضّلهن، إلا أنّهنّ جدّ و طويلات الأقدام فى الغالب، و غير سود الأجفان، و أحداقهن غير مركّبة فوق زئبق كما قال أبو الطيّب. و سبب الأول عندى تعرّضهن للبرد فى الصغر، فإن ترائبهن لا تزال مكشوفة. و فى الجملة فلم أر شيئا يصدق على نساء هذا البلاد أكثر من قول صاحب القاموس، الشوهاء: الجميلة و العابسة ضد، و لكن فى جعل ذلك من الأضداد نظر.

و جميع الإنكليز يعجبون بحسن الأسنان و هو أول ما يذكرون من الصفات المستحبّة، و يشبّهونها بالدرّ كما نشبّهها نحن. و يعجبنى قول ابن النبيه فيها:

و ما كنت أدرى قبل لؤلؤ ثغرها بأنّ نفيسات اللآلى صغارها

و قد كرّر هذا المعنى بقوله:

و لم أر قبل مبسمه صغير الجوهر المثمن

إلا أنّهم لا يخصّون الفلج بالاستحسان، و لا يشبّهون العيون بالسيوف، بل بالألماس و لا الجيد بجيد الغزال، و إنّما يصفونه بالبياض، و ربّما شبّهوه بالمرمر، و لا يشبّهون الثدى بشىء، و إنّما يصفونه بالامتلاء و الاستدارة، و لا يتغزّلون بالخال على

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۶۹

أنّ النساء يضعن أمثاله أحيانا و لا بالهزمة فى الخد، و إنّما يستحسنون النونة فى الذقن، و لا يشبّهون المرأة بالشمس و لا بالقمر، بل بالنجم. و عندى أن أشوق شىء فى الوجه الفم و العينان؛ لكونهما يتحرّكان فيحرّكان الوجد، و لا أرى الحقّ مع من قال: «أحب منها الأنف و العينانا» بل الحقّ ما قاله الآخر: يا ليت عيناها لنا وفاها. و لعلّ الرواة حرّفوا المصراع الأوّل أو لعلّ الرّاجز حكى واقعة الحال.

ثمّ إنّ النساء فى بلاد الإنكليز هنّ اللواتى يباشرن خدمة الديار غالبا، أمّا الرجال فلا يكونون فى خدمة إلا عند الكبراء، و كثيرا ما ترى جارية حسناء زاهرة تامّة الأوصاف تخدم سيّدة من السّعالى، و إذا طرقت الباب، و خرجت الجارية لتفتحه حسبتها هى المخدومة، و

أدهشک جمال وجهها عن وجه سؤالها.

خصال مکروهة فی النساء

و لنساء القری خصلة ذمیمة و هی أنّهنّ یشرقن بنخامتهن، و هذه تقابل خصلة نساء فرنسا فی لحسهنّ أصابعهنّ بعد أکل الحلواء و نحوها، و یقابلها من خصال أهل المشرق التجشوء و هو حباق المعدة، غیر أنّ خصلة الفرنساویات أقلّ أذی لأنّها لا تکون إلا عقب الأکل و مدّتها لا تطول. و جمیع النساء اللائی استخدمناهن کنّ یلمسن شعورهن و وجوههن و أیدیهن و سخة و یغسلن وجوههن و أعناقهن، و یمسحنها بالخرق التی یمسحن بها آنیة المطبخ. و الخصلة الأولی رأیتها فی لندرة أیضا. و قد سمعت أن نساء فرنسا المتظرّفات لا یغسلن وجوههن بالصابون

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة؛ ص ۱۷۰

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۰

مخافة أن تمجل بشرتهن، و إنّما یغسلن بماء النخالة مع أنّ صابون فرنسا أحسن من صابون الإنکلیز، و یقال: إنّ أهل فرنسا الأقدمین، و کان یقال لهم الغال، هم أول من عملوا الصابون فی أوربا. و کان الناس من قبل ذلک یغسلون ثیابهم بالماء فقط، إمّا بأن یدعکوها بأیدیهم، أو بأرجلهم. و لم یعمل فی لندرة قبل سنة ۱۵۲۴ و المحسوب أنّ کل واحد من أهل بریتانیا یلزم له سبعة أرطال من الصابون فی کلّ سنة، فعلی هذا یکون اللازم منه لأهل لندرة وحدهم تسعمائة طن. و جمیع الإفرنج لا یغسلون أیدیهم بعد الطعام، غیر أنّ الکبراء منهم یغمسون أصابعهم فی صحاف یؤتی بها أمامهم علی المائدة، ثم ینشّفونها من دون صابون، و ربّما تمضمضوا و ألقوا فیها الماء من أفواههم بحضرة الضیوف، و کذلک تفعل النساء و هو عندی أقبح من عدم الغسل.

و ممّا یکره فی نساء الإفرنج تربیة أظافرهن حتی تأخذ حدّها فی الطول، و ترک شعورهن فی القفا منفّشة مشعثة، فمتی نزعت إحداهن غطاء رأسها رأیت شعرها کشعر المقشعر، و إنّ إحداهن لتلعب بجرو کلب بحضرة الناس، و ربّما نزا علیها و لحس ترائبها و وجهها. و نساء الأکابر یستصحبن کلابهن فی العواجل. و عندهن صنف من الکلاب یقعدنه فی أحضانهن، و یسمّی کلب الحضن. و إنی أحمد من نساء الإفرنج عموما، و من نساء الإنکلیز خصوصا أنّهنّ لا یستعملن الصبغ و لا الترجیج، فکما خلقهن الله یبدون و لا یتباهین بکثرة الحلی و الجواهر، فغایة تصنّعنهنّ إنّما هو فی تصفیف شعورهنّ، و تغییر ملابسهنّ بحسب الزّیّ المستعمل.

فأمّا نساء الفرنسیین فإنّهنّ أکثر زهوا و عجبا من جمیع نساء الإفرنج، و قد کانت النساء هنا یرسلن علی طلاهن سوالف مجعّدة تفعل ذلک منهنّ الطویلة الشعر عجبا به، فصرن الآن یسوینه منسرحا علی أفوادهن اقتداء بالملکة إلا ما ندر. و مثل هذه العادة فی القلّة عادة المرافد، و للنساء علی الرجال مزیتان علویة صیفیة و سفلیة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۱

شتائیة. فالأولی: اتخاذهن الظلل وقایة لهنّ من الشمس، أو لبرانیطهن خشیة أن تنصل ألوانها. و هی فی الواقع عبارة عن ظلل. و الثانیة: اتخاذهن القباقیب ذات الشسوع فی الشتاء فتراهن یخضن بها الوحول و الثلوج و هی مصلصلة تحت أحذیتهن.

و غطاء رؤوسهن البرنیطة و ذلک مطرد فی جمیع البلاد بخلاف نساء فرنسا فإنّ لکلّ نساء إقلیم فیها غطاء مخصوصا، و أکثر ما یهمهنّ من اللباس الجوارب و الأحذیة، فأمّا الثیاب فالغالب أنّها من الشیت، و مع ذلک فإذا کان للمرأة أربعة قفاطین منه فهی الحظیة.

تقشف نساء الإنکلیز

و الحقّ یقال إنّ نساء الإنکلیز علی غایة ما یکون من التقشّف و القناعة فإنّ أقل شیء من الملبوس یرضیهنّ، و من المطاعم یکفیهنّ، و لا یستعملن الدّخان و لا النشوق کبعض نساء الفرنسیین، و لا هنّ مثلهنّ أیضا فی کونهنّ مزیة الرجال علی النساء، فمهما تکن المرأة

شریفة من الإنکلیز تعترف بأنّ الله تعالی خلق الرجال قوّامین علیهن، و إذا أهدیت إحداهنّ منديلا أو حذاء، أو نحو ذلک استعظمت الهدیة و بالغت فی وصف محاسنها و کرّرت الثناء علیک حتی تتوهّم أنّک صرت رابعا لحاتم طی و هرم بن سنان و کعب بن مامة. فأمّا إذا نظرن شیئا من الجواهر النفیسة سواء أتحفن به أو لا- فیا للعجب و یا لمنتهی الأرب! و استعظام الهدیة و لو قلت صفة عامّة لعلیتهم و سفلتهم، فقد کانت سیّدة ما تکرّمت علینا بستّ ثمرات من الخرشف، فلمّا قابلتها فی الیوم الثانی شکرتها علی ذلک فقالت: إنّی و زوجی أهدیناها فکأنّها قالت: إنّ علیک أن تشکره أیضا کما شکرتنی. و الحقّ یقال إنّ ذلک فی أکثر الأحوال أولی من سکوت العرب عن نطق کلمة واحدة تفصح عن الشکر.

کدح نساء الإنکلیز

و قد کنت أری من النساء العبل الحسان ذوات البشر الناعم، و الغضاضة الرائعة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۲

من تنصب حرّ وجهها لحرّ الشمس فی الصیف بأن تعزق الحقول؛ و تحمل الأحمال الثقیلة، و تحصد و تبذر و تجمع الحصود، و تحتطب، و ما أشبه ذلک. و فی شهر حزیران حین یقطع الحشیش تری نساء کثیرة یجمعنه، و حین یحصدن الزرع لا- یعملن بنصّ التوارة فی سفر الأحار فإنّهن یحصدن الأرض من تحته، و مع هذا الشقاء فلا تزید أجرة المرأة فی الیوم علی نصف شلین، و هو بالنسبة إلی غلاء بلادهن بقیمة قرش عندنا. فکنت أقول فی نفسی ما أرخص الجمال فی هذه البلاد، و ما أقسی قلوب الرجال الذین یحوجونهنّ إلی هذا الابتذال، أو لعلّهم یریدون صبغ هذا البیاض النقیّ بورس الشمس أو سحمة الضباب:

فلو برزت سواعدهن یوما لشاعرنا لأنشد من ذهول

بربات الحقول یحق لی أن أشبّب لا بربّات الحجول

و لو برزت ترائبهن لیلا لصدر الدولة القرم الجلیل

لقال خذوا حظایا الکرج عنی فدی الصّلفات عند ذوی الخمول

و فی الجملة فلا شیء أرخص من الجمال فی هذه الدیار.

حبّهم للسمرة

هذا و لّما کان لون البیاض عامّا فی الرجال و النساء فی هذه البلاد کانت المرأة السمراء محبّبة إلی الرجال جدّا، و الرجل الأسمر محبّبا أیضا إلی النساء جدّا. و هذه الطائفة المعروفة عندهم باسم جبسس، و هم صنف من نور بلادنا و غجر مصر لو لا دناءتهم لکانت علیة الإنکلیز تصاهرهم و ذلک لسمرة لونهم و کحل عیونهم، و قد کان الدکطر لی متزوّجا إحدی هؤلاء الجبسیات رآها مرّة فأحبّها لسمرتها، و أحبّته هی لبیاضه، فوعدها بأن یتزوّجها بشرط أن تتهذّب فی مذهب النصرانیة، فأجابته إلی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۳

ذلک فتأهّل بها.

النّور فی إنکلترة

و من الغریب أنّ هذا الجیل یعیش فی هذه البلاد عیشة النّور فی برّ الشام سواء إذ لیس لهم مقرّ معلوم للإقامة، فمرّة یسکنون الغیاض، و مرّة الخصاص، و بعضهم یأوی إلی نحو هودج یجرّه حصان فیجعل فیه رحله و أثاثه، و هکذا یطوف فی البلاد، و إلیهم تنسب سرقة الدجاج و الخیل، أو فی الأقل أذناها، و الإنباء عن البخت. و لهم لسان خاص بهم، و یقال لشیخهم ملک إلا أنّهم یخالفون نورنا

بکونهم غیر مولعین بالطرب و الرّقص، و ما ذلک إلا لکونهم مولودین تحت رقیع الإنکلیز الکالخ. و لّما کان هؤلاء یعنتونهم فی السکنی تنصّیر منهم کثیر، فإن قلت کیف یبصّیرون البخت، و الإنکلیز لا یعتقدون بهذه الأمور؟ قلت: إنّ عامّة الإنکلیز علی غایة من الجهل، فعندهم من التفاؤل و التشاؤم ما عند عامّة بلادنا کما سنبیّن ذلک بعد.

شیء من تاریخهم

و عن بعضهم أنّ هؤلاء الجبسس هم إحدی عشائر مصر الذین خلعوا عنهم نیر الطاعة للترک حین غزوا بلادهم حتی إذا فشلوا تفرّقوا فی الأرض، فکان أول ما ظهروا فی جرمانیا، و ذلک نحو سنة ۱۵۱۷ و حیث کان الناس إذ ذاک علی جانب عظیم من الوساوس و الأضالیل، و ظنّوا بهم علم بصر البخت رحّبوا بهم فی کلّ مکان، و فی سنة ۱۵۶۰ نفوا من فرنسا، و من غیرها أیضا، إلا أنّهم لم یزالوا موجودین فی کلّ مملکة. و فی أیام شارلس الأول قتل ثلاثة عشر شخصا من الإنکلیز لاختلاطهم بهم، و أخرب مأواهم فی نوروود، و ذلک سنة ۱۷۹۷ و عوملوا معاملة البطالین التائهین. و قبل سنة ۱۸۰۰ کان منهم فی إسبانیا أکثر من مائة و عشرین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۴

ألفا، و لم یزل منهم فی هذه البلاد جماعات کثیرة، و مع اختلاطهم بغیرهم من الأجیال فإنّهم لم یحولوا عن عاداتهم و أطوارهم و سحنهم فهم أشبه بالیهود. و قال آخر: إنّ أصلهم من الهند، و إنّهم یتکلمون بلغة من لغاتهم، و إنّ حقیقة اسمهم زنکان أو جنکان انتهی.

ثمّ إنّ تحقق الحسن فی السمر، أو السود فی عین الرائی لا یمکن من قریب، فأمّا البیض فإذا رأیت صفّا منهم عن بعد توهمتهم کلّهم ملاحا لأنّ البیاض کما قیل شطر الحسن، و یمکن أن یقال: إنّ ذلک بالنسبة إلی ألفة النظر. و روی ابن عساکر عن خالد بن سفیان أنّه قال: عمود الجمال الطول، و برنسه سواد الشعر، و ردائه البیاض. قلت: فعلی هذا فقد اجتمع فی مؤنث جیل الإنکلیز العمود و البرنس و الرداء. و قد تمحّل بعضهم لأن فضّل السود بقوله:

ربّ سوداء و هی بیضاء عندی فهی مسک إن شئت أو کافور

مثل حبّ العیون یحسبها النا س سوادا و إنّما هی نور

و قال غیره:

یکون الخال فی وجه قبیح فیکسوه المهابة و الجمالا

فکیف یلام عاشقها علی من یراها کلّها فی العین خالا

و هذه کلّها من مغالطات الشعراء و الحقّ ما قاله البهاء زهیر:

اسمع مقالة صبّ و کن بحقک عونی

إن الملیح ملیح یحبّ فی کلّ لون

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۵

و قال آخر:

قالوا: تحبّ السواد قلت لهم أحبّه فی الشعور و الحدق

قالوا: و تهوی البیاض قلت لهم فی الوجه و المعصمین و العنق

ثم لا یخفی أنّه لمّا کانت أسباب الفساد فی القری الصغیرة صغیرة لم تکن النساء هنا مائلات إلی الفواحش و الفسق کما هو شأن نساء المدن الحافلة؛ و لهذا کان عیش المتزوج فی بلاد الفلاحین من هذا القبیل أهنا من عیش المتمدّنین.

عن نساء الإنکلیز و نساء الفرنسیین

و الـذی أتحققه أن عیش المتزوجین من الإـنکلیز فی کلا الموضـعین و إن لم یکونوا یحتفون بأزواجهم، و یکرّمونهن أمام الناس کما تفعل الفرنسیس إلا أنّهم أکثر إحصانا منهم لفروجهن، و أوفر مودّة و وفاء لهنّ فی الحضرة و الغیبة، هذا فی حق الأزواج؛ فأمّا فی شأن الرجـال و النسـاء مطلقـا فإن رجال الفرنسـیس أرفق و أحفی، فإن أحـدهم لیؤثر راحـة المرأة أیّا کانت علی راحـة نفسه. فإذا تبوأ مثلا مقعـدا فی سـفینة أو رتـل، و دخلت امرأة و لم تجـد لهـا محلا فاضـطرت إلی القیام قام من موضـعه و أجلسـها فیه. و کـذا لو وقع منها منديل و نحوه بادر حالا إلی مناولتها إیاه، و عندهم کلمة مخصوصة لمثل هذه الأفعال.

أمّـا الإـنکلیز فلاـ یبـالون بـذلک، و کنت کثیرا ما أری رجالا منهم یضـغطون النساء و الأولاد حتی یسـبقوهن إلی موضع یتبوّؤنه، فإذا دخلت النسـاء ظللن قائمـات و حین یسـافرون فی الأرتال أو الحوافل یتخیّرون أحسن المقاعـد، و ربّما أداروا ظهورهم للنساء غلاظـة و سوء أدب. نعم إن نساء الفرنسـیس أکثر تأدّبا و کیاسـة فی الظاهر من نساء الإنکلیز إلا أن هؤلاء جـدیرات به من عـدّة وجوه، و فضـلا عن ذلـک فقـد یقـال إن زیـادة تکیّس أولئـک أصـلها من زیـادة الإـکرام لهنّ، و إنّما هو جفاء غریزی فی طبع الرجال حتی إن النساء اعتدن علیه، و لا یرین فیه نکرا إلا إذا عاشرن الأجانب، و هذا هو

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۶

معنی قول الإنکلیز إنهم هم خیر من غیرهم أزواجا و غیرهم خیر منهم عشّاقا.

تفشّی الأمیّة فی الریف الإنکلیزی

و الفرنسیس یصفون نساء الإنکلیز بأنّهم عسر أی یعملن بالید الیسری تعریضا بکونهن لسن صنعا کنسائهم. و هذا القول باعتبار صنعتی اللم و الإبرة حقّ، فإن عامّة النساء هنا لا یحسنّ الخیاطة و لا التطریز و لا الکتابة، و إذا کتبت إحداهنّ رسالة تشحنها بالغلط و الخطأ مع أن لغـة الإـنکلیز هیّنـة المأتی بالنسـبة إلی غیرها، و لکن هنّ معـذورات فی ذلک إذ لیس یوجـد فی القری مـدارس جیّـدة أو معلّمون ماهرون. و ربّما اجتزیء عن المکتب بأن یتعلمن فی الکنیسة یوم الأحد شـیئا من أصول الدین و شیئا من القراءة ممّا لا یعبأ به. و فضلا عن ذلـک فـإنّ الولـد متی أدرک و هو تحت حجر والـدیه لم یسـتغنیا عنه لأنّهمـا إمّا أن یستصـحباه معهما إلی المزرعـة لیعینهما علی عملها، و إمّا أن یبقی فی البیت لیهیّئ لهما طعامهما، و یحفظ رحلهما، و غیر ذلک. فإن یکن، و الحالـة هـذه من لوم علی النساء، فإنّما هو علی قاطنات المـدن و القری الجامعـة، بل الرجال فی هـذه الأماکن لا یریـدون اعتکاف نسائهنّ علی القراءة و الکتابة لئلا یشـمخن علیهم کدأب نساء الفرنسیس. و ما أحسن هنا ما قیل «إنّ المرأة الفاضـلة هی التی إذا قرأت خلتها لا تحسن العمل، و إذا عملت خلتها لا تحسن القراءة.

و علم من الإحصائیـات الرسـمیة أنه «فی سـنة ۱۸۵۵ تزوّج ۴۷۰، ۱۵۰، ۳ فوجـد من کلّ مائـة أمرأة أربعون قـد وضـعن علی الطروس علامة الصـلیب بدل أسمائهن، و من کلّ مائة رجل تسعة و عشرون رجلا علی تلک الصفة». قلت: و الذین یعرفون أن یکتبوا أسماءهم ینبغی إسقاط ثلثیهم من عداد ذوی الدرایة، فإنّ أکثرهم لا یحسنون کتب رسالة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۷

عامّتهم و فهم التوراة

و هنـا ینبغی أن یلاحـظ أنّ عامّـة الإـنکلیز یقرؤون التوراة و الإنجیـل بلغتهم، و لکن قـلّ منهم من یفهمهـا. و قـد جری مرّة ذکر ذلک بحضـرة جماعة ادّعوا بأنّهم لا یفوتهم شـیء من فهم الکتاب الأوّل، و أن سـعادة بلادهم و غبطة أحوالها إنّما تسبّبت عن ذلک، فقلت لهم: أمّا السـعادة و الغبطة فلست أباحثکم فیهما و لا أسلّم لکم بأنکم أعد من غیرکم، و أما الفهم فما أخالکم تفهمون کل ما تقرؤون

فی التوراة.

قالوا: سلنا عن شیء منها.

فقلت: علی شرط أن لا یسوءکم.

قالوا: لا تخش من الإساءة فإنّ هذه البلاد بلاد الحریّة.

قلت: ما معنی الغرلة حین طلب شاول من داود أن یمهر ابنته مائة غلفة من أهل فلسطین؛ فمضی داود و قتل منهم مائتین و جاء بغلفهم إلی شاول؟ فقالوا: لا ندری.

قلت: بل لا تدرون أیضا کیف أنّ الرجل یمهر المرأة و عادتکم بخلاف ذلک. قالوا:

بیّن لنا ذلک.

قلت: ههنا نساء و أخاف أن أفسّر لکم معنی اللفظة فتنقبض النساء.

قالوا: إذا کان ذلک کلام الله فلا حرج، ففسّرت لهم حینئذ معناها. فما کان من إحدی النساء إلا أن أخذت الکتاب و رمت به الأرض و قالت: «معاذ الله أن یکون هذا الکلام کلام الله».

نساء الفلاحین و الشؤون المنزلیة

أمّا الخیاطة و الوشی فقد تقدّم أنّ نساء الفلاحین لا یلبسن سوی الشیت فلا حاجة إلی تطریزه، و کلّ واحدة منهنّ خیّاطة لنفسها. و إذا خطن تحت ید تاجر فقلّما

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۸

توفّی أجرتهن. و ما عدا ذلک فإنّ کثیرا من الآلات التی اخترعتها الإنکلیز صارت تغنی عن الیدین.

فأمّا الطبخ، فإنهم لا یتفنّنون فیه طبعا لأن أحب شیء إلیهم منه إنّما هو الشراء.

فطبّاخهم فیه إنّما هو النار. و لما کان وقتهم کلّه مصروفا فی العمل و تحصیل الکسب فلا یرون ضرورة لصرفه فی تعدّد ألوان الطعام.

و فی الجملة فإنّ الإنکلیز یحقّ لهم أن یقولوا: إن بلادهم منبت النساء و معدن الأزواج، بمعنی أنّ من تزوّج إحداهن فقد هنأه العیش، و قرّت عینه بما یراه من نظافة منزله مع الاقتصاد فی النفقة، و راحة البال من الأسباب الباعثة علی الغیرة.

تمهید فی طبقات المجتمع الإنکلیزی

أمّا أخلاق الإنکلیز و عاداتهم، فالواجب أن أمهّد للقول فیها مقدّمة و جیزة لإزالة الالتباس فیما یرد من بیان ذلک. فأقول: إن هذا الجیل ینقسم إلی خمس طبقات:

الطبقة الأولی: الأمراء و الوزراء، و الأشراف و النبلاء، و ذوو المناصب السامیة، و یلحق بهم الأساقفة.

الثانیة: الأعیان و هم الذین یعیشون من أرزاقهم و أملاکهم، لا من معاطاة شغل أو حرفة، و لیس لهم جلاء أی لقب تعظیم.

الثالثة: العلماء و القضاة و الفقهاء، و یلحق بهم القسیسون و التجّار أهل المراسلات.

الطبقة الرابعة: التجار أصحاب الدکاکین، و الکتّاب، و هم الذین یحتاجون إلی تحصیل معاشهم بالاحتراف و الاصطراف و لکن من دون ابتذال ماء الوجه. الخامسة:

أهل الحرف و الصنائع و العملة، و یلحق بهم الفلاحون، و هم الجمهور الأکبر.

عاداتهم و أخلاقهم

فعادات أهل الطبقة الأولى مباينة بعض المباينة للثانية، و لكن ليس بينها و بين الأخيرة من مناسبة أصلا كما سيأتى. و عادات أهل الطبقتين الثالثة و الرابعة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۷۹

متساوية لا اختلاف فيها إلا ما ندر. أمّا أهل الطبقة الثانية فإنّ لهم من وجه نزوعا إلى الأولى بالنظر إلى العزّ و الاستبداد، و من وجه آخر ينزعون إلى الباقى بالنظر إلى الجنسية و الألفة. و الغالب على جميع هذه الطبقات حبّ الوطن و المباهاة بما عندهم من الصائع و الأحكام، و الإذعان للقوانين التى بنيت عليها معاملات دولتهم و دواوينهم.

و حيث كان أصحاب الطبقة الأخيرة هم الجمهور الأكبر كما ذكرنا، و هم الحريون بأن يقال فيهم بريتانيون، أو إنكليز لكونهم بقوا على قديم أحوالهم و أطوارهم و لم يعرفوا غيرهم من الأجيال لا بالمعاشرة و لا بالمطالعة، وجب أن نقدّم ذكرهم أولا فنقول: إن أوّل خلّة يراها الغريب فيهم هى عدم اكتراثهم له و نفورهم منه و ابتعادهم عنه، فلا يفرحون لفرحه، و لا يحزنون لحزنه؛ بل لا يعنى أحد منهم بشأن جاره، و لا يهمّه أمر غير أمر نفسه.

فكلّ ذى حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدّة حياته، و لا يتطاول إلى معرفة شىء غيرها. فالفلاح مثلا لا يعرف شيئا إلا ما آل إلى الحرث و الزرع، و القين لا يدرى ممّا يحدث فى بلاده سوى ما اختصّ برواج سعر الحديد، و الطلب على الأدوات المصنوعة منه و هلم جرّا إلى المهندس و الطبيب.

و إذا استراح الرجل منهم ساعة قضاها بذكر ما عمل و ما سوف يعمل. و يقال إن بهذه الخصلة استتبّ عزّ دولة الإنكليز و عظمت شوكتها لأن الرعية لا تعترض ذوى الأمر و النهى فى تدبيرهم، و لا يتطاولون إلى معرفة ما تقتضيه سادتهم و أهل شوراهم؛ فلذلك قلّما يحدث عندهم شغب أو فتنة. بخلاف أهل فرنسا فإنّ كلا منهم يتطفّل على أولياء الأمر، و هذا هو السبب فى كثرة العساكر و قلّتها هنا. فإن جميع ما فى بلاد الإنكليز من العساكر لا يزيد على خمسة و عشرين ألفا، فإذا قسمتها على عدد الأهلين و هو سبعة عشر مليونا و نيّف كان كأنّه قطرة من بحر.

و لقائل أن يقول أيضا: إن لذلك أى لعدم الفتنة سببا آخر، و هو فقرهم المانع لهم من الاشتغال بغير ما يكسبهم القوت الضرورى. فإنّ هؤلاء النحل العسّالة فى خيلة الاجتماع الإنسانى إنّما يعملون كما قال بعضهم لتسمين الزنانير البطّالة. و هم أطوع خلق الله لأولياء أمورهم، فلو نهوهم عن أن يناموا مع نسائهم لانتهوا. و يمكن أن يقال

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۰

أيضا إنّهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون أنفسهم، و هم فى هذه الحالة، أسعد خلق الله، و إن جميع رسومهم و أحوالهم مستغنية عن التبديل و التغيير.

مصاريف العسكرى فى أوربا

و كيف كان فإن شقاءهم موجب لسعادة الدولة و فقرهم زائد فى غناها، فإن مصاريف العسكرى الواحد هنا تبلغ فى السنة مائة و سبعين ريالا، و فى بروسية اثنين و ستين، و فى الروسية ثمانية و ستين، و فى أوستريا تسعة و سبعين، و فى فرنسا مائة و ثلاثة عشر، أمّا فى أميركا فمائة و أربعة و ثمانون ريالا.

و يقال إنه يلزم لكلّ نفر من عساكر فرانسا و إنكلترة رطلان و ربع من الطعام فى كل يوم؛ منها نحو ثلاثة أرباع خضرة، و الباقى لحم و خبز، فيبلغ ذلك فى السنة ثمانمائة رطل، فإذا أضفت إلى ذلك مشروبه من الماء و القهوة و الشاى و المسكرات بلغ ألفا و خمسمائة رطل.

لمحة عن جيوش أوربا

و یقال أیضا: إن أکثر ما تجهّز عند الدول من الجیوش فی العصر الخالیة ما کان فیه. لدولة إسبانیا مائة و خمسون ألفا، و لبریتانیة ثلاثمائة ألف و عشرة آلاف و لبروسیة، ثلاثمائة و خمسون ألفا و للدّولة العثمانیة أربعمائة و خمسون ألفا، و لأوستریا خمسمائة ألف، و للروسیة خمسمائة و ستّون ألفا، و لفرنسا ستمائة و ثمانون ألفا، و هم فی هذا العصر أکثر. و أوّل من کان عنده جنود قائمة کما یری الآن شارلس الثامن ملک فرنسا و ذلک فی سنة ۱۴۴۵ م. و به اقتدی شارلس الأول ملک الإنکلیز سنة ۱۶۳۸. و حسب ذلک أولا عند الإنکلیز غیر شرعی.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۱

عساکر الإنکلیز

و بلغ مجموع العساکر الإنکلیزیة فی سنة ۱۸۵۱ / ۶۴۵، ۱۷۸ نفرا و بلغت مصاریفهم ۱۵۸، ۷۲۱، ۱۳ لیرة. و کانت العادة قبل حرب القریم أعنی الحرب التی وقعت بین الدولة العثمانیة و دولة الروسیة فی سنة ۱۸۵۱ أن یستخدم العسکری الإنکلیزی طول عمره؛ فکان کثیر منهم یفتدون أنفسهم، و بعد خمس عشرة سنة یدّعون بأنّ لهم حقّا فی أن یسرّحوا. و الآن فرض علی المشاة اثنتا عشرة سنة و علی الفرسان عشرون.

و فی عساکر الإنکلیز سبعة آلاف و مئة ضابط بشهریة وافرة، و للنفر من حرس الملکة نحو شلینین فی کلّ یوم، و لکلّ من الفرسان شلین و ثمن، و للمشاة شلین، و ثمن رتبة أمیر الالای فی الحرس تسعة آلاف لیرة. و ذلک أن هذه المراتب فی العساکر البریة معرضة للبیع عندهم و هو من جملة الأحوال المختلّة التی یجب إصلاحها و مصاریفا لعساکر البریة تبلغ فی السنة سبعة ملایین لیرة و نحوها مصاریف البحریة، و مصاریف دیوان المهمّات الحربیة ثلاثة ملایین.

من طبع الإنکلیز

و من طبعهم الرثّ، و هو البلادة، و قلّة الفطنة، فلا تکاد أحداثهم تفهم شیئا من کلام الغریب بینهم، بل الکهول أیضا لا یعون ما یلقی علیهم إلا بعد الروّیة و التأمل، و شتّان ما بینهم و بین الفرنسیس، فإن الحدث من هؤلاء یبتدر إلی الجواب کأنّما قد درسه و دراه من قبل سؤالک أیاه. و لو قلت: إنّ البریتانی القحّ لیس له من نوعی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۲

العقل سوی نصف المکتسب، و نصف الغریزی لما أخطات، تلک صفته من القدیم.

فقد روی عن شیشرون أنّه قال: إنّ أبله الأسری الذین جیء بهم إلی رومیة هم الذین أخذوا من بریتانیة و التمس من صدیقه أطیقوس ألا یشتری فیما بعد منهم أحدا، و ذلک لبلادتهم، و عدم أهلیتهم لتعلّم الموسیقی، و غیرها من الفنون. و روی أیضا عن قیصر أنّه قال: إنّ أهل بریتانیا جیل جاف متوحّش أکثر ما یکون، و إنّ معظمهم لم یر الحنطة فی عمره قط، و إن قوتهم إنما هو اللحم و اللبن لا غیر، و لباسهم جلود الحیوانات. قلت: لیس معنی قوله قوتهم اللحم أنهم کانوا یطبخونه بل إنّما یأکلونه نیئا مملوحا کما یظهر من روایة أهل التاریخ، فإنّهم قالوا إنه علم من دفتر حاکم نرثمبر سنة ۱۵۱۲ أن أهل البارون کانوا یقتاتون باللحم المملوح، فکان جلّ طعامهم. و کذلک حشمه لم یکونوا یأکلون طول السنة سوی اللحم المملوح و ندر معه البقول أو الحبوب. فمن ثم غلط من زعم أن البیف ستک أعنی شواء البقر المشرّح کان مستعملا فی إنکلترة من القدیم فإنّ هذا الغذاء المریء لم یعهد قبل شارلس الثانی لأنّه کان یحبّ الشواء من ظهر البقر.

قلت و إلی الآن هم یحبّون هذا الشواء غیر ناضج و ربّما قطر دمه فی الصحفة، و یستطیبونه علی سائر ألوان الطعام، و لکن من رأی

أهل جبل لبنان يقطعون الهبر من الضأن و يأكلونه نيئا فلا يلوم الإنكليز.

جهلهم المدن و البلاد

هذا و مع تكرّر ذكر مدن برّ الشام على مسامعهم من المنابر فی كل يوم أحد، و مع كثرة قراءتهم للتوراة و الإنجيل، فلا يكادون يعرفون أين موقع دمشق مثلا من الإسكندرية، و لا يتذكرون شيئا عن صور و صيدا و بيروت و جبل لبنان مع أنها مكرّرة فی الكتابين المذكورين بما لا مزيد عليه.

و الظاهر أن مصر أشهر عندهم و عند الفرنسيس أيضا من الشام. و قد سألنی مرّة فی أكسفورد رجل له سمت و رواء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۳

فقال: «من أی البلاد»

فقلت: «هو»؟ أی من؟ أريد من تعنی؟

فقال: «آه من هوه! معتقدا أن هو اسم علم على مدينة

ثم قال: أتعرف فی هو فلانا؟ و سمّی رجلا!

قلت: أنا لست من مدينة هو، و إنما أنت سألت سؤالا مبهما يصلح لأن يخاطب به أی إنسان كان، فإذا أردت الآن أن تعرف اسم بلادی فهی سورية.

فقال أحد الجلوس بعد طول تأمّل: «هل سورية مدينة كبيرة»؟.

إلا أنّ بلادتهم هذه مقرونة بشیء من سلامة الصدر و خلوص النية كما أنّ فطنة الفرنسيس مقرونة بالمكر و المحال، و كما أنّ عامّة الفرنسيس يحسبون كل غريب فيهم من إسبانيا و لا سيّما إذا كان أسمر اللون. كذلك عامّة الإنكليز يحسبون كل غريب بينهم فرنساويا سواء كان أسمرا أو أسودا و سواء كان على رأسه طربوش، أو طرطور.

هذا و لمّا كانت خلّة الجهل أبدا ملازمة للفظاظة و الخشونة كان لهؤلاء القوم الحظ الأوفر؛ فإنّهم قد حدّقون فی وجه الغريب، ثم يتبعونه بقهقهة و يسخرون منه، و لا سيّما إذا لم يكن يحسن النطق بلغتهم على أنهم هم أنفسهم لا يحسنون النطق بها، فكلامهم كلّه لحن و خطأ.

غناؤهم

أمّا غناؤهم فلا يمكن لذی ذوق أن يطرب به، و قد سمعت أغانی الفرنسيس و سائر الإفرنج فوجدت بعضها يطرب و يشجی لأن فيها مدا و ترجيعا. فأمّا أغانی الإنكليز غير التی يتلقونها من الطليانيين و الفرنساويين فی الملاهی فكلّها نبر و درج.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۴

عودة إلى طبعهم

و من طبعهم أنّهم لا يتزاورون و لا يسهر بعضهم عند بعض. و كيف يسهرون و هم إنّما يرقدون فی الساعة التاسعة و يقومون صباحا فی الرابعة كل ذلك حتى يأكلوا الفقع أعنی البطاطس و يشربوا الفقّاع أو ربّما أقام الرجل سنين و لا يعرف جاره.

و كذا أهل المدن.

ملاقاتهم و اجتماعهم

و غایـة محاورتهم إذا تلاقوا فی الطریق أن یقول أحدهم «طیب بطرس» فیقول الآخر «طیب یوحنا». و کنت إذا مررت بأحد منهم یقول لی «صباح حسن» فأقول له کالصدی «صباح حسن»، و کنت أحسب ذلک تحیة لأن تحیة الصباح عندهم «صباح طیب»، فظننت أنّهم یقیمون لفظة مقام لفظة حتی سألت الدکطر لی فقال لی:

«لیس ذلک من التحیـة فی شـیء و إنّما هو مجرد إخبار عن حسن الصباح». و إذا اجتمع المتعارفان منهم و تساءلا فلا بـدّ و أن یبتدئ أحدهما أولا بوصف الهواء و صحوه أو برده، ثم یخبره بما عرض له من وجع فی کتفه، أو ثالول فی رجله، أو اختلاج فی عینه، فیقول السامع «یحزننی ذلک» و متی اجتمعوا للمنادمة- و ذلک لا یکون إلا فی القری الجامعة- ملأوا کوبا کبیرا من الجعة، و جعل کل منهم یکرع منه کرعـة و یـدخّن فی قصبـة من الطین، ثم یبصق فیملؤون المکـان بصاقا و قـذرا. و فی خلال کلّ محاورة یجـدّدون وصـف الهواء، و لا یکاد أحدهم یضـحک ضـحکا طبیعیا و إنّما هو عبارة عن قهقهة بلا أدب، ثم یعقبها العبوس، و ما کان الضحک منهم إلا قوة من القوی فهم بلا- أدب ثم یعقبها العبوس و ما کان الضـحک منهم إلا قوة من القوی فهم یکتمونه ما أمکن مخافـة أن تخرج معه تلک القوة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۵

من طبعهم أیضا

و من طبعهم أیضـا أن لا- یحترموا الشـیخوخة من حیث هی شـیخوخة، و لا تهاب الأولاد والـدیهم کما تهاب الأولاد عنـدنا، و لا یحنّ الوالـدون أیضا علی أولادهم کما عنـدنا؛ و لـذلک یقع کثیرا أن الأب یقتل ولـده، و الولـد یقتل أباه و أمه کما یأتی بیان ذلک. و قد یحـدث عنـدهم أیضا مضاجعـة الأب ابنته و لکن لم یبلغنی أن ولدا ضاجع امه و فی المدن الجامعة قد تتواطأ الأم و ابنتها أو الأخت و أختها علی الفحش و الفساد، أو الأخت و أختها.

من منکر عاداتهم

و من منکر عـاداتهم التی لا- یمکن أن یحولوا عنهـا مع علمهم بـأن جمیع الإفرنـج خـالفوهم فیهـا حلقهم لحـاهم و شواربهم، حتی إن عساکرهم لم تتحلّ بها إلا فی هـذه الحرب الأخیرة. فلیت شـعری کیف یری وجه الجندی محفوفا منتوفا کوجه المرأة. ثم لیت شـعری أی حسن للشاب أکثر من الشوارب؟ و أیّ حلیة و فضل و کمال للشـیخ أکثر من اللحیة؟ و إذا حسن للشاب حلق شواربه فلم لا یحسن حلق حاجبیه؟

و أغرب من ذلک أن قضاتهم و أولی الأمر منهم إذا جلسوا لفصل الأمور وضـعوا علی رؤوسـهم شـعرا أبیض عاریـة، و أرخوا منه نحو ذنب معقود علی قذلهم. فأخبرونا أیّها الناس کیف یکون الحسن و الهیبة فی ذنب، و لا یکونان فی لحیة؟

لعمری إنّ الشـیخ بلا- لحیـة و شوارب أشـبه بـالقرد منه بالإنسـان، و الشـاب بلا- شوارب أشـبه بالأـنثی و الخنثی منه بالرجـل، فإنّها من علامات الرجولیة و ممّا خلقه الله من المحاسن الطبیعیّة. و إن یکن من عذر للعامّة فی حلق لحاهم فلا أری للقسیسین و غیرهم من أهل الکنیسة عذرا. فإنّ المسیح و رسله کانوا کلهم ملتحین، و کانوا یشربون عین الکأس التی یشربها هؤلاء، فکیف کانوا یفعلون؟

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۶

ممّا قیل فی اللحی

غیر أنی لا أقول بترک اللحیة علی حالها، فالأحسن أن تتحوّف حتی تکون مستدیرة بالوجه. قال الامام الشریشـی: «و کان النبی صـلی اللّه علیه و سلم یأخذ من لحیته من طولها و عرضها بالسواء، و کان عبد الله بن عمر یقبض علی لحیته و یأخذ ما زاد منها علی قبضته».

قال الحسن بن المثنی: «إذا رأیت رجلا له لحیة طویلة و لم یتّخذ لحیة بین لحیتین کان فی عقله شیء. قال الشاعر:

إذا عظمت للفتی لحیة فطالت و صارت إلی سرته

فنقصان عقل الفتی عندها بمقدار ما زاد فی لحیته

و نظر یزید بن مزبد الشیبانی إلی رجل ذی لحیة عظیمة، و قد تلففت علی صدره، و إذا هو خاضب فقال له: «إنک من لحیتک فی مؤونة. فقال «أجل» و لذلک أقول:

لعمرک لو یعطی الأمیر علی اللحی لأصبحت قد أیسرت منذ زمان

إذن لشفتنی لحیة من عصابة لهم عنده ألف ولی مائتان

لها درهم للدهن فی کل جمعة و آخر للحناء یبتدران

و لو لا نوال من یزید بن مزید لصوّت فی حافاتها الجلمان

و قال یعقوب الکندی لجاریة کان یهواها: «إنّی أری فرص الاعتیاضات من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۷

المتوقعات علی طالبی المودّات مؤذنات بعدم المعقولات.

فنظرت إلیه و کان ذا لحیة طویلة فقالت:» إن اللحی المسترخیات علی صدور أهل الرکاکات محتاجات إلی المواسی الحالقات».

و کان المأمون جالسا مع ندمائه ببغداد مشرفا علی دجلة، و هم یتذاکرون أخبار الناس فقال المأمون:

«ما طالت لحیة إنسان قط إلا و نقص من عقله بمقدار ما طال من لحیته،

و ما رأیت عاقلا قط طویل اللحیة.

فقال له بعض جلسائه: و لا یردّ علی أمیر المؤمنین قد یکون فی طول اللحی أیضا عقل. فبینما هم یتذاکرون هذا أقبل رجل کبیر اللحیة حسن الهیئة فاخر الثیاب.

فقال المأمون لبعض الخدم: علیّ بالرجل. فلم یلبث أن أصعد إلیه، و وقف بین یدیه، فسلّم و أجاد السلام فأجلسه المأمون، و استنطقه فأجاد النطق.

فقال المأمون: مل اسمک؟

فقال: حمدویه.

قال: و الکنیة؟

قال: أبو علویه

ثم قال: ما صنعتک؟

قال: أنا فقیه أجید مسائل الشرع.

فقال له: نسألک مسألة

فقال الرجل: عمّا بدالک

فقال له المأمون: ما تقول فی رجل اشتری شاة من رجل، فلمّا تسلّمها المشتری ضرطت، فخرج من إستها بعرة فقأت عین الرجل، فعلی من تجب دیة العین؟ قال:

فنکت بإصبعه فی الأرض طویلا.

ثم قال: تجب علی البائع دون المشتری.

فقال المأمون: و ما العلّة التی أوجبت الدیة علیه دون المشتری؟

قال: إنه لما باعها لم یشترط أن فی إستها منجنیقا. فضحک المأمون حتی استلقی لی قفاه، و ضحک کل من حضر من الندماء و أنشد المأمون:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۸

ما أحد طالت له لحیة فزادت اللحیة فی حلیته

إلا و ما ینقص فی عقله أکثر مما زاد فی لحیته

و کانت عائشة رضی الله عنها تقسم و تقول: لا و الذی زین الرجال باللحی. و جاء أنه قسم الملائکة. قلت: و أنا أقسم و أقول لا و الذی زین النساء بعد اللحی. انتهی الکلام عن اللحیة، غیر أنه علق بی منها شیء، و هو أنه ذکر فی الصحاح ما نصه و فی الحدیث: أنه أمر أن تحفی الشوارب، و تعفی اللحی فکیف التوفیق بین هذا القول و بین قول الشّریشی أن النبی صلی اللّه علیه و سلم کان یأخذ من لحیته من طولها و عرضها بالسواء؟.

عودة إلی عادات الإنکلیز

و من الإنکلیز من یردّ فوق أذنیه خصلا من شعر رأسه، فتری عینیه بارزتین بین قرنی شعر و قذاله یشبه جبهة الثور الناطح.

فأمّا اتخاذ العاریة من الشعر الأبیض فأصله، فیما قیل، أن لویس الرابع عشر کان ردیء الشعر؛ فاتخذ له عاریة یستر بها عوار رأسه، و کان إذ ذاک شیخا فاقتدت به أماثل البلاد، و سرت هذه العادة إلی الإنکلیز، و هم فی أکثر الأشیاء مقلّدون للفرنسیس. و قد وهی استعمالها الآن بالنسبة إلی الأول إلا فی دواع معلومة، و أحوال مخصوصة، منها یوم مبایعة الملک، أو تهنئته

ففی ذلک الیوم تتحلّی کبراء دولته بهذه العاریة، و یقابلونه بها، و منها وقت جلوس القاضی علی کرسی القضاء لتنفیذ الأحکام الشرعیة کما مر.

و فی محالّ اللعب و الملاهی حین یحاکی اللاعبون و اللاعبات من سلف من الملوک و الملکات تری هذه العاریة علی رؤوس الأحداث من الرجال و النساء و کأنّها تزید الحسن حسنا، فکأنّها مصداق علی قول الشاعر: «کل شیء من الملیح ملیح».

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۸۹

ثم لما أخذت هذه العادة فی العقم نتج عنها ذرور الرماد الأبیض علی رؤوس خدمة الأشراف و العظماء، و أصل هذه أیضا، فیما قیل، أن بعض المغنین کانوا یغنون فی موسم صان جرمان بخارج باریس، و بهم قرع، فکانوا یبیّضون رؤوسهم لیضحکوا الناس، ثم انتقلت هذه العادة کغیرها من العادات من العامّة إلی الخاصّة و ذاع استعمالها فی سنة ۱۶۱۴. و فی سنة ۱۷۹۵ جعل علیها ضریبة، و کانت حینئذ قد بلغت النهایة فجعل علی کلّ رأس جینی، و لم تزل إلی الآن. و الحاصل أن أعظم الأسباب التی تبقی استعمال هذه العادات السخیفة إنما هو حصول النفع منها لخزنة الدولة؛ فإنّه حیثما وجد الربح وجد السداد و الرشاد، و لو أن الدیوان ضرب طسقا علی اللحی و الشوارب لما وسع الناس إلا أن یقولوا إن ید الرب علی قلب الملک.

و من عادة العامّة الملاکمة و یقال لها: «البوکس». و فی محفوظی أن رفاعة بک رحمه الله ذکرها فی قلائد المفاخر بلفظة «البوکسة» و ذلک إذا تخاصم اثنان أو تکاذبا فینزع کلّ منهما رداءه، و یشمّر عن ذراعه و یصوّب إلی وجه قرنه جمع کفّه، ثم یأخذان فی اللکام حتی یغلب أحدهما، و حینئذ ینهض الغالب المغلوب، و یأخذ بیده و یشربان الشراب کالمتوادّین.

و الملاکمة للعامّة بمنزلة المسایفة للعلیة غیر أن هذه محظورة یجب فیها الحدّ، و تلک مسکوت عنها. و قد کانت سابقا بمنزلة الملهی فی اجتماع الناس للتفرّج علیها.

و فی أواخر القرن الماضی کانوا یتعلّمونها فی المکاتب.

تهافتهم علی الشهرة

و من طبع الإنكليز عموما التهافت على الشهرة، و النباهة بين أقرانهم بأى سبب كان، و لا سيّما فى أسباب المعارف و العلوم، فإن من يعرف منهم مثلا- بعض كلمات من اللغة العربية، و مثلها من الفارسية أو التركية، فإذا ألّف كتابا بلغته أدرج فيه كل شىء يعرفه من غيرها ليوهم الناس أنّه لغوى، و ما عليه أن يكتب تلك الألفاظ على

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۰

حقّها أو يخطئ فيها، و فى عنوان كتابه تعلّق عليه جلاجل من الألقاب الطّنّانة، فيكتب له أنه من أعضاء جمعية كذا، و ملخّص كتاب كذا، و محرّر نبذة كذا، و خطيب مثابة كذا، و هلم جرا.

و لو عصرت كتابه كلّه لما بللت منه صدى مسألة. و أقبح من ذلك أنّهم لا يأخذون اللغات عن أهلها، فمهما يخطر ببالهم فى تأويلها يقذفوا به جزافا من دون تحرّج أن ينسبوا إليها ما ليس منها.

انظر إلى ريشردصون الذى ألّف كتاب لغة يشتمل على لغته و على لغتى العرب و الفرس، فأقسم بالله إنه لم يكن يدرى من لغتنا نصف ما أدريه أنا من لغته. لا بل سوّلت له نفسه أيضا أن ترجم العربى فخلط فيه و لفّق ما شاء، فمثّل للإضافة بقوله:

قدح فضة، ملك كسرى، رأس أمان، الغالب عجم، غالب عجم، كتاب سليمان، نصرا عقبه، و فسرها بأنّها مثنى مضاف إلى العقبة، و نصروا عقبه، النصرا عقبه، النصروا عقبه.

و أورد حكاية من كتاب ألف ليلة و ليلة عن ذلك الأحمق الذى قدر فى باله أن يتزوّج بنت الوزير، فلمّا وصل إلى قوله «و لا أخلى روحى إلا فى موضعها» ترجمها بقوله: «لا أعطى الحرية لنفسى أى لزوجتى إلا فى حجرتها»، و قوله أيضا «و لا أزال كذلك حتى تتم جلوتها» صحّف «جلوتها» بجلدتها؛ فقال: «و لا- أكفّ حتى يتم ذلّها»، و عند قوله «حتى يقول جميع من حضر» كتب فى الحاشية «حظر»، و حضرة بمنزلة السموّ فى الإنكليزية، و قس على ذلك.

رأى فيما ترجموه إلى لغتهم من العربية

و إذا ترجم أحدهم كتابا رقّعه بما عنّ له، و سبكه فى قالب لغته. فقد قرأت كثيرا ممّا ترجم من كلامنا إلى كلامهم فإذا هو مسبوك فى قوالب أفكارهم مما لم يخطر ببال المؤلف قط. و قرأت ترجمة منشور صدر من السلطان فى الحضّ على الجهاد من جملته: «ليس لعبّاد النبى من خلاص فى هذه الدنيا، و لا فى الآخرة إلا بجهاد الكفار» فانظر إن كان المسلمون يقولون: إن النبى معبود. و ما رأيت أحدا تحرّج من هذا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۱

التلفيق و الافتراء و الترقيع غير مستر صال الذى ترجم القرآن، و مستر لان الذى ترجم حكايات ألف ليلة و ليلة، و مستر بوسطون الذى ترجم خمسا و عشرين مقامة من مقامات الحريرى. أمّا الأول فقد ذكر فلتير أنّه مكث بين العرب سنين مديدة، و أخذ عنهم علم العربية حتى تهيّأ له ترجمة القرآن، و لست من ذلك على ثقة إذ الظاهر من مقدمته للترجمة أنه لم يخالط العرب، و كيفما كان فهو من المحقّقين. و أمّا الثانى فإنّه لبث فى مصر و عاشر علماءها و أدباءها. و أمّا الثالث، فإنّه كان قد سار إلى الديار الشامية و استصحب بعض أهاليها، و ما عدا هؤلاء الثلاثة فكما قال عقيل بن علقمة لعمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه:

خذا بطن هرشى أو قفاها فإنه كلا جانبى هرش لهنّ طريق

فإن أحدهم لا يبالى بأن يؤدّى معنى الترجمة بأى أسلوب خطر له، فلو قرأ سبّا فى كلامنا مثلا بأن قال بعض السبّابين لآخر: «يحرق دينه» ترجمه بأنّ دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة و الغيرة بحيث أنّه يحرق جميع ما عداه من الأديان أى يغلب عليها فهو الدين الحقيقى القاهر، كما ورد إنّ الله نار آكلة، و هكذا فليس لعمرى علم لغتنا عندهم سوى سبب يتوصل به إلى التنف من غيرها

کالعبرانیة و السریانیة، فإن هاتین عندهم أهم و أنفع، و ناهیک أن دخل مدرس العبرانیة فی کمبریج ألف لیرة فی السنة، و دخل مدرس العربیة سبعون لیرة فقط. و متی عرف أحدهم شیئا من لغتنا طابقة علی غیره من تلک اللغة، و استخرج منه فائدة تختصّ بالمطابق علیه.

حوار مع دکطر لی

و قد جری مرّة بحضرة الدکطر لی ذکر أحد النمساویین فقلت: إنه ذو دعوی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۲

لکونه نظم أبیاتا فی لغتنا، و شهرها فی کتاب مطبوع مع أنّها کلّها لحن و زحاف، فلو کان ذا أدب لما تکلّف النظم من دون معرفة قواعده، و هو بعید علیه بل علی جمیع الإفرنج الذین لم یأخذوا عن العرب.

قال: «کیف و نحن ننظم الشعر فی الیونانیة و اللاتینیة و لم نخالط أهلهما؟».

قلت: ههنا فرق، و هو أن هاتین اللغتین کالأصل للغتکم، فتتعلمونهما علی صغر أمّا العربیة فهی أجنبیة عنکم.

قال: إن الرجل لیمکنه أن یتعلّم أیّ لغة شاء کما یتعلّمها الطفل.

قلت: أمّا أنا فما هذا مذهبی، و إنّی أعطی کتبی کلّها لأی إفرنجیّ کان، إذا نظم بالعربیة بیتین صحیحین بلیغین.

قال: أنا أنظم لک اللیلة ثلاثة أبیات.

فلمّا قابلته فی الغد إذا به قد ناولنی رقعة کتب فیها:

ألم تر یا صاح بهذا علامة بأن صار الأجنبی یجری کرامة

و إن لم یکن هذا عروضا مصحّحا فلا تعطه أسفارک عامّة

فإن کان ذا إذا صحیحا و سالما ستسلّمه أجرا أسفارک رامة

فلمّا قرأتها قلت له: فیها زحاف و خطأ.

فسکت ساعة، ثم قال: أتدری ما الألف التی فی قول أمرء القیس «قفا نبک من ذکری حبیب و منزل»؟

قلت: هی ألف التثنیة عند بعض، فإن الشاعر خاطب صاحبین له، و ذلک مستفیض فی کلامهم، و عند بعض أنّها مقلوبة عن نون التوکید. قال: «هذا کلّه تمحّل و تعسّف، و إنّما هی مقلوبة من الهاء من العبرانیة؛ فإنّ الیهود یلحقون الهاء بفعلی الأمر و النهی دلالة علی الطلب و التوسل». ثم بینت له بعد ذلک خطأ أبیاته.

فما کان منه إلا أن قال: إنّ لغة العرب لیست مطبوعة کسائر اللغات بل هی لغة مصنّعة متکلّف فیها کثرة القواعد و الضوابط بخلاف لغات أوربا، و طفق یبیّن أنّه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۳

یجوز فی اللغة اللاتینیة أن تقام حرکة طویلة مقام حرکة قصیرة نحو أن تجری لفظة «ماد» مجری «مد» و نحو ذلک، ثم سألنی: کیف تفعلون بأل فی قولک «الذین» فإنه اجتمع فیها ثلاثة سواکن، و أنتم تقولون: إنّه لا یصح اجتماع ساکنین؟.

فقلت: أین السواکن الثلاثة هنا؟.

قال: الألف و اللام و الدال.

و قال لی یوما: أتدری من أین اشتقاق الزناء؟

فقلت: لا أدری.

قال: من العبرانی فإن زنی فیها بمعنی باع، فکأن الزانیة تبیع نفسها للرجل.

و سألنی مرّة أخری: أتدری ما أصل المدّة فی نحو آمن؟.

فقلت: لا.

فقال: هی الالف فی السریانی. و قرأ یوما «قوما بطّالین»

فقال: البطل عند الصوفیة فی ثانی مرتبة العابد.

فقلت: الأولی البطل.

و قال أیضا: إن «یومنا» فی قول العرب: إلی «یومنا هـذا» من السـریانی و هو «یومنان» و قد جری لی معه وقت الترجمة عدة مناقشات، و مجادلات لا بأس بإیرادها هنا، و إن طال بها الکلام فإنها عنوان علی معرفة القوم لغة الشرقیین و خصوصا العربیة.

منها أنه کان یحاول استعمال کلمة هوذا فی کل موضع یجدها فی الأصل أعنی العبرانی، فإنه لا یمتنع فیها أن یقال مثلا لأن هوذا أو و هو هوذا.

و کأن هوذا رجل، و کان یظن أن إذا فی قولنا خرجت و إذا زید بالباب لا تغنی مغناة هوذا.

و من ذلک أنه کان ینکر قولنا مثلا أحـد الرؤساء بـدل رئیس، و من ذلک أنه کان یریـد المحافظة علی الأصل بالإتیان ب (قائلا) بعد قال، فإنه یقال فیه: قال قائلا مع أن هـذا الترکیب فی لغـة الإنکلیز منکر، و لذلک کنّا نجد فی توراتهم: و تکلّم قائلا لا قال قائلا، و فی مثل قولنا: ضرب لهم مثلا کان یبدل ضرب بدل قال لأنه کان یترجم فی عقله لفظ ضرب إلی لغته فلا یجد معنی سوی إیصال الألم، و کان یبدل علم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۴

اعتقـادهم، برأی اعتقـادهم، و یزعـم أنهـا أبلغ فی المعنی، و أن الاعتقـاد لیس بمرادف للإیمان، فإنه إنما ینظر إلی أصل اشـتقاقه و هو العقد، و هو غیر مفید معنی الإیمان، و کان یبدل ماء البحر بمیاه البحر، و هذا لا محظور منه إلا أن تبدیله هوس، و جزم بأن قولک فی السؤال ما یکون لنا أبلغ من ما عسی أن یکون لنا، و أن من ثم التی یؤتی بها للسببیة غیر کثیرة الاستعمال، و لا تسدّ مسدّ و لهذا.

و کان یزعم أن لفظة المعجزات لیست من کلام النصاری حتی وجدناها فی نسـخة رومیة. و من أشدّ وساوسه تجنبه للسجع و الترکیب الفصـیح غایة ما أمکن حتی إنه زعم أن ما فی الترجمة من قوله خرجتم إلیّ بعصـیّ کلصّ، سـجع و حاول تغییرها، فلم یقدر فترکها و هو آسف. و کـذا وهمه فی نلت خیراتـک فی حیاتـک، و فی و کان هناک قطیع من الخنازیر کبیر، فکان یقول هو من السـجع الـذی ینبغی مجـانبته فی کلام الله تعـالی، و کـان کلّمـا رأی جملـة تنتهی بـالواو و النون أو بالیـاء و النون یقول: إنها مضاهئة لکلام القرآن فیبدلها، حتی إنه رأی هذه الجملة و هی و أنتم علی ذلک شـهود؛ فقال: إن هذا الوقف یشبه وقف القرآن، فمن ثم بدلها بقوله: و أنتم شهود علی هـذا، و وجـدنا عبارة أخری و هی و ما هؤلاء بعابرین من هناک إلینا، فقال: هـذا التعبیر فصـیح فبدل عابرین بیعبرون. و لم أتعجب من تغییره و إنما تعجبت من أنه شعر بحسن هذا الترکیب.

و زعم أن قولـک مثلا؛ و کان رجل اسـمه فلان أخصـر من قولک یسـمّی. و کلما رأی فی الاصل عبارة کثیرة الألفاظ مما لا داعی له قال: إن ذلک للتقویة، و إذا رأی فیه إجحافا و لو مع إخلال المعنی قال: إن فیه خذفا للبلاغة، و کان یحاول أن یقال:

و اتفق أنه قال، و اتفق أنه افتکر، فقلت له هذه لا یصح اسـتعمالها مع الأفعال التی لا تقتضی الندرة فی الاستعمال؛ فلا یقال مثلا جاءنی فلان، و اتفق أنه جلس، فإنه لا ندرة فی الجلوس بعد المجیء؛ فقال و أین أنت من المحافظة علی الأصل.

و الذی ظهر لی من أحواله أنه فضـلا عن کونه شدید التعصب لتوراة، فإنه کان یتّقی لوم خصـمائه فإنه کان ذا خصوم کثیرة، إلا أنه لا حمق أکثر من أن یترجم من لغـة إلی أخری بعین الألفاظ و التراکیب، إذ لا یتصور بالبال أن لغة تطابق أخری فی التعبیر فکیف یمکن أن یقال بالعربیة: خرج الدخان من مناخر الله کما یقال

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۵

بالعبریـة؟ أو أحشاء الله کما یقال بالیونانیـة؟ و قد ذکرت ذلک لعدة من أهل المعارف منهم. و إنه من التعبیر غیر اللائق بجلالة تعالی، فکلهم سه علی وجه الله، و عین الله، و ید الله من دون فرق بین نسبة الأعضاء الحقیرة إلیه و بین غیرها.

و مما أضـحکنی من الـدکطر لی مرّة أنه دعانی للغـداء یوما، و کان ذلک فی نحو الساعـة الخامسة قبیل المغرب؛ فقلت له: قد تغدیت فی الساعـة الحادیـة علی ما اعتدته، فقال هذا لا نسـمیه نحن غداء، و إنما نسـمیه عجالة. فقلت: هذا عندک لأنک تتغدی وقت العشاء، فأما عندی فهو الغداء بنفسه و عینه.

و الـدکطر لی هـذا کان یـدرّس العربیة فی کمبریج، و لم یکن یحسن التکلم بها و لو بجملة واحدة و کان ذا اجتهاد لا ملل معه. فکان یقعـد علی الکرسـی للمطالعة أربع ساعات و لا یتحلحل عنه. و ما أخال أحدا غیره اشـتهر بما اشـتهر هو به فی علم اللغات المشـرقیة. و توظفه فی کمبریـج هو السـبب الـذی حدانی إلی الحضور إلی هذه البلاد لأن الجمعیة لما اسـتأذنت حاکم مالطة بواسـطة وزیر الأمور الخارجیـة فی إحضاری لأجاور دکطر لی ظننت أنّ مکثی یکون فی تلک المدینـة. و هی و إن تکن لا تشوق أحـدا للسـکنی فیها غیر من یقصـدها للتفقّه فی الفنون إلا أنّها علی کلّ حال أحسن من القری، و ذلک کنت أدریه من قبل إلا أن البواعث الحالیـة و الدواعی الکونیة أوجبت علی الدکطر لی أن یعدّی عن وظیفته تلک، و أن یکون قطع أنف عرفجة یوم الکلاب سببا فی سجن مستملی جان بن بشر قاضی بغداد.

و لم یکن شـیء یسلّینی فی تلک القریة سوی ترقّب الشهر الذی یسافر فیه الدکطر المذکور إلی برستول لأسافر معه حیث قدّر علی أن أکون معه فی کلّ مکان و زمان.

غیر أن المذکور توفی و أنا فی باریس، و أعفانی الله من السفر معه إلی تلک الدیار، فعفا الله بمنّه و کرمه.

مع شیخ العربیة فی أکسفورد

لما حان الذهاب إلی برسـتول مررت بأکسفورد، و قصدت أن أری خزانة الکتب، فسألت بوّاب المدرسة عن شیخ العربیة لیهدینی لها. فأخذ یطالع فی فهرسة المعلمین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۶

فلم یهتد إلی اسمه، فقلت له: کیف و أنت ملازم لهم لا تعرفهم؟.

فقال: إنّ شـیخ العربیة لا یدرّس بنفسه، و لا یقرأ و لکن له قارئ، فإذا قرأ القارئ شـیئا یأخذ الشیخ فی شرحه أی فی توجیهه إلی وقائع تاریخیـة تتعلّق بـذلک الموضوع، و فی تطبیقه علی بعض اللغات کما سأبیّن لک عن قریب. ثم بعـد طول معالجة و بحث اهتدیت إلی دار الشـیخ؛ فقابلته و سألته أن یرینی المکتبة تفضّـلا و تکرّما، فأجاب إلی ذلک و سـرنا معا. و أول کتاب فتحه کان بالخط الکوفی، و إذا فی أول الصـفحة لفظة «ألا» فقرأها «الا» و فسّـرها أنّها الله، فتعجّبت کیف أنّه انخدع فهمه لسـمعه لأنّهم جمیعا یلفظون اسم الجلالة هکذا.

مع أستاذ آخر

و سألنی مرّة أستاذ آخر: أتعرف لم دلّت فی علی الظرفیة؟

فقلت: لا أدری.

قال: بل أنا أدری، و ذلک لاشتقاقها من الفم الذی أصله فوه. و هکذا یخمّنون و یخرصون علی معانی المفردات و المرکبات فی لغتنا.

مثال علی علمهم بالعربیة

و هاک مثالا علی علم هؤلاء الأساتیذ و علی شرحهم لکتبنا تطفلا فتصور فتصور مثلا أن قارئا یقرأ علی الشیخ قول أبی تمّام:

همّة تنطح النجوم وجد آلف للحضیض فهو حضیض

فیقول الشیخ بلغته: النطاح مختص بالحیوانات التی لها قرون کالثور و التیس و الوعل و نحوها، و قد ذکر فی التوراة مرّات کثیرة، و یمکن أن ینسب أیضا إلی ما لیس له قرن منها، فقد روی لیناوس الذی قسم جنس الحیوان إلی سبعة أقسام أن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۷

الحیوانات الجماء تتناطح بجباهها. و قد أطلقت العرب اسم الکبش علی آلة من آلات الحرب لما أنّها تنطح الجدار. و «النجوم» معروفة و قد کانت العرب تهتدی بها فی أسفارهم قبل أن عرفت خاصیة إبرة المغنطیس. و لّما کانوا مشتغلین بالعلوم الفلکیة و الطبیة لم یکن فی أوربا من یشم لها رائحة. و لّما فتحوا إسبانیا أو جزیرة الاندلس و ذلک فی نحو سنة ... أخذ عنهم العلم بعض من الإفرنج و منهم سری فی سائر بلدان أوربا، و کان انقراض الخلافة من قرطبة سنة ۱۰۳۱ بعد أن دامت العرب أصحاب أمر و نهی و سیادة فیها نحو مائتین و خمس و سبعین سنة. أمّا الألف و اللام التی فی النجوم فهی أداة التعریف، و هی فی الطلیانیة و الإسبنیولیة «ال» للمذکر و «لا» للمؤنث. و اللغة اللاتینیة لیس لها أداة تعریف، فأمّا الیونانیة ففیها عدّة أدوات. و یوجد فی لغتنا ألفاظ کثیرة مبدوءة بهذا الحرف منها ما هو عربی و ذلک نحو «الکنا» (أی الحناء) و الکحل و القائد و الجبره (الجبر) و القرآن و القلی و القرثیم أو الکرزیم، و منها ما هو من لغة أخری. فأمّا اللغة الإسبنیولیة ففیها من هذا النوع ألفاظ لا تعدّ. فأمّا عدم لفظ اللام فی النجوم فهو لکون النون من الحروف الشمسیة.

ثم إن أول من قرّر طریقة سیر النجوم حول الشمس، و سیر القمر حول الأرض، و نسبة بعضها إلی بعض، و علّة المدّ و الجزر، و النور، و الجاذبیة، و الاعتمادیة، الفیلسوف اسحاق نیوطون ولد فی سنة ۱۶۴۲ و مات سنة ۱۷۲۷، و کان ذا جدّ و مثابرة علی العلم لا تنظر. أمّا قوله: جدّ آلف للحضیض، فالحضیض هنا معناه الأرض، فهو من تسمیة الکل بالجزء، و وروده فی التوراة کثیر، و فحوی البیت أنه أی الممدوح ذو عنایة بالأرض أی بحرثها و إحیائها، و إنشاء المدن فیها، و تسویة الأحکام بین أهلها، حتی إنه أی الممدوح صار أرضا و خصبا لقاصده.

فأمّا إن کان هذا الشیخ قد تلمذ لشیخنا الأکسفوردی المشار إلیه فإنه یقرأ الحدید بدل الحضیض، و حینئذ یکون تأویله عنده و جدّ أی حظ، أو أب فإنّ الجد یذکر و یراد به الأب و بالعکس کما ورد فی التوراة آلف لاستعمال السلاح و قهر العدو. و هکذا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۸

یمشی علی انعکاس البیت بهذا العصد هو و تلامذته و بعد انقضاء نحو ساعة و نصف علی تأویل هذا البیت یقومون و هم سامدو الرؤوس عجبا و فخرا، و یظنّون أنّ شیوخ الجامع الأزهر و الأموی و الزیتونة هم دون هذا النحریر الذی عرف مولد نیوطون و وفاته و استیلاء المسلمین علی الأندلس. و قد استبدّ هؤلاء الأساتیذ بهذه الدعوی بحیث أنّهم لا یوظّفون الغریب ف هذه المدارس، و إنّما یسمحون له بأن یعلّم أشخاصا علی حدتهم، فلاهم یتعلّمون حقّ التعلم، و لا یأذنون لغیرهم فی أن یعلموا حقّ التعلیم. و هذا الداء فاش أیضا فی مدارس فرنسا مع استتباب المصالح فیها. و لا بدّ لشیخ العربیة من أن یکون عالما بالاتینیة حتی إذا جهل شیئا من تلک عمد إلی هذه فقوّر منها رقعة.

کمبریج و أکسفورد

و اعلم أن کمبریج و أکسفورد هما مدینتان فی بلاد الإنکلیز کلّ منهما تحتوی نحو عشرین مدرسة، و ألفی طالب. ففی الأولی تعلّم الهندسة و الریاضیات و الإلهیات.

و فی الثانیة علوم الأدب و الفقه و المنطق و الفلسفة. و لا یمکن التعلّم فیهما إلا بنفقة زائدة، و ما أحد یقصدهما إلا أولاد الکبراء و

الأغنياء، و لا سيّما أكسفورد، فهناك ترى طالب العلم شامخا بأنفه مصعّرا خدّه كأنّما هو طالب ملك الصين و الهند.

و أكثرهم يصرف همّه فی ركوب الخيل و اللذّات و ينبذ العلم ظهريّا. فمتی حان يوم الامتحان عرف ما يريد الشيخ أن يمتحنه به من المسائل إذ هی محصورة معدودة، فيجتهد فی حفظها و ترسّمها، فإذا سردها عليه و أحسن سردها أجازة بصكّ يذكر فيه أنه نال مرتبة المعلمين، و هی عندهم متنوعة.

و لكلّ من هذه المدارس أوقاف يعيش منها القسيسون الملازمون لها، و يقال لكلّ

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۱۹۹

منهم «فلو»، و ربّما كان أيضا من غير القسيسين. فإنّ كلّ من نبغ فی علم من العلوم أجری عليه الرزق من الوقف، فمنهم من له مائتا ليرة فی السنة، و منهم من له أكثر، و لكن بشرط أن لا- يتزوّج. فمتی تزوّج انقطع عنه رزقه إلا- أنهم لا- يتزوّجون غالبا إلا- بعد أن يحصلوا على معيشة من خدمة إحدی الكنائس. و فی كلّ سنة من يوم معلوم منها يحصل نزاع و لكام بين طلبة العلم و بين الأهلين، و ربّما غلبت فيه الطلبة على قلّتهم. و يسمّونه يوم الكون و التون؛ و ذلك لأن الطلبة يلبسون ثوبا أسود كالقفطان، و يقال له: كون، و البلد عندهم يقال له: تون. و فی كل من المدينتين مكتبة عربية غير أن كتب أكسفورد أكثر، و فيها فی سائر اللغات نحو ثلاثمائة ألف كتاب. و أعظم ما سرّنی فيها هو نزولی فی محل كان يسكن فيه شكسبير، كذا قيل لی و الله أعلم.

و فی مدة إقامتی كلّها فی كمبريج، و هی أكثر من سنة لم أر من اللهو إلا قردا و قرّادا يلاعبه، و كان القرد يضرب بالدف و النساء و الأولاد و الرجال يجرون وراءه، و لم أر أحدا منهم أعطاه شيئا. و رأيت مرّة أخری امرأتين تعزفان بآلة الطرب فرميت لهما من الشبّاك بنصف شيلين فاستكثرتاه.

ثم إن القائم بخدمة أصحاب هذه المدارس نساء و أغلبهن حسان، فتأتی المرأة فی الصبح إلی محل أحدهم، و هو فی فراشه، لتوقد له النار، و فی الليل تحضر له الشای.

و كنت مرّة عند أحدهم فأقبلت امرأة كأنّها البدر الطالع، و قالت له: هل دعوتنی يا سيدی؟ قال: لا. ثم دعاها لتحضر الشای. فتأملتها على النور، و إذا هی نور آخر.

و قد ذكرت ذلك لبعض المتورّعين من أهل المدارس فأقرّ بأنّه غير لائق، و إنّما جرت به العادة و لا سيّما أنّ هؤلاء النساء متزوجات و لا يذهبن إلی أزواجهن إلا عند نصف الليل.

و فی هاتين المدينتين عادة قبيحة فی البيع و الشراء، و ذلك أن الباعة يبيعون الطلبة نسيئة و يتقاضونهم ما هو فوق القيمة. فإذا أراد غريب أن يشتری شيئا تقاضوه قيمة النسيء إلا أن يكون الشاری عارفا بأحوالهم فيقول: إنّما شرائی بالنقد. و قلّ

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۰

من يذكر له ذلك. و حيث كان هؤلاء الطلبة من ذوی الإيسار و الإسراف كانت هاتان المدينتان أغلی من سائر بلاد الإنكليز.

تفاؤلهم و تشاؤمهم

أمّا ما عندهم من الطّيرة و التفاؤل، فقد ذكر صاحب الجرنال المسمّی أخبار العالم عدد ۶۸ أن الإنكليز يتطيّرون من لقاء المرأة الحولاء ما لم تبادر بالكلام، فحينئذ تزول الطّيرة، و من السفر يوم الجمعة، و أن يكون المدعو فی عيد الميلاد رابع عشر شخصا، و أن يعارض سكّينان وقت الغداء، و أن يمشی أحد تحت السلالم، و أن تبقی أغصان الميلاد فی البيت بعد عيد كندلماس، و إلا فإن إبليس نفسه يأتی و يأخذها.

قلت أغصان الميلاد هی أغصان يقتطعونها و يزيّنون بها الغرف و البيوت ليلة عيد الميلاد، و يقال لها: ميزلتو؛ و هی عادة قديمة من عادات أعياد «الدرويدس» و هم حكماء أهل بريتانية سابقا و سيأتی ذكرهم.

قال: و إذا رمی بنعلین بالیتین خلف من خرج من المنزل لمصلحة یرومها کان ذلک فألا بنجاحه و توفیقه. و هذا تستعمله خصوصا علیة الناس فی بعض البلاد و لا سیّما عند الأعراس، و إذا قصّ الإنسان شعر رأسه مدّة نموّ القمر نما و جثل. و یتطیّرون أیضا من رؤیة الهلال من شبّاک أو زجاج و نحوه فإذا رأیته فی الفضاء فاقلب ما فی جیبک من الدراهم أو الفلوس و تمنّ خیرا فی الشهر القابل تنله، و إن یضع أحد ملحا فی صحفة غیره، و کذا لو قلب أحد وعاء الملح علی المائدة. و أصل ذلک أن بعض المصورین الطلیانیین صوّر العشاء الأخیر و یهودا مبدّدا للملح.

قلت عادة أهل بلادنا إذا ابصروا الهلال أن یبرزوا له دینارا و یقولوا: جعلک الله شهرا مبارکا. فأمّا قلب الملح، فإنه عند العرب کنایة عن الغدر و الخیانة، و حفظه کنایة عن حقوق المودّة و العشرة، و قسمهم بذلک لتعظیمه. قال الإمام الخفاجی:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۱

و علیه قولی فی خائن الاخوان:

لا یعرف الخبز و لا الملح إذ یأکل فی غیبته لحم أخیه

کذا نقلته و لعلّه قال: یأکل لحم الأخ فی غیبته، لیتزن البیت.

و إذا انقلبت الکرسی برجل عزب کان دلیلا علی أن الرجل لا یتزوج فی تلک السنة، و هو غریب فإنّهم شبّهوا المرأة بالکرسی و هو عین ما عنته العرب بقولهم:

قعیدة الرجل أمرأته. و إذا تأجّج لهیب النار و سمع له حسّ استدلّ بذلک علی نزاع و نقار یقع بین أهل البیت، و إذا طارت جمرة من النار و وضعتها عند أذنک، و سمعت لها طنینا دلّ ذلک علی قبضک دراهم، و رؤیة نحو عکر متقسّم إلی أجزاء فی قدح دلیل علی سفر طویل و مشاق. و وقوع سکین علی الأرض دلیل علی قدوم غریب.

و إذا عزم إنسان علی سفر و أکل نصف بصلة و ترک الباقی کان دلیلا علی عدم توفیقه.

و حکّ العین الیمنی دلیل علی البکاء، و الیسری علی سرور غیر متوقّع و معه ضحک.

و إذا اختلجت الشفة العلیا و أحکّت کان ذلک علامة علی قبلة، أو الذقن فعلی لحم طری، أو النحر فعلی اتخاذ مندیل، أو الأذن الیسری فعلی مدح یثنی علیک به أحد، و بعکس ذلک الأذن ایمنی، أو الأنف فعلی شیء یغیظک و یهیجک، أو الکفّ الیمنی فعلی قبض دراهم، أو أخمص الرجل کان علامة علی مخاطبتک رجلا أجنبیا، أو الکوع فعلی رقودک فی غیر فراشک، و وضع مفتاح البیت علی مائدة و نحوها مؤذن بالشؤم، فالأولی أن یعلّق فی مسمار، أو وتد.

و إذا مات أحد و تیبّست أعضاؤه حتی لم یمکن لیّها کان الموت مفردا و إلا فلا بدّ من أن یأتی علی آخر. و نباح الکلب تحت شبّاک دلیل علی الموت، و کذا إذا حاولت هرة أن تدخل من الشبّاک، أو دبّت الخنافس علی الموقد، أو وقفت الساعة بحیث تکون نظیفة الآلات.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۲

و إذا عزم أحد علی إدارة مصلحة و هبّت الریح فی غد یومه من الشمال فإنه یفوز و ینجح. و إذا کسب دینارا کسبا هینا بصق علیه و وضعه فی کیسه، و کذا یبصق علیه إذا کان أوّل دینار مکسوب صبیحة یومه، و إذا أهدی محب إلی محبوبته سکینا أو مقصا فلا یلبثان أن یفترقا، فلا تقبل ذلک منه إلا أن یضعه علی مائدة و نحوها، أو أن تعطیه فی مقابلة الهدیة فلسا. و وضع المنفخ علی کرسی أو مائدة مورث نزاع، و ازدهار النار مساء دلیل علی قدوم صاحب المنزل مسرورا، و عثار انسان و هو مرتق فی الدرج یدل علی الزواج، و الإکثار من الضحک یعقبه البکی، و صرف دینار بدراهم من دون قبض قطعة من الذهب دلیل علی صرفها عبثا، و سقوط مشّاطة شعر النساء فی الماء یورث تساقط الشعر بخلاف ما لو وقعت فی النار، و النظر فی المرآة لیلا مکروه إلا عند الاضطرار و هو مشهور عندنا أیضا، و ابتلال ثیاب المرأة و هی تغسل تطیّر بأنّ زوجها یکون سکّیرا، و الشامة فی العضد تیمن بالحظ و السعادة، و إذا احمرّ وجه

الإنسان کان علامة علی أن أحد محبیه یذکره. و إذا شرق أحد بشیء قالوا له فی معرض الکلام قد ارتکبت سرقة أو خیانة و نحوهما، و هذا مستعمل أیضا عند أهل الشام و هو طبیعی. و تأویلهم للأحلام قریب من تأویلنا فالحلم بکلب دلیل علی صدیق، و بحیّة امارة علی عدو، و بامرأة سیئة دلیل علی شر و مصیبة و قس علی ذلک.

و فی أول لیلة من تشرین الثانی تشتری البنات جلّوزا و یشوینه، ثم یکسرنه، فإذا خرجت أوّل جلّوزة مزوجة استبشرن بالزواج فی تلک السنة، یفعلن ذلک ثلاث مرات و إلا فلا. و نحو منه أنّهن یشترین رصاصا و یذوبنه فی ملعقة حدید، ثم یفرغنه منها ضمن حلقة مفتاح إلی إناء فیه ماء، و کیفما تهیأت قطعة الرصاص فی الإناء استخرجن منها فألا علیحرفة من یخطبهن. و فی تلک اللیلة یملأن أفواههن ماء، و معه شیء من حبّ شبیه بالحمص، و یمتنعن من الضحک لئلا یخرج الماء، ثم یخرجن إلی الطرق و أوّل اسم یطرق مسامعهن فهو اسم الشخص الذی یقدم علی الزواج، و حینئذ یمججن الماء. و إذا شاء أحد أن یعرف إخلاص قلب إنسان علیه یضع

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۳

مفتاحا فی الإنجیل، ثم یربط الإنجیل بخیط علی شکل الصلیب، و یجعل حلقة المفتاح بارزة منه ثم یتلو الآیتین السادسة عشرة و السابعة عشرة من الفصل الأول من سفر راعوث، فإذا دار المفتاح کان ذلک دلیلا علی إخلاص قلب الشخص المضمر و إلا فلا. و الزواج فی شهر أیار شؤم. و إذا أراد أحد أن یفتح دکانا أو یتعاطی مصلحة مهمّة فلا یبدأ به یوم الجمعة، بل یوم الخمیس، أو السبت، و هذا التطیّر فاش عند جمیع رؤساء المراکب. و فی السنة الکبیسة تلبس النساء ثوبا أحمر تحت القفطان.

و کلّما أکثروا من أصناف الحلواء فی رأس السنة زاد استبشارهم بخیرها و برکتها.

و فی عید المیلاد یصنعون نوعا مخصوصا من الحلواء یسمونه «کرسمس بودن» و یبقون منه شوایة فی الصوان تبرکا بها. و إذا مضی علیهم هذا العید من دون هذه الحلواء أوجسوا النقص و القلّة سنتهم کلّها. و إذا کانوا غائبین عن بلادهم و لم یقدروا علی اتخاذها بعثوا إلی أهلهم یستهدون لماظة منها فیبعثون لهم فی کتاب بمثل قلامة الظفر. و فی لیلة ذلک العید یوقدون شموعا کثیرة و نارا متأجّجة، و یزیّنون الغرف بتلک الأغصان التی تقدّم ذکرها، و یظهرون الفرح و الابتهاج، و إذا مشت امرأة من تحتها حقّ للرجال أن یقبّلوها. و فی الیوم التاسع و العشرین من شهر أیلول و یسمّونه میکلمس، أی عید میکال یأکلون الوز، و فی السادس من کانون الثانی یصنعون کعکا مخصوصا یسمّونه کعک الیوم الثانی عشر.

و من أوهامهم أیضا الاعتقاد بظهور روح المیت عند قبره. و هذا الوهم فاش حتی عند عامّة سکان المدن، فقد کنت أری فی کلّ لیلة جمعا عظیما واقفین عند إحدی المقابر لما شاع عندهم من أن روحا تراءی فیها لبعض المارّین فی هیئة بشر بلباس أبیض. فأوجب انحشارهم هذا إحراق وجه المقبرة بالجیر لنفی تردّد الروح. أو لعلّه کان حیلة فی منع اجتماع الطعام لأنّهم حیثما اجتمعوا اجتمع الشر.

و فی لندرة موضع اسمه «هاتن کاردن» فیه عین ماء یزعمون أنّه یجری منها دم فی کلّ یوم عند

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۴

نصف اللیل، و لها قصّة طویلة لا یمکن إیرادها هنا.

و من ذلک اعتقادهم بأنّه متی احتضر شخص حضر فی منزله روح یسمّونه رصد المیت فیسمع له قرع علی الباب أو الحائط أو صوت نحو صوت جرّ السلاسل، أو طنین الجلاجل، فإذا سمع ذلک منه ثلاث مرّات کان الموت بعدها لا محالة.

و من النوادر هنا أن رجلا کان یماشی زوجته فی بستان، و هما یتحدّثان، و فیما کان یکلّمها أحسّت بکرب و انقباض، فقالت له: تنحّ بنا عن هذا الموضع فإنّی أظنّه محضورا. فتنحّی عنه، ثم سال بعد ذلک عنه فعلم أنه عند تحادثهما کان بالقرب منهما رجل یقتل نفسه.

و قرأت فی بعض صحف الأخبار أن رجلا قتل ولدا صغیرا فقضی علیه بالموت، و لّما سئل عن سبب قتله أیاه قال: کنت أرید أن أتخذ من جمجمته مصباحا ساترا حتی أدخل البیوت و لا یرانی أحد.

و اتفق فی بعض السنین أن ظهر فی السماء نور أبیض امتدّ من المشرق إلی المغرب خفیف المرّ، و کان کأنّه هباء، ثم انتشر فی عنان

السماء کلّه و ظهرت عقب ذلک جمرة فی الأفق، ثم کثر و عظم فطفق أهل الدار التی کنت فیها یبکون و یضجّون و یستغیثون، فسألتهم عن سبب ضجیجهم، فقالوا: إنّها آیة علی المعامع و الحروب.

فقلت «کلا بل هی آیة علی فساد البطاطس، فانقلب بکاؤهم ضحکا. و هذه السنة کانت رابع سنة مشؤومة علی غلة البطاطة فی إرلندة، فکان الناس فی هاجس عظیم لذلک لأن جلّ طعام أهلها بل طعام الإنکلیز أیضا إنّما هو منها. ثم أعقب تلک الآفة حمیّات و وباء، فمات أناس کثیرون ورثی لهم کثیر من ادول، فجاءهم إمداد منها، و أمدّهم مجلس المشورة بلندرة بعشرة ملایین لیرة.

و اعلم أنه قد یتشاءم الإنسان من مکان أو زمان و یتفاءل بغیرهما، و یکون ذلک مجرّد و هم مثاله أن یکون فی محل لم ینتفع فیه إلا بوعود و أمانی فیملّ منه، و ینتقل إلی آخر فتتحقّق فیه أمانیه، فیری أن ذلک من یمن الانتقال مع أنه لو بقی فی المحل الأول لصحّت له.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۵

عرّافات و منجّمون

و فی بلاد الفلاحین، بل فی المدن الجامعة أیضا نساء یدّعین علم المغیبات بطرق مختلفة منها التألیف بین أوراق اللعب المزوقة، و ذلک بأن تصف منها ثلاثة صفوف، کل صف یشتمل علی سبع ورقات، ثم صفّا رابعا من خمس، أو خمسة صفوف کل منها یشتمل علی خمس ورقات، ثم صفّا آخر من اثنتین، و تضمر أن إحدی المزوقات الحمر کنایة عن امرأة و إحدی السود کنایة عن رجل أسمر، و تنسب لکل من الورقات المنقّطة خاصیّة من البخت و ضده، و تقابلها بتلک المزوقات التی علیها الإضمار، ثم تستخرج من تلک المقابلة دلائل علی ما یحدث بعبارة لا تخلو من الإبهام و التوجیه.

و قد اتفق لی و أنا مقیم فی بیت قسیس من فضلاء الإنکلیز أن حضرت امرأة من هؤلاء فقال لی:ها هی الشیطان. و ذکر الاسم بالعربیة، فقالت: کلا ما أنا شیطان بل مبصرة البخت. فسألتها أن تبصر لی بختی، فألّفت بین تلک الأوراق ثم قالت:

ستکون سببا فی تسفیر رجل أسمر إلی بلاد بعیدة، و إن امرأتک تأخذ فی سفر طویل، و یکون حدیث فی شأنک بعد مدّة، و تحصل علی هدیة من الألماس، و تذهب إلی جماعة عظیمة و یدعوک رجل من سادة الناس؛ فتسافر إلیه و یحصل توفیق لولدک و ینال هدیة، و إن امرأة سمراء تساعدک علی نوال أربک، و إن رجلا أسمر یستدعیک إلیه، و تعدل امرأتک عن السفر، و یحدث لک سفر غیر متوقع مع رجل أبیض، و امرأتک تأخذ هدیة، و إن رجلین أسمر و أبیض یشترکان فی تسفیر امرأة، و إنّ سیّدة زهراء یکون لها مداخلة فی أمرک، و لک صدیقة من النساء سمراء. و قد وقع ذلک کلّه إلا هذه الثلاث الأخیرة فإنّی لم أتحققها، و کثیرا ما تذهب النساء الممتهنات بالخدمة و الممتحنات بالعشق، إلی هؤلاء العرّافات و یسألنهن عن أحوالهن، و یعطینهن نصف ما تملک أیدیهن. و اتفق أن امرأة سافر عنها زوجها و انقطع خبره عنها مدّة طویلة، ثم بلغها خبر وفاته، فتزوّجت آخر فلقیت عرّافة، فقالت لها العرافة:

تعالی أخبرک بما لا تعلمین. ثم ذکرت لها من جملة کلام أن زوجها الأول حیّ، و أنّه عازم علی الرجوع، فدخل الرعب فی قلب المرأة، فألقت نفسها فی النهر. و قدّر لها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۶

أن بصر بها رجل کان علی الشاطئ، فبادر إلیها و أنجاها من الغرق. و أخری جنّت من تهویل عرّافة علیها، فکانت تقول فی حال جنونها: مبصّرة البخت الورق مبصرة البخت الورق. و منهنّ أیضا من تبصر البخت برؤیة الکفّ. و قد رأیت کتبا مطبوعة فی علم الکفّ، و الهیئة فیها من الأحکام نحو ما فی کتبنا.

و منهن من تدّعی إحضار الغائب و تشخیصه لعین السائل فی مرآه و نحوها، کما فی مندل مصر. و فی أخبار العالم عدد ۶۹۳ من شاء أن یعلم ما یجری علیه فی المستقبل من الشغل أو السفر أو الزواج أو تعاطی مصلحة فعلیة أن یسأل المنجّم داود ستلا المقیم فی

«إدورد ستریت مادنلاـن» بحیث یوقفه علی یوم میلاـده و علی جنسه و یرسـل إلیه اثنین و عشـرین طابعـا، فـإنه ینبئه بالتفصـیل عن کل شیء سواء کـان بالمکاتبـة أو مشافهـة. و فیهـا و کـذلک المنجّم ملفیـل و جوابه عن المسائل یکون نظما، و علی السائل أن یرسل إلیه اثنی عشر طابعا.

و فیهـا من کان دأبه الشـغل، و معه بعض شـلینات، ورام أن یتعلّم فی أسـبوع واحـد حرفـة مکسـبة فعلیه بالمنجّم کورتنی فإنّه یهیئ له وجها للعمل بما عنـده من القلیل، حتی یمکنه أن یکسب بعد ذلک من ثلاث لیرات إلی عشـر، و هو علی هیئته، و هذه الحرفة هی من أکرم الحرف، و قد باشرها المنجّم منذ سنین، و غبط بها فلذلک یعرضها علی الطالبین بحیث یحرز منهم ثلاثین طابعا.

و فی بعض صحف الأخبار ما نصّه: «قد صار أهل لندرة الآن جدیرین بأن یکونوا ضحکة لأهل الریف لاعتقادهم بالسحر و الشعوذة، و لم یبق من حاجـة إلی الـذهاب إلی بلاـد الفلاحین لنسـتمع أن النساء اللواتی لا عیب فیهن سوی الفقر و الهرم یسـتطعن علی أن یمنعن البقرة عن الحلب، و یعطلن المزارعین عن أعمـالهم، و یجرّنّ الراقـد من فراشه من غیر أن یحس به، فإن هؤلاء المـدجّلات المـدلسات یوجـدن الآن فی لندرة مع کونها معدن المعارف و النور. و لیس المتردّدون علیهن من سـفلة الناس، و حسـبک دلیلا ما جری منذ أیام فی دیوان کلـدهال حیث أحضـر بعض الشـرطة امرأة من هؤلاء لکونها کتبت رقاع وعید و تهدید إلی بعض التجار ذوی الشأن، قال: و لمّا دخلت حجرتها وجدت عندها أربع نساء متردیات باللباس الفاخر أحسـبهن من بنات التجار، فلمّا سألتها عنهنّ، قالت: إنّما قصدننی لعلمهنّ بأنی أبصر البخت.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۷

و قال آخر: شکا بعض الناس إلی قاضی سری بأن أحد معارفه یسمع فی اللیل ضجیجا و عجیجا و ضرب مطارق فلا یقدر أن ینام.

قال: فلمّا سرت إلیه سألته عمّا یقاسی.

فقال: إن الناس یفیضون فی حدیث فلانة امرأة فلان.

قلت: و ما بینک و بین زوجها؟

قال: لا شیء إلا کلمات دارت بیننا منذ سنة.

قلت: و ما یصنع بک الآن؟

قال: یبعث أناسا یضربون بالمطارق و یضجون و یزأطون اللیل کله؛ فما یدعنی أهجع، و لا أحدا من الجیران ینام.

قلت: أتعرف أسماءهم؟

قال: نعم، و لکن زوج المرأة هو الذی یغریهم بهذه الأذیة.

قال: فأحضرت الزوج و أخبرته بشکوی الرجل.

فقال: جزاء و أقل جزاء.

قلت: کیف؟

قال: لأنه یأتی کلّ لیلة إلی بیتی و یخطف امرأتی من الفراش، و یخرج بها من الشـبّاک، و یضبطها عنده إلی الساعة الرابعة بعد نصف اللیل، ثم یأتی بها منهوکة مدهوکة.

قلت: ألا تخجل من أن تقول هذا الکلام و أنت شیخ، و إنی لمّا لقیتک آخر مرّة قلت لی: إنها علیلة، فهل أفاقت الآن؟

قال: لا ما دام الرجل یخطفها فلن تفیق أبدا.

قلت: قل لی ما یفعل و علیّ عقوبته.

قال: و أیّ عقاب لمن له تسعة أعمار کالهر؟

قلت: هل رأیته عیانا یأخذ امرأتک؟

قال: لا لأنی أکون راقدا.

قلت: هلا ربطت یدیها إلی عنقک حتی تستیقظ عند ذهابها.

قال: لن ینفع فی هؤلاء الناس حذر.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۸

قلت: ما السبب الذی حملک علی سوء الظن بهذا الرجل؟

قال: ذلک الرجل المبارک الذی أرانی وجهه.

قلت: من هو؟

قال: هو الذی شفاها بعد أن عجزت عنها الأطبّاء. قلت: کیف أراک وجهه؟

قال: أخذ نعل فرس و أحماها حتی صارت کالجمر، ثم أغلق الشبّاک و وضع النعل فی ماء قذر، و قال لی: أیّ وجه تری فی الدخان؟ و أشهد أنّه کان وجه زوج المرأة..

الخ.

الجریمة فی بلاد الإنکلیز

فأمّا ما یحدث فی بلاد الإنکلیز من تسمیم الأزواج بعولتهن، و الوالدین أولادهم، و قتلهم و بالعکس، و من الانتحار یحدث أیضا فی غیرها، و أعظم أسبابه العشق و الحرمان، إلا أنّه بالنسبة إلی هذه البلاد لا یذکر. و لنورد لک نبذة من ذلک لتقیس علیها.

حکی صاحب أخبار العالم أنّ رجلا ذبح ثلاثة أطفال له بالموس فی وقت واحد، و کان أصغرهم رضیعا، ثم ذبح نفسه. فلمّا سئلت زوجته عن ذلک قالت: إنّی غادرته مع الأولاد سلیما معافی فلمّا رجعت وجدتهم ثلاثتهم جثثا مطرحة، و زوجی إلی جانبهم، و لا أعلم سبب ذلک. و زعم بعض معارفه أنه قتلهم خوف الإملاق.

و منها أن امرأة شکیت بأنّها قتلت أصغر أولادها، فعند الامتحان علم أنّها قتلت من قبله سبعة، و أنّه کان الثامن مع أنّها کانت تتظاهر بالصلاح و التقوی، و تذهب إلی الکنیسة فی کل یوم أحد، و تلازم دراسة التوراة. و لمّا سئلت عن ذلک قالت: قد قتلتهم خوف الإملاق.

و منها أنّ رجلا کان له امرأة و أربعة أولاد منها، و کان الرجل و الأولاد منتظمین فی سلک جمعیة من أصولها أنه إذا مات أحد من أعضائها یدفع لوارثه خمس لیرات؛ فطمعت المرأة فی الدراهم حتی سمّت زوجها، و کان ابن خمس و خمسین سنة، و قبضت المال، ثم سمّت ابنها الأکبر، و هو ابن ست و عشرین سنة، فمات، و قبضت

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۰۹

المال، ثم سمّت الثالث، و له إحدی و عشرون سنة، فمات، و قبضت المال، ثم سمّت الرابع، فمرض و استدعی بالطبیب، فلمّا أتی الطبیب علم أنّه مسموم، فعند ذلک حصل البحث و التفتیش و نبشت جثث أخوته و شرّحت فتحقّق أنّهم ماتوا کلّهم مسمومین.

و منها أن بنتا سمّت أمها لتستولی علی أمتعتها، ثم أحرقتها، و لمّا کانت بارکة علی صدرها جعلت أمّها تناشدها و تتضرع إلیها أن تبقی علیها؛ فقالت لها البنت:

لقد عشت أکثر مما یحقّ لک أن تعیشی.

و منها أنّ قسّیسا من أهل الکنیسة المتفرعة اسمه فوستر فی بلدة دکنهام، کان یقضی الفرائض الدینیة لإحدی النساء المخدومات، فلمّا رأته غیر أهل لوظیفته صرفته؛ فمرض فأخذ إلی المستشفی، ثم شفی و رجع إلی بیته، و کان له امرأة و ولد سنّه نحو ست سنین، فقامت المرأة صباحا لتهیئ له الفطور، و ترکت الولد مع أبیه فی الفراش، ثم بعد قلیل رأت زوجها قد خرج إلی الطریق، فلمّا أبطأ

علیها ذهبت لتنظر ولدها فإذا به مذبوح بموس.

و من ذلک أن رجلا ذبح ابنته، و واراها فی حفرة، ثم ذبح أخاها و واراه أیضا، و ظلّ یأکل بذلک السکین الذی ذبحهما به مدة، ثمّ علم أمره و لمّا قضی علیه بالقتل فرح جدّا.

و من ذلک أن امرأة من لمبث قتلت طفلا لها، و له ثلاث سنین و نصف، و أخته و هی بنت سنة و نصف. و منها أنّ امرأة ذبحت ابنها فلمّا سألها القاضی قالت: إنّما قتلته صغیر لینال سعادة السماء. و هذا کاف.

عقوبة من یؤذی الحیوان

و من العجیب أن مجلس المشورة بلندرة أصدر أمرا مبرما بعدم أذی الحیوان غیر الناطق، و بتأدیب من یرتکب ذلک، أو تغریمه. و بلغ الذین آذوا الحیوانات فی العام الماضی ۴۶۴ شخصا، و بلغت غرامتهم نحو ۵۷۴ لیرة، و أرسل منهم عشرة نفر إلی دار التأدیب؛ إذ لم تقبل منهم غرامة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۰

و رئی مرّة رجل من نبلاء الفرنسیس یغری کلبه بمطاردة هرّة، فغرّمه الحاکم عشرین شلینا. و مع ذلک لم یهمه حظر بیع السم منعا لهذا الشر المتفاقم علی الحیوان الناطق. و إنّ الولد إذا أخذ حاجة لیرهنها و هو دون البلوغ، أو دون خمس عشرة سنة لا یقبلها منه المرتهن، و لکن إذا ذهب إلی دوائی لیشتری سمّا أو مسبتا باعه علی أن بیع السمّ فی فرنسا و مالطة محظور علی أی کان إلا بإذن من الطبیب، فکأن العجماوات أنفع للدولة من بنی آدم. و ما أری لذلک سببا سوی هذا الأصل الفاسد الذی یعبّرون عنه بقولهم حریة المتجر، أو لزوم السم للفلاحین فی قتل الهوام کما سبق ذکره، إلا أنّ مراعاة الجانب الأقوی فی الأمر الذی یکون منه مفسدة و مصلحة ألزم و أهم.

و هذه الحریة فی المتجر هی التی سهّلت للناس أن یغشّوا کلّ شیء من المأکول و المشروب، و کل ما یصحّ فیه البیع و الشراء، کما سیأتی بیانه.

حتی إن صاحب الذوق السلیم یؤثر المقام فی بلاد الهمج بحیث یذوق شیئا ممّا تنبته الأرض علی حاله، علی أن یمکث بین قوم یعلمون عدد نجوم السماء، و رمل البحار، و هم مع ذلک یأکلون ما یضرّ البهائم فضلا عن البشر. و کلّ شیء جاوز القدر أضر.

أحکامهم

و أقبح من ذلک أنه کثیرا ما یحکم القضاة أو الجوری علی مرتکب القتل بالجنون إعفاء له من القصاص؛ فتذهب الحکمة سدی فی «و لکم فی القصاص حیاة» أو فی القتل أنفی للقتل. و الجوری هم اثنی عشر رجلا یقع علیهم الاختیار، فیجتمعون مع القاضی لفصل الدعاوی، و هم علی قسمین خاص و عام. فالخاص: مؤلّف من الفقهاء، و ذوی الوجاهة لفصل الأمور الخطیرة، و لکلّ منهم لیرة علی کل دعوی.

و العام مؤلّف من أصحاب الدکاکین و الحرف لفصل الدعاوی الحقیرة و لا إیراد لهم. و قیل: إن کلا منهم یأخذ ثلثی شلین بحسب ما تقرّر فی السابق، و من یمتنع

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۱

منهم عن الحضور لزمه غرامة.

و أصل الجوری عرف فی أیام الصکصونیین، و ذلک أنه کان حدث مرّة نزاع بین واحد من الإنکلیز و آخر من أهل والس؛ فعین ستّة نفر من الإنکلیز و ستّة من الوالسیین للنظر فی أمرهما. ثم أثبتت إقامة الجوری فی المجلّة التی یسمونها «مکنا کارتا» کأنها من أعظم

أسباب العدل و الحریة. و للقاضی أن یثبط الجوری عن الأکل و الشرب، و أن یمنعهم النور إلی أن یتواطؤوا علی فصل ما. و قد غرم بعضهم لوجود فاکهة فی جیبه من دون أن یثبت علیه أکلها.

و اتفق مرّة أن بعض المسافرین فی سکة الحدید طلب أرشا فحکم الجوری بأن یعطی ربع بنی، و هو عبارة عن خمسة فلوس، فأنکر علیهم القاضی هذا الحکم، و أعادهم إلی النظر فیه، فعادوا و لم یتّفقوا حتی مضی علیهم أربع و عشرون ساعة لم یطعموا فیها شیئا، ثم خرجوا و هم یتظلّمون من الجوع. قال صاحب التیمس: لیس من العدل أن یترک الإنسان أشغاله و یأتی لسماع ما یحدث بین الرجل و امرأته من التناقر و التهاتر. فقد عرفت أن هؤلاء الذین یأتون لإجراء العدل هم أنفسهم مظلومون، و قد یکون حکمه أیضا علی غیرهم زائغا فقد قرأت فی جرنال التیمس أن امرأة اسمها ألیصابت جان وود علیها طلعة الحشمة و الاعتبار، و علی ذراعها طفل رضیع ادّعی علیها بأنها سرقت شیلینین و نصفا فی إحدی العواجل، فثبت علیها الذنب و حکم علیها بحبس ستة أشهر. و فیه أن امرأة طاعنة فی السن ثبت أنها سرقت ساعة و سلسلة قیمتهما خمس لیرات؛ فحکم علیها بحبس ثلاثة أشهر مع الأعمال الشاقّة.

و إذا کان للمدّعی علیه خصم من أفراد الجوری فله أن یستبدله. فإذا تواطؤوا جمیعا علی الحکم بقتل أحد و دوّنوا ذلک فی صک، قال القاضی للمحکوم علیه:

قد حکم علیک الجوری الذی هم من أهل بلادک بأنک مستوجب للقتل فبموجب شرع هذه المملکة تؤخذ من هنا، و یجعل فی عنقک حبل، و تشنق إلی أن تخرج روحک، ثم تدفن مع أمثالک.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۲

و یوم شنق المقضی علیه یکون فرجة للنساء فیهرعن صباحا من بیوتهن إلی مشاهدته حتی تغصّ بهنّ الطرق، و هو دلیل علی شدّة قلوبهن و جرأتهن.

و قتل القاتل عندهم لا یکون إلا بهذه الصورة. و فی أحوال کثیرة یقوم التغریب مقامه. و إذا أذنب أحد فی فی بلاد الفلاحین حبسه الشرطی إلی أن یمرّ القاضی بذلک الصقع، فیقیم هناک مدّة و ترفع إلیه الدعاوی.

و فی إنکلترة و والس ستّون قاضیا، و نحو ستمائة دار للقضاء، و ثلاث و ثلاثون خزنة أو بیت مال. و قد مرّ فی أول الکتاب عدد القضاة و مرتّبهم، و منع القصاص بالقتل فی بعض الجرائر کان مما أحدثه سر روبرت بیل فی سنة ۱۸۲۴ ثم منع علی أی جریرة کانت، ثم عمل به فی بعض الأحوال. قال الفاضل کولدسمیث: إنه یوجد فی بلادنا من المجرمین المحکوم علیهم فی سنة واحدة أکثر ممّا یوجد فی نصف أوربا، فلا أدری هل سبب ذلک کثرة قوانیننا، أو تعدّی أهل بلادنا؟ و لعلّ ذلک مسبب عنهما معا فإن أحدهما ینتج الآخر.

و فی بعض صحف الأخبار «إنا نری الجرائر الآن قد تکاثرت، و سبب ذلک الدفع بالشبهات، فإن الذین یثبت علیهم القتل، و نقب الدیار یعاقبون بالنفی لا غیر، فإذا انقضت مدّتهم رجعوا شرّا مما کانوا من قبل». علی أن المصروف علی تغریب هولاء المنفیین فی کل سنة نحو أربعة و خمسین ألف لیرة، و عدد أصحاب الجرائر التی دربوا فیها من نحو قتل و سرقة مما یوجب سجنهم علیها نحو ثمانین ألفا و هو أکثر من عدد العساکر، و مصروفهم ضعفا مصروف هؤلاء.

شرع الإنکلیز

و اعلم أن شریعة الإنکلیز هی أطول الشرائع أحکاما و أکثرها قیلا و قالا و أوسع من علم العربیة قلبا و إعلالا، فقد تستمرّ بعض الدعاوی التی تستدعی دهاء الفقهاء و محالهم ربّما یدوم خمسین سنة فأکثر. و قد أنفق مرّة فی دعوی أقیمت علی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۳

رجل اسمه بالمر ۵۳۲، ۷ لیرة، و قد وقع بعض تحریر هذا الکتاب أن أقیمت دعوی علی شاب من الأغنیاء بعدم رشده عن التصرّف فی

أملاکه، فلزم لإثبات ذلک إحضار شهود من الروسیة و غیرها، فکان المصروف علی کلّ ساعة مائة و ستّین لیرة، و بعد أن بلغ ستین ألف لیرة خرج الحکم برشده.

و یمکن تقسیم شرعهم إلی أربعة أقسام:

الأول: ما تناقلوه من أحکام الرومانیین و النرمانـدیین و الصکصونیین الـذین فتحوا بریتانیة، و یدخل فی ذلک أمور من قبیل العادة. و فی الحقیقة فإن جلّ عاداتهم سنّة لهم. فما أجدرهم بأن یکون لهم لفظة توافق الدین عندنا فإنها بمعنی الدیانة و العادة، فأری أن أخلعها علیهم سواء قبلوها أم لا.

الثانی: ما بنی علی العدل و الإنصاف و مراعاة المصالح ممّا لم یرد فیه نص، و لم یجر فیه حکم، فإذا حدث أمر من ذلک أحیل علی محکمة العدل، فیحکم فیه القاضی و الجوری بالرأی بحسبما یترجّح عندهم أنّه الأصلح. و الثالث: أحکام مجلس المشورة و هی غیر متناهیة.

و الرابع أحکام دیوان الکنیسة.

و لیس فی شیء من هذه الأقسام ذکر الطاهر و النجس، و ما یؤکل و ما لا یؤکل.

و علی حیض المرأة و نفاسها، و حدادها، و عدّتها، و ما أشبه ذلک ممّا لا بدّ من ذکره فی کتب الفقه الإسلامیة، و مع ذلک فیمکن أن یقال: إنه لیس أمر من الأمور المتعارفة إلا و هو مقیّد بحکم من هذه الموارد الأربعة، حتی إنّهم یکتبون فی المناصع:

أصلح ثیابک قبل الخروج إشارة إلی أنه لا یزرّر بنطلونه و هو فی الشارع، أو أنهم یکتبون: «لا یلصق هنا أوراق تعریفات» بل أصحاب المطاعم أیضا ینهمون إلی وضع شیء من الأحکام فتجد أحیانا لوحا منصوبا قد کتب فیه: التسلیم عند التسلم، أی نقد الثمن عند وضع الأکل بین یدی الآکل، أو لا یؤذن فی استعمال الذخان هنا و نحو ذلک.

و متیکانت جریرة الجانی صغیرة أجری الحکم علیها فی الحال، و إن کانت بین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۴

حبس إلی أن ینظر فیها، و حینئذ یرخصّ للمذنب فی أن یطلب کفلاء یکفلونه فیخرج من السجن، و یتعاطی أشغاله إلی أن یعاد عند بت الحکم فإن لم یجد کفلاء بقی فی السجن.

و مما یری منکرا من أحکامهم إجازة شهادة الأولاد دون البلوغ، غیر أن القاضی یستحلفهم أولا و ینبههم علی خطر الیمین و الشهادة هذا إذا کان فی الدعاوی الصغیرة، أی التی لا توجب القصاص بالقتل. و الویل ثم الویل لمن وقع فی ید أحد من فقهاء الشرع، فإنهم أدهی خلق الله، و لا یعجزهم أن یصیّروا الظلام نورا، و النور ظلاما، و دونک مثالا واحدا لذلک: و هو أن بعض المتکیّسین الذین یدلّون بجمالهم دون مالهم عشق بنت أحد الأغنیاء، و إذ کان یعلم أن الغنیین للغنیات، و المقلّین للمقلّات خشی أن یخطبها من أبیها فیسفّه و یجبه؛ فتوسّل إلی ذلک بواحد من هؤلاء الدهاة، و وعده بصلة حسنة؛ فقال له: سأتروّی فی أمرک فأتنی غدا. فلما کان الغد أتاه الشاب فقال له الفقیه: أرأیتک لو شاء أحد أن یقطع أنفک، و یعطیک عشرین ألف لیرة أفکنت ترضی قال: کلا، و لو أعطیت ضعفیها. فانطلق الفقیه لساعته إلی أبی البنت و خاطبه فی أن یزوج ابنته من الرجل، فقال له: کیف أصاهره و هو فقیر و لیس له غیر جماله؟

قال: و عنده أیضا جوهرة أعطی فیها بحضرتی عشرین ألف لیرة فأبی أن یبیعها؛ فتغیر الرجل عن إصراره، و ما زال به حتی أغراه بتزویج ابنته. و البارع من هؤلاء الفقهاء لا یباشر دعوی من الدعاوی الخطیرة إلا إذا قبضت کفّه علی ثلاثمائة لیرة.

کتّاب الصکوک

فأمّا کتّاب الصکوک فلما کان جعلهم بحسب السطور کانت عباراتهم مملّة لما فیها من التکرار غایة الإملال، مثال ذلک: باع زید بن

بکر داره الفلانیة لخالد بن عمرو بکذا و کذا بیعا خاصّا مطلقا، و أقرّ زید بن بکر بأنّداره الفلانیة، التی باعها لخالد ابن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۵

عمرو بکذا و کذا، قد انتقلت من ملکه انتقالا مطلقا، و صارت فی حوز خالد بن عمرو، فصارت دار زید بن بکر، و الحالة هذه فی تصرّف و ملک خالد بن عمرو ملکا مطلقا خاصّا.

و یقع کثیرا أیضا فی أحکامهم الدیوانیة مثل هذا التعبیر الآتی: إذا أخذ شخص أو أشخاص شیئا، أو أشیاء من موضع کذا، أو مواضع کذا، وجب القصاص علی ذلک الشخص، أولئک الأشخاص الذین أخذوا ذلک الشیء، أو تلک الأشیاء من ذلک الموضع، أو تلک المواضع. و هذا ضدّ عبارة کتب الفقه الإسلامیة، فإنّها أخصر ما یکون حتی تحتاج إلی شرح و حاشیة و فقیه یفسّرها.

و قد یقع التکرار فی عبارة کتّاب الصکوک فی البلاد الإسلامیة، و هم الذین یتعیّشون من کتابتهم. و لقد تعجّبت کثیرا مرّة من قراءة صکّ کتبه بعض کتّاب المحاکم بتونس، مطلعه: الأجلّ الوجیه الفاضل الموقّر محمد بن الحاج أحمد. قال بترو المالطی النصرانی: إنه أعطاه کذا و کذا، یعنی أنّ المالطی ادّعی علی الأجلّ محمد بکذا، و إنّما فصل هذا الکلام، و جاء بهذا الترکیب السخیف کراهة أن یذکر اسم المالطی قبل محمد، و هو من الهوس الذی یفضی إلی خرم قواعد العربیة. و أکثر أحکام تونس علی هذا المثال من اللحن و الخطأ. و أقول فی الجملة: إنّ عبارة کلّ الفقهاء فیها خروج عن قواعد النحو و اللغة.

نبذة عن کلام الإنکلیز

أمّا کلام الإنکلیز فإنّه لما کان مورده اصطلاح اللغة و عرف التخاطب رأیت من الواجب أن أذکره بالتفصیل فی فصل علی حدة أجعله خاتمة لهذا الکتاب إن شاء الله تعالی، و إنّما أقتصر منه علی نبذة فأقول: إنّ تحیّتهم فی الصباح هی أن یقولوا صباح طیب، و فی المساء مساء طیب، ثم یردفوها بقولهم: هو دو یو دو، و ترجمتها:

کیف تعملون أنتم تعملون. و هو سمة تنبئ عن مزید میلهم و توقانهم إلی العمل، حتی إنه یوجد فی لغتهم نحو عشرة ألفاظ مرادف العمل، و هو أکثر ما عندهم من المترادف. و لا یخاطبون بضمیر المفرد إلا البارئ تعالی، أو فی الشعر، و هو ضربة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۶

لازب عند طائفة من جنسهم یقال لهم: کویکرس، و سیأتی ذکرهم. فأمّا عند الفرنسیین فاستعماله إنّما هو فی مخاطبة الإدلال کأن یکلّم المحب محبوبته، أو الوالد ولده. و تحیّة هؤلاء، بعد صباح الخیر، کیف أنتم تحملون أنفسکم؟ و کلتا التحیّتین لا معنی لهما کما قال فلتیر.

و متی خاطبت أحدا من فلاحی الإنکلیز و هو مصغ إلیک أبدی همهمة عند کلّ جملة، أعنی قوله: هم. فکأنّها عندهم حرف بمعنی نعم، و عند کل فقرة تقضی بالاعتبار، یقول: اه. و إذا هم خاطبوک نفضوا رؤوسهم، و لا یکادون یشیرون بالأیدی کما هو دأب أهل مالطة و إیطالیا، و غیرهم، و لیس للهجتهم مطلقا نغمة مطربة سواء تکلّم بها جاهل، أو عالم، أو ولد أو امرأة، إذ لیس فی کلامهم مدّ و لا حرکات طویلة. و أصوات الرجال من حناجرهم بخلاف اللغة الفرنساویة، فإن فیها غنّة تستحب من الأولاد و الجواری جدّا، و ربّما طرب لها من لیس یعرفها.

و مع أن لغة الإنکلیز من اللغات المستحدثة و لم تشهر إلا و أعقبها التمدن، و طبع الکتب؛ فلکلّ أهل صقع عندهم کلام و لهجة خاصّان بهم فلا یکاد أحدهم یفهم من صاحبه شیئا بمنزلة ما عند أهل الشام و المغاربة من الفرق. و من عادة النساء إذا کلّمن أحدا من الخاصّة أن ینحنین له عند کلّ سؤال و جواب، و عادة الغلمان أن یضعوا أیدیهم علی رؤوسهم، و کذا هی عادة الخادم مع مخدومه عند کلّ سؤال و جواب، حتی القسیسون أیضا یرتاحون لهذه الدغدغة، و إذا خاطبوا أحدا بکلام توبیخ و غیظ قالوا له سر، و هی بمعنی سیّد، حتی إنهم یقولونها عند طردهم کلبا و نحوه، فیقولون مثلا: اخسأ یا سیّد، و قد یستعملونها أیضا لتعظیم المخاطب و

إجلالـه. و من الغریب فی هـذه اللفظـة أنّها بالفارسـیة بمعنی رئیس، و وافقها أیضا فی العربیـة لفظـة السـریّ! فلا أدری أیّ اللغات هی الأصل لها.

و الرجل یقول عن زوجته: معلمتی و المرأة تقول عنه: معلمی، و إذا خاطب زوجته أحـد من الخاصّـة بلفظة مدام کان ذلک إشارة إلی تنافرهما، فخطاب الرضـی إنّما هو أن یقول لها: یا محبتی أو عزیزتی. و ربّما قالوا: یا قلبی، و لا یکادون یفهمون یا روحی و یا عینی. و یکثرون من ذکر الشـیطان فی حـالتی التعجّب و الاسـتفهام، فیقولون أین الشـیطان کنت، و یضـیفون لفظـة مـان بمعنی الرجل إلی کلّ شیء، فیقولون

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۷

للسقاء: و اطرمان أی رجل الماء، و لحامل الرسائل بوسط مان و هلم جرا.

عادتهم فی المکاتبة

و من عادتهم فی المکاتبـة إذا أراد أحد من الأعیان أن یکتب إلی شـخص یجهله أن یقول: فلان یسـلّم علی فلان، و یسأله عن کذا، و فی المرّة الثانیة یکتب له سر، و فی الثالثة أو الرابعة دیر سر، أی سیّدی العزیز، و إذا خرق حجاب الکلفة بینهما کتب له می‌دیر سر، أی سیّدی العزیز، و إذا استحکمت الألفة کتب له عزیزی الخواجا فلان، فإذا طالت کتب عزیزی فلان.

و لهم عادة قبیحـة حین یکتبون أسـماءهم فی آخر الکتاب ممّا عرف بالإمضاء و ذلک أنّهم یکتبونها مثبّجة معماة بحیث لا یقدر أحد علی قراءتهـا إلاّ من مرن علیها، فعلاج ذلک لمن یجهل الاسم أن یقطعه من الرسالـة، و یلصـقه علی ظهر المغلّف، و یرسـله إلیه حتی یبیّنه فی المرّة الثانیـة. و أصـل ذلـک أن من یکتب عنـدهم خطـا حسـنا یزنّ بأنّه معلّم للصبیان، أو کاتب عنـد تاجر. فأمّا من یعش من أملاکه فلا یلزمه ذلک، و یقابله عندنا قبح عادة الذین یمضون أسماءهم و یهملونها عن الإعجام.

و لا أدری ما سبب هذه العادة الذمیمة الموجبة للإبهام و الالتباس، و الظاهر أن منشأها الکبر أیضا، فإن المکاتب یظنّ أنّ اسمه قد بلغ من الشهرة و التنویه بحیث لم یحتج إلی إعجامه، و الدلیل علی ذلک أنّهم یکتبون تحت أسمائهم حرف المیم کنایة عن معروف.

و بما ذکرت لک من اصـطلاح الإنکلیز فی افتتاح رسائلهم عرفت أنّهم لا ینعتون المکتوب إلیه بالأجلّ و الماجـد و الأکرم و المفخم، و غیر ذلـک، إلاّ أنّهم یطیلون غالبـا فی الإمضـاء، فیکتبون أنـا باق یا سیّدی عبـدک الأحقر المطیع فلان. و قـد تکون أحیانا نوعا من التهکّم، و ذلک إذا کان الکتاب مشتملا علی التوبیخ، أو المناقشة. و عادة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۸

العرب بخلاف ذلک، فإنّهم یسـهبون فی افتتاح الرسالـة، و یوجزون فی الإمضاء، فإذا کتب مثلا الداعی فلان، أو عبدکم فلان کفی. و أهل تونس و الغرب یکتبون کاتبه فلان.

عادتهم فی الزیارة و اللقاء

و کما اختلفت عادتنا عادتهم فی المکاتبـة و الخطاب، کذلک اختلفت فی الزیارة و اللقاء، فإنّک إذا دخلت علی أحد من أهل العربیة احتفی بک غایـة الاحتفاء، و إن لم یکن بینکما صـلة أو معرفـة. و عنـد الانصـراف لا یزید علی أن یقول لک: فی أمان الله، و ربّما لم یقم لـک. و إذا دخلت علی إفرنجی أراک أنه مشـغول عنـک بمـا هو أهم من الزیارة، و سألک أن تسـرع فی عرض حاجتک، و عند انصرافک من عنده ینهض لک و یرافقک إلی الباب. و عند الفرنسیس لا بدّ من أن یکلّمک هناک کلاما یوجب وقوفکما و لو دقیقة إشارة إلی أنّه لم یمل منک. و فی الجملة فلیس من الإفرنج من یصدق علیه إذا طرقه طارق قول الشاعر:

فقلت له أهلا و سهلا و مرحبا رشدت و لم أقعد إلیه أسائله

أو قول الآخر:

سلی الطارق المعتر یا أم مالک إذا ما أتانی بین قدری و مجزری

أیسفر وجهی إنه أول القری و أبذل معروفی له دون منکری

قال النمری: المعروف ههنا القری و الإیناس و ما شاکلهما، و المنکر ههنا أن یسأله عن اسمه و نسبه و بلده و مقصده، و کلّ هذا ممّا یجلب علیه حیاء.

ثم إنّ ما عبت به الإنکلیز من الأخلاق و العادات مبنی علی اعتبار ما وصل إلیهم من الفنون و العلوم، و علی کثرة ما عندهم من الوسائل الجدیرة بأن تصفّی طباعهم عن غلاظة أسلافهم، و تقدم بهم إلی الکمال. فإنّ ما یطبع عندهم من الکتب و صحف

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۱۹

الأخبار، و ما یلقی علیهم فی الملاهی و الملاعب لحریّ بأن یهذب أخشن الأجیال فی أعظم المحامد، فأمّا من لم تصل إلیه هذه الوسائل، و بقی علی الهمجیة و الأمیّة، فأحری أن یرثی لحاله و باله من أن یلام علیها. قال الشاعر المخزومی:

العیب فی الخامل المغمور مغمور و عیب ذی الشرف المذکور مذکور

کفوقة الظفر تخفی من حقارتها و مثلها فی سواد العین مشهور

و قال آخر فی المعنی:

قد تخفض الرجل الرفیع دقیقة فی السهو فیها للوضیع معاذر

فکبائر الرجل الصغیر صغائر و صغائر الرجل الکبیر کبائر

و قال العلامة الخفاجی:

کم من عیوب لفتی عدّها سواه زینا حسن الصّنع

فنکتة الیاقوت مذمومة و هی التی تحمد فی الجذع

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۰

خاتمة و رأی

و ما أنکرته علیهم وافقنی علیه من جال منهم فی بلاد الشرق، و جنح إلی التطبّع بطباع أهلها، فکلّهم یقرّ بأنّ هذه الأحوال التی اتّصف بها عامّة الإنکلیز فی هذا العصر، عصر التأدب و التکیّس شین و أیّ شین، و أنا أختم هذا الإقرار بأن أقول: إنّ عامّة الإنکلیز هم دون عامّة فرنسا أدبا و کیاسة، کما أن علیّة أولئک أفضل من علیّة هؤلاء. و سیعاد ذکر ذلک عند الکلام علی أخلاق الفرنسیس، و أقول أیضا فی الجملة: إنه معما یظن أن دول الإفرنج تبغی تعمیم المعارف لدی جمیع رعایاها فلیس الأمر کما یظن إذ لیس من نفع الدولة، و الکنیسة أن تکون العامّة متکیّسة و متفقّهة، و لا سیّما عامّة فرنسا، فإنّ معارفهم سبب لتخطئة الدولة، و لهذا یقع فیها من التغییر ما لا یقع فی غیرها.

ما یحمد من خصالهم

و یعجبنی من الإنکلیز خلال منها: أنّه لیس عندهم فضول و تکلیف علی الدخیل فیهم، بل لا علی من هو منهم، فلا یزورونه فی غیر وقت الزیارة، و لا یستعیرون منه، و لا یتعرّضون لما یأتیه، فلو رأوه مثلا مضطجعا علی قارعة الطریق لم یسألوه لأی سبب تفعل ذلک؟ بل ربّما حسبوا أن أهل بلاده جمیعا یضطجعون مثله، و أن فی ذلک مصلحة لهم. و إذا زارک أحدهم، و رأی عندک مثلا امرأة أو نساء لم یهمه أن یسألک عن سبب زیارتهنّ، ممّا لا بدّ منه فی بلادنا، و کذا لو رأوک تماشی امرأة فی الطریق، أو تخاصرها فکلّ

منهم مشغول بهمّه، و مهموم بشغله. و إذا رأوا طبقا مغطّی لم یسألوا ما فی هذا الطبق، کما فی الحکایة المشهورة. و یمکن أن یقال: إنّ هذه الخلّة هی صنو لأول خلّة ذکرتها من معاییرهم فی کون کلّ واحد منهم لا یهتمّ إلا بشأنه، و لا غرو أن یکون بعض الخلال ممدوحا من وجه، و مذموما من وجه آخر.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۱

و من ذلک: الجدّ فی المساعی، و عدم الشماتة، و کراهیة العبث الموجب للتنافر و العداوة أو لنکایة الخصم فی الکتابة. و لو کان عندنا برید علی الصفة التی هی عندهم، لکنت تری فی کلّ یوم أهاجی و أحاجی تلقی فی البوسطة، و یبعث بها کما یبعث بالرسائل. نعم إنّ عندهم یوما مخصوصا فی السنة یتراسل فیه المعارف برسائل مزحیة، و لکن من دون أذی و إیجاب تبعة. و من ذلک عدم التهافت علی الحسد، فإذا رأوا عندک مثلا متاعا نفیسا لم یکن عندهم مثله لم ینفسوا علیک فی إحرازه، و لا یقولون: یا لیت کان لنا مثله. و خصلة النفاسة و الحسد قلّما یخلو منها فی بلادنا جسد.

و منها أنّهم یضبّون علی ما بهم، فلا یتظلّمون، و لا یجدّفون أیّ یستقلّون عطاء الله، و لا یقولون لیس لنا، و لیس عندنا، فکلّ واحد منهم یریک أنّه مستغن عنک، و لا تکاد تسمع خادما یطعن فی مخدومه، أو خادمة تعیب مخدومتها، و إن کانا یکابدان عندهما. أمّا فی بلادنا فقلّما تجد خادما راضیا عن سیّده، بل یعتقد أنّه هو أولی بالسیادة، أو أن شرف مخدومه متوقّف علی بقائه عنده.

و من هذا القبیل عدم بخس الناس حقّهم، فإذا نبغ أحد فیهم فی فنّ و صنعة لم یجد من یتصدّی لتجهیله، و تخطئته حتی یوقفه عن تقدّمه و یطفئ جذوة قریحته، و ربّ دوحة نشأت عن فرع. لا بل یجد من ینشطه و ییسر له أسباب العلم، أما فی بلادنا فإذا نبغ أحد فی شیء بادره حسّاده بقولهم: هو مدّع، هو حمار، هو متطفّل.

و من ذلک أنّهم لا یتشبّثون بأعقاب الأقاویل، و لا یأتون النمیمة و الغیبة إلا قلیلا. فإذا سکن ما بینهم غریب و سمعوا عنه ما یکرهونه منه فلا ینقلون إلیه ما سمعوا عنه، بل لا یهمّهم ما قیل فیه، و إنّما یعاملونه بما ظهر لهم من حسن سیرته خلافا للفرنسیس، فإنّهم مثلنا فی التعلّق بقال و قیل، و فی الاستفحاص عن أحوال الجیران، بل أهل البلد. و لمّا کنت فی باریس کنت أتردّد علی الکونت دکرانج ترجمان الدولة؛ لما کان عنده من البشاشة بالغریب و لین الجانب، و کان هو أیضا یتردّد علیّ إذا لزمه ترجمة أو إنشاء رسالة بلغتنا، و إذ کنت أکلّمه ذات یوم فی مصلحة لی، قال

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۲

لی: إنّی لیعجبنی حسن تصرّفک فینا، و نزاهة نفسک، و ذلک ممّا یدعونی إلی إجابة سؤالک، غیر أنی أنکر علیک شیئا شاع عنک.

قلت: اذکر لی حتی أتجنّبه.

قال: إنّ الناس یقولون: إنّک قدمت إلینا جاسوسا من رف الإنکلیز، و إذا کان ذلک حقّا فلا یسعنی إسعافک بحاجتک.

قلت: بودّی لو کنت جاسوسا إذن ما کنت لأکلّف أحدا بشیء، فإنّ جاسوس الإنکلیز یستغنی بوظیفته عن أن یتوصّل بأحد إلی نوال أربه.

و لا شکّ فی أن المومأ إلیه سمع عنّی ذلک، فإنّ من طبع الفرنسیس، و لا سیّما شرطة الدیوان، أن یتجسّسوا عن أحوال الغریب بینهم، فإذا علموا أنه یعیش بلا حرفة یتعاطاها حکموا بأنّه إمّا بأن یعیش من رزقه، أو من حیلته، و حیث کانوا یعلمون أنّی لم أکن أتعاطی حرفة، و لست غنیّا ذا عواجل و ولائم استنتجوا من هاتین المقدمتین أنّی جاسوس. و مثل ذلک لا یشغل به أحد من الإنکلیز باله، فغایة ما یرومونه من الغریب أن یحسن تصرّفه، و یقضی دینه، إلا أنّ من یسکن عندهم فی القری یلزمه من باب المجاملة و المخالقة أن یذهب إلی الکنیسة فی یوم الأحد، و أن ینام فیها. فأمّا فی المدن الجامعة فلا یلزمه ذلک، و قد شهر مرّة فی صحف الأخبار أنّ الملکة أهدت إلی بعض الجند منذیلا قد کفّ بکفّ ابنتها، فلم یعبأ بهذا الخبر أحد، و لا ظنّ بها أحد سوءا، و لو شهر أمر مثل هذا فی بلادنا عن أمیرة لبقی شغل الخواطر و الألسن أحقابا.

و من ذلک کلامهم بصوت منخفض و هی صفة تکاد أن تکون من خصوصیات نسائهم. و فی بعض البلاد قد تسمع للنساء زعیقا و زعیقا کأصوات الجن.

و من ذلک حسن الترتیب و التدبیر فی الأشغال و المصالح و التوقیت للعمل فلکلّ شیء عندهم وقت، و لکلّ وقت شغل، فإذا اتفق أن زارهم أحد فی ساعة الشغل لم یتحاشوا أن یقولوا له مثلا: قد أنسنا بک، و لکن علینا قضاء ما لا بدّ منه من المصالح، فلا تؤاخذنا، وزرنا فی یوم کذا، فینصرف عنهم عاذرا لا عاذلا لأنّه هو

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۳

أیضا یعاملهم بمثل ذلک. أمّا عندنا فربّما تعطّلت مصالح الإنسان بکثرة زواره حتی یضطر أخیرا أن یحمل و سادته، و یقول: شفی الله مریضکم.

و هذه الصفة أی حسن الترتیب یظهر أثرها بزیادة من أهل الرئاسة و السیادة و الإدارة منهم، فإنّ رجال الدولة إذا أرادوا أن یباشروا أمرا من الأمور الجسیمة، فإنّما یباشرونه بغایة الإحکام و الضبط بحیث لا یوجب تغییرا ما فی الأحکام، و لا إزعاجا بشیء علی الرعیة، فإذا اضطروا مثلا- فی وقت الحرب إلی تجنید جیوش و تجهیز بوارج، و ذخائر فلا- یکون ذلک موجبا لاضطراب الناس، و تغییر أحوالهم، أو لغلاء الأسعار.

و إذا شاؤوا أن یجعلوا علی الناس ضریبة لسدّ مصاریف الحرب، أحیل ذلک علی مجلس المشورة النائب عن الجمهور، و معلوم أن الإنسان لیهون علیه أن یؤدّی شیئا علی ید نائبه أکثر من أن یؤدّیه علی ید غالبة قاهرة. و فی بعض البلاد إذا شرعت الدولة فی تجهیز العساکر للحرب رأیت جمیع الناس یموجون فی الأراجیف، و یخوضون فی التهاویل، فیظلم إذ ذاک القوی الضعیف، و یأخذ المرء بثأره من خصمه، و تختلّ أسباب التجارة، و یعدم الأمن بین المتعاملین، فتکون غائلة الحرب مشعورا بها فی داخل المملکة أکثر من خارجها. و قد کانت مدّة إقامتی فی هذه البلاد قبل حرب الروس مع الدولة العلیّة العثمانیة، و فی خلالها و بعدها فلم یتبیّن لأحد فرق فی شیء ما أصلا.

مصلحة البرید (البوسطة)

و یلحق بذلک أن تحصیل لوازم المعاش فی الصیف و الشتاء یکون شرعا فلا یتعذّر وجود شیء منها بأحد الموانع، و فی غیر البلاد متی دخل الشتاء، و هطلت الأمطار تعطّلت الطرق، و انقطع المجلوب من المأکول و المشروب، فتری کلّ واحد منجحرا فی بیته إلی أن تتیح له فرصة الخروج، فإذا لم یکن الإنسان قد حاکی النملة بأن اتخذ مؤنته فی داره صیفا هلک جوعا.

و من أعظم ما یؤول إلی تنظیم الأمور ترتیب البوسطة و ضبطها، ففی سنة ۱۸۵۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۴

وضع فی بوسطات لندرة وحدها ۰۰۰، ۰۰۰، ۴۶ مکتوب، و أرسل إلیها من بوسطات الممالک فی سنة واحدة ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۰۰ و لم یسمع إلی الآن أن مکتوبا واحدا منها فقد إذا کان صاحبه موجودا. و سیأتی ذکر ذلک بالتفصیل عند ذکر لندرة و ما فیها، و جعل کل مکتوب إذا أرسلته داخل المملکة نصف قرش، و لا فرق فی قرب المسافة و بعدها. و هذا المبلغ القلیل تشتری به طابعا مصمّغا، و تلصقه علی عنوان الکتاب.

و قد یبعث بهذه الطوابع من بلد آخر فی ضمن الرسائل بدلا من الفلوس، فإذا سمع أحد مثلا بذکر کتاب طبع حدیثا أرسل إلی بائع الکتاب ثمنه من هذه الطوابع، فإنها خفیة خفیفة بخلاف ما إذا أرسل إلیه ثلاثة شلینات مثلا، فإنّها تثقل حجم الرسالة، و لا یخفی أمرها.

و إذا بعث أحد بمکتوب، فلم یجد البرید صاحبها بحث عن المرسل و المرسل إلیه، فإن تعذّرت معرفة هذا ردّه إلی المرسل، و إلا

أبقی فی البوسطة مدّة معلومة ثم یحرق. و إذا شئت أن تبعث بکواغذ مالیة أخبرت صاحب البوسطة بذلک، فیجعل علی ظرف الکتاب طابعا آخر إنذارا للبرید من أن یطمع فیه فیفتحه.

و هناک طریقة أخری و هو أن ترسل هذه الکواغذ أنصافا، أعنی أن تقطعها أنصافا و ترسل فی أول مرّة نصفا، فإذا جاءک علم وصوله أرسلت النصف الآخر، فیلصقهما المبعوث إلیه بالأخری، و ینتفع بهما. و إذا اشتریت من تاجر ما قیمته نصف شلین فقط، و ناولته کاغذا بخمس لیرات، صرفه لک فورا، و ربّما تزید قیمتها فی باریس و غیرها علی قیمة الذهب، و ذلک یدل علی ما لبنک الإنکلیز من المتانة و المکانة.

نقودهم و معاملاتهم

و تقلیل أنواع النقود أی کون النقود تقتصر علی ثلاثة أنواع، أو أربعة من الأسباب المیسرة للمعاملة، بیان ذلک أن للإنکلیز قطعة من الفضة تعرف بالشیلن، ثم أخری قیمتها شلینان، و أخری قیمتها شیلنان و نصف، ثم نصف الشیلن، ثم ربعه، ثم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۵

اللیرة من الذهب، ثم نصفها. فلو کان عندهم قطعة تساوی مثلا شیلنا إلا قرشا، أو قرشین و نصف قرش، أو سدس اللیرة، أو سبعها، أو ثمنها، حصل التغابن، أو التوقف فی الأخذ و العطاء، فیا لیت ذلک کان جاریا فی البلاد المشرقیة.

و کذلک من میسّرات المعاملة کون نقود البلاد الأجنبیة لا یتعامل بها فی البیع و الشراء فی لندرة، و إنّما یمکن صرفها عند بعض الصیارفة، و لا تغیر لأسعار نقودهم قطعا کما یقع فی بعض البلاد، کما لا تغییر لأسعار البیاعات، فإنّک إذا أردت أن تشتری شیئا من عند تاجر لم تجر العادة باستحطاطه من الثمن، و لا سیّما إذا کان المبلغ زهیدا، و بذلک یحصل راحة للبائع و الشاری و نعمت العادة.

عدم التعنّت علی النساء

و من ذلک عدم التعنّت علی النساء فیما لا یکون به مثلبة للعرض، فإذا کان الرجل مثلا غائبا، و جاء منزله فوجد رجلا یحادث زوجته لا یتناولها بالهراوة، أو القذع و یقول لها یا فاجرة یا عاهرة لا یجمعنی و إیّاک مکان من قبل أن یعلم سبب زیارة الرجل، فأمّا إذا عرف منها الخیانة فلا رحمة بعدها و لا إعذار، و إنّما هما خطّتان: إمّا سکّین و إمّا سمّ. و کثیرا ما سمعت زوجة الرجل تقول للضیف بحضرة زوجها خذ یا عزیزی، و هات یا عزیزی.

شیوع الأمن

و من ذلک الأمن فی الخروج لیلا من دون فانوس، و لا باب یقفل علی الساری، و الأمن للمسافر أیضا فی البلاد، فإنّ الإنسان لیسافر فیها لیلا، و هو فی آمن حال، و أصفی بال ممّا لو سافر فی بلادنا نهارا. و تری الولد یمشی فی المدن الکبار وحده لیلا، و لا یخشی شیئا. و لا هیبة لذوی المراتب و المناصب منهم، أو للعسکر و الشرطة عند المارّین بهم. و إنّ البنت التی لم تبلغ عشر سنین لتسعی بعد نصف اللیل، و تمرّ بالشرطة فکأنّها مرّت علی بعض أقاربها فتسألهم و یجاوبونها، و تسترشدهم بغیر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۶

حشمة و لا انقباض، فیرشدونها، و یذهبون معها، و لیس للشرطی حقّ أن یدخل بیت أحد إلا بإذن الدیوان لسبب خطیر، و لا یأخذ غریما محقوقا إلا من الطریق.

و فی البلاد الشرقیة إذا کلّمت المرأة بعض الشرطة أو العسس لیلا لم یلبث أن یمدّ إلیها یده، و یهتک حجابها. و هیهات أن ینتقم منه منتقم. و عندی أن عدم الهیبة و الخوف علی صغر هو الذی یورث جیل الإفرنج جمیعا الإقدام و الجرأة علی الأمور، و الکلام، و

یزیدهم بسطة فی الجسم و العقل، و یبطئ بهم الشیب و الهرم، فإنّ إلقاء الرعب فی قلب الصغیر کلوافح الریاح العاصفة علی الغرس، فمتی تمکّن منه جعله بعد ذلک غیر صالح للمساعی الجلیلة، و ما عدا خوف الحکّام و الظلام و رؤساء الدیانة فی بعض البلاد الشرقیة، فإنّ الأمّهات یزرعن فی قلوب أطفالهن الخوف من العفریت و الروح الشریر و الخیال و الظلام و غیر ذلک، فتثبت العادتان، و لو لا أن أهل الشرق من طبعهم التسلیم للمقدور لما رأیت منهم أحدا تصدق علیه صفة الرجولیة.

و قد صار الآن کتّاب الأخبار فی هذه الدیار یلومون أرباب السیاسة علی قلّة الأمن للماشین لیلا فی طرق لندرة، و سبب ذلک رجوع أولئک المنفیّین کما ذکرنا، إلا أن هذا عارض یرجی زواله. و کذلک فشا اللوم علی خیانة البرید، لعدم تسلیم الرسائل، إلا أنّه أیضا من الأمور الطارئة.

صدقهم فی الوعد

و من ذلک اختصارهم الکلام مع المخاطب إذا اعتمدهم بشیء، فإذا احتاج الصغیر إلی الکبیر فی شیء قال له: إنّی أرجو أن تکون من المحسنین إلیّ بتنویل طلبتی فأکون لک من الشاکرین. فهذا یغنی عن قولنا یا بدر الکمال، و یا بحر النوال، یا من یلتجئ إلیه العافون، و یحجّ إلی کعبة فضله العائذون، و یا من صیته طار فی الآفاق، و ملأ الألسن و الأوراق، و یا من و یا من، فیکون جواب الکبیر له بغیر ملث:

سأبذل جهدی فی مصلحتک، و أخبرک. فهذا یغنی عن قولنا: علی الرأس و العین،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۷

حبّا و کرامة، لا بدّ من ذلک، فإنّ الخیر مشترک، و نفعک من نفعی، و الحال واحد حالة کون النیة غیر منعقدة علی العمل، فأمّا إذا رأی المسؤول نفسه غیر قادر علی إحساب سائله و نفعه قال له مصرّحا: إنّ سؤالک فوق طاقتی؛ فاقصد غیری.

و لکن متی وعد فلا بدّ من إنجاز وعده، فلا محال و لا مطال.

تریثهم فی البت فی الأمور الخطیرة

إلا أنّه لا ینبغی أن تفهم من هذا أن الأمور الخطیرة عندهم تبتّ فی الحال، فإنّ لها من التوقیف و التعیین ما یعیی به صبر المنتظر، إذ لا یبرم عندهم أمر من أول وهلة إلا- أن یستفرغ فیه البحث و التروّی، فعلی قدر ما یهون علیهم ارتجال المقال، یصعب علیهم ارتجال الفعال، حتی إنّ دیوان المشورة لا- یبتّ شیئا إلا بعد استفراغ الکلام فیه، و إنّما المراد أنّهم لا یعدون بما لا نیة لهم علی وفائه کما یحدث فی بلادنا، فیبقی الموعود رهین الأمانی یطعم الملث، و یسقی الوعود، ثم لا- یحصل من بعد ذلک علی شیء، فینتج منه التکذیب من قبل الموعود، و التنکید من قبل الواعد. و فی الجملة فلیس بین الإنکلیز عرقوب، و لا أشعب.

و عندی أنّ هذا الاختصار هو فی أغلب الأحوال أساس للمصالح، و وسیلة للنجاح، فإنّه إذا کان أحد مثلا معطّلا عن الشغل، و طلب وظیفة من أحد الإنکلیز، فإنّه یکتب إلیه کتابا و یذکر له الشروط، فإذا أعجبه ذلک أجابه حالا إلی سؤاله، و إلا قال له لا یمکننی؛ فیسعی الرجل فی تحصیل وسیلة أخری.

الفرق بیننا و بینهم

أمّا عندنا فإذا طلب أحد من مخدوم وظیفة قال له: یا حبّذا لیس غیرک أجدر بها، و لقد طالما بحثت عن رجل مثلک، متّصف بهذه الصفات، و لا سیّما أنّک

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۸

أنصفت فی الطلب، و لکن أمهلنی ریثما أقضی و طرا لی، فیربطه بهذا الوعد، ثم تمضی مدّة و الرجل راکن إلی وعده، فإذا سأله مرّة أخری مطله بحیلة أخری، إلی أن یقول له أخیرا: قد استخدمت غیرک، أو قد استغنیت عنک.

إلاـ أن الإنکلیز غالبا قد فرعوا من هذا الأصل فروعا لا تناسبه منها: أنّهم یعاشرون من یکون له عنده مصلحة شهورا و سنین، فإذا انقطعت أسباب المصلحة انقطعت العشرة، و إذا اشتریت من أحدهم بما قیمته ألف لیرة مثلا دفعة واحدة، فإذا رآک فی غیر حانوته لم یلتفت إلیک، فلا یعرفک إلا فی الدکان.

عودة إلی حمید خصالهم

و من ذلک، أی من الخصال المحمودة، الحرص علی ما یؤتمنون علیه، فإذا سلّمت لأحدهم مثلا طرسا فإنّه یصونه عنده بمنزلة طرس نفسه، حتی إذا استرجعته بعد سنین أعاده علیک کما تسلّمه، بل ربّما أزال عنه الوسخ وردّه إلیک نظیفا، و قال لک: و هو معتذر قد تجاسرت علی أن أزلت الطبع عن الطرس، و أرجو أنّی لم أسیئ فیما فعلت، و قس علی هذا سائر ما تأتمنهم علیه. و ینضمّ إلی ذلک احترامهم للرسائل، فلا یفتح أحدهم کتابا جاءه باسم غیره، بل یبذل جهده فی إیصاله إلیه، و إذا زارک منهم زائر، فلا یمدّ یده و لا طرفه إلی ما بین یدیک من الصحف، فإذا أراد أن ینظر فی کتاب لم یلمسه إلا بعد أن یستأذنک. و فی بلادنا إذا أعرت أحدا کتابا أعاره هو إلی آخر، و الآخر إلی آخر و هلم جرّا، فربّما لم یعد إلیک منه عین و لا أثر، بل یری نفسه أولی به، و إن لم یستفد منه إمّا لعدم قدرته علی فهمه أو لکثرة أشغاله، بل القسیسون أیضا لا یتورّعون من هذا. و إذا شرّفک بزیارته فأوّل ما یطمح نظر فإنما هو إلی أوراقک، و حالا یمدّ یده، و یخطف منها ما شاء، فکأنما هو جاسوس جاءک لیطّلع علی أسرارک لا لیأنس بحدیثک.

و من ذلک أن أصحاب المراتب عندهم لا یقبلون المصانعة و الرشوة من أحد لتنویل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۲۹

أربه، و إن علم أنه ارتکب ذلک اقتصّ منه کما یقتصّ من السارق، و لم ینفعه أن یؤدّی الرشوة التی أخذها مضاعفة. نعم إن المراتب هنا إنّما تعطی غالبا بالمحاباة و الاستحباب لا بالاستحقاق و الاستیجاب، فإنّ الأمیر إذا نوّه بشخص من أقاربه، أو معارفه عند ذی مرتبة و سیادة، نفذت کلمته عنده، و لو أنّ شخصا متّصفا بأحسن الأخلاق و متحلّیا بالعلم و الفضل حاول بنفسه أن ینال تلک المرتبة لم یلتفت إلیه، إلا أنّ هذا الداء عام فی جمیع الممالک.

و یلحق بما تقدّم من تفضیل الاستحباب علی الاستیجاب أنّ النفر من العسکر لا یمکن أن یرتقی إلی مرتبة ضابط، و إن ارتقی ألف حصن للعدو، و أبدی من الشجاعة و البراعة ما یقصّر عنه قائد الجیش، فهو نفر من یوم اکتتابه إلی یوم خروجه من الخدمة و الحیاة، و بعد أن یقضی خمسا و عشرین سنة فی الخدمة یعفی منها، و یعیّن له نحو أربعة قروش فی الیوم. و الأمیر أمیر من یوم ینزل من ظهر أبیه إلی یوم یرکب ظهر النعش، ثم یدوم ذکره کذلک إلی أبد الآبدین، فکأنّ ترتیب أصناف الناس عندهم بمنزلة ترتیب أعضاء الجسد، بمعنی أنّ لکلّ عضو خاصّیّة و وظیفة لا یتعدّاها و لا تتعدّاه، فالرأس لا یزال رأسا و إن سری فیه الخرف و الفند، و العور، و الصمم و الدرد، و القدم لا تزال قدما و إن هی أنجته، و أنجت الجسم کله.

و هذا التخصیص من وجه آخر سدید رشید، فإنّ ناظر الأمور الخارجیة عندهم مثلا لیس له حقّ فی أن یدمق علی ناظر الأمور الداخلیة فی شیء، و ناظر مجلس المشورة لیس له جدارة بأن یحکم علی أحد الباعة بشیء من محراب صرحه. و قس علی ذلک، فأمّا فی بلادنا حرسها الله فإنّ ناظر المدابغ جدیر بأن ینظر فی جلود بنی آدم، و یصبغها بلون الدرة و السوط، أو یسبر ما هی علیه من الطراوة و النعومة. و المحتسب خلیق بأن یزن أعمال عباد الله و أموالهم فی بیوتهم و یروز ما فی عباب صدورهم من الخواطر و الأفکار، و للحاکم، أو للمطران أن یسقط حقّ المحق

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۰

لحرف أسقطه فی الکلام، و للضابط أن یبیت الناس فی مضاجعهم، و للشرطی أن یقبض علی أیّ شخص کان، و لضابط العسکر أن یخترط سیفه علی أیّ عنق سنحت له، و للبطرک أن یحرم أی شخص کان من رعیته، حتی لا یعود لأحد من أقاربه و أهل بیته استطاعة علی مخاطبته و مبایعته، و إلی من المشتکی و أین النصیر، و أین المجیر؟ فیا لیت شعری متی نصیر نحن ولد آدم بشرا کهؤلاء البشر، و متی نعرف الحقوق الواجبة لنا و علینا؟ أ نخال أن معنی التمدن هو أن یکون الناس فی مدینة و فیها ذئاب و سباع، کلا، ثم کلّا جیر أن اجتماع الذئب و الخروف فی مرعی واحد لیوجب علی الیهود أن یؤمنوا بأن المسیح قد جاء.

و من ذلک تنشیط أولادهم إلی الأشغال و تمرینهم علی ما یکسبهم و إیّاهم الرزق الکافی و المواظبة علی الأعمال، و الصبر علی ما یتعاطونه جلّ أو حقر، فإنّهم لا یملّون من السعی، و لا یرون فی الکسل راحة، و لا یقول أحدهم: إنی کبرت عن تعلّم شیء، فلا یزالون دائبین کالنمل ما دامت فیهم نسمة تحرک، و مع کل هذا التجلّد و التحمّل فمتی ضیم أحدهم، أو سقط شرفه أو مال نجمه، فأهون شیء علیه نحر عنقه. و ذلک عندی من جملة الأفعال المتناقضة فی الطبع البشری، و جلّ سعیهم فی شبابهم إنّما هو لتحصیل ما یهنئهم فی شیخوختهم حتی یمکن لهم تربیة أولادهم، فلا یحتاجون إلی التکفّف، أو إلی ملازمة المستشفیات و الملاجئ المعدّة للعاجزین، و کلّ منهم یعمل بقول الشاعر:

قلیل المال تصلحه فینمی و لا یبقی الکثیر علی الفساد

فأما قول عروة بن أذینة:

لقد علمت و ما الإسراف من خلقی أن الذی هو رزقی سوف یأتینی

أسعی له فیعنّینی تطلّبه و إن أقمت أتانی لا یعنّینی

فإنه یعدّ عندهم من الأمانی الفارغة الباعثة علی التوانی، غیر أن حب التناهی غلظ، فإنّ تعلیق العبد توفیقه و نجاحه بالکلیة علی سعیه و کدّه لا یخلو من ازدراء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۱

بعنایة المولی، و فیه من وجه آخر تقسیة للقلب، فإن الإنسان و الحالة هذه یهون علیه أن یفارق وطنه و سکنه لأجل المال. و هذا الداء فاش أیضا عند المثرین و الموسرین هنا، إذ الغنی منهم قد یکون له ابن وحید، فیبعثه إلی الهند أو غیرها طلبا لوظیفة سامیة، و ربّما فجع به بعد قلیل، و هذا یعدّ من وجه أنه ناشئ عن کبر همّة و سمو مطمح، و من وجه لک أن تعدّه من الحرص و الطمع، فوفّق بینهما إن استطعت.

و یلحق بذلک أن الشیخ الفانی منهم إذا أراد مثلا أن یبنی بیتا، أو یأتی أمرا فإنّما یجعل همّه فی تحصیل المنفعة منه فی المستقبل أکثر من الحاضر، و فی غیر البلاد لا یبالی إلا بمنفعة الحال، و لا یکاد یتّجه أمر یرجی منه نفع و صلاح إلا و تجرّدت له جماعة، فتجریه علی وجه مرغوب و نحو مطلوب. و کلّما اخترع أحد شیئا قصد به غالبا إحدی هؤلاء الجماعات إیثارا لهم علی أهل بلاده، لعلمه بأنّهم یعرفون أجرة العامل؛ فیعینونه علی إجراء مرامه بما فیه نفع له و لهم.

ثم إنّه و إن یکن قد غرس فی طبع کلّ إنسان أن یحب وطنه، و یفضله علی غیره، و لا سیّما إذا سافر إلی بلد هو دون بلده فی طیب الهواء، و رغد العیش، و حسن الأحکام إلا أنّ هذه الخلّة تکاد أن تکون من خصوصیات الإنکلیز؛ فإنّهم إیان یتغرّبوا یظلّوا لهجین بذکر بلادهم، و ما فیها من المحاسن و اللذّات. و قد رأیت کثیرا ممّن سافروا منهم إلی بلادنا، و إلی مصر و الغرب، و باریس، و غیرها، فأثنوا علی تلک البلاد بشیء وافق طباعهم منها إلا أنّهم عند ختم الکلام یقولون: لا شیء مثل إنکلترا القدیمة، و إنّما یصفونها بالقدم لعدم تحوّل أحوالها و تغیّر عاداتها، کما أن أهل باریس یقولون: لیس إلا باریس.

و مع ذلک فإنّک لا تزال تری الإنکلیز طوّافین فی جمیع البلاد، و راکبین متنی البحر و البر معا، و لکن لا تکاد تری أحدا منهم یسافر إلی البلاد الأجنبیة لأجل أن یعلّم التصویر، أو الرقص و الغناء، کعادة غیرهم من الإفرنج، و إنّما هو للتجارة. أمّا الأمراء و الأغنیاء فإنّهم

یسافرون للتنزّه، و أحیانا لأجل تخفیف المصاریف، فإنّهم مهما یصرفوا فی غیر بلادهم فلن یبلغ ذلک نصف ما یصرفونه و هم فی أوطانهم. وبّ ولیمة عندهم ینفق فیها نحو مائتی لیرة، فتری منهم فی کلّ قصبة من بلاد أوربا ألوفا، و متی رجع الإنکلیزی إلی بلاده أنشد مع الشاعر:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۲

فبشّرت آمالی بملک هو الوری و دار هی الدنیا و یوم هو الدهر

و لا شیء یعجبهم مثل أن تمدح بلادهم و عاداتهم.

من طبع الإنکلیز

هذا و إنّ من طبع الناس عموما إذا احتاجوا إلیک أن یعزّوک، و یحتفوا بک و یروک أهلا لکلّ مکرمة، و إذا أنت احتجت إلیهم استخفّوک و رأوا فیک العجز و الذلّ، إلا أنّ هذه الخصلة غالبة علی الإنکلیز جملة و تفصیلا، فمن رام أن یکرم نفسه عندهم فلیظهر لهم أنه مستغن عنهم، و لا- یعرض لهم فی طلب شیء و لا- فی استعارته، و بناء علی ذلک یصاحبون من یصاحبون أیاما و شهورا و سنین، و لا- یسألونه عن مقدار دخله و خرجه، و لا- یریدون أن یسمعوا ذلک منه إذا ذکره. و متی حللت هذه العقدة انقطع الحبل، فذلک عندهم من السرّ الذی لا ینبغی إفشاؤه إلا عند الضرورة المقتضیة له، و کذلک لا یسألونه عن معتقده و مذهبه. و عندنا من تعرّف أحد بذی مقام فأوّل ما یشنّف سمعه به من المسائل قوله له: من أیّ ملّة أنت؟ فإذا لم یکن المسؤول علی ملّة السائل سقط من عینه الشریفة، أو بقی فیها کالقذی إن بقی محتاجا إلی عشرته، فأمّا مسائل الإخوان و العشراء، فأوّلها کم دخلک؟ و ثانیها کم خرجک؟ و ثالثها کم مرّة تعترف فی السنة؟ و رابعها هل تأکل البیض یومی الأربعاء و الجمعة؟ إلی آخره.

و من طبع الإنکلیز أنّه متی وثق أحدهم بإنسان، و عرف منه الجدّ و الاستقامة و الأمانة یأتمنه علی زوجته و بناته فیذهبن معه لیلا و نهارا بلا مانع، و من یحضر إلی بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به و عدّوه منهم، و صمّوا آذانهم بعد ذلک عن سماع ما یقال فیه من الذم، و لکن بشرط المحافظة علی ذلک الأصل، و هو إظهار التشیّع و الاستغناء، فأمّا إذا کان ذا بسطة فی الجسم و مسحة جمال فی الوجه فلا یعود یشینه شائن و لا یزحزحه قادح و طاعن، و متی دخل تحت حمایة أمیر منهم فقد دخل فی ذمّة السموءل، و فی حمی کلیب فهو یحامی عنه بکل ما أطاق، فهذا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۳

الدأب من جهة یعدّ من المناقب، و من جهة أخری لا یخلو من الذم، فإنّ المعتقد بصدق الموصی به ثقة بالموصی و عدم تغییر اعتقاده فیه و إن سمع عنه ما یشینه یترجم بفعله هذا و إصراره عن عصمته و محالیة طروء الغش علیه فیما قرّر علیه رأیه و وطّن نفسه، حتی لا یحتاج بعدها إلی ناصح ینصحه و منبّه یرشده، فاسترسل فی هواه إلی ما یعرّضه لطعن العائبین، و نقد المنکرین، و اللبیب من لا یرکن إلی هواه و لا یثق بثقته، بل یشکّ فی نفسه و یستریبها حتی یؤدّیه الشکّ إلی الیقین.

إمکان خداعهم

و بعد؛ فهب أن ذلک الشخص الموصی به کان جدیرا بالمراعاة و الإجارة، و هو فی بلاده، أو أول دخوله بلاد الإنکلیز فقد یحتمل أنه عند مشاهدته هؤلاء القوم علی هذه الأحوال التی لم تکن تخطر له ببال قط تتغیّر أخلاقه، و یتلبّس بصفات لا تشاکله، فقد عرفت کثیرا ممّن قدم إلیهم من البلاد الشرقیة و علیهم سمت الاستقامة، و سمة النزاهة فلمّا رؤوهم علی هذه الحال من التشوّف إلی معرفة بلادهم، و من ائتمانهم الغرباء علی بناتهم، و إکرامهم لهم لأجل الوصیة التی قدموا بها اتّخذوا لهم ریشا غیر الذی جاؤوا به، و انتحلوا لأنفسهم صفات و مآثر لم یکونوا یحلمون بها من قبل قط، فبعضهم قام فی الناس خطیبا یحکی ما علمه من أحوال بلاده، و بعضهم طمح إلی

أن يتزوّج فيهم من يكون عندها من المال ما يشترى به أملاك أهل بلدته أو قريته، و بعضهم أخذ فى التأليف و حشر نفسه فى زمرة علمائهم، و كلّهم ظنّ أنّ الإنكليز طعمة للملتهم، و لقمة للملتقم.

و أول ما يخطر ببال الدخيل فيهم إذا كان عزبا، إنّما هو أن يتزوّج إحدى بنات الأعيان أو الأغنياء ليستغنى برزقها عن الهمّ و النصب و التفكّر فى المنقلب. و فى الحقيقة فقد صدق فيهم مؤلف حاجى بابا، و هو أن الإنكليز إذا تعرّفوا بغريب فلا بدّ من أن يرفعوا من قدره لئلا يلحقهم من تعارفهم به وصمة تشينهم، فربّما انتحلوا له لقب أمير، أو سيّد، حتى يتوهّم الرجل أنّه فى الواقع كذلك.

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۴

عودة إلى طباعهم

و من طبع الإنكليز و لا سيّما كبراؤهم أن ينفروا من الرخيص، و إن يكن نفيسا، و أن يتهافتوا على الغالى و إن يكن خسيسا، و على ذلك يحكى أن رجلين كانا يتحدّثان فى هذا المعنى، فقال أحدهما لصاحبه: ألا إنى فاعل بهؤلاء القوم أمرا يسخر منه كلّ من يسمع به، ثم عمد إلى كيس و جعل فيه دنانير من ذهبهم، و قعد على قارعة الطريق، و جعل ينادى من أعطانى شلينا أعطيته دينارا من هذه الدنانير بدلا منه، فجعل المارون يتضاحكون منه و يقولون: لعمر الله ما قصد بذلك إلا غبن الناس، فطفق يصرخ بأعلى صوته و يقول: يا أيّها الناس هاؤكم الذهب بدل الفضّة، و عليكم بالنقاد فلم يكترث له أحد.

و أعرف بعض الجهلة كان يقرأ النحو على رجل من ذوى القناعة و النزاهة، ثم يعلم جماعة من أعيانهم، و يتقاضى كلا منهم على تعليم ساعة واحدة نصف ليرة، فكان الناس يهرعون إليه، و يعرضون عن معلّمه لأنّه كان يتقاضاهم ربع هذا المبلغ تذمّما و تروّعا. و إذا كان أحد مثلا متوظّفا فى وظيفة سنية، و قصدوه أن يقضى لهم أمرا أعطوه أضعاف ما يعطونه لمن ليس له شغل إلا قضاء تلك الحاجة بعينها.

و من كان معاشه من حرفة له، و إن تكن تلك الحرفة عقلية لا يدوية، لم يكن له مقام من لا حرفة له سوى الخرق و البطالة، و على هذا قال الفاضل كولد سميث: إن الناس من شأنهم أن يستخفّوا بالمعارف التى يتعيّش منها، و قد يتّفق مثلا أن يكون طبيب نطاسى، و آخر متطبب، فإذا كان لهذا عاجلة و دار رحيبة و خدم أقبلت عليه جميع الأمراء و العظماء، و أدبروا عن ذلك لكونه ممّن يمشى على رجليه ما لم يؤلّف كتابا و يظهر فيه براعته، فكم من ملكات جليلة تبقى فى زوايا الخمول بسبب هذا الترجيح الزائغ. نعم إن زيادة شلين واحد فى ثمن المتاع عندهم يوجب فرقا عظيما، إلا أنه ليس من العدل أن تقاس الناس بالبياعات، فكم من عالم عاقل و ليس عنده كتاب، و جاهل غبى ولديه أضابير كتب نفيسة؟.

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۵

الفرق بين عامّتهم و خاصّتهم

و من طبع الخاصّة منهم أن يتجنّبوا معاشرة العامّة ما أمكن، و لذلك سببان:

أحدهما، و هو المشهور عند الناس عظم الفرق الحاصل بين الفريقين فى الأطوار، و الأخلاق، فإن العامّة فى هذه البلاد ليس لهمحظ من الكياسة كما عرفت ممّا مرّ بك، و لا تكاد خلائقهم و عاداتهم ترضى أحدا من البشر ممّن كان ذا ذوق سليم و طبع مستقيم، فالأوباشية ظاهرة عليهم فى كلامهم، و حركاتهم، و تخيّرهم للألوان، و فى تصرّفهم و غنائهم و ضحكهم. و معلوم أنّه من يكون قد قرأ و درى يستنكف من مخالطة أمثال هؤلاء، و السبب الثانى، و هو ما خطر لى أن أصل عليّة الناس هنا من أجيال مختلفة، فإنّ الذين فتحوا هذه الجزيرة كانوا من فرنسا، و شمالى أوربا، و معلوم أن هؤلاء الفاتحين هم الذين استولوا على أرض الجزيرة، و على المراتب و الألقاب الشريفة، و أن الإنكليز القح بقوا بينهم مسودين مرؤوسين، فبقى هذا الفرق فى أعقابهم.

نبذة عن ملوكهم

قال فلتير: إنّه بعد وفاة ألفريد ملك إنكلترا و ذلك سنة ۹۰۰ اختلّت أمور المملكة و تضعضعت أركانها فكان القتال مستمرا بين الصكصونيين، و هم أوّل من غزوا الجزيرة، و بين الدانيزيين، و لمّا كان هؤلاء أعزّ و أقوى من الإنكليز لم يكن لهم بدّ من أن يؤدّوا إليهم ۰۰۰، ۴۸ ليرة لينصرفوا عنهم، و ذلك فی حدود الألف. قال: ثمّ إنّ كانوت ملك الدانيمرك جار فی حكمه على الإنكليز، و بغی و طغی، و فی سنة ۱۰۱۷ أعناهم تحت حكمه، و عاملهم معاملة الأسرى، فكان الدانيزى إذا أمر بالإنكليزى يلجئه إلى الوقوف إلى أن يمر.

فلمّا انقرضت ذريّة المذكور عادت إلى إنكلترا حريتهم، فملكوا عليهم إدوارد الصكصونى، و كان يلقّب بالقدّيس المعترف، و إنما قيل له ذلك لأنه اعتزل زوجته عن كراهة لها، و مات و لم يعقب، و عند وفاته قام الأمير و ليم دوك نورماندى يدّعى بأن له

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۶

حقّ الولاية عليهم مع أنه لم يكن له حقّ بولاية النورماندى إلا أن حقوق الولاية و الملك حينئذ لم تكن فی أوربا كما هی الآن.

و كان من جملة دعواه أنه قال: إنّی لمّا سافرت إلى جزيرة إنكلترا اجتمعت بالملك إدوارد فجعلنی ولی عهده، و إنی أنقذت الملك هرلد من سجنه، فوعدنی أيضا بنقل الملك إلیّ. و لما عرض ما نواه على أهل النورماندى وقع بينهم الخلاف فی شأنه، فمنهم من أبى أن يساعده، و منهم من رأى فی ذلك مصلحة، و من جملة هؤلاء الدوك فتز اسبورن فإنه جهز معه أربعين سفينة، و أمدّه أيضا حموه الكونت فلاندر بمال، و كذلك البابا أعانه، و حرم كل من يمانعه؛ فسافر حتى بلغ ساحل صاسكيس، فلقيه هرلد ملك الإنكليز بالجيوش، و نشبت الحرب بين الفريقين فقتل هرلد و أخواه، و انهزمت الإنكليز أمام وليم، فزحف بالجيش نحو لندرة و هو ناشر علما كان قد باركه له البابا؛ فدخلت الأساقفة فی طاعته، و أقبلت إليه القضاة بالتاج. فلمّا استوى على سرير الملك أذلّ الدانيزيين و أهل الجزيرة و قهرهم أیّ قهر، و أحسن إلى أهل النورماندى الذين أعانوه، و أجرى عليهم أرزاقا، و أقطعهم إقطاعات جمّة فمن ثم كثرت هناك عيال النورمانديين الذين لم تزل أسماء ذراريهم معروفة بين الإنكليز. قال و كان دخل هذا الملك أربعمائة ألف ليرة، و هی تبلغ بحساب قيمة الدراهم فی زماننا هذا خمسة ملايين من ليرات الإنكليز.

قال: ثم إن الملك المشار إليه أبطل ما كان عند الإنكليز من الأحكام و الشرائع، و أقام شريعة النورمانديين مقامها و أجبر أهل الدعاوى على أن يتداعوا بلغة قومه، و كذا كتب الصكوك و الأحكام فبقيت لغته مستعملة إلى عهد إدوارد الثالث. و كانت تلك اللغة فرنساوية مختلطة بالدانيزية بعيدة عن الفصاحة بائنة عن البيان، و كان ممّا سنّه الملك على الإنكليز إطفاء مصابيحهم فی الساعة الثامنة من الليل، و ذلك عند سماعهم صوت الجرس، إلا أن هذه العادة كانت جارية أيضا عند غيرهم من سكان البلاد الشمالية و كان البادئ بها أهل الكنيسة. انتهى.

فقد علمت ممّا تقدّم أنّ عليه الإنكليز هم من الغرباء الذين فتحوا هذه البلاد، فإن قلت: إذا كان الأمر كذلك فما بالهم يخالفون عليّة فرنسا و الدانيمرك فی الطباع، و فی كونهم كما سبقت الإشارة إليه كالزيت لا يختلطون بغيرهم أنفة و تكبّرا؟ قلت:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۷

و ما بال جوّ الإنكليز لا يشبه جوّ فرنسا؟ أفينكر أن للهواء تأثيرا فی الخلق و الخلق معا سواء كان فی الحيوان الناطق، و غير الناطق؟ فلو جئت أيها الهشّ البشّ الطلق المحيّا الباسم الضاحك المقهقه إلى هذه البلاد، و بقيت فيها شهرين أو ثلاثة لا تبصر الشمس إلا من وراء حجاب لأغناك الخبر عن الخبر.

و حيث قد ترفعت الكبراء من الإنكليز عمّن هو دونهم من أهل بلادهم، و صار ذلك دأبا لهم و طبعا يرثه الولد عن والده، و الخلف عن سلفه جروا على ذلك أيضا مع الغرباء ما لم يتبيّن لهم أنهم نظراؤهم فی الهمّة و المعالی، فمتى اعتقدوا ذلك منهم لم يأنفوا من

معاشرتهم. و الحقّ يقال إنه لا مناسبة بين عليّة الإنكليز و سلفتهم بخلاف غيرهم، فإن الأمير عندنا مثلا لا يفضل الناس إلا بإمارته لا بأخلاقه و آدابه و معارفه، إذ جميع الناس فی ذلک متساوون، و أيضا فحيث كانت ألقاب الشرف عند الإنكليز قديمة و عزيزة كان لها عندهم إجلال و تعظيم يفوق الحدّ، حتى إن إعظام اللقب عندهم أعظم من إعظام الملقب به، فإنّ الشريف إذا مشى مثلا فی الشوارع مع عامّة الناس لم يكترث له أحد، و لم يقم له قاعد و قد يسوغ الطعن فيه و التنديد بمعايبه، و لكن لا يسوغ الازدراء بمنصبه و جلائه لا بالنطق و لا بالكتابة.

و ما أحد من الإنكليز ينكر أنه بمجرّد اتصاف الإنسان بجلاء يجب له التعظيم و التكريم، و من أعظم شاهد على ذلک نصب ضابط البلد، فإنه قد يكون من أهل الحرف و الصنائع، فمتى حصل على هذا الجلاء صار مساويا للأشراف و السادات، حتى إن سائر الوزراء و الأمراء يأكلون عنده و يجالسونه و ما ذلک إلا لمراعاة جلائه، و متى عزل رجع إلى حاله و لم يأكل معه أحد منهم، و لو جاء بالمن و السلوى. و الكلام على كيفية نصبه و عزله سنذكره فی وصف لندرة إن شاء الله تعالى.

و ما أحد يرتقی هنا درجة سامية عن ضعة إلا هذا الضابط، فأمّا الوزراء و رجال الدولة فكلّهم متأصّلون فی المجد، فلا يصحّ عندهم أن تبتذل المراتب العالية فيقلّدها صبيّ حلاق، أو خادم جزّار. و الشاهد الثانی أن بعض أهل بلادنا و غيرها يقدم عليهم و عليه برذعة لقب، فيكرمونه غاية الإكرام و يبوّئونه مبوّأ أسنى، و مقاما أعلى و هو مع ذلک لا يدرى أن يفوه بمدحهم و لا بهجوهم. أما الفرنسيس فإنّهم إنّما يكرمون اللقب إذا كان جديرا بالملقب، و من كان ذا معارف و أخلاق حميدة عندهم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۸

أغناه ذلک عن حلس الجاء. و لا شكّ أن الفضل بغير جلاء خير من الجلاء بغير فضل.

و قد كنت ترجمت نبذة من لغتنا و بعض محاورة لأجل أن يطبعها بعض الورّاقين بلندرة، فلما انتهى طبعها كتب فی صفحة العنوان أنها من تأليف فلان مدرّس اللغة العربية بمالطة سابقا، و مترجم جميع أسفار التوراة و الإنجيل، و مؤلّف كتاب الفارياق إلى آخره. فقلت له ما الموجب إلى ذلک كلّه فقال: إنّ الإنسان هنا إنّما يعتبر بألقابه لا بأتعابه، و خلوا من تعديد الألقاب لا يباع كتاب.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة؛ ص۲۳۸

لكلّ عيلة شريفة من هؤلاء الرؤوس لباس مخصوص لخدمتهم و خدمتهم، و لهم أيضا لهجة مخصوصة فيه لجلجة فی الكلام، أو كما يقال رخاوة حنک، حتى إن اللاعبين فی الملاهی يحاكونهم بها و يسخرون منهم، و لهم أيضا تنطّس زائد فی مراعاة جانب العرض، فإنّهم لا يقبلون فی مجالسهم من علم أنه عائش مع امرأة على وجه المتعة أو السفاح. و عند الفرنسيس لا حرج فيه، و كذلک لهم تشدّد فی الصدق، فإنّهم إذا عرفوا من أحد الكذب و لو مرّة واحدة سقط اعتباره من أعينهم، و مع ذلک فهم أكثر الناس عرضة للتدجيل و الخداع.

معاشرة عليّة الإنكليز لأزواجهم

و منها أن معاشرتهم لأزواجهم أشبه بمعاشرة الأجانب، فلا يأنس أحد بشیء من الدالّة بينهما. فبينهما من التحشّم و التكلّف ما بين الغريب و أحدهما و لا يقول السائد عن امرأته زوجتی قالت، أو قرينتی، بل يقول: قالت الست. و لا يفتح رسائلها التی ترد باسمها و لا يتطالل إلى معرفة أحوالها. و إذا أتاها زائر رجلا كان أو امرأة جلس معها من دون حضور زوجها، و إذا كانت فی حجرتها لم يدخل عليها إلا بعد أن يقرع الباب، و متى أرادت الخروج فلا تستأذنه، و إنّما تشعره به إشعارا، و لها أن تستخدم من شاءت، و أن تذهب إلىالملاهی مع معارفها سواء كان زوجها صحيحا أو عليلا فی الفراش. و إذا زارهم أحد من معارفهم أو أصحابهم يأتمنونه على بناتهم و نسائهم فيخرج معهن ليلا و نهارا، و الغالب أن يكون خرجهما أولا إلى الكنيسة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۳۹

لیفتح لها کتاب الصلوات و الإنجیل، و التوراة و هو من أعظم التأدب عندهم، ثم یعقبه الخروج إلی الملاهی لیفتح لها باب المخدع الذی تجلس فیه، ثم إلی المنتزه لیفتح لها باب الطریق أو باب العاجلة، و هکذا تتوالی الفتوح.

موقف الفرنسیین من نسائهم

و لیست هذه العادة عند الفرنسیس فإنهم لا یأتمنون علی إناثهم ذکرا، و قلما تخرج البنت هناک وحدها، أو ترکب الخیل و تسابق الرجال کما تفعل مخدرات الإنکلیز، و لعلّ ذلک هو بعض الأسباب الذی من أجله تراهن مموشقات مهفهفات، فقلّ أن تری فیهنّ بادنة هذا ما عدا کشف صدورهن فی الولائم و رقودهن فی النهار دون اللیل الذی جعله الله سکنا و راحة للبدن، و إذا تزوج رجل امرأة و کان علیها دین قبل الزواج وجب علی الرجل أداؤه و إنّما یکون ولیّ مالها و ملکها.

ولایة الرجل علی المرأة

و اعلم أن الرجل فی عرف الشرع هنا هو ولیّ أمر المرأة فلا- یسوغ لها أن تبرم أمرا خطیرا من دون إجازته إلا- أنّ عرف العادة و الاستعمال یوجب للمرأة کثیرا من الحقوق و الإمرة علی الرجال، فإنّ إخضاع النساء فی کلّ مکان و زمان أمر صعب، و لا سیّما فی المدن الکبار التی یباح لهن فیها الخروج و الزیارات، فلا یسع الزوج إلا المیاسرة و الملاینة لامرأته.

عادة نساء الکبراء فی السلام

و عادة نساء الکبراء هنا عند السلام أوّل مرّة أن لا یسلّمن بالید، بل بإشارة من الرأس، و فی المرّة الثانیة بمسّ الأنامل فقط، و فی الثالثة بنصف الأصابع و هلم جرا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۰

زیارة العلیة و شروطها

و ینبغی لمن أکرمه الله عزّ و جلّ بزیارة أحد هؤلاء الأمجاد و الماجدات ألا یذهب إلا فی وقت الزیارة المعلوم و هو بعد الضحی، و أن یکون مجملا باللباس الفاخر، نظیف الثیاب حالقا شاربیه مرجّلا شعر رأسه باردا أظافیره، ماسحا نعلیه، ساترا کفّیه بجلد أبیض. فإن قولنا: المرء بأصغریه، و لا تکلمک العباءة و إنما یکلمک صاحبها، و ربّ حرّ ثوبه خلق، لا محل له من الإعراب عندهم. و ینبغی أیضا أن لا یحدق فیما یراه من المتاع و الأثاث و لا یمسّه بإصبعه فإنّ کلّ ما یکون بالمجلس حرم، و لا یبتدر الرجل بالخطاب، و لا یکن سائلا- فإذا کلّمه مولی الدار ثلاث کلمات أجاب بثلاث، و إن زاد فلیزد، و لا یلزّه فی الجلوس، و إن مسّ کوعه فصلاة الاستغفار، و ینبدب المشی علی البساط قورا. و من العیب أن یذکر الإنسان بحضرتهن اسم رجله أو ساقه أو ظهره، و أقبح من کل قبیح أن یقول: بطنی، حتی إن لفظة البطن بلغتهم مستهجنة، و مثله الفخذ حتی من الحیوان، و فی بعض البلاد قد تقول المرأة إذا دعوتها للأکل بطنی ملآن و لا تستحی. و لا یحکّ بحضرتهن موضعا من جسمه، و یفرض أن لا یبصق، و لا یسعل، و لا یمخط، و لا یفنخر، و لا یتجشأ و العیاذ بالله و ینبدب أن لا یتنحنح، و یجب أن لا یشم منه رائحة الدخان، و أعرف سیّدة کانت إذا شمّت رائحته فی ثیاب زوجها سواء کان منه أو من غیره أجبرته علی نزعها.

و قد کان دعانی بعضهم إلی أن أزوره، و أمکث عنده أیّاما لیسمع منّی لفظ العربیة، و قال لی: قد جئتک من مکان سحیق قصد أن تنزل عندی و لک علی کل ما یرضیک.

فقلت له لکن ینبغی أن تعلم أنی أتعاطی الدخان، و أن نساء الإنکلیز لا یسمحن به.

فقال: إنّ حول الدار بستانا، فمتی أردت أن تدخّن تمضی إلیه.

فقلت فی نفسی: هذا أول المباحث علی العنت.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۱

ثم قلت له: إذا طلبته فی اللیل فهل أقوم من الفراش و أحمل اللحاف إلی البستان؟ قال بل تدخّن فی حجرتک.

فأجبته إلی ذلک و سافرنا معا، فلمّا بلغنا منزله سلّمت علی زوجته، فکان أول ما خاطبتنی به أن قالت: طب نفسا من جهة تعاطی الدخان، فإننا ننظف الحجرة منه کلّ یوم، فاستدللت من ذلک أنه کتب لها قبل سفرنا فی هذا الأمر الجلل.

و إذا زارهم أحد أوّل مرّة و لم یکن من معارفهم فلا بدّ أن یعطی الحاجب تذکرة مکتوبة باسمه فیناولها الخادم سیّده فی صحیفة من الفضّة أو البلّور، و لا یکاد یدخل علیهم زائران فی وقت واحد، و قد یکون عند البواب دفتر یکتب فیه أسماء الزائرین فی کل یوم. و فی الجملة فإنّ معاشرة هؤلاء الرؤوس تتعب الرأس و الرجل معا و تضیع کثیرا من الوقت و المال، و ربّما دعاک أحدهم إلی غداء فقام علیک ذلک الغداء ثمن عشرة أغدیة.

مما یحمد نبلائهم

و مما یحمد من هؤلاء النبلاء أنهم لا یضعون فی أردیتهم سمات الشرف، و یطوفون به ی الطرق تهویلا علی العامة کما تفعل نبلاء فرنسا، و إنما یتحلون بها فی أوقات معلومة، و کذلک الخواتین لا یتحلین بالحلی و الجواهر إلا فی الولائم و السهریات و نحو ذلک. و من ذلک خطابهم خدمتهم بالرفق و اللین، و إن أظهروا علیهم العجرفة و العنجهیة فالمخدومة تقول لخادمتها إذا أمرتها بأن تناولها شیئا هاتی هذا الشیء إن أعجبک، و بعد أن تأخذه منها تشکرها، و ربما تباخلت علیها فی الأکل و الشرب، و أرضتها بمثل هذا الکلام الطیب فیطیب خاطرها، و مع هذا الرفق و الملاطفة فلا تزال المخدومة متباعدة عن الخادمة و مظهرة لها فرق المقامین و تباین الشأنین فلا تدل علیها بشیء، و إذا غضبت علیها فلا تکلمها بکلام یشف عن سفاهة و خروج عن حد الأدب، کأن تقول لها مثلا یا فاجرة یا بنت الکلب کما تقول نساء بلادنا عند أدنی باعث، أو أن تحرق علیها أسنانها. و العادة عندنا بخلاف ذلک فإن المخدومة تلعن الخادمة و تشحنها بحضرة الناس، ثم تلقمها و تعلفها و تنبسط معها فی الکلام،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۲

و تستعین بها علی تنفیذ هواها و تطلعها علی أسرارها. و یحمد أیضا من عاداتهم أنهم إذا استخدموا شخصا لسنة و أرادوا صرفه لغیر ذنب نبهوه من قبل صرفه بثلاثة أشهر، و عند الفرنسیس ینبهونه من قبل بثمانیة أیام کذا فی غالنیانی، فأما إذا کان مشاهرة فینبهونه قبل صرفه بأسبوع أو أدّوا إلیه أجرة الشهر و صرفوه، و من یستخدم فی المیری أو عند جمعیة و أبلی فی خدمته کان علی ثلج من أن یزاحمه آخر علی محلّه و لو بأجرة أقل، و کل هذه المحامد معدومة فی بلادنا، فإنّ المخدوم یطرد خادمه بلا ذنب و لا مکافأة.

من غریب طباعهم

و لبعض کبراء الإنکلیز طبع غریب لا أدری إلی أیّ شیء أنسبه و هو أنّه إذا باشر لهم أحد عملا لم یخطر بباله أن خدمته له إنّما هی عن حاجة ألجأته إلی إخلاق دیباجته، فیأتی علیه حین من الدهر من غیر أن یسأله: هل أنت محتاج إلی الدراهم، أو لا، و لکن اسمح لی أیّها المخدوم الأعزّ الأغرّ أن أترجم لک عن هذا الطلیانی الذی یعلّمک الألحان، و عن ذلک الفرنساوی الذی یعلّمک الرقص و التصویر، و عن ذلک النمساوی الذی یعلّمک فلسفة اللغات، فإنّی أخشی أن الأول یضیف إلی کلّ کلمة من لغتک حرف علّة، و الثانی ینقص منها الحرف الصحیح، و الثالث یبدل و یقلب، فإنّه یری أن لغتک فرع من لغته فلا یبالی کیف یؤدّی إلیک المعنی، فیشکل علیک فهمه، بل دعنی أکلّمک بلسان عربی مبین حتی یکون کتاب کلّه من نفس واحد، و ما علی صماخک اللطیف الشریف من حروفه الحلقیة من بأس، فأقول: أیّ لذّة تری لمعلّمک منهم فی مجیئه إلیک تحت المطر و الثلج من مسافة ساعة فأکثر

فیحوج إلی أداء شلین جعل الحافلة، و إلی أن یضغط بین القاعدین فیه، ثم بعد أن یخرج منه سالما یمشی ربع ساعة فیوسخ الوحل نعلیه، و تکسر الریح ظلّته، ثم یأتی فیقرع الباب فیخرج خادمک إلیه، و ینظر إلیه کالمستخفّ به إذ یری نعله قد ابتلّت، و ظلّته مفتوحة، فإنه قد نقل عنک بالإسناد أن کلّ من یعیش بیدیه، و یمشی علی رجلیه لا یکون جنتل‌مان أی متخصّصا متّصفا بصفات الخاصّة، ثم یعرض

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۳

علیک ما أقدم الآتی إلیک من دون أن یذکر اسمه، و إنما یذکر صفاته بأن یقول بالباب رجل مبتلّ النعلین مفتوح الظلّة مشعث الرأس، و حینئذ تأمره بأن یأذن له فی الدخول، فأمعن النظر هداک الله یتبیّن لک أن من کانت هذه حالته کان جدیرا بأن یأخذ فی غایة الشهر أجرته و حقّ عرق جبینه، أو قرقرة أمعائه من البرد. لعمری لیس هذا دأب جیرتک الفرنسیس فإنّهم و إن لم یؤدّوا أجرة العامل لهم کما تؤدّیها أنت إلا أنّهم لا یغفلون عنه، فیعرضون علیه ما یلزمه قبل اللزوم، أو عند وقته، و أقبح من ذلک أنّه إذا سأل العامل المعمول له من هؤلاء السادة أجرته انقبض منه و اقشعرّ، و لا سیّما إذا کان المبلغ قلیلا.

و هنا ینبغی أن أذکر أن الناس ما زالوا یروون عن الإنکلیز أنّهم إذا استخدموا مثلا معلّما أو غیره لا یسألونه عن أجرته أولا و إنّما یسألونه أخیرا، و یؤدّونها إلیه کما یطلب، و أنّهم یوفونها أکثر من سائر من عداهم من الإفرنج، و أن العامل إذا اشتغل لهم بشیء ساعة ما من النهار أغناه ذلک عن التعب یوما أو یومین، فینبغی أن تعلم أن الإنکلیز کانوا من قبل اختراع البواخر أنخی و أسخی منهم الآن؛ فإن مجیء الغرباء إلی بلادهم کان إذ ذاک نادرا. فکانوا یحتاجون إلی أن یأخذوا عنهم ما لیس عندهم منه.

و کثیر ممّن قدم إلیهم فی ذلک الوقت مخرق علیهم و لبّس، و رجع غانما، فأمّا الآن فما برحت الغرباء تتوارد إلیهم من کلّ فجّ و صاروا هم أیضا یجولون فی جمیع البلاد و یطّلعون علی أحوالها و یشهرون معلوماتهم فیها فی الکتب، و فی صحف الأخبار، فصاروا لا یخفی عنهم ما یناله الغریب فی بلاده، و أصبحوا یشاطرون و یستحطّون من الطلب، و صار عندهم کثیرون من الغرباء. فربما رضی أحدهم بأن یأخذ علی شغل ساعة شلینا واحدا و ما بین ذهابه و إیابه یضیع ساعة فأکثر.

و هذا الطمع فی الاستغناء من الإنکلیز قد غرّ کثیرا من الناس فاستفزّهم من دیارهم حتی قاسوا فی هذه البلاد من الجهد و العناء ما رضوا به من الغنیمة بالإیاب، حتی إن أهل إرلاند مع قربهم من الإنکلیز و مخالطتهم لهم یترکون بلادهم و یقصدون إحدی مدن الإنکلیز، و عمدتهم تلک الأمانی الفارغة. و یحکی عن أحدهم أنه قدم إلی لندرة علی نیة أن یصیب فیها الحظوة و السعادة و کان فقیرا جدا، فاتفق یوم دخوله

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۴

أن عثر بدینار مرمی فی الطریق فالتقطه و وضعه فی جیبه، ثم لم یلبث أن اعترضه فقیر فأعطاه الذهب، و قال: خذه مبارکا علیک فإنّی لأرجو أن أجد من ضربه کثیرا.

تهکّم الإنکلیز بالإرلندیین

و لأهل إرلاند حکایات کثیرة مضحکة و أقوال متناقضة یرویها عنهم الإنکلیز تهکّما بهم؛ منها أن امرأة قالت لرجل همّ بأن یقعد علی کرسی: لا أقدر أن أستغنی عن إحدی هذه الکراسی الفارغة لأنها جمیعها مشغولة. و سأل رجل منهم رجلا آخر هل رأیت أنحل من هذه المرأة؟ فقال: لعمری لقد رأیت مرّة امرأة لو أنّها جعلت مع هذه و مع أخری إلیها لکانت أنحل منهما معا. و اشتری رجل ساعة بثمن غال فسأله بعض أصحابه عن سبب ذلک فقال: إنّ لهذه الساعة فوائد عظیمة منها أنی متی أردت أن أقوم فی اللیل جذبت حبلا بها فتطن، فأسمع صوتها. و قیل مرّة لرجل:

لقد اخترع کانون یخفّ به نصف مصروف الفحم، فقال: إذا أشتری کانونین لیخفّ امصروف کلّه. و کتب بعضهم کتابا من أمیریکا

إلی صدیق له فی بلاده یقول فیه:

أخبرک بأنی قد انتقلت من المحل الذی أنا فیه الآن، و لو لا ذلک لکنت کتبت إلیک من قبل، و ما کنت أدری قبل الآن أین یلقاک کتابی هذا، ثم إنی أمسکت القلم الیوم لأبلغک خبر موت خالک الحی الذی مات بغتة بعد مرض طویل لازمه نحو ستّة أشهر، و کان فیه یتلوّی و یتشنّج، و هو فی غایة السکون، و لا یتکلّم بل کان یهذی و یلغو، و لست أدری سبب موته، غیر أن الطبیب یظنّ أنّه مات من المرض الذی اعتراه لأنّه بقی عشرة أیام نفساء، أمّا عمره فتعلمه أنت کما أعلمه أنا و هو خمس و عشرون سنة إلا خمسة عشر شهرا، و لو أنّه عاش إلی هذا الوقت لکان مات منذ ستّة أشهر (تنبیه) و الآن أرسل لک عشر لیرات، أرسلها لک والدک من دون معرفتی، و کانت أمّک ترید أن ترسل إلیک بقرة فلولا قرونها لضمّنتها فی هذا الکتاب، و المرجو منک أن لا تفضّ ختم هذا الکتاب إلا بعد قراءتک له بیومین أو ثلاثة، فإنک تکون عند ذلک أکثر استعدادا لسماع هذا الخبر المحزن.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۵

عودة إلی غریب طباعهم

(عود إلی ما کنّا فیه) و قد یکون أحد هؤلاء العلیة مدیونا لشخص، فیسافر إلی بلاد بعیدة من غیر أن یؤدّی إلیه حقّه، و قد یکون له وکیل أو صدیق و لا یوکله عنه فی ذلک، فإذا سأل الرجل وکیله عن سبب سفره قال له: قد کان یرید أن یراک قبل ذهابه لکن العجلة اضطرته إلی السفر بغتة، و قد صعب علیه ما جری و هذه الخصلة أعرفها منهم فی مالطة أیضا و لیست ناشئة عن طمع فی أکل الدّین أصالة، و إنما هی عدم المبالاة و الاکتراث، و عن الاعتماد علی صدقهم و وفائهم، و علی مقتضیات الجنتلمانیة. و لکن ما معنی صعب علیه هنا أو حزن، أو اکتأب، أو کمد أو ترح، أو کل مرادفها؟ و هو لا یدری متی یعود من غیبته، و الرجل محتاج إلی أجرته أو ثمن حاجته.

و من طبعهم أیضا أن لا یسمعوا تظلّم الغریب من أحدهم، و لا سیّما إذا کان المتظلم دون المتظلّم منه، و إن کانوا یعلمون لهذا سابقة فی الشطط علی بعضهم. و إذا استلمحوا من الشکوی نورا یریهم أن کل بشر مظنة للخطأ و القصور، فإنما یکون ذلک فی جهة الشاکی لا المشکو منه، و هذه الخلّة من جهة هی صنو تلبثهم فی اللوم علی ما تقدّم، و من جهة أخری هی من قبیل التعصب و الزیغ.

حبّ کبرائهم للسمعة

و لهؤلاء الکبراء حبّ للسمعة یفضی إلی قسوة القلب، فإن أحدهم قد یهون علیه مثلا أن یعطی الجمعیات الدینیة ثلاثمائة لیرة فی السنة و إن کان لا یعلم بأی وجه من وجوه البر تصرف، أو لأی مقصد تستعمل، و إذا مرت به امرأة فقیرة حافیة تحمل رضیعین، و علی وجوههم سمة الانکسار و الجوع، لم یختلج قلبه لیجود علیها بدرهم واحد؛ حیث یعلم أن المرأة لا دفتر لها تکتب فیه اسمه، و تنشره علی الملأ کما تفعل الجمعیات.

و من طبعهم و طبع العامة أیضا أنهم یشمئزون من أن یسمعوا من الغریب تعییب

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۶

عاداتهم، و منکر أحوال بلادهم، و إنما ینبغی أن تنتظرهم حتی یخوضوا هم فی ذلک، و لا شیء أسوأ عندهم من أن یفصل الغریب عن بلادهم و فی قلبه شیء علیهم.

نفوذ السیدات و سهولة خداعهن

و اعلم أن للسیدات هنا نفوذ کلمة بالغا جدا، و لا سیّما فی الأمور التی یشمّ منها رائحة الدیانة و الذریعة إلی إمالتهن و إرضائهن لمن

حاول ذلک کما فعل بعض الطامعین، هی أن یقول لهنّ: ما أعجب ما أری من أحوال نساء هذه البلاد المبارکة، و ما هنّ علیه من حسن الأخلاق و الفضائل الباهرة، فإنّ نساءنا یجهلن القراءة و الکتابة، و لا یعرفن ما یجب علیهن لله و للعباد، فمن أجل ذلک لا یحظین عند بعولتهن، فعیشة الرجل مع زوجته عندنا عیشة خصام و نقار و مقت و نغص و نکد و کمد، ألا لیتکن تتعطّفن علیهن، و تنشئن لهنّ مدارس لتربیتهنّ و تهذیبهنّ، فتکسبن بذلک الثواب من الله و الثناء من الناس، و ما أشبه ذلک من الکلام الحامل لهنّ علی الاعتقاد بأفضلیة أنفسهن، فینظرن إلی ذلک القائل نظر الرفیق الشفیق، و ینزله منزلة رسول من الله لإنقاذ نساء بلاده من ورطة العمه و الجهل، و یعتقدن أنّه متی رجع إلی وطنه أذاع بین الناس محامدهن، و هو أی ذلک الأصیل الذی فعل هذا، و المقتدی به قائل فی نفسه ألا ما أهون خدعتکن علیّ مع وجود أضابیر کتب متنوعة فی خزائنکن أیم الله إن جمیع ما عندکن من التحف و الأسفار لا ینفعکن من دهائی شیئا، فإن الدهاء ملکة غریزیة فی الإنسان لا تؤخذ عن الکتب، و هکذا ینوهن باسمه و یصبح عندهن معزّزا مکرّما تدعوه واحدة للصبوح، و أخری للغبوق و کذلک إذا ألقی مثل هذا الحدیث علی أحد من أهل الکنیسة، فأن بین القسیس و المرأة لا یعدم الإنسان هنا أن ینفذ مخاریقه، و إذا اجتمعا له کان ذلک من سعده.

و إذا کان فی خلال إطرائه هذا یتنهّد و یزفر، و تغرغر عیناه بالدموع کان أنجع و أبلغ، ثم ما علیه بعد ذلک أن یقهقه أو یحنبش فإن للضحک وقتا و للبکاء وقتا، و هذا التدجیل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۷

لا یغنی عند الفرنسیس نقیرا.

اتّصافهم بالکبر و العجرفة

هذا و إنی سمعت من کلّ من عاشرته و قد عاشر الإنکلیز أن یصفهم بالکبر و العجرفة، و لکن قبل إثبات هذه الدعوة ینبغی أن تعلم أن الکبر علی أنواع:

الأوّل: أن یکون ظاهر سحنة الإنسان منفّرا عنه ناظره لعدم طلاقة وجهه، فیظنّ الناظر إلیه أنه لا یتکلّف لمخاطبته، و الثانی: عدم قبول النصح و الافتئات برأیه و قوله و إن علم أنه غیر مصیب، و الثالث أن یکون طلق المحیّا، لیّن الجانب، یرغب فی مجالسة الناس، و لکن أول ما یبسط بساط الحدیث بینک و بینه یطفق یعدد علیک فضائله، و فواصله، و مآثره، و مناقبه، فإذا کان مثریا قال: «إنی أنفق فی الشهر کذا، و أتصدّق علی الفقراء بکذا، و کنت بالأمس مارّا فی طریق کذا فسألنی فقیر شیئا، و حیث لم یکن معی فلوس بذلت له دینارا، و إنی لا یبلی عندی شیء ممّا ألبسه، فإنّی أخلعه علی هذا و ذاک، و إنّ عندی من المتاع کذا، و کلّ یوم آکل کذا، و أضیف أناسا و أقریهم الطرف التی یعزّ وجودها فی هذه البلاد، فإنّ لی عمالا فی البلاد الخارجیة یبعثونها إلیّ فی کل عام». أما الکتب فلم أعنی بها إذ لست أملک فرصة للمطالعة لکثرة الشواغل و الموانع.

و إن کان جمیلا قال: إنّ فلانة هامت فی هوای، و ترکت أهلها حبّا بی، و آلت لتصحبنی أو تموت، و إن زوجة فلان أهدت إلیّ من التحف کذا، و أرسلت إلیّ من الرسل و الرسائل کذا، و إنّ ابنة فلان دعتنی إلی أن أخطبها، و هی تملک کذا، لم أجبها، و لا ادری کیف ینتهی الحال بها، و إنّی مشفق من أن یلم بها عارض من الجنون فأکون أنا سبب ذلک. و هو مع کل هذا الإفجاس و الجزاف بکذا مقبل علیک و باش بک، و یزیدک إدناء من جنابه لکیلا یفوتک شیء من هذه الفوائد التی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۸

یلقیها علیک.

و من کان قد قرأ بعض أشعار و سمع من أهل العلم مثلا أن الشعر منقبة سنیة تصدّی إلی نظم أیّ کلام کان، فإذا رأی طائرا فی الجو نظم فیه قصیدة، و إذا توفی أحد فی بلده قال قد غاض بحر الکرم، و دکّت أرکان المعالی، و ذوت أزهار الفضائل، و أفل نجم

الهدی، و خسف بدر المجد، و کسفت شمس الفضل، ثم لا یزال یطلع فی عاجلة النبی إلیاس حتی یصل إلی الفلک الأثیر، و یعدّد جمیع ما هنالک من النجوم، و ینتزع منها کفنا لمرثیه، و ما ذلک إلا حتی یقال عنه: إنّه شاعر.

و منهم من إذا حفظ نادرة أو حکایة أو مسألة تراه یتشدّق بها فی کلّ مقام، و یضغطها بین کلّ مورد و مصدر، حتی یقال عنه: ما شاء الله.

و منهم من إذا أطلعته علی غلطه أومأ إلیک برأسه، و قال: قد فهمت قد فهمت؛ فتقول له: کیف تکتب المرّة الآتیة؟

فیقول: لا أکتب غلطا.

فتقول: و لکن بیّن لی کیف تجتنبه؟

فیقول: أکتب ما یکون صحیحا.

فتقول أطلعنی علیه.

فیقول: حین أکتب أعرف ما یقال.

و لا یزال یحاولک بمثل هذا استکبارا و عنادا حتی تملّ منه.

و منهم من یزورک و أول ما یستقرّ به المکان یأخذ فی أن یشکر من کثرة معارفه، و یتأفّف من کثرة ما یدعی إلی ولائمهم و مراقصهم، و یتسخّط علی الولائم و المولمین مع أنه لم یحصل علی معرفة هؤلاء المعارف إلا بعد استعمال وسائط لا تحصی، و هو یقول فی قلبه: أدام الله دولة هذا المآدب، و أعلی شأن الآدبین، فإنهم أنفع من الأدب و المتأدبین، و إنی أذهب إلیهم، و أنال من أطایب طعامهم و شرابهم، و أمخرق علیهم، فتارة یضحکون من خزعبیلاتی، و تارة یحبذوننی، فأرجع إلی و کری خالی البال ممتلئ الأمعاء. و منهم من یکون له قفص خدام، فیدعوه إلی أن یجوربه، و یلبسه نعله بحضرة الناس، و أن یحمل دورقه و دواته وجبته و عصاه و قصبة دخانه، و یمشی وراءه کأنّما هو حمار موقور، و ذلک حتی یقول الناس: إن السید ذو خدم و حشم.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۴۹

و منهم من یتواضع لجلیسه و سامعه بأن یقول لا- تؤاخذنی یا سیّدی بما تسمع منی من اللحن، فإنّی لم آخذ النحو عن أحد، و لم یطاوعنی الوقت علی أن أتعلّم اللغة کما یجب، و إنّما عرفت ما عرفت بالدربة و الممارسة، و هو عند ذلک ینتظر من سامعه أن یقول له: حاشا لک أن تلحن فی شیء و أنت العلم المشار إلیه بالعلم و البیان، و أقسم إنه لم یطرق مسمعی شیء أبلغ من کلامک، فأنت قسّ الفصاحة، و سحبان البلاغة، و أنت الذی تروی عنه نوابغ الکلم، و تؤخذ عنه جوامع الحکم، فیا لیت لنا فی بلادنا نفرا یأخذون عنک هذه البدائع کیلا یضیع العلم من بیننا، فأدام الله وجودک و متّعنا ببقائک السعید آمین.

و منهم من یقول: إن شأنی یا جماعة الخیر أن لا أری علیّ لأحد دینا أو لوما، أو منّة. و لو بتّ و علیّ لأحد دینار واحد لم تأخذنی سنة و لا نوم، و قد حاولت أن أغیّر طبعی هذا بطبع من طباع الناس فلم أقدر. و هو مع ذلک یترقّب جماعة الخیر أن تقول له: نعم هذا الطبع، لله سجایاک ما أکرمها، و خلائقک ما أعظمها، فیا لیت الناس جمیعا یقتدون بک.

و منهم من إذا کتبت إلیه کتابا تسأله عن شیء ضنّ علیک بجوابه إذ یراک غیر أهل له.

و منهم من إذا رآک قد فتحت فاک للحدیث معه، أو مع جلیس آخر ابتدر إلی قطع حدیثک المفید بأن یحکی حکایة سخیفة عن نفسه، أو عن أهله و خادمه. و منهم من یماریک فی الحقّ الصریح و لا یذعن لبرهانک، و إن کان یعلم أنه دونک فی الجدال، و آخر الکلام بینک و بینه هو أن یقول لک: هکذا کان رأیی و هذا هو قصدی، فیوهمک بذلک أنک کنت کنت من الزائغین، و أنه من الراشدین، و ذلک حتی یکون آخر الکلام إلیه.

و منهم من یجادلک فیما لا یورثه فخرا، و لا یکسبه ذکرا، و لکن لمجرّد إظهاره إیاک غالطا، فإذا سألک مثلا کیف أنت؟ و قلت له: بخیر و عافیة، قال لک: ما أراک تدری ما العافیة؟ فإنّی لا أری أثرها علیک. فتقول له: کیف و إنی و الحمد لله متملّ بصحّتی، و

یمرئنی ما آکل و أشرب، و یهنئنی منامی و جلوسی. فیقول: ما هذا معنی العافیة عند المحققین، و إنّما هی أن تمشی منتصبا غیر لاو علی أحد، أو شیء تراه عن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۰

یمینک و شمالک موازنا لخطواتک، شامخا بأنفک، مصعّرا خدّک.. إلی آخره. و لو جئته بجالینوس و الفیروز آبادی لیطلعاه علی حدّ العافیة و تعریفها لم یقنع منک.

و منهم من إذا غاب یوما عن وطنه قال لمن یجهل نسبه: إن أبی کان رئیس المنشئین فی الدیوان، و عمّی کان وزیر الأمیر، و خالی سمیره، و إنّی إنّما قدمت بلدکم للتّنزه و التفرّج و ما أشبه ذلک، و منهم من إذا لم یجد مجالا فی نفسه للمدح و المباهاة افتخر بابیه، أو جده أو عمّه أو بداره أو ببلدته، و أعتقد أن کل شیء یضاف إلی ضمیره یعجب الناس. و قد سمعت مرة واحدا من هؤلاء المفتخرین یقول: قد جرحت إصبعی بالأمس؛ فخرج منها دم أحمر قان أعجب و عجب جمیع الحاضرین.

و منهم من یستفزه العطس و الضنک إلی أن یغادر وطنه؛ فیقصد أمیر بلدة أو شیخ قریة و یلثم یدیه و رجلیه و یتضرّع إلیه أن یؤویه أیاما ریثما یجد مکانا، فإذا رأیته و الحالة هذه و سألته عن مقره أجابک بأن الأمیر فلانا دعاه إلی النزول بداره، و أمسکه عنده؛ و لا یرید أن یطلقه کلفا به.

و منهم من یروعک بمخطته الشدیدة فتظنّ أنّ المکان تزلزل منها، أو بتجشّئه الذی یسمع له صد. و منه من إذا حیّیته فی الصباح شخر و زمجر، و فتل شاربیه و زفر، و قس علی ذلک من یزکّی حرفته، و یفتخر بصنعته إلی ما لا نهایة له، فإذا تقرّر ذلک فاعلم أن کبر الإنکلیز من النوع الأول و هو أنک تنظر فیهم الأنفة و کلوح الوجه، و لکن متی خاشبت منهم أحدا تبیّن لک أنه لا فخور، و لا فیاش. فمن کان دخله منهم فی العام ۰۰۰، ۰۰۰، ۱ لیرة أوهمک أنه مثلک، إذا کنت مثلی ذا همّ فی معیشتک و نصب، و من یکن عنده ألفا کتاب مثلا فإذا قلت له: ما أکثر کتبک. قال لک:

لعلّی مسرف فی شرائها، و ما کان ینبغی لی هذا. مع أنه لو قال لک: إنی قادر علی شراء ضعفیها لکان من الصادقین.

و من کان منهم یحکی البدر جمالا کقول شعرائنا لن ینبس بکلمة تدلّ علی أنه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۱

فتن امرأة بحسنه، و من یکن مطّلعا بالعلوم الفنون، فإذا سالته عن شیء لم یجبک إلا بعد التروی، و لا ینسب إلیه حلّ المشاکل و استخراج المجهول، و إذا سألته عن شخص یدّعی العلم و یؤلف ما لا یرضی به العلماء قال: لعلّه استعجل فیما ألّفه، و لم تمکنه مراجعته، و قد یکون مع المستعجل الزلل. و لا یعیا عن أن یجد له عذرا یستر به عیبه. و من یکن فی أعلی المراتب لم یستنکنف أن یجیب من یسأله أیّا کان، فقد تبیّن لک أن کبر الإنکلیز إنّما هو فی وجوههم أکثر منه فی ألسنتهم و قلوبهم، و إن وسم الناس إیاهم بالعجرفة مطلقا لیس فی محلّه، إلا أنّی لا أنفی عنهم الاتصاف بعزّة النفس و ترفیعها عن أن تذل لأحد، و هی من الخلائق المحمودة.

فأمّا کبر السفلة فهو إبداء العبوس أیضا مضافا إلیه عدم التأدّب فی الکلام و الحرکات، و نبرهم فی الخطاب، و سوء الضحک و اللقاء و المنصرف و هلمّ جرا.

أنواع الکذب

هذا و کما اشتهر عن الإنکلیز الکبر کذلک اشتهر عنهم الصدق، و لکن ینبغی أن تعلم أیضا أن الکذب علی أنواع: أحدها نیء مائع، و هو الذی اتصف به أهل البلاد المشرقیة، و ذلک کأن یعدک الإنسان بالحضور فی الساعة الفلانیة، ثم یخلف، أو یعدک بقضاء حاجة، و فی قلبه أن لا یقضیها أو أن یسافر إلی استانبول، و یقول: إنّ مؤلف کتاب الساق علی الساق قد ضغط بین عاجلتین فمات، أو أن تکون قد أرسلت له کتابا فینکر وصوله، أو أن یقول لک: قد أطریت علیک البارحة عند فلان، فهو یبلغک السلام، و یدعوک إلی

منزله، حتی إذا سرت إليه وجدت الأمر بالعكس، أو أن يقول: نويت السفر غدا إلى المشرق، ثم يسافر إلى المغرب، و غير ذلك ممّا لا يجدى نفعا و لا يوصل فائدة.

و الثانی: كذب مطبوخ جامد، و هو ما تستعمله الإفرنج و خصوصا تجارهم، فيكتبون مثلا على بضائعهم أنها من أنفس الأشياء و أنها صنعت باختراع آلات جديدة أحدثت عن طول تبحّر فی علم الهندسة، و أن لحمة هذا الثوب من الهند و سداه من الصين، أو أنه سلطانی أو ملكی أو أميری أو مولوی أو وزيری و نحو ذلك،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۲

فهذا الشعار لا- تأنف الإنكليز أن تتردّى به لجرّ منفعة به إليهم، و هو المراد عندهم من التمدن، و متی علموا أنّ جيلا أمهر منهم فی شیء نسبوا إليه ذلك الشیء الذی يصنعونه هم و يريدون بيعه.

و الثالث كذب متبل محرق و هو التغرير و النميمة و الإفساد بين محبّين أو خليلين لوما و حسدا، و هو يكاد أن يكون من خصوصيات المشرقيين.

الغنی عند الإنكليز

ثم إن الغنی و إن يكن شأنه أن يجتذب إليه قلوب الناس فی جميع الأمصار و الأعصار، و إنّ التجمّل باللباس يورث المرء هيبة و جلالا حيثما كان، و على ذلك قول بعضهم: لقد اجتهدت فی أن أنظر إلى الغنی بالعين التی أنظر بها إلى الفقير فلم أقدر. أو كما قال العلامة كولد سميث: إن الغنی مرادف الحرية فی كل مكان، إلا أن الغنی عند الإنكليز شعار على الجدارة و الاستحقاق لكلّ شیء، فالغنی عندهم يمكن له أن يرفع دعواه إلى مجلس المشورة، و يطلّق امرأته لعلّة الزنا حقيقة أو ادّعاء، و الفقير لا يمكنه، و له أيضا جدارة بأن يكون ضابط البلد، و من أعضاء مجلس المشورة المؤلف من نوّاب الأقاليم، و أن يشترى وظيفة من الديوان فی العساكر البرية، فيكون قائد مائة، أو ألف، أو عشرة آلاف، و أن يدخل فی المنتديات أی الكلوب، و هناك يجتمع بالعظماء و ذوی الشرف، فإذا رأوه على تلك الحالة لم يلبثوا أن يدعوه إلى منازلهم، فإن كان عزبا خطب إليهم إحدى بناتهم، أو أخواتهم، أو كان متزوجا زوّج ولده من إحداهنّ فاستقطر بإنبيق ديناره دمهم الشريف فی دنّ نسبه، و يا لها من غبطة. و له أن يتوسّل إلى نجیّ صاحب الملك بالهدايا و الطرف، فيستنزل له وعل جلاء شريف من شرفه، و لو كان يهوديا، و له استطاعة على أن يستعمل أمهر فقهاء الشريعة فی تبرئته إن كان معيبا و مدّعی عليه، أو استخلاص حقّه إن كان مدّعيا فيصيّرون له النور ظلاما، و الظلام نورا، و أن يستخدم كتّاب الحوادث فيشيدون بذكره

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۳

و ينوّهون بمناقبه. و أن يستخدم أحذق الأطبّاء لحفظ صحّته العزيزة، و أن يحضر طعامه و شرابه من جميع البلدان القاصية إنماء فی بدنه و تصفية لذهنه، و أن يضع أولاده فی أحسن المدارس إلى غير ذلك من المنافع التی لا يحوزها الغنی فی بلادنا، و من ليس له غنی فی هذه البلاد فلا يحسبنّ نفسه من الناس.

هذا و قد جرت العادة فی كلّ مكان بأن السعيد الغنی لا يزال يبدو للناس فتی، فاذا مات و هو ابن خمسين سنة مثلا أسفوا عليه، و قالوا: و اخسارتاه فقد مات عبطة، و لعلّ بعض حسّاده قد سمّه، و كذا لو تزوّج فی ذلك السنّ، أو سافر استحسنوا فعله، لو أنه لحمقه كان يصيّف فی مشتی، و يشتو فی مصيف مدّة طويلة، ثم جعل المصيف مشتی و المشتی مصيفا لقال الناس: إنّ رأی هذا السعيد ما زال رشيدا، فإنّ الزمان قد انقلب، و الحال حال، فكلّ شیء يليق به، بخلاف الفقير الشقی، فإنّه إذا مات و هو كهل قالوا: لا بدّ لمثله أن يموت، و إذا سافر أو تزوّج عرّض نفسه لاستهزاء الناظر و السامع به.

منافع العلم

و ما قلته فی منافع الغنی هنا لا ینفی منافع العلم علی الإطلاق فإنّ من برع عندهم فی علم، و إن کان وضیع النسب فلا یعدم أن یری من یرفعه من خموله و یستفید بعلمه، غیر أن العلم عندهم لا یکون بمعرفة قواعد النحو و الصرف أو بنظم قصائد و إنّما هو مطالعة اللغتین الیونانیة و اللاتینیة، و معرفة أدبهما، و معرفة التاریخ، و الفلسفة، و الهندسة، و الریاضیات، فمن حصّل ذلک فقد قبض علی مفتاح الرزق، و من اخترع شیئا مفیدا فقد استغنی به، و ذلک إمّا أن یبیعه لأحد من الأغنیاء بجعل وافر و إمّا أن یستبدّ بصنعه، فلذلک کان العلم فی أوربا دائما مورد الاستنباط و الابتکار، بل کثیر منهم یحرزون به لقب الشرف.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۴

عادة النبلاء فی الإرث

و من عادة الشرفاء و النبلاء أن لا یورثوا جلاءهم و أملاکهم إلا للابن البکر، فإن شاء أعطی إخوته، و إن شاء حرمهم، ففی هذه الحالة یلتزم الأهلون بأن یقوموا بکفایتهم، و إذا کان البکر مسرفا فبذّر أموال أبیه اشتری له أصحابه أو أهل البلاد، و لإخوته وظائف من الدولة، أو تبعثهم الدولة إلی البلاد الخارجیة. و الحکمة فی توریث البکر دون غیره هو إبقاء الجلاء فی العیلة وصون ناموس البیت، و إذا تقدّم الابن بنت بقی له حقّ اللقب و الوراثة، هذا إذا کان التراث عقارا، فأما إذا کان حصص مضاربة مثلا أو أیاء متنقّلة قسم بین الإخوة.

ما یحمد من الکبراء و ما یذم

و ممّا یحمد من الشرفاء و من ذوی المراتب السامیة هنا أنّهم لا یتداخلون فی التجارة، و من منکر عاداتهم أنه إذا دخل أحد علی جماعة من هؤلاء العلیة، و لم یکن یعرف منهم غیر واحد فقط لم یسلّم إلا علیه ما لم یعرّفه بهم صاحبه، و یقول له فی شأن کلّ منهم هذا فلان، إلا أن هذا التعریف لا یلبث أن یصیر تنکیرا فإن من تعرفه فی المجلس لا یلتفت إلیک إذا رأیته فی الغد فی محلّ آخر. فأمّا إذا دخل علی قوم و لم یکن یعرف منهم أحدا فلا یحیّی مطلقا، بخلاف عادة الفرنسیس، فإن من یدخل علی جماعة أیّا کانت یضع یده علی رأسه، أو ینزع برنیطته احتراما لهم، و کذلک إذا خرج، و إن لم یکن یعرفهم.

و من تعرّف عند الإنکلیز بأحد أفراد العائلة مثلا و تردّد علیه فإن لم یعرفه بأبیه و أمه و إخوته، فلا یسلّم علیهم إذا رآهم داخلا فلا یلام علی ترکه، و لا یحمد علی فعله.

و إذا استخدم أحد جاریة و لقی أباها و أمّها لم یسلّما علیه. و قد تقدّم أن الغنی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۵

یمکن له أن یطلّق امرأته برفع دعواه إلی مجلس المشورة، فإن الطلاق من الأمور الصعبة هنا، و لا یمکن رفع دعوی مثل هذه إلا بمصاریف وافرة لا تنقص عن أربعمائة لیرة، إلا أنه بعد تحریر هذا الکتاب أبیح الطلاق للعامّة من دون مصاریف، فإن مجلس المشورة رأی ذلک أصلح للرعیة، و هو الرأی الأسدّ، و بقی هنا أن نقول: إن رؤیة الزوج زوجته مع رجل أجنبی فی حجرتها تکفی عندهم فی أکثر الأحوال لإثبات الزنا من دون رؤیة المیل فی المکحلة، و أربعة شهود عدول کما یقتضیه الشرع الإسلامی، و هذا من دون هذا الوجه سدید، فإن الطلاق لما کان فی الشریعة المحمّدیة مباحا ضیّق علی الرجل فی إثبات الزنا علی زوجته، و حیث کان محظورا فی شرع النصاری إلا لأجل الزنا فسمح للرجل فی إثبات الزنا علیها بمجرّد خلوتها مع الرجل.

من غریب عاداتهم

و من الغریب هنا أنّه قد جرت العادة عند العامّة بأن یبیعوا نساءهم بیعا لعدم إمکان طلاقهن، و صورته أنّه إذا شعر الرجل بأن زوجته تحبّ آخر عرض علیها الانتقال إلیه، فإذا تراضیا أخذها و باعها لعاشقها بمحضر شهود، و قبض منه ما یؤذن بصحّة البیع، و تخلّص بعد ذلک من تبعتها.

و فی أخبار العالم ما نصّه: رجل باع زوجته فی حانة لرجل بخمسة شلینات و نصف، و قبض الثمن بحضرة شهود، و ذهب بها المشتری، و لما کان الغد ندم زوجها علی ما فعل، و استقال فی البیع فلم یقل.

و ذکر أیضا فیه أن توماس دای تزوّج امرأة فی سنة ۱۸۴۹ فأساء عشرتها؛ فترکته، و علقت برجل من سکوتلاندة اسمه روبرتصن، ففاوض زوجها علی أن یشتریها منه، فاجتمعا- ذات یوم فی حانة و باعها له- الزوج بحضرة شهود بنصف بنت من الجن تقاسموه جمیعا.

و فیه أیضا أن توماس میدلطون باع زوجته مارى میدلطون لفیلیب روستنسن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۶

بشیلین و ربع من الجعة، و تراضیا علی الافتراق الدائم ما داما حیّین.

و هذه العادة و إن تکون غیر مباحة فی أحکام الدولة إلا أنه مسکوت عنها کما سکت عن إباحة الزنا للمومسات فإن الزنا هنا معلوم لأرباب الأحکام لکنّه غیر مباح. و کثیرا ما یقوم السمّ مقام هذا البیع، فإنّ التخلّص من الأزواج به أکثر منه بالطلاق أو البیع.

من عادتهم فی الزواج

و من عادتهم فی الزواج أن البنت لا تتزوّج إلا من کان مساویا لها فی السنّ، أو کان أکبر منها بسنتین، أو ثلاث، و فی ذلک شطط إذ لا یخفی أن المرأة متی بلغت الأربعین سنة لم یبق فیها من القوة و النشاط ما یبقی فی الرجل، و لا سیّما إذا کانت منتاقا. نعم إن النساء هنا لا یعجل فیهن الهرم، فإن من یکون سنّها ثلاثین سنة تبدو کمن سنّها عشرون فی بلادنا، غیر أن هذه الصفة تراعی فی جهة الرجال أیضا.

و فی بلادنا لا تثریب علی من بلغ الخمسین أن یتزوّج بنت عشرین، و هذا یندر هنا جدّا إلا لسبب عظیم، و ذلک کأن یکون الرجل أشرف من المرأة و أغنی؛ فترغب فیه لتشارکه فی شرفه و غناه، إذ کانت هاتان الصفتان عند الإنکلیز أفضل من جمیع المناقب، و لا سیّما إذا روعی فی ذلک مصلحة تربیة الأولاد، و فی هذه الحالة فلا مانع أیضا من أن یکون الزوج شیخا فحلا لعلمها أن حرارتها لا تلبث أن تذهب ببرودته، فتستولی علی المیراث.

و إذا خطب أحد امرأة، ثم بدا له أن یعدل عن الزواج لغیر موجب شرعی غرم لها مبلغا عظیما، و لا حرج علی الیهود أن یتزوّجوا من النصاری، و للأب أن یجبر ابنته علی الزواج بمن شاء إذا لم تبلغ حدّ الرشد، و هو عندهم إحدی و عشرون سنة، و بعده لیس له علیها من إمرة إلا- بالمعروف و النصیحة، و لکن کثیرا ما تهرب البنت من تحت حجر أبیها، و تتزوّج من شاءت و إن حرمها من المیراث، و إذا خرجت من حجره بعد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۷

بلوغ رشدها لم یبق لوالدیها استطاعة علی ردّها، و وصیة الموصی قبل بلوغ ذلک السن لا یعمل بها.

و للذکر أن یعقد الزواج عند بلوغه أربع عشرة سنة، و للبنت عند اثنتی عشرة، و ما دام الولد دون سن الرشد فعلی الوالد أن یقوم بنفقته، و بعد ذلک لا یلتزم بها. و إذا تزوّج الولد قبل هذا السن فلأبیه أن یحرمه من میراثه، و متی تزوّجت المرأة انتقل جمیع ملکها إلی حوز بعلها، و لکن لها أن تستدین علی اسمه و یجبر هو علی وفاء دینها. و لا یحلّ للرجل أن یتزوّج أخت زوجته، و قد کان لرجل زوجة و له منها عدّة أولاد فلمّا حضرها الموت أقسمت علی زوجها أن یتزوّج أختها بعد موتها لتربّی أولادها، فتزوجها، فلمّا علم ذلک

فی دیوان الحکم فرّق بینهما، فسألت من أخبرنی بذلک عن سبب هذا الحظر لأنه غیر مبنی علی مصلح، و قلت: إن کان تحریمه ورد فی التوراة فقد ورد فیها تحریم أمور کثیرة استحلّتها النصاری، فلأی سبب أضربتم عن تلک، و تمسکتم بهذه فقط.

فقال المصلحة فی ذلک هو أن لا یتوصّل رجل واحد إلی إحراز جهازین من بیت واحد.

فقلت: و لکن الفقراء یتزوّجون من غیر جهاز و لا میراث.

فقال: إن الشرع هنا ملحوظ فیه مصلحة الکبراء.

و لا بدّ من أن تشهر الخطبة فی الکنیسة ثلاث مرّات متوالیة فی أیام الآحاد، و إذا مسّت الحاجة إلی الزواج بدون إعلانها غرّم الرجل ضعفی النفقة، و هی فی الغالب خمس لیرات، أمّا فی سکوتلاندة فإنّ الزواج یتوقّف علی شاهدین فقط، فلذلک کان کثیر من الإنکلیز یذهبون إلی هناک لیتزوّجوا ثم یرجعوا. و یقال: إنّ مجلس المشورة یهمّ بأن یعیّن إقامة أحد و عشرین یوما هناک قبل الزواج تقلیلا من استعمالها، و من تزوّج امرأة زوجها حی غرّم و نکّل. و للمرأة المتزوّجة عند الإنکلیز احترام أکثر من غیرها، و إن تکن أصغر سنّا من غیر المتزوّجة، فإذا خرجن من مجلس إلی موضع الأکل مشت المتزوّجة قبل تلک، و أجلست فی أحسن موضع، و لا بدّ للمتزوجة أن تلبس خاتم الزواج فی بنصر یدها الیسری، و من لم یکن لها خاتم لم تحسب متزوّجة و إن کان لها خمسة بعول، و من الغریب أنه عند عقد الزواج یلقّن القسیس الرجل أن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۸

یقول للمرأة حین یضع الخاتم فی إصبعها: بهذا الخاتم أتزوّجک، و بجسمی أخدمک.

و لا معنی للباء فی قوله بهذا لأن الخاتم لیس آلة للزواج، و لفظة اخدمک لا یفهمها أحد من العامّة بهذا المعنی. و عند تناول طعام العرس تلبس العروس ثیابا بیضاء، و تقعد النساء علی المائدة و علیهنّ برانیطهنّ.

و عادة الأغنیاء منهم أن یعتزل الرجل بعروسه بعد عقد الزواج، فیقیم معها شهرا فی خلوة عن الشغل و الأهل و الأصحاب، و تسمّی هذه المدّة عندهم قمر العسل. و لا یکاد المثری یتزوّج إلا مثریة مثله، و إذا تزوّج الرجل امرأة و وضعت عنده بعد شهر ألزم بتبنّی الولد و تربیته و إن یکن من غیره. و کذا لو علم أنه عائش مثلا مع مومسة و ولدت ولدا. و من ثبت علیه أنه افتضّ بکرا فولدت منه أجبر علی أن یؤدّی إلیها فی کلّ أسبوع شلینین و نصفا فی الأقل إلی أن یبلغ الولد تسع سنین. أمّا الافتضاض قسرا فیعاقب علیه بالتغریب و النفی، و کان یعاقب علیه فی عهد ولیم الأول بسمل العینین و فی عهد الصکصونیین بالموت.

ما یحمد من تربیتهم للأطفال

و من العجیب أنّ الوالدین من الإنکلیز إذا کانا قبیحین تأتی أولادهم ملاحا، فإذا دام هذا الإسناع حقبة فلا یری فیهم بعد من قبیح، و الظاهر أنّهم أحسن تربیة للأولاد من غیرهم، فإنّهم یغسلونهم بالماء البارد فی کلّ یوم إذا کانوا أقویاء، أو بالفاتر إذا کانوا ضعفاء، و لا یقمّطونهم حتی یمتنعوا من الحرکة کما یفعل فی بلادنا، و إنّما یشدّونهم بحزام فقط، و بعد نصف سنة یعوّدونهم علی الأکل الخفیف مع اللبن، فلا تأتی سنة علی الطفل إلا و هو یلتقم کلّ شیء، و لا یکاد طفل یحدث فی ثیابه أو یفحم من البکاء کما یکون عندنا، غیر أنی کثیرا ما رأیت الأمّهات هنا یسقین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۵۹

أطفالهن المزر، أو شرابا غیره لینمنهم، و یطعمنهم الفاکهة والدسم، و یدخلن بهم فی الزحام و أماکن الخصام و اللکام. و ممّا یحمد من تربیتهنّ أنّهن یکلمنهم بالکلام المتعارف من دون لثغة و لا کسر کما تفعل نساء بلادنا، بل ربّما حکین لهم حکایات، و هم لا یعقلون، و یخاطبنهم بما یخاطبن به من یفهم، و یلقّنهم أشیاء کثیرة تعوّدهم علی الفهم من صغر.

و الذی ظهر لی أن أطفال الإنکلیز أذکی و أزکن من أطفالنا، و بعکس ذلک المراهقون، و فی الحقیقة فإنّ الأم فی بلاد الفلاحین لا

تربّی إلا ولدها البکر، و الباقون تربّیهم أخوتهم، الأکبر فالأکبر. و فی الجملة فإن نساء الإنکلیز مناتیق جدّا، و اتفق أن امرأة ولدت اثنی عشر توأما، و ثمانیة فذوذ.

ولادات نادرة

قال فی أبجدیة الأوقات قد حدث غیر مرّة أن امرأة تلد أربعة أولاد بطنا واحدا، فأمّا ولادة خمسة فلم یحدث إلا مرّتین إحداهما فی أوسترالیا سنة ۱۷۷۳ و الثانیة فی لندرة سنة ۱۸۰۰، قال: و فی سنة ۱۷۸۳ جعل شبه ضریبة علی ولادة الأولاد، فکان علی الدوک أداء ثلاثین لیرة، و علی أحد العامّة أداء شلینین. و یعجبنی لطف الأولاد هنا و لا سیّما حین تکون ثیابهم قصیرة و سیقانهم ظاهرة فی أوان البرد.

عادتهم فی الجنازة

و عادتهم فی الجنازة أن یبقوا المیت أسبوعا فی البیت قبل دفنه، و عند إخراج جنازته یشیّعها رجال یلبسون علی رؤوسهم منادیل سوداء معقودة فوق برانیطهم،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶۰

و لکلّ میّت حداد معلوم، و لکلّ دفنة سعر، و لکن لا یخمشون علیه وجها، و لا یشعثون شعرا، و إذا أبقیت الجنازة فی محل عند المقبرة لیلة واحدة أدّی علیها خمسة شلینات زیادة علی الرسم المعتاد، فقلت لمن طلب منّی ذلک: إنّ الحی یرقد علی فراش وثیر لیلة و یوسخه، و لا یؤدّی أکثر من شلین واحد، فکیف تطلب علی طفل فی تابوتة خمسة؟ فقال: إنّ بین الحی و المیّت فرقا.

أمّا الکبراء فإنّهم یبقون جنازتهم أکثر من أسبوعین إشارة إلی أنّه غیر جدیر بأن یفارق هذه الدنیا. و من الغریب أنّه إذا مات أحد منهم غریبا فلا بدّ من أن یعیدوه إلی وطنه لیدفن فیه، فیا لیت شعری ما نفع المیّت لبلاده؟ أو ما نفع بلاده له؟ و لا یدفن میّت إلا بشهادة الطبیب الذی عالجه، أو أجهز علیه، و ذلک لکثرة ما یقع عندهم من القتل بالسم.

و الواقع أن الفرنسیس أکثر احتراما للجنازات من الإنکلیز، فإنّهم یمشون وراءها أیّا کانت، و هم خاشعون حاسرو الرؤوس، و حین تکون فی البیت یوقدون حولها الشموع لیلا و یجعلون لها حارسا،

عادتهم فی العیادة

و من عادتهم فی العیادة أن یستعضلوا داء المریض لأهله أیّا کان، و یلقوا فی قلوبهم الرّعب بقولهم مثلا: إنّ فلانا منی بهذا الداء منذ أیّام فمات، فإنه داء معضل و لا سیّما فی هذه الأیّام، فکنت کثیرا ما أتذکر ما حکی عن ذلک الرجل، و قد مرض، فعاده بعض أصحابه، و قال له: ما تشتکی؟

قال: وجع الرّکبة.

قال: إنّها و الله کانت علّة أبی فمات منها، و إذا أصیب أحد بما یخاف منه العدوی فلا یعودونه أصلا.

و قد کان لی طفل أصیب بالسعال، فلمّا کنت أذهب إلی منزل دکطر لی علی عادتی کانت زوجته تتجنّب مواجهتی، فساءنی ذلک أولا حیث لم یکن یخطر ببالی أنّ السعال یحمل من المبتلی به، و ینقل إلی صدور الجیران، فلمّا علمت عموم ذلک

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶۱

هان علیّ مع أن الدکطریة المذکورة کانت علی غایة من الورع.

جزعهم عند المصيبة

و الظاهر أن جميع الإفرنج يجزعون عند المصيبة و لا يفوّضون أمرهم إلى الله، و إن تلبّسوا بالعبادة، و اتّصفوا بالجراءة على أنّهم لا يكادون يفجعون بموت أحد إلا و يتناسونه، فالاستسلام لقضاء الله إنّما هو من خصوصيات المسلمين، و كفى بلفظ الإسلام دليلا عليه. و فى هذه القرى لا يوجد أطبّاء و لا عقاقيرية، و إنّما يكون ذلك فى بعض البلدان المجاورة لها، حتى إن ما يوجد هناك منهم إن هو إلا نفاية، فلو سكن أحدهم فى إحدى المدن الجامعة لما نال بعلمه رغيفا.

عادتهم فى المأدب

و عادتهم فى المادب أن تجلس لضيوف على المائدة، و تجلس سيّدة الدار فى الصدر و تأخذ فى أن تقطع لهم شرائح اللحم رقيقة، و تناول الصفحة للخادمة، فتضعها الخادمة أمام الآكل. و لو حصل لك خمس حصص من تلك الشرائح لما شبعت، و الإكثار من أكل الخبز عندهم مظنّة الهمجيّة. و قد أدبت مرّة عند أحد أعيانهم، فلمّا جلسنا على المائدة أخذت الفوطة و وضعتها على حجرى، و كانت كسيرة الخبز مخبّأة فيها، فوقعت و أنا لا أدرى، و استحييت أن أطلب غيرها، و هم ظنّوا أنّى تنكلزت فى بلادهم، فلمّا تحرّكنا للقيام إذا بالكسيرة لا صقة بنعلى؛ فتذكّرت حينئذ قصّة ذلك السائل الذى طرق باب بخيل، فرمى له بكسرة خبز أخت كسرتى هذه التى انتعلتها، فأخذها و تأمّلها، ثم طرق الباب مرّة أخرى، فقال له صاحب الدار:

قد أعطيناك فلم لا تنصرف، قال: قد أعطيتمونى هذا الدواء و لم تقولوا لى كيف استعمله. و إذا كان على المائدة لونان من الطعام، أو ثلاثة، كأن يكون مثلا شواء من

البقر و دجاج، خيّرتك السيدة أيّهما تريد، فإذا تناولت من لون سقطت شفعتك من الثانى، و ندر أن تعطيك منهما كليهما، و لا يمكن أن تعطيك شيئا، أو بالحرى من شىء إلا إذا استطلعت رأيك فيه أولا.

و لا يمكن للمدعو أن يمدّ يده إلى زجاجة الخمر و يصبّ منها فى قدحه، بل لا بدّ من أن ينتظر السيّد أو السيّدة أن يعرضا عليه، و كذلك سائر المأكول و المشروب، و يحزننى أن أقول: إنّى كثيرا ما رأيت صاحب المنزل يقطع للضيوف اللحم، ثم يستكثره عليهم فيضع فى صحفته ما استكثره، فربّما امتلأت من تلك القطع، و كنت أرى المدعوّين معى يتكلّفون الأكل تكلّفا، و يتبلّغون بما لا يكاد يكفى الصبى، فيبقى ثلاثة أرباع الطعام كما هو.

و إذا برد عندهم اللحم المطبوخ فلا يأنفون من أكله كذلك أسبوعا؛ فلهذا ترى المحضر على المائدة كثيرا بالنسبة إلى مقدار الآكلين، و كميّة أكلهم. و قد سألت يوما المرأة التى كنت نازلا عندها ذات يوم فقلت لها: نشدتك الله إلا ما صدقتنى. هل أنا من الأكّالين المفرطين؟

قالت: لا.

قلت: قد دعيت غير مرّة، و رأيت المدعوّين معى جميعهم لم يأكلوا قدر ما أكلت أنا مرّتين.

فقالت لى: إن الدعوة هنا إنّما هى صورة فقط، فإنّ المدعوّين يأكلون فى بيوتهم قبل أن يحضروا الوليمة؛ فأخذنى العجب من ذلك، و طفقت أفكر فى مخالفتهم فى ذلك لعادتنا، فإنّ المدعوّين عندنا كلّما أكثروا من الأكل زاد سرور الداعى بهم لاعتقاده أنّهم أحبّوا طعامه.

و إذا قلت لواحد من الإنكليز: إن فلانا دعانى إلى الشاى قال لك: إنه هو كثير الفضل و ما أشبه ذلك، هذا عند الوسط من الناس، فأمّا عند العظماء و الزعماء فإنّ الخادم يطوف على الحاضرين بآنية الشراب و يخيّرهم أىّ نوع يشربون، و ربّما شربوا المزر أولا، ثم قليلا من الخمر، حتى إذا فرغوا من الأكل قامت النساء و انفردن فى مقصورة، و بقيت الرجال على المائدة، و حينئذ تتداول كؤوس الشراب

و المناقلة علی النقل بغیر محاشاة، و ربّما قضت الرجال ساعة أو ساعتین علی الشرب و النقل،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶۳

و ساعة من قبلها علی الطعام.

و إنّما تقوم النساء خوف أن ینهمک أحد الجلوس فی الشرب فینطق بما لا- یلیق، و لا- بدّ فی الموائد الحافلة من وضع السمک المسلوق أولا، فأمّا الشوربة فهی عبارة عن حساء الفلفل، و قد رأیت علی هذه الموائد البطاطس یأتون بها فی صحاف مفضّضة، و تحتها فوط من الکتّان الرفیع، فلم أدر ما المراد بهذا الاحتفال و التنطس، فإنّ الخسیس خسیس حیثما کان، و الکلب کلب و إن طوّقته ذهبا.

و إذا فرغ الأکل ممّا لدیه و لم یرد الزیادة وضع السکین و الشوکة متوازیین، و إذا شرب الشای وضع الملعقة فی الفنجان، و عند صفّ أدوات الشای تقوم السیّدة أیضا و تجلس فی الصدر، و تسأل من حضر: هل ترید أن تشرب شایا. فیقول: نعم إن شئت.

فتقول: أتشربه مع السکّر.

فیقول: نعم إن شئت.

فتقول: و مع الحلیب.

فیقول: نعم إن شئت.

فتقول: و تأکل نصف هذه الکعکة.

فیقول: إن شئت.

فتقول: و ربع هذه الفالوذة.

فیقول إن شئت.

و کلّما أکرم بإحدی هذه المرکبات قال: إنی أشکرک. و بالجملة فإن الدعوة عندهم ضرب من الأسر.

و قد أدبنی أو أدب طربوشی أحد الوجوه فی کمبریج إلی أن أشرب الشای معه، فقال: هل لک فی أن تشرب الشای معنا فی إحدی اللیالی، و لکن بعد ثلاثة أسابیع؟ قلت: نعم. حتی إذا سرت إلیه لم أجد علی المائدة غیر الصنف المعتاد منه مع أنّی کنت أظن أن توقیت تلک المدّة إنّما کان لجلبه من بعض البلاد.

و إذا کانوا مجتمعین فی مجلس و أرادوا الخروج إلی محل المائدة أخذ الرجل بذراع زوجة غیره، و أجلسها علی الکرسی، و أخذ غیرة بذراع زوجته، و إذا بقیت واحدة بغیر زبون کان ذلک داعیا لخجلها.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶۴

و من عادة النساء علی الموائد أن یکشفن عن صدورهن و أکتافهن، و أنصاف أعضادهن، و هذه المواضع أحسن ما یری فیهن. و من عادة العجائز أن یتزیّن بما لهنّ من الحلی و الجواهر و الشعر العاریة، و لیس ذلک من عادة البنات قبل زواجهن، فتری البنت الباهرة بجنب أمّها السعلاة عطلا، و تلک متبجحة بالقلائد و الخواتم و الأسورة و السلاسل، إلا أنّهم فی غیر الولائم و السهریات لا یتحلّین بشیء، و من الأدب عندهن أن یأکلن و أکفّهن مستترات بالجلد الأبیض، و یمضغن ما یأکلنه مضغا خفیا، فإن فتح الفم للالتقام، و شدّة لوک الملتقم من أکبر العیوب، و الذی یظهر لی أن نساء الریف بالنسبة إلی برودة قطرهن، و صحّة أبدانهن قلیلات الأکل جدّا، و مع ذلک تراهن عبلا سمانا بخلاف نساء لندرة، و قلّما تأکل إحداهن شیئا من دون شراب معه، أو تشرب من دون أکل، و ربّما تغدی أحدهم بغیر شراب، فإذا فرغ شرب الشراب وحده. و عامّة الإنکلیز یطبخون طعامهم بلا ملح، و إنّما یملّحونه عند الأکل، و یکثرون من الأبازیر منتهی الإکثار، و لا- سیّما الفلفل و الخردل، فإنّ أحدهم لیضع فی صحفته ملعقة من کلّ منهما، و الفلاحون یأکلون الحلواء قبل الطبیخ، فهم فی هذه کالترک، و یشربون الحلیب بالملح و الفلفل، و بعضهم یخلط الدقیق بقلیل من السکر و

یأکله. و قد دعانی بعضهم إلی أن أشرب معه القهوة، و کان یأکل معها فجلا و رشادا، فعرض علیّ فأبیت فتعجّب من ذلک. و مع افتقار هؤلاء الفلاحین و شدّة احتیاجهم إلی أشیاء کثیرة للدفء ممّا نستغنی عنه فی بلادنا، و کذلک کإیقاد النار للاصطلاء مدّة ثمانیة أشهر فی لسنة، و کلبس الجوارب و الشعار من الصوف، فقد ألفوا شرب الشای ألفة شدیدة حتی لم یعد ممکنا لهم أن یستغنوا عنه، فیقال: إنّ مصروفهم منه فی العام یبلغ نحو ثلاثین ملیون رطل، و مصروف جمیع الممالک یبلغ نحو اثنین و عشرین ملیونا. و قد جلب منه فی العام الماضی سبعة و ثمانون ملیون رطل.

فی الشای

و أول ما عرف هذا النبات فی أوربا کان من أهل هولاند، فإنّهم جلبوه من الهند

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶۵

و ذلک فی سنة ۱۶۱۰ و کان استعماله أولا فی غایة الندرة، فکان یباع الرطل منه من ست لیرات إلی عشر. ثم لما استقرّت جمعیة الهند فی تلک البلاد صاروا یجلبونه منها، فرخص سعره و کثر استعماله، و ضرب المکس علیه فی أمیرکا حین کانت ملحقة ببلاد الإنکلیز کان من بعض الأسباب التی هیّجت الأهلین إلی النزاع و الحرب. و قد حاول الإفرنج تنبیته فی بلادهم فلم یتهیّأ لهم، و جمیع الأطبّاء یقولون:

إن شرب الشای غیر نافع، بل مضر ضررا بلیغا بمن فی عصبهم استرخاء، و لا شیء أقرّ لعین صاحبة العیلة من الإنکلیز من أن تشرب الشای مع أولادها بقرب الموقد، و لا سیّما إذا کانت مغلاة الماء تغلی و یسمع لها نشیش، و البخار صاعد من بلبلتها، و هذا هو أوفر الهناء الذی یعبّرون عنه بلفظة کمفورت.

ثمّ إن الإنکلیز عموما یفتخرون بالهسبیتالیتی و هی قری الضیف و برّ الغریب، و الحقّ یقال: إنّهم فی ذلک أکرم من الفرنسیس، و خصوصا أهل الرستاق دون أهل المدن الجامعة، فإن همّهم بتحصیل الکسب شاغل لهم عن الکرم، إلا أن مآدبهم منغّصة بکثرة التحشّم و التکلّف الذی لا معنی له.

عادتهم فی المآدب الحافلة

و قد جرت العادة فی المآدب الحافلة أن یشربوا الشراب علی ذکر مشاهیرهم و زعمائهم، أو کما یقولون علی صحّتهم، أو بالحری یشربون صحتهم. قال فلتیر:

الظاهر أنّا نشرب الشراب لأجل صحّتنا لا لأجل صحّة غیرنا.

و کانت عادة الیونانیین و الرومانیین أن یشربوا و یقولوا کلاما یکون داعیا لأن یشرب غیرهم معهم، لا أن یقولوا إنّا نشرب علی صحّة فلان، و کانوا یشربون فی الأعیاد تذکارا لإحدی الحظایا، و من هنا جرت العادة عند الإنکلیز الذین یحبّون تجدید کثیر من عادات الرومانیین أن یشربوا علی ذکر إحدی الخواتین، و یقال لها طوست، و قد یقع الجدال بینهم و المناقشة، هل تلک السیّدة جدیرة بذلک أو لا.

و من الأمور المهمّة عندهم أن یشربوا علی ذکر ولی العهد الذی له حقّ فی الملک، فإنّ ذلک دلیل علی کون الشاربین من حزبه. قال برون أسقف کورک- و کان ممّن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶۶

یکرهون الملک ولیم-: بودّی لو کنت أسد جمیع تلک الزجاجات التی شربت لمجد هذا الملک، و فی سنة ۱۷۰۲ کتب منشورا إلی أهل إرلاند یعلن فیه بأن الشرب علی ذکر الملوک معصیة کبیرة، و لا سیّما بعد موتهم لأنّ ذلک مناقض لأمر المسیح بقوله:

اشربوا هذا لذکری.

و کذلک برین البرسبیتاریان ألّف کتابا کبیرا نهی فیه عن الشرب علی ذکر أحد المسیحیین، و حذا علی حذوه کثیرون من أهل إنکلترة و فرنسا، غیر أن مؤلف یوحنّا غزی فی هذا الباب لا یعلو علیه مؤلف، قال و ذلک کلّه من العبث.

قلت: و کانت العادة أنّهم إذا شربوا علی اسم امرأة طرح الشارب شیئا من ثیابه، فیلتزم جمیع الحاضرین أن یفعلوا فعله، فلمّا کان ذات یوم شرب أحد الأمراء علی اسم محبوبته و طلب من الحلاق أن یقلع له ضرسا نخرا؛ فاضطرت أصحابه أن یقتدوا به. و فی بعض صحف الأخبار حکایة عن رجل فرنساوی أنّه قال: قد حضرت أنا و رفیقی إلی الغداء إن صحّ أن یقال لتلک الصحاف غداء، أمّا أولا فلأنه لم یکن معه شوربة، ثم ترادفت علینا قطع من لحم البقر و قدر من لحم الضأن، ثم وضعت البطاطس أمامنا علی طبعها و علی حالها و عوضا عن التوابل، و کان لکل من الجلوس صحفة فیها سمن مسلی، فشقّ علیّ هذه الحال التی رأیتها أوّل دخولی بلاد الإنکلیز، و قلت فی نفسی: ألا إن هؤلاء القوم لحمیّون ما یعرضون إلا اللحم، ثم جالت الأفکار و الخواطر فی رأسی، و قلت: لیت شعری ما سبب تفرّدهم بخصال لم یشارکهم فیها غیرهم من النفخة التی تظهر فیهم، و من عدم دربهم فی الرقص، و غلاظة أصواتهم فی الغناء و التخاطب، و کلوح سحنهم الناعسة؟ و عن ذلک کلّه کنت أقول فی الجواب: إنّما هو لحم بقر، إنّما هو لحم ضأن، ثم دعیت إلی لون من الطعام نوهوا به باسم بت لکّ، و هو اسم طالما طرق مسامع أهل بلادنا، و کنت متشوّقا إلی أن أعرفه، فلمّا کشف الغطاء عنه و نظرت إلیه إذا هو لحم مشرّح شرائح رقیقة، و متبل بالبصل، فصرخت متعجّبا: لعمری إن هو إلا الذی نسمیه بیفتک، فلما قلت هذا تضاحکت الجلوس، و لا سیّما واحدة من الخواتین کانت تتکلّم بلغتنا، ثم قالت: إن اسم هذا اللون معناه بخت آکله تفنّنا فی التسمیة لا فی المأکول.

و قال آخر: ما شیء بأعجب من رؤیة ولائم الإنکلیز التی تذکّر الناظر بالولائم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶۷

التی ذکرها أومیروس، إذ تری قطعا جزیلة جدّا من لحم البقر المشوی، و شاة بأسرها علی طبق، و حیتانا ضخاما علی مائدة طویلة ملآنة من القنانی و الأقداح و الظروف، فتجلس الضیوف؛ و علیهم الثیاب السود، و هم رزان ساکتون متحلّمون کأنهم حول جنازة، و وراء الزعیم رجل یقال له طوست ماستر، و هو الذی علیه أن یفتتح الکلام، حتی إذا ناجاه الزعیم قال بصوت جهیر: أیّها الکرام إنّی عمدت إلی طوست، و لا أشکّ أنکم تنعمون بقبوله، فتتحرّک الجلوس من همدتهم، و یقومون بأجمعهم کما تحرّک شیئا بآلة، و یجیبون دعوته، فإذا شربوا برز ثلاث جواری کاشفات عن ترائبهن من وراء حجاب، و یأخذن فی العزف بالبیانو، و لا یزال الطوست یدور، و یعاد إلی أن یحلّ محلّه.

جهلهم بالطبخ

و من العجیب أن جیلا متقدّما فی المعارف و الصنائع کالإنکلیز لا یعرفون أن یطبخوا اللحم بالبقول، و إنّما یطبخون کلا منها علی حدته. أمّا البقول فإنّما یسلقونها سلقا، و هی عبارة عن اللفت و الکرنب و الجزر، و شیئا آخر من هذه النباتات الریحیة. و سلطان المائدة إنّما هو البطاطس إذ لا تتم آدابهم إلا بها، و ربّما اجتزأ الفلاحون بها عن کل ما عداها حتی عن الخبز، و قد یحشون بها رقاق الخبز و یطبخونها فی الفرن فتسدّ مسدّ کلّ شیء. و أهل إرلاند یتّخذون منها خبزا.

أمّا اللحم فأحب شیء إلیهم منه الشواء، و هذا من وجه یصلح لمن ألف الأسفار، لأن المسافر حیثما کان فی الأرض یجد لحما و نارا، بخلاف من سافر منّا و قد ألف ألونا شتّی من الطبیخ، فلا یزال لهجا بهذا و ذاک، فیتنغّص عیشه، و علی ذلک قولی:

کأنی أنا و الفیل صنوان فرّقا سوی أننی ضرب و ذلک بادن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶۸

فإن له نابا يحين لأجله و إنى لسنّى كلّ حين لحائن

إلا- أنّ اللوم موجّه على المستوطنين، و أصحاب المطاعم و الفنادق الذين يجهلون من أنواع الطبخ ما يعرفه أفقر الناس فى البلاد المشرقية، حتى إنّهم لا يعرفون أن يقلوا البيض بالسمن، و لا يطبخون العدس، و لا الحمص، و لا الفول، و لا غير ذلك من القطانى إلا الرز، فإنّهم يسلقونه سلقا ثم يصبّون عليه الحليب. و أكثرهم يتقزّز من الزيت و لا- يدرى ما طعمه، على أنّهم يأكلون الدم مخلوطا بالشحم، و يتّخذون منه أيضا نوعا من الفصيد.

أكلهم اللحم المنتن

و من العجيب أنّهم لا- يعافون من أكل اللحم المنتن و غيره، فإن الأرنب و الغزال لا يأكلونهما إلا بعد خنقهما بنحو ثلاثين يوما، و قد دعيت غير مرّة إلى موائد الموسرين، و شممت فيها جخر الأرنب، و على ذلك قولى:

و يأتون بالأرنب المسبطر صحيحا كما كان يطمر طمرا بأذنابه و بأسنانه و بأظفاره و هو يفغر ثغرا

و فى وجه كل الضيوف له ذنب شائل و دبر تعرّى و و الله بالله تالله إنّى شممت له جخرا ليس حزرا

و كذلك الفراخ و الطيور لا يطبخونها إلا بعد خنقها بأيّام، و يقولون: إنّها إذا بقيت أياما كثيرة بعد خنقها يزيد لحمها مراءة و طيبا، و الدليل على ذلك أن الآكل منها يكفيه قليل بخلاف ما لو أكلت و هى طريّة. و الحقّ يقال: إنّ لحم البقر عندهم لا يؤكل إلا بعد ذبحه بيوم أو يومين، و ذلك لكثرة دمه، و لا- حرج على بيع المنتن من اللحم و السمك، و الفجّ من الأثمار و الفاسد من كلّ شىء. و عندهم صنف من الجبن يستطيبونه على غيره لكونه مدوّدا، و كنت ذكرت يوما لأحد فضلائهم قضية أكلهم

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۶۹

الأرنب منتنا، فقال: لا تعد تذكر لفظة منتن، فإنّها قبيحة تشمئز منها المسامع، فقلت: ما دمتم أنتم تأكلون المنتن و لا تشمئزون منه فلست بمنفك عن أن أذكره، و هذا كتحشمكم من أن تذكروا فى كتبكم ضخم أرداف المرأة، مع أن نساءكم النحيفات يعظّمن عجائزهن بما لا مزيد عليه من الحشايا و المرافد ممّا لو فعلته الفواجر عندنا لخجلن، فأنتم حيّيون من الاسم، و وقحون على الفعل إن هذا لغريب فضحك هو و زوجته.

و قالت لى مرّة إحدى النساء المخدومات: ما أطيب العيش فى بلاد النمسا لو لا أنى أكره شيئا من طبخهم.

فقلت: ما هو؟ و قد توقّعت أن تقول أكلهم الأرنب منتنا.

و إذا بها قالت: إنّهم يطبخون الفراخ بعد ذبحها.

و شكوت ذات يوم لسيّدة طول استمرارى على صنف واحد من الطعام، فأرسلت إلىّ خادمها فى اليوم القابل يقول: إن سيّدتى تدعوك إلى الغداء، فلمّا توجّهت قالت لى: إنّى سمعتك بالأمس تشكو من الطعام، فصنعت لك اليوم ما يعجبك. فلمّا هيّئت المائدة قدّم عليها أرنب بآذانه و ذنبه و إذا به منتن ذفر يملأ ذفره الخياشيم؛ فتعوّذت بالله، و قلت ما قال ذلك الظريف: إن عمر هذا الحيوان بعد موته أطول منه فى حياته.

و الظاهر أن الإنكليز يحبّون أكل الأرنب و صورته أيضا، فقد دخلت مرّة دار الصور فى كمبريج مع دكطر لى فكان أوّل ما وقع نظرى عليه صورة ملكة من ملكات إسبانيا على هيئة الاضطجاع عريانة، و ثمنها أربعة آلاف ليرة، و إلى جانبها صورة أرانب و صياد، فجعلت انظر إلى صور الملكة و جعل هو ينظر إلى صورة الأرانب و يستدعينى إلى ذلك.

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۰

طعامهم و شرابهم

ثم إنه ما عدا جهل الإنكليز بالطبخ و اقتصارهم على لونين، أو ثلاثة من الطعام، فإن الإنسان لا يجد عندهم شيئا من الطعام و الشراب خالصا، أمّا الخبز فإنّهم يخمّرونه بنوع يستخرجونه من المزر، و يخلطونه بالبطاطس و الرز، و الفول، و الهرطمان، و الذرة، و الشبّ، و فی كلّ رغيف يوجد نحو عشرين حبّة من الشبّ، و بملح الصفر، و بالطين و جبس باريس، و بسحيق العظام، و بجزئين آخرين.

و فی بعض صحف الأخبار أن رجلا أكل جبنا فمرض، فاستدعی بالطبيب، فلمّا حضر عرف أنّ الرجل مسموم، و أن الجبن كان ملونا بالأناتو، و هذا الأناتو خلط بشیء من القرمز، و هذا أيضا خلط بالسيلقون. و أمّا القهوة فيخلطونها بالهندباء و القمح و الهرطمان و دقيق البطاطس و الفول، و بمحرق السكر، و عكر القهوة، و اللفت و جذر الفوّة و بجزئين آخرين، و أمّا السكّر فمخلوط بالرمل و الطين و دقيق القمح و البطاطس و النشا، و بأجزاء أخرى من جملتها هامة يقال لها: أكارى.

و أمّا الحليب فنصفه، أو ثلثه ماء كذا وجده دكطر هلياك و ملوّن بصنف يقال له أناتو، و هذا الصنف مركّب من القلی و ملح الصفر و الملح و السرنج و بستّة أجزاء أخرى.

و عند تدقيق النظر فيه ترى فيه مخ الشاة و الجبس و الدقيق و النشا و عصير اللوز و الصمغ و جزئين آخرين. و أما البيض فإنهم ينقعونه فی الصيف حين يكون ثمنه رخيصا فی برميل ملیء جيرا و ماء، ثم يخرجونه فی الشتاء و يبيعونه بسعر الغريض فيأتی مسخا، و يتولد فيه طعم جيری مضر بالمعدة. و علامة المنقوع منه أن يكون أبيض ناصعا لكنه خشن الملمس.

و أمّا اللحم فينقعونه فی الدم، أمّا المزر فمخلوط بخمسة و عشرين جزءا من جملتها الأفيون، و الملح و الربّ و السكر و الفول و ملح الطرطير، و محرق البردقان، و الزنجبيل، و الأفسنتين، و العسل، و ملح الحديد، و ملح الكبريت و محرق قشر السرطان. و أمّا الخمر فمخلوطة بأكثر من خمسة عشر جزءا من جملتها الماء و العرق، و روح القمح، و شراب التفاح، و عود برازيل، و محرق السكر و الرصاص.

و أمّا التبغ فمخلوط بالزيت و الملح و الرب، و السكر و الماء، و الراوند و البطاطس

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۱

و الكرنب، و النطرون و الرمل، و بستة و عشرين جزءا أخرى لطعمه و لونه، و قس على ذلك النشوق و الخردل و الزيت و الصابون و الخل مع أن هذا الأخير يستقطر من نوع من الشجر، و قيل من المزر.

فهؤلاء الناس الذين حكمهم كحكم سائر الناس فی كونهم ترابا والی التراب يعودون، قد خالفوهم فی أنهم يأكلون التراب و يشربونه فحيا الإله عصا المحتسب.

و هذا الطمع لقنهم أن يتّخذوا نبيذا من جميع الفواكه من أشهره نبيذ التفاح، و قد كان عندهم فی السابق بمنزلة الخمر فی التنافس فيه، فكانوا يسقونه الضيوف كما تسقی الصهباء. ثم أعود فأقول: إنه لا غرو أن يستطيب هؤلاء القوم ما ألفوه، فإن العادة- كما يقال- خامس طبيعة، أو ليس أن هنود لويزانيا يأكلون نوعا من لتراب الأبيض بالملح بدل الخبز؟ و هنود أرنو كوكو يأكلون أيضا نوعا من الطين اللزج الأبيض؟ و الزنج يستطيبون نوعا من الثمر علی الخبز. أمّا الأمراء و الأغنياء من الإنكليز فإنّهم يستخدمون طبّاخين فرنساويين و يتلذّذون بأنواع من الألوان. و يعجبنی من مآكلهم طبخ الفاكهة الطرية و اليابسة فی العجين، و ذلك غير معروف لأهل مصر و الشام، و هو من بعض ما تعلّمته الإنكليز من الفرنساويين حتی صار عاما لغنيّهم و فقيرهم. و أكثر أسماء الطبيخ عندهم منقول من اللغة الفرنساوية. و عندی أن اشتهار الأطعمة الفاخرة فی الشام إنّما عرف فی زمن معاوية، فإنه كان يتأنّق فی الطعام، ثم نقلت إليهم ألوان كثيرة من العجم كما يظهر ذلك من بقاء أسمائها عندهم.

صلاتهم و طقوس عبادتهم

ثم إنه من رسوم الكنيسة المتأصلة أن تقام الصلاة فيها يوم الأحد ساعتين فی الصباح، و ساعة و نصفا فی المساء، و إن لم يحضر فيها

غیر ثلاثة نفر، فتسمع فی خلال ذلک من تکریر الأدعیة و الابتهالات ما یذهب بالصبر، و بعد ذلک یقوم القسیس و یخطب فیهم. و أکثر الفلاحین یذهبون إلی الکنیسة حیاء من جیرتهم أو خوفا من القسیس لأن قسیسی هذه الکنیسة لهم سطوة نافذة علی الرعیّة، و متی قامت الصلاة نعسوا أو تناعسوا، و قد بلغنی أن أحد هؤلاء الخطباء لمّا شرع مرّة فی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۲

الوعظ التفت فرأی الناس نائمین، فغضب لذلک و قال: بئس السامعون أنتم لکلمة اللّه، إنّکم إن لم تسمعوها فستحسّون بها. ثم رفع التوراة من أمامه و ضرب بها بعض النائمین حتی انتبهوا.

و فی یوم الأحد لا یعملون أدنی عمل حتی إن أکثرهم لا یطبخ، و منهم من یتحرّج من حلق شعره فیه أو من کتب رسالة. و قد أردت مرّة أن أنزل فی بیت عجوز فأوّل ما اشترطت علیّ به کان عدم الطبخ یوم الأحد، و عندی أن أصل ذلک البخل منعا للزیارة و الاجتماع.

و یحکی عن رجل أنّه سرق بقرة فثقف یوم الأحد فقال للشرطی: لو لا حرمة هذا الیوم لما أعیانی التملّص من یدک. و هذا الیوم فی جمیع البلاد الکاثولیکیة الرومانیة هو یوم الحظ و التزوار، و فی هذه البلاد هو یوم الانقباض و الکآبة، و هو فی سکوتلاندة أکثر قبضا و کآبة.

و لا بدّ من أن یکون فی کلّ بیت توراة و إنجیل و کتاب صلوات، فیقعد ربّ البیت، و یحمل بعض أولاده علی القراءة منها، و یقضون النهار کلّه فی القراءة و الترتیل من الزبور و غیرهن و فی سماع الصلاة فی الکنیسة، و لا یکاد صاحب عیلة یجلس علی المائدة للطعام من دون أن یصلّی أولا- أو یجعل بعض أولاده یتلو صلاة ما، و کذلک عقب الطعام، و من أمکنه أن یستعمل فی هذا الیوم آنیة و ظروفا غیر التی یستعملها فی سائر الأیام عدّ ذلک من الاحترام و التوقیر للیوم.

و الغالب علی الإنکلیز عموما مراعاة الفروض الدینیة، إمّا عن تعبّد أو لمصلحة، فإن الطبیب مثلا إذا علم منه أنه لا یحضر الصلاة، أو لیس عنده کتب دینیّة فی بیته، أو کان قلیل الاحترام لأهل الکنیسة فضلا عن کونه یجادلهم، قلّ اعتباره عند ذوی الوجاهة، و قلّ نفعه من حرفته، و جلّ المؤلفین من الإنکلیز یستشهدون بکلام من التوراة و الإنجیل ترویجا لبیع الکتاب، حتی إن بلیر بنی معظم أسالیب البلاغة و البیان فی کتاب المعانی علی عبارات من التوراة، و هذا الریاء و التدلیس قلّ أن یوجد فی الفرنسیس، فإن من کان منهم قلیل الدین انقطع عن الکنیسة أصلا، و المؤلّف منهم إذا کان غیر ذی اعتقاد لا- یستشهد بها فی شیء، و لا- یکون ذلک باعثا لکساد حرفتهما.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۳

أمّا أهل الکنیسة المتفرّعة فهم أشدّ تحمّسا و تصلّبا من أولئک، فقد یعظون الناس فی الطرق و الحقول، و یوزّعون فی البیوت کتبا، و رسائل دینیة، و کذلک یفعلون فی المدن الغنّاء. و ربّما منعتهم الشرطة من الوعظ علانیة لئلا- تجتمع علیهم الأوباش، فیکون من اجتماعهم ما یوجب النزاع.

و یذهبون إلی کنائسهم ثلاث مرّات فی یوم الأحد و لا یعوقهم عن ذلک برد و لا ثلج و لا مطر، و القاطنون منهم فی أماکن منفردة یقصدون الکنائس القریبة، و جمیع القسیسین فی بلاد الإنکلیز یکلّفون خدمتهم و ضیوفهم إلی حضور الصلاة فی دیارهم صباحا و مساء، و قبل تناول الطعام و بعده لا بد من تلاوة صلاة أو دعاء و إن غاب القسیس قامت امرأته فی ذلک مقامه.

کهنتهم و کنائسهم

و اعلم أن الکنیسة مؤلّفة من مطرانین؛ أحدهما مطران کنتر بوری و دخله فی العام خمسة و عشرون ألف لیرة، و هو ثانی صاحب الملک فی الرتبة و المنزلة، و الثانی مطران یورک و دخله خمسة عشر ألفا، و من خمسة و عشرین أسقفا وظیفة کل منهم من أربعة

آلاف لیرة فصاعدا. و متی عجز أحدهم عن القیام بخدمته رتّب له ألف لیرة. و قد کان لأسقف برهام ستّة عشر ألف لیرة، فلمّا انزوی فی قصره عیّن له نصف المبلغ.

و تحت ذلک مراتب متعدّدة الأولی جانسیلر، ثم الدین، ثم الأرشیدیکن أی رئیس الشمامسة، ثم البریبندری، ثم القانوی الأکبر، و القانونی الأصغر، ثم الفیکار، ثم الرکطر. و عدتهم بموجب آخر تعریف بلغت ۳۲۷، ۱۲. و عدّة کنائس البروتستانط بلغت فی سنة ۱۸۱۸/ ۷۴۲، ۱۱.

و فی القرن السابع کان للإکلیروس کلمة نافذة حتی علی الملک، و فی سنة ۱۸۵۴ بلغ ما جمع لنفقة کنائس إنکلترة وحدها فی سنة ۵۴۰، ۳۰۱ لیرة، و لمساعدتها ۷۷۱، ۱۶۴، فتکون الجملة ۳۱۱، ۴۶۶ لیرة، و فی سنة ۱۶۰۴ استعفی منهم ألفان من وظائفهم کراهیة أن یمضوا أسماءهم علی کتاب الصلوات المشتمل علی تسع و ثلاثین عقیدة. و لهذه الکنیسة حقّ فی أن تأخذ العشر من سائر الکنائس، بل من الیهود

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۴

أیضا، و طالما تظلم أهل الکنیسة المتفرّعة من أداء العشر لها، فلم یجد ذلک نفعا، و لا یسمح للکنیسة المتفرعة أو لغیرها بوضع أجراس، و إذا اضطرّ أحد من المتفرّعین إلی زواج مثلا أو معمودیة أو غیر ذلک من الفرائض الدینیة، و طلب من قسّیس المتأصّلة أن یقضی له ذلک حالة کون قسیسه غائبا لم یجبه إلی مطلوبه.

و قد بلغنی أنّ رجلا مات، و کان حال حیاته مذبذبا فی عقیدته، فتنازع قسّیسا الکنیستین علی أیّهما یدفنه، و طال ذلک بینهما حتی أروح المیت.

نفوذ الکنیسة المتأصلة

و یمکن أن یقال: إنّ الکنیسة المتأصّلة هی دیوان من بعض دواوین المیری، فإنّ کلمة رکطر القریة أبلغ نفوذا و فاعلیة من کلمة ضابط البلد، و لیس شرطی الدیوان فی قریته إلا من بعض أتباعه. و إذا زاره أحد الفلاحین فلا یأذن له فی الجلوس، فهو علی هذا جدیر بأن یقال له: دهقان القریة أو شیخ البلد. و ربّما بلغ دخله ألف لیرة، فتری له أحسن الدیار، و عنده خدمة و عاجلة فاخرة و خادم یسوقها، و علی برنیطته شریطة من ذهب کخدمة الأمراء، ثمّ إذا صعد المنبر وعظ المساکین المحتاجین إلی القوت الضروری بالزهد فی الدنیا و تجنّب شهواتها.

و لا یمکن إقامة دعوی فی دیوان أحد الأساقفة إلا بمصروف وافر، فلهذا یتأتّی أن یعیش الرجل مع امرأة عیشة المتعة و السفاح إلا إذا صدر له حکم من دیوان الأسقف من دون نفقة، و ذلک نادر.

و هذه الکنیسة هی مثل الدولة فی أنها لا تروم تغییر شیء من رسومها و تراتیبها و أحکامها، فإن قسّیسیها یتلوّن فیها کتاب الزبور، و بعض فصول التوراة و الإنجیل، و هی مخالفة لما فی أیدیهم الآن منها، و ذلک لأنّ کتاب الصلوات جری استعماله عندهم قبل ترجمة التوراة، فلمّا شرعوا فی ترجمتها وجدوا أن ما أدرج فیه کان مخالفا للأصل فأبقوه علی خلله. و من یوم شرعوا فی التألیف تجد اسم یسوع علی نسق واحد فی جمیع کتبهم و کلامهم، و هو جیسس، إلا فی موضع واحد من کتاب الصلوات المذکور فإنّه فیه جیسو، فکأنّه فی اللاتینیة مجرور، و کلّما طبعوا نسخة من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۵

هذا الکتاب حذفوا السین فی ذلک الموضع.

و لا بدّ من أن یکون فی کلّ قریة فی بلاد الفلاحین کنیسة للمتأصّلة و إن لم یکن فیها دکان لبیع أهم ما یکون من المأکول و الملبوس، و لا بدّ أیضا من أن یکون لها برج یلزقها لوضع الأجراس، فمنها ما یکون له أربعة، و منها ما یکون له ستّة، أو اثنا عشر، و

ضربهم بها مطرب و لا سیّما علی بعد. و هم یدّعون بأنّه لیس من یجاریهم فی هذه الصنعة؛ فإنّهم أتقنوها غایة الإتقان، حتی إنّها تکاد أن تعدّ من فنون صنعة الإیقاع.

و أکبر جرس فی الدنیا جرس کرملین، أو کرمیلان، و هی قلعة مدینة المسکوب زنته ۷۷۲، ۴۳۳ رطلا، و قیمة جوهره ۵۶۵، ۶۶ لیرة، و لما شرع فی سکبه تبرّع کثیر من الناس بالفضّة و الذهب، فخلطا معه، ثم یلیه جرس کنیسة صانت إیفان فی المدینة المذکورة زنته ۸۳۶، ۱۲۷ رطلا، و جرس کنیسة رومیة زنته ۶۰۷، ۱۸، و جرس قصر فلورانس زنته ۰۰۰، ۱۷ رطل و نحوه جرس أکسفورد، وزنة جرس کنیسة صان باول بلندرة ۴۷۴، ۱۱ رطلا، و فی هذه السنة وضع جرس فی برج مجلس المشورة بالمدینة المذکورة زنته ۰۰۰، ۳۶ رطل.

قال فلتیر: إن بلاد الإنکلیز هی بلاد المذاهب و النحل، فالإنکلیزی یذهب إلی السماء من أی طریق شاء، و لکن و إن یکن ممکنا لکلّ واحد منهم أن یعبد الله و یخدمه علی الوجه الذی استحسنه، إلا أن دین الدولة هو الوسیلة للتموّل و نوال الوظائف و المراتب السامیة، فلا یمکن لأحد أن ینال وظیفة فی إنکلترة و إرلاند ما لم یکن علی مذهب الکنیسة الأسقفیة، و هذا الحظر جعل جلّ ذوی الوجاهة و النباهة من حزبها، ثم إن إکلیروس هذه الکنیسة قد اقتدوا بالکنیسة الکاثولیکیة فی سنن کثیرة و خصوصا فی أخذ العشر من الرعیة، و فی النهم إلی التأمّر علیهم؛ لأن رکطر القریة إن هو إلا بابا لو استطاع، إلا أنّهم أکثر حشمة و عفّة من قسیسی فرنسا، و أخص أسباب ذلک هو کونهم یتربّون فی أکسفورد و کمبریج بعیدین عن فساد المدن الکبیرة.

قلت لعلّه حین کتب ذلک کان إکلیروس فرنسا علی غیر ما نراهم فی هذا العصر، فإنّهم الآن قدوة فی الفضائل و المحامد، و کذا یوجّه قوله بعیدین عن الفساد، فإن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۶

هاتین المدینتین الآن فیهما من البغایا ما یکفی أهلهما و غیرهم معهم. و لو قال: إن أخصّ أسباب ذلک هو کون قسیسی الإنکلیز یباح لهم الزواج لکان أولی. قال: و لا ینتدبون إلی رتب الکنیسة إلا إذا بلغ أحدهم من العمر ما لا یکون له فیه نهم.

قلت: حدّ القسیس أن یکون بالغا من العمر أربعا و عشرین سنة، و متی عرف فضله و علمه بعد ذلک یرقّی إلی درجة الأسقفیة من دون تعیین سن.

التوجه إلی برستول

و هنا فلیفرح الوادون، و لیکمد الشامتون، فإن الدکطرلی عزم علی التوجه إلی برستول لیقضی فیها وظائفه الکنائسیة مدة شهرین، و لکن لیس بعد أن نعیته إلی القارئین و السامعین، و من ثم وجب علیّ أن ألحق به، ففصلت من تلک القریة المشؤومة إلی لندرة و منها إلی المدینة المذکورة، فبلغتها فی نحو خمس ساعات، فی خلالها وقف الرتل فی عدة مواقف، و کان قد أخبر صاحبة المحل بقدومی و حالی، و أوصاها بأن تطبخ لی طبیخا فرنساویا، أی أن یکون کثیر البقول، قلیل اللحم. فلما کان المساء أحضرت لی طعاما مطبوخا من دون ملح علی عادتهم، لکنها احتفلت بی غایة الاحتفال حتی استحییت من أن أذکر لها الملح، و فضلا عن ذلک فإن فرحی برؤیة الأسواق و الدیار و العواجل أنسانیه، ثم لما قابلت الدکطرلی فی الغد سألنی عن الطعام، فقلت له:

- إنه کان بغیر ملح.

قال:

- کیف؟ ألم تحضر لک ملحا علی المائدة!؟ فلم لم تملّحه أنت؟ فإنها خشیت أن تضع فیه ما تعافه.

فقلت:

- لو أحضرت لی اللحم نیئا لکنت أطبخه بأنفاسی و أملحه بدموعی، و کان خیرا من عادتکم هذه المنغصة.

قال:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۷

- لا بأس بيّن لها المرة الثانية قدر ما تريده من الملح تفعل.

ثم لمت صاحبة المنزل على طبخها الطعام غير مملوح، فقالت:

- هذا دأبنا، أرأيت ذلك المخلل الذى أكلته البارحة؟ لو أنك أعطيت زوجى خمسين ليرة لما أكله، مع أنه كان خسّا بالخل.

و بينما كنت ذات يوم جالسا معهم على المائدة، إذ دخل طفل لها و هو وسخ الثياب و الطلعة، فقال لها زوجها: لم تغادرين الولد و سخا هكذا. فقالت: قد غسلته هذا الصباح و لكن طبعه أن لا يدع شيئا من ثيابه نظيفا. ثم لجّا فی الكلام فما أشعر إلا و الستّ قامت و جاءت بالمكنسة لتضرب زوجها، فهرب من قدّامها فأقبلت تجرى وراءه و هو هارب، فلما لم تلحقه غشى عليها من شدة الغضب، فتداركها الرجل بالعرقى و بغيره حتى أفاقت، مع أنها كانت من أهل الصلاح، و كان زوجها بمنزلة نصف قسّيس.

وصف مدينة برستول

ثم إن برستول هى من المدن القديمة لا بهجة لها و لا رونق، و هى ضيقة الطرقات قذرتها، و ليس لها مماش رحيبة، و لا ساحات فسيحة، و لا- مقاعد و لا منتزهات، و لا محالّ للقهوة أو الحظّ سوى ملهى واحد. و عدد أهلها مائة و خمسون ألفا، و قلّ فيها وجود غريب. و بيوتها الجديدة حسنة فأما القديمة فلا تصلح لشىء، فإن صفحها شبه زاوية منفرجة يبدو منه تسنّم سطوحها، و تجد بين البيت و البيت من فرق خلاء تنبو عنه العين، و نساؤها يشبهن نساء الفرنسيس فی استدارة الوجه، و لها نهر صغير فيه بواخر و غيرها، مسافته نحو سبعة أميال يأتيه الجزر و المدّ فی اليوم مرتين، و منه تسافر البواخر إلى والس، و قد شرع فی بناء جسر عليه من حديد و لم يتم لكثرة مصروفه، و عند هذا الجسر كانت محلة للرومانيين لما افتتحوا بريتانيا، و قد بقى من آثارهم حائط كانوا يتترّسون به. قال مؤلف أبجدية الأوقات: كان بناء برستول فی سنة ۳۸۰ قبل الميلاد، و كانت تعدّ من المدن المحصنة، و اسمها فی القديم كاير بريتو، أى مدينة البريتانيين انتهى.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۸

وصول قاضى المدينة

و اتفق بعد نزولى فی ذلك المحل أن قدم القاضى و نزل فيه، و فی الغد حضر نحو أربعين رجلا من شرطة البلد و اصطفوا لدى الباب، و وقف اثنان ينفخان فی أبواق من فضة، ثم جاء ضابط متردّيا لباسا أحمر، و كان القاضى قد لبس أيضا لباسا أحمر، و على رأسه شعر عارية أبيض، فدخلا فی عاجلة نفيسة وقف عليها رجلان لابسان كسوة مزركشة بالذهب، كما هى عادة خدّام الأمراء، ثم دخل معهما رجل حاملا سيفا طويلا فی كعبه صورة تاج، و له ثلاثمائة ليرة فی العام لحمل السيف، ثم ذهبوا إلى دار الحكومة. و كان عن شمال العاجلة ثمانية من الشرطة يحملون عصيا من فضة، رؤوسها كالمباخر، و اثنان يحملان مزاريق قد غشّيت أعاليها بالفضة. و فی كل سنة يحتفلون به هذا الاحتفال، فإن القاضى لا يستقرّ فی البلدة، و إنما يأتى إليها أربع مرات فی السنة لفصل الدعاوى الخطيرة فی أيام معدودات، و فی مدة غيابه ينوب عنه أناس فی فصل غير المهم.

طائفة الكويكرس

و فی برستول كنيسة للطائفة المعروفة بالكويكرس- و السين علامة الجمع- و هم صنف من النصارى إلا أنهم لا يعتقدون بالمعمودية، و لا- بالقربان، و لا يقرأون الإنجيل فی كنائسهم، و لا صلوات معينة، و ليس لهم شعائر معلومة و لا قسّيسون كما للنصارى، و إنما

أتقیاؤهم هم المتقدمون فیهم. و معابدهم عبارة عن بیوت لا فیها فرش و لا محاریب، و لا مذابح، و لا کتب و لا صور و لا منابر. و یقولون إن التدیّن لله لا یکون مرضیا إلا بالروح دون التعبّد بالبدن، فجمیع الرسوم و التکلیفات و الفرائض عندهم لغو. و یقولون: إن المسیح نفسه کان کویکرا، و إنه لا یجب تأدیة العشور لرؤساء الکنائس، و یبقون ساکتین إلی أن یوحی إلی أحد منهم فی زعمهم، فیلقی ما أوحی إلیه فی بضع دقائق و هو واقف، فإذا فرغ قعد و استراح.

و قد ذهبت مرة إلی معبدهم فاجتمع فیه نحو مائة و عشرین نفسا، جلست النساء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۷۹

فی الجانب الأیمن علی دکک علیها زرابی، و جلست الرجال علی الأیسر علی دکک متقابلة من دون زرابی، و جلس فی صدر المحل أربعة رجال، و ثلاث عجائز علی دکة عالیة، و جلس دونهم خمس عجائز، و ثلاثة رجال، و بقوا کذلک صامتین نحو ساعة، ثم قام رجل من أصحاب الدکة العلیا الذین کانوا أقرب إلی الوحی، و ألقی علی الناس کلاما و جیزا نحو خمس دقائق، معناه أن رضوان المولی هو بأن یکون عقل العبد منجذبا إلیه، و أنه ستأتی أیام یعین فیها بعض الناس بعضا بالإرشاد و الهدایة، و أن جزاء کل إنسان منوط بعمله و ما أشبه ذلک، و لم یذکر فی کلامه اسم المسیح، و لا اسم روح القدس. و بعد نحو ربع ساعة قامت عجوز من أصحاب الدکة الثانیة، فقام جمیع الحاضرین و حسرت الرجال عن رؤوسهم، فإنه لا حرج علی من ظل مقلنسا فی المعبد، و أخذت تصلی بصوت مرتعش نحو خمس دقائق، فذکرت اسم المسیح و لم تذکر روح القدس، ثم انفضوا.

و شعار هذه الطائفة هو أن رجالهم یلبسون جببهم مثنیة علی أعناقهم من دون أطواق، و أن النساء یلبسن برانیط طویلة من قدّام حتی تغم وجوههن، و خصوصا العجائز، و هی غالبا من الحریر، و ثیابهن من لون واحد. و من مذهبهم أنهم یجتنبون مواضع الحظ و اللهو و السکر، و أن لا یحلفوا یمینا ما و لو فی مجلس القاضی. و لا یرون فی الحرب خیرا، و حسبک بالسفراء الذین ذهبوا منهم إلی قیصر الروس عند ابتداء الحرب دلیلا- و من شأنهم الاقتصاد فی النفقات، و أن یساعد بعضهم بعضا. و قد کانوا فی الزمن القدیم عرضة للاضطهاد و الطرد، و لکنهم الآن آمنون. و لهم بعض خصائص منها: إذا تکلموا مع شخص أیا کان خاطبوه بلفظ المفرد، بخلاف عرف اللغة. و إذا حضر أحدهم مجلس الملک حضر بکسوته الاعتیادیة من دون وضع شعر عاریة، و لا ینزع برنیطته بیده و إنما ینزعها عنه آخر. و یخاطبون کل واحد بلفظة یا صاحب، أو یا حبیب، و لا یتنافسون فی الألقاب و النعوت و لا یجودون بها علی أحد.

و لا یحدّون علی میت. و عندهم أن النساء فی الفضائل و المناقب کالرجال. و عدد هذه الطائفة فی برستول أکثر من عشرة آلاف نفس، و لا یکاد یوجد بینهم فقیر.

قال الفیلسوف فلتیر: لطائفة الکویکر معابد کثیرة فی لندرة، أعظمها الموضع المسمی منیومنت زرته مرة مع مضیفی، فاجتمع فیه نحو أربعمائة رجل و ثلاثمائة امرأة،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۰

و کانت النساء ساترات وجوههن و علی رؤوس الرجال برانیط کبیرة، و الجمیع سکوت، فجزت بینهم و لم یرفع أحد طرفه للنظر إلیّ. و بعد صمت نحو ربع ساعة قام أحدهم و حسر عن رأسه، ثم بعد أن أبدی بعض زفرات بعضها من فیه و بعضها من منخریه، ألقی علی الحاضرین جملا- مشوشة مضطربة، زعم أنها من الإنجیل. فلا- هو و لا- أحد غیره فهم منها شیئا، فلما فرغ من ذلک انصرفت الجماعة، فسألت مضیفی: ما بال حکمائکم یرضون بهذا الهذیان؟. فقال: إنا مضطرون إلی أن نرخص فیه، لأنّا لا ندری هل الشخص الذی یقوم للخطبة یکون قیامه بوحی من الروح أو الحماقة، فنصغی إلی ذلک و نحن صابرون مرتابون، بل نرخص أیضا للنساء فی الکلام. و قد یتفق أن یوحی إلی اثنین أو ثلاثة فی وقت واحد، فمن ثم یقع ضجیج و لغط فی بیت الله.

فقلت: «أ لیس فیکم إذا قسیسون؟ قال: لا، و إنّا لنجد أنفسنا بدونهم فی حال أحسن». ثم تلا من کتاب ما معناه أن الله تعالی لم یرض أن نخصص أحدا لقبول روح القدس فی أیام الآحاد إخراجا لسائر المؤمنین منه، ثم قال: الحمد لله علی إنّا نحن دون سائر الناس لا

قسیسین لنا، و لم نترک ولدنا عند موضع إذا کان عندنا لبن یغذوه.

مؤسس طائفة الکویکرس

قال الفیلسوف المذکور: و انتشار مذهبهم کان فی انکلترة سنة ۱۲۴۲، و ذلک عند ما ظهر فیها ثلاثة مذاهب أو أربعة، أضرمت فیها نار الحرب بین الأهلین تعبدا لله تعالی، فقام إذ ذاک رجل اسمه جورج فوکس من کورة یقال لها لیستر، و کان ابن رجل نسّاج للحریر، فأخذ یعظ الناس و هو ابن خمس و عشرین سنة. و کان أمیا حمید السیرة، لکنه کان معتوها. فکان یلبس جلدا من رأسه إلی قدمه و یطوف من قریة إلی أخری، مقبحا علی الحرب و علی أهل الکنیسة. و لو أنه ذم العسکر وحدهم لما کان لقی ما یخاف منه، إلا أنه لمّا کان ذمه موجها إلی رؤساء الدین لم یلبث أن قبض علیه، و أحضر بین یدی قاضی دربی، و هو علی ذلک الزی و قلنسوته الجلد علی رأسه، فبادره أحد الجند بلکمة علی خده، و قال: قبحا لک ألم تعلم أنه ینبغی لک أن تحضر بین یدی القاضی حاسر الرأس؟. فأدار له فوکس خده الثانی و التمس إلیه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۱

أن یلکمه لکمة أخری حبا بالله. ثم تقاضاه القاضی یمینا قبل أن یسأله، فقال: إنی لن أتخذ اسم الله بالباطل أبدا، فغاظ ذلک القاضی حتی أرسله إلی دار المجانین فی دربی لیجلد، فسار و هو یحمد الله علی ذلک. فلم یأل المأمورون بجلده جهدا، فکان فوکس یتضرع إلیهم أن یزیدوه من هذه النعم لصلاح نفسه، فما ردوا طلبته، و لکنهم عجبوا منه. فأخذ حینئذ یعظهم و ینذرهم، فتضاحکوا منه أولا، ثم أصغوا إلیه و ارتاحوا لقوله، و صدقه کثیرون منهم. ثم لمّا أخرج من السجن جعل یطوف فی البلاد و معه اثنا عشر رجلا ممن تمذهبوا بمذهبه، و هو یذم أهل الکنیسة، فعرّض نفسه أیضا للجلد مرة بعد مرة، فلما أخذ یوما إلی موضع النکال ألقی علی الحاضرین خطابا بغایة الحماسة، فهدی منهم إلی مذهبه خمسین نفرا و استمال الباقین إلی محاماته حتی أنقذوه من تلک الورطة، و جعلوا بدله القسیس الذی تسبب فی معاقبته، ثم استمال أیضا بعضا من جند کرومول فأنکروا الحرب و أبوا الیمین، فأمر بأن یقبض علیهم إذ لم یکن یرید فرقة من الناس لا- تحض علی القتال، فقبض علیهم و ملئت السجون من حزبه، إلا أن شأن الاضطهاد أن یزید فی عدد الدخلاء، فزادوا ثباتا فی معتقدهم، و آمن لهم السجان أیضا.

و الذی زاد فی هذه الشیعة فضلا عما ذکر هو أن فوکس کان یعتقد بأن له سرا یمکّنه من التکلم بما یخالف عادة البشر، فأخذ یرجف و یرتعش و یتلوی، و یکظم نفسه، و یتنفس الصعداء. فلم یلبث أن صار له دربة بالوحی عظیمة، حتی لم یعد یقدر علی الکلام إلا به، و کانت هذه أول منحة أفادها لتلامیذه، فأسرعوا فی محاکاة إمامهم فی تغییر السحنة و الارتعاش عند هبوط الوحی علیهم جهد المستطیع، و من ثم سمّوا کویکرس، أی مرتعشین.

و اتفق مرة أن قال فوکس لأحد القضاة جهرا بحضرة جمع کبیر: إحذر لنفسک یا صاح، فإن الله یعاقبک سریعا علی اضطهادک الأطهار، و کان هذا القاضی مولعا بالشراب، و کان یسکر فی کل یوم، فاعتراه بعد یومین فالج أودی به، و کان یهم إذ ذاک بأن یمضی حکما بحبس بعض الکویکرس، فخلج قلوب الناس أن موته کان

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۲

سببا عن اضطهاده الرجل الطاهر، لا عن إدمانه علی الشراب. فصار هذا الموت الفجائی سببا فی اجتذاب کثیر من الناس إلی مذهب الرجل أکثر من ألف موعظة و ألف لیلة. فلما رأی کرومول عددهم یتزاید فی کل یوم رغب فی أن یستمیلهم إلیه، فعرض علیهم المال فأبوه، فقال یوما: لعمری إن هذا الدین هو الدین الوحید الذی لم نستطع أن نغلبه بالمال. ثم صاروا أیضا عرضة للاضطهاد فی عهد کرلوس الثانی لیس لأجل الدین، و لکن لامتناعهم من أداء العشر للأکلیروس، و لخطابهم القضاة و الحکام بأنت، و لامتناعهم من الیمین التی یوجبها الشرع.

و فی سنة ۱۶۷۵ قام رجل من أهل سکوتلاند اسمه روبرت بارکلی و قدم للملک معذرة عن الکویکرس، و هی من أحسن ما کتب فی هذا الباب، إذ لم یرتکب فیها شیئا من التمجید و الإطراء علی الملک، و إنما أودعها الکلام الحق، و النصح السدید، و کتب فی آخرها: «إنّک قد ذقت الحلو و المر، و النعیم و البؤس، فإنک طردت من البلاد التی ملکت فیها و شعرت بثقل الظلم، فکان ینبغی لک أن تعلم أن الظلم مقت عند الله و الناس. فإن کان قلبک لا یلین بعد تلک المحن و الخیرات، و نسی الله الذی لم ینسک فی بؤسک، فإن إثمک یکون أعظم، و هلاکک أشد، فإیاک من الإصغاء إلی ما یطریک به أهل دیوانک، بل اصغ إلی صوت الضمیر الذی لیس من شانه الإطراء و لا التملیق. من صاحبک الأمین و أحد رعیتک روبرت بارکلی».

و أعجب من ذلک أن هذه الرسالة مع کونها صدرت من رجل خامل الذکر، فقد نجعت فی قلب الملک حتی کف الاضطهاد عنهم.

و فی هذه الأثناء ظهر ولیم بن النبیه و بث مذهب الکویکرس فی أمیریکا إلی أن قال: «و لیس لأهل هذا المذهب فی انکلترة أن یکونوا من أهل مجلس المشورة، و لا أن یتولوا المناصب العمومیة لامتناعهم من الیمین مما لا بد منه فی الأمرین، فجل کسبهم المال إنما هو من التجارة. و حیث کان جاه الأولاد إنما هو من کد والدیهم، کان لهم مطمح إلی کسب الشرف و الأزرار و القفازین، و یستحیون من أن یقال لهم کویکرس، فیذهبون مذهب البروتستانط لیکونوا فی عداد أهل السمت و الطراز إلخ.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۳

الموحدون

و فی برستول أیضا کنیسة لیونیتاریین، و معناها الموحدون یعتقدون بوجود إله واحد فقط، و أن عیسی المسیح إنما کان بشرا و أنه إنما قیل له ابن الله من قبیل التعظیم، کما قیل أیضا لسلیمان ابن داود. و هم فی البلد أصحاب و جاهة و ثروة.

و فیها أیضا زمرة تسمی شیعة سویدنبرغ، اعتقادهم أن الله واحد أحد، و أنه ظهر فی ناسوت المسیح، و أن جسم المسیح هو المراد بقولهم الابن، و أن اللاهوت هو الذی یقال فیه إنه الأب الخالق. و بالجملة فإن المسیح هو عندهم الابن، و روح القدس، و مظهر اللاهوت. و منشئ هذا المذهب رجل جرمانی ظهر منذ ستین سنة تقریبا، و من شططهم أنهم یؤوّلون کل لفظة وردت فی التوراة بمعنی غیر الظاهر منها، فیؤوّلون لفظة سوریة مثلا بالعلم و المعرفة، و خیل مصر بالمنعة، و الجبل بالحمایة. و قد ألّف سوید نبرغ فی ذلک مؤلفا ضخما لا یکاد القارئ یختمه فی بضع سنین. و من کلامه: «لما کان للکلمة استعمالات کثیرة و کان المسیحیون الأولون سذّجا یفهمون کل شیء علی ظاهره، فرّقوا اللاهوت فجعلوه ثلاثة أقانیم، فاعتقد به کذلک من خلفهم». إلی أن قال: «لأنه ما أحد یدخل السماء و هو یعتقد بثلاثة آلهة».

مرقب برستول العجیب

و فی برستول مرقب فیه مقصورة عالیة مظلمة، لها کوة فی أعلاها مرآة، یقع علیها نور الشمس فترتسم ضواحی المدینة به علی مائدة لها سطح مجوف، فیری الناظر فیها النهر و الشجر، و الرجال و النساء، و الماشیة، فیخیل له أنه بینهم. و قیل إن رجلا رأی فی هذه المائدة زوجته تماشی رجلا و هو یقبلها فعرفها، فلما رجع إلی داره خاصمها خصاما أوجب الفراق بینهما.

المزمرة أو التنویم المغنطیسی

و کانت صاحبة المحل الذی نزلت فیه مولعة بالمزمریة، و هی إمرار الید علی وجه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۴

إنسان حتی یغیب عن الإدراک. و هی نسبة إلی رجل نمساوی اسمه مزمر، فاشتقوا منه فعلا، یقال: مزمره، أی عالجه بإمرار الید. و

ذلک أنهم یعتقدون أن فی بعض الأجسام خاصیة تؤثر فی غیرها علی مقتضی ما ینویه المؤثر. و قد سمعت من الست المذکورة أن بعض الاطباء مزمر خادمة لها حتی خثرت نفسها، ثم لمس من رأسها مبعث الأنفة و المدافعة و قال لها: أنت دمیمة. فقالت: لا بل أنا أحسن خلق الله وجها. ثم لمس مبعث الکرم، فقالت: بالباب مسکین خذوا هذا الدرهم و اعطوه إیاه. ثم لمس مبعث الغضب، فجعلت تهیج و تشعث شعرها، فأراد أن یرجعها إلی حالتها و ارتاب فی استطاعته علی ذلک، فلم یقدر. و بقیت الجاریة کذلک هائجة مضطربة، و ذلک لأنک إذا أثّرت فی شخص و أحلته عن حالته، ثم شئت رده إلیها، لزمک أن تعتقد اعتقادا یقینا بأنک مستطیع علیه. فلما تبین له عجزه استدعوا بطبیب آخر، فحاول أن یخرجها من قوة تأثیر الأول بواسطة الإمرار، فلم یتم له ذلک بالکلیة، و إنما أضعف منها أثر الأول إضعافا، فباتت علی تلک الحالة، فلما أصبحت خفّ ما بها ثم شفیت. و یقال: إنه إذا أمر الشخص المؤثر فیه بقتل إنسان قتله، أو بقضاء حاجة قضاها دون تلبث، حتی إنه لیفعل ما فیه ضرّ نفسه، و إنه یدل علی أشخاص و أماکن لم یکن رآها من قبل، و یسمیها کما هی.

و اتفق أن جاریة الست المذکورة أصابها ورم فی وجهها عن وجع ضرس، فأجلستها علی کرسی و مزمرتها حتی غشیها سبات، و یبست جوارحها، فأخذت سیدتها تنفخ علیها و ما زالت بها حتی شفتها بالمرة. و مرة أخری أجلستها أمامی ثم لوت یدیها إلی صدرها، ثم أمرّت یدیها علی وجهها، فما لبثت أن غمضت عینیها، فأمرتها أن تمشی من ذلک المحل إلی غرفة، فمشت و عیناها مغمضتان، و سیدتها ممسکة بها خیفة أن یصدم رأسها شیء، فلما وصلت قالت المخدومة: أین تریدین القعود؟ علی الکرسی أم علی الأریکة؟ فقالت: بل علی الکرسی. فقالت لها: لک ذلک.

فجلست، فسألتها عن أی شیء یشتغل فلان به؟ فقالت: هو ناظر إلی ساعته.

قالت: کم الساعة الآن؟ قالت: الحادیة عشر و ربع. فنقلت أصبعها إلی موضع آخر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۵

من دماغها و قالت: أخطأت. فقالت: بل خمس دقائق بعد الظهر، ثم أمرتها بالغناء فغنت، ثم بالضحک فضحکت، ثم سألتها عن خادمة لها کانت قد ذهبت صباح ذلک الیوم إلی أمها ماذا تصنع؟ فقالت: إنها الآن تکلم أمها فی شأنک، و تطلب منها أن تکلمک لتعفیها من المزمرة، و إنّها تتمنی أن تراک مرة تمزمرین أحدا. فلما رجعت الخادمة فی الغد سألناها عن ذلک، فأجابت بما ذکر. ثم إنها نفخت علیها و أمرّت علیها یدیها صعدا فأفاقت، و هذه الخاصیة قد شهرت فی فرنسا جدا، و أشد الناس إنکارا لها أهل الکنیسة و الأطباء، و سأذکر فی وصف باریس ما جری بینی و بین إحدی هؤلاء النساء، و فی هذا القدر الآن کفایة.

رحلة إلی بعض جبال والس

ثم سافرت من برستول قصد أن أری بعض جبال والس فینشرح صدری. لأن بلاد الإنکلیز کلها کما ذکرت سابقا، عبارة عن حقول و مروج، و هی و إن تکن ناضرة إلا أنه لا شیء یبعث علی إدارة الفکر، و إجالة الخاطر، کرؤیة الأماکن المختلفة نحو أن یکون فیها سهل، و جبال و آکام و أودیة و غیاض، فکلما تعددت المناظر للعین کثرت الخواطر فی الذهن، و تنوعت الهواجس فی الصدر. فسافرت فی الباخرة فبلغت فرضة تسمی نیویورک، أی المرسی الجدید، فی نحو ساعتین و نصف. فبت هناک تلک اللیلة، و فی الغد سألت عن أقرب الجبال، فقیل لی: إذا طلعت هذه العقبة ظهر لک. فطلعتها و دللت علی جبل یسمی لندوغو و هی کلمة و السیّة لأنه لا یوجد فی لغة الإنکلیز اسم ینتهی بحرف الواو، فسرت إلیه ماشیا إذ لم أجد راحلة تبلغنی إلیه، فکنت أسأل المارین عن مقدار بعده فکان بعضهم یقول: سبعة أمیال و بعضهم خمسة و بعضهم ستة. فسألت عن بلدة أستریح فیها فدللت علی قریة بعضهم یسمیها مدینة و بعضهم قریة و بعضهم بلدا، و هی عبارة عن ستین بیتا، فسألت عن مطعم فدللت علی بیت مشهور عندهم، فأردت أن آکل بیضا لعدم وجود اللحم و السمک عندهم، فقلت لصاحبة المحل:

- إنی أرید بیضا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۶

فقالت:

- لأی سبب؟

قلت:

- للأکل.

قالت:

- ما ثمّ بیض فی هذا الأوان.

مع أنه کان فی الصیف، فألححت علیها، فبعثت من طوّف فی القریة حتی جاء ببیضتین بعد الجهد، فقلت:

- اقلیهما بالسمن.

فلم تفهم، فأعدت علیها الکلام، فقالت:

- ترید أن تکسر البیض فی السمن!؟

قلت:

- نعم.

قالت:

- فما یکون هذا! إغلاء!؟

قلت:

- بل هو قلی.

قالت:

- هذا مما لم أفعله فی عمری قط، فصفه لی.

قلت:

- تضعین المقلاة أولا علی النار، ثم تصبین فیها السمن حتی یذوب، ثم تکسرین البیضتین فیها، و أنا أتولی بعد ذلک أمرهما.

قالت:

- فالأولی أن تتولاه من الآن، و تقلیهما کما تشاء.

و إنما أوردت هذه الواقعة إشعارا بجهل هؤلاء القوم أدنی أنواع الطبخ، و المتفنون منهم یقلون البیض بمائه و من تحته لباب الخبز.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۷

ثم إن هذا الجبل و إن یکن منظره فی الحقیقة مما تسرح فیه العین، و ینشرح به الصدر، بالنسبة إلی بلاد الإنکلیز المحتنة، إلا أنه بالنسبة إلی بلادنا یعدّ دکّا أو أکمة.

و اعلم أن أهل والس هم أهل شجاعة و بسالة، و هم الحریون بأن یقال لهم بریتانیون، فإنهم لم یبرحوا فی منعة و استقلال و لهم لغة خاصة بهم، إلا- أن کبراءهم و أغنیاءهم یتکلمون بالإنکلیزیّة، و لکثرة مکاتب الإنکلیز فیها الآن أقبلوا علی تعلم هذه اللغة، غیر أن لغتهم الأصلیة لم تزل مستعملة، و هی تشتمل علی بعض حروف الحلق کاللغات المشرقیة، و یقال إنها تشبه لغة أهل بریتون من فرنسا، أو إنها هی بعینها.

و التمدن و التأدب عند الفلاحین هنا أقل منهما عند فلاحی إنکلترة، و قد کانت بلادهم فی الزمن القدیم مستقلة بنفسها، و أول من

ألحقها بحکومة الإنکلیز کان إدورد الأول، و ذلک فی سنة ۱۲۸۲ عند موت أمیرهم لویلن، لکنهم بقوا بعدها یحاولون الاستقلال إلی أن رزق الملک المشار إلیه ولدا فی سنة ۱۲۸۴ فسماه من دهائه أمیر والس، و بقی هذا اللقب خاصا بولی العهد فی بیت الملک، و یقال إن الملک حین سمی ابنه أمیر والس حمله علی ذراعیه و قال لرؤوساء والس بلغتهم: أخ دین».

و معناه هذا بلدیّکم و ملککم، فصارت هذه الکلمة شعارا یکتب علی ترس أمیر والس إلی یومنا هذا.

و فی أبجدیة الأوقات أن أهل والس کانوا یسمون قدیما صلتس، و هم أسلاف البریتانیین و کانوا أول من سکن بریتانیا. و لفظة بریتانیة تشمل إنکلترة و سکوتلاند و والس، و کانت تسمی البیون، و هم إلی الآن یأنفون من أن یقال لهم إنکلیز، ثم اتّحدت والس بإنکلترة و عدّت منها بأمر مجلس المشورة و ذلک فی سنة ۱۵۳۵، فأما إرلاند فإن إلحاقها بإنکلترة کان فی سنة ۱۸۱۰.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۸

العودة إلی برستول

ثم رجعت إلی برستول و تعرفت بأحد أفاضل الإنکلیز الذین أولعوا بحب اللغات، لا للتفاخر، و لا للتکسب، و یقال له «دکطر جون نیکلسن»، و إنما لقب بدکطر لأنه کان درس الفلسفة فی بلاد النمسا و نال هذه الدرجة، فإن لفظة الدکطر یوصف بها کل من الطبیب و الربانی و الفیلسوف علی حد سوی، و کان قد تعلم أیضا لغتنا، و لکن لم یکن سمعها قط من أهلها، فلما کنت أنشده منها کان یطرب غایة الطرب، فدعانی إلی أن أزوره فی محله الکائن فی بلدة بنریث من شمالی إنکلترة، فلما رأیت أن مسامرته غنم، و إجابته حتم، وعدته بذلک، ثم لما فرغت مدة الدکطر لی من برستول عزم علی الرجوع إلی القریة المشئومة، فسافر قبلی بأیام، فسرت لأری بلدة باث فبلغتها فی نحو عشرین دقیقة، فأول ما دخلتها رأیت امرأة تغنی و غلاما یضرب بالسنطیر المعروف عندنا و لکن علی ألحانهم، فسألت بعضا عن اسم الآلة فلم یعرفها، فسألت العازف به فقال اسمه «دلسمر»، و هو من اللاتینیة مشتق من الحلاوة.

فی بلدة باث

و باث هذه بلدة ظریفة، بناؤها من الحجر، و موقعها بین أودیة ناضرة و تلال بهیجة. و هی مشهورة بماء معدنی یستحم فیه، و لهذا سمیت باثا أی حماما، و هی مقر الکبراء و الأغنیاء و لا سیما المتقاعدون من الضباط و غیرهم ممن کانوا فی الهند.

و أهلها ینفرون من الغریب، و یسلقونه بألسنتهم، و کذا هی سائر بلدان الإنکلیز غیر المطروقة من الغرباء.

جلتنهام

ثم رجعت إلی برستول و سافرت إلی جلتنهام فبلغتها فی ساعتین، و هذه المدینة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۸۹

معدودة عند الإنکلیز من أظرف المدن لحسن بنائها، فإنه من الحجر، و لنظافة طرقها، و کثرة الأشجار فی ضواحیها، و لکن لیس فیها محال للّهو و القهوة، و لا مطاعم حسنة، و قد أردت أن أتغدّی فی الظهر فلم أجد شیئا عتیدا، فاضطررت إلی الشواء من الضأن، و اشترط علیّ أن لا أدخن.

من کلوستر إلی أکسفورد

ثم أردت أن أسافر إلی أکسفورد فقیل لی إنه لا یمکن ذلک إلا إذا رجعت إلی کلوستر، فعدت. و لمّا دخلت البلد إذا بزحام و خلق کثیر، فسألت عن سبب ذلک فقیل لی إنه عید استئجار الخادمین و الخادمات، و ذلک أن المخدوم یستأجر خادمه إلی أجل فلا یمکن

للأجیر أن یخلیه إلا لأسباب، و مع هذا الزحام و الضجیج فلم یکن من شیء یرنی إلیه إلا بنتا کانت تمشی علی خشبتین.

و هذه البلدة هی محل صنع الحدید و هی قدیمة قذرة کاظمة للقلب، ثم اجتزت بعدة بلدان منها استورد فیها معامل الجوخ، ثم إلی أکسفورد و قد تقدم ذکر ذلک، ثم إلی القریة. و کنت قد استأجرت بیتا فیها یشتمل علی أربعة مساکن، و فرشته علی قدر ما اقتضی الحال علی متمکن غیر أمکن، و استخدمت رجلا یزرع فی مبقلته ما لا بدّ منه من البقول، أولها البطاطس. و أخذت أتشاغل بذلک تنفیسا للکرب، و تسلیة للهم، فلم ألبث أن فجعت بولد لی، و حیث لم یکن فی القریة و لا فیما یلیها طبیب یوثق بعلمه، فإن المتطببین فی بلاد الفلاحین إنما هم نفایة أطباء المدن، أشفقت علی الباقی فرحلت من القریة قاصدا «لندرة»، و غادرت البیت کما هو.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۰

الانتقال من القریة إلی کمبریج

و إن علیّ بادی بدئ أن أکلم کاتب الجمعیة و أخبره بما أصابنی، فلما قابلته غلبنی النحیب و البکاء حتی انقطعت عن الکلام، فاستعظم ذلک منی علی سنی، فإن الإنکلیز قلما یبکون علی فائت، ثم لما أعلمته بالسبب و شکوت له ما لاقیت فی القریة، و إنی أخشی أن أموت قبل نجاز الترجمة. رأی أن الإبقاء علی حیاتی هو الصواب، و أن الأوفق لی و للتوراة أن أمکث فی کمبریج لأکون غیر بعید عن الدکطر لی.

و اتفق مدة مکثی هذه فی لندرة أن وقع ضباب کثیف دام سبعة عشر یوما، حتی احتجنا فی بعضها إلی ایقاد المصابیح نهارا لتهتدی أیدینا إلی أفواهنا، فرأیت الجلاء أجلی و أولی، فمن ثم سرت إلیها فبلغتها بعد نحو أربع ساعات، و هذه المدینة لا ملهی بها و لا حظ سوی مشاهدة المدارس و الأساتذة و المتعلمین، و هم من التکبر و الصلف بمکان إخوانهم طلبة العلم فی أکسفورد. و بعد وصولی بیوم جری النزاع و اللکام ما بین أهل المدارس و أهل البلدة کما جری فی أکسفورد. و فیها تعرفت ببعض فضلاء الإنکلیز ممن عنوا بالعربیة، منهم الفاضل مستر ولیمس الذی هو الآن مدرس فیها، و الفاضل مستر برسطون الذی ترجم خمسا و عشرین مقامة من مقامات الحریری إلی الإنکلیزیة (و قد تقدم ذکره)، و منهم الفاضل مستر جون برطون قرأ علی جزءا من المقامات، و کان الذی عرفنی به یهودیا کان یعلّمه لغته، و إنه غاب عنه مدة فسألنی عنه تلمیذه ذات یوم فقلت: لا أدری أین هو. و إنما لاح لی من سیماء وجهه حین جاءنی أن فی أماقیه لشرا، ثم لم یلبث أن شهر عنه فی البلد أنه کان یضاجع بنته و هی دون العشر سنین، و کان ذلک دأبه معها مدة مدیدة، فحکم علیه بالنفی المؤبد. و قد أدبت عند أحد أعیانهم و هو أحد أعضاء مجلس المشورة العام و إذ کنا واقفین فی المجلس نتحادث لحت من بین القیام شخصا یهم بأن یدنو منی لیکلمنی، فدنوت منه، فقال لی:

- قد طالما أردت أن أسألک عن شیء فی بلادکم، فهل تمن علیّ بالجواب؟

قلت:

- ما هو؟

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۱

قال:

- إذا برک الجمل أیستطیع أن یقوم وحده؟

قلت:

- لو سألتنی عن الظعائن لأخبرتک، فأما الجمل فلا أدری.

فی الطریق إلی بلدة الدکطر نیکلسون

ثم لمّا حان وقت تبطيل المدارس قبل عيد الميلاد تذكرت ما وعدت به صديقی دكطر نيكلسن، فمن ثم سافرت إلى لندرة و منها إلى دارنكطون، فبلغتها بعد نحو اثنتی عشرة ساعة قاسيت فيها من البرد و التعب ما لم أقاسه فی عمری كله، و هنا ينبغی أن يلاحظ أن السفر فی سكة الحديد و إن يكن أسرع و أسهل، إلا أنه فی بلاد الإنكليز معنت مكمد لأن الغريب لا يجد من الركاب من يدل عليه بحرمة السفر و التعب فيكالمه، فترى كل واحد بيده صحيفة الأخبار يطالعها مسافة سفره كلها، و إذا وق الرتل لا يجد شيئا من المأكول و المشروب ما يفثأ تسخطه، و ليست القهوة عندهم إلا ماء دخن سخن، و لهذا كان أكثر الإنكليز يسافرون النهار كله و لا يأكلون شيئا من حوانيت المواقف، و إنما يتزودون الطعام و الشراب من ديارهم و هو فی الحقيقة أولی، فأما مواقف فرنسا فإن فيها كل ما ألفه الإنسان فی بيته. علی أن باعة المأكول و المشروب فی بلاد الإنكليز أشد خلق الله شططا فإنهم يتقاضون علی فنجان قهوة الدخن نصف شلين.

ثم سافرت من دارنكطون فی الساعة الثامنة صباحا، فوصلت إلى بنريث فی الحادية بعد الظهر، و مررنا فی خلال ذلك بعدة قری و مدن من أعظمها برسطون، سكانها نحو مائة ألف نفس، و هی مدينة شغل و متجر شهيرة بملتقی الأرتال فيها، يمر بها فی كل يوم أكثر ما مائتی رتل- و هو عبارة عن صف عواجل متناسقة بعضها إلى بعض، علی نحو قطار الإبل. و إن البرد وقتئذ عارما و الثلج متساقطا، فلما بلغت بنريث سألت عن مقام دكطر نيكلسون فأرشدت إليه لكونه شهيرا فی البلد، فلما رآنی ترحب بی غاية الترحيب و أنزلنی فی داره خير منزل، و أكرمنی بما لا مزيد عليه، فجزاه الله عنی خيرا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۲

إقليم بنريث

ثم إن إقليم بنريث حسن جدا لأنه يحوی جبالا و أودية، و أعظم جباله «هل فلن» ارتفاعه نحو ثلاثة آلاف قدم، و هو مخصوص بمعادن الفحم. و أهل البلد نحو سبعة آلاف، و فی أول يوم من أبريل حشدت الناس فی الطرق و معهم أعلام و آلات طرب، فسألت صديقی عنها، فقال: إن جمعية هنا تسمی جمعية «الاد» من شأنهم أن يجتمعوا فی كل ثلاث سنين مرة لمواساة بعضهم بعضا. فيصنعون وليمة فی هذا اليوم، و يتلون ما تقرر عندهم من الترتيب، ثم ينصرف كل منهم إلى محله، و مثل هذه الجمعيات فی بلاد الإنكليز لا يعد و لا يحصی. و أهل ذلك الصقع يلتحفون بشملة علی أكتافهم للتدفئ، و نعال فلاحيهم من خشب، و عيشهم أجهد من عيش غيرهم، و أنحسهم من يعمل فی المعادن.

التوجه إلى سكوتلاند

ثم عنّ لی أن أسافر إلى سكوتلاند لأری قاعدتها، و هی ايدنبورغ. إذ كنت غير بعيد عنها، فودعت مضيفی و سافرت إلی V ليفربول فوصلت إليها بعد سفر نحو ست ساعات. و هذه المدينة هی من أعمر مدن إنكلترة بعد لندرة و منشستر، فلا يزال مرساها مشحونا بالسفن، و سفنها مشحونة بالبضائع، و منه تسافر إلى جميع الأقطار.

و هی تقابل مرسيلية فی فرنسا، كما أن منشستر تقابل ليون فی كونها ذات معامل للحرير و الثياب، و لندرة تقابل باريس.

مدينة ليفربول

و فی ليفربول عدة ملاه و ملاعب، و حوانيت بهيجة، و أبنية حسنة من أعظمها المحل الذی يقال له «قاعة البلد». و أهل المدينة لا يسخرون من الغريب، و ذلك لكثرة اختلاطهم بالغرباء. و كان افتتاح سكة الحديد بينها و بين لندرة فی سنة ۱۸۳۸،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۳

و طول قبوتها میل و ربع. و کانت فی الزمن القدیم محل صید للسمک، ثم صیرها الملک هنری الثامن محلة لاجتماع العساکر و تجریدهم منها لفتح إرلاند.

مدینة منشستر

ثم سافرت منها إلی منشستر فبلغتها فی نحو ساعة. و هذه المدینة أشهر مدینة فی الدنیا بکثرة المناسج و الأنوال. و عدد الصناع فیها نحو ثمانین ألفا، فإذا اعتبرت أن معظم الآلات یدور بالبخار ظهر لک أن هذا القدر یقوم مقام أربعمائة ألف. قال الفاضل ماکولی أن منشستر هی أعظم مدینة لأشغال القطن و النساجة. و کان القطن مذ خمسین سنة یجلب إلیها من إزمیر و قبرس، و جملة ما ورد إلیها فی غایة القرن السابع عشر لم یبلغ ملیونی رطل، أمّا الآن فإن هذا القدر لا یکفی لعمل ثمان و أربعین ساعة. فانظر إلی هذا الفرق العظیم الذی نشأ عن قوة البخار، حتی أنه جعلها تفوق فی الثروة و الغنی علی قواعد أوربا جمیعا، و ذلک نحو برلین و مدرید و لسبون، و کان أهلها إذ ذاک نحو ستة آلاف و لم یکن فیها مطبعة و لا عاجلة. و الآن فیها مائة مطبعة و عشرون صانعا للعجلات، آه، قلت: و قد جلب إلیها فی السنة الماضیة ۰۰۰. ۵۶ عکم أو بالة من الحریر، و من القطن ۰۰۰. ۱۰۰. ۲ عکم. و یقال إن جمیع محصول الدنیا من هذا الصنف الأخیر یبلغ أربعة ملایین فی السنة. سبعة أجزاء منها تحصل من أمیریکا، و الجزء الثامن من سائر البلاد.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۴

المعامل فی بریتانیا

و جملة المعامل الموجودة فی بریتانیة بموجب خلاصة حدیثة العهد، ۱۷۷. ۵ منها ۴۳۲. ۴ فی إنکلترة و والس، و ۵۳۰ فی سکوتلاند، و ۱۵۵ فی إرلاند.

و عدد ما یدار من الأنوال بالبخار ۷۱۱. ۱۳۷، و ما یدار بالماء ۷۲۴. ۲۳ و جملة عدد المستخدمین فیها من الذکور ۱۳۷. ۲۷۳ و من الإناث ۳۶۰. ۴۰۹، الجملة ۴۹۷. ۶۸۲ و فی جمیع المملکة ۴۶۰ معملا- للحریر و ۴۱۷ معملا- للکتان و ۵۲۵ معملا- للحبک و ۵۰۵. ۱ للصوف و ۲۱۰. ۲ للقطن، و فیها- أی فی معامل القطن- من الصناع و غیرهم ۲۱۸. ۷۹ و فی معامل الصوف ۰۹۱. ۷۹ و فی معامل الحبک ۶۹۴. ۸۷ و فی الکتان ۲۶۲. ۸۰ و فی الحریر ۱۳۷. ۵۶.

صادرات بلاد الإنکلیز بالمقارنة مع فرنسا و غیرها

و بلغ ثمن ما أرسل من هذه البلاد من منسوجات القطن فی ثلاث سنین أحدا و ثلاثین ملیون لیرة، و من الصوف عشرة ملایین، فأما قیمة جمیع ما أرسل من بلاد الإنکلیز فقد بلغ فی سنة ۱۸۵۶ نحو ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۱۶ لیرة. و قیمة ما یبعث من فرنسا فی کل سنة من الأمتعة المصنوعة و المصوغة تبلغ ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۰۰ فرنک. و قیمة جمیع ما یخرج من مملکة بریتانیا من اللوازم المتجریة و غیرها تبلغ فی السنة نحو ۰۰۰. ۰۰۰. ۵۱۲ لیرة، و فی سنة ۵۶ بلغت قیمة المبعوث من بلاد الإنجلیز فی مدة أحد عشر شهرا ۰۰۰. ۸۴۵. ۱۰۵ لیرة، زاد علی سنة ۵۵ عشرة ملایین.

ثم وجدت فی الإحصائیات أن قیمة المجلوب إلی بلاد الروسیة بلغت فی سنة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۵

۱۸۶۰ «۱۸۳. ۷۷۲. ۱۰۱» روبلا، و کل روبل عبارة عن أربعة فرنکات، و قیمة الخارج منها بلغت ۰۲۱. ۸۵۴. ۵۲ و بلغت قیمة المجلوب إلی أسترالیا فی السنة المذکورة ۴۷۲. ۲۳۱. ۲۲۹ فلورین، و کل فلورین عبارة عن فرنکین و نصف. و بلغت قیمة الخارج منها ۷۱۶. ۸۴۹. ۳۰۶ و بهذا تعلم الفرق.

تطور الصناعة فی بلاد الإنجلیز

و یوجد محل فی إرلاند یخص أحد الإنکلیز فیه أربعة آلاف شخص مستخدمین فی عمل القمصان یصنعونها بأدوات النار، و هذا القدر بمنزلة سبعة آلاف شخص، فأی فرق یری الآن فی بلاد الإنجلیز و قد صارت تمد جمیع أقطار الدنیا بمصنوعاتها، و تکسو الناس و الحیوان و الدیار بمنسوجاتها، بعد أن کانت تبعث الثیاب إلی هولاند لتصبغ هناک، و تعاد إلیها لتبیعها، و بعد أن کانت تنتظر أحد الفارّین من فرنسا و غیرها ن یأتی إلیها و یبث فیها صنعة من الصنائع، فإن هذا الدیباج الذی یسمونه «داماسک» أصل صنعه کان فی دمشق، ثم حاکاهم فیه أهل هولاند، و فی سنة ۱۵۷۱ هرب منهم جماعة بسبب ظلم الأمیر «ألفا» و جوره علیهم، فجاءوا إلی بلاد الإنکلیز و صنعوه فیها.

نبذة عن تاریخ صناعة النسیج

قال مؤلف المخترعات العجیبة: أمّا صنعة النسج فقد کانت معروفة فی بلاد الصین من قبل أن عرفت فی أوربا بدهر طویل، و الغزل عندهم و النسج و الصبغ، إنما هو من شغل النساء. و أول من صنع ثیاب الصوف فی بلاد الإنکلیز رجلان قدما من برابان، ثم قدم من هولاند صباغون و بزازون و صناع للحریر، و شهروا هذه الصنائع بین الأهلین و ذلک فی سنة ۱۵۶۷. و الذی جلب من الکاکاو من الهند الغربیة فی سنة ۵۲ بلغت قیمته ۰۵۱. ۳۴۹. ۴ لیرة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۶

الشای و التبغ

و المخزون من الشای فی عامنا هذا بلغ سبعة و ثمانین ملیون رطل و نصف ملیون.

و دخل من التبغ فی أحد عشر شهرا ۰۸۲. ۷۷۶. ۲۹ رطلا یصرف منها أکثر من ثمانیة ملایین فی العام. و بلغت قیمة ما أرسل من الشریط و القیطان من شهر کانون الثانی إلی شهر تشرین الثانی ۳۳۹. ۳۰۳۰۸ لیرة.

ملابس قدماء الإنجلیز

و إذا نظرنا إلی أحوال إنکلترة مذ القدیم وجدنا أن ملابس أهلها إنما کانت من جلود الحیوان، و أن ثیاب زعمائهم لم تکن إلا من الکرباس الخشن، کأنما هو مسح، حتی إن الفرسان الذین تنوّه بهم التواریخ کانوا إذا نزعوا عنهم الدروع اللّماعة یشفّ عنها ثیاب الجلد. فلما عرف النسج فی الأعصر المتأخرة کان الغزل کما لا یخفی من صنع النساء، و بقی الحال علی ذلک دهرا طویلا إلی أن قیض الله «أرک ریت» و ألقی فی روعه استنباط آلة للغزل تکون دائمة الحرکة، فوفق إلی ذلک، و نجح ما أمکن.

أرک ریت و استنباط آلة الغزل

و قال أخر: ولد أرک ریت فی سنة ۱۷۳۲ و بقی إلی سن ۳۶ من عمره خامل الذکر مشتغلا بالحلاقة، و لا یکاد یحصل من حرفته شیئا زائدا علی قوت یومه، إلا أنه کان ذا فکر ثاقب فی جر الأثقال، فما زال یعمل فکره فی اختراع آلة الغزل حتی تسنی له ما قصده، و لکن بعد صعوبات شتی. فلما اشتهر مخترعه أجازت له الدولة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۷

أن یستبد بمنافعه إلی مدة مدیدة فأنشأ معملا فی دربی، و لم تمض علیه مدة حتی أحرز أموالا طائلة، و طار ذکره بین الناس، فحدث

باستنباطه هذا فی أشغال النسیج تغییر عظیم من تنقیص الصنّاع، و ترخیص سعر الثیاب.

و حکی عنه حکایة غریبة، و هی أنه ذهب إلی بعض أعمال إنکلترة و أوهم أهلها أن الدولة جردته لأن یقص شعورهم، لیسلموا من عدوی البلاء الذی کان فشا بین جیرتهم، فانقادوا له فلم یبق إلا من قصّ شعره و أتحفه به، فأخذ تلک الخصل و صبغها، و انتفع بها انتفاعا جزیلا.

قال بعض العلماء من الإفرنج لو لا استنباط أرک ریت لما استطاعت دولة الإنکلیز أن تقاوم نابولیون الأول مدة خمس و عشرین سنة حتی قهرته فی آخر الأمر، و قصرته فی جزیرة صنت هیلان.

صناعة نسج الحریر

و أول من أتقن صنعة نسج الحریر فی إنکلترة جماعة هربوا من فرنسا إلی لندرة و ذلک سنة ۱۲۸۶. و أصل جلب الحریر المصنوع إلی بلاد الیونان کان من بلاد فارس، و ذلک فی سنة ۳۲۵ قبل المیلاد، و عرف فی رومیة فی أیام طیباریوس، و حرّم علی الرجال دون النساء. و أول من لبس ثوبا منه هلیوغابالوس و ذلک فی سنة ۲۲۰ للمیلاد. و کان ثمن الحریر أولا فی قیمة الذهب وزنا بوزن، و کان یظن أنه ینبت من الأرض کشجر القطن.

و فی القرن السادس جلب دود القز من الهند إلی أوربا. و فی سنة ۷۸۰ أهدی شارلمان حلّة منه إلی «أفّا» ملک مرسیة. و فی سنة ۱۱۳۰ حرض روجر ملک صقلیة رعیته علی عمله، فکانوا یربون دود القز و یغزلون الحریر و ینسجونه. ثم اشتهرت صنعته فی إیطالیا و إسبانیا و جنوب فرنسا، و ذلک فی سنة ۱۵۱۰. و فی سنة ۱۵۸۹ کثّر هنری الرابع دوده و شجره فی جمیع المملکة. و فی سنة ۱۲۸۶ لبس بعض نساء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۸

الأشراف من الإنکلیز حبرا منه.

الأمم و التجارة

و قال فلتیر: لم تقم أمة قویة فی التجارة و الحرب بعد انقراض قرطاجنة کما قامت دولة فینیسیا حتی صارت قدوة فی ذلک، نعم إن دولة البورتغال جازوا إلی الهند من عند الرجاء الصالح، و ظلوا حینا من الدهر ولاة سواحلها و أولی شوکة فی أوروبا، و إن ولایات أمیریکا المتحدة صارت أیضا دولة محاربة رغما عنها، حتی عادلت دول أوربا، و إن فینیسیا و أمستردام و قرطاجنة حازوا من قبلهم من العز و المنعة ما شغل الألسن بالمدح و الثناء، إلا أنهم جمیعهم عملوا کما یعمل الناس فی عصرنا هذا، فی أنهم بعد أن حصلوا الثروة بالتجارة اشتروا ضیاعا و أملاکا، و أخلدوا إلی الرفاهیة و الراحة.

الإنکلیز من الحرب إلی التجارة

فما أحد ابتدأ أن یکون محاربا حتی یکون فی آخرته تاجرا إلا الإنکلیز، فهم وحدهم الجدیرون بهذا النعت، فإنهم حاربوا أحقابا طویلة من قبل أن یعرفوا الحساب، و لما انتصروا فی وقایع اغنیکورت، و کرسّا، و بوستیروس، لم یکونوا یعلمون أنهم یقدرون بعدها علی تجارة الحبوب، أو صنع الجوخ العریض، فإن ذلک لهم أنفع من تلک النصر.

لا جرم أنه لا شیء یغنی الأمة و یشید عزها کمعرفة الصنائع و التجارة، إذ لو لا التجارة لما کانت لندرة تفضل باریس فی السعة و کثرة السکان، و لما قدروا علی أن یبثوا فی البحر مائتی سفینة حربیة، و یجروا الرزق العمیم علی الممالک المتواطئة معهم. ألا تری أن لویس الرابع عشر لما ألقی الرعب فی قلوب أهل إیطالیة و استولت

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۲۹۹

جیوشه علی صافوی، و بیدمنت، و کادوا أن یستولوا أیضا علی طورین، لم یکن بد للأمیر یوجین من أن یتوجه إلی أطراف جرمانیا لإنجاد «دوک صافوی»، و لکن لما لم یکن له مال یمکنه من أن یفتح بلدا أو یضبطه، اضطر إلی الاستعانة بتجار الإنکلیز فأجابوه إلی ذلک فورا، و أقرضوه فی نصف ساعة خمسة ملایین فرنک، فاستخلص بها طورین و قهر الفرنسیس وردهم عنها مقهورین، ثم کتب إلی الذین دانوه: «أیها السادة، إنّی قد تسلمت منکم مالا و قد أنفقته فیما یرضیکم». فکان کلامه هذا حاملا للإنکلیز علی الکبر و الافتخار، و له علی أن ینزل نفسه بمنزلة رومانی و هو به خلیق. علی أن أصغر أولاد صاحب المملکة عند الإنکلیز لا یأنف من أن یکون تاجرا، فإن أخا اللورد طونسند آثر أن یکون تاجرا فی الستی علی أن یقلّد وظیفة فی الدیوان. و لما کان اللورد أرفورد متولیا تدبیر المملکة کان أخوه منشئ معمل ف حلب، و لم یشأ أن یرجع إلی وطنه بل مات هناک. و هذا الدأب الذی أخذ الآن فی الندور کان یعد عند أمراء جرمانیا من المنکرات، فلم یقدروا أن یفهموا کیف یکون ابن سید المملکة داخلا فی سلک التجار مع أنهم هم کلهم سادة. و لکن کم قد رأینا منهم من سید یوصف بلقب السمو و لیس له ملک و لا ثروة غیر هذا الجلاء و الکبر الأمیری.

الفرنسیون و حیازة الألقاب

أمّا فی فرنسا فإن کل واحد یمکنه أن یصیر مرکیزا، و کل من یقدم إلیها من البلاد الأجنبیة و آخر اسمه ینتهی بحرفی «اک» أو «ایل» و عنده مال ینفق منه فإن له أن یقول لیس لی من نظیر و ما أحد من بابتی، و ینظر إلی التاجر بعین التهاون و الاحتقار، فإذا سمع التاجر أن الناس یعیبون حرفته و یشینونها اعتراه الخجل، و لکن لیت شعری أی الرجلین أنفع لدولته أسیّد یعرف بالتفصیل متی یقوم ملکه، و متی ینصرف إلی مرقده، ثم یتخذ لنفسه مظهر عظمة و أبهة و هو مع ذلک یرضی لنفسه خطة ذل و عبودیة بانتظار الوزیر فی قصره؟ أم تاجر یقعد فی مخدعه و یبث منه أوامر إلی سورات و حلب لیغنی بلاده و یسعد أهلها؟

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۰

فلتیر یمدح التجارة

قلت و مدح فلتیر التجارة لیس قدحا فی العلوم و المعارف، و إنما هو تحریض علی اتساع دائرة التمدن، و شتان ما بین تجار الفرنسیس و بین تجار البلاد المشرقیة، فإن هؤلاء لا یحسنون الکلام إلا فی المکیول و الموزون، و لا یعرفون أن یکتبوا سطرا واحدا من دون غلط، فهذه الحال ینکرها فلتیر و کل ذی ذوق سلیم.

منشستر بین القدیم و الحدیث

ثم إن منشستر هذه کانت فی القدیم مقاما للدرویدس، و کان لهم فیها هیکل و مذبح قیل له باللغة القدیمة «میین» أی حجر، و صارت قبل المیلاد مقرا للهمج)

فبنوا فیها قلعة سمیت «منسنیون» أی مضرب الخیام، ثم تصفحت علی المتأخرین فقالوا للمدینة منشستر. و هؤلاء الدرویدس کانوا فی القدیم کهان جرمانیا و فرنسا و بریتانیا و حکماءهم، و کانوا فی هذه الأخیرة ینتخبون من أکرم العیال، فکانوا یشتغلون بالعلوم و معرفة الفرائض الدینیة، و یعبرون کلام الآلهة، و یفصلون الدعاوی الخطیرة و یتولون تدبیر الجیش.

و لما غزا قیصر هذه الجزیرة قابلوه بالجیوش و البسالة ذبا عن الوطن، فنقم علیهم ذلک بعض ولاة الرومانیین فاستأصل شأفتهم.

و فی هذه المدینة أسواق ظریفة و حوانیت بهیجة، و فیها تعرفت بالفاضل الکریم السید عبد الله أفندی الإدلبی قنصل الدولة العلیة، و لم یکن لتعارفنا من سبب سوی حمرة رأسینا، فإنه أول ما رأی طربوشی أقبل إلیّ متبسما باشا، و دعانی إلی منزله من دون أن أبرز إلیه

کتاب وصاة علی عادة القوم، و لم یکتف بهذا حتی أخذ عنوان مقامی فی کمبریج قصد أن یبعث إلیّ بهدیة من طرف المدینة، و قد فعل جزاه الله خیرا. و له مساع عند الدولة المشار إلیها محمودة و ذکر حسن عند أهل البلدة،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۱

و عند أهل الشام أیضا.

التلغراف و أنواعه

و فیها رأیت محل التلغراف و هو علی نوعین:

الأول المتعارف و هو شبه الساعة الدقاقة فی وجهها إبرة من فولاذ موضوعة تحت نصف حلقة، و فوقها مسماران صغیران من عظم قد رسم فوقهما الحروف الهجائیة، و الغالب أن یکون فی کل صفحة إبرتان، فمتی حرّک الإبرة السلک المتصل بها من وراء الصندوق طرقت علی کلا الوتدین. و لکل حرف طرق معلوم، فالألف مثلا لها طرقتان علی وتد واحد، و للباء ثلاث، اثنتان علی وتد، و واحدة علی آخر، و هلم جرا.

و الثانی و هو ما اخترع بعده فکان أوفق و أسهل، و هو آلة کالدولاب فیها قلم دقیق من فولاذ مرکب من أجزاء کیمیاویة، و یمر من تحته سیر رقیق من ورق مرکّب أیضا، فیرسم علیه خطوطا سودا و هی فی عرفهم حروف. و هناک أیضا آلة کمنوال الحائک ذات أسنان دقیقة بارزة منه، یمر من تحتها الورق فترسم علیه خطوطا. و قیل إنه یوجد آلة ترسم الحروف المکتوبة کما یرسمها کاتبها سواء، حتی لو کتب أحد بالعربیة شیئا أدّته کما هو، و هذه الآلة لم أرها.

و أکثر الآلات استعمالا فی بلاد الإنکلیز إنما هی الإبرة، و فی بلاد أمیریکا الدولاب. و بکل منهما یصل الخبر من لندرة إلی إیدنبرغ- و هی مسافة ثلاثمائة میل- فی ثانیة. و سواء کانت المسافة طویلة أو قصیرة فالتأثیر واحد. فأما تحریک الأسلاک فإنه ینشأ عن الخاصیة الجاذبة من وضع صفیحة من النحاس و قطعة من التوتیا، توضعان فی الماء فیخرج منها روح یسری فی السلک المماس لهما، و منه إلی الأسلاک التی تری عیانا فی الطریق، و قد تراها ممتدة فی الهواء بجانب سکة الحدید، و ربما کانت عشرة فأکثر، و ربما بلغ الخبر بعضها إلی مکان و بعضها إلی مکان أخر. و سواء کانت سافلة أو عالیة أو علی خط مستقیم أو منحرف فلا یتخلف حکم الخبر بها.

و قد ثبت بالتجربة أنها تصح تحت الماء کما تصح فی الهواء.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۲

و هذه المصلحة یتکفل بها جماعة علی حدتها و الفائدة منها عامة للجمیع، و لا سیما الدولة و التجار، فإنه إذا أرید الاستخبار عن أمر مهم علم فی دقیقة واحدة، و إذا هرب القاتل من بلد إلی أخر عرف شأنه قبل وصوله إلی مهربه. و جعل نحو عشرین کلمة نصف لیرة.

رؤیة التلغراف و وصف آلیة عمله

ثم لما قرّ بی المقام فی لندرة طلبت من مدیر التلغراف أن یأذن لی فی رؤیة الآلات و موضع النحاس و التوتیا، فورد إلیّ الجواب منه بأنه یکره أن یریها الغرباء، و لا سیما الأجانب کلّ الکراهیة، و لکن إذا کتبت إلیه الجمعیة فی ذلک یرضی، حتی إذا فعلت بعث معی من أرانیها جملة و تفصیلا.

فأول ما رأیت هو الموضع الذی فیه التوتیا و النحاس، و هو عبارة عن موضع مظلم کالنفق، فیه موائد کثیرة من خشب ذات بیوت صغیرة مقسمة، تشتمل علی هذین الجوهرین، و قد غمرت بالماء و معهما ملح الکبریت و سلک الحدید. و هذا السلک متصل بالسلک الظاهر فی الهواء کما تقدم آنفا. أمّا التوتیا فتنحل علی طول المدی و تتلاشی، و أما النحاس فیزید.

ثم أريت موضعا فی الحائط مغشّی بالخشب، يشتمل داخله على أجزاء، و خارجه على نحو مسامير بارزة منه، فجاء الرجل بقطعتين من الفحم و أدناهما من مسمار، و إذا بنور بهی ساطع خرج من طرفيهما، و من هذا التقابل فی الجاذبية تخرج ألوان عديدة زهيّة، يبدونها أحيانا فی الملاهی بما يقصر عن وصفه القلم. و لمّا وضعت إصبعیّ على مسمارين منها أحسست بارتعاش و جاذبية أخدرت مفاصلی فرفعتهما حالا.

ثم صعدنا إلى الموضع الذی تتلقّى فيه الأخبار من كاتب ديوان التلغراف، و ذلك أنه إذا أراد أحد أن يبث خبرا كتبه و سلّمه للكاتب، أو أملاه عليه مشافهة فيدوّنه الكاتب فی رقعة و يجعلها فی ظرف، و يسد أعلاه ثم يضعه فی نحو صندوق، فتدفعه القوة الكهربائية إلى موضع يكون عنده غلام واقف، فيأخذه و يسلّم الرقعة إلى

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۳

قيم الآلة المعدّة لتبليغ الخبر، فإن كان يراد توجيهه مثلا إلى باريس سلّمه إلى قيم آلة باريس، و هلم جرا.

ثم دخلنا موضع الآلات و هی على الصفة التی رأيتها أولا، غير أنی رأيت التبليغ هنا على يد النساء لا الرجال، و كيفية ذلك أن تقعد المرأة على كرسی و تمسك بيدها مقبضا من خشب، و تحركه حركات مطابقة لاصطلاح الحروف، فيتحرك السلك المشرب من روح التوتيا و النحاس، فيحرّك الإبرة فی المحل المبلّغ إليه الخبر على حسب حركات اليد، و ترى البنت تحرّك هذه الآلة كما يحرّك العازف يده على آلة الطرب بغاية ما يكون من الخفة. و بينما كان الرجل يكلمنی أمام آلة إذ رأينا الإبرة تطرق على المسمارين، ثم حركت البنت المقيض و سكتت، ثم تحركت الإبرة أيضا، و كان ذلك بأسرع من أن ينطق المتكلم بعشر كلمات، فقال لی الرجل:

- أتدری ما سبب حركة الإبرة مرتين؟

قلت:

- لا.

قال:

- قد ورد خبر من ويانا يراد تبليغه إلى ليفربول، فبلّغته البنت و جاءها خبر بوصوله.

فبقيت مدهوشا متحيرا، و أخذت أفكر تفكيرا مضطربا فی كيف أن هذا العلم الحری بأن يدعى من العلوم الإلهية لكونه غير متناه، لم يكشف سره من قبل الآن حين كان النحويون يجيزون ستة عشر وجها فی الصفة المشبهة، و يمنعون وجهين و يختلفون فی وجه. و حين كان العمر يضاع فی التعليل و الاعتراضات و التجويز

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۴

و الترجيح كما أشار إليه العالم الأديب الشيخ أحمد المسيری بقوله يمدح خديو مصر على إنشاء مدارس للعلوم الرياضية:

فهذا الفخر فی وجه المعالی و ليس بضرب زيد وجه عمرو

إذا لصرف خواطر القوم إلى الاشتغال بما هو أهم و أنفع، فإن وصول الخبر من قاعدة مملكة أوستريا إلى ليفربول فی أقل من ثانية، أنفع من تجويز عشرين وجها فی مسألة واحدة. و هذا هو سر الكيمياء الذی يتعلمه الإفرنج الآن، لا تحويل الحديد ذهبا أو الآنك فضة، فإن سميته بالأكسير فأنت صادق. و الحاصل أن الخبر يبلغ بهذه الآلة مسافة بعيدة كما يبلغ مسافة ميل على السواء. و عدة الآلات فی هذا المحل نحو خمسين، و عدة المستخدمين فيه مائة و ثلاثون.

قال مؤلف كتاب المخترعات العجيبة: لم يكن يخطر ببال أحد من المتقدمين أنه يمكن إيصال فكر من بلد إلى آخر مسافة مئات من الأميال بثوان قليلة، و أن من يكون واقفا فی لندرة يمكنه أن يخاطب آخر فی إيدنبرغ و يتلقّى منه الجواب كأنهما جالسان فی غرفة واحدة، مع أن بينهما مدى ثلاثمائة ميل.

فلا جرم أن التلغراف إنما هو أكبر العجائب التی كشفت فی عصرنا هذا، فإن السارق مثلا یذهب فی أحد الأرتال السریعة و هو مسرور بسرقته و فراره من ید الشرطة، و یطمع فی أنه إذا بلغ إلی إحدی المدن الغنّاء یخفی أثره عن غریمه، و یضیع خبره فی دخوله بین الناس، فیعمد إلی رتل یمر مسافة خمسین میلا فی الساعة، و یكون خبره قد تقدمه فی السلك الذی یراه بعینه مرة عن یمینه و مرة عن شماله، و یكون الشرطی قد عرفه بسمته و سمته و صفاته، و عرف الرتل الذی سافر فیه، فما یكاد یخرج منه إلا و هو آخذ بتلابیبه، فیبقی مدهوشا مبهوشا لا یدری أین یقصد، ثم تفتش صنادیقه و أوعیته، و یستخرج منها المسروق، و یرسل هو إلی الحبس، فمن ثم كانت فوائد هذه الأسلاك من أعظم الأسباب المؤیدة لإقامة الحق و تشیید سنن الشرع و تنفیذ أحكامه. و لو كان إیصال الخبر علی هذا الوجه قد عرض

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۵

علی مسامع أهل القرون الخالیة لعدّوه من الخزعبلات المفتعلة، إلّا أن هذه العملیة لم تنشأ عرضا أو بغتة، بل بعد إعمال فكر وجهد رویّة فی مدد متعاقبة.

تطور صناعة التلغراف

و أصل ما أدّی أهل الحكمة و الفلسفة إلی هذا الاستنباط كان استعمال فرنكلین الأمیریكانی للطیارة المعروفة، و مذ حینئذ خطر ببال المتبحرین فی العلوم أنه لا یبعد عن الإمكان إیصال خبر بواسطة أداة إلی بعض الأماكن الشاسعة.

قلت ولد فرنكلین المذكور فی مدینة بوصطن من أمیریكا فی سنة ۱۷۰۶ و كان فی مبدأ أمره خامل الذكر، ثم اشتغل بالعلم و حسنت حاله و ما زال یترقّی فی المعالی حتی صار من أهل السیاسیة، و ذهب إلی باریس، و حظی عند رجال الدولة حظوة عظیمة، حتی إنهم لما بلغهم خبر وفاته لبسوا علیه الحداد. و له مؤلفات عدیدة.

فأما خبر طیارته فهو أنه صعدها فی یوم ذی دجن، و كان قد ربط مرستها إلی و تدین، و أناط بها مفتاحا، فلما غشیها الغمام وجد أن بعض خیوطها قد تنفّش و تجافی عن بعض منتصبا، فأدنی برجمته من المفتاح، فأحس بشرار البرق.

قال: و فی سنة ۱۷۸۷ أجری لوموند السكوتلاندی عملیة تقرب من هذا الكشف.

و فی سنة ۱۷۹۴ نصب ریزر تلغرافا یمكن استعماله، و إن كان أقل نفعا و اتقانا من المستعمل الآن، فكان التبلیغ فیه خاصا بالسلك، و العمل كله للشرارة الكهربائیة، و كان السلك یجعل فی موضع مظلم و حوله صفائح من القصدیر علیها حروف مرسومة و قد ركزت علی صفائح من زجاج، فإذا طار الشرر علی هذه لیجری فی السلك أضاء الصفائح، فتمكن به قراءة الحروف.

ثم قام فولتی و حسّن هذه العملیة بعض التحسین، ثم رونالدس من همرسمیث،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۶

و أرستد من كوبنهاغن، و شویجر، و مونیك، و دافیس، و أراغو و غیرهم. و كل منهم زاد شیئا و حسّن شیئا.

و فی سنة ۱۸۳۷ قام الدكطور «كوك» و «ویتسطون» و أخذا رخصة من الدولة لإجراء هذه العملیة. و فی سنة ۱۸۳۹ استعمل التلغراف كما نراه الآن فی سكة الحدید المسماة السكة الغربیة الكبیرة، و هو الذی یبلّغ الخبر بواسطة طرق الإبرة علی المسامیر. و أخبرنی من یعرف و تیسطون أنه هو الذی اخترع آلة الطرب المسماة كنشرتینو، و آلة أخری من نوع النظارات. ثم اخترع الدكطور سطنبیل من مونیش آلة تنقّط الحبر علی ورق، و علی قدر ترتیب النقط یكون فحوی المنقول. و فی سنة ۱۸۴۰ اخترع و یتسطون هذا المنوال الذی یدور و یرسم الحروف. و فی سنة ۱۸۴۲ نصب مستر وود الأسلاك علی دعائم، و كانت من قبل تحت الأرض و هی غیر مماسة لها، بل نافذة من حلق من الفخّار و بذلك سهل نصب أسلاك غلیظة من الحدید بدل النحاس، فنقصت المصاریف نحو النصف. و هذه الأسلاك تجری فی ثلثی سك الحدید الممتدة، و لیس من بلد عامر إلا و تصل إلیه الأخبار بها.

و قال صاحب أبجدیة الأوقات:» أول من خطر بباله إنشاء التلغراف المعروف الآن کان الدکطور هوک و ذلک فی سنة ۱۶۶۴، و قیل إن موسیو أمنتونس هو أیضا مخترعه فی ذلک التاریخ، إلا أنه لم یجر استعماله إلا فی سنة ۱۷۹۳. و قیل إن موسیو شاب هو أول من اخترع التلغراف الذی استعمله الفرنسیس فی تلک السنة. و فی سنة ۱۷۹۶ نصب سلکان فوق دیوان الأمیرال.

قلت کانت ولادة روبرت هوک فی سنة ۱۶۳۵ و وفاته فی سنة ۱۷۰۲، و یقال إنه هو أول من اخترع آلة لتقویم حرکة الساعة، و أتقن کثیرا من الآلات الهندسیة و فکّر فی الجاذبیة الأرضیة، و استنبط فی الریاضیات و الفلکیات و الطب و الکیمیاء أشیاء کثیرة. و کان شرسا حسودا نازع نیوطون أنفس مخترعاته.

فی أیدنبورغ قاعدة سکوتلاند

ثم سافرت من منشستر إلی أیدنبورغ قاعدة سکوتلاند و هی مدینة بهیجة جدا،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۷

مبنیة من الحجر الصلب علی عدة نجوات، و هی شطران: أحدهما جدید و الثانی قدیم. أمّا القدیم فإن دیاره عالیة جدا، فقد تشتمل الدار علی ثمانی طبقات، إلا أن فیه أزقة قذرة ضیقة جدا. و أما الجدید فإنه یشتمل علی طرق واسعة، و دیار حسنة، و حوانیت عظیمة، و مبایت للمسافرین رحیبة، و فیه مدرسة جامعة تحوی نحو ستمائة طالب و هی شهیرة بعلم الطب. و فیها مکتبة موقوفة تحوی ثمانین ألف کتاب ما عدا کتب خط الید.

تمثال ولطر سکوت

و هناک قبّة جلیلة فیها تمثال سر ولطر سکوت شاعرهم الشهیر، و لها مرقب عال مطل علی الخلیج الداخل من البحر وسعته عدة أمیال، و هذا المطل یکاد أن یکون کمطال جبل لبنان. و قد کان الفاصل بین الشطرین خلیجا و الآن جعل ممرا للأرتال.

أمّا أرض سکوتلاند فهی دون أرض إنکلترة فی الخصب و الریع، و ذلک لکثرة الجبال فیها، إلا أن أهلها أصحاب جد و دأب فی الصنائع، و شأنهم التغرّب فی جمیع البلاد. فهم کأهل حلب فی سوریة. و کل سنة یهاجر منهم أکثر من ثمانیة عشر ألفا. و هم أکثر شقرة و صهوبة من الإنکلیز، و عدتهم نحو ۳. ۰۰۰. ۰۰۰ و لهم لغة خاصة بهم، غیر أن لغة الإنکلیز غلبت علیهم الآن. و حاکمهم منهم و لکنه تحت طاعة الدولة. و هم أشد تحمسا فی الدین من الإنکلیز، فإن أصحاب الفنادق یضعون فی کل غرفة للمسافر کتابی العهد القدیم و الجدید. و کثیرا ما تری نساء یبعن الفاکهة فی الطریق و بین أیدیهن کتاب الإنجیل. و قد طالما حاولت أساقفة الإنکلیز إقرار کنیستهم فیها، و جعلها الأصل کما فعلوا بإرلاند، فقابلهم الأهلون بأشد الإباء و التمنّع، مع أن أهل إرلاند أکثر من ۷. ۰۰۰. ۰۰۰، و سبب ذلک أنه لما اتّحدت سکوتلاند بإنکلترة و ذلک فی سنة ۱۷۰۷، کان من جملة الشروط التی اشترطوها أن تبقی رسوم کنیستهم و مناسکها کما کانت، فأقرتهم الدولة علی ذلک إلی یومنا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۸

هذا. و هم مثل الإنکلیز فی کونهم یشفنون الغریب، فإنی حین کنت أمر فی الطریق کان یجری ورائی جمع غفیر من الرجال و النساء و الأولاد ینظرون إلی طربوشی و یتعجبون، حتی اضطررت مرة إلی أن أتواری منهم فی دکان.

قصر الملکة مارى استوارت و قصتها

و قد رأیت فی هذه المدینة القصر الذی کانت تسکنه الملکة مارى استوارت المشهورة بالجمال و النجابة. و هو فی خفض من الأرض. و فیه شاهدت صورتها و سریرها الذی کانت تنام علیه، و صورة الطلیانی الذی اتهمت بحبه، و هو یقاربها فی الجمال، و

صورته باقیة فی الموضع الذی قتل فیه غیلة. و سببه فیما قیل: إنه لمّا کان یعزف لها بالکنارة ذات لیلة، إذ هجم علیه زوجها من باب خفی فقتله عند الباب الخارج، و لم یزل أثر الدم علی الخشب القریب من العتبة. ثم رأیت صورتها أیضا فی القلعة التی حبست فیها بعد أن اتهمها حسادها بالفحش، و هی أجمل من صورتها فی القصر. و لمّا کانت محبوسة هناک أخذها الطلق فولدت جامس الأول، و هو الذی صیّر مملکتی سکوتلاند و إنکلترة مملکة واحدة.

و شاهدت أیضا فی القلعة تاج الملک و السیف و الصولجان و النیشان، و خاتما من ذهب فصّه یاقوتة أکبر من الفولة. و الشبّاک الذی تدلت منه فنجت، و هو عال جدا.

و فیها أیضا کنیسة صغیرة یقال إنها أول کنیسة أقیمت فیها فرائض النصرانیة فی تلک البلاد، و کانوا حینئذ یرمّونها. و هذه القلعة مبنیة علی صخر ارتفاعه ثلاثمائة قدم.

فأما ما کان من أمر الملکة مارى ففی محفوظی أنها بعد أن یئست من الملک بعد وقائع طویلة جرت بینها و بین أعدائها، فرّت من دار المملکة، و کتبت إلی ابنة عمها و قیل أختها الیصابت ملکة الإنکلیز تستجیر بها، فکتبت إلیها أن أقدمی علیّ و لک الأمان، فلما قدمت علیها أضمرت لها شرا حسدا لها علی جمالها و محاسنها،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۰۹

فصدق المثل حیث قال:» إن من الحسن لشقوة»، ثم تجنّت علیها أمورا کثیرة، من جملتها أنها قتلت زوجها، فأودعتها السجن، ثم خفرت ذمتها معها، و نقضت عهدها، و عقدت علیها مجلسا حکموا بقتلها فقتلت. و مع أن الإنکلیز ینوّهون باسم الملکة الیصابت لإجارتها مذهب البروتستانط، فلا ینفون عنها هذا الغدر الشنیع الذی رضیته لنفسها بعد التأمین، فهو طبع یصدأ به ذکرها علی ممر الدهور.

و من قرأ قصة الملکة مارى و هی مسجونة، و ما لقیت من الضر و النکد، فلا یملک عبراته علیها، و لعمری إنه لم یشقنی شیء إلی رؤیة سکوتلاند غیر صورتها و قصرها و ذکر أیامها.

قال «بولیه» إن مارى ملکة سکوتلاند هی بنت یعقوب الخامس ملک سکوتلاند. ولدت فی سنة ۱۵۴۲ و مات أبوها بعد ولادتها بثمانیة أیام. و فی سنة ۱۵۵۷ تزوجت دوفان فرنسا، ثم صار ملکا باسم فرنسیس الثانی و مات عنها بعد سنة و نصف فرجعت إلی سکوتلاند، إلا أن تمسکها بدیانة الملّة الکاثولیکیة جعلها بغیضة لدی الأهلین. و فی سنة ۱۵۶۵ تزوجت ابن عمها هنری لمجرد جماله فقط، و کان یغار علیها من داود ریزیو الطلیانی کاتب سرها فقتله بمرأی منها. و فی سنة ۱۵۶۷ هلک هو فاتهمت بقتله. و بعد ثلاثة أشهر تزوجت کونت بوثول، و لم تتدبر فی العواقب حیث کان قد اتهم بأنه أجهز علی زوجها، فشغب علیها فعلها هذا أهل المملکة و ألزموها أن تعدّی عن مذهبها، ففرت و التجأت إلی ابنة عمها الملکة الیصابت، و ذلک فی سنة ۱۵۶۸، و حیث کانت الیصابت تحسدها علی جمالها ألقتها فی السجن ثمانی عشرة سنة، ثم تجنّت علیها أنها غاوت جماعة من الکاثولیکیین علی إهلاکها فقضت علیها بالقتل، فماتت و هی متجلدة. و کانت توصف فی عصرها بلکیاسة و الظرافة و الفصاحة و بأنها أجمل النساء. و عند وداعها فرانسا قالت کلاما بلیغا.

قلت وجدت فی بعض التواریخ أنها نظمت فی هذا المعنی أبیاتا بالفرنساویة و ترجمتها کما یأتی:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۰

«وداعا یا فرنسا الأنیقة، یا بلادی التی هی عندی الأعز، و التی رشحت صبای، وداعا یا فرنسا، وداعا یا أیامی الغراء فیها، إن الفلک الذی فصل حبی لم یحمل إلی هنا سوی شطری، و لقد بقی لک الشطر الآخر ملکا لک، و سأترکه لمودتک حتی یتذکرک الآخر».

و قال آخر: قتلت و لها من العمر ۴۴ سنة و شهران، و لما قدمت إلی بلاد الإنکلیز کان سنها خمسا و عشرین سنة. و قال بولیه: و ماتت عن ولد، ملک علی سکوتلاند باسم جامس السادس، و علی بلاد الإنکلیز باسم جامس الأول. و قد ألّف العالم «شلر» علی قتلها تمثیلة

من أبلغ ما یکون.

و مما ذکر عن هذه الملکة علی سبیل الإسهاب، هو أن الملکة الیصابت کانت قد حسدتها علی صیتها و جمالها، فأضمرت قتلها فمن ثمّ أمرت أحد کتّابها المسمی «داریصون» بأن یکتب أمرا بذلک، و کان الأمیر بیل من أشد الناس عداوة للملکة مارى فسار إلیها لینذرها أن تستعد للقتل فقالت له: «ما کنت أظن أن أختی الملکة الیصابت تأمر بقتلی حالة کونی لست من رعیتها، و لکن إذا کان رضاها فی موتی فأهلا به، ألا و إنّ نفسا لا تسمح لجسمها بأن یتحمل ضربة جلاد لغیر جدیرة بأن تتمتع بنعیم الآخرة». ثم طلبت أن تفاوض قسیسها و کان قد منع من رؤیتها فأشار علیها بعض النبلاء بأن تفاوض أحد أساقفة البروتستانط فامتنعت فقال لها أمیر کنت و کان متحمسا فی مذهب هؤلاء: إن حیاتک موت لدیننا و موتک حیاة له، ثم ذکر لها ما جری من تغاوی بابنطون فأنکرت مواطأتها له فی شیء، ثم لما انصرف الأمراء من عندها أمرت بإحضار العشاء سریعا لیمکن لها إنهاء علائقها و أمورها، فلما حضر تناولت منه قلیلا علی عادتها فجعل خدمتها و حشمها یبکون و ینتحبون، و جعلت هی تطیّب خواطرهم بالکلام و تسلیهم و هی تقول کفّوا عن النواح و افرحوا بانطلاقی من هذا العالم، عالم الشقاء، ثم التفتت إلی طبیبها و قالت له: «ناشدتک الله، أما وجدت الآن قوة الحق عظیمة، ألا تری أنهم قالوا أولا إنّی استوجبت الموت

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۱

لکونی غاویت علی قتل الملکة، و الآن قال لی أمیر «کنت»: إنّه لا سبب لقتلی سوی خوفهم منی علی دیانتهم، لکنی أعلم أن بعضا من هؤلاء الناس قد تحروا منفعة أنفسهم خاصة بدعوی الدیانة، ثم إنها عند الفراغ من العشاء شربت علی اسم خدمتها رجالا و نساء فشربوا هم معها، و هم جاثون علی رکبهم و قد مزجوا الشراب بالدموع، و طلبوا منها العفو عما فرط منهم من التقصیر و الإهمال، فعفت عنهم و استعفتهم هی أیضا، ثم کتبت وصیّتها و قرأتها علیهم، و وزعت حلیّها و جواهرها، و کتبت رسائل وصاة إلی ملک فرنسا فی حق خدمتها، ثم ذهبت إلی الفراش فنامت قلیلا، و قضت سائر اللیلة بالدعاء و الاستغفار، فلما کان الغد لبست أفخر ثیابها التی کانت تلبسها فی الأعیاد، ودّعت خدمتها جمیعا و أمرت بقراءة وصیّتها، ثم حضر أحد الأمراء و طلب منها أن تستعد للخروج، فخرجت علی الفور و علیها سمة التجلد و الخفر و المجد و البشاشة و البشر و علی رأسها غطاء من کتان مسدل إلی الأرض و بیدها سبحتها، فلما بلغت مقتلها استقبلها جماعة من النبلاء و الأمراء و خادمها ملفن و هو ینتحب و یتحسر، فقالت له: رویدک یا ملفن لا تنتحب، فإنک عمّا قلیل تری مارى استوارت معتوقة من قید الهموم، فقل لأهل سکوتلاند إنّی أموت علی دینی و إنّی باقیة علی عهدی و مودتی لکل من سکوتلاند و فرنسا، اللهم اغفر لمن ظمئ إلی دمی کما یظمأ الأیل إلی الماء، اللهم إنّک تعلم أنی طالما قصدت أن تکون سکوتلاند و إنکلترة مملکة واحدة، فبرئنی عند ابنی و ألهمه أنی لم آت شیئا یشین مملکة سکوتلاند، و وفقه إلی أن یسلک مع ملکة إنکلترة مسلک صداقة و مودة، ثم ذرفت مدامعها و ودعت ملفن الوداع الأخیر، فاندفع فی البکاء و النحیب ثم التفتت إلی الأمراء و رغبت إلیهم فی أن یحسنوا إلی خدمتها، و یساعدوهم علی إحراز ما أوصت لهم به، و أن یأذنوا لهم فی أن یقوموا حولها عند قتلها ثم یرسلوا إلی بلادهم، فرضوا بطلبها الأول و أبی أمیر «کنت» أن تقف خدمتها لدیها لوسواس خامره، فقالت له:» لا تخش بأسا من هذه النفوس البریئة، إذ لیس لها غایة سوی أن تتملّی منی بآخر وداع، و لا ریب أن أختی الیصابت لا تمنعنی هذه الطلبة الیسیرة، کیف و إنی أقرب من انتسب إلیها، و أبی هنری الثامن، و زوجی مات ملکا علی فرنسان، و أنا نصّبت ملکة علی سکوتلاند». فسمحوا لها حینئذ بما طلبت، ثم تقدم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۲

أمامها الأمراء و خادمها ملفن رافع لطرف ردائها، حتی انتهوا إلی الموضع و کان علیه کرسی أسود علیه مخدّة سوداء، فلما استوت علی الکرسی، و هدأت الأصوات، قرّ «بیل» الأمر بقتلها فاستمعت له مصغیة، ثم حاول بعض من حضر من أساقفة البروتستانط أن یمیلها عن دیانتها، فقالت له:» إنّی أموت علی الدین الذی ولدت فیه». فطلب منها الأمراء أن یصلّوا معها فقالت لهم: «إنّی أشکرکم إذا

صلیتم لأجلی، فأما صلاتی معکم و أنتم علی غیر مذهبی فإثم علیّ». ثم أخذ الأسقف البروتستانطی فی الصلاة، فجثت و أخذت تدعوا و تصلّی باللاتینیة فتابعها خدمتها، فلما فرغوا قالت بلسان الإنکلیز کلاما مضمونه الاستغفار عن الملکة الیصابت، و توفیق ابنها إلی طاعة الله، و صرف غضبه تعالی عن جزیرة إنکلترة و ما أشبه ذلک، ثم تقدم الجلاد و طلب منها المسامحة فسامحته، ثم نزع عنها خوادمها رداءها الأعلی و أخذن فی النواح و النحیب، فقبّلتهن واحدة فواحدة، و طلبت منهن أن یکففن عن النواح، ثم التفتت أیضا إلی الخدمة و طلبت منهم مثل ذلک و ودعتهم، ثم غطّت وجهها بمندیل أسود، و استوت علی الخشبة و جعلت تنشد فصلا من المزامیر، ثم اضطجعت و جعلت تقول: «ربی إنّی فی یدیک أضع روحی». فتقدم الجلاد و ضرب عنقها فقطع رأسها بضربتین، فصرخ ذلک الأسقف: هکذا تهلک أعداء الملکة الیصابت، فقال أمیر «کنت» آمین.

ثم صبّرت جثتها و نقلت بالاحتفال و دفنت فی کنیسة بیتر بورو بإنکلترة، و صنع لها أیضا مأتم حافل فی باریس، و کتب عند قبرها: هذا ضریح مارى ملکة سکوتلاند، بنت ملک و زوجة ملک و نسیبة لملکة إنکلترة، کانت زینة عصرها و نورا للملک ساطعا و قد حازت من المناقب أعلاها و من المزایا أسناها.

عودة إلی أیدنبورغ

قال بعض من شاهد إیدنبرغ و کلاسکو من الإنجلیز: إن للقسیسین و لفقهاء الشرع فی إیدنبرغ یدا طویلة، و کلمة نافذة، فإن الناس تنقاد لهم فی أکثر الأمور. و لا یکاد الناظر یترسم البیع و الشراء إلا فی حوانیتها بخلاف کلاسکو. و من یقم فیها فکأنما

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۳

هو مقیم فی الریف، و ذلک لصفاء هوائها عن الدخان. و من کل جهة منها یستنشق نسیم البحر. و هی مبنیة من حجارة منیعة باقیة علی الدهر. و یمکن أن یقال:» إنه لیس فی الدنیا کلها مدینة مثلها علی هذا الوضع الأنیق. أما أهلها فما برحوا محافظین علی عاداتهم و رسومهم القدیمة و هی مخالفة لعادات الإنجلیز جدا.

کلاسکو

أما کلاسکو فإنها أعظم منها فی التجارة، فإنها کلها عبارة عن معامل للثیاب المنسوجة و غیرها. و هی و إن تکن أقل تجارة من منشستر إلا أن فی هذه بیوتا کثیرة، و محترفات عدیدة تختص بتلک. أما تجارتها و أشغالها فی الحدید فعظیمة للغایة، و أما فی إنشاء المراکب و الآلات من الحدید فمن الطراز الأول. فإنک نری حولها أتاتین عدیدة لا تزال متأججة حتی کأنّ ذلک القطر قطر جحیمی، و حتی یخیّل للناظر أن خاطر الإنسان یرتاح إلی النار و الدخان، و إلی طقطقة الطارق إرتیاحه إلی المکث فی صقع من إیطالیا، و إلی رؤیة الریاض، و استماع أصوات العیدان. و کأنّ هؤلاء الدخانیین لا یحسدون أحدا سواهم ممن یسکن فی الریف المریع، و لا یبالون بما تقوله الشعراء من وصف المروج الناضرة، و الجداول المترقرقة و غیر ذلک من مسارح النظر الأنیقة. فما قاله ملطون حکایة عن الشیطان حین هبط إلی درکات الجحیم و استسلم إلی ما قدّر علیه، و رضی بما طرأ علیه هناک من شواغل حیاته الجدیدة و هو «کن یا شر لی خیرا» إنما هو صفة هؤلاء الناس لا تتعداهم. فإنهم یتبجحون بکثرة مواقدهم، و تکاثف دخانهم، و کأنّ المدینة حالة کونها تقئ بعمد من النار لیلا، و بعمد من الدخان نهارا، تذکرة تذکّر الناسی بخروج بنی إسرائیل من مصر.

و لا شیء أعجب هنا من أن یری الرائی تعدّد الألواح فوق حوانیتها، و هی التی تکون عنوانا علی اسم التاجر و حرفته، فإن التاجر فی لندرة یکتفی بوضع لوح واحد فوق حانوته، فأما الطبقة التی فوق الحانوت فإنها تکون غالبا مقرا لعیاله. أما فی کلاسکو فإنک تری حانوتا فوق حانوت، و مخزنا فوق مخزن، بل أعظم الحوانیت هی التی تکون فوق الطبقة الأولی. و قد تکون الدار کلها عبارة عن مخزن بضائع، و أینما

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۴

تذهب لتشتری شیئا یقل لک اطلع فوق.

قال: و إنی أکره شیئا من قسیسی سکوتلاند و هو أنهم لا یزالون یطوفون فی البلاد مجتدین بدعوی أنهم ینفقون ما یجمعونه فی وجوه البر و إنشاء الکنائس، و جلّ من یقع غرضا لهم ذوات الثروة من النساء.

العودة إلی کمبریج و إنجاز ترجمة التوراة

ثم عدت إلی کمبریج و بعد أن أنهیت ترجمة التوراة و ذلک فی أقل من عشرین شهرا سرت إلی لندرة، و فاوضت کاتب الجمعیة فی ذلک فقال:

- إن کنت تقیم فی هذه البلاد فإن الجمعیة تعیّن لک شیئا فی مقابلة تصحیح الطبع.

فقلت:

- علی شرط أن أقیم بباریس، و یبعث إلیّ بالمطبوع إلی هناک فأصححه، فإنی طالما هممت بأن أتعلم اللغة الفرنساویة لما أنی أری فی کتب الإنجلیز جملا و عبارات منها مما یحرض علی تعلمها.

فقال:

- لک ذلک.

فمن ثمّ کتبت إلی کاتب حاکم مالطة أخبره بأنّی عدلت عن الرجوع إلیها.

التأهب للسفر من لندرة إلی باریس

ثم تأهبت للسفر إلی باریس، و أعددت خیشومی للغنّة* و خلدی للفتنة* و دریهماتی للمحنة* و هنا أودع القارئ و عبراتی منحدرة، و زفراتی متصاعدة واعدة وعد من یراعی قدیم الصحبة* و یحفظ أکید القربة* بأنی أصف له باریس عند استقراری فیها أتمّ وصف* من دون إسهاب و لا حذف* فإنی جعلت هذه الرحلة مرتبة علی الأوقات* و أخلیتها فی الجملة عن الاستطرادات.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۵

فائدة عن التوراة

و لکن قبل ذلک ینبغی أن أفیده فائدة تتعلق بالتوراة مما یعز وجوده فی غیر هذا الکتاب، فأقول: إن أول من ترجمها من اللغة العبرانیة إلی الیونانیة هم الاثنان و السبعون حبرا فی عهد برثولمی فیلادلفیوس بالأسکندریة، و ذلک فی سنة ۲۷۷ قبل المیلاد. قیل و أتموا ترجمتها فی اثنین و سبعین یوما، و کان کل اثنین منهم فی صومعة، و عیّن علی کل منهما ترجمتها بأجمعها، فلما فرغوا منها وجدت جمیع النسخ لم تختلف إحداها عن الأخری، لا فی کلمة، و لا فی حرف.

و أقدم توراة بید النصاری هی الموجودة فی الفاتیکان برومیة، کتبت فی القرن الرابع و قیل الخامس، و نشرت فی سنة ۱۵۸۷. و الثانیة هی الموجودة فی متحف الإنکلیز المسمی برتیش میوزیوم، أهداها أحد بطارکة الروم إلی شارلس الأول، و قیل أنها نسخت فی حدود التاریخ المتقدم ذکره.

و أقدم توراة عند الیهود هی الموجودة فی تولیدو بإسبانیة، و ذلک نحو سنة ۱۰۰۰ بعد المیلاد. و جملة ما فی التوراة من الأسفار ۳۰، و من الفصول ۹۲۹، و من الآیات ۲۱۴. ۲۳، و من الکلمات ۴۹۳. ۵۹۲، و من الحروف ۱۰۰. ۷۲۸. ۲، و قد تکررت فیها الواو العاطفة ۳۵۵۳۵ مرة، و العدد الحادی و العشرون من الفصل السابع من سفر عزرا یشتمل علی الحروف الأبجدیة کلها. و جملة ما فی الإنجیل

من الأسفار، ۲۷ و من الفصول ۲۶۰، و من الآیات ۹۵۹. ۷، و من الکلمات ۲۵۳. ۱۸۱، و من الحروف ۳۸۰. ۸۳۸، و قد تکرر فیه حرف العطف ۶۸۴. ۱۰ مرة.

و کان طبع التوراة باللغة الإسبانولیة فی سنة/ ۱۴۷۸/ و الجرمانیة فی سنة/ ۱۵۲۲

و الإنکلیزیة فی/ ۱۵۳۴/ و الفرنساویة فی/ ۱۵۳۵

و المسکوبیة فی/ ۱۵۸۱/ و الرومیة فی/ ۱۶۳۸

و الترکیة فی/ ۱۶۶۶/ و البورتوکیزیة فی/ ۱۷۴۸

و الطلیانیة فی/ ۱۷۷۶/ و الفارسیة فی/ ۱۸۱۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة؛ ص۳۱۶

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۶

و وجدت فی بعض الکتب و لست منه علی ثقة، أن التوراة ترجمت إلی العربیة فی القرن الخامس.

التوجه إلی باریس

ثم إنّی رکبت الباخرة، أی سفینة النار التی تسافر من لندرة إلی بولون، بعد نصف اللیل الواقع فی السادس من کانون الأول. و کنت أرجو أنها تقلع فی تلک اللیلة فوقع الضباب الکثیف حتی تعذر السفر إلی الصباح، فلما دنونا من المدینة المذکورة صادفنا الجزر فی البحر، فانتظرنا نحو أربع ساعات حتی جاء المد فبلغنا المدینة فی الفجر، فأخرجت أمتعتنا و فتحت فی الکمرک، و کان معی عدة صنادیق من جملتها صندوقا کتب فلم یأخذوا علیها شیئا، و سمعت بعضهم یقول هذا مرسل، أی قسیس مبعوث من طرف الإنکلیز لهدایة بعض الضلین، إلا أنهم وجدوا فی أحدها رطلا من الشای، فقالوا:

- إمّا أن تؤدّی علیه شلینین و نصفا، و إما أن تترکه هنا.

فقلت:

- لا بل أؤدّی علیه ما تطلبون.

و فرحت بذلک غایة الفرح، لأنی کنت موجسا من أنهم یتقاضون علی الکتب کثیرا، لا سیما و أن کثیرا منها کان جدیدا کما جلّده المجلّد.

نصیحة للمسافرین

و هنا نصیحة أو شبه نصیحة لإخوانی من المسافرین، و هی أن من تصدی منهم إلی فتح صندوقه أولا، یلقی المفتش فی عرام نشاطه و ظمأه إلی أن یجد عنده حاجة جدیدة فیضبطها منه إظهارا لحذقه فی صنعة التفتیش، فأما من یأتی آخر القوم فإنه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۷

یلقاه قد کلّ و ضجر، فأول ما یفتح الصندوق و یتلمسه یطبقه، و ربما اجتزأ عن ذلک بسؤال واحد یلقیه علیه کأن یقول له: هل عندک شیء یؤدّی علیه مکس؟ و لا بد بالضرورة أن یکون الجواب بالسلب، غیر أن جلّ الناس یحبون التقدم و التصدر فی کل شیء، فتراهم یتزاحمون علی فتح صنادیقهم، و أخراجهم و عیابهم کأنما هم فی حلبة السباق.

فی بولون

و فی بولون هذه و فی سائر فرض فرنسان المقابلة لإنکلترة، یزدحم الحمّالون و خدام المطاعم علی المسافرین، و لا ازدحام حمّارة

مصر. و هناک تری النساء حمّالات یغطین شعور رؤوسهن بمندیل فیبرز من تحته شعیرات من عند أفوادهن علی زی نساء الیهود، و سحنهن کسحن الرجال، و أقبح منهن النساء اللائی یصطدن السمک أو یبعنه، فلا یکاد الناظر یعرف منهن علامة الأنثویة.

جواز السفر

و اعلم أیضا أنه من یدخل فرنسا و غیرها من بلاد الإفرنج، فلا بد له من أن یبرز جوازه فی الثغور، أی الباسبورت، و إلا فلا یدعونه یدخل. و أقبح من ذلک أنه لا یمکن للغریب أن یخرج من بلاد فرنسا، إلا إذا أدّی فی دیوان الجواز عشرة فرنکات.

أمّا من یقدم إلی بلاد الإنکلیز فلیس علیه أن یبرز الجواز، کما أن الخارج منها أیضا لیس علیه أن یؤدی شیئا، و لذلک یقال إن بلاد الإنکلیز بلاد الحریة، و سببه عندی و الله أعلم، أن الإنکلیز لما کانوا فی الزمن القدیم متخلفین عن سائر الإفرنج فی أسباب التمدن و العلوم، کما مر بک من جملة مثل، و لا سیما فی الکلام علی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۸

منشستر، احتاجوا إلی أن یتساهلوا مع جیرانهم فی أشیاء تستمیلهم إلی زیارتهم، و ذلک أن أول ظهور التمدن و الفنون فی أوربا إنما کان فی إسبانیة، حین کان المسلمون مستولین علی الأندلس.

عرب الأندلس و أوربا

قال فلتیر: و کانت ملوک الإفرنج جمیعا تستخدم الأطباء من العرب و الیهود، و التزم البابا یوحنا الثامن أن یدفع للمسلمین فی کل سنة خمسة و عشرین ألف رطل من الفضة، و ذلک سنة ۸۷۷. و قد دخلوا إیطالیة و نهبوا کنیسة ماربطرس، و فتکوا بالجیوش الفرنساویة الذین کانوا ساروا إلی رومیة لإجارة أهلها تحت رایة القائد لوتاریوس. و فی القرن الثانی عشر کان المسلمون مستولین فی أسبانیة علی أحسن البلدان، منها بورتغال، و مورسیة، و الأندلس، و والنسیة، و غرناطة، و طرطوسة، و امتد ملکهم حتی إلی وراء جبال قسطیل و سیرقوسة. أمّا دار الخلافة فکانت فی قرطبة و فیها بنوا المسجد العظیم المشهور، قبوه مرفوع علی ثلاثمائة و خمسة و ستین عمودا، و هو من مرمر غریب الصنعه، بدیع الإتقان، و لم یزل معروفا إلی الآن باسم «مسک» أی مسجد، مع أنه حوّل کنیسة. و کانت الصنائع و الفروسیة و الأبهة فی عهدهم فی مزید، و کان عندهم مواضع شتی للفرج و اللهو. أمّا علم المساحة و الفلک و الکیمیاء و الطب، فلم یکن إلا فی قرطبة دون غیرها من سائر المدن، حتی أن صانکو ملک لیون الملقب بالسمین اضطر إلی أن یسافر إلیها، لیأخذ الطب عن رجل کان مشهورا فی عصره، فلما استدعی به الملک أجابه مع الرسول قائلا: إن کان للملک حاجة إلیّ فلیقدم علیّ. و قال بعض المؤلفین إن المسلمین ملکوا من البلاد فی مدة ثمانین سنة بعد الهجرة، ما لم یملکه الرومانیون فی مدة ثمانمائة سنة.

هدیة هارون الرشید لشارلمان

و قال فلتیر فی موضع آخر: و أول ساعة دقاقة عرفت فی فرنسا هی التی أهداها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۱۹

هارون الرشید إلی شارلمان. و قال فی أبجدیة الأوقات: علم الحساب إنما أخذ عن العرب فی إسبانیة، و ذلک فی سنة ۱۰۵۰ ثم شهر فی إنکلترة فی سنة ۱۲۵۳.

البابا یأخذ العلم عن عرب الأندلس

و قال صاحب معجم الجغرافیة: إن البابا سلوستروس الثانی، و کان یعرف أولا باسم جربرت، سار إلی الأندلس و أخذ العلم عن

العرب. و کانت ولادته فی سنة ۹۳۰ و انتخب بابا فی سنة ۹۹۹، و کان ماهرا فی علم المساحة و جر الأثقال و الفلک.

و هو الذی بثّ رقم الحساب العربی فی أوربا، و أول من عمل ساعة ذات رقاص.

فی الإبداع و الاختراع

و قال فلتیر: أول من اخترع هذه النظارات للعیون إسکندر سبینا، و ذلک فی أواخر القرن الثالث عشر. و کذا اختراع طواحین الریح کان فی ذلک العهد.

و أصل اختراع الفخار کان فی فیانتزی. أمّا زجاج الطیقان فکان معروفا من قبل ذلک، إلا أنه کان نادرا، و کان یعدّ من الإسراف، و کان اشتهار صنعته فی بلاد الإنکلیز فی سنة ۱۱۸۰ من بعض الفرنسیس، و کان یتنافس فیها، و أول من أبدع مرایا الزجاج أهل فینیسیا، و ذلک فی القرن الثالث عشر. و کان استعمال الساعات معروفا فی إیطالیة و لکن علی ندرة.

و لم یکن فی أوربا کلها من المدن ما یضاهی فینیسیا، و جینوی، و بولونیا، و سیانا، و بیزی، و فلورانس. و لم تکن البیوت فی مدن فرنسا و النمسا و إنکلترة کما هی الآن، و إنما کانت سقوفها من التبن المطیّن، و بناؤها من الخشب. و لم یکن عندهم هذه المواقد المعروفة الآن لإیقاد النار، و إنما کانوا یوقدونها فی نحو کانون یجعلونه فی وسط البیت، فیجتمع حوله المصطلون و الدخان متصاعد منه، و کانت أغطیة الموائد من الکتان عند الإنکلیز نادرة جدا، و لم یکن النبیذ یباع إلا عند العقاقیریة. و کان الرکوب فی مرکب ذی عجلتین فی طرق باریس الوسخة إسرافا،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲۰

حتی أن فیلیب الملقب بالأزهر منع النساء من ذلک. و کان أهل بولادن یقتلون أولادهم إذا جاءوا ناقصی الخلقة، و کذا یقتلون الذین أسنّوا و عجزوا، و قس علی ذلک سائر سکان البلاد الشمالیة.

و أول من أحیا صنعة نقر التماثیل برونلشی من مدینة فلورانس. و کان غیوتو نبها فی التصویر، و بوکاشیو فی اللغة و الأدب، و أول من اخترع مقامات الموسیقی علی ما عرفت الآن غیدو أوتزو، و أشهر من برع فی النظم و التألیفبترارک و دانتی.

و لم یکن إذ ذاک فی البلاد الشمالیة سوی الجهل الفاحش و التفاخر بالفتک و القتال.

اختراع الساعة

قلت: و حیث جری فی معرض ما أوردناه ذکر الساعة، فلا بد من استیفاء الکلام علیها، ثم أرجع إلی ما کنت بصدده. قال مؤلف کتاب المخترعات العجیبة:

ذکر المؤرخون من الفرنسیس أن أول ساعة عرفت فی بلادهم کانت الساعة التی أهداها الخلیفة هارون الرشید إلی شارلمان ملک فرنسا، و ذلک فی سنة ۸۰۷، و کانت بدعا فی ذلک العصر، حتی أنها أورثت رجال الدیوان حیرة و ذهولا، و الظاهر أنها کانت من الآلات التی یدیرها الماء المنحدر، و کان لها اثنا عشر بابا صغیرا تنقسم بها الساعات، فکلما مضت ساعة انفتح باب و خرج منه کرات من نحاس صغیرة، تقع علی جرس فیطن بعدد الساعات و تبقی الأبواب مفتوحة، و حینئذ تخرج صور اثنی عشر فارسا علی خیل و تدور علی صفحة الساعة.

قلت: بودّی لو أعرف اسم الساعة فی ذلک العصر، فإنی أنکر هذه اللفظة، و أهل الغرب یقولون منکالة، و هی أنکر. قال و کان ألفرد الکبیر ملک الإنکلیز یأمر باتخاذ شمع طول کل شمعة اثنتا عشرة إصبعا، و یعلّم کلا منها بعلامات متساویة منقسمة إلی أربعة و عشرین قسما، کنایة عن اللیل و النهار، فکان یأمر بإیقادها متعاقبة لیلا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲۱

و نهارا، و یجعلها فی قرن رقیق شفاف صونا لها من الریح. و لم یعلم عمل الساعات الدقاقة إلا بعد موته بقرون عدیدة. أمّا تقسیم الیوم إلی أربع و عشرین ساعة فمعروف من قدیم الزمان. قلت و فی محفوظی أنه ذکر فی المصباح المنیر للفیومی، أن أهل الحساب اصطلحوا علی أربعة و عشرین قیراطا لأنه أول عدد له ثمن و ربع و نصف و ثلث صحیحات من غیر کسر، فلعلّ هذا هو السبب فی تقسیم الیوم و اللیلة إلی هذا العدد. و ذکر هیرودوطوس أن میقاتیة الشمس کانت معروفة عند الیونانیین، و هم أخذوها عن البابلیین. فأما المیقاتیة المائیة التی تدل علی الأوقات علی نسق الرملیة، فکانت معروفة عند الکلدانیین، و عند قدماء الهنود، فکانوا یحدرون الماء فیها من إناء إلی آخر، کما یحدر الرمل فی الزجاجة، و بذلک یستدلون علی أوقات التنجیم، إلا أن عدم تساوی انحدار الماء، و تخالف الهواء، کان یجعل حسابهم غیر مطّرد. أمّا شکلها فغیر معروف بالتفصیل، و غایة ما یعلم من أمرها أن الماء کان ینحدر فی وعاء فیها قطرة قطرة، فإذا امتلأ الإناء علم مقدار الوقت المفروض. و أول من أتقن الساعة المائیة حتی صارت من الأدوات العلمیة الدون کرلوس فالی أحد الرهبان الباندکتیین، و ذلک سنة ۱۶۹۰، و زعم بعض أنها من مخترعات مرتینلی الطلیانی.

قیل و أول مؤلف ذکر اسم آلة تدل علی الساعات دانتی الشهیر، ولد فی سنة ۱۲۵۶، و مات فی سنة ۱۳۲۱، و شهر ذلک فی إنکلترة فی سنة ۱۲۲۸، و کان أیضا مشهورا عند غیرهم. و فی زمن إدورد الأول وضعت غرامة علی أصحاب الجنایات لأجل عمل ساعة دقاقة فی غرفة و ستمینستر، لکی یسمعها الذین فی المحکمة، و فی زمن هنری الخامس کان لها شأن عظیم، حتی أن الملک وکّل محافظتها و تعهدها إلی ولیم و اربی دیّن کنیسة صانت أسطفان، و عیّن له فی مقابلة ذلک نصف شلین فی کل یوم من دیوان الخزنة. و فی سنة ۱۳۳۴ أبرز یعقوب دوندی ساعته المشهورة، فکانت تدل علی الساعات، و علی سیر الشمس فی منطقة البروج، و علی مواقع الکواکب السیارة، و لقب بهورولوجیوس.

و فی أواسط القرن الرابع عشر وضع فی کنیسة استراسبورغ ساعة من أکثر الآلات ترکیبا و تألّفا، فإن صفحتها کانت تبدی الکرة السماویة، و سیر الشمس و القمر و الأرض و الکواکب، و محاق القمر و نموه، و تقویما یدل علی الیوم الواقع من

الشهر، و کان ربع الساعة الأول یطرقه ولد بتفاحة، و الثانی شاب بسهم، و الثالث رجل برأس عصا، و الرابع الأخیر شیخ بعکازه، و عند مرور کل ساعة یفتح الباب ملک و ینحنی مسلّما علی مریم العذراء، ثم یطرق الجرس و بقربه ملک آخر یحمل ساعة رملیة یقلّبها عند انتهاء الدقات الأربع، و کان بها أیضا دیک من ذهب یصفق بجناحیه عند اقتراب کل ساعة، و یمد عنقه ثم یصقع مرتین.

و فی أواخر القرن المذکور صنع رجل من جینوی اسمه دروز ساعة دقاقة ذات حرکات غریبة، و کانت تشتمل علی تمثال رجل أسود وراع و کلب، فکان الراعی عند طرق الساعة یعزف علی الناى ستة أصوات، فیدنو منه الکلب و یحرک ذنبه متملقا.

و لمّا عرضها علی ملک أسبانیة تعجب منها غایة التعجب، فالتمس إلیه دروز أن یمدّ یده و یأخذ تفاحة من سلة الراعی، فلما فعل انبعث الکلب ینبح نباحا عالیا، حتی صار کلب الملک ینبح أیضا. قیل و کان إذا سئل الأسود عن الساعة أجاب بالکلام الفرنساوی لیفهمه الحاضرون. و أول من وضع الرقاص فی الساعة الدقاقة ریشارد هارس الإنکلیزی، و ذلک فی سنة ۱۶۴۱. أمّا الساعات الصغیرة التی توضع فی الجیب مختصرة عن الکبیرة فالجزم بمعرفة مخترعها صعب، و الأرجح أنها من مخترعات هوک. و قیل أن أصل اختراع الساعات کان فی نورمبرغ فی سنة ۱۴۷۷.

و حقق البعض أن روبرت ملک سکوتلاند قد کان له ساعة و ذلک فی سنة ۱۴۱۰.

و کان استعمال الساعات فی الأرصاد الفلکیة فی سنة ۱۵۰۰، و قال بعض أن الإمبراطور کرلوس الخامس هو الذی کان عنده ما یصدق علیه اسم الساعة و ذلک فی سنة ۱۵۳۰، و أصل جلب الساعات إلی بلاد الإنکلیز کان من جرمانیا فی سنة ۱۵۷۷، أمّا الساعات التی توضع فی الجیب فمن الناس من نسب اختراعها إلی دکطر هوک، و أهل هولاند نسبوه إلی هیکفس. و قیل إن ساعة الماء عرفت فی رومیة فی سنة ۱۵۸، و إن البابا بواس الأول أهدی بابان ملک فرنسا ساعة مائیة فی سنة ۷۶۰، و قیل إن أصل اختراع الساعة

الشمسیة کان فی سنة ۵۵۰ قبل المیلاد، و قیل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲۳

إنها عرفت فی رومیة سنة ۲۹۲، من التاریخ المذکور، و فی سنة ۶۱۳ نصبت فی الکنائس، و فی مدة أحد عشر شهرا من سنة ۱۸۵۰ جلب إلی بلاد الإنکلیز من هذه الساعات ۴۷۴. ۲۱۵.

بدء التمدن فی أوربا

فقد عرفت مما تقدم أن التمدن فی البلاد الإفرنجیة بدأ أولا فی إسبانیا بالنظر إلی العلوم، و فی بلاد إیطالیا بالنظر إلی الصنائع، ثم انبثّت منهما إلی فرنسا، و أول اشتهارها فیها. و بناء قصر فنتبلو، و قصر صان جرمان، و تهذیب اللغة الفرنساویة، کان فی أیام الملک فرنسوا الأول. کانت ولادته فی سنة ۱۴۹۴. و وفاته سنة ۱۵۴۷، ثم لما انتشر مذهب البروتستانت فی فرنسا و کانت الدولة تضطهد المتمذهبین به، کانوا یضطرون إلی الفرار إی البلاد الأجنبیة، و حسبک بیوم مار برتولماوس دلیلا. و لما قام لویس الرابع عشر، و کان هو و وزیره الکردینال ریشلیو أشد الناس بغضة لأهل هذا المذهب، فرّ کثیر منهم إلی بلاد الإنکلیز و کانوا ذوی معارف و علم فبثوا فیها ذلک، و طاب للإنکلیز أن یضیفوا من التجأ إلیهم و أن یعفوهم من الجواز، و بقیت الحال علی هذا المنوال.

مدینة بولون

ثم إن بولون هی مثل غیرها من فرض فرنسا المقابلة لإنکلترا فی کونها موردا للتجارة بین المملکتین، و أکثر دیارها منازل للمسافرین، و ثلث سکانها إنکلیز.

و أحسن ما فیها متحفها من غرائب أنواع الطیر و السمک و سائر أنواع الحیوانات، و من الجواهر المعدنیة و أنواع الورق الذی کانوا یکتبون علیه فی الزمن القدیم، و من الصور و آلات الطرب لجمیع ما هو عبرة للمعتبر، و من رأی عظام السمک و الوحوش الضخمة فلا یکذّب شیئا مما قاله الأولون.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲۴

الوصول إلی باریس

ثم سافرنا منها فبلغنا باریس لیلا فدهشت لما رأیت، فإنی وجدت جمیع الحوانیت مفتوحة فی الساعة التی لا یفتح فیها شیئا فی لندرة غیر حانات المزر.

و حین مررنا بالبلفار رأینا من الأنوار فی الدیار من فوق، و فی محال القهوة من تحتها، و فی فوانیس الطرق من بین الأشجار، و فی فوانیس العواجل الواقفة عن الیمین و الشمال، ما خیلّ لی أنی فی جنات النعیم، فقلت فی نفسی بخ بخ، إن هذه مدینة بهجة و أنوار، تتفتح فیها أکمام المعانی فی ریاض الأفکار، و تنجلی بها عرائس القصائد فی أخدار الأشعار، فلأجعلنّ دأبی النظم فیها اللیل و النهار، و کلما أرتج علیّ شیء جئت إلی البلفار. ثم لبثنا أربعة أیام فی مبیت، إلی أن تیسر لنا استیجار محل فی دار علی حدته، و کان الضباب فی خلالها کثیفا، و البرد شدیدا، أمّا البرد فلا ینقص عن برد لندرة نقیرا، بل هو أشد و أنکی، و أما الضباب فکان أبیض بخلاف ضباب لندرة فإنه یقع أسحم، فطفقت أشکو من الانتقال من ضباب إلی ضباب، فقال لی أحد أصحابی: «إن هذا الضباب إنما قدم إلینا معک من لندرة، فإن باریس لیس مضبّة، و وقوعه فیها نادر جدا». لکنی وجدت قوله بعد ذلک غیر الحق، فإنه وقع أیضا فی السنة الثانیة و أنا مقیم فیها من دون أن یعلق بأذیالی من قطر آخر، إلا أنه لا یدوم طویلا کما یدوم ضباب لندرة.

و قد حان الآن أن أشرع فی وصف باریس و أهلها، و لکن لما کان العالم الأدیب الشیخ رفاعة بک الطّهطاوی قد ألّف کتابه النفیس

المسمی ب» تخلیص الإبریز فی تلخیص باریز» و سبقنی إلی هذا المعنی، کان لا بد لی هنا من أن أستأذنه فی ذکر ما أضرب عنه بالکلیّة، أو أشار إلیه إشارة فقط مما استغربته منه، ثم أجعل ذلک مقیاسا للقارئ یقیس علیه باریس و لندرة، و لکن قبل الکلام علی باریس خصوصا ینبغی أن أبتدئ بالکلام علی فرنسا عموما، فإنها حریّة بذلک، و خصوصا أنی قد أجملت القول فی أول هذا الکتاب علی إنکلترة. فأقول:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲۵

نبذة عن فرنسا و إحصاءات متنوعة

إن فرنسا کانت تسمی فی الزمن القدیم بالغال، ثم سمیت بهذا الاسم المتعارف الآن نسبة إلی الفرنک الذین فتحوها، و هم قبائل من البلاد الشمالیة. و أرض هذه المملکة خصیبة ینبت فیها جمیع الأشجار و البقول و الحبوب غالبا. و کانت أرضها منذ نحو سبعین سنة مهملة، أمّا الآن فقد بذل الجهد فی حرثها و تنبیت الأشجار فیها، حتی صارت قیمة محاصیل الأرض و غلالها تبلغ فی العام ۰۰۰. ۱۷۸. ۳۳۷. ۵ فرنک یصرف علی ذلک ۰۰۰. ۰۰۰. ۵۵۲. ۳ فیکون الفائض ۰۰۰. ۱۷۸. ۶۸۵. ۱. و هی کثیرة المعادن، یوجد فیها معدن الذهب لکن علی قلّة، و یکثر فیها الفضة و الحدید و الرصاص و النحاس و التوتیا و غیر ذلک. و عدد سکانها فی سنة ۱۸۴۵ کان ۰۰۰. ۵۰۰. ۳۲ منهم ملیونان و ثلث بروتستانت و یهود. و بلغت قیمة المجلوب إلی فرنسا فی سنة ۱۸۴۳- ۹۴۰. ۶۰۶. ۸۴۶ فرنکا، و قیمة الخارج منها ۶۷۷. ۹۶۱. ۶۴۳ فرنکا. و فی مدة ثمانی عشرة سنة و ذلک من سنة ۱۸۰۵ إلی سنة ۱۸۴۳ کان من جملة أهلها مائتا ألف مجنون فی المارستانات، و ثلاثة آلاف قتلوا أنفسهم، و مائة ألف نفس بهم علل، و أخذوا إلی دیار المرضی، و ثمانمائة ألف یعیشون من الصدقات، و مائة ألف نفس فی السجون لأجل جنایات مختلفة. و قال آخر: و بلغ عدد الإکلیروس فی سنة ۱۸۴۳ أربعة و عشرین ألفا، منهم ثلاثة کردینالات، و أربعة عشر مطرانا، و سبعة و ستون أسقفا، و یضاف إلیهم نحو ثمانیة آلاف و خمسمائة من المترشحین للکنیسة. و عدّة أدیار النساء ثلاثة آلاف، و عدد الراهبات أربعة و عشرون ألفا. و بلغ عدد الإکلیروس فی زمان الفتنة ۰۰۰. ۱۱۴ من جملتها اثنان و ثلاثون ألف راهبة، و بلغت جملة إیرادهم اثنین و سبعین ملیونا، و مبلغ العشور الذی یستوردونه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲۶

سبعین ملیونا، فجملة ذلک ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۴۲ و إیراد الکردینالات و الأساقفة ۰۰۰. ۰۱۷. ۱، و جملة المصاریف علی الدیانة الکاتولیکیة ۰۰۰. ۲۵۱. ۳۴ فرنک، و علی البروتستانت ۰۰۰. ۰۳۳. ۱ و علی الیهودیة ۰۰۰. ۹۰.

و فی سنة ۱۸۴۱ بلغ عدد المسافرین فی فرنسا ۰۰۰. ۰۰۰. ۶۳۳ نفس، منهم ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۴۳ سافروا فی سکة الحدید، و فی سنة ۱۸۵۵ بلغ عددهم بلیونا، منهم ملیون و ثلاثمائة و اثنان و سبعون ألفا سافروا فی الأرتال، و بلغ إیراد الکمرک فی سنة ۱۸۵۶- ۷۸۹. ۲۹۶. ۱۸۲ فرنک، و فی سنة ۱۸۵۷ بلغ إیراد الدولة نحو سبعین ملیون لیرة إنکلیزیة، فکان نحو إیراد دولة الإنکلیز، بل أکثر.

و فی السنة المذکورة کان لها من العساکر البریة نحو خمسمائة ألف، و أمکن لها فی أی وقت شاءت أن تجهز من الجیوش البحریة نحو سبعین ألفا، و المحروث من أرضها لا ینقص عن اثنین و أربعین ملیون هکتار، و ملّاکها نحو سبعة ملایین من رؤوس العیال، بهذا یظهر لک الفرق بین المملکتین.

إحصاءات دولیة مقارنة

و قال بعضهم: بلغ مصروف دولة فرنسا فی مدة عشر سنین آخرها سنة ۱۸۶۱- ۰۰۰. ۵۲۰. ۷۶۸ لیرة، و بلغ إیرادها ۰۰۰. ۶۸۰. ۶۱۹ لیرة. فکان إیرادها فی کل سنة ۰۰۰. ۹۶۸. ۶۱ لیرة و مصروفها ۰۰۰. ۸۵۲. ۷۶ لیرة. و کان مصروف أوستریا فی مدة أربع سنین و هی من سنة ۱۸۵۷ إلی سنة ۱۸۶۰- ۰۰۰. ۲۰۰. ۱۵۴ لیرة، و هو عبارة عن ۶۷۴. ۵۰۰. ۳۸ فی کل سنة. و بلغ إیراد إیطالیا فی سنة ۱۸۶۱-

۶۷۴. ۲۰۵. ۳۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲۷

و إیرادها. ۸۰۰. ۶۳۴. ۱۹ و بلغ مصروف دولة شمال أمیریکا فی سنة واحدة من مدة الحرب ۰۰۰. ۰۰۰. ۲۵۰ لیرة.

فأما سکان هذه الممالک فإن عدد أهل فرنسا بلغ فی سنة ۱۸۶۱- ۲۵۵. ۳۸۱. ۳۷ نفسا، و زاد عدد الروسیة ی مدة خمسین سنة ضعفین، و کانت الزیادة فی انکلترة فی تلک المدة ۱۱۹ فی المائة، و کانت زیادة بروسیة من سنة ۱۸۱۶ إلی سنة ۱۸۵۸- ۷۲ فی المائة، و زیادة أوستریا من سنة ۱۸۱۸ إلی سنة ۱۸۵۷- ۲۷ فی المائة، و زیادة فرنسا من سنة ۱۸۲۶ إلی سنة ۱۸۶۱- ۱۲ فی المائة لا غیر، فتکون الولادة فی فرنسا أقل من غیرها من الممالک. أما الزواج فذکروه علی هذا التفصیل، و هو أنه یولد فیها ۱۰۰ ولد من کل ۲۸۵ زواجا، و فی بریتانیا ۱۰۰ ولد من کل ۲۳۷ زواجا، و فی أوستریا و الروسیة ۱۰۰ ولد من کل ۲۲۳ زواجا، و فی بروسیة ۱۰۰ ولد من کل ۲۱۰ زواج، فیکون ولادة الولد فی بروسیا فی ظرف سنتین و خمسة أسابیع، و فی فرنسا نحو سنتین و ۴۲ أسبوعا. فأما الموت فمن کل ۰۰۰. ۱ نفس فی بریتانیا یموت فی السنة ۲۲، و فی فرنسا ۲۸، و فی بروسیا ۲۹، و فی أوستریا ۳۲، و فی الروسیة ۳۳.

وصف باریس

کانت مدینة باریس فی سنة ۳۸۰ تسمی باریسی، و کانت عرضة لنهب النورمان.

و فی سنة ۱۴۲۰ استولی علیها الإنکلیز، و بقیت تحت یدهم خمس عشرة سنة. و فی سنة ۱۴۳۸ رزئت بالطاعون و المجاعة، فمات بهما أکثر من خمسین ألفا، فکانت الذئاب تدخل أسواقها و تغتال من تغتال. و فی سنة ۱۸۴۰ حصّنت بسور طویل یحیط بشاطئ النهر، و بقلاع متفرقة، و ذلک مسافة خمسة عشر فرسخا و ربع فرسخ، بدئ به فی کانون الأول سنة ۱۸۴۱، و نجز فی شهر آذار سنة ۱۸۴۶، و بلغت نفقته

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲۸

۰۰۰. ۰۰۰. ۱۴۰ فرنک أو نحو خمسة ملایین لیرة. قلت: و قد جری ذلک کما قصده نابولیون الأول و هو فی جزیرة صنت هیلانة. قال: و لما دنت منها الأعداء فی سنة ۱۸۱۴ تبادر الناس إلی إنشائه علی عجل، لکنه کان غیر محکم، ثم أکمل و جعل حوله أربعة عشر برجا. و قال آخر: کانت باریس تدعی فی القدیم «لوکس»، سمیت بذلک فی أحد الأقوال باسم «لوکوس» مؤسسها، و الذی علیه الاتفاق أنها من أقدم مدن الغال. و لما غزا قیصر بلادهم کان یقال لها باریسی، و لم تکن حینئذ إلا عبارة عن خصاص مهینة کالجزیرة فی نهر السین، مع أنه لما أراد فتحها قاومه أهلها مقاومة شدیدة لم تکن تخطر بباله، حالة کونهم خالین عن أسباب التمدن. ثم أخذت فی التمصر و الاتساع فی عهد ملوک کثیرة، و لا سیما فی زمان یولیانوس و کلوفی، و أعظمهم فیلیب أغوسط فی سنة ۱۱۸۴، ثم قام لویس الملقب بالصغیر و أنشأ فیها مدرسة، فأقبل الناس إلیها لطلب العلم حتی صار عدد الطلبة أکثر من أهل الصقع الذی بنیت فیه، و هو الذی أحاط بها سورا و صروحا. ثم قام فرنسیس الأول و أنشأ فیها اللوفر، فقام هنری الرابع و غیّر فیه تغییرات جمّة. و فی زمان لویس الرابع عشر صارت کأنها مدینة جدیدة. و ما قصده نابولیون الأول فی تحسینها و تنظیمها استحسنته عائلة البوربون، و زاد علیهم أجمعین لویس فیلیب، فإنه ظن أن حفظه ذکر أیام نابولیون یکون أدعی لاستمالة خواطر الناس إلیه، فمن ثم أتمّ ما ابتدأ به نابولیون، فأنشأ السور، و أتمّ الأزج أو القنطرة المسماة «أرک دو ترایونف»، و نصب تمثال نابولیون مرة أخری علی عمود فندوم، و فی عهده دفنت جثة نابولیون.

قلت: و فی زمن نابولیون الثالث کسیت من الرونق و البهجة ما لا مزید علیه.

و قال غالنیانی فی کتابه الذی سمّاه «المرشد إلی باریس» طبع سنة ۱۸۴۴. أول من ملک فیها من ملوک النصاری کلوفیس، و ذلک فی سنة ۵۲۴. و أول من بشّر فیها بالإنجیل کان ماردانیس، و ذلک فی سنة ۲۵۰، و أول کنیسة أسست فیها فیما علم کانت کنیسة مار

أسطفانوس، فی الموضع الذی تری فیه الآن کنیسة نوطردام.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۲۹

و فی سنة ۵۸۷ أحرقها النورمان، ثم بنیت و قسّمت المدینة إلی أربعة أقسام، و من ثمّ یقال لکل جهة منها «کارتیه». و فی زمن لویس السمین کان الإیراد من الباب الشمالی اثنی عشر فرنکا لا غیر، و هی تبلغ بحسابنا الآن ستمائة فرنک. و فی القرن الرابع عشر أنشئ فیها مدارس للعلم.

و فی عهد فیلیب أغوسط کثرت فیها الأبنیة، و المغانی، و الکنائس، و بلّط بعض الطرق، و ألزم الأهلین تحصینها. و فی سنة ۱۲۵۰ أنشأ فیها روبرت صوربون مدارس لم تزل تعرف باسمه، و فی زمن شارلس المعتوه دخلها الإنکلیز ثم طردوا منها بعد أن أقاموا فیها ست عشرة سنة، و ذلک سنة ۱۴۳۶. و فی عهد شارلس السابع خربت من القحط و الوباء و الذئاب، حتی إنها صارت فی سنة ۱۴۶۶ مأوی لأصحاب الجرائر و النقائص من جمیع الأقطار. و فی عهد لویس الحادی عشر بلغ عدد أهلها ثلاثمائة ألف، و اکتسبت رونقا و عمرانا، فهدم اللوفر القدیم و أنشأه منشأ حسنا، و أنشأ مدرسة یعلّم فیها کل نوع من العلوم مجانا. و فی سنة ۱۵۳۳ شرع فی بناء هوتل دوفیل، و حسّنت طرق، و أنشئت أخری، و فی سنة ۱۵۶۳ أنشئ التولری. ثم لمّا قامت الحروب الدینیة علی ساق تعطلت أسباب التمدن، إلی أن قام بأعباء الملک و السیاسة هنری الرابع، فأصلح ذات البین، و مد علی الناس ظل السّلم و الرفاهیة، و زاد فی تبهیج المدینة غایة ما أمکن، و أنشأ جملة محال، و کبّر التولری.

و فی زمن لویس الثالث عشر أنشئت طرق عدیدة، و أنشئ قصر اللوکزمبور، و بستان النباتات، و غیر ذلک. ثم لمّا قام لویس الرابع عشر أتمّ ما کان قصده خلفه هنری الرابع، فأنشأ أکثر من ثمانین طریقا، و حسّن القدیمة، و أنشأ ساحة فندوم ۳۳ کنیسة، و مارستان السّقط، و مارستان النغول، و المرصد، و کبّر قصر التولری، و نظّمت المماشی و بلّط کثیر من الرصف، و غرست غیضة شانزلزی. و کذلک لویس الخامس عشر لم یأل جهدا فی أن أفادها نضرة الملک، حتی وسّعت رقعتها فی زمانه ۹۱۹. ۳ فدانا، و أنشأ مدارس و عیونا جاریة. و فی أیام لویس السادس عشر أنشئت فیها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳۰

جملة ملاه، و کنائس، و منازل سامیة، و أسواق بهیجة، فصارت رقعتها ۸۵۸. ۹ فدانا، و جعل للسور ستون بابا یؤخذ منها ضریبة علی ما یدخل إلیها من الخارج، و وسّعت الطرق، و أتمّ بالی روایال بما فیه من الحوانیت الظریفة. و فی زمان الفتنة خرّب کثیر من الکنائس، ثم رممت و أنفق علیها أربعة ملایین لیرة. و لمّا استردّ الملک إلی لویس الثامن عشر، بنی مجلس المشورة العام، و أنشأ أسواقا کثیرة و مستشفیات عدیدة، و نصب عمود فندوم، و أنشأ خمس عشرة عینا و زیّن القصر. و فی أیام شارلس العاشر زیدت فیها محاسن کثیرة جلها فی الکنائس، و أنشئت ثلاثة جسور، فلما قام لویس فیلیب فتحت طرق جدیدة، و ربع بناء هوتل دوفیل، و نصبت مسلة مصر، و أتم أنشاء کنیسة لا- مدلین أی المجدلانیة، و بلاس دولاکنکورد، و عمود النصر، انتهی ملخصا. قال و هی علی بعد مائة و خمسة فراسخ من لندرة، أو مائتین و أربعة و خمسین میلا، و دورتها ۷۵۵. ۲۳ مترا، أو ۹۷۹. ۲۵ یاردا، و أطول أیامها ست عشرة ساعة و ست دقائق، و أقصرها ثمانی ساعات و عشر دقائق، و فیها أکثر من ۰۰۰. ۴۵ دار، و ۰۰۰. ۱۳ دکان، و ۲۶۰. ۱ طریقا، و ۳۸ ممشی، و ۲۱ بلفارا، و ۹۹ عرصة أو فسحة، و ۱۸۳ سقیفة أو معبرا مما یقال له باساج، و ۳۷ رصیفا، و مسطح طرقها یبلغ ۰۰۰. ۲۰۰. ۳ ذراع مربع، و طولها ۰۰۰. ۴۸۰ أو ۱۲۰ فرسخا، و مصاریف تنظیف الطرق تبلغ ۰۰۰. ۵۳۵ فرنک، و من قبل سنة ۱۷۳۸ کانت الطرق عطلا عن الأسماء، ثم بعد أن رقمت غیّرت مرارا عدیدة، و فی سنة ۱۸۴۲ بلغت مصاریف تبلیطها و توسیعها ۰۰۰. ۷۵۰ فرنک. قلت جمیع الطرق کانت من قبل مبلطة فلما صار الأهلون وقت الشغب و الفتنة یتخذون حجارتها متاریس، أمر الآن بأن تصیر رضراضا، و من سنة ۱۸۵۳ إلی سنة ۱۸۵۷ بلغت مصاریف المدینة ۹۳ ملیونا، صرف منها فی البناء و تجدید الدیار ۴۷ ملیونا، و فی الماء و تصلیح الطرق ۳۳ ملیونا، و علی بوا دوبولون ۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳۱

ملایین، و جلّ هذه المصاریف مما یرد من المدینة، و لم یصرف المیری من عنده أکثر من ستة ملایین. و قبل أیام لویس السادس عشر لم تکن تنوّر إلا مدة تسعة أشهر فی السنة، و ذلک عند غیاب القمر، فأمر بأن تنوّر فی کل لیلة. و عدة ما فیها من القنادیل ۲۲۱. ۱۳ کلها تنوّر بالغاز. و فی سنة ۱۸۴۱ ولد فیها ۹۲۳. ۲۹ و مات ۰۲۸. ۲۶ و تزوج ۹۶۲. ۸ و کان عدد النغول ۸۳۰. ۹ و فیها نحو ۰۰۰. ۸۰ خادم، و قال آخر کان أهلها فی سنة ۱۸۵۶ - ۳۱۶. ۱۴۱. ۱ نفسا، و فیها من الحرس الأمبراطوری من جملتهم ۲۸ ضابطا. و مصاریف دیوان الشرطة تبلغ فی السنة ۲۹۵. ۳۳۵. ۵. و قال الأول: و لا یزال فی مستشفیاتها ۰۰۰. ۱۵ نفس، و قدّر من یدخل فیها و یخرج منها ستون ألفا، و فیها تسعة آلاف من ذوی الأحکام النظامیة، و هم أهل علم و درایة، و لهم موضع مخصوص لإغاثة الفقراء مجانا و ذلک فی یوم السبت، و مائة و أربعة عشر کاتبا للصکوک و العقود، و تسعة سجون أحدها للمقضی علیهم، تبلغ مصاریفه ۰۰۰. ۱۴۵. ۱ فرنک، و یعاملون فیه بغایة ما یمکن من الرفق و الشفقة، و عدّها غیره عشرة.

مدارس باریس

و فیها إحدی و عشرون مدرسة ملکیة، فیها من الطلبة ۹۷۵. ۱۰ و إیرادها منهم ۵۴۴. ۳۸۳ فرنکا، و ثلاثمائة و سبعة عشر مکتبا مما یقال له کومونال، فیها من المتعلمین ۵۸۸. ۲۲ و إیرادها ۶۹۳. ۲۲۷ و مائة و أحد عشر معلما، یقال لها «أنستیتسیون» فیها ۳۷۸. ۸ طالب علم، و إیرادها ۶۲۰. ۲۵۰، و ألف و سبعة مراب، و یقال لها بنسیونات فیها ۵۳۸. ۲۳ نفسا، و إیرادها ۷۷۳. ۴۷۳ فرنکا، و فیها أربع و خمسون جمعیة للعلوم و فعل الخیر و بث الدیانة ماعدا مواضع أخری.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳۲

إدارة هذه المدارس

قلت أن کثیرا من هذه المدارس و المکاتب یدیره القسیسون فلا یأخذون من المتعلم إلا نصف المصروف علیه، فیمکن للوالد أن یضع ولده فی أحدها بمصروف ثلاثین فرنکا فی الشهر، فمن أجل ذلک تری جمیع الأولاد هنا مترشحین للعلوم و الصنائع، و للأخوات اللائی هن من جنس الراهبات فضل عظیم مشهور فی تربیة البنات، و تمریض الرجال و النساء فی بیوتهن، أو بیوت المرضی، حتی أن بعضهن یداوی و بعضهن قوابل، و قد یسافرن إلی البلاد الشاسعة فی فعل الخیرات، و لهن لباس مخصوص یعرفن به علی تنوعه. فهذه الطریقة أنفع من طریقة الراهبات فی الشرق إذ یحتجبن عن الناس فی الدیر، فلا ینفعن أحدا من الناس، و هاتان المزیتان، أی التعلیم علی الوجه الذی ذکرناه و الاعتناء بالمرضی، لا توجدان فی لندرة. علی أن التداوی فی مستشفیات باریس هو علی طرف الثمام، و فی لندرة یحتاج إلی ذرائع و وسایط.

المستشفیات و المارستانات و نفقاتها

قال و فیها ستة و ثلاثون مارستانا، و قد علم من خلاصة صدرت فی سنة ۱۸۴۲ أن هذه المارستانات تقوم بمؤنة اثنی عشر ألفا، من المرضی و العاجزین رجالا و نساء، و فی کل سنة یدخلها نحو ثمانین ألفا، و إن مصاریفها فی السنة المذکورة بلغت أربعة عشر ملیونا و نصف الملیون، لکن إیرادها أکثر من المنصرف، و هو یتحصّل من ضرائب علی الملاهی، و من العقار الذی یشتری للمقابر و غیر ذلک، و یصرف فیها أی فی هذه المستشفیات من اللحم ۲۵۰. ۵۶۰. ۲ رطلا، و من الزبدة ۸۰۰. ۴۸ کیلو غرام، و من اللبن ۰۰۰. ۵۳۰ لتر، و یوجد أیضا ما عدا ذلک مواضع عدیدة لإغاثة الفقراء و تشغیل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳۳

الباطلين. قلت و قد علم من كتاب طبع فی سنة ۱۸۵۵ أن هذه المستشفيات تقوم بمؤنة أكثر من أربعة عشر ألف مريض يعالجون فيها، و أقدمها المارستان المسمی هوتل ديو يتداوی فيه فی مدار السنة أحد عشر ألف مريض، و تخدم فيه ستون راهبة، و عدد أطبائه اثنان و سبعون طبيبا.

معلومات عن سكانها و أسواقها

و قال آخر: المحسوب أن نصف أهل باريس صنّاع و عملة، و ليس فيها أكثر من ألف نفس ممن يحسنون إثبات كونهم سكانا فی باريس سلفا عن خلف، من عهد لويس الثالث عشر. و قال آخر أن ثلثی سكان باريس لا يقدرون علی مصروف الجنازة، و كل واحد من ثلاثة آلاف يقتل نفسه، و من كل ثلاثة مواليد يكون نغل. و فی سنة ۵۳ ولد فی مدينة ويانه من الحلال ۲۶۴. ۱۱ ولدا، و من الحرام ۶۸۶. ۱۰، و فی سنة ۵۴ ولد من الأول ۶۵۰. ۱۱۲ و من الثانی ۵۲۲. ۸۰۱. ۱۰، و فی سنة ۵۵ ولد من الأول ۶۵۰. ۱۰ و من الثانی ۵۲۲. ۹، و فی سنة ۵۶ ولد من الأول ۸۷۰. ۱۰ و من الثانی ۳۱۱. ۱۰. و إنّ من أهل باريس ثلاثين ألفا من غير الذين يعيشون من الصدقات، يقومون فی الصباح و لا يعرفون من أين يحصّلون غداءهم، و منهم سبعة عشر ألفا سكاری منهمكين فی القبائح.

و قال آخر و فيها تسعة أسواق كبار للمأكولات، و خمسة مجازر بلغت مصاريف بنائها و تنظيمها ۰۰۰. ۵۱۸. ۱۶ فرنك، و ثم المسالخ و المدابغ العديدة، و عدد الجزارين أكثر من خمسمائة، و فی كل يوم يذبح فی أحدها و هو المسمی مجزر مونت مارتر ۹۰۰ من الثيران، ۴۰۰ من البقر، ۶۵۰ من العجول، و ۵۰۰. ۳ من الضأن، و المؤنة السنوية من المأكول و المشروب و ما هو من قبيل ذلك تبلغ ۳۵۰ مليونا، منها ۴۹ ثمن خمر، و ۱۲ ثمن لبن، و ۷۸ ثمن شمع و سكر و بن و ما أشبه ذلك، و مليونان ثمن ملح، و ثمانية و ثلاثون مليونا ثمن خبز، و أربعون مليونا ثمن لحم، و خمسة عشر مليونا ثمن بقول، ۰۰۰. ۴۴۴ ثمن فحم، و المؤنة من البطاطا فی السنة تبلغ ۰۰۰. ۳۲۵ كيلو غرام، مبلغ ما يباع فيها من التبغ فی كل سنة ۷۹۳. ۷۰۸ كيلو غراما، و مؤنتهم فی كل يوم من

الخلّر و نحوه ۰۰۰. ۲۰ كيلو غرام، و كل يوم يأتی إليها عشرون عجلة مشحونة بالفضة، و فی بعض الأيام يباع فيها الدقيق ما قيمته ۰۰۰. ۴۵ فرنك، و يرد إليها من الخارج فی السنة ۰۰۰. ۱۲ قارب مشحون بالفاكهة و القمح.

و قال آخر و من جملة أسواق المأكولات بباريس السوق المعروفة بالهال، أول حجر وضع فی أساسها وضعه الأمبراطور فی سنة ۱۸۵۲، تباع فيها البقول و الخضرة و الفاكهة علی أنواعها، فيرد إليها فی كل يوم ثلاثمائة و عشرون عجلة مشحونة بها، و فی أوان الفاكهة يستخدم فی نقلها ۴۲۰ عجلة و نحوها، و يباع فيها فی العام من صنف واحد من البقول مما يتخذ للسلطة بمليون فرنك و نصف مليون، و من صنف من محار البحر يسمی الدوزيتر بنحو ۹۲۶. ۶۷۰. ۱ فرنك، قلت و الفاكهة و البقول فی فرنسا تعظم للغاية كما فی إنكلترة، فقد يصنعون من قشر ثمر الجوز شبه حقه للنساء تحوی مقصا و إبرة و نحو ذلك. قال و يباع فيها فی سوق الزبدة بنحو ستة ملايين، و من البيض ۸۹۰. ۵۳۹. ۵ فرنكا. قلت و من هنا يعلم أن ما ذكره الشيخ رفاعة بك من أن أهل باريس يقطعون من البيض بخمسة آلاف فرنك سهو، و الظاهر أنه أراد خمسة ملايين، كيف لا و قد قال: إنهم يخلطونه فی نحو ثلاثمائة صنف من الطعام.

الأكاديميات و المكتبات فی باريس

و فيها أی فی باريس خمس مشيخات كبار، أی أكاديميات، من جملتها الأكاديمية و من جملتها الأكاديمية الفرنساوية للنظر فی تهذيب اللغة، و تنقيح أصولها و فروعها، فكل من ألّف كتابا بديعا فی التاريخ و الأدب ينال منها جائزة، و فيها ديار كتب عديدة أكبرها و أعظمها المكتبة العمومية، فيها مليون من الكتب المطبوعة، و ثمانون ألف كتاب بخط اليد، و مائة و خمسون ألف ميدای، و مليون و

أربعمائة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳۵

ألف صفیحة منقوشة، و ثلاثمائة ألف راهنامج، و فیها رسائل محفوظة من لویس الرابع عشر، و کلیبر، و کلبرت، و کتاب واحد من اللورد بیرون، و من جملة تلک الکتب کتب مطبوعة من عهد فوست و شوفر، و ما من دیوان أو محترف میری إلا- و فیه ألوف من الکتب، و جملة الکتب المطبوعة الموجودة فی المکاتب ما عدا المکتبة المذکورة ۵۰۰. ۲۹۳. ۱ و التی بخط الید عشرة آلاف ما عدا دیارا أخری علی حدتها بعضها یحوی عشرین ألفا، و بعضها أقل و هو کاف فی بیان ما لهذا الجیل من الحرص علی العلوم.

المطبعة الملکیة

و فیها مطبعة ملکیة من تأسیس فرنسیس الأول، فیها حروف متنوعة یطبع بها کتب بإحدی و خمسین لغة، و یطبع فیها فی لیلة واحدة ثمانمائة صفحة من قطع الربع، و عدد المستخدمین فیها من ثمانمائة إلی تسعمائة، و مصاریفها ثلاثة ملایین.

جسور المدینة و قنوات المیاه

و علی نهر المدینة سبعة و عشرون جسرا، منها سبعة معلقة، و ثلاثة من الحدید و الحجر، و واحد من الخشب، و الباقی من الحجر، من جملتها جسر دولاکنکورد، بدئ به سنة ۱۷۸۱، و نجز فی سنة ۱۷۹۰، و بلغت مصاریفه ملیونا و مائتی ألف فرنک، طوله ۴۷۶۱ قدما، و عرضه ۶۱. و آخر یعرف بجسر لویس فیلیب بلغت نفقته ملیون فرنک، و آخر اسمه جسر روایال، طوله ۴۳۲ قدما، و عرضه ۵۳، و آخر یسمی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳۶

بون دزار، أی جسر الصنائع، طوله ۵۱۶ قدما، و عرضه ۳۰، و مصاریفه تسعمائة ألف فرنک. و قد أجری إلیها الماء فی قنی من جملتها قناة مسافتها أربعة و عشرون فرسخا، بلغت مصاریفها خمسة و عشرین ملیونا، و أخری أنفق فیها أربعة عشر ملیونا و مائتا ألف فرنک.

مهنیون و مرافق مختلفة

و قال آخر یوجد فیها ۷۲۷ من وکلاء الدعاوی، و ۴۵۶. ۱ من الأطباء و الجراحین، و ۴۹۷ من باعة الأدویة، أی الکیمیاویین، و ۸۱۱ من البنّائین، و ۴۴۲ من المصورین، و ۸۸۰ من النقاشین علی الحجر و الحدید و نحوهما، و ۶۸۹ من الخبازین، و ۴۸۷ من الجزارین، و ۶۶۲ من الصیارفة، و ۱۶۰. ۱ من التجار بالکومسیون، و ۸۴۵. ۱ من باعة الشمع و الصابون و السکر و نحو ذلک، ۶۸۰ من صناع الساعات، و ۹۷۹. ۳ خمارا، و ۲۶۰ من باعة الشریط و القیطان و نحوهما، و ۷۳۸ من صنّاع الزهر من الورق، و ۱۲۶ من المصورین علی نور الشمس، و ۱۱۷ من الحمامات السخنة، و ۲۴۰ معملا للورق، و ۵۲۳ موضعا للأکل، و ۰۳۵. ۱ موضعا للقهوة، و ۳۳ محترفا لاشتهار الإعلامات، و ۱۲۸ موضعا للتضمین و التعهید، و فیها سبعة مواقف لسکة الحدید، و سبعة و عشرون مأوی للجند، من جملتها مأوی یسع خمسة آلاف و ثمانمائة رجل و ثمانمائة فرس.

و فیها اثنا عشر حوضا، و ثمانیة و عشرون ملهی، أی ثیاطرا، و لم یکن فیها فی أیام لویس الرابع عشر سوی ثلاثة.

مسارحها

و فی سنة ۱۷۹۱ صدرت إجازة للأهلین من أهل المجلس المعروف بالأسامبلی بأن کل من استطاع منهم أن ینشئ ملهی فهو غیر معارض، فبلغت ثلاثة و أربعین، و هناک أیضا محال أخری للغناء و السهریات و الحظ مما یطول شرحه. قال و الملهی الطلیانی یرد

إليه إمداد فی السنة من خزنة الدولة بمائة ألف فرنک، و إن کثیرا من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳۷

الإنکلیز و النمساویین بل الروس أیضا یقصدون ملاهی باریس لیروا فیها من التمثیل ما لم یروه فی بلادهم إلا غیر کامل، و کلهم یقر بأفضلیتها علی غیرها.

دار الأوبرا و الحفلات التنکّریّة

و إمداد الأوبیرة الفرنساویة ۰۰۰. ۷۵۰ فرنک، ما عدا مرتبا آخر لها قدره ۰۰۰. ۳۰۰. ۱ فرنک، قلت فی أول المرفع، و فی نصف الصیام یصنعون فی هذا الموضع رقصا فتنحشد إلیه الرجال و النساء بلباس السخریة، بحیث لا یعود الرجل یعرف زوجته و لا بنته و یبقون هکذا إلی الفجر. و هذا الموضع یشتمل علی نحو خمسین ثریا أو نجفة، و عدد الآلاتیة فیه ینیف علی خمسین. قال و امداد الأوبرا کومیک أی ملهی الضحک ۰۰۰. ۲۴۶.

النوادی و المراقص

و فیها عشرة منتدیات مما یعرف بالکلوب، و ثمانیة مراقص أصلیة من جملتها مرقص یختص بطلبة العلم. فأما المراقص التی تکون مجتمعا للدون فغیر جدیرة بالذکر.

الکنائس

و فیها إحدی و أربعون کنیسة کبیرة، و نحو منها المعابد. و أقدم الکنائس و أشهرها کنیسة «نوطردام» أول حجر جعل فی أساسها وضعه البابا اسکندر الثالث، و ذلک فی سنة ۱۱۶۳، و لم یتم بناؤها إلا فی عهد شارلس السابع، طولها ۱۲۶ ذراعا و کسور، و عرضها ۴۸، و ارتفاعها ۳۳، و علو برجها ۶۸.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳۸

أسواق متنوعة

و فی المدینة خمسة أسواق للزهر علی أجناسه و أنواعه، و فیها سوق للکلاب یعرض فیها للبیع فی کل یوم أحد ۲۸۰ کلبا، و أخری للخیل و الحمیر طولها ۴۸۰ ذراعا، و عرضها ۸، و فیها ساحة للخمر وسعها ۰۰۰. ۲۶ ذراع مربع، یرد إلیها فی کل یوم ۵۰۰۰. ۱ برمیل، و هی تسع منها ۰۰۰. ۴۵.

إیرادات و مصروفات

قال غالنیانی: و بلغ إیراد الخزینة من الدخان سبعة ملایین، و بلغ مکس باریس الوارد إلیها مما جعل علی الأسواق، و الحوانیت، و المجازر، و المخازن، و العیار، و الدفن و غیر ذلک، خمسین ملیونا، و بلغ المصروف علیها خمسة و أربعین ملیونا من جملتها مصاریف الأبنیة، و المستشفیات، و دیوان الشرطة، و المکاتب و المتاحف، و المماشی و الزینة فی الأعیاد. و بلغت مصاریف الدواوین المیریة ۱۷۲. ۲۰۸. ۳۸۹. ۱ فرنکا، أعظمها مصاریف دین الأمة، و دیوان الحرب، و بلغ إیرادها ۳۳۶. ۸۸۰. ۲۴۶. ۱، و دین الدولة یبلغ ۹۰۱. ۹۱۶. ۱۹۵، و بلغت مصاریف العسکر فی سنة ۱۸۴۴- ۰۰۰. ۰۰۰. ۳۴۸.

الوزراء

و الوزراء هم: وزير الأمور الخارجيـة، و وزير الحربيـة، و وزير البحريـة و المسـتعمرات، و وزير الماليـة، و وزير الزراعـة و التجارة، و وزير الداخليـة، و وزير الأبنيـة الميريـة، و وزير العدليـة، و وزير المعارف، و من هؤلاء الوزراء و من مجلسـى المشورة الخاص و العام، و من صاحب الملك تتألف دولة فرنسا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۳۹

البريد

و قال آخر و فی باريس تفرق المكاتيب سبع مرات فی كل يوم، و ذلك من الساعة السابعة و نصف صباحا إلى الساعة التاسعة مساء، و أول من رتّب البريد لويس الحادی عشر، و فی سنة ۱۷۹۲ اطرد ترتيبه كما نراه الآن.

أوجه الاختلاف بين باريس و لندرة

و قـد حـان لی هنـا أن أقول إن بـاريس تشـبه لنـدرة فی كونهـا شـطرين يفصـل بينهمـا نهر، إلا أن نهر باريس صـغير لا يسع المراكب الكبيرة، و تخالفها فی أحوال كثيرة:

«أحدها» أن ديار باريس من الحجر فلا يزال ظاهرها أبيض أنيقا بخلاف ديار لندرة فإنها مبنية من الآجر، فلا يأتی عليه سـنتان أو ثلاث إلا و يسودّ من كثرة الدخان و الضباب، بل المنازل المبنية فيها من حجر تسود أيضا.

«الثانی» أن ديار باريس متناسـقة الارتفاع فی الغالب متناسقة الظاهر، فإنها كلها بيضاء متناسقة وضع الشبابيك، أما ارتفاعها فإن بعضها يشـتمل على سبع طبقات، فربما ارتقى فيها الإنسان مائـة و ثلاثين درجة حتى يصل إلى غرفته، فهی من هذه القبيل متعبة، و لكل طبقة فـانوس يشـعل بالغـاز، و لكـل دار رتـاج كبير لا- يزال مفتوحا إلى نصف الليل، و بواب يتبوأ كنّا بالقرب منه، فإذا خرج أحـد السـكان أعطـاه مفتـاح غرفته، و متى رجع أخـذه منه، و إذا غاب بعـد نصف الليل أطنّ الجرس، فيقوم البواب من فراشه و يفتـح له. و لا بـد أن يعطيه شـيئا فی مقابلة ذلك، هذا إذا كان فی دار مفروشة. فأما إذا اكترى شـقة من دار تشـتمل على مبيت و مقعد و مطبخ فله أن يأخذ مفتاحه معه، و عند ذلك يحتاج إلى أن يسـتخدم امرأة لتصـلح له مسـكنه، او يسـتأجرها ساعة أو ساعتين فی النهار، و ربما كانت هذه المرأة أجيرة عـدة أشـخاص، فتـذهب إلى كـل منهم فی ساعـة معلومـة. و لا- يمكن لغريب بل لأهلی أن يسـتأجر دارا من بابها بجميع مرافقها و ذلك لكبرها و غلائها، فكل دار فی باريس عبارة عن قصـر. فأما ديار لنـدرة فلا تزيد غالبا على أربع طبقات، ثلاث ظاهرة و واحدة تحت

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۰

الأرض لادخار الفحم، و غسل الثياب، و ما أشبه ذلك. و بعضها كبير، و بعضها صغير، و من ثم يمكن للإنسان أن يستقل بدار منها.

«الثالث» أن درج باريس متين جـدا، و مبلّط الغرف التی بنيت من عهـد حـديث من خشب متين جلی بهی، و مبلط الـديار القديمة من الآجر الأحمر، و فرش المبلط بالبسط، أو الزرابی غير مطرد، و إنما يجتزئون عن ذلك بنحو سجادة يجعلونها عند الموقد. فأما فی لندرة فإن جميع المساكن مفروشة بالبسط، و لذلك سببان، أحدهما:

أن البسط فيها رخيصة، و فی باريس غالية. و الثانی: أن خشب المبلّط فی لندرة قبيح وسخ فكان لا بد من ستره.

«الرابع» أن جميع طيقان باريس تنفتح على مصـراعين كالباب، فيسـهل غسـلها و تنظيفها بأهون سعی، و طيقان لندرة لا يفتح إلا نصفها الأدنى صعدا و يبقى الأعلى مطبقا، فلا يمكن تنظيفه فيكون لا بد من استخدام من ينظفه من الخارج و هو معنت شاق.

«الخامس» أن مواقد دیار باریس هی فی موازاة البلوط، و لا یمکن طبخ شیء علیها، و جلّ وقودهم إنما هو الحطب لا الفحم المعدنی، فإنهم یکرهونه غایة الکراهیة لرائحته، و توسیخه الثیاب، و لا یطبخون علیه أصلا. و حین کنا نوقده للاستدفاء علی عادة الإنکلیز کانت خادمتنا تتأفّف منه، و غیر مرة غشی علیها منه. و فی بعض الغرف و الدکاکین یوقدون ما أطفی من الفحم، أو الفحم مع الحطب فی کوانین عالیة من الحجر القیشانی الظریف، أو من الحدید. و قد تکون متصلة بقصبة من حدید نافذة فی الحائط لیخرج منها الدخان، و قد لا تکون. و فی الجملة فإن مواقد لندرة أحسن، فإنها مجعولة لأن یوقد فیها فحم الحجر، و لأن یطبخ علیها، و ذلک لارتفاعها عن المبلط، هذا فی الدیار الصغیرة. فأما فی دیار الکبراء فتکون أیضا فی حیز المبلط کما هی فی باریس. و الحکمة فی ذلک عندهم و عند أولئک إیصال الحرارة إلی الأرجل، فإنها أحق الأعضاء بالدفء. و الحاصل أن الشتاء داخل الدیار فی لندرة أهنأ و أهون، و ذلک لاعتنائهم بفرش المساکن و الدرج، و بکون المواقد قابلة لوقید الفحم کما مرّ. و أنت خبیر بأن بناء الحجر یحدث رطوبة أکثر من الآجرّ.

«السادس» أن لکل طبقة من دیار باریس مرحاضا، و وراءه مصب للماء. و فی دیار

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۱

لندرة لا یکون إلا مرحاض أو اثنان فهی من هذا القبیل أنظف و أدنی إلی الصحة.

«السابع» أن مداخن باریس الخارجة من السطوح تکون غالبا من الحدید. و فی لندرة من الخزف، فتلک أبهج منظرا. و الحاصل أنه لما کان النظر فی أمور المدینة و الدیار بباریس موکولا إلی أرباب السیاسة، کانت الدیار وحدها تؤذن بأبهة المکان و جلاله فضلا عن الدکاکین و الدواوین الملکیة، فکم فیها من رواشن حدید مذهبة، و من جدران مزخرفة، و أبواب مؤزّجة مما یستوقف المجتاز، و کذلک الدکاکین، فإنک تراها وضیئة بهیجة و الحاجات فیها زهیة ناضرة، فیود الإنسان لو یشتری کل ما فیها، فکأن فی رقیع المدینة نورا یلقی شعاعه علی المرئیات، فیکسبها بهجة و طلاوة، و کأنّ القاعد علی کرسی فی بیته إنما هو قاعد علی شوک القتاد أبدا، یتحلحل و یتحرک للخروج لیری الدیار و الحوانیت مما یشوق و یروق.

أما أثاث الدیار و فرشها فالغالب أنه فی باریس أنفس و أغلی، و أکثر ما یحمل علی العجب منها سررهم التی یرقدون علیها، فإنهم ینضدون علیها عدّة من الفرش حتی إنهمیصعدون إلیها علی درج و ذلک مطرد للغنی و الفقیر. و خشبها فی الغالب من النوع الذی سمّاه الشیخ رفاعه بک الکابلی، و یجعلون فوقها آطارا من الخشب مذهب علی هیئة التّاج، و منه یسدلون الناموسیّة. و لا بدّ و أن یکون فی البیت مرآة و ساعة دقاقة یضعونها فوق رف الموقد. و تفضل باریس لندرة أیضا فی کثرة العیون الجاریة فی الطرق، و فی کثرة الحمّامات، و إذا شاء الإنسان أن یستحم فی بیته أوعز إلی قیّم الحمّام فی أن یبعث له بمغطس و ماء حمیم، و هذا یکاد أن یکون معدوما فی لندرة.

و من ذلک الکتابة التی تکون فوق الحوانیت و الرواشن، فإن جلّها مکتوب بماء الذهب، و فی لندرة جلّها بالحبر، و إذا کان بماء الذهب فلا یلبث أن یسودّ. و من ذلک أبواب الدکاکین و القصبان الفاصلة بین ألواح الزجاج فإنها هنا أکثر رونقا، فأمّا من حیث السّعة و البحبحة فدکاکین لندرة أعظم. و من ذلک الرصف التی علی جانبی نهر السین فإنها مبلّطة نظیفة بحیث یمکن للإنسان أن یقعد عندها و یسرح ناظره فی النهر، و هو یشتمل علی عدّة حمّامات و مغاسل کالبیوت تغسل فیها النساء ثیاب

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۲

السکّان. و من ذلک وجود دکاکین أخری فی الطرق للغسالات فإنک فی کل طریق تجد منها واحدا أو اثنین و ذلک نادر فی لندرة جدا، و إنما یغسل النزیل ثیابه عند غسالة الدار التی یسکنها سواء کانت نظیفة أو وسخة و هی غالبا فی الریف، و من الغریب أن غسالات باریس یغسلن الثیاب بالمطارق و کلّ عنهن راض. و من ذلک أنه یوجد فی باریس مواضع یتخلی فیها الإنسان لقضاء الحاجة، و لا یخفی أن وجود ذلک فی المدن الغنّاء ضروریّ، فإن من یخرج من داره و یضطر إلی قضاء الحاجة لم یمکنه الرجوع

إليها، و ذلك فی لندرة معدوم، بل مواضع البول فيها على قلّتها قذرة رديئة ما عدا ما صنع فيها حديثا فی طريق استران و هوبرن فهی تعزّ عن النظير، و أجدر بهذه الحاجة أن تكون فی باريس من المصالح، و فی لندرة بالتحريف. و ما أحسن ما قيل فی الفرنساوية من أنهم «يجعلون كل مقصد حرفة و كل حرفة مقصدا». و تفضل باريس لندرة من حيث النظر لا من حيث الفائدة بكثرة العساكر، فإن فيها و فی ضواحيها نحو مائة و خمسين ألفا، فلا تزال تسمع منهم الموسيقی، و تنظر منهم الملابس الحسنة، و هی أحسن من ملابس عسكر الإنكليز. و قد جرت العادة بأن يكون مع العساكر نساء للخدمة يتبعنهم و هنّ متردّيات بلباسهم.

أمّا المعيشة فحيث كانت المطاعم عندهم كثيرة و كل ما يشتهونه من المأكول و المشروب يجدونه فيها، لم يكن أحد يتكلف الطبخ فی بيته، أمّا أصحاب العيال الذين يكون لهم مطبخ و محل للمؤنة فی منازلهم، فلا ينتابون تلك المطاعم إلا فی الأعياد، و هی نظيفة للغاية و أول ما يجلس المستطعم يأتيه الخادم بدفتر فيه أسماء الطعام و بفوطة فيختار ما يشاء، أمّا فی لندرة فحين يجلس أحد فی مطعم يأتيه الخادم و يصرخ فی أذنيه: «شواء لحم بقر» - «شواء ضأن» - «كرنب» - «جزر» - «بطاطة»، و هنا تنتهی الفهرسة، و لا يقدم له فوطة. و أی مطعم دخلت فی باريس رأيت فيه الرجال و النساء و الأولاد، و ربما تعمّدت امرأة أن تجلس قبالتك لتخاطبها، أو تعرض عليها شيئا من المشروب، فيكون فاتحة الألطاف و خاتمة المطاف.

و لا بد من أن يوضع أمام الآكل نبخات من الكبريت لإشعال السيجار،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۳

و خلال لتنظيف أسنانه، و الخاصة من أهل باريس يأكلون مرتين فقط الفطور أو الغداء، و هو فی الساعة الحادية عشرة، و الغداء أو العشاء فی الخامسة، و يفطرون على شواء الضأن و المحار، و العامة يأكلون ثلاث مرات، أمّا طعامهم فإنه و إن كانوا يتفننون فيه كثيرا فلا يستطيبه إلا من ألفه، و ذلك لأنهم يسلقون اللحم أشد السلق ليتخذوا منه نوعا من الرعديد، ثم يطبخونه بالشحم بدل السمن فيأتی مسيخا، و قد قلت فی ذلك:

رب قوم يستمرئون طعاما فيه شحم الخنزير و الدم يهمی

و أنا إن أكلت منه لماظا بات شحم الخنزير يأكل شحمی

و فی الجملة فإنه ألذّ من طعام الإنكليز كما ستعرف ذلك فی بابه، غير أن الشواء عند الإنكليز ألذّ منه عند الفرنسيس.

و هناك طريقة أخرى للمعيشة و هی أن بعض الديار يصنعون مائدة عمومية يسمونها «تابل دوت» أی مائدة الضيوف، فمن شاء أن يأكل فيها لزمه أن يذهب فی ساعة معينة و لعلها أرخص من المطاعم العمومية و أطيب، و ثمن الغداء فی هذه نحو فرنك و نصف، و ثمن العشاء نحو فرنكين، و هو يبتدئ غالبا بالشوربة و يختم بالمثقفة أی السلطة، ثم بشیء من الحلو أو الفاكهة. و فی البلفار مطاعم لا ينتابها إلا الأغنياء و المسرفون، فإن ثمن العشاء فيها أربعون فرنكا أو خمسون. أما القهوة فإذا دخلت محلها جاءك الخادم بكوب سميك كالذی يشرب فيه الشوربة، و بسكر جزيل، و صب القهوة بمرأى منك ثم أتبعها بالحليب المسخن. و قد رأيت كثيرا من ذوی السمت و الرواء يضعون نصف السكر فی الفنجان، و يختبئون النصف الآخر.

و المطاعم و محال القهوة فی هذه المدينة لا تحصی كثرة، و هناك محال للقهوة تغنّی فيه الرجال و النساء يدخلها الناس مجانا، و لكن بشرط أن يشربوا شيئا يقوّم عليهم قيمة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۴

شيئين، و مما يعجب منه فی باريس الدكاكين التی يباع فيها المربيات و الشراب و ذلك لنظافتها و أنوارها، و ربما كانت سقوفها من مرايا و عندهم من أصناف المربيات و المعجّنات و الحلويات ما يزيد على ما عند الإنكليز عشرة أضعاف، إلا أنهم مثل الإنكليز فی أن حلوياتهم جميعا معمولة بالسكر لا بالعسل. و اعلم أن أرباب السياسة هنا يتعهدون صحة الرعيّة فيما يباع من المأكول و المشروب، فلا يسمحون للباعة بأن يبيعوا شيئا فاسدا أو مضرّا بالأبدان أو مغشوشا، و كأنّ الخمرة مستثناة من ذلك، فلهذا كان كل ما يؤكل و يشرب

هنا ألـذّ و أزکی مما یوجـد بلنـدرة، بل البقول و الفاکهـة هنا أطیب و ألذّ، فمن ذلک الخبز و هو ألزم ما یکون للمعیشة، فإنه فی غایة الطیبة، و هو من محض الحنطة غیر مخلوط بشـیء من الشب أو البطاطا کخبز الإنکلیز، و قد یصنعون منه شکلا فی طول قامة الرجل. و اللحم علی أن الإنکلیز یـدّعون بأن لحمهم أطیب، و یعجبنی هنا نظافـة دکاکین اللحّامین فلا یمکن أن تشم منها رائحة کریهة بخلاف دکـاکین لنـدرة، و هم یقفلون دکـاکینهم قبـل أن یوقـدوا الغاز فإنهم یقولون أنه یغیّر طعم اللحم، و من ذلک الزبـدة و الجبن و محار البحر علی أنواعه، و الیت و الخل و الخردل و اللبن، و قد یصنعون منه الرائب و القریشة کالموجود فی بلادنا سواء.

و کـذا الصابون و الشـمع بل الکبریت و حطب الوقود هنا أحسن مما یوجد بلندرة، و عندهم کثیر من البقول و الفواکه مما لا وجود له فی تلک، فأما جعتهم فغیر طیبة، و لکن هم قلّما یشربونها لاستغنائهم عنها بالخمر.

أما الهواء فبرد باریس و لنـدرة صـنوان، غیر أنه لمّا کانت الـدیار کلّها مبنیـة هنا من الحجر، و کانت مواقـدها غیر صالحة لوقود الفحم المعدنی کما مرّ، کان البرد أشقّ و أبلغ و زد علی ذلک توالی الأمطار شـتاء و صیفا. و قد شاهدت جمعا غفیرا حضروا من باریس إلی لنـدرة، و سألتهم عن الهواء فکلّهم أجاب بأن المطر لم ینقطع مدّة إقامته و کان فیها بلندرة صـحوا إلا أن الناس لا یشـعرون فی باریس بعنت المطر أو الثلج لکثرة ما فیها السـقائف و المنتزهات، و محال القهوة مما یذهب بالکرب. أمّا فی لندرة فلن یجد الإنسان من ذلک مهربا إلا فی بیته و هذا حسب.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۵

مواضع لا نظیر لها

و فی باریس عدّة مواضع لا نظیر لها فی الدنیا بأسـرها، فإن ابتدرتنی لتقطع علی کلامی بأن تقول «و هل رأیت الدنیا کلّها حتی تحکم بـذلک» قلت إنی لم أر الـدنیا، بـل رأیت محـاریث عقول أهـل الـدنیا، أعنی أقلاـم المؤلفین ممّن طوّفوا و سـاحوا فی مناکبها، فکلّهم حکم لهذه المواضع بالأحسنیة و الأفضلیة:

البلفار

«أحـدها» البلفـار، و هو طریق واسع طویـل ممتـد یحیـط بباریس کالمنطقـة للخصـر، کلاـ جانبیه محفوف بالشـجر المتوازی الوضع، و بالـدکاکین الظریفـة و الـدیار الشاهقـة، و مواضع القهوة الأنیقة الحافلة، فلا تزال تری أمامها ألوفا من الکراسـی یجلس علیها الرجال و النسـاء، و هنـاک یقرؤون صـحف الأخبـار و یتفاوضون فی إدارة المصالـح و الأشـغال، فهی عنـدهم بمقام المصـر، أی البورس. و قد تکون حیطان المحل کلّها مرایا، و سـقفه کسـقف الکنائس مزخرفـة منقوشـة، و فیها متکئات و مقاعد و موائد نفیسة، و لا تزال غاصّـة بالنـاس إلی نصف اللیـل، و قـد یکون لها رواشن أو مشـربیات فیها مقاعـد یری الإنسان منها جمیع ما یمر فی الطریق، و أکثر الملاهی هناک من جملتها مواضع للغناء و اللعب، و فی ختام اللعب تضـعف أنواره و یبرز فی محرابه نساء لا بسات بزّا رفیعا علی هیئة الجسم و لونه، فیحسـبهن الناظر عرایا و یبقین کـذلک فی أوضاع مختلفـة من دون حرکة، فإن برزت إحداهنّ رافعة یدها بقیت کذلک إلی أن تدور بهنّ المائدة التی برزن علیها دورتین، ثم یسبل الحجاب و ترجع الأنوار، ثم تضعف و یبرزن بهیئة أخری، و ذلک کله یدوم نحو ربع ساعـة، و یقال لهذا المنظر «تابلو فیفان» أی الصّور الحیّة. و أحسن محل فی هذا البلفار المحل الذی یقال له بلفار الطلیان، فثم تری النسـاء یخطرن بالـدیباج و الإسـتبرق، و الشـیلان الکشـمیریة، و المخمـل و الخز الرفیع، و هنّ متلعـات شافنـات، و الرجال یرنون إلیهن بأفخر اللباس و أحسن السمت. و ثم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۶

أظرف المحال للقهوة. و فی طرف البلفار عمود شاهق من المرمر فی قنته تمثال ملک من نحاس، واقف علی کرة و هو یلمع فی مقابلة

الشمس له کأنه ذهب، و یقال للملک ملک الحریة، و علی العمود أسماء الذین قتلوا من کبار الأمة فی سجن باستیل مکتوبة بالذهب، و تحته حوض یستقی منه. و کان إنشاء البلفار فی سنة ۱۵۳۶.

بالی روایال (القصر الملوکی)

«الثانی» الموضع الذی یقال له «بالی روایال» أی القصر الملوکی، و إنما سمّی کذلک لمجاورته قصرا کان مقر الملوک. و هو عبارة عن صفی دکاکین متقابلین فوقها منازل و مطاعم و حمّامات و محال للقهوة، و بینهما أشجار و حوض و مقاعد و مماش للناس، ففی الدکاکین تری أحسن الملبوس و أنفس الحلی و التحف من المعادن و الجواهر. و هی و إن کانت دون دکاکین البلفار فی الکبر، إلا أن حسن تنضید ما فیها، و براعة ترصیفه، و بهجة ذلک المکان، یکسبها سعة فی النظر، و من رأی کثرة الجواهر و الماس فی هذا الموضع و فی غیره أیضا حکم بأن أهل باریس أغنی من أهل لندرة، إلا أن الجوهریین من الإنکلیز لا یبرزون ما عندهم من الجواهر فی صفحة الدکاکین و إنما یخبئونها فی خزانة، فلهذا لا یکاد الناظر یری عندهم من خارج الدکان غیر الذهب و الفضة. و فی تلک المطاعم جمیع ما تشتهیه النفس، فإذا قعدت للغداء رأیت الرجال و النساء و الأولاد یمرحون فی تلک الروضة. و صفة الحمّامات صفة المطاعم، و فی الروضة أیضا موضع قهوة عنده کراسی عدیدة بعضها عند الحوض و بعضها تحت الشجر. و ثم تضرب العسکر بآلات الطرب ثلاث مرات فی الأسبوع، و طول هذه الحدیقة سبعمائة قدم و عرضها ثلاثمائة. و کان إنشاء هذا المحل البدیع فی سنة ۷۲۹.

الشانزلزی

«الثالث» الموضع المسمی «شانزلزی» أی روضة الأصفیاء، و هو غیضة طویلة ذات شطرین، طولها إلی حدّ الأزج أکثر من ثمانمائة ذراع، و عرضها علی الأقلّ مائة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۷

و ستّون، و لها مقاعد من خشب و کراسی علی طول جهتی الطریق، و بین الشطرین طریق واسع لمرور الخیل و الحوافل و العواجل، ففی أیام الأعیاد تری هذا الممر ملآن من تلک المراکب، فإن أهل الثروة یذهبون إلی هناک متفاخرین بما فوقهم من اللباس و بما تحتهم من المرکوب، و تری النساء فی العواجل المفتوحة متکئات کأنما هنّ راکبات علی نمارق و فرش، و العجب والتیه یلمعان من جبنهنّ، و کثیرا ما تراهن راکبات علی هذه الصفة و دخان التبغ خارج من أفواههنّ. و من العجب أن أهل باریس یخرجون إلی هذا الموضع و إلی «بوا دوبولون» فی أیام الأربعاء و الحمیس و الجمعة من جمعة الآلام، قصد المباهاة و المفاخرة فیما یلبسون و یرکبون، فهی عندهم موسم التأنق و التظرف، و مع ذلک فإن الجزّارین یتحرّجون من بیع اللحم یوم الجمعة، إمّا احتراما له أو حیاء من الناس، و فی هذه الغیضة «جاردن مابیل» و هو بستان بهیج تنتابه الرجال و النساء للرقص، فیه خمسة آلاف نور، و بستان الشتاء، و لا یمکن أن یکون فی العالم بستان أجمل منه علی صغره، فإنه راموز الجنّة، و فیه عین فوّارة یصعد الماء منها علو قامات، و فیها قصر للزهور، و موضع واسع ترمح فیه الخیل، و خیام لا تحصی یباع فیها الشراب و النقل و الحلواء، و فیها زمر شتی کزمر باب الرمیلة بمصر، فمن بین مشعوذ و مغن و عازف و محدّث و محنبش و غیر ذلک. و فیها ثلاث قبب مزخرفة ذات بهجة و أنوار یجلس فی کل منها ستّ نساء أو خمس من القیان الحسان و یغنین علی آلات الطرب و هن کاشفات عن الصدور و الأکتاف و لکن لا یکون ذلک إلا فی فصل الصیف فمن شاء أن یقعد علی کسی و یسمع الغناء لزمه أن یشرب شیئا من محل القهوة و دفع ثمنه ضعفین، و إذا انتقل من کرسی إلی غیره وجب علیه تجدید الشرب، و من وقف یستمع فلا تکلیف علیه. و هناک من الحیاض و التماثیل و الملاعب و الملاهی و الصروح و الأعلام ما ینسی الغریب وطنه، و کان غرس هذه الغیضة فی سنة ۱۶۷۰ و یقال أن فی باریس ثلاثة عشر ألف شجرة من غرس سنة إلی عشر سنین، و عشرة آلاف شجرة من عشر سنین إلی ثلاثین سنة، و أکثر من أربع و ثلاثین ألف من ثلاثین سنة فصاعدا

و غالبها من شجر الميس.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۸

بلاس دو لاكنكورد

«و الرابع» الساحة المسماة بلاس دو لاكنكورد، و هی بين الغيضة المذكورة و بين حديقة التولری، يجوز الناس من هذه إلی تلك و من تلك إلی هذه، و فی هذه الساحة حوضان كبيران وسع كل منهما خمسون قدما، و فيهما تماثيل من نحاس تقذف بالماء صعدا فيقع علی شبه جرن عليه تماثيل أربعة أولاد و بطّة، يخرج الماء من أفواهها، فيلتقی كلا المائيين، و ينحدران إلی الحوض و بينهما عمود جلب من مصر عليه حروف بلسان قدماء مصر، قال غالنيانی هذه المسلة أنتزعت من موضع بمصر أمام هيكل طيبس بمصر، الذی بنی سنة ۱۵۵۰ قبل الميلاد، و اسمها «لكسور» محرفة عن القصر، و كانت إحدی اثنتين جاد بهما محمد علی باشا علی دولة فرنسا تذكارا لألفتهما و مودتهما. و الثانية لم تزل فی موضعها، و لا بدّ من أن تجلب، و قد أنشئ لنقل الأولی سفينة مخصوصة فی طولون و ذلك فی سنة ۱۸۳۰، و فی سنة ۱۸۳۶ نصبت بحضرة الملك لويس فليب و آله، و أهل المناصب، و بحضرة مائة و خمسين ألفا من الأهلين، و فی مدة نقلها و نصبها لم يحدث أدنی خلل و لا أذی، طولها اثنتان و سبعون قدما، و وسعها من أسفلها سبع أقدام، و من أعلاها خمس أقدام و كسر، وزنتها خمسمائة ألف رطل، و آخر ما صرف علی تحسين هذه الساحة بلغ تسعمائة ألف فرنك، و قال آخر أنشئت هذه الساحة فی سنة ۱۷۵۴ و نصب فيها تمثال لويس الرابع عشر علی جواد و علی قاعدته تماثيل القدرة و الحزم و العدل و السلم، و لم تكد هذه الساحة تتم حتی حصل فيها نائبة عظيمة فی يوم عرس لويس السادس عشر ملك فرنسا، و هی هلاك مائة و اثنين و ثلاثين نفسا فی الزحام، و فيها أی فی هذه الساحة قتل الملك المذكور و زوجته مارى أنطوانيت و مدام رولاند و شارلت كوردی و غيرهم. قلت كان لويس السادس عشر حفيد لويس الرابع عشر و تزوج بنت ملكة أوستريا المسماة ماريا تريزيا، و اتهمته الفرنساوية بأنه كان ذا ضلع عليهم مع النمسا فتحزب جمهورهم عليه و حكموا عليه بالقتل، فلما جيء به إلی مقتله قدم غير جزع و لا- و جل و كلّم الناس بصوت جهير قائلا- «ألا- يا أيها الفرنسيس إنی أموت بريئا من الذنوب التی تجنيتم بها علیّ، و إنی أسامح جميع أعدائی، و أتضرع إلی الله تعالی أن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۴۹

تكون فرنسا العزيزة علیّ ...» فما كاد يتم قوله هذا إلا و صرخ رئيس أهل الفتنة و يعرف باسم «صانتر» بأن تضرب الطبول و يضرب عنقه، فلما صعد المكان الذی أعدّ لقتله ضجّ القسّيسون و هم يصرخون «يا ابن مار لويس اصعد إلی السماء». و بعد أن ضربت عنقه حملت جثته و دفنت فی قبر ملیء جبسا، و جعل حرس عند قبره إلی أن بليت بالمرّة. و فی هذه الساحة نحو خمسة و عشرين عمودا لها قبب فی أعلاها، و هی مضلّعة مذهبة و لكل منها جناح يقلّ فانوسين مذهبين، و هی تظهر للناظر فی الليل كأنها أبراج نجوم، و طول هذه الساحة ۲۴۸ مترا، و عرضها ۱۶۹. فأما حديقة القصر الأمبراطوری فلا يحكم لها بالفضل لسعتها و عظمها، و إن تكن أنيقة زاهية و إنما لكونها مجتمعا للناس، فتراها مشحونة بالكراسی و المقاعد ينتابها المتكيسون و المتكيسات عند العصر و خصوصا فی الأعياد. و فيها تماثيل عديدة و محل ينال فيها الطعام و الشراب، و لهذه الحديقة درابزين حديد جليّ يطيف بها رؤوس رماحه مذهبة. و قيل إن هذه الكراسی التی فيها مضمّنة بمائة ألف فرنك فی العام، فإذا لم تقصد هذه الحديقة لتسرح ناظرك فی محاسنها فذلك دليل علی فساد مزاجك.

عمود نابوليون الأول

«الخامس» عمود نابوليون الأول صنع علی مثال عمود تراجان فی رومية من ألف و مائتی مدفع من نحاس، كان قد غنمها السلطان

المشار إليه من عساكر النمسا و الروس، و قد نقش خارجه بصور الوقائع التی انتصر فيها، و صور آلات الحرب، يصعد الناس إلى أعلاه لرؤية المدينة فی مائة و ست و سبعين درجة، و فی قنته تمثال نابوليون طوله إحدى عشر قدما، و ارتفاع العمود مائة و خمس و ثلاثون، وزنته ۰۰۰. ۳۶۰ ليبرة. و يقال لهذه الساحة «بلاس فندوم» باسم دوک فندوم ابن الملک هنری الرابع لزنية، بدئ بها فی أيام لويس الرابع عشر. و فی يوم ميلاد نابوليون الواقع فی الخامس عشر من آب تأتی الناس بأكاليل من زهر و يضعونها على الدرابزين المطيف بالعمود تذكارا لمآثره. و لما دخلت عساكر الدول الأجنبية مدينة باريس كان من همهم بادی بدء أن يزيحوه، فلم يقدروا، و كان من قبله تمثال من نحاس للويس الرابع عشر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۰

فأزيح فی سنة ۱۷۹۲، قيل و كان أعظم تمثال صنع، فإن زنته بلغت ۰۰۰. ۶۰ ليبرة.

الباساج

«السادس» السقائف أو المعابر المسماة «بالباساج» و هی أسواق مسقفة بالزجاج، و مبلطة بالرخام، و على كلا الجانبين دكاكين بهيّة متناسقة الوضع، يوجد فيها للبيع أغرب التحف و أعجب الطرف، و الغالب أن ما يباع فيها يكون أغلى مما يباع فی غيرها، و منها ما حيطانه مرصّعة بالمرايا، فيرى المار فيها شخصه ذات اليمين و ذات الشمال، و فی زمن الشتاء تغصّ بالرجال و النساء فهی ملطأ لهم من المطر و البرد.

متنزه بوا دو بولون

«السابع» الغيضة المسماة «بوا دو بولون»، و هی عبارة عن ندحة من الأرض واسعة ممتدة كلها شجر و حياض، و فيها طرق رحيبة للعواجل يخرج إليها أهل الثروة و الجمال فی عوالجهم الفاخرة، و لا سيما فی الآحاد و الأعياد و الأيام الثلاثة التی مر ذكرها فی جمعة الآلام. و فی هذه الغيضة حلت عساكر الإنكليز عند فشل نابوليون، و اعلم أن الغيضة فی مفهوم الفرنساوية هی الأرض التی تكون أشجارها متماسّة الرؤوس بحيث أنک إذا جلست تحتها وقتک من المطر و الشمس. فأما عند الإنكليز فهی قطعة من الأرض يكون فيها شجرات معدودات، و مرج تمرح فيه الماشية.

الصروح الفاخرة فی باريس

فأما فی باريس من الصروح الفاخرة و المبانی السنية، فمما لا يعد و لا يحصى، و لكنی أذكر منها أشهرها.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۱

اللوفر

فمن ذلک القصر المسمى «باللوفر» و هو منقسم إلى عدة أقسام:

الأول: للتصاوير، و هو يشتمل على ألف و أربعمائة و ست صور من صنع أهل إيطاليا و إسبانيا و فرنسا. و هناک محل آخر يحوی أربعمائة و ستا و أربعين تصويرة من صنع مصوری إسبانيا خاصة، و من تلک التصاوير ما يبلغ طوله أكثر من عشرة أذرع، و منه ما هو بديع الصفة حتى لا يمكن للناظر أن يكف عن الرنو إليه، و جميع سقوف هذه المحال مزخرفة منقوشة، و ترى كثيرا من الرجال و النساء يصورون عن بعض الصور المشهورة، و قسته بخطواتی فكان طوله نحو سبعمائة و ثمانين خطوة معتدلة، و قست ما يشبهه بلندرة فلم يزد على مائتی خطوة، و لم أر هناک إلا مصوّرة واحدة.

القسم الثانی: للرسم، و هو یشتمل علی ألف و مائتین و ثمانیة و تسعین رسما.

الثالث: للأشیاء العادیة، و هو یشتمل علی ألف و مائة تمثال و صنم.

الرابع: للتماثیل الحدیثة. الخامس: للمنقوشات. السادس: للأدوات الحربیة، کالسفن و المدافع، و تری کل سفینة موضوعة فی بیت من زجاج علی مائدة من خشب نفیس، و هناک صور مدن و قلاع بارزة مجسّمة.

السابع: للدراهم. الثامن: متحف لبدائع مصر. التاسع: متحف الأثوریین.

العاشر: متحف لبدائع أمیرکا. الحادی عشر: متحف لبدائع الجزائر. و رأیت من جملة تلک الغرائب ملابس الملوک و سلاحهم، من جملتها عدّة أردیة مطرزة و غیر مطرزة کان یلبسها نابولیون الأکبر، و سروج خیله منها سرجان عربیان کان یرکب علیهما بمصر، و من ذلک کتاب فی الهندسة کان یطالع فیه دائما و هو بلا جلد، و أدوات کان یستصحبها فی أسفاره، و من جملة هذه الغرائب أیضا سیف کان لشارلمان، و طست غریب الصنعة جیء به من بلاد المسلمین. و کان هذا الموضع فی الزمن السابق مقرا لهنری الرابع المشهور بحسن السیاسة و التدبیر، و قبل أن ولّی الملک کان علی دین البروتستانت، فلما رآه أهل باریس أنه یصلح للملک لمآثره الجلیلة، و أنه لا یقوم بأعباء الملک غیره اختاروا تولیته بشرط أن یدین بدین الکنیسة الرومانیة، فأجابهم إلی ذلک و قال «لعمری إن باریس تساوی قدّاسا»، و مع کونه کان بمنزلة والد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۲

لأهل فرنسا أجمعین، و فی أیامه نسم الناس الراحة و بلهنیة العیش، لم یعدم من تصدی لقتله. و کانت ولادة هنری الرابع فی سنة ۱۵۵۳ و وفاته فی سنة ۱۶۱۰، و خلفه فی الملک ابنه لویس الثالث عشر، و هذا القصر کان دائما منفردا عن قصر الملک المسمّی بقصر التولری، و کان فی عزم الملک لویس فیلیب أن یصله به فلم یتهیأ له إلی أن قام نابلیون الثالث فجعلهما متّصلین. قال فی معجم الأوقات هذا الصرح الشهیر کان مقرا للملک داغوبرت فی سنة ۶۲۸، و فی عهد فرنسیس الأول وضع أساس المحل الذی یقال له الآن «اللوفر القدیم» و ذلک فی سنة ۱۵۲۲، و فیه وضع أحسن ما أمکن جمعه من الصور و التماثیل و تحف الصنائع المعروفة فی الدنیا، و جلّها جلب من إیطالیا حین کان نابولیون مستولیا علیها، و لکن ردّ منها کثیر علی أهله.

قصر التولری

و من ذلک قصر التولری و تفصیل ما فیه یغنی عنه قولنا إنه مقر لملوک فرنسا، و إنه فیه سرر مرفوعة و أکواب موضوعة، و نمارق مصفوفة، و زرابی مبثوثة، و مبلّط کله من خشب الجوز المحکم الصنعة و الإلصاق، بنته کاترین دمدیسی، و أتمه لویس الرابع عشر، ثم سکنه لویس السادس عشر فی سنة ۱۷۸۷، و فی سنة ۱۷۹۲ اقتحمه الناس و السلاح بأیدیهم، لیقدّموا عرضا للملک و هم علی أهبة الفتنة، فأفضی الأمر أخیرا إلی أن قضوا علیه بالقتل کما مرّ، ثم تبوأه نابولیون قبل أن لقب أمبراطورا و بعده أیضا، ثم عائلة البربون. و لما کان لویس العاشر قارّا فیه هجم الناس علیه و غلبوا علی عساکره و ألجأوه إلی النفی و ذلک فی سنة ۱۸۳۰، و فی سنة ۱۸۴۰ هجموا فیه علی لویس فلیب و ألجأوه إلی الفرار، فلحق بأسلافه و هو آخر من ملک من البربون، و دام ملکه ثمانی عشرة سنة. و قرأت فی بعض الأخبار أنه لما هجم الناس علیه وجدوا فی نفق دهلیز القصر المذکور خمسة و ثمانین ألف زجاجة مملوءة من الخمر الفاخر.

قصر لوکزمبور

و من ذلک قصر «لوکسمبور» بنی فی سنة ۱۵۹۴ و هو و إن لم یکن بناؤه بدیع

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۳

الصنعة إلا أنه متین مهندم، و کان مقرا للویس الثامن عشر ثم جعل فی زمن الفتنة سجنا، ثم جعله نابلیون مجلسا خاصا، و هو الآن

کذلک و یحضره الملک بنفسه، و عنده حدیقة عظیمة ینتابها أهل تلک الناحیة، و هی أکبر من حدیقة الملک، و فی طرفه رصد الکواکب بنی فی سنة ۱۶۶۷، و حدیقة صغیرة تجتمع فیها الرجال و النساء فی الصیف للرقص، و هذا الموضع و إن یکن عامّا إلا أنه یعرف بمحل طلبة العلم، و لأجلهم یباح فیه للنساء أن یتخلعن و یتفککن فی الرقص، و فی غیره یحظرهنّ الشرطة.

هوتل دوفیل و صروح أخری

و من ذلک «هوتل دوفیل» أنشئ فی سنة ۱۶۰۵ علیعهد هنری الرابع، و لکن لم تکمل محاسنه کما هو الآن إلا فی سنة ۱۸۳۶. و من ذلک قصر «کای درصی» کان لویس العاشر یرید أن یجعله معرضا لبدائع الصنائع و کان نابولیون یرید أن یجعله مقرّا لسفراء الدول، و هو الآن دیوان الحسابات و لم یتم بناءه قبل سنة ۱۸۳۵ و بلغت نفقته أکثر من ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۲ فرنک، و بجنبه قصر آخر بنی فی عهد لویس الخامس عشر و هو من أبهج قصور باریس، و من ذلک مجلس المشورة العام ابتدئ به سنة ۱۷۲۲، و کان أول ما نهب فی دولة البوربون، ثم جعل مجلسا لنواب الأقالیم و عدتهم خمسمائة، و فی سنة ۱۸۲۹ عرض لأن یباع بخمسة ملایین و نصف، و جملة ما صرف علیه إلی غایة سنة ۱۸۴۰ بلغت ۳۹۳. ۲۴۳. ۲۴ فرنکا. و من ذلک القصر المعروف بقصر الصنائع الظریفة و المحکمة الکبری بنی منها قسم من عهد صان لویس، ثم زید فیها مبانی کثیرة حتی صارت من أحسن ما یرنی إلیه، طولها ۲۱۶ قدما، و عرضها ۲۸، و دار مجتمع العلماء و یقال له «الانستیو» أسسه الکردینال مازارین و وقف علیه مکتبة عظیمة، و رزقا یبلغ فی کل عام ۰۰۰. ۴۵، و هؤلاء العلماء هم الذین ینقّحون کتب اللغة و النحو، و ینکرون المرذول من الکلام و یثبتون الفصیح، فإن للفرنساویة اعتناء عظیما بفن الأدب بخلاف الإنکلیز. و من ذلک دار السکة أتم أنشاؤها فی سنة ۱۷۷۱، و هی تحوی اثنی عشر دولابا زنة کل منها ثمانون ألف رطل، و تضرب فی کل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۴

دقیقة ستین دینارا و ثمانین ریالا، و فیها دنانیر من عهد جمیع ملوک فرنسا، و فیها أیضا یطبع علی المصوغات من الفضة و الذهب. و من ذلک قصر فی «شانزلزی» بنی فی سنة ۱۷۱۸، و کان مقرّا لسیدة من عائلة البوربون ثم سکنه نابولیون.

مجتمع التجار

و من ذلک المصر، أی مجتمع التّجار، طوله ۷۱ ذراعا، فی عرض ۴۹ أو ۲۱۲ قدما فی عرض ۱۲۶، یحیط به ۶۶ عمودا و نصف سقفه من بلور، و هو مقبب و صحنه کلّه مبلط بالرخام یسع ألفی رجل، بدئ به سنة ۱۸۰۸ و بلغت نفقته ۰۰۰. ۱۴۹. ۸ فرنک، و هو من المبانی البدیعة. قال مؤلف فرنساوی و له من داخله روشن ینتابه الناس لیشاهدوا منه التجار الذین یجتمعون فی الساعة الثانیة بعد الظهر للتعاقد و التبایع، فإذا سمعهم أحد ظن أنه بین نمور تهمهم.

البنک (المصرف)

و من ذلک المصرف، أی البنک، أنشئ فی سنة ۱۸۰۳ قیمة ما فیه من الکواغد التی بألف فرنک و بخمسمائة ۲۳۴ ملیونا، و الحاصل فی خزینته ۲۲۸ ملیونا، و کان رأس المال الذی وضع فیه أول إنشائه خمسة و أربعین ملیونا. قلت لم تتداول الکواغد التی قیمتها أقل من ذلک القدر إلا بعد الفتنة، و قرأت فی بعض الأخبار فی هذه السنة أن المخزون فی البنک بلغ ۷۵۰. ۹۸۰. ۱۲ فرنکا، و الکواغد المتداولة ۶۰۰. ۶۹۳. ۵۳۵، و من الآزاج العظیمة الأزج الذی یقال له «أرک دوطریونف» أی قنطرة النصر أو الظفر، صوّر علیه الوقائع التی انتصر فیها نابولیون، و بلغت نفقته ۴۰۲. ۷۲۳. ۹، و آخر أمام قصر الملک من جهة اللوفر بلغت نفقته ۰۰۰. ۴۰۰. ۱، و فی البلفار و غیره آزاج کثیرة أضربنا عن ذکرها.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۵

کنائس باریس

نوطردام

و من الکنائس العظیمة کنیسة «نوطردام» و قد مر ذکرها، طولها ۳۹۰ قدما و عرضها ۱۴۴، و ارتفاعها ۱۰۲، و علو صومعتها ۲۰۴، فیها أرغن ارتفاعه ۴۵ قدما، و عرضه ۳۶ یشتمل علی ۴۸۴. ۳ قصبة، و هی أم کنائس باریس، و فیها تتوج الملوک. و أول حجر جعل فی أساسها وضعه البابا اسکندر الثالث فی سنة ۱۱۶۳، و لم یتم إنشاؤها إلا بعد ثلاثة قرون.

لامدلین

و من ذلک کنیسة «لامدلین» أی المجدلانیة، و هی کنیسة ذات بهجة و رونق و صنع بدیع، داخلها مزخرف بالنقش، و العمد من المرمر النفیس، و مبلطها من الرخام و سطحها من حدید و نحاس. و طولها مائة ذراع، و عرضها اثنتان و أربعون، و یحیط بها اثنان و خمسون عمودا، و یصعد إلی بابها فی ثلاثین درجة. و کان فی عزم نابولیون أن یسمیها هیکل الفخر تذکارا لفخر فرنسا، و أن یصور علی أعمدتها جمیع الذین حاربوا معه من الأبطال المظفرین، و لذلک بنیت علی شبه هیاکل الیونانیین، و لم یبق نقّاش و لا مصور فی المدینة إلا و اشتغل بها. و قال أول حجر وضع فی أساسها وضعه لویس الخامس عشر.

و کان فی قصد نابولیون أن یخصصها للعسکر، و لم تتم إلا فی أیام لویس فیلیب، و هو الذی خصّ ها بمریم المجدلانیة بعد أن کان الناس یظنون أنها تخصص لجوبیتر.

البنثیون

و من ذلک الکنیسة التی یقال لها «البنثیون» بنیت فی سنة ۱۷۶۴ علی اسم مار جینیفیف، ثم جعلت مدفنا لمشاهیر الفرنساویة فی العلم أو الحرب، و فیها دفن فلتیر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۶

و جان جاک روسو و غیرهما، ثم حولت کنیسة فی داخلها مائة و ثلاثون عمودا و بخارجها نحو من ذلک، و بلغت مصاریف نقش قبتها مائة ألف فرنک، و رقّی ناقشها إلی مرتبة بارون، و دورتها ۶۲ قدما، و دورة الکنیسة کلها ۲۵۶. ۳ قدما مربعا، و طولها ۲۸۸ قدما.

صان صلبیس

و من ذلک کنیسة «صان صلبیس» و هی فی حارة النبلاء، یقال إن کراسیها مضمّنة بستین ألف فرنک فی العام، بنیت فی سنة ۱۶۴۶ و لها صومعة عالیة جدا.

نوطردام دلورت

و من ذلک کنیسة «نوطردام دلورت «بلغت نفقتها ۰۰۰. ۰۵۰. ۲، و وظیفة قسّیسیها فی السنة ۰۰۰. ۳۰ فرنک، و قس الباقی علی ما ذکرناه. و أهل باریس یذهبون إلی الکنائس صباحا، و فی المساء إلی الملاهی، و هو عند الإنکلیز من أعجب العجب.

مارستان السقط

و من المواضع المشهورة المقصودة مارستان السّقط بنی فی أیام لویس الرابع عشر، و هو یحوی ۶۰۰۰ نفر ما بین مرضی و خدمة، و تخدم فیه ۲۵ راهبة، و یسع ۱۰۰۰۰ نفس، و هو مخصوص بالعساکر و کل من قضی فی الخدمة العسکریة ۳۰ سنة فله حق أن یدخله، و مرتب مدیره ۴۰۰۰ فرنک، و یعیّن لمن فیه فی کل یوم رطل من اللحم، ولتر من الخمر. طول حدیقته ۴۴۰. ۱ قدما، و عرضها ۷۸۰. و عنده

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۷

مدافع غنمها الفرنساویة من بروسیا و الجزائر و عنّابة، و طول المارستان ۶۱۲ قدما، و فیه مکتبة نفیسة، و کنیسة طویلة نصب علی مشرفتها جمیع الرایات التی أخذها نابولیون من جیوش الدول التی انتصر علیها، أحسبها تبلغ ۲۰۰. و من جملتها عدة رایات من العساکر المسلمین. قال و کان فی الکنیسة ۴۰۰۰ رایة و سیف لفریدریک الکبیر، فلما دخلت عساکر الدول المتفقة إلی باریس صدر أمر من وزیر الحرب عن لسان یوسف بونابارته بأن تحرق الرایات، و یکسر السیف، فخشی المأمورون تبعة ذلک فلم یحرقوها، إلا بعد أن راجعوه فی أمرها ثلاث مرات. قال و فی هذه الکنیسة دفن نابولیون و أمراء عسکره، و وضع علی قبره تاجه و نیشانه و سیفه، و صرف فی القبر ملیون و نصف.

مدفن نابولیون

قلت لا یخفی أن نابولیون لم یمت فی باریس، بل مات فی جزیرة صانت هیلان، غیر أن دولة فرنسا فی أیام لویس فیلیب استأذنت دولة الإنکلیز فی نقل جثته من هناک فأجابت إلی ذلک، فأرسل الملک ابنه فی بارجة اسمها «بل بول» و نقلوا جثته إلیها، و ذلک فی السادس عشر من أکتوبر سنة ۱۸۴۰، و فی الخامس عشر من دیسمبر دفنوها فی کنیسة هذا المارستان بغایة ما یکون من الاحترام و الاحتفال، مما لم یشاهد مثله فی فرنسا قط، و حضر جنازته ملیون من الخلق و مائة و خمسون ألفا من العسکر، و الملک و آله، و جمیع الأمراء و النبلاء و العظماء، مع أن جمیع أقارب نابولیون کانوا غیابا، فمنهم من کان منفیا و منهم من کان مسجونا. و کانت ولادة نابولیون فی الخامس عشر من آب سنة ۱۷۶۹، و قد صار هذا الیوم عیدا تتخذه الدولة فی کل سنة. و کانت وفاة نابولیون فی الخامس من شهر مایو سنة ۱۸۲۱ فی تلک الجزیرة، و لم یخلّف إلا ولدا ولد له فی سنة ۱۸۱۱ و لقّب أولا ملک رومیة، و فی سنة ۱۸۱۵ لقّب إمبراطورا باسم نابولیون الثانی، مع أنه لم یکن وقتئذ فی فرنسا لأنه نقل فی الحادثة التی وقعت قبلها إلی بلاد أوستریا، و بقی هناک إلی أن مات و ذلک فی سنة ۱۸۳۲، و الفرنساویة یحجّون إلی قبر نابولیون کحجّ المسلمین إلی الکعبة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۸

بستان النباتات

و من ذلک بستان النباتات تنبت فیه جمیع النباتات، و تحفظ فیه سائر الحیوانات، و هو یشتمل علی عدّة مواضع:

الأول: للنبات فیه بیوت من زجاج لتنبیت ما لا ینبت فی البلاد الباردة. الثانی:

مشرفیات فیها أشیاء عدیدة تعین علی علم حیاة الحیوان المسمی عند الإفرنج تاریخ الطبیعیات. الثالث: مشرفیة للتشریح. الرابع: مربض الیوانات و محل مونتها.

الخامس: مکتبة تشتمل علی کتب فی تاریخ الطبیعیات. السادس: محل یلقی فیه التدریس فی العلوم، یسع ۱۲۰۰ شخص، و جملة أنواع النبات التی فی البستان ۱۲۰۰۰ نوع، و التی فی المشرفیة ۵۰۰۰، و عدد الطیور ستة آلاف. و عدد السمک خمسة آلاف، و

عدد الأعضاء للتشریح ۰۰۰. ۱۵، و جملة النباتات المجففة المحفوظة ۰۰۰. ۳۵، و من الشجر و الحب أکثر من أربعة آلاف. و لما دخلت عساکر الدول الأجنبیة باریس کان من هم الدولة أن تحمیه من غوائلهم، فبقی مصونا، إلا أن کثیرا مما جلب إلیه من البلاد الخارجیة ردّ علی أصحابه. و فیه شجرة من أرز لبنان أهداها طبیب إنکلیزی اسمه غولنصون إلی الدولة. و قد رأیت فیه عظام حیوانات عادیة طول الواحد منها نحو عشر أذرع، و جثة سمکة- و کأنها هی الذی یقال له بلغتنا الجمل- طولها من الرأس إلی الذنب نحو خمس و عشرین ذراعا، و فی ظهرها سبع و أربعون فقرة، کل واحدة کأنها رفش، و لها ثلاث عشرة ضلعا عند رأسها کأنها ترائبها، طول کل ضلع نحو أربع أذرع من کل جانب، و رأسها نحو قارب، و فی فکّها الأسفل من کلا طرفیه ثلاث و عشرون سنا قدر کل سنّ کالموزة.

بین باریس و لندرة

و غایة الکلام أن باریس تفضل لندرة فی المبانی، و المطاعم، و المنتزهات، و محال العلم، فهی معدن العلوم و اللذات و لذلک تری ألوفا من عیال الإنکلیز الأغنیاء یأتونها مستوطنین، و ما أحد من أغنیاء الفرنسیس یذهب إلی لندرة لیتخذها له وطنا، و إنما

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۵۹

یذهب إلیها أهل الحرف و الصنائع تحصیلا لمعیشتهم.

مواسم الحظ و الفرج

و من مواسم الحظ و الفرج عندهم ثلاثة أیام فی المرفع و هی التی یسمونها الکرنیفال، و قد ذکرناها فی الکلام علی مالطا فلا ینبغی إعادتها، و إنما نقول هنا: إنه فی هذه اللیالی یدومون فی المراقص حتی الصباح، و فی یوم خمیس السکاری یطوفون بثور مسمّن و أمامه طائفة الجزّارین بلباس السخریة، و یغطون الثور بثوب مزرکش و علی رأسه إکلیل من الزهر، و کانت العادة سابقا أن یقعد علی ظهره ولد یسمونه ملک الجزّارین، و یمسک بإحدی یدیه سیفا و بالأخری صولجانا، فأما الآن فإنه یقعد فی نحو محفّة، و یتبع الثور بلا سیف و لا صولجان.

و من ذلک عید رأس السنة و هی ثلاثة أیام تری فیها جانبی البلفار مشمولا بالخیام لبیع التحف و الطرف التی یتهادی بها، و تری أیضا غیضة شانزلزی مشحونة بظلل و قبب و أخبیة، فیها جمیع أنواع الطرب و الشعوذة و الرقص علی الحبال، و تری من بدائع المصنوعات و المخلوقات ما لا تراه فی المملکة کلها. و قد رأیت مرة امرأة جمیلة ذات لحیة و شوارب، و علی قفاها و ذراعیها من الشعر ما لم یکن علی رجل، و کأنها هی التی ذکرها صاحب المعجم حیث قال: أرسلت امرأة إلی باریس لها لحیة کثیفة و جمیع بدنها مغشّی بالشعر، قال و قد علم أن نساء کثیرة لهن شوارب و لحی، و شعر مسترسل علی أکتافهن و سواعدهن من جملتهم امرأة أتی بها إلی حضرة بطرس الأکبر، و کانت لحیتها نحو ذراع و نصف، و فی الخامس عشر من أغسطوس تصنع الدولة عیدا حافلا یحشد إلیه مئات ألوف لرؤیة الأنوار و شهب البارود. و فی الجملة فإن أیام باریس کلها مواسم و أعیاد و إن لیلها أبهج من نهارها. هذا و علی قدر ما فیها من المحاسن الفائقة و الأرناء الشائقة فإن ضواحیها أبهی و أشهی.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۰

القصور فی ضواحی باریس

قصر صان کلو

فمن ذلک صان کلو و هو علی بعد نصف ساعة من باریس، فیه قصر یصیّف فیه الملک، و غیضة غضة أنیقة دورتها أربعة فراسخ، و هذا القصر کان اشتراه لویس الرابع عشر، و سکنه نابولیون الأول و شارلس العاشر، بنی فی سنة ۱۷۵۲ و أثاثه أجدّ من أثاث قصر فرصای، و فی الغیضة میاه خرّارة و لعلّها هی الشلالات.

قصر فرسای

و بالقرب منه قصر فرسای الذی کان مقرا للویس الرابع عشر، و هو یشتمل علی تصاویر بدیعة لا نظیر لها، من جملتها صور جمیع ملوک الإفرنج من مات منهم و من هو حیّ، و صور وقائع نابولیون، و صور سائر الملوک و السلاطین، و فی الشقة التی کان یسکنها الملک تحف غریبة کان یستعملها هو و آله، و سریر فراشه و هو نحو صفّة، و فیه ملهی کان إذا أمر الملک بإجراء التمثیل فیه ینوّر بعشرة آلاف شمعة، و یصرف علیه فی تلک اللیلة مائة ألف فرنک، و فی القصر دیوان فسیح کان یجتمع فیه رجال دولته، و لم یکد مع رحبه یسعهم. و بعد أن تنقضی فرجة الناس من القصر و ذلک نحو الساعة الرابعة تطلق میاه الغیضة صعدا، و تضرب آلات الطرب فیقعد الناس علی الکراسی للسماع و النظر، و هو منظر یسحر، فإن الحدیقة ناضرة زاهیة و العیون غزیرة، و وسع الغیضة الکبری عشرون فرسخا، و قد أنفق علی حوض فیها ملیون و نصف. فأما جملة ما أنفق فی بناء القصر و فرشه و فی الغیضة، فقد اختلفت الأقوال، و الذی صحّ أنه بلغ نحو أربعین ملیون لیرة إنکلیزیة، فأما بلد فرصای فإنه کان قبل الفتنة عامرا، فکان أهله مائة ألف نفس، و الآن لیس فیه أکثر من ثلاثین ألفا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۱

قصر صان جرمان

و من ذلک صان جرمان، و هو علی بعد خمسة فراسخ من باریس، أو سفر ساعة فی السکة الحدید. و هی بلد مشهورة من القدیم لها غیضة فسیحة ناضرة فی ربوة من الأرض، یسرح الناظر منها فی مدی مدید کلّه خضرة، ما بین کروم و بساتین و غیاض و ریاض و قصور و أعلام، حتی یود لو یری فی جملتها صخرا من صخور مالطا. و فی هذه البلدة قصر کان فی الأصل مقرّا لفرنسیس الأول، و کان هنری الرابع یستطیب المقام فیه و کذا لویس الثالث عشر و الرابع عشر، و فیه أقام جامس الثانی ملک الإنکلیز دیوانه اثنتی عشرة سنة، ثم صار فی زمن الفتنة محلا للعساکر، ثم جعل الآن سجنا لهم.

عنایة الملک بجمال باریس

و هذه المواضع یقصدها أهل باریس فی أیام الآحاد و الأعیاد فی أرتال لها مقاعد فی سطوحها مکشوفة، فتری و أنت فی رتل منها عدة أرتال سابقة و لا حقة، و لا یمکن استیفاء الکلام علی هذه المحاسن من دون رؤیتها عیانا، و کل ما تراه فی باریس و ضواحیها من المحسنات و المنتزهات فإنما تمّ بعنایة صاحب الملک لا بعنایة جماعات علی حدتها، کما هی العادة فی لندرة، فإن الملک هنا لا یغفل شیئا مما یؤول إلی أبّهة الملک و شرف المدینة و رونقها، و إذا علم مثلا أن فی بعض الشوارع دیارا قدیمة متهدّمة اشتراها من أصحابها من دون غبن و جدّد بناءها، و فی أیام ملکها الآن هدمت حارة کبیرة برمتها ثم بنی فی مواضعها دیار حسنة شاهقة تضاهی دیار البلفار، فأما فی لندرة فإن جمیع الإنشاء اتو التنظیمات موکولة إلی جماعات من الأهلین، و لیس علی الدولة إلا ضرب المکس و الطّسق و تجهیز الجیوش.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۲

ملابس أهل باریس

أمّا ملابس أهل باریس فإنها فی الجملة وضیئة فاخرة، و أکثر أنواع الثیاب التی تباع عند البزّازین، و لا سیّما الحریر أحسن مما یوجد بلندرة إلاّ الکتان، فأما الملابس المخیّطة فلیس لعمری من مناسبة بین ما یباع هنا و ما یباع فی لندرة، فإن من یشتری ثوبا مخیطا فی هذه یلزمه أن یستأجر خیّاطا لیصلحه له فی کل یوم، و لأهل باریس تنطّس زائد فی أشیاء کثیرة مما لا یعبأ به الإنکلیز، إلا أن نساءها اللواتی یعشن من کدّ أیدیهنّ یلبسن أحذیة کأحذیة الرجال، و ذلک منکر فی لندرة، و إذا خرجن فی الأسواق خرجن من دون برنیطة و لا شال، و هو أیضا من المنکر عند الإنکلیز، و للاکتفاء عن البرنیطة سببان: الأول الزهو و العجب، فإنهنّ یعرضن شعورهنّ و أعناقهنّ للرنو و التعجب، و الثانی غلاء سعرها حیث کانت أجرة اللائی یصنعنها کثیرة، فإن صنّاع باریس تکسب أکثر من صنّاع لندرة و بعکس ذلک الرجال، و هاتان الصفتان من المنکر أیضا عند نساء لندرة.

نساء فرنسا

و لنساء الفرنسیس نظافة زائدة علی الملبوس و المفروش فکل ما کان لونه البیاض یبقی کذلک إلی أن یبلی و لکن لیس لهنّ من الطهارة نصیب، و لهنّ أیضا عنایة بلیغة بتنضیض أثاث البیت و بهنّ تلیق الأعمال، و فی الواقع فإنهنّ أزکن و ألقن من سائر نساء الإفرنج، و ما من أمرأة فی باریس إلا و تعرف شیئا من المداواة، و من طبعهنّ التبکیر فی القیام و تنظیف مراقدهنّ بخلاف نساء لندرة، فإن الغالب علیهنّ الکسل و التوانی و الإضحاء فی النوم، و لهنّ أیضا حرص علی تربیة أولادهن و تنظیفهنّ، فلا تکاد تری فی أسواق المدینة أطفالا یمشون وحدهم، أو

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۳

یطوفون فی اللیل و یعرضون أنفسهم لخطر العجلات و سائر المراکب کما تری فی لندرة، و هنّ اللائی یتولّین الدخل و الخرج فلا یمکن لأحد أن یشتری شیئا من المأکول و المشروب ما عدا الخمر إلا من أیدیهن، و إن تکن بعولتهن حاضرة.

العرافات و النطق بالمغیّبات

و لهن مزیّة مشهورة بین الناس فی النطق بالمغیبات کما یزعمون، و إذا استنطقت واحدة منهنّ لزمک أن تعطیها عشرة فرنکات، و لم أسمع عن نساء لندرة هذه الدعوی الشائعة عن نساء باریس.

و قد اتفق لی مرة أن سرقت لی کراریس من کتاب ألّفته و عزمت علی عدم إفشائه فقلقت لذلک کل القلق، ثم ردّ علیّ بعضها من لندرة فأخذنی الذهول. فلما أطلعت بعض أصحابی علی ذلک قال لی: علیک «بالسمنمبول». فذهبت معه إلی واحدة من أعرفهن، و کان هو أیضا یرید أن یسألها عن حاجة مهمة له، و تبعنا آخر لم یکن له مأرب سوی الامتحان فقط. فلما سألناها حضرت امرأة أخری و جلست بین یدیها، أمسکت یدها الیمنی ثم جعلت فیها کرة صغیرة من بلور، و جعلت تحدق النظر فی المرأة، و بعد عدة دقائق غمضت المسؤولة عینیها ثم تنفست الصّعداء و أشارت إلینا بالجلوس و عیناها مطبقتان، فناولتها حینئذ قطعة من الورق و أخبرتها بما جری من السرقة، فشمّتها و قالت:

- هذه القطعة أرسلت إلیک من بلاد بعیدة مع أوراق أخری، یخالف لون بعضها بعضا، و أصل شرائها کان من تلک البلاد.

قلت:

- نعم و لکن أرید أن أعرف من سرقها.

قالت:

– أین کان مسکنک حین سرقت؟

قلت:

– فی روبلانش.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۴

قالت:

– نعم فی الطبقة الثالثة، و قد سرقها رجل کان کثیر الترداد علیک.

قلت:

– من هو؟ و کیف هو؟

قالت:

– لیس هو بفرنساوی، بل غریب مثلک.

قلت:

– ما زیّه؟

قالت:

– لیس کزیّنا، و لا کزیّک، و إنما یلبس رداء طویلا.

قلت:

– ما سنّه؟

قالت:

– فی حدّ الثلاثین.

قلت:

– بل أکثر من ذلک بثمانی سنین.

ففکرت هنیهة ثم قالت:

– لست أراه إلا کما قلت لک.

فکانت صادقة فی کل ما قالت إلا فی السن، و یمکن أن یقال إنّ ذلک الشخص لم یکن یظن فیه ناظره أنه جاوز الثلاثین.

و یقال إن هؤلاء المنبئات إنما ینبئن کما یضمره السائل، فإنی کنت أضمرت شخصا کان علی تلک الصفة، و کان یتردد علیّ کثیرا، و جزمت بأنه الذی فعل الفعلة، ثم تنصّتت لحسّ معدتی، فقالت:

– إنّ هذا الشخص الذی سرق الورق صدیق لمطران، حاول مرة أن یسمّک باطلاع ثلاثة رجال معه.

ثم إنّی وضعت بیدها خصلة شعر من شعر امرأة، و کانت وقتئذ مریضة بداء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۵

الخفقان، و قد قاست من الأوجاع و الأطباء ما یطول شرحه، فأخذت الشعر و شمّته و قالت:

– هذا شعر امرأة مریضة، و أصل مرضها فی المعدة و القلب، و قد مسّ هذا الشعر إمرأة أخری.

قلت:

– صدقت، و لکن لا أعلم أن امرأة أخری مسّته.

قالت:

– بلی قد لمسته، و إن صاحبته صارت عرضة للإسقاط و الولادة تسع مرات، و هی ذات نشاط و حدّة، فإذا غضبت تخرج عن المعقول و یخشی علیها من اللّمم، فینبغی أن تداریها، و تحوطها، و تستعمل لها العلاج الفلانی.

ثم سألها صاحبی القلق بعد أن ناولها أثرا من المسؤول عنه، فقالت له:

– إنّک تقیم فی باریس سنتین بعد، ثم تسافر إلی بلادک. و کذا وقع له.

أما الثالث فإنه سألها عمّا فی جیبه، فقالت له:

– ورق.

قال:

– علی أی شیء یشتمل؟

قالت:

– أنا لا أحسن القراءة حتی أنبئک بما اشتملت علیه.

قال:

– منذ کم قدمت إلی باریس، و ما أشبه ذلک؟

قالت:

– قد استحوذ علیّ صداع.

و لم تجاوبه بأکثر من ذلک، و خرجنا من عندها و هی علی تلک الحالة. ثم إنّی لما رجعت أخبرت المریضة بما وقع فقالت:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۶

– أمّا الشعر فقد لمسته الخادمة، و أما الإسقاط و الولادة فکما قالت.

و یقال إنّه حین تکثر السؤال علی المسؤولة تضعف قوتها و یخدر إدراکها، ثم إنّه لما کانت هذه الحرفة مضادّة للدیانة و للطب کان القسیسون و الأطباء أشدّ الناس مقاومة لها. و لقد عجبت کیف أن الدولة تسوّغ معاطاتها إن لم تکن حقا، فإنا إذا اعتقدنا بصدق ما تقوله هؤلاء النساء لم یکن بینهن و بین الأنبیاء من فرق، اللهم إلاّ أن نقول إنّ إنباءهن غیر وارد فی الإلهیات، و إن یکن تدجیلا و تمویها فلم لم تمنعهنّ الدولة من غبن الناس و اختلاس أموالهم، و تحکم بخروجهن من الجماعة أخذا بنص التوراة؟

علی أن بعض المتفلسفین فی باریس یدّعون أیضا بأن فی الإنسان خاصیّة أو جاذبیة تسری منه حتی إلی الجماد، فیفعل بها فضلا عن تأثیره فی إنسان نظیره، و علی ذلک شاعت الأخبار بأن الموائد تمید بلمس عدة رجال لها، و أن الکراسی تمشی، و السکاکی ترقص إلی غیر ذلک. و الذی یخطر لی علی قدر ما أدرکه أنه کان ینبغی إمتحان هؤلاء النساء و بعد ذلک إمّا أن یحظرن أو یقررن علی صنعتهن. و قیل إنّهن امتحنّ فوجدن صادقات فی أمور کثیرة، حتی لم یمکن حظرهنّ، و إنه إنما رخّص لهن فی الإنباء رجاء أن تظهر وسیلة أخری لإتقان هذه الحرفة، حیث لم یستبعد ذلک علی تمادی الزمن. أمّا ما قیل عن بوسکو فلم أر من شعوذاته ما یصدّق کلام الناس فیه، فإن کل ما صنعه أمام الناس لم یصنعه إلا بأدوات. و قد شاع عن روبرت أودن أنه کان عنده زجاجة و کان یسأل الناس أی شراب یبغون منها؟ فکان کل یقترح علیه شیئا، فیسقیهم کلهم منها. ثم رأیت هذه القنانی تباع بثمن غال، و لا أدری شأنها و الله أعلم.

أخلاق الفرنساویة

أمّا أخلاق الفرنساویة فالکلام علیها یستغرق زمنا طویلا، لأن الطبیعة البشریة فیهم لحمتها من نوع و سداها من نوع، أمّا أولا فلأن سحنهم و بنیة أجسامهم متفاوتة جدا، فأهل جنوب فرنسا سمر کأهل البلاد الحارّة، و أهل شمالیها بیض شقر، و الثانی أن ما یظهر منهم للغریب أولا إنما هو الأنس و حسن المعاشرة، فإذا رأی ذلک

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۷

منهم أول وهلة ظن أنهم يزدادون من مؤانسته و ألفته، و أن هذا الأنس لا بد و أن يتبعه كرم و صداقة، و يزيد تعجبه من ذلك على الخصوص ما إذا واجههم على هذه الصفة المستحبة بعد مفارقته الإنكليز على حالة الانقباض و العبوس، و لكن هيهات، فإن أنيسك منهم إذا رآك غدا ظننت أن ملاقاتكما إنما كانت حلما، و على فرض استمرار الألفة بينك و بينه فلا يدعوك إلى منزله و لا يعرفك بأهله. و من ذلك أن أهل البلاد الباردة كباريس و غيرها تراهم أخفّ حركة و أحفد إلى الأشغال من أهل البلاد الحارة، أو المعتدلة كمرسيلية و نحوها، فإن الناس هنا لا حركة لهم و لا نبض، فمن قدم إليها من باريس و رأى بلادة أهلها عجب كل العجب، فأين هم من أهل مالطا الذين يبادرون إلى العمل بأدنى إشارة. و من ذلك أن كثيرا منهم و لا- سيما أهل باريس يعيشون مع النساء عيش المتعة، و يأتى لهم بنون و بنات و هم على هذه الحالة، و لا يتزوجون زواجا شرعيا، فكيف يحب الرجل امرأة و لا يتزوجها، لا سيما و قد ولدت له أولادا و ربتهم؟ و زواجهم الشرعى هو الذى يعقد فى الديوان لا فى الكنسية، و منهم من يعقده فى كلا الموضعين، و هم المتدينون العابدون. و من ذلك أنهم مائلون بالطبع إلى حب النساء و مخالطتهن و مداراتهن، و مع ذلك فإنهم يدعونهنّ يعملن الأعمال الشاقة ليكسبن بعض شىء. و يمكن هنا أن يقال إن نساءهم مائلات بالطبع إلى حب الكسب، و ليست الراحة عندهنّ إلا بتحصيل المال. و من هذا القبيل أن الرجال من فرط عشقهم يقتلون أنفسهم و يرتكبون أقصى الأخطار لإرضائهن، و مع ذلك فليسوا يقيمون على ودادهن، فتبديلهن عندهم أهون من تبديل اللباس. و مع اعتقادهم بأن نساءهم أكيس النساء و أظرفهن و أحذقهن جميعا، فلا- يأنفون من زواج الحبشيات و غيرهن. و من ذلك أنك ترى أدبائهم و كيسيهم أبدا يترددون على الملاهى و الملاعب ليسمعوا فيها و يروا ما سمعوه و رأوه مرارا، و أنت خبير بأنه يكرر فى هذه المواضع تمثيل الحوادث كثيرا، إذ لا يمكن اختراع شىء حديث فى كل ليلة، و مهما يكن الشىء الممثل بديعا فإذا أعيد زالت طلاوته.

و من ذلك أنك لا تزال ترى الخاصة منهم و العامة يتمشون فى الحدائق و الغياض

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۸

و مواضع الفرج و الغناء، حتى تظن أن أهل باريس كلهم سباهلة لا- شغل لهم و لا- عمل، و مع ذلك فهم يتانقون فى المطعوم و المشروب و الملبوس و المفروش، فلا أدرى فى أى وقت من الأوقات يكسبون المال؟ و من ذلك إنّ لهم عناية بتربية أولادهم أكثر من الإنكليز إذ لا يغادرونهم وحدهم فى الشوارع و الطرق عرضة للأخطار، أو يهملون تعليمهم حرفة من الحرف تغنيهم عن المكث فى المارستان، أو عن الطّر و الاختلاس فى المسالك كما هى العادة فى لندرة غالبا، و مع هذا فإنهم عقب ولادتهم يبعثونهم إلى الريف ليتربوا عند المراضع، و الإنكليز على خلاف ذلك، و منها أنهم على بلادهم و جنسيتهم أغير من الرجل على امرأته، فلا يسلّمون بأن فى الدنيا بلادا تشبه بلادهم أو جيلا يضارعهم، و مع ذلك فإنهم يسافرون عنها لغير موجب، و حيثما ساروا بثوا رسائل التمدن و العلوم، و جادوا بما خصهم الله به من البراعة و الحكمة على من لبثوا بينهم، و ربما كانوا لهم أعداء. لعمرى إنّى أرى طريقة ملك الصين فى منعه مخالطة رعيته بغيرهم أولى، أو ليس أن الدولة حين تنصب الحرب لدولة أخرى تمنع إخراج كل ما يتعلق بالمهمات الحربية من بلادها إلى بلاد تلك الدولة؟ فأى الخارجين أنفع لها و أفضل، الرجل أم الأداة؟ و مع ذلك أنهم حين يكونون متغربين فى بلاد الناس يختلطون بهم و يجانسونهم و يخالقونهم، حتى يصيروا كأنهم منهم. و إذا تغرب أحد بينهم لو يختلطوا به فغاية ما يخصونه به من الإكرام إنما هو أن يسألوه من أين قدمت؟ و أين تقصد؟ و كيف أعجبتك باريس؟ و من ذلك أنهم لا يزالون ينقّرون عن الحقائق و يودون لو يعلمون كل أمر من فصّه. و قد حذقوا كل علم و برعوا فى كل فن، و مع ذلك فقد عزب عنهم أهم الحقائق، و هو ضرورة وجود الدين لكل من السائد و المسود، و الرئيس و المرؤوس، و لو سلم لهم بأن الكيسى و أهل المعارف و الأدب غنيون عنه بما فطروا عليه من حسن الأخلاق، أو حسنوا به إملاءهم من مطالعة الكتب، لم نسلّم بأن الرعاع الذين هم الجمهور الأعظم فى كل البلاد غير

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۶۹

مفتقرین إلی دین یردعهم عن الشرور و المعاصی، و یحثهم علی فعل الخیرات، و لو لا ذلک لأکل القوی الضعیف، فإن قلت کیف یأکله و الحاکم من ورائه؟ قلت لیس فی کل الأمور یمکن استحضار الحاکم أو الاستغاثة به، ألا تری أنه إذا اجتمع مثلا اثنان فی مکان خال و بطش القوی منهما بالضعیف، أفیکون لصاحب الحکم عین باصرة، أو أذن سامعة للقصاص؟ فکم من قضیة جرت بین الناس و فاتت اجتهاد أهل السیاسة و الإیالة! و لکن إذا کان الناس یستحضرون خالقهم فی السر و العلن، و یخافون عقابه و یرجون ثوابه، کان لهم بذلک أعظم رادع و وازع، فاتصاف أمة بعدم الدین من أعظم ما یهین شرفها و یخفض قدرها.

و من ذلک أنه لم یزل دأبهم تغییر الحکومة و تبدیل السیاسة و أربابها و لم یخطر ببالهم قط أن یغیروا هذا الأسلوب السمج الشنیع، الذی یجری فی عبارات أهل السیاسة و الأحکام منهم، فإن فیه من التکرار و المواربة و الحشو ما یشهد علیهم أمام الله و الناس بأنهم اذوق لهم، و لا إلمام بشیء من الأدب. و من ذلک أنهم ینکرون علی أهل اللغات المشرقیة و خصوصا اللغة العربیة کثرة الاستعارات و الکنایات، مع أن لغتهم تطفح بهما طفحا، و لو لاهما لضاقت بهم العبارة عن تأدیة أکثر المعانی، و سیأتی الکلام علی ذلک بالتفصیل، و إنما أقول هنا إنّی لما أردت أن أترجم من قصیدتی التی مدحت بها الأمبراطور نابولیون قولی:

و لا تخلل وقت توأمی عدة له و إنجازها بل قلما سئلا

قال المصحح إن ذلک لا یکون مفهوما بلغتهم، و لو جاء بهذه الاستعارة أحد مؤلفیهم لحسبت من البلاغة بمکان. و من طبعهم فی التألیف و الکلام أن ینتقوا الألفاظ الجزلة الفخمة، یکسون بها سخیف المعانی فتسمع منهم جعجعة و لا تری طحنا، و هذا داء فاش فیهم أجمعین. و من ذلک أن نساء عامة الفرنسیس مع زهوهن و إعجابهن، إذ الزهو صفة لجمیع إناث هذا الجیل، تراهن یتعاطین من الأعمال الخسیسة ما تأنف منه أخس نساء الإنکلیز، و ذلک کتکنیس الطرق، و حمل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۰

الأحمال، و تنظیف الأحذیة، و صید السمک، و المناظرة علی المراحیض و نحو ذلک، و لا بد من أن تخاطب کل واحدة من هؤلاء الخسیسات المبتذلات بلفظة مدام. فأما الستّات المتترّفات من هذا الجیل، فالعزّة لله الواحد القهار، فإن ما نقص من مترفیّة سادة الإنکلیز و جلالهم و مجدهم تلقاه فیهن وافیا، فهن نساء صورة و شکلا، و رجال أمرا و نهیا. و حیث قد استوفیت الکلام علیهنّ فی کتاب الفاریق فلا حاجة إلی إعادته، و إنما أقول هنا إنّهن لا یعترفن بفضل الرجل علی المرأة، فإنهن یقلن إنّ الله تعالی لم یختصّ الرجل بمزیة إلا و عوض المرأة عنها بأخری، فجعل بین ذلک توازنا حتی تستتبّ الألفة و الوفاق بینهما، فمما اختص به الرجل القوة و الشدة لیمکنه تحمّل المشاق فی تحصیل أسباب المعیشة، فعوّض المرأة عنها بالصبر و التجلّد لمصالح بیتها و تربیة أولادها، و اختص الرجل ببسطة الجسم و المهابة، فعوّض المرأة عنها بفتنة الحسن و الروع، فمهما یکن الرجل متترّعا إلی السوء تردعه عنه من نظرات المرأة روادع. و اختص الرجل بطول النظر و الفکر فی العواقب، فعوّض المرأة عنها بالبدیهة العتیدة و بسرعة الجواب المقنع، و اختص الرجل بالشهامة و عزة النفس، فعوّض المرأة عنه بالتصاون و الحیاء و هکذا.

و یحکی عن إحدی الخواتین أنها استأجرت مقعدا فی بعض الملاهی، حیث أرید إجراء التمثیلة المعروفة بالبروفت، أی النبی. و کان الناس یتزاحمون إلی رؤیتها لأنها کانت أول لیلة، فاتفق أن مرض زوجها بغتة، فأقبل إلیها بعض أصحابها لیبدوا لها التأسّف علی حرمانها من الذهاب، و هی فی خلال ذلک تتأوّه و تفرک یدیها، ثم قالت إن هذا المخلوق لم یأت فی عمره کله إلا ما یغیظنی، و سترون الآن أنه یموت عمدا لیحرمنی من الخروج إلی الملهی. و فی الجملة فإن کل ما تفعله إحدی هؤلاء الخواتین فإنه یعجبها و أهلها و جیرتها و أهل المملکة أجمعین.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۱

مکانة الأمة الفرنسیة

و لا شیء یعجبنی من أحوال الفرنسیس أکثر من معرفتهم للناس، فإن هؤلاء الذین یمخرقون علی الإنکلیز لو أقاموا بین الفرنسیس سنین لم تکتسبهم مخاریقهم خرقة یسترون بها عورتهم أو رغیفا یفثأ صفرهم. و اعلم أن أمة الفرنسیس أمة قدیمة مشهورة مشهود لها بالفضل و التقدم فی المعارف و المساعی العظیمة، حتی أن أهل المشرق أطلقوا اسمهم أعنی الإفرنج علی سائر سکان أوربا، و کما أن بلادهم و لا سیما باریس لم تزل مقصدا للناس فی الکیاسة و الحضارة، کذلک ما برحت الممالک المشرقیة منتابا لهم، و لم تکن دولة من دول الإفرنج قبل استعمال البواخر تذکر بالنسبة إلیهم، نعم إن الإنکلیز اشتهروا فی الهند منذ أکثر من قرنین، إلا أنهم لم یکونوا یجولون فی بلادنا، و لم یکن یرد إلیها منهم غیر القناصل، و لکن لم تکد خاصیّة البخار تعرف عند الکیمیاویین حتی ملأت سفائنهم البحار، و أمتعتهم و بضاعتهم جمیع الحوانیت و الأسواق، و حینئذ عرف أنهم ذووا کد و اجتهاد، فأدرکوا من تقدمهم فی متقادم الزمن. و قد جرت العادة بأن سکان الجزر أبدا یکونون ناشطین إلی التجارة و الأسفار ضرورة أنهم لا یستغنون عن البرور الفسیحة، إلا أن الإنکلیز لا یتطبّعون بطباع أهل البلاد التی ینتابونها، و لا یتساهلون فیما یجدونه هناک من الأحوال المغایرة لأحوالهم و المباینة لطباعهم، بخلاف الفرنسیس، فإن بلاد الله کلّها لهم بلاد.

بعض من نبغ من الفرنسیس

و الذی زاد هؤلاء أیضا شهرة و نباهة هو أن نبغ أناس منهم تفرّدوا فی عصرهم بمآثر و مزایا لم یشارکهم فیها جیل آخر، فمنهم شارلمان فی العز و السطوة، فإنه دانت لعزه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۲

إیطالیا و جرمانیا، و کان فیصلا عند جمیع ملوک أوربا، قیل إنّه کان سعیدا کأغسطوس، و مقداما فی الحرب کادریانوس، و هو أول من أنشأ مشیخة للعلوم فی باریس، و کان هو من جملة أعضائها. و منهم لویس الرابع عشر فی المجد و الکرم، کان فی شهرته بالغرب نظیر هارون الرشید فی الشرق. و فی دولته نبغ کثیر من العلماء و الأدباء و الفضلاء، و ذلک کفینیلون مؤلف تلیماک، خطب فی الکنائس و هو ابن خمس عشرة سنة، ولد فی سنة ۱۶۵۱. و بوسوا الشهیر فی التاریخ و الفصاحة، ولد فی سنة ۱۶۲۷. و موللیر الشاعر البارع، ولد فی ۱۶۲۲. و بوالو و هو أیضا من الشعراء المفلقین، ولد فی سنة ۱۶۳۶. و راسین و هو بمنزلة شکسبیر عند الإنکلیز، ولد فی سنة ۱۶۳۹. و لا فونتین و هو و إن لم یحظ عند الملک إلا أنه کان من الفضل و العلم بالمکان الأعلی، ولد فی سنة ۱۶۲۱. و الأمیر کوندی جعل قائد الجیش و هو ابن ۲۲ سنة، و قهر جیوش إسبانیا و النمسا و هولند، ولد فی سنة ۱۶۲۱. و نبغ من قبله هنری الرابع الشهیر فی التدبیر و الإیالة، و قد مر ذکره، ولد فی سنة ۱۵۵۳. و منهم فلتیر فی العلوم و لا سیما فی التاریخ و الأدب وسعة الاطلاع و العبارة، ولد فی سنة ۱۶۹۴. و فلنی فی التاریخ و الأدب أیضا، ولد فی سنة ۱۷۵۷. و بوفون فی الطبیعیات، ولد فی سنة ۱۵۹۶. و دکرا فی الفلسفة، ولد فی سنة ۱۷۴۹. و دلامبیر فی الهندسة، ولد فی سنة ۱۵۹۶. و مونتیسکیو فی الفلسفة و الأدب و عموم و المعارف، ولد فی سنة ۱۶۸۹.

و نابولیون الأول و ناهیک باسمه واصفا، علی أن الإنکلیز الآن یتنافسون فی کل شیء یقال فیه إنّه فرنساوی، فإذا أرادت التجار منهم ترویج شیء من سلعهم کتبوا علیه فرنساوی، و کذلک أصحاب الملاهی یکتبون فی إعلامهم أن مدام کذا تلعب اللیلة فی الملهی، و موسیو کذا یحکی کذا، و ما تکون هذه المادام أو هذا الموسیو إلا منهم و فیهم. و لا تکاد تری شیئا فی باریس مروجا باسم الإنکلیز.

دور الفرنسیین فی التاریخ

و یمکن أن یقال إنّه لم تستتب فی الدنیا واقعة خطیرة إلا و کان للفرنسیس فیها ید، فإنهم هم کانوا سبب الحرب المعروفة بالصلیبیة

فی عهد السلطان صلاح الدین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۳

الأیوبی، و ذلک أن بعض ضباط الفرسیس المسمی ببطرس الأرمیت، أی الناسک، کان قد سافر إلی الأرض المقدسة فی سنة ۱۰۹۳، و اجتمع ببطرک أورشلیم فشکا البطرک ما تقاسیه النصاری هناک من جور المسلمین، فلما فصل عن المکان أصحبه بکتاب إلی البابا أوربان الثانی فجرّده البابا لأن یطوف علی ملوک النصاری، و یحرضهم علی القتال، فأخذت بقوله و هاجوا لارسال الجیوش، ثم قام من بعده راهب من بریتانی اسمه أرلوان ثم صان لویس، ألا و لو لا هم لم تستقل دولة أمیریکا بأمورها کما تراها الآن، و تفصیله أن دولة الإنکلیز کانت قد کلفت المستوطنین فی أمریکا من المکس و الضرائب ما لم یکونوا یعهدونه، و کان الحامل للدولة علی ذلک ما رکبها من الدین بسبب الحروب التی تقدمت کما یرد تفصیله، فلما بلغت الأوامر إلی بستان أو بستون تعصب أهلها علی أن لا یدفعوا شیئا مما لم تجر به العادة، ثم عقدوا مجلسا عاما، و رأسوا علیهم جورج واشنطون، و فوضوا إلیه التدبیر و الأمر. و فی سنة ۱۷۷۶ شهروا إنفصالهم عن الإنکلیز و بعثوا بنیامین فرنکلین إلی دیوان فرنسا لیعرض ما استقرّ علیه رأی القوم، و استنجدوا بالملک لویس السادس عشر، فأرسل لهم اثنتی عشرة بارجة من طولون، فتوجهت البوارج إلی رود و هی جزیرة کانت تدخر الإنکلیز فیها جهاز الحرب، فما کادت تصل إلی هناک حتی ثارت علیها الریاح العواصف فبادت عن آخرها. ثم ذهب من فرنسا لإعانة الأمیریکانیین کثیر ممن شهروا بالبسالة و النجدة أشهرهم لافایت، و کان قد بلغ من العمر عشرین سنة لا غیر، فلما وصل إلی هناک حظی عند واشنطون حظوة عظیمة، و وقتئذ اتفقت دولة فرنسا مع دولة إسبانیا بعد ما کان بینهما من المنافرة علی إعانة الأمیریکانیین، ثم أمدهم الجنرال روشامیو بستة آلاف من العسکر لاستخلاص جزیرة رود، ثم استخلصوا أیضا مدینة یورک، و استأسروا من الإنکلیز ثمانیة آلاف، و عندها تم انعقاد الهدنة بین الدول، و جری تحریرها فی باریس سنة ۱۷۸۲، انتهی ملخصا من فلتیر.

حروب و نفقات

قلت ثم اضطرمت الحرب بین الإنکلیز و الفرنسیس فقام الأمیریکانیون مقام من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۴

لا ضلع له مع أحد الفریقین، ثم اشتعلت أیضا بین الإنکلیز و الأمیریکانیین، و ذلک فی سنة ۱۸۱۲ فلم تنته إلا بعد ثلاث سنین. قال فی معجم الأوقات أصل حروب فرنسا التی تغلغلت فیها الإنکلیز نحو مائتی سنة نشأ عن أمراء نورماندی و هم ملوک الإنکلیز، فإنهم کانوا یضبطون هذا الإقلیم کأنه وقف لتاج فرنسا، حتی فتح ولیم الأول إنکلترة فصارت هذه الولایة ملحقة بها، و لکنها انسلخت عنها فی عهد الملک یوحنا، و ذلک فی سنة ۱۲۰۴، قال و قد تعددت حروبنا مع الفرنسیس و نصرنا علیهم نصرات متعددة. و فی عهد هنری الرابع طرد الإنکلیز من فرنسا، و بعد أن خرجت من یدهم بقیت الحروب تعاقب المهادنة، و المهادنة تعاقب الحروب مددا طویلة، فجملة ما وقع من الحروب بیننا و بینهم ثمانی عشرة حربا، و قد قضت الإنکلیز ستا و خمسین سنة فی الحرب، و اثنتین و ستین فی السلم، فصرفوا فی حرب سنة ۱۶۸۸- ۰۰۰. ۰۰۰. ۳۶ لیرة، و فی حرب إسبانیا اثنین و ستین ملیونا، و فی الحرب الثانیة معهم أربعة و خمسین ملیونا، و فی الحرب التی دامت سبع سنین مائة و اثنی عشر ملیونا، و فی حرب أمیریکا مائة و ستة و ثلاثین ملیونا، و فی حرب فتنة الفرنسیس أربعمائة و أربعة و ستین ملیونا، و فی حرب نابولیون ألفا و مائة و تسعة و خمسین ملیونا، فتکون جملة المصاریف فی مدة مائة و سبع و عشرین سنة، و ذلک من وقت الفتنة التی جرت فی سنة ۱۶۸۸ إلی آخر مدة نابولیون فی سنة ۱۸۱۵- ۰۰۰. ۰۰۰. ۰۲۳. ۲، و قد حسب بعضهم عدد القتلی من الفرنسیس فی ست وقائع فی حرب جرت بینهم و بین عسکر إسبانیا، فکانت ۰۰۰. ۶۰۰، و مثلها من أهل إسبانیا، و ممن کان یتحزب لهم. و بقیت أقطار البلاد عرضة للتخریب و المصائب من کل وجه. قلت و قد بلغت مصاریف حرب الهند فی هذه الأیام الأخیرة ۰۰۰. ۵۰۰. ۹.

حروب نابولیون و نهایته

أمّا نابولیون الأول فإنه دان له أکثر ممالک أوربا فقهر بروسیا و الروسیة و سوید حین تواطؤوا مع الإنکلیز علی حربه، و دخل مملکة بروسیة منصورا، فاجتمعت علیه دول الروسیة و أوستریا و بروسیا و غیرهم، ثم عنوا لطاعته فی مدینة درسدن، و کانت هذه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۵

خامس مرة تواطأت فیها الدول علی خلعه، ثم لم تمض برهة حتی حشد جیشا عظیما و توجه بهم إلی الروسیة، فلم یجد ممانعا له حتی بلغ مدینة المسکوب، فلما أشرف علیها هو و جنده تعجبوا من کثرة ما فیها من الکنائس و القبب المذهبة، إذ کان فیها نحو ۸۰۰ کنیسة فیها ألوف من الأجراس، فقال عند رؤیته ذلک: «هذه مدینة المسکوب ثمرة تعبکم و جهادکم من زمن طویل، و هی تکون خاتمة مساعیکم و أتعابکم». ثم إنّهم دخلوها فوجدوها خالیة علی عروشها، فإن ملکها کان قد أخلاها خدعة فظن نابولیون أن نصرته تحققت، و أن ملکه قد استتبّ فلبث فیها أیاما، ثم لم یشعر ذات یوم إلا و النار تضرم فی أطرافها، فلحقه من ذلک الفشل، فاضطر إلی إخلائها فلحق به جیش الروس، و ما کاد یتخلص منهم إلا- بعد أخطار شاقة. فلما رجع إلی باریس رأی أهل الشوری قد تغیرت خواطرهم علیه، فاضطر إلی أن یخلع نفسه و سار إلی جزیرة الألب، فخلفه فی الملک لویس الثامن عشر، لکنه أبدی من سوء التدبیر ما أمال خاطر بعض رجال الدولة إلی نابولیون، فجرت بینهم المکاتبة و المراسلة، ثم لم یشعر الناس بعد مدة إلا و هو یجول فی البلاد، و یحرض حزبه علی قتال العدو، و جعل یعدهم و یمنیهم، فمالت قلوب الناس إلیه فما برح سائرا حتی دخل باریس، ففرحت به رجال الدولة وفر منه لویس، ثم إنّه جمع جیشا عظیما و توجه لقتال الإنکلیز و بروسیة عند فلوروس، فانتصر علی جیش بروسیة فقتل منهم یومئذ ۲۲۰۰۰، إلا أن عساکر أعدائه کانت أکثر عددا من عساکره بأضعاف، ثم زحف إلی قتال الإنکلیز عند واطرلو، و کاد أن یظفر بهم لو لا أن تدارکتهم جیوش بروسیة، فأحدقوا بعساکره فلم یطیقوا الثبوت، و یومئذ تقطّعت به أسباب الآمال، فجعل یتلقی رصاص البادق و المدافع و هو کاشف صدره، و مع ذلک فلم ینله ضیر، فرجع منکسر الخاطر مهیض الجناح، فحکم أهل الشوری بخلعه، فعرض علیهم أن یقاتل العدو فی رتبة أمیر لواء فأبوا، فصمم علی أن یسیر إلی أمیریکا حتی إذا سار بشرذمة من حزبه إلی روشفورت، و کانت سفن الإنکلیز تطوف هناک أمسکوه و توجهوا به إلی جزیرة صانت هیلان و هناک قضی نحبه.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۶

تواطؤ الدول علی نابولیون

أمّا اتحاد بروسیا مع الإنکلیز فکان سببه أن نابولیون کان یرید أن یعطی مملکة هنوفر للإنکلیز فی مقابلة صقلیة، فهاجت حمیة ملک بروسیة علی نابولیون، و بلغ من غیظ زوجته أنها کانت ترکب و تدور فی شوارع المدینة و تحرض الناس علی القتال و هی متردّیة بلباس الجند، و وقتئذ تواطأت الدولتان و دولتا الروسیة و سوید علی نابولیون، إلا أنه غلب الجمیع حیث دخل قاعدة مملکة بروسیة منصورا مظفرا کما تقدم، فأما تواطؤ سائر الدول علیه، فإنما کان خوفا منه أن یستولی علی ممالکهم، إذ کان لا یرده شیء عما نواه، و وقتئذ سوّلت دولة الإنکلیز لملک الدانیمرک أن یواطئها علیه فأبی، فأرسلت بوارجها إلی کوبنهاک، فأطلقت المدافع علیها فهدموا منها ۳۰۰ بیت، و استولوا علی بوارجها و کانت ۵۳ بارجة، انتهی ملخصا من فلتیر.

من أبطال فرنسا

مورو

و من أبطال نابولیون المشاهیر مورو الذی قهر أمبراطور النمسا و بدّد عساکره، حتی اضطر إلی طلب المهادنة، فأجابه بشرط أن تنفصل دولة النمسا عن دولة الإنکلیز، فإنهما کانتا متواطئتین علی فرنسا. و سیأتی أیضا ذکر نابولیون عند ذکر الأمیر نلسون الإنکلیزی و غیره فی وصف لندرة.

جان دارک

و ممن تفرد فی البسالة و الحماسة من هذا الجیل أی الفرنسیس جان دارک الشهیرة، و کانت فی الأصل خادمة فی بعض الحانات، و کانت ترکب الخیل بلا سرج لجرأتها و قوتها، و تدعی أنها تقدر علی استخلاص فرنسا من ید الإنکلیز، فأحضرت بین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۷

یدی دوک دورلیان فی برج، ثم بعد أن علم أنها بکر، و أنه کان یوحی إلیها فوض إلیها أن تقود جیشا و تسیر بهم لاستخلاص أورلیان، و کانت حینئذ تحت حصار الإنکلیز، فلما بلغت البلد ألقت خطابا بلیغا علی من معها من الجیش و حرضتهم علی قتال الإنکلیز، فأخذتهم الحمیة و الحماسة، و تقدمتهم إلی القتال و بیدها رایة، فلم تمض ساعات حتی هزمت جیش الإنکلیز و استنقذت البلدة. قال فی أبجدیة الأوقات لما کان الإنکلیز محاصرین أو رلیان زعمت جان دارک بأن الله أوحی إلیها أن تطردهم منها، فقلدها شارلس الثامن تدبیر الجیش، فسارت بهم إلی الموضع المذکور و ذلک فی سنة ۱۴۲۹، و ضایقتهم حتی اضطرتهم إلی ترک الحصار، و استردت منهم عدة مدن کانت تحت یدهم و هزمتهم فی واقعة باتی المشهورة، و لم یکن أحد یجد فیها محلا للوم و القذف فإنها جرحت عدة مرار.

حکی و العهدة علی الراوی أنها لما کانت ذات مرة سائرة مع أبیها فی بستانه و هی بنت خمس سنین أبصرت حولها نورا ساطعا فی الهواء فالتفتت فرأت صورة الملک میخائیل رئیس الملائکة، فأوعز إلیها أن تکون مطیعة لما یجب علیها، و أن الله یحمیها، فلما سمع أبوها بذلک و کان رجلا شرسا عاملها بالعنف و القساوة حتی اضطرت إلی أن تفارقه، و تخدم عند أرملة صاحبة فندق، و هناک أبدت من صدق السعی و الإقدام علی الأعمال ما فطرت علیه، فکانت ترکب الخیل لتسقیها، و تسافر فی قضاء حاجة سیدتها من دون خوف، و کانت فی الصلاح علی أعظم من ذلک، قال المعلم سریس: إنّه کان علی طلعتها سیماء الحیاء و البهجة و اللین مع العزم و المضاء و کان کلامها سدیدا، و العفة قرینة أعمالها کلها. ثم إنها رجعت إلی بیت أبیها بعد خمس سنین و عادت إلی رعایة ماشیته حتی بلغت ثمانی عشرة سنة، و کانت أمور فرنسا إذ ذاک علی شفا جرف هار من البوار و الخراب، و کان قد بلغ الجاریة ما أصاب أهل بلادها من الضیم و ملکهم من الهزیمة و الفشل. و فی غضون ذلک رأت ما ألمّ بمعارفها من البؤس بسبب الحرب التی وقعت فی فرنوی، فکانت تبصر رؤی و تسمع أصواتا سماویة أکثر مما کانت تری و تسمع من قبل، إلی أن أرجف الناس بسقوط أورلیان فی ید الإنکلیز، إذ کانوا وقتئذ محاصرین لها، قال: فأبصرت الملک میخائیل و القدیستین کاترینة و مرغاریت یحرضونها علی أن تخصص نفسها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۸

لا- نقاذ بلادها، فقالت إنّی فلاحة مسکینة، و لا درایة لی بمثل هذه الخطوب، فأکد لها الملک أنها تعطی مقدرة و حکمة، و أنّ القدیستین تصاحبانها، و أن کل شیء یجری علی وفق المراد. ثم ظهرتا لها أیضا فی نور عظیم، و علی رؤوسهما تیجان بهیة مرصّعة و لهما صوت رخیم. و کانت البنت تذکر روایة جرت بین الناس مجری النبوة، و هی أنه کما أن خراب فرنسا نشأ عن امرأة شریرة، أعنی إیزابلا من بافاریا، کذلک یکون استردادها علی ید بنت غیر ذات عیب، تتجرد لا نقاذ بلادها، و أنّ هذه المنقذة تأتی من جهة بواشنو، ثم کثر توارد الأصوات علیها، و کثر حثها لها حیث کادت أمور فرنسا تختل بالکلیة، و أوشکت أن تکون فی البحران. و أشارت إلیها أنها هی تلک البکر المعنیة، فاستحوذ علیها الکرب و الکآبة، و کانت کثیرا ما تری باکیة عند مفارقة الرؤیا لها، و کان أبواها لا

یصدقان بما ترى، فأرادا أن یزوجاها منعا لها عن الخروج مع الجند، فأعرضت عن عرضهما حیث کانت قد نذرت البتولیة. و اتفق وقتئذ أن جماعة من الإنکلیز مرّوا بقریتها فنهبوها و أحرقوا الکنیسة، فاضطرت إلی الفرار مع والدیها، فلما رجعوا و رأت ما نزل بالقریة اشتد غیظها و جأشها، فأمرتها الأصوات بأن تذهب إلی بعض الحکام فی ذلک الجوار، و تطلب منه أن یوصلها إلی الملک، و أنها إن لم تفعل ذلک تعدم خلاص نفسها، و أنها حین تمثل فی حضرته تخبره بأنها أرسلت لکف حصار أورلیان، و لتتویجه فی رام. فقصدت الحاکم و طلبت مقابلته فأبی أولا أن یراها، فما زالت تلحّ علیه حتی أذن لها، فلما دخلت نظر إلیها نظر المزدری، و أمر خالها بأن یردها إلی بیت أبیها، و أن تجلد، فقالت له:

- إنّ ذلک عمل سیدی، و لا بد من انجازه.

قال:

- و من سیدک؟

قالت:

- رب السماء.

فأیقن بأنها مجنونة و صرفها، فلبثت فی تلک الجهة. و کانت تبتهل فی کل یوم و تقول إنّ الأصوات تلح علیها بانجاز العمل، فشاع خبرها فی البلد، فکانوا یهرعون إلی رؤیتها و یعجبون من تقواها و حسن سیرتها، فأرسل إلیها أحد الأمراء أن تأتیه

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۷۹

و تشفیه من داء به، فأرسلت تقول له: إنی لم أبعث إلیک، و إن الأصوات لم تذکر لی اسمک، و فی جمیع هذه الحوادثکانت أفعالها علی و کلامها علی حد سوی، و کانت مالکة هوی نفسها فلم تکن تبدئ شیئا من الجفاء أو السرف، و کان ذهنها یزید صفاء و توقدا، و لم یکن لها مآرب سوی إغاثة أورلیان و تتویج الملک. فعرض علیها أحد الرهبان أن یعضدها بامرأة زعم أن لها قدرة علویة فوق الطبیعة، فقالت له:

لا حاجة لی بها، ثم قالت: من حیث إن الحاکم لم یکترث بی فإنی أذهب إلی الملک وحدی ماشیة، إذ لیس أحد من الملوک یغیث فرنسا حتی و لا بنت ملک سکوتلاند، فما من إغاثة إلا بی، علی أنی لو خیرت لاخترت المقام بدار أبی، و الغزل بإزاء أمی، ثم ألحّ الناس علی الحاکم بأن یجیبها إلی ما طلبت. قال و بعد أن رشّ علیها القسیس الماء المبارک و اختبرها، و علم أنها لیست بساحرة أرسل معها بعضا من خواصه، فسافرت فی شهر شباط من سنة ۱۴۲۹، و کان الملک بعیدا عن ذلک الموضع مسافة مائة و خمسین فرسخا فی أقطار مشجونة بالحرس و العسس و المحاوف، فرکبت الجواد فی زی رجل، و تقلّدت السیف، و طمّنت قلوب السائرین معها، فجابوا تلک النواحی من دون أن یصادفوا أحدا من الأعداء، حتی إذا أشرفت علی مقر الملک بعثت من یخبره بقدومها، فلما سمع بذلک اندفع فی الضحک، و إن کان وقتئذ فی حالة یصدق علیها قول من قال «إنه یتعلّق بحبال الهواء» فأشار علیه بعض وزرائه أن یقابلها، و سخر منها الآخرون و ظل رجال الدیوان ثلاثة أیام فی هذه المذاکرة، و الملک لا یدری بأیها یجزم، إلی أن قرّ الرأی أخیرا علی أن یؤذن لها فی الدخول. و لأجل أن یختبرها تزیا بزی رجل من العامة، و جعل أحد خواصه فی زیه، فلما دخلت خرقت صفوف الحشم و التبع حتی وصلت إلیه، و جثت بین یدیه، و قالت:

- ملّاک الله بالعمر، أیها الملک الحلیم.

فتعجب و قال لها:

- لست أنا الملک، و إنما ذاک.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۰

و أشار إلی الوزیر، فقالت:

– باسم الله لیس الملک إلا أنت. أنا جان العذراء أرسلنی الله إلیک لأغیثک و المملکة، و عن أمره أبیّن لک أنک تتوّج فی مدینة رام.

فأخذها الملک ناحیة، و بعد أن ذاکرها هنیهة قال:

– لقد أطلعتنی علی أمور لم یکن أحد یعرفها إلا الله تعالی و إلا أنا، و إنّی أول من صدّق بأنها أرسلت لإنقاذ المملکة.

و قال فلتیر فی کتابه الذی سمّاه «لا بوسل درلیان» إن الملک سألها عمّا جری بینه و بین محبوبته فی تلک اللیلة، و لعلّ ذلک تهکم منه علی عادته. قال الراوی و فی الغد القابل رآها الناس علانیة علی جوادترکضه و تضبطه أحسن ما یکون، و کانت تعتقل الرمح، و تبدی من الفروسیة ما لم یعهد لغیرها، و کانت مهفهفة القوام و لها شعر أسود مسترسل علی کتفیها، و عمرها فی حد سبع عشرة سنة، فعجب الناس لما شاهدوها علی هذه الحالة، و هتفوا بأصوات عالیة تنبئ عن تصدیقهم لها، غیر أن الملک م یستحلص سریرتها، فأمر بأن یمتحنها جماعة من الأطباء و المتکلمین، فألقوا علیها مسائل صعبة مدة ثلاثة أسابیع، و حاولوا أن یعرقلوها بالکلام، و کان ذلک عبثا فإنها أصرت علی قولها الأول، و هو أنها إنما أرسلت لکف حصار أورلیان و تتویج الملک فی رام، و کانت وقتئذ بید العدو، و لم تزد علی هذا شیئا، فاقترحوا علیها آیة فقالت: فقالت أرسلونی إلی أورلیان مع جماعة من العسکر تعلموا حقیقة ما أقول، أعنی کف الحصار. و کانت حین تنصرف من عندهم تقضی أوقاتها بالدعاء و الخلوة، حتی إذا فرغوا من إلقاء المسائل علیها علی أنواعها، و نضحت بالماء المبارک عادت متسلحة من الرأس إلی القدم فی زی الفرسان الأقدمین، فکانت ترکب الجواد و رایتها أمامها و الرمح بیدها، و تبدی من طرق الفروسیة ما یعجب الجیش، و کان أهل أورلیان إذ ذاک فی کرب شدید، و کانوا قد سمعوا بخبر الفتاة فأرسلوا یطلبون مددا، و التمسوا بأن تکون الجاریة علی رأس الجیش فطلبت أن تعطی سیفا قدیما، زعمت أنه موضوع فی قبر فی کنیسة القدیسة کاترینة، فبحث عنه و سلّم لها فتقلدته، و سارت مع جماعة من مشاهیر ذوی الأمر و النهی بفرنسا، و أول ما بلغت المعسکر طردت منه النساء الدنیئات اللائی کنّ یصحبنه، و حتّمت علی کل جندی بأن یعترف،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۱

و یتناول. ثم سارت بالجیش إلی أورلیان، و سار صیتها بین یدیها، فاستقبلها الإنکلیز أولا بالاستخفاف و الاحتقار، ثم بالخوف الحفی، و أخیرا بالرعب الذی تمکن فیهم، فکانت تأمر الجیش بالتقدم علی مقتضی تبلیغ الأصوات. و اتفق مرة أنها أمرتهم بالزحف علی البلد من جهة یمین الشط، إلا أن أحد الضباط ممّن لم یکن له إعتقاد بها أنزلها فی فلک هی و الجیش، و أخذ جهة الیسار مخافة أن یقابل المحاصرین من الإنکلیز فی الجهة التی رسمت بها، فثارت علیهم ریح عاصفة اضطرتهم إلی الرجوع، و إلی أن یأخذوا عین الطریق التی أمرتهم بها. أما أهل البلدة فحیث کان قد بلغ الضنک و الجوع منهم کل مبلغ استقبلوها بالمشاعل و الإکرام، و احتفلوا بها غایة الاحتفال لاعتقادهم أن نجاتهم تکون علی یدها، و صنعوا لها ولیمة فاخرة لکنها أبت أن تنال منها، و آثرت أن تتعشّی فی دار خازن مال الملک علی الخبز مبلولا بالخمر.

فاستحوذ الرعب علی الإنکلیز، و کانوا قد سمعوا مذ شهرین بأنها قادمة لمحاربتهم حیث کانت کتبت إلی رئیسهم تنذره بأن الله أمرها بطردهم من فرنسا. و اختلفت فیها الآراء و المذاهب فاعتقد الفرنسیس بأنها رسول من السماء، و اعتقدت الإنکلیز بأنها رسول الشیطان، ثم قالوا إن تکن من البشر فنحن لا نخاف بشرا، و إن تکن من الشیطان فلا قبل لنا بها. فاجتهد رؤساء عسکرهم فی إزالة هذا الوهم الذی أثّر فی الجیش بقولهم إنها دنیئة الأصل و جاهلة، و إن هی إلا آلة استعملها الفرنسیس لیهوّلوا بها علیهم، و لکن کان ذلک عبثا فإنهم اعتقدوا أنها من أعظم السواحر، و رسخ تأثیر ذلک فیهم فکانت حیثما تظهر تفر منها عساکرهم، فجعل الفرنساویون یدخلون و یخرجون بلا مانع. و زحفت مرة علی الإنکلیز و هی راکبة جوادها الأبیض و أمامها رایتها البیضاء و وراءها جوق من القسیسین یرتلون فغشیهم من الدهشة و الرعب ما غشیهم، ثم نصبت سلالم علی برج طورنل، و ارتقت فیه ودعت من کان فیه من عسکر الإنکلیز إلی أن یخلوه أو یحیق بهم شر، فشتمها أحد الأمراء و عیّرها رعایتها البقر، فقالت له: بئس الفارس أنت إنک غیر جائز من هنا، إنما أنت

مقتول، ثم أمرت جندها بأن يهجموا هجمة واحدة، و كانوا حينئذ قد نشّموا فی الحسد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۲

لها، فواعدوها إلى غد ليكون الفخر كله لهم، فانصرفت لتستريح، فما هو إلا أن نزعت درعها حت نهضت و لبسته و قالت: قد أمرتنی الأصوات بالقتال فالبدار البدار. ثم لما أقدمت رأت الفرنسيس مرتدين على أعقابهم، إذ كانوا هجموا من دون علمها و قد هلك منهم كثير، فاشتد غيظها، و تقدمت الجند بنفسها، و أخذت تحض على صدق الحملة فاستخلصت ثلاث قلاع، ثم سارت إلى برج طورنل، و تهددت جميع من يخالفها بالعقاب فواطؤوها حينئذ مواطأة رجل واحد، و هجمت عليه فمانعها الإنكليز ممانعة قوية فلم ينقص ذلك من عزيمتها شيئا، و أعلنت أن الله قد سلّم الإنكليز ليد الفرنسيس، ثم أخذت سلّما و ركزته عند حضيض البرج، و الرمى عليه متواصل، و أخذت فی الارتقاء فأصابها سهم نفذ فی درعها ما بين صدرها و كتفها، فانطرحت فی الخندق فأهلّ الإنكليز من فرحهم، و ظنوا أنها ماتت. ثم حملت إلى المقدمة و أخرج منها السهم فأفاقت و جثت تصلّی، ثم عاد إليها نشاطها فنهضت و قالت: ليس ما قطر منی دما و إنما هو ظفر، و إن الأصوات تدعونی إلى إتمامه، ثم استأنفت القتال بأشد صولة و أمنع بأس، فلما بصر بها الإنكليز فشلوا و خاروا فقتل منهم يومئذ ستة آلاف رجل من جملتهم ذلك الأمير الذی سبّها و غيره ممن أنبأت بهلاكهم. فعقد أحد قواد الإنكليز المسمى صفولك مجلس مشورة، و فاوض أصحابه فی الحرب، فلما رأوا هلع الجند عزموا على كف الحصار، حتى إذا كان اليوم القابل جمع الجند كلهم و عبأهم للقتال، و أوهم أنه يبدی ممانعة و مغالبة، و هو فی الواقع منسحب بالجيش، ثم بعث إلى الفرنسيس أن ينازلوه بأنثاهم سواء كانت فاجرة أو نبيّة أو ساحرة، فرسمت الجارية على العسكر بأن لا يفارقوا البلد لأنه كان يوم الأحد، و أن يقضوا النهار بالعبادة لله الذی نصرهم، فانتظر صفولك ساعات فلما لم يأته أحد أحرق البرج و ما حوله، و انسلّ بعسكره، فنهت الجارية جندها عن أن يعقبوهم، و عند ذلك أسرعت للقاء الملك فی بلوی، و كانت فی ممرها تزدحم عليها القرى لمسّ قدمها أو ثيابها، أو فی الأقل لمسّ جوادها، فاستقبلها رجال الديوان الإكرام، و أمر لها الملك بمأدبة فقالت له: ليس الآن وقت القصف و الرقص و اللذات،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۳

فإنّ علیّ أن أسعى لفرنسا و مدتی قريبة، لأن الأصوات أنذرتنی بأنی أموت بعد سنتين، ثم دعته ليتقدم معها إلى رام لتتوجه، و تترك الإنكليز فی يد الله، فتقدم الملك بمن عنده من الجند حتى وصل إلى لوار، ثم ارتأى أن يخرج الأعداء أولا من المعاقل و الحصون ليأمن السير إلى تلك الطيّة، فسارت بالجيش إلى جارجو حيث كان صفولك مخيما بعسكره فقاتلهم عشرة أيام حتى استولت على المحل عنوة، و قبضت على صفولك أسيرا، و كانت هی أول من ارتقى فی السلّم، و عند بروز رأسها بادرها أحد الجند من داخل الحصن بضربة جندلتها فی الخندق، فصرعت حتى لم تقدر على النهوض، و ألمت جدا لكنها كانت تصرخ و تقول: تقدّموا يا رجال، و لا تخافوا شيئا، فإن الرب سلّمهم ليدنا. فدخلت الحميّة فی قلوب الجند لبسالتها و ثقتهم بكلمتها، فهجموا هجمة شديدة و استولوا على البلد، فقتل من الإنكليز يومئذ ثلاثمائة رجل، فلما بلغ الخبر مسامع الأمير طلبو الإنكليزی أخلى جميع البلدان و انصرف إلى باريس، ثم سارت إلى باتی فتلبّث جندها هناك ينتظرون مددا من الفرسان، فقالت لهم: دعوا التلبث و أقدموا فليس عليكم إلا أن تضربوهم. ثم زحفت عليهم، فلحق الفشل بالعدو من كل وجه، مع أن رماتهم كانوا من أحذق الرماة، و لطالموا أثخنوا الفرنسيس، فقتل منهم فی ذلك اليوم ألف و مائتا رجل، و كان حزب كبير من القسيسين ينتظرون الملك و الجارية ليوصلوهما إلى البلد. و فی الخامس عشر من تموز سنة ۱۴۲۹ سارا، و معهما رؤساء الضباط و القواد، و بعد يومين توّج الملك فی الكنيسة، ففرح الناس، و استبشروا بطيب العيش و الراحة، و تمكّن إعتقادهم بها، فكانوا يرون حول رايتها حيثما سارت أسرابا كثيرة من الفراش الأبيض البهيج، و بهذه الراية كانت واقفة على رأس الملك عند التتويج، و لمّا فرغ من تتويجه جثت عند قدميه و عانقتهما و هی باكية و قالت: الآن تم سعيی و كل ما وعدت به باسم الله فقد أنعم به، فألتمس من الملك أن يطلقنی الآن لأذهب إلى بيت أبی، و أسير سيرتی الأولى، فأبى الملك ذلك إذ رأى أن خلاص الأمة متوقف عليها، و أنها فعلت فی الزمن القصير ما لا يفعله غيرها فی الزمن المديد، إلا أنها

من تلک الساعة تغیرت أحوالها بالکلیة، فإن الروح فارقها، و انقطعت عنها الأصوات، و ذهب عنها ذلک الرأی الرشید، و استحوذ علیها الغم و الابتئاس. فکان إذا طلب منها أن تقضی أمرا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۴

تضطرب أفکارها فیه، و إذا أمرت بشیء ترتاب و ترجع فیه، فأعادت الالتماس من الملک و هی جائشة النفس شکری العین لأن یأذن لها فی الانصراف لأن عملها قد تم. و کانت قد علّقت دروعها فی کنیسة رام إشارة إلی أنها قضت ما وجب علیها، فأشار علیها الملک بأن تلبسها فامتثلت أمره، إلا أن ضباط العساکر حینئذ کانوا قد أضمروا لها السوء حسدا، فصاروا یشنّعون علیها و یسیئون معاملتها، و أغروا العساکر بأن تنبزها بالألقاب الذمیمة، لا بل حاولوا أن یهتکوا حجابها لیفضحوها بین الناس، و یکفوا کلمتها عنهم، فردّتهم أقبح الرد، و لم یکن یجالسها سوی النساء العفیفات، و لا تنام إلا و معها امرأة فی الفراش. ثم أشارت علی الملک بأن یتوجه إلی باریس، فسار و عنت له بلدان عدیدة حتی وصل إلیها، و أمر بالهجوم علی «فوبور دو صانت أونری»، فجرحت البنت هناک، و صرعت عدة ساعات، ثم قامت و علّقت دروعها مرة أخری، و طلبت من الملک الانصراف فأبی، و وعدها بأن یرقیها فی رتبة شریفة، و یجری علیها وظیفة الأرل و أن یعفی قریتها من الخراج أبدا فأجابت إلی ذلک. ثم فی تلک الأثناء قام راهب یسمی ریشارد، و معه امرأة زعم أنها نبیة، و أخذا یحثان الناس علی جمع المال إمدادا للملک، فأبت جان أن تواطئهما و قالت: إنما النجاح علی أسنة الرماح. و فی سنة ۱۴۳۰ سارت بأمر الملک لکف الحصار عن کومبان، و کان علیها دوک برغندی، فسارت علی عادتها فی الإقدام و البسالة إلا أنها لما أوقعت بالمحاصرین خذلها أتباعها، فلما قاربت باب المدینة رماها أحد الرماة فوقعت علی الأرض، و استسلمت للأمیر فندوم فذاع خبر أسرها فی جمیع الأمصار، فوردوا ینظرون إلیها، و خذلها الملک لؤما منه، و لم یسع فی افتکاکها، ثم باعها فندوم للکسمبوروغ و باعها هذا للإنکلیز بعشرة آلاف فرنک، و تخلّی عنها معارفها و تواطأ الناس علی إحراقها کساحرة. و کان أهل باریس یشمزون من ذکرها، حتی إنهم أحرقوا مرة امرأة لقولها إنّ جان رسول من السماء. و فی الثالث عشر من شباط سنة ۱۴۳۱ أقیمت علیها الدعوی، فأحضرت فی الدیوان ست عشرة مرة، و ألقیت علیها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۵

المسائل المعرقلة الرابقة من کثیر من القسیسین و فقهاء الشرع و الأطباء، و کانوا زهاء مائة و بذلوا کل ما عندهم من الدهاء فی أن یتصیدوها بکلمة تدل علی أن فعلها الذی فعلته کان بقوة الشیطان، فلم تنطق بشیء کما توقعوا، و لبثت صابرة متجلدة و هی تقول: إن الله هو الذی قیضها لذلک حتی أفحمت قضاتها غیر مرة، فسألوها عن الکنیسة فقالت: إنّی مازلت مواظبة علی العبادة فیها و لکنی کنت أطیع الأصوات حین کانت تأمرنی بشیء مخالف لها، فحکم علیها أهل الدیوان بأنها مبتدعة، و صوّب ذلک أهل مجلس الشوری و المدارس و الأساقفة، فلما صدر الحکم بسجنها أخذ الرهبان یترددون علیها و ینذرونها هول یومها. ثم أخرجت یوما و جعلوا یقبّحون علیها فعلها و یشنّعون علی الملک، فعند ذلک ثارت حمیتها إلی تبرئة الملک و المناضلة عنه، فحکم علیها بالسجن المؤبد، و أن تقتات بالخبز و الماء فقط، ثم حکم علیها أن لا- تتردّی بلباس الرجال، و هدّدت بأنها إذا خالفت ذلک یوجب علیها القصاص بالموت، ثم کادوا لها مکیدة و هی أنهم کانوا ینزعون عنها ثیابها عند النوم، و یضعون مکانها ثیاب الرجال، فکانت إذا رأتها تلبث فی الفراش إلی أن تضطر إلی القیام فتلبسها إذ لم یکن عندها شیء غیرها. و بینما هی کذلک ذات یوم إذ هجم علیها الحراس و استاقوها و هی فی هذا الزی إلی الضابط، فحکم علیها بأنها حنثت فی یمینها، و أنها جدیرة بالإحراق، ثم أعیدت إلی السجن فأقرت لله بذنب ضعفها و فشلها فی کونها لم تصرح غایة التصریح بأن الله هی التی ساقتها لعمل إرادته فی إنقاذ فرنسا، فعاودتها الأصوات فامتلأت عند ذلک شجاعة و رأت رؤی بهیّة إلا أنها حین أخرجت و رأت ما أعد لها من العذاب المهول خارت قواها، فسیقت إلیه و هی تئن و تتأوه. ثم أضرمت النار، و أدخلت فیها، فجعلت تدعو إلی الله و تبتهل حتی إنّ عدوها الکردینال بوفور لما شاهدها علی هذه الحالة لم یطق بعد أن ینظر إلیها، فقام عجلا هو و من کان معه من الأساقفة، و الدموع منحدرة من مآقیهم، و

کان إحراقها فی الثلاثین من شهر أیار من السنة المذکورة، فی موضع یقال له لابلاس دولابوسل أی موضع البکر، و ذری رمادها فی نهر السان، ثم بعد عشرین سنة قام مطران باریس و مطران رام فنقضا الحکم الذی جری علیها و أثبتا براءتها.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۶

تعقیب

قلت قد وجدت هذه القصة المحزنة فی تاریخ بلاد الإنکلیز فنقلتها بتمامها لغرابتها، ثم وجدتها فی کتاب آخر مرویّة بعبارات مخالفة لما تقدم بعض الخلاف، و لا غرو فإنه لا یکاد راویان یتفقان علی رأی واحد، و کیفما کان فإن ما جری علی هذه الفتاة التی تفردت بهذه المزایا الحسنة یبقی معرة و خزیا علی أسماء جمیع الذین تسببوا فی إهلاکها سواء کانوا من الفرنسیس أو الإنکلیز، علی أن موتها لم یفد الإنکلیز فائدة کبیرة، لأن أهل فرنسا إذ ذاک کانوا قد تنشّطوا إلی مغالبتهم و مقاواتهم بعد أن ذاقوا طعم الفوز و الظفر، و سری فیهم روح الحمیة للذبّ عن أوطانهم.

و بما ذکر تعلم أن الناس فی ذلک العصر کانوا متسکعین فی ظلام الجهل و الوسواس، فکانت الأساقفة و أهل المدارس أقل کیاسة من عامة هذا العصر. قلت و لو لا نابلیون هذا العصر لم یبق للبابا کرسی برومیة و لم یقف فی وجه الروس واقف، و ذلک مستغن عن البیان.

و لم یقم أحد فی بلاد الإفرنج کلّها من برع فی اللغتین العربیة و الفارسیة مثل البارون دساسی، و لم تقم إمرأة تؤلف الکتب النفیسة مثل مادام جورج ساند، و لیس الآن من شاعر فی أوربا یقارب طبقة دو لامرتین، و لا من مؤلف ینظر بأوجان سو، أو بالکسندر دوماس، فهذه بعض درای جیل الفرنسیس الغابرة و الحاضرة التی بزغت فی أفق المعالی، و لم یکن لها فی عصرها ند و لا مثیل، علی أنه لا ینکر أیضا أن قد نبغ من الإنکلیز و غیرهم کثیر من الفلاسفة و الحکماء و العلماء و الأدباء، ممن أشرق بهم الزمان و لهج بحمدهم اللسان.

ما یمیز باریس عن لندرة

ثم أقول أیضا إنه قد ظهر لی علی قدر ما أدرکته أن کثیرا من المصالح فی باریس أحسن استتبابا و انتظاما منها فی لندرة، أمّا «أولا» فإنی مکثت فی هذه نحو ثلاثین شهرا و لم أسمع عن بیت فیها أنه احترق إلا مرة فقط، و فی لندرة لا تکاد النار تخمد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۷

عن إحراق دار أو دکان أو معمل و نحو ذلک، ففی سنة ۱۸۵۶ وقع فیها و فی ضواحیها ۹۵۷ حریقة، منها ۳۹۳ حریقة کانت متلفة جدا، و بلغ عدد الحرائق فی فرنسا کلها فی مدة ثلاث سنین، و ذلک من سنة ۱۸۶۴ إلی آخر سنة ۱۸۵۶- ۰۳۸. ۲۲، نعم إنّ دیار باریس هی من الحجر، و دیار لندرة من الآجرّ، غیر أنّ أثاثهما من جوهر واحد.

و «الثانی» أنه لا یعرف فی باریس تداول نقود زائفة أو کواغد بنک مزورة، و فی لندرة کثیرا ما یقع ذلک، و إذا دفعت إلی تاجر فیها قطعة من الفضة أو الذهب فلا بد و أن یختبرها.

«الثالث» أن ارتکاب القتل فی باریس بالنسبة إلی لندرة نادر جدا، لا سیما الآن حیث أجازت دولة إنکلترة للخلعاء و المنفیین أن یرجعوا إلی بلادهم بعد انقضاء مدتهم.

«الرابع» ثقب الدیار و الحوانیت و الطرّ و الاختلاس من الدیار و المحترفات و الدواوین، و لا سیما البوسطة فهو علی نسبة القتل.

«الخامس» العوارض التی تحدث للمسافرین فی الأرتال، فإنها فی بلاد الإنکلیز کثیرة، و ألحق بها أیضا العوارض التی تحدث فی طرق المدینة بمرور الحوافل و العواجل و سائر أنواع المراکب.

«السادس» المضار التی تحدث من بیع السم و المسبت و المأکولات المنتنة و المشروبات الکریهة فإنها فی لندرة بلیّة من بلایا الله، و ألحق بذلک رخصة العطارین و الصنادلة فی بیع الأدویة من دون وصف الطبیب، و بیع المفاتیح لأیّ ما کان، و فی باریس یجب علی المحتسبین أن یسعّروا الأصناف و یختبروا الحلیب و الخمر و الدقیق و اللحم و السمک و ما أشبه ذلک، علی حین غفلة من الباعة، فإذا وجدوها مغشوشة أو فاسدة غرّموهم و شهروهم فی صحف الأخبار، و لا یباح أیضا بیع الفاکهة فجّة، و ذلک کله فی لندرة موکول إلی إرادة الباعة فلا تکاد تجد شیئا خالصا، حتی أن الجنازة فی باریس مسعّرة من الدیوان، فأقلها خمسة فرنکات و أغلاها ۳۶۸. ۳ کذا فی غالنیانی.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۸

«السابع» تولیة المراتب من یستحقها، فإن دولة فرنسا لا- تولی جاهلا- مربة إلا ما ندر، فأما عند الإنکلیز فتولیة المراتب إمّا تکون بالمحاباة و الاختصاص، أو بتعریضها للبیع، و هذا الأخیر مستفیض فی مراتب العساکر البریّة، و مازال الناس یمنّون أنفسهم بإصلاح هذا الخلل، و ما برح کتّاب الأخبار ینددون به و ینصحون أرباب الأمر و النهیّ بتلافیه.

«الثامن» ترتیب الشرطة حیث یزدحم الناس کالملاهی و المراقص و مواقف سکة الحدید، فإن أکثر هذه الأماکن فی لندرة لا یکون فیها شرطی أو یکون وراء الباب، فتری الناس یضغط بعضهم بعضا عند دخولهم الملهی، و غیر مرّة رأیت نساء یغشی علیهنّ فی الزحام، و غیر مرة یموت عدة أولاد، و منهم من یستهزئ و منهم من یضحک، و فی داخل الملهی تری الأوباش یصفرون و یزیطون و لا- وازع یردّهم، فأما فی باریس فلا- یخلو مکان من أحد هؤلاء الشرطة، و تری الناس فی الملاهی ساکتین منصتین فکأنما هم فی الکنیسة، و مع ذلک فإن الإنکلیز یفتخرون بقولهم إن «جون بول» لا- حاجة له بالشرطة، لأنه مطبوع علی الترتیب، و هیهات فإن أوباشهم أرذل خلق الله.

«التاسع» تعهد دیوان المدینة بما فیه حفظ الصحة و بسط النفس و راحة العباد، فیدخل فی ذلک ترتیب المستشفیات فهی فی باریس أحسن و أنظف، و المقابر فهی هناک لا- تکون إلا خارج البلد، و فی لندرة کانوا یدفنون الموتی فی ساحات الکنائس، و لم تبطل هذه العادة إلا منذ ثلاث سنین فقط، ثم المناصع و هی المواضع التی یتخلّی فیها الإنسان للبول، أو لقضاء الحاجة، فالأولی فی لندرة قلیلة جدا علی رداءتها، و الثانیة معدومة رأسا. ثم تنظیف الطرق، فإن طرق لندرة عند وقوع الأمطار تکون لکثرة المارین و حلة للغایة، و لیس من یری فی ذلک مشقة و لا شیئا، ثم وجود مقاعد یستراح علیها، ففی باریس کلّما أعیا الماشی وجد دکّة أو مصطبة یجلس علیها، و فی لندرة لا یمکن للإنسان أن یقعد إلا فی بیته أو فی محل قهوة، و بئس ذلک مقعدا.

ثم التطریب بآلات الموسیقی، ففی باریس تضرب العساکر بهذه الآلات فی عدة مواضع و خصوصا فی الآحاد و الأعیاد، و فی لندرة لا شیء من ذلک، و قد عزف بها بعض أیام فی إحدی الغیاض المنتابة فأبطلها رئیس المطارنة بدعوی أنها مناقضة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۸۹

لنص الإنجیل.

«العاشر» وجود دکاکین فی باریس فی أی موضع کان، سواء کانت للأکل أو الشرب أو غیر ذلک، و فی لندرة جمیع الحارات التی یسکنها الکبراء و الأغنیاء خالیة من الدکاکین. فإنهم یرسلون خدمتهم إلی الأسواق لیشتروا منها ما یلزم، أو تأتیهم المؤنة مرتبة من عند أصحاب الدکاکین.

«الحادی عشر» النظر فی أمر المومسات فإنهنّ فی باریس یمتحنّ فی کل أسبوعین، فإذا رأی الطبیب إحداهن مریضة بالداء المعروف، أرسلها إلی المستشفی لتتداوی هناک، فلا تخرج منه إلا بعد أن تشفی، فأما فی لندرة فقد تطوف المومسة و الداء أفسد آرابها و أحشاءها، فیمکن أنها فی لیلة واحدة تعدی جمعا، و لا جرم أنه حیث کانت هذه المفسدة فی المدن الجامعة مما لا یستغنی عنه، و کانت هؤلاء المتهالکات علی الدینار وقایة لعرض الحرائر، کان النظر فی أحوالهن یعدّ من المصالح، و لا سیما إذا أبیح لهن التطواف

آناء اللیل و أطراف النهار کما هو الواقع فی لندرة، أمّا فی باریس فلا یباح لهن التطواف فی اللیل بعد الساعة العاشرة.

«الثانی عشر» إباحة استعارة الکتب من المکاتب الملکیة فی باریس، فإن المعروفین عند ناظر المکتبة یمکن لهم أن یستعیروا کتابا لیطالعوه فی بیوتهم و یستفیدوا منه، و فی لندرة لا یباح ذلک.

«الثالث عشر» سهولة تحصیل العلم و الصنائع، أمّا الأول فلکثرة المدارس، و حسن ترتیبها، و رخصها بالنسبة إلی غیرها، حتی إن الإنکلیز یبعثون أولادهم إلی باریس لیتعلموا فیها ما یعسر علیهم تحصیله فی بلادهم. و أمّا الثانی فلأن الأب إذا شاء أن یعلم ابنه حرفة اتّفق مع أحد الصنّاع علی أن یبقیه عنده ثلاث سنین، ففی أول سنة یعطیه شیئا فی مقابلة التعلیم، و فی الثانیة یکون شغل الولد مقابلا لتعلیمه، و فی الثالثة یبتدئ أن یکسب شیئا. و فی لندرة یلزم المتعلم أن یبقی عند معلمه سبع سنین و مصروفه فی خلال ذلک ثقیل علی والده.

«الرابع عشر» الحمایة الجنسیة، فقد أسلفت لک أن حمایة الإنکلیز لا تفید إلا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۰

لشراء الأملاک، و هناک أمور أخر غیر هذه تراها فی باریس علی أحسن انتظام، و ذلک ککیفیة تبلیغ البرید بالرسائل، و کیفیة إیقاد الغاز، و تسعیر المأکول و المشروب، و ترتیب الحمّالین، مما هو فی لندرة مغفل أو مضیّع.

موازنة بین فرنسا و إنکلترة

قال بعض الفضلاء: الحاکم فی فرنسا هو خصم المذنب فلا یصحّ للمفتری علیه أن یصفح عن المفتری، و عند الإنکلیز یلزم المصروف أو یطلق الجانی، و علی کل نوع من الضرب قصاص. و عند الإنکلیز یغرّم من دون قصاص. و کل بلد هناک له صندوق ینفق منه و آخر للإیراد، و له دیوان مکس علی المأکول خاصة، فلا تتکلف السکان بشیء. و فی لندرة یجب علی السکان إصلاح الطرق و تجهیز الماء و النور و غیر ذلک. و فی فرنسا معاش القسیسین و القیام بمصاریف الکنائس مرتب من خزنة الدولة، و هنا موکول إلی الرعیّة. و هناک دیوان للتجارة و آخر للجرائر و آخر لأحوال متنوعة، و هنا دیوان واحد. و هناک طبع التجار مائل إلی المناقشة و النزاع علی أشیاء لا طائل تحتها، و هنا جلّ التجار متکبرون شیمتهم الضبط و الرشد. و هناک تری الفقراء أعداء الأغنیاء، و هنا یهابونهم و یکرمونهم. و هناک القوانین و الأحکام أقوم و أعدل، إلا أن الذین یباشرونها و یجرونهما هنا أصلح و أفضل. و هناک تقضی الناس سائر أوقاتهم خارج منازلهم، و هنا بعکس ذلک. و هناک یطمع التاجر الکبیر فی ربح کثیر لقلة تجارته، و هنا یجتزئ بالقلیل من الکسب لکثرة تجارته. و هناک تختلط الأکابر بالأصاغر، و هنا کل ینحاز إلی شکله و ندّه. و هناک تفتخر الشبّان بالفجور، و هنا یأتونه اضطرارا، و فی هذا القدر کفایة.

رأی أخیر فی کل من الفرنسیین و الإنکلیز

قلت و هنا یحق لی أن أقول فی الإنکلیز و الفرنسیس ما قاله الآمدی فی أبی تمام و البحتری، و هو أن الجید من الإنکلیز خیر من الجید من الفرنسیس، و الردیء من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۱

هؤلاء خیر من الردیء من أولئک، و مآل الکلام أن عامّة الفرنسیس أفضل، و أن خاصة الإنکلیز أجلّ و أمثل. و اعلم أن الفتن و المعامع التی وقعت فی فرنسا و لا سیما فتنة سنة ۱۷۹۳ قد غیّرت کثیرا من أخلاق هذا الجیل، فما یقال عنهم من البشاشة و الأنس و الاحتفاء بالغریب فلیس علی إطلاقه، کذلک سمعت مهم. نعم هم أبشّ من الإنکلیز.

التوجه إلی لندرة لمشاهدة معرض التحف

هذا و لما کنت ذات یوم مفکرا فی وحشة الغربة، و مقاساة تعلم اللغة بعد أن ولّی عنی نشاط الشباب و الأهلیة إلی الاحتکال، إذا بالخوری غبرائل جبارة دخل علی، و فی طلعته من البشر و الطلاقة ما یترجم عما انطوی علیه من حسن الأخلاق، فإن الخلق کثیرا ما یدل علی الخلق، ثم بعد أن دارت بیننا کؤوس المنافثة قال لی: إنی أود أن أذهب إلی إنکلترا، فهل لک أن تکون لی رفیقا؟ فإنی أجهل لغة القوم و أحوالهم، و الآن یذهب الناس إلیها من جمیع الأقطار لمشاهدة معرض التحف بلندرة، و هو المسمی عند الفرنسیس اکسبوزسیون، فأجبته إلی ذلک و سافرنا من باریس إلی کالی، و ذلک فی تاسع شهر جون و منها إلی دوفر. و دوفر هذه أول ما نزل فیها یولیوس قیصر حین غزا بریتانیا و ذلک فی سنة ۲۶ قبل المیلاد، و فیها قلعة قیل إنها من بنائه، و مدفع یعرف بداغری جیب الملکة الیصابت، أهدته إلیها دولة هولانده، و هو مدفع عظیم من نحاس طوله أربع و عشرون قدما، و یومئذ طلب منّا إبراز الجواز و ذلک لکثرة الذین کانوا یردون إلی بلاد الإنکلیز.

فی معرض التحف

ثم سرنا إلی لندرة فوجدت أجرة المساکن و ثمن المأکول و المشروب علی ضعفی ما

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۲

کنت أعهده، و ثانی یوم وصولنا وقع من المطر و البرد ما لا یقع فی الشتاء، حتی زعمنا الغزالة من طول المدی خرفت. ثم توجهنا إلی معرض التحف و کان سبب إنشائه أن الفرنسیس کانوا عقدوا مجلسا فی باریس سنة ۱۷۹۸ لأجل عرض بدائع الصنائع، ثم تکرّر ذلک مرارا، حتی أغری الإنکلیز بمحاکاتهم فی إنشاء موضع تجلب فیه التحف و الغرائب من جمیع البلاد، و ذلک فی سنة ۱۸۵۱، و کان قد استقر الرأی أولا علی أن یبنوه من الآجرّ، و لکن لما کان مقصودهم به إنما هو إلی مدة قصیرة ارتأوا أن یبنوه من الزجاج، فحسبوا أن نفقته تبلغ سبعین ألف لیرة، إذا کان ینقل و ینتفع به و إلا فنحو ۱۵۰. ۰۰۰، فتبرع فی العطاء لإنشائه أکثر من ۱۰۰. ۰۰۰ من الإنکلیز، بدئ به فی جولای سنة ۱۸۵۰، و فتح فی أول مایو سنة ۱۸۵۱، و جعل طوله ۱۸۵۱ قدما علی مقدار عدد السنین، و عرضه ۴۰۸ أقدام. و فی أول شهر مای دخلته الملکة و زوجها، و قد جعل نصفه لبضائع بلاد الإنکلیز و إرلاند و سکوتلاند، و النصف الثانی لسائر الدول، و کان یعطی لکل وکیل دولة موضع، و هم یعنون بوضع الأصونة و المخادع لصون بضائعهم و تحفهم، و إذا اشتری أحد شیئا منها لم یکن یخرج إلا بعد انقضاء المدة. و کان فی بنائه من الحدید ۴. ۰۰۰ طن، و ۱۷ من الزجاج فی سقفه، ما عدا ۵۰۰. ۱ طاقة، و بعد انقضاء مدته بیع بسبعین ألف لیرة، و نقل إلی سدنام و جمع لتنظیمه و ترکیبه هناک ۵۰۰. ۰۰۰ لیرة، ثم زادت حتی بلغت ۰۰۰. ۰۰۰. ۱، و کان یشتغل به من العملة نحو ستة ۴۰۰. ۶. و کان أحقر موضع فیه هو الموضع الذی نضّد فیه ما بعث من دولة مصر، و سبب ذلک فیما بلغنی أن البرنس ألبرت لما أرسل کتبا إلی جمیع الدول یخبرهم بهذا المقصد، و طلب إلیهم أن یرسلوا من بدائع صنائع بلادهم، ترجمت لخدیو مصر لفظة الصنائع بالأرض، إذ کانت صورة الخط فیهما متقاربة تقاربها فی النطق، فإنّ مرادف الصنائع فی الإنکلیزیة «أرتس» و مرادف الأرض «إرث»، فلذلک لم یبعث من مصر إلا القطانی، و بعض أشیاء أخری لا طائل تحتها. و قد رأیت فی هذا المعرض حلی الملکة، من جملتها ثلاثة حجارة من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۳

الألماس قدر الکبیر منها نحو الجوزة، تبلغ قیمته فیما قیل ۰۰۰. ۰۰۰. ۳، و کان فیه أیضا صوان لحلی ملکة إسبانیا، و تحف أخری بدیعة لم یر مثلها قط، من جملتها فرو لقیصر الروس قیمته ۰۰۰. ۳ لیرة، و مرآة لم یصنع أکبر منها فی العالم بأسره، و أول من صنع المرآة کما هی الآن أهل فینیسیا و ذلک فی سنة ۱۳۰۰، و کانت تصنع قبل ذلک من النحاس، و لم تعرف فی إنکلترة إلا فی سنة ۱۶۷۳. فانظر إلی التمدن کیف یفعل، و إلی الأیام کیف یداولها الله بین الناس. و کان فیه آلة تصنع ۸۰۰. ۲ مغلف للکتب مصمغة

مطویـة فی ساعة واحدة، و آلة تصف حروف الطبع بنفسـها و نحو ۱۷۰ نوعـا من التوراة و الإنجیل، و کان یجتمع فی هـذا المحل کل یوم نحو ۶۰ ۰۰۰. یؤدی کل شـلینا، و کان یوما الجمعـة و السـبت مختصـین بالکبراء و الأعیان، و یقال إن الملکة دخلته یوما فأعجبها ثوب مزرکش فی محـل البضـائع الترکیـة، فسـألت قیّمه عن ثمنه، فقـال: ۲۰ لیرة، فقـالت: هـذا غال جـدا، و یقال أیضا إن الفرنسـیس أحرزوا قصب السبق فی کـذا و کـذا نوعا من الصـنائع، و المشـهور عنـد الناس عموما أن الإنکلیز فی الأعمال القینیـة أمهر منهم و الله أعلم. و غایة ما أقول إن کل ما یصـنعه الفرنسیس یظهر علیه الرشاقة و المشق و الطلاوة، و ما یصنعه الإنکلیز یکون جزلا متینا حتی أن هؤلاء فی تصویرهم السـخریّ یصورون الفرنسیس نحافا ضعافا و أولئک یصورونهم ضخاما جساما. فأما صنعة الطبع فلا شک أنها عند الإنکلیز أتم و أحسن، و هم یقولون إن الاختراع من شأن الفرنسیس، لکن الإتقان و الإحکام من شأننا.

داردوق نرثمبلاند

و من الـدیار العظیمـة التی فتحت للمتفرجین أوان المعرض دار دوق نرثمبلانـد، و هی دار عظیمة البناء و الفرش و الأثاث فیها تصاویر نفیسـة، و تحف غریبـة، حتی أن أطر مواقـدها کانت من فضة بدل الحدید، ثم إن هذا المعرض لم یفد الإنکلیز فائدة مال الغرباء فقط، بل أفاد أیضا أهل الفظاظة منهم حسن العاشرة و المجاملة نوعا ما، فإنهم کانوا قبل ذلک علی غایة النفور من لحی الغرباء و شواربهم.
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۴

المنطاد

ثم سرت إلی حدیقة فکس هال المشهورة و رأیت المنطاد، و هو المعروف باسم البالون، و هو قبة فی کبر الخیمة علی شکل الإجاصة یصـنع من الحریر المـدهن ببعض الأدهان و یملأ داخله غازا، و ذلک بأن یجعلوا بأسـفله قربة من جلد متصـلة بأنبوبة من حدید یدخل فیها الغاز من موضـعه، و یجعلون له مثل الشـبکة شاملة له، و بها ینوطون أکیاسا ثقیلة، فکلما امتلأ جانب منه من الغاز خفضوا الأکیاس حتی یرتفع، فمتی امتلأ کله زمّوا فمه من أسـفل، و ربطوا به نحو نـاووس من خشب أو غیره، لیقعـد علیه من یتولی أمره و من شاء أن یسافر معه، ثم یزیحون الأکیاس و یطلقونه فینـدفع صـعدا و مدیره تحته، و ربما اقتضـی لملئه عدة ساعات، فإذا أراد مدیره أن یخفضـه أداره بحبلین متصـلین به همـا کالعنـان له، فینزله حیث شاء، اللهمّ إذا کانت الریـح عاصـفة تغلبه فربما ألقته علی محل غیر مقصود، إلا أنهم لا یصـعدونه غالبـا إل فی یوم ذی سـکون، و مـا یقـال من أن النـاس یصـعدون و یسـافرون فی البالون فلیس المراد بـذلک أنهم یـدخلونه، فـإن داخله ملآن من الغـاز إذا ألمّ به نور أو نـار تمیّز کله فأحرق ما حوله، و إنما المراد أنهم یقعـدون تحته، و ربما أخـذوا معهم حصانـا و نحوه، و قـد رأیت منطـادا آخر انبسط تحته امرأتان و کان رأس إحـداهما تحت قـدمی الأخری، و قبل انبساطهما علی هذه الحالة حجبوهما عن أعین الناظرین بنحو خیمة، ثم لم نشـعر إلا و هما فی الجو تشـیران بالمنادیل. و قد ظهر فی باریس من ادّعی بأنه یقدر أن یصنع منطادا من الخشب علی شکل سفینة لیکون أوعب للناس، و أسلم عاقبة.
و بعـد أن تصـدی لـذلک و رکّب الألواح لم تأذن له الدولـة فی أن یجری ذلک فعلا بالقرب من باریس، مخافة أن تقع السـفینة علی الناس فتعطبهم، و حیث لم یکن غاز إلا فیما ولیها حبط عمله. و قد رأیت هذه السـفینة و ظهر لی و لغیری عدم إمکان اصـعادها بالغاز لطولها و ضـخامتها، غیر أن منشئها کان ذا لسان ذلق، فکان یموه علی السامعین احتمال ذلک، و أظن أن ما خسره فی صنعها ربحه من المتفرجین. و أصـل إنشـاء المنطاد کان فی فرنسا سـنة ۱۷۸۳، و کـان الناس قـد ذکروا من قبل ذلک شـیئا یشـبهه، و لکن هـذا أول ما عرف، و فی سنة ۱۷۸۵ صعد فیه رجلان علی أن یسافرا
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۵
من بولون إلی إنکلترة فـاحترق فهلکـا. و من هـذه الأدوات ما یصـعد فی الجو مسافـة ۰۰۰ ۲۳ قـدم، و منها ما یـدوم فی الهواء ثمانی

عشرة ساعة. و أول من صنع المنطاد فی إنکلترة السنیور لوناردی و ذلک فی سنة ۱۷۸۴، و کانت مادام بواتفیان تصعد تارة و هی قاعدة علی ثور علی مثال أوربا و تارة علی جواد، فکره بعض الناس منها ذلک لکونه من ظلم الحیوان و هو ممنوع، فکفت عنه. فأما کیفیة إدخال الغاز فی أنبوبة المنطاد و کذا فی الأنابیب التی توصل الأنوار فی المدن، فهو أن یوقد الفحم فی موقد مخصوص، و یجعل فیه قصب من حدید متصلة بالدیار و الدکاکین فینحصر روح الفحم فی تلک الأنابیب، فإذا أدنیت نارا من رأسها اشتعلت و بقیت کذلک إلا أن تطفئها، و نورها أشد سطوعا من نار الزیت و النفط و الشمع و لیس له دخان، لکنه قوی مضر بالعین. و قد أری أن غاز باریس أشد صفاء و بیاضا من غاز لندرة، و یمکن أن یکون ذلک لصفاء جو تلک، و سیأتی الکلام علی الغاز و مخترعه و فوائده فی وصف لندرة إن شاء الله تعالی.

طلب الحمایة الجنسیة الإنکلیزیة و شروطها

ثم خطر ببالی أن أطلب من وزیر الأمور الداخلیة بلندرة حمایة جنسیة، لکونی أقمت فی مالطة عدة سنین و فی بلاد الإنکلیز بضعها، فکتبت إلیه عرضا فجاء الجواب مؤذنا بأن أکل ذلک إلی فقیه من فقهاء الشرع، إذ لا یصح معاطاة أمر من الأمور الشرعیة إلا بهم، کما أنه لا یصح معاطاة مصلحة کبیرة من المصالح المتجریة إلا بواسطة السماسرة، و کان مما لزمنی مباشرته فی ذلک أن أخرج للفقیه أربع شهادات ممن لهم بیوت و ملک من الإنکلیز تؤذن بصحة ما أقول ففعلت. و اعلم أن الحصول علی نوع هذا الحمایة لا یتوقف عند الإنکلیز علی عدد سنین یلبثها الغریب فی بلادهم، و إنما هی منّة من قبل مخوّلها، و لو أن إنسانا لبث فی بلادهم عشرین سنة و لم یکن حسن التصرف و السیرة لم یستحقها. و جلّ نفعها إنما هو تأهیل صاحبها لأن یشتری أملاکا کالدیار و العقار و السفینة و ما أشبه ذلک، و علیه أن یحلف أن یتخذ دارهم وطنا له، فإذا استوطن غیرها فللقنصل المقیم هناک أن ینکره. أمّا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۶

حمایة فرنسا الجنسیة فتتوقف علی عشر سنین، و لکنها تکون بعد ذلک حمایة و وقایة لصاحبها فی کل زمان و مکان.

و التملک فی إنکلترة علی أربعة أنواع:

«الأول» أن یکون شبیها بالإجارة إلی مدة معلومة من السنین. «الثانی» أن یکون إلی ۹۹ سنة. «الثالث» إلی ۹۹۹ سنة. «الرابع» إلی الأبد. و الثانی هو الأشهر، و هذه ترجمة الحمایة: «إنّی أشهد أن فلانا المقیم الآن فی طریق کذا، فی خط کذا، الکائن فی إقلیم کذا، من أعمال بریتانیا الکبری، من حیث أنه عازم علی استیطانها عرض عرضا لی أنا سر جورج کری بارونت أحد رؤساء کتاب الدولة، مضمونه أنه من بلد کذا، و من رعیة الدولة الفلانیة، و له زوجة و أولاد، و حرفة کذا، و أن فی عزمه أن یبقی ساکنا فی هذه المملکة، و التمس منی حالة کونی کاتب الدولة هذه الشهادة المذکورة، و حیث إنّی بحثت عن حقیقة الحال و أتانی من البینة ما اعتقدته ضروریا لاثبات صدق ما أودع فی ذلک العرض، فالآن بموجب الأمر الذی فوّض إلیّ حالة کونی کاتب الدولة فی الحکم الفلانی، أعطی فلانا المذکور عند إجراء الیمین المذکورة فی ذلک الحکم، جمیع الحقوق و الأهلیة الخاصة بمن یکون مولودا من أهل بریطانیا، ما عدا أهلیة أن یکون عضوا من أهل الدیوان الخاص، أو عضوا من أعضاء مجلس المشورة، و ما عدا الحقوق و الأهلیة المختصة بمن یکون مولودا بالطبع من أهل بریتانیا خارج الممالک المنسوبة إلی التاج البریتانی و ما یلیها».

فقد علمت أن إعطاء هذه الحمایة لم یتوقف علی سنیّ الإقامة، و إنما هی لنواله کالوسیلة. ثم إنّی لما رأیت أن الفقیه لا یقدر علی إخراجها إلا بعد مدة، و لزمنی العود إلی باریس، طلبت منه أنه إذا حان إنجاز هذه الطلبة یعلم بها کاتب الجمعیة، و رجوت من هذا أن یبعث بها إلیّ فی باریس، ثم سافرت و بعد أیام ورد خبر بقبول ملتمسی، و لزوم حضوری لإجراء الیمین، فسافرت إلی مدینة هافر فبلغتها بعد نحو سبع ساعات، و منها إلی سوث أمبطون، و کانت لیلة مشؤومة فقد ثار علینا النوء حتی کانت السفینة تتقلب فی البحر کالسمکة، مع أن الوقت کان صمیم الحر، و کان من همی قبل کل شیء إجراء الیمین، و هذه ترجمتها: «أنا فلان. أعد و أقسم صادقا

بأنی أکون أمینا و مخلصا الطاعة لسعادة الملکة فکطوریا، و أحامی عنها بغایة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۷

جهدی و طاقتی ضد جمیع من یتحالف علیها، أو یهم بسوء علیها سواء کان علی شخصها أو تاجها أو شرفها، و أبذل غایة جهدی فی أن أکشف لسعادتها و لورثتها و لمن یخلفها جمیع الخیانات و الخائنین و المتغاوین علیها أو علیهم، و أعد بأمانة أنی أبذل غایة استطاعتی فی أن أحفظ و أسند و أجیر خلافة التاج المعبر عنه فی الأحکام بحکم کذا ... إلخ.

العودة إلی باریس و مدح الملک لویس نابولیون

ثم عدت إلی باریس، و اتفق حینئذ أن تولی الملک الآنی ضبط الأمور السیاسیة، و هو یومئذ رئیس مجلس الشوری، و قهر مناوئه و حاسده، فأشار علیّ بعض معارفی أن أمتدحه بقصیدة، فإنه ذو إلمام بالعربیة، و له إطلاع علی لغا کثیرة، فنظمت له هذه القصیدة الآتیة و هی:

من شأن أهل الهوی أن یفرطوا الغزلا قبل المدیح و إلا غازلوا الطّللا

أمّا النسیب فلا حسناء تشغلنی إذ قلب ذی الحسن عن حسن الوفاء خلا

لکن أنا ناسب وجدا بطیف کری ما کنت أعرفه من قبل أن وصلا

أتی علی غرّة و اللیل معتکر من صبغ همّی و ما جنح له نصلا

و همته غادة جاءت تغررنی فحین صحت به مستنکرا جفلا

إن لم أنم یزر أیضا و إن هو لم یزر فما ناظری بالغمض مکتحلا

یا حسنه زائرا ما شأنه صلف و لا یری شانفا کالخود أو شکلا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۸

عفّ نزیه خفیف اللمس یبعده و کم جمیل به خال قد اشتغلا

حلو الشمائل لا طرفا یملّ و لا عتبا یدلّ و لا مستحقبا بدلا

لا یزدیه ریاش حین ترمقه کأنما هو طاووس به رفلا

و لا یبوح بسر إذ یبین و لا یکون إمّعة مع کل من بذلا

رقّت محاسنه حتی استرقّ بها قلبی و قد جعل التذکار لی شغلا

دعنی و شأنی فما ذو الجد تشغله شکوی الهوی إنها شغل لمن هزلا

من رام مأثرة فلیمدحن رجلا بین الرجال یراه وحده الرجلا

لویس نابولیون الراق منزلة فی الملک ما إن الرائی لها مثلا

من ذا الذی لیس یثنی فی الأنام علی من فی المکارم و المجد السنیّ علا

و لیت شعری هل فی الکون من لغة تحوی کلاما یوفّی حقّ ما فعلا

لولاه باتت فرنسا فی معامع لا تکاد تطفئها حرب و نحر طلی

لما تفرقت الآراء و احتدمت نار الترائی و ظنّ الخطب قد عضلا

تدارک الأمر لا عیّا و لا فشلا و منّ بالعفو لا عجزا و لا مللا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۳۹۹

و بات بالملک و التدبیر مشتغلا و بات حاسده بالیأس مشتعلا

حق علی الناس أن یدعوا له أبدا فإن معروفه کلا لقد شملا

و کیف لا و فرنسا دولها سبب یدیل فی غیرها الأملاک و الدّولا

فکان تدبیره للأرض قاطبة أمنا و هذا الذی کل الوری أملا

و حرمة الدین لو لا عزمه انتهکت و عرضه صار بعد الصّون مبتذلا

فعال من تمسک الدنیا بساعده و الدین خیفة أن یستقبلا زللا

یری من الأمر حزما فی أوائله ما غیّره عنه فی صیوره و هلا

فما قضی قط إلا و هو ذو ثقة و لا نوی خطّة إلا و قد فصلا

و لا تخلّل وعد توأمی عدة له و إنجازها، بل قلّما سئلا

فإنما هو یولی العرف مبتدرا و العفو مقتدرا و المنّ مرتجلا

فما أنا قائل ما قال بعضهم یرتاح عند سؤال المجتدی ثملا

فإن ذی شیمة فیه ملازمة له و ما أحد عن دأبه انتقلا

من بشر طلعته بشری لناظره و من تفوّهه توکیدها حصلا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۰

تلقاه مبتسما و الحرب دائرة و نافلا و سواه لا یمنّ بلا

یزین باریس مرآه و همّته حتی تری ملوک العصر ذا نزلا

و کل أیامها تغدو مواسم إذ لم یبق حسن بها إلا و قد کملا

ما لاح من باعث فیه لها دعة إلا و بادره من یومه عجلا

له الولایة حتما لا عدال بذا فإن خیر ملوک الأرض من عدلا

لئن مضی عمّه ذاک الهمام فقد ظلت معالیه فی جید الزمان حلی

أکرم بفرع زکا عن دوحة بسقت کل إلی ظلها الممدود قد وئلا

لله یوم به مادت عساکره من حوله کجبال تنبت الأسلا

کأنه البدر قد حفّت کواکبه به و ما من سها من بینهم ضؤلا

قد کان یذهب بالأبصار لمع سنا سلاحهم بید التأیید قد صقلا

ما إن تری فیهم عیناک إذ برزوا إلا فتی فارسا أو راجلا بطلا

و نالوا من الشرف الأوفی بطاعته ما لم یذر أحدا عن أثرة عطلا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۱

و لو خلوا عن سمات فاسمه لهم مغن فما أحد إجلاله جهلا

فی رأیه النسر لکن فوق موقعه من السماء رأیه المربی زحلا

قد کان فی دارة المریخ حشدهم لکن لسلم فکل راح ممتثلا

فکنت تسمع من ضرب الطبول و من رعد المدافع یوشی صاهلا زجلا

و زهر نار من البارود قد طلعت فی لیلة ذات دجن نجمها أفلا

یری المجوسی فیها حجة و هدی علی السجود لها أنی یقم جدلا

زادت زهورا بجعل اسم الأمیر بها کأنّ جثمانه فیه قد امتثلا

و عاد و الخلق قد طابت خواطرهم و بالدعاء له کل قد ابتهلا

و السعد یقدمه و العز یخدمه و الله یعصمه ما سار أو نفلا

فلیأتین کل ذی ملک یهنئه و من دنی حسدا فلیبعثن رسلا

و لیعلم الناس أن ما خاله جللا سواه کان علیه هینا جللا

کن یا أمیر المعالی کیف شئت فمن یقصد رضی الله لم یحبط له عملا

و من تحری سبیل الرشد فاز و من أطاع داعی الهوی لم یدرک اأملا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۲

هذی الممالک و الأملاک غابطة هذی التواریخ یدریها الذی عقلا

فاقتد شوارد أحوال برمتها و رض صعاب أمور تلقها ذللا

و قد یسر الله لی نظم هذه القصیدة فی یوم واحد، إلا أنه بقیت الصعوبة فی تقدیمها لأعتاب الممدوح، حیث لم تجر العادة عند ملوک الإفرنج بأن یقرؤوا قصائد مدح فیهم و لا غیرها أیضا مما یخاطبون به، و إنما یقرأ ذلک کله کتّاب أسرارهم، و هم یجاوبون عنها المخاطب بحسبما یرونه صوابا. و فی الجملة فإن نظم القصائد سواء بالعربیة أو غیرها أسهل من تقدیمها للممدوح من ملوک الإفرنج. و قد کنت مدحت ملکة الإنکلیز بقصیدة و قدمتها لضابط البلد، و هو وکّل بها زوجته لتهدیها إلی بعض القائمات بخدمتها، و ترجمتها أیضا إلی لغتهم، و إلی الآن لم یأتنی عنها جواب و لا أعلم هل وصلت أم لا، و کل من تعلم لغات الإفرنج من علیة الترک و أشرافهم، سلک هذه الطریقة. فإنی کنت نظمت قصیدة فی و باشا سفیر الدولة العلیّة فی باریس، و أخری فی ن. باشا، و أخری فی محمد علی باشا و لم تنتج إحداها سلبا و لا أیجابا بل ضاعت الأولیان و أضاعا علی کرّاسین من دیوانی ذهب کل منهما بالکراس الذی اشتمل علیه، و لم یکن مقصودی بهذا المدح سوی نهمة الشعراء المعدیة إلیّ تحمیر دواوینهم بقولهم: و قال یمدح الملک، و قال یمدح الأمیر. ثم إنه لا شیء أفظع عند الإفرنج من أن یروا فی قصائد المدح تغزلا بامرأة و وصفها بکونها رقیقة الخصر، ثقیلة الکفل، نجلاء العینین، سوداء الفرع و ما أشبه ذلک، فشعرهم کلهم خصی، و أفظع منه التشبب بغلام، و أقبح من هذا و ذاک نسبة شیء من صفات المؤنث إلی المذکر کقول الشاعر: کأن ثدیاه حقان، فإنهم أول ما یبتدئون المدح یوجهونه إلی المخاطب، و یجعلونه ضربا من التاریخ فیذکرون فیه مساعی الممدوح،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۳

و مقاصده، و فضله علی من تقدمه من الملوک بتعدید أسمائهم. و لما ترجم موسیو دوکان قصیدتی التی مدحت بها المرحوم أحمد باشا والی تونس و طبعها مع الترجمة، کان بعضهم یسألنی هل اسم الباشا سعاد، و ذلک لقولی فی مطلعها «زارت سعاد و ثوب اللیل مسدول» فکنت أقول لا بل هو اسم امرأة، فیقول السائل و ما مدخل المرأة بینک و بین الباشا؟ و هو فی الحقیقة أسلوب غریب للعرب.

قال العلامة الدسوقی اعلم أنه قد جرت عادة الشعراء أنهم إذا أرادوا مدح إنسان أن یذکروا قبله الغزل، لأجل تهییج القریحة و تحریک النفس للشعر، و المبالغة فی الوصف و ترویح النفس و ریاضتها. قلت کما أن الإفرنج ینکرون علینا هذه العادة کذلک ینکرون المبالغة فی وصف الممدوح، فإنهم أول ما یبتدئون المدح یوجهونه إلی المخاطب و یجعلونه ضربا من التاریخ، فیذکرون فیه مساعی الممدوح و مقاصده و فضله علی من تقدمه من الملوک بتعدید أسمائهم، أمّا تشبیهه بالبحر و السحاب و الأسد و الطود و البدر و السیف، فذلک عندهم من التشبیه المبتذل، و لا یعرضون له بالکرم و بأن عطایاه تصل إلی البعید فضلا عن القریب، فهم إذا مدحوا ملوکهم فإنما یمدحونهم للناس لا لأن یصل مدحهم إلیهم، و مع علمی بهذه الحال لم یمکنی مقاومة نزغة النهمة العربیة إلی تقدیم القصیدة المذکورة، و لا سیما لما سمعت بأن الممدوح یعرف لغتنا، فاجتمعت بالفاضل اللبیب و الصدیق الأدیب الخواجا

روفائیل کحلا و طالعته فی ذلک، فقال أنا أعرف وسیلة لتقدیمها و لکن ینبغی أن تترجمها إلی اللغة الفرنساویة، فإن معانیها لا تضیع بالترجمة إذ هی منسوقة علی نسقهم لو لا التغزل بالطیف، لکنه شیء عدمی و لا سیما أنک أشرت فی مطلع القصیدة إلی إنکار الغزل قبل المدیح، فمن ثم ترجمناها و أطلعنا علیها أحد أدبائهم، فقال بل الأولی أن ترسلوها غیر مترجمة، فإن الملک عنده مترجمون یترجمونها له فقدّمت کما هی، و بعد أیام لم نشعر إلا و البرید یطرق الباب و إذا بیده رسالة من کاتب الملک، باسم الخواجا المذکور و باسمی مضمونها: أن القصیدة بلغت جنابه العالی و حسن موقعها لدیه، و أنه یشکرنا علی ذلک شکرا جزیلا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۴

قصیدة أخری فی مدح لویس نابولیون

ثم إنّه فی خلال هذه الأوقات استقل الملک المشار إلیه بولایة الملک و لقّب الإمبراطور، فنزغنی نازغ آخر من «و قال یمدح الأمیر» إلی أن أهنئه بقصیدة، و أقدمها علی ید رئیس تراجم بابه الکنت دکرانج الذی مر ذکره، فلما فرغت منها و قرأتها علیه قال: لیس من هذه الصفات التی نسبتها إلی الملک ما هو مختص به وحده، فإنه یصلح لأن یخاطب به أی ملک کان، و هی مع ذلک عویصة لا یمکن ترجمتها، و لو قدمتها کما هی لما استحسن منها غیر الخط و الشکل فقط، فلهذا أضربت عن تقدیمها و شکرته علی نصحه، و لکنی لا أضرب عن قیدها هنا حتی ینتفخ بها بطن هذا الکتاب و هی هذه:

للویس نابولیون حقّ السؤدد و الملک إذ هو فی المعالی أوحد

فلتقدم الأملاک داعیة له بالتهنئات و شأنه فلیحمدوا

بشری لذی ملک یزور ندّیه و لمن ینبأ عدله فیقلد

و لمن یبایعه و یشری نفسه بولائه فجزاء مدّ ید ید

نظر الزمان بسعیه إبطاءه من قبل فاستحیا فأقبل یحفد

فجلا لنا فی ظرف عام منه ما لم یجله للناس دهر سرمد

أمن الوری فی ظله و تنعموا و إلی الترفه و التترف اخلدوا

حتی خشوا أن البلاهة من دوا عیها بلهنیة و عیش أرغد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۵

یتهجد العافون أمنا و هو من شفق علی إغفائهم یتهجّد

أضحی لهم من بعد أنواء العنا عیش بطالع سعده لا یهجد

تنسی الثواکل حزنهن فعاله فهی التی ما بینهن تعدد

ضبط الأمور بحزمه و اقتدها فبما حبانا الیوم یأتینا غد

قید الأوابد رأیه ما حادث عنه یندّ و لا قدیم یشرد

و ضجیعه الفکر المنیر یریه إن أضحی فینهض للأمور یفرد

ما بعد أن ظهرت مکارمه یری أحد یلوم لفائت أو یکند

عن حلمه تروی الشهود لغائب و بفضله کلّ البریة تشهد

هذی المآثر فاهتدوا بمنارها یا أیها الثقلان ثم به اقتدوا

هذی المفاخر فأتنا بمثلها یا من مدیح ملوک عصرک تنشد

یستسهل الراؤون مطلع صاعد شرفا و لکن ما کذا من یصعد

و یروق مخر المنشئات لناظر ما خاض لجّ الیم و هو یهدد

قل للمشبه قد غویت فهاتنا بنظیره إن کنت ممن یرشد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۶

لا تدرک الأبصار لو لا الشمس ما جرم الهباء و لا یراها أرمد

هبنا اسمه حتی نجلّ سمیّه حبا به و لنا إلیه تودد

ات الملوک فخاره فرضوا بأن یدعوا ببعض صفاته کی یسعدوا

و لربما حاکی السراب الماء عن بعد و أظمأ من أتاه المورد

یا من تولّی عرش عزّ صانه ذو العرش و هو بما حبالک مؤید

شرّفت تاج الملک حین رضیته و ازداد و هو علیک فخرا یخلد

فجلت فرنسا طلعة کانت لها أیام عمک عبده المستعبد

مازال مذ عرف الوری أملاکهم یطأ الممالک من حماها سید

فاسلم ففی یمناک غبطة أهلها و بعزها الأرضون طرا تنجد

دم آفقا قدرا و رأیک أرشد و مسابقا فخرا و جدّک أسعد

الشروع بتألیف کتاب الفاریاق

و فی غضون ذلک شرعت فی تألیف کتاب الفاریاق الذی نشر طبعه الخواجا روفائیل کحلا المومأ إلیه، و بعد أن طبع منه عدة صحائف اقتضی لإنجازه سبک حروف جدیدة، فانتظرت مدة حتی إذا قنطت أو کدت أقنط من ذلک، و کانت

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۷

نفسی قد تاقت إلی فقع لندرة و فقّاعها سافرت علی نکظ فتعرفت حینئذ بالخواجا مخایل المخلّع، فقد کان قدم لمعاطاة التجارة، و مما أعجبنی منه کرمه وسعة اطلاعه، فقلما یرد ذکر شاعر إلا و یروی عنه، أو نکتة أدبیة إلا و یسردها، أقام فی لندرة عاما و نیفا و سافر و هو یدری جمیع أحوالها.

کتاب کلستان

و قد أهدانی نسخة من کتاب کلستان الذی ترجمه أخوه من الفارسیة إلی العربیة، فلما تصفحته و تأملته حقّ التأمل ظهر لی أن خبره دون مخبره، إذ لم أجد فیه من المعانی المبتکرة ما أوجب احتفال العجم به هذا الاحتفال العظیم، فإنه عندهم بمنزلة مقامات الحریری عندنا غیر أن عربیته فصیحة، فلما قابلته المرة الثانیة و جری ذکر هذا الکتاب، قلت له: لقد طالما سمعت بذکر کلستان غیر أنی لم أجده یستحق هذه الشهرة، و قد حدّثتنی نفسی بأن أنشئ کتابا علی نسقه لکن ألتزم فیه الهزل. قال: فافعل. فأنشأت فی الیوم القابل هذه الحکایات الآتیة، و لما قرأتها علیه وقت الاجتماع قال: قد أفرطت فی محاکاته، و هو فوق ذلک، و أبی إلا التنویه به.

محاکاة الشدیاق لصاحب کلستان

هذا و لما کان باب الإنشاء قد أرتج علیّ بلندرة، لکثرة قعقعة العواجل و الحوافل فیها بحیث لا یمکن لمستمها آناء اللیل و أطراف النهار، أن یجمع أفکاره أو یبتکر معنی حسنا، حقّ لی أن أثبت هنا ما کتبت محاکیا لصاحب کلستان و هو:

«حکایة» رأیت قوما یتسابقون حشدا، و یتزاحمون حفدا، فمن بین ضاغط جاره و مهطع کأنه یشنّ الغارة، فقلت: تالله ما اجتمعت هذه

الجماعة إلا لأمر عظیم، و لا قصدت إلا مقصد خیر عمیم، ثم قلت لنفسی بعد استصواب حدسی:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۸

انهض إلی المکرمات مستبقا و لا یصدنک عائق عنها

و إن تجد عصبة سعت جهة فاسع إلیها ثم استفد منها

فجاریتهم و أنا أظن أنی أکون أول الفائزین، و مقدام البارزین، فلما بلغت حلقة الرجال، و کانوا ما بین حزقّة و طویل و طوال، خزقت صفّهم، و خرقت مصطفّهم، و إذا فی وسطهم خطیب، کنت أعرفه مذ عهد غیر قریب، فأول ما وقع علیه الطّرف، و آنست منه الظرف، قلت له: السلام علیک یا خطیب یا إمام، فأجابنی بدیها:

و علیک السلام.

سحکایة» بینما کنت أطوف فی مدینة القاهرة، و أنظر ما فیها من المحاسن الباهرة، و أحدق فی وجوه الشوافن، فی الرواشن، إذ لمحت فی روشن غادة فاقت النساء بالظرف و الجمال، و الصّباحة و الدلال، فقلت منشدا، و أنا علی غیر هدی:

بالله رقی لمغرم دنف قد أسلمته إلی البلی عینه

تصدّقی بالوصال علّک أن تشفیه حشاه فقد دنا حینه

ثم غشی علی من شدة اللوعة، ثم أفقت طمعا و لم أبرح أسیر الهوی و طوعه، و نادیتها بلسان مبین، ألا- إنّی إلیک من التائقین العاشقین الخاضعین، فقالت: و إنّی لک لمن السافقین الصافقین الصافعین.

«حکایة» کنت أمشی فی أسواق الإسکندریة، و عرضی لألسنة الناظرین إلیّ کالدریّة، إذ کنت لابسا نعلا بالیة و ثوبا صفیقا، و قد انحلّ حزامی فکان یکنس البلد طریقا فطریقا، فصادفت عجوزا تلحظنی، فقلت: علام القوم یضحکون، و فیم ینهمکون. فقالت و قد قهقهت، و عن أنیابها المتهتّمة جلقت، من مکنستک هذه الحریر، و طورک الذی لم یر له نظیر، فقلت:

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۰۹

من أحبّ المعروف فلیکرم الض یف بإیناسه و إبلاغ سوله

لیس یبغی قری و لا بذل مال منتهی ما یؤم فی تأهیله

فقالت أمّا إن شئت أن نقول لک أهلا و سهلا، فأنت لدینا مؤهّل و مسهّل و إلا فلا، ثم هرولت عنی و عن عینی اختفت، فأتبعتها اللعنة التی بها التحفت.

«حکایة» قصدت الرشید، لما فیها من الحظ العتید، و الحدائق الناضرة، و المسارح السارة، فلما دخلتها لاح لعینی غلام کالقمر، یخجل الحور بالحور، فتفاءلت بنضرته، و عجبت من عدم شهرته، فأنشدت بمسمع منه:

لبعض الناس فعل دون ما اسم و بعضهم له اسم دون فعل

و أردت أن افتتح معه الکلام، فاستدللت منه علی الحمّام، فقال لی بلهجة فصیحة، و عبارة صحیحة، أأنت جنب مذ خروجک من البیت أو فی الحال فقلت:

إن کان یمکنک اصطناعی عاجلا فافعل و لا تسأل عن الأسباب

فلربما أخّرت معروفا و ما قدّمت غیر مساءة الأصحاب

فدلّنی علیه فإذا أبوه قیّم فیه فنوّه عنده بی، و أثنی علی أدبی، فلما خرجت من ذلک النعیم، کخروج آدم من الجنة و هو ملیم، بشّ بی الرجل و أدبنی تلک اللیلة إلی طعامه، فلبّیت دعوته و أجزلت له الشکر علی إنعامه، و سرت إلیه و فی أمعائی و قوب، و لأضراسی رقوب، فلما حظیت بأنسه، و حصلت فی مجلسه وضع الخوان، و هو یمید من الطعام بألوان، فأکلنا و شربنا، و لعبنا و طربنا.

«حکایة» مازلت مذ عرفت حلو الاستراط، و مرّ السراط، أتشوّف إلی رؤیة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۰

دمیاط، لما بلغنی عنها من کثرة سمکها و أطیارها، و رخص أسعارها، و کان بی نهم إلی أکل السمک شدید، و قرم إلی العصفور ما علیه من مزید، و قد قال فی الأول، من أجاد القول جدا و هزل:

ما إن ندمت علی شراء الحوت فی وقت و إن أفرغت فیه الکیسا

إن کنت أنفق فیه فلسا واحدا ألقاه فیهقد استحال فلوسا

فلم أکد أبلغ ساحلها، حتی رأیت صیادا قد ألقی شبکته فی البحر و هو مبتئس ولها، و فی طلعته سمة الضجر فتقدّمت إلیه، و سلّمت علیه، فقلت أجذب الشبکة باسم الله علی بختی، و إن کنت أعهده یمر دائما من تحتی، فإن اشتملت علی حیتان صغیرة، أدّیت إلیک قیمتها موفورة، و إن حوت الکبیرة، کان لی أن أنال منها مجانا حصة وفیرة، فرضی بذلک، و قال حسبی الله الولی المالک، فلما أخرجها إذا بها قد استوعبت من کبار السمک، ما لم یکن عهد مذ درج و سلک، فجاد علیّ منه بحصة، و قد أجرضه من الشرط غصّة، فأوقدت جنبه نارا، و بعثت إلی السوق من اشتری لی خبزا و عقارا، و ملحا و أبزارا، و مازلت أشوی و ألتقم التفافا، و أشرب اشتفافا، حتی منیت بالهیضة و الزحیر، و استحال علیّ التقدّم و التأخّر فی المآب و المصیر.

«حکایة» وجدت فی صدری ضنکا من مجالسة الرجال، و مطارحتهم الحدیث و الأمثال، و قد جبل الإنسان علی حب التبدل، و التحوّل و التنقل، فیسأم النعیم إذا طال، و یری فی المثابرة الثبور و الوبال، و فی الإدمان الدمن و الوبال، فتحرّیت مجالسة الصبیان و الخوض معهم فی صار و کان، فلم أکد أخرج من غرفتی حتی رأیت زمرة منهم یلعبون بالفئال و الأوتاد، و یضجون ضجیج الناس فی یوم الجراد، فتوهمت أن بی صمما أو لمما، إذ لم أسمعهم علی قربهم من الغرفة، و لو أنی سمعتهم لعظم علیّ لغطهم علی هذه الصفة، فدعوت أحدهم فحشد إلیّ حفزا، و کلمنی رکزا، فسکن روعی عند سماع نغمته الرخیمة، و أیقنت أن حاسة سمعی بقیت فیّ سلیمة. فحمدت الله تعالی علی لطفه بی، و زاد فی عشرة الأولاد أربی.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۱

إنجاز کتاب الفاریاق

ثم ورد إلی کتاب من الخواجا روفائیل کحلا یؤذن باستتباب حروف للفاریاق، فسافرت إلی باریس، و لما علمت أن طبعه لا یتم فی مدة قصیرة رجعت إلی لندرة، و کانت صحف الطبع ترسل إلیّ هنا لأصلحها ثم أعیدها و هکذا نجز الکتاب.

أسفار متصلة بین لندرة و باریس

ثم لما فتح معرض التحف فی باریس و ذلک فی ۱۵ أیار سنة ۱۸۵۵ سافرت أیضا لأشاهده، و هو بناء جلیل من حجر لکنه لیس فی کبر معرض تحف لندرة، و لم یکن یحوی بضائع متنوعة ما حوی ذاک، إلا أن من حذق الفرنسیس أنهم ینضّدون الأمتعة بنوع أنها تبدو للعین رائعة فائقة، و فضلا عن ذلک فإن الناس کان همهم فی تلک السنة إتقاء مضار الحرب و غوائلها، و کان الذین عرضوا بضائعهم فیه خمسة و عشرین ألفا، منهم عشرة آلاف من الغرباء، و قد رأیت فیه حلی الملکة زوجة الملک و هی مما یفوق الوصف.

ثم عدت إلی لندرة ثم سافرت بعدها مرتین إلی باریس ثم عدت، و کانت عودتی هذه المتممة للعشرین مرة من زیارتی لندرة، و حیث وجدت نفسی هذه المرة قارّا فیها، وجب علیّ أن أصف ما فیها مما یحمد و یذم وصفا تاما وافیا، و إنما لم أطل الکلام فی وصف باریس لما تقدم آنفا من أن الشیخ رفاعة بک ألّف رحلته فیها، و لأن البلدة معروفة عند سکان البلاد الشرقیة أکثر من لندرة.

بین نفقات باریس و لندرة

و یجب قبل الشروع فی الوصف أن تعلم أن ما قیمته من المأکول و المشروب فرنک ففی لندرة شلین غالبا، و أن نفقة السفر من لندرة إلی باریس فی المحل الثانی من الرتل لا تزید علی أحد و عشرین شلینا، سواء کان علی طریق هافر أو دیان أو بولون أو

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۲

کالی، و ذلک فی ظرف خمس عشرة ساعة، بعضها فی سکة الحدید و بعضها فی البواخر.

عن البواخر و السفر بین البلدین

و هذه الباخرة التی تجری ما بین سواحل إنکلترة و فرنسا لیست کتلک التی تجری فی بحر الروم، فإنها قذرة و قلّ أن تجد فیها فرشا للنوم، فإن قصر المسافة بین الأرضین قصرها علی أن تکون للتجارة أولی من أن تکون للرکّاب، و أقصر المسافات هی التی یسافر فیها من دوفر إلی کالی، و الأوفق لمن یجهل أحوال لندرة إذا سافر من باریس أن یجعل قدومه إلیها فی النهار، لأنه یصعب علیه فی اللیل وجدان محل یبیت فیه، لما أنّ الحوانیت و المبایت کلها تقفل فی الساعة الثامنة لیلا، فأما فی باریس فلا یعدم أن یصادف مبیتا، فی أی وقت و أی منزل شاء.

الکلام علی لندن أو لندرة

کان عدد أهل لندن فی سنة ۱۸۰۱ ۸۶۳، ۹۵۸

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة؛ ص۴۱۲

فی سنة ۱۸۱۱ ۸۱۵، ۱۳۸، ۱

و فی سنة ۱۸۱۱ ۸۱۵، ۱۳۸، ۱

و فی سنة ۱۸۵۱ ۱۳۶، ۳۶۲. ۲

و فی ۱۸۵۷ ۰۰۰، ۶۲۵. ۲

قال بعض المؤلفین إن دورتها سبعة و خمسون میلا و نصف میل، و ذلک عبارة عن سفر نحو ثلاثة أیام إذا کان یسافر فی کل یوم قدر عشرین میلا، و تفصیلها من شسویک إلی کنتش تون اثنا عشر میلا، و من کنتش تون إلی ملول سبعة عشر میلا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۳

و نصف، و من ملول إلی شسویک ثمانیة و عشرون میلا. و قال آخر إنّ لندن أصحّ مدن العالم هواء، و الدلیل علی ذلک ما ذکر فی إحصائیات الموت من أنه یموت فیها من کل ألف خمسة و عشرون، و فی غیرها یموت من الألف من ثلاثین إلی أربعین.

لندن أغنی مدن العالم و أکبرها

و قال آخر إن لندن أغنی مدن العالم و أکبرها، زعم بعض أنها کانت مدینة من قبل المیلاد بألف و مائة و سبع سنین، و قبل تأسیس رومیة بثلاثمائة و أربع و خمسین سنة، و أنها کانت مقرا للطرینوبنت، و لملوکهم قبل المیلاد بأربع و خمسین سنة، و فی سنة ۶۱ بعد المیلاد کان الرومانیون یسمونها لندینیوم، و هو اسم لمقر التجار فی ذلک العصر و لسوق المعاملات و المبایعات، و زعم بعض أنها مشتقة من لود اسم لملک قدیم فی بریتانیة، و الأصح أنها مشتقة من لین دین أی بلد علی بحیرة، و زعم آخر أنها کانت تسمی فی الزمن القدیم لندنبورغ کما یقال الآن لقاعدة سکوتلاند إیدنبورغ.

موقع المدینة و إحصائیات متنوعة

و قال آخر موقع لندن علی نهر التیمس علی بعد نحو خمسین میلا من فوهته، و قد صدق ما وصفها به سای بقوله: لیست لندن مدینة واحدة و إنما هی إقلیم مغشّی بالبناء. و فی سنة ۱۸۴۹ لزم لأهلها من الدقیق ۰۰۰. ۶۰۰. ۱ کوارتر «نوع من الکیل»، و من الغنم ۰۰۰. ۰۰۰. ۱، و من الثیران ۰۰۰. ۲۴۰، و من العجول ۰۰۰. ۲۸، و من الخنازیر ۰۰۰. ۳۵، و فی أحد أسواقها المسمی «لیدن هل» بیع من الطیور ۰۰۰. ۰۲۴. ۴، و من السمک المسمی «سمونا» ۰۰۰. ۰۰۰. ۳ و هذا القدر من المأکول غسل من المشروب بمقدار ثلاثة ۰۰. ۲۰۰. ۴۳ کالن من المزر، کل کالن یملأ نحو خمس زجاجات من زجاج الخمر المعتاد، و بمقدار ۰۰۰. ۰۰۰. ۲ من الأرواح، و بمقدار ۰۰۰. ۶۵ قصبة من الخمر، کل قصبة فی عرفهم تس ستین کالنا، و فیها ۰۰۰. ۱۳ بقرة للاحتلاب، و ۰۰۰. ۳۶۰ قندیل یشعل بالغاز، ینفد منها فی کل أربع و عشرین ساعة ۰۰۰. ۱۳ قدم مکعب من الغاز،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۴

و تمد الأهلین من الماء بنحو ۳۲۸. ۳۳۸. ۴۴ کالنا فی کل یوم.

و یستعمل لأجل اصطلائهم و لوازم المعامل أکثر من ألف سفینة لنقل الفحم، فتحمل فی العام أکثر من ۰۰۰. ۰۰۰. ۳ طن، و کثیرا ما رؤی دخان النار منها علی بعد ۳۲ میلا و فیها من الخیاطین ۷۵۱. ۲۳، و من الأساکفة ۵۷۹. ۲۸، و من الخیاطات و صانعات برانیط النساء أکثر من ۰۰۰. ۴۰، و من الخدمة ۷۰۱. ۱۶۸، و قال آخر یوجد فی لندرة من أهل إرلاند أکثر مما یوجد فی دبلین قاعدة بلادهم و من أهل سکوتلاند أکثر مما یوجد فی إیدنبرغ، و من الیهود أکثر مما یوجد فی فلسطین، و من الرومانیین ۰۰۰. ۱۰۰ و هو أکثر مما یوجد فی رومیة، و من الجرمانیین ۰۰۰. ۶۰، و من الفرنسیس ۰۰۰. ۳۰، و من الطلیانیین ۰۰۰. ۶.

و قال بعض المؤلفین من الفرنسیس إن مدینة لندرة فی قول إمیان مرسلان قدیمة جدا، و اشتقاقها من لفظة لون بمعنی سفینة، و دیناس أی مدینة، فکأنک قلت مدینة السفن. و ذهب بعض إلی أن اشتقاقها من لون أی غیضة، ودن أی مدینة، فکأنک قلت مدینة فی غیضة. قال أمّا موقعها فهو فی إقلیم «مدل سکس» علی تسعة و ستین ألف ذراع من فم نهر التیمس، و علی ثلاثمائة و تسعة و سبعین ألف ذراع من باریس، و هی أکثر مدن العالم أهلا رقعتها مائة ألف ذراع مربع، و أهلها ۰۰۰. ۰۱۳. ۲، منها ۹۵۶. ۰۷۶. ۱ ذکور، و الباقی و هو ۰۴۴. ۹۳۶ إناث. قلت و قد تقدم ما زادت به إلی سنة ۵۷ فینبغی أن تقیس علیه سائر الزیادات، و یولد فیها فی العام نحو ۰۰۰. ۸۵ و یموت نحو ۰۰۰. ۷۴، و المحسوب أنه یولد فیها فی الأسبوع نحو ألف و ثمانمائة نفس، منهم ۹۶۰ ذکور، و ۸۴۰ أناث، و یموت فیها نحو ۳۰۰۰. ۱ نفس.

من ولد فیها من الشعراء و من دفن فیها منهم

و ممّن ولد فیها من المشاهیر ملطون و بوب الشاعران، و اللورد بیرون الکاتب، الشاعر و الأدیب، و دفن فیها من الشعراء الکبار خمسة و عشرون. قال و هی تحتوی علی ۰۰۰. ۲۸۸ دار تغل فی العام ۰۰۰. ۰۰۰. ۲۲۰ فرنک، و علی ۰۰۰. ۱۵ شارع و زقاق و تربیعة، و قد اتسعت من مدة خمسین سنة أکثر من ضعفین مما کانت فی السابق.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۵

تزاید سکانها و مساکنها

و قال مؤلف الهرالد: کانت لندرة فی سنة ۱۸۳۱ تشتمل علی نصف ما تشتمل علیه الیوم أی سنة ۶۲ أو أکثر، فکان فیها من السکان ملیون و ثلاثة أرباع، و من المساکن ۰۰۰. ۱۶۰ فصار فیها من النوع الأول ۰۰۰. ۸۰۰. ۲، و من الثانی ۰۰۰. ۳۶۰.

سفن و مرافق و استهلاک

و قال آخر و یرد إلیها و یصدر عنها من السفائن التجاریة نحو ۵۰۰. سفینة، و أربعة آلاف أخری مستخدمة لثمانیة آلاف نوتی، و أربعة آلاف صانع. و رأس المال الذی أخرج فی عمل الأقنیة و المجاری و غیر ذلک مما یختص بالغاز بلغ ستة و سبعین ملیونا و ثلاثمائة و خمسین ألفا من الفرنک، و المصروف علی التنویر فی العام یبلغ ستة عشر ملیونا. و فی لندن ثمانیة مواقف لسکة الحدید، و ست غیاض، و ثلاثمائة و أربعون کنیسة و معبدا للمتأصّلة، و ربما کان المعبد داخل الکنیسة، و ثلاثمائة و سبعون معبدا للمتفرعة، و ثلاثمائة و أربعون مکتبا للتعلیم، و أربعة عشر سجنا، و ثمانیة دواوین للشرطة، ۲۲ ملهی أی ثیاطرا، و خمسون سوقا لبیع المأکولات من اللحم و الدجاج و البقول و نحوها، و سوق القمح فیها کلف ۰۰۰. ۹۰ لیرة، و عدد ما یذبح فی العام من البقر لطعام أهلها ۰۰۰. ۱۹۰ رأس، و من الغنم ۰۰۰. ۷۷۶، و من الخرفان الصغار ۰۰۰. ۲۵۰، و من العجول قدرها، و من الخنازیر ۰۰۰. ۲۷۰ یبلغ وزنها فی الجملة ثلاثمائة و ثلاثة و سبعین ملیونا و مائتین و ثمانیة آلاف رطل من أرطالهم. و رطل لندرة قدر رطل تونس، و هو عبارة عن ست عشرة أوقیة، و ثمنه کثمنه، فإذا قوّم کل رطل بنصف شلین فی إجمال بعضه ببعض، بلغ ثمنها مائة و سبعین ملیونا و سبعمائة ألف و خمسة و خمسین ألف فرنک، یخصّ کل إنسان علی حدته ۱۴۱ رطلا، و هو أکثر مما یخص کلّ واحد فی باریس بضعف مثله. و المصروف من السمک ۱۲۰ ألف طن، و من الزبدة أو السمن ۰۰۰. ۱۱ طن، و من الجبن ۰۰۰. ۱۳ طن، و من القمح ۳۶ ملیونا من الکوارتر، و من الفحم ثلاثة ملایین طن، و من اللبن ۴۰ ملیون زجاجة، و من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۶

الخمر ۶۵ ألف برمیل، و البرمیل عبارة عن ستة أطنان، و من الأرواح ۸۰ ملیون لتر، و من المزر و الجعة ملیونا برمیل. قلت و فیها ۵۵۷. ۴ حانة یباع فیها المزر، و سائر أنواع الشراب.

حرفیون و صنّاع

قال و فیها ۵۰۰. ۱۶ إسکاف، و ۵۰۰. ۱۴ خیاط، و ۲۰۰. ۱۳ نجار، و ۸۳۰. ۶ بنّاء، و ۳۲۰. ۲ صانعا فی الرصاص، و ۰۴۹. ۵ جلفاطا، و ۶۷۰. ۲ صانعا للبرانیط، و ۶۴۰. ۲ فی الساعات، و ۴۰۰. ۵ فی الخشب، و ۰۹۹. ۱ بائع أدویة، و ۱۴۰. ۲ صانعا للبرامیل، و ۷۰۰. ۳ طباع، و ۰۱۰. ۱ صناع لعجلات المراکب، و ۱۰۰. ۲ حلاق، و ۹۱۰ من صناع الحلواء، و ۳۳۰. ۴ جزّارا، و ۵۹۰. ۱ تاجرا فی الجبن، و ۰۸۰. ۱ فی السمک، و ۰۹۰. ۱ فی التبغ، و ۱۷۰. ۲ تاجرا فی العواجل و العجلات، و ۶۶۰. ۵ خبازا، و ۶۴۰. ۴ تاجرا فی الشمع و السکر و الصابون و نحوها، و ۲۰۰. ۴ بزازا، و ۴۵۰. ۱۰ بائعا للحلیب، و ۸۱۰. ۲ للجواهر، و ۸۰۰. ۷ سائق عاجلة و حافلة، و ۷۴۲ باخرة تجری فی نهر التیمس کما تجری الحوافل فی طرق المدینة، و ذلک ما بین رشمند و کرافسند و ما حولهما.

أشهر المواضع

و أشهر الواضع فیها التربیعة المعروفة باسم ترافلکر «محرفة عن طرف الغرب» فیها عمود نلسون مبنیا من المرمر، إرتفاعه ۱۷۶ قدما، و فوق العمود تمثاله، و علی جانبی الساحة عینان نضّاختان قبالتهما صورة الملک شارلس الأول من نحاس.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۷

عمود نلسون

قلت: قال بعض إن عمود نلسون هو من حجر جلب من بورتلاند، و کان نصبه فی سنة ۱۷۴۳، و علیه شرف من نحاس صنعت من مدفع أخذ من الفرنسیس، و لخزی الدولة و أهل البلاد بقی غیر متمم، و قد بلغت نفقته ۰۰۰. ۳۳ لیرة، و ممن تبرع فی العطاء لإنشائه قیصر الروس، فإنه أعطی خمسمائة لیرة و هو أکثر ما تبرع فیه لهذا الإنشاء، و عنده تمثال کرلوس أو شارلس الأول صنع فی سنة

.۱۶۳۳

نبذة عن نلسون و أعماله

و اعلم أن نلسون المذکور هو الذی ظفر بمراکب الفرنسیس التی سار فیها نابولیون و جنده إلی مصر فأحرقها عند أبی قیر و ذلک فی سنة ۱۷۹۹، و أتلف أیضا بوارج فرنسا و إسبانیة فی الحرب المعروفة بترافلکر عند رأس فنستیر، و ذلک فی سنة ۱۸۰۵، و کانت سفن الإنکلیز ۲۸ سفینة، و سفن الدولتین المذکورتین ۳۲ و یومئذ قتل، و هو عند الإنکلیز معّم الذکر، لا یزالون یلهجون بمساعیه البحریة لهجهم بمساعی دوک و یلنکطون البریّة، و کان مولده فی سنة ۱۷۵۸. و فی معجم الأوقات أن نصرة الإنکلیز فی الحرب المذکورة هی أعظم نصرة حازوها، و کان للفرنسیس من البوارج ۱۸، و للإسبانیول ۱۵، و للإنکلیز ۲۷، و بعد قتال شدید أسر أمیرال الفرانسیس و غیره، و تلف لهم ۱۹ سفینة، غیر أن الأمیرال نلسون لاقی منیته یومئذ فقام مقامه و لکن وود، و کان اسم سفینته فکطوری، أی نصرة، و آخر إشارة صدرت من نلسون قبل الشروع فی القتال قوله: إن إنکلترا تتوقع من کل إنسان أن یقضی الواجب علیه.

و کان ذلک فی ۲۱ من تشرین الأول سنة ۱۸۰۵، قلت و هذا عندهم من الکلام البلیغ، و لذلک کتبت هذه الجملة علی العمود الذی تقدم ذکره. و فی کتاب آخر یسمی تعلیقات و مسائل أن بعض خدم نلسون، و کان به غفلة قال: کان سیدی إذا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۸

باشر الحرب یلبس أحسن لباسه المنصبی، فکنت أنهاه عن ذلک، فیقول لی: مه فإنی أقضی الحرب بأفخر لبس لی. فأقول له: بل الأولی أن تلبسه بعد أن تفرغ من الحرب. قال: و لو أنی کنت حاضرا یوم ترافلکر لما أصابه ما أصابه بذلک اللباس الذی تردّاه.

قال المؤلف الأول و فیها أیضا عمود آخر بنی تذکرة للحریق الذی وقع فی لندرة سنة ۱۶۶۶ بلغت نفقته ۷۰۰. ۱۳ لیرة، و ارتفاعه مائتا قدم و قدمان، و هو أجوف یشتمل علی ۳۴۵ درجة، و ارتفاع شرفته ۴۲ قدما. و آخر نصب فی سنة ۱۷۳۳ علیه تمثال ابن الملک جورج الثالث، ارتفاعه ۱۲۴ قدما، و علو التمثال ۱۴ قدما.

کنیسة ماربولس

قال و أعظم کنیسة للبروتستانت کنیسة ماربولس فی المدینة المذکورة، بنیت علی هندسة کنیسة مار بطرس برومیة، ابتدئ ببنائها فی سنة ۱۶۶۶ و نجز فی خمس و ثلاثین سنة، و بلغ جملة ما أنفق علیها ۰۰۰. ۵۰۰. ۳۷ فرنک، جمع ذلک من طسق جعل الفحم، و طولها خمسمائة قدم، و ارتفاعها أربعمائة و أربع أقدام، و وسعها ۳۰ فدانا. قلت و سیأتی ذکر لهذه الکنیسة.

شطر المدینة و جسورها

ثم إن هذه المدینة شطران یخترقها نهر التیمس، أحدهما لیس فیه شیء یسر الناظر، فإنه عبارة عن دیار و طرق و حوانیت، و الثانی و هو الذی تقیم فیه الأشراف و الأعیان یشتمل علی أشیاء کثیرة بدیعة سیمر ذکرها بک إن شاء الله، و هذا النهر مبنی علیه عدة جسور: «أحدها» و هو أول ما یراه القادم إلی لندرة، الجسر الذی یقال له «جسر لندن»، طوله ۹۲۸ قدما، و هو مبنی من حجر صلب، و یشتمل علی خمس قناطر علو کل منها ۲۸ قدما، بدئ به سنة ۱۸۲۵، و فتح فی سنة ۱۸۳۱، و أنفق فیه نحو ملیونی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۱۹

لیرة، علیه فوانیس للتنویر صنعت من مدفع أخذ فی حرب إسبانیا، و لا یزال مزدحما للناس و الخیل و الحوافل و العواجل، حتی أن من یشاء أن یمر فیه من جهة إلی أخری یعرض نفسه للخطر، فیلزمه أن یسیر علی سمت واحد، و من یر ازدحام الناس عنده و لم یکن قد ألف أحوال البلد یظن أن الناس متأهبون للخروج إلی الحرب و القتال، إذ یمر علیه فی کل دقیقة نحو ثلاثین مرکبا ما بین عاجلة و

حافلة و عجلة و ما أشبه ذلک، و عنده عمود شاهق من حجر و تمثال للملک ولیم الرابع من رخام. قال بعضهم یرد فی کل یوم إلی الستی ستون ألفا من مراکب البر علی اختلاف أنواعها فی نحو خمسین شارعا، منها اثنا عشر ألف مرکب یمر علی جسر لندن فی ظرف أربع و عشرین ساعة، فإذا حسبت رجوعها علیه کان لکل ساعة ألف مرکب.

«الثانی» الجسر المسمی «صوث ورک» طوله ۷۰۸ أقدام، و له ثلاث قناطر من حدید، بدئ به سنة ۱۸۱۵، و فتح فی سنة ۱۸۱۹، و بلغت نفقته ۰۰۰. ۸ لیرة.

«الثالث» الجسر المسمی «بلاک فریر» بدئ به فی سنة ۱۷۶۰، و فتح فی سنة ۱۷۷۰، و هو یشتمل علی تسع قناطر، طوله ۹۹۵ قدما، و بلغت مصاریفه ۸۴۰. ۱۵۲ لیرة.

«الرابع» جسر «واطرلو» و هو أعظم جسر فی المسکونة، بدئ به سنة ۱۸۱۱، و فتح سنة ۱۸۱۷، و بلغت مصاریفه أکثر من ملیون لیرة ما عدا القرض الذی أخذ من الدولة، و قدره ستون ألف لیرة، و هو بدیع الصنعة کله من حجر المرمر، یشتمل علی تسع قناطر سعة کل منها ۱۲۰ قدما، و ارتفاعها خمس و ثلاثون، و طول الجسر ۱۳۸۰ قدما، و قد جعل علی کل مار به بنی، فجاء المجموع من ذلک فی سنة واحدة ۶۷۶. ۴ لیرة، و عده بعضهم من عجائب الدنیا.

واقعة واطرلو و هزیمة نابولیون

قلت و کانت واقعة واطرلو المشهورة فی سنة ۱۸۱۵، قال بعض المؤلفین زحف نابلیون علی الإنکلیز و معه من الجیش أحد و سبعون ألفا، و کان یرجو أن یفشلهم بکثرة العدد إذ لم تکن عساکرهم تنیف علی ثمانیة و خمسین ألفا، لکنهم صابروا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۰

و دافعوا عساکره من الساعة التاسعة صباحا إلی السابعة لیلا، فلما رأی منهم الجلادة و الثبات ابتدأت عساکره أن تتراخی، ثم اتّصل بالإنکلیز بولو و معه خمسة عشر ألفا، و حینئذ أمر دوک و یلنکنطون بالإطلاق علیهم، فاحتدمت نار القتال بینهم أی احتدام، فقتل من الإنکلیز مائة و عشرون ضابطا، و ألف و ستمائة و أحد و خمسون نفرا، و جرح ۴۳۶ ضابطا، و خمسة آلاف و أربعمائة و ستة و خمسون نفرا، و لکن قتلی الفرنسیس کانوا أکثر، و یومئذ اضطر نابولیون إلی الرجوع إلی باریس لیجنّد جیشا آخر، فلم یوافقه أهل الشوری لأنه کان قد تلف معه أربعة جیوش من قبل، فاضطر إلی أن یخلع نفسه علی ما ذکر سابقا.

«الخامس» الجسر الحدید المسمی ب «المعلق» لأنه غیر مبنی علی قناطر، له ثلاث فتحات واسعات جدا، و هو أعلی جسر فی الدنیا من هذا الطراز، بدئ به سنة ۱۸۱۴، و فتح سنة ۱۸۱۹، زنة ما فیه من الحدید ۵۰۸. ۵ أطنان.

«السادس» جسر «و ستیمنستر»، بدئ به سنة ۱۷۳۸، و تم فی سنة ۱۷۵۰، طوله ۲۲۸. ۱ قدما، و عرضه ۴۴ قدما، و له ۱۵ قنطرة، و بلغت نفقته ۵۰۰. ۳۸۹، و لما شرع فی بنائه حسبه المهندسون من أحسن جسور الدنیا.

«السابع» جسر «فکسهال» صنع من حدید صبّ، بدئ به فی سنة ۱۸۱۱، و فتح فی سنة ۱۸۱۶، طوله ۷۹۸ قدما، و هو یشتمل علی تسع قناطر.

«الثامن» جسر «همر سمیث»، طوله مائة و اثنتان و ثمانون قدما، و غیر ذلک مما ذکره یطول.

نفق التایمس

و من أعجب ما بنی علی هذا النهر، و الأحری تحته، المجاز المعروف «بتیمس طنل» و هو موضع أنشئ تحت الماء، طوله ۳۰۰. ۱ قدم، ارتئی إنشاؤه فی سنة ۱۸۲۵، ثم أغلق لطمو المیاه علیه، ثم استؤنف العمل فیه، و فتح سنة ۱۸۴۳، بلغت نفقته ۰۰۰. ۶۱۴ لیرة، و جملة ما یؤخذ له من المتفرجین علیه فی کل سنة نحو خمسة آلاف لیرة، و ینزل إلیه فی نحو مائة درجة من الحدید، و یدفع علی ذلک بنی

واحد. أنشأته

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۱

جماعة تعرف جماعة الطنل، و معنی الطنل القبو أو السرب، أو النفق، و یقال إن نقر ذراع واحد منه فی بعض المواضع أنفق فیه ألف و مائتا لیرة، و بعضه ۱۲۰ لیرة، و الفائدة من إنشائه مرور الناس فیه من جهة لندرة الأولی إلی جهتها الأخری، فهو بمنزلة الجسر، إلا أنی ذهبت إلیه غیر مرة فلم أر فیه إلا المتفرجین، و قیل إن الغرض منه ذکر شرف للدولة.

البواخر و المراکب التی تجری فی نهر التایمس

و تری البواخر تجری منحدرة و صاعدة فی هذا النهر مشحونة بالرجال و النساء، کما تجری الحوافل و العواجل فی الطرق، و حین تمر تحت القناطر تمیل قصب الحدید التی هی مداخنها، لیمکنها الدخول، فإذا جاوزتها أعادتها کأنها قطعة واحدة. وعدة المراکب المنسوبة إلی هذا النهر بلغت فی سنة ۱۸۵۰- ۷۳۵. ۲، و عدة البواخر ۳۱۸، یستخدم فیها ۰۰۰. ۳۵ نفس من الرجال و الغلمان، و فی سنة ۱۸۴۸ ورد إلی مرساه ۱۴۵. ۴۲ سفینة، ورد من المکس علیها إلی الکرمک ۰۷۷. ۱۹۳. ۱ لیرات، و کانت قیمة الخارج منه ۰۰۰. ۱۱ لیرة، و عدة المراکب التی تسیر فی المدینة ما بین کبیرة و صغیرة نحو سبعة آلاف، وعدة الصنف المسمی هکنی کرج ۳۵۰. ۴. و علی الحافلة الکبیرة و هی المعروفة باسم أمنیبوس تری أسماء الحارات و الأماکن التی تسیر إلیها، و لا بد و أن یکون مکتوبا علیها اسم البنک، فإنها کلها تمر به إلا ما قل، و کل منها یسع اثنی عشر شخصا بداخلها و تسعة بخارجها، و من هذه الحوافل نحو ستمائة حافلة اشترتها جمعیة واحدة مع لوازمها من الخیل و العدد بأربعمائة ألف لیرة، فتکون کل واحدة منها بنحو سبعمائة لیرة، و هی بالنسبة إلی حوافل باریس معنتة من وجوه.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۲

الفرق بین حوافل باریس و لندرة

«أحدها» أنه لیس فی داخلها شیء یتمسک به الإنسان، فأول ما یدخلها یستمر سائقها فی السیر فیترنح الداخل یمنة و یسرة، و ربما وقع علی بعض الجلوس، و کثیرا ما یعجل البواب إلی إطباق الباب علی ید الداخل، و کثیرا ما وردت شکاوی الرکاب فی هذه إلی القضاة، فمنهم من حصل أرشا و منهم من خاب.

«الثانی» أنه إذا کان بین الستة رجلان سمینان ضاق الموضع بالباقی، إذ لا یکاد یسع هذا العدد إلا باللزّ و التّضام، و قد وقع غیر مرة نزاع أفضی إلی الشرع ما بین هؤلاء السوّاق، و بین الرجال السمان، فإن السائق یأبی أن یأذن للسمین فی أن یتبوأ موضعین و یدفع علیهما أجرة واحد. فأما فی باریس فبین کل قاعدین فاصل من قضیب نحاس، فالقاعد فیها مقعدا لا یکاد یمس جاره، و کأنما هو قاعد علی کرسی بداره.

«الثالث» أنه قد یتفق أن یکون الیوم باردا، و یبتدر أحد الجلوس إلی فتح إحدی الطیقان من دون أن یسأل جاره هل یستطیب ذلک أو لا، فإن کل واحد من الناس عموما و من الإنکلیز خصوصا یری أن فی صلاح نفسه صلاح غیره.

«الرابع» أن الدّاخلین لا یدفعون الجعل عند الدخول کما یفعل فی باریس، بل عند الخروج فیدفع الخارج الأجرة إلی السائق، و یذهب فی خلال ذلک الوقت عبثا ما بین تصریف الدراهم و القال و القیل. و البواب هنا أبدا معرض رأسه للمطر و الشمس، إذ لا جنّة تقیه، بخلاف البواب فی باریس، و لبوابی حوافل باریس شریط من قصب علی أطواق ملابسهم، و صفحة علی صدورهم تؤذن بمهنتهم، و متی وجد أحدهم موضعا فارغا عند باب الحافلة قعد فیه، و أفاض فی الحدیث مع جاره، وعدّ نفسه من جملة الرکاب بلا محاشاة.

و هناک فرقان آخران بین حوافل لندرة و باریس، و هو أن حوافل باریس لیس لها مقاعد علی ظهرها، فکل رکابها یقعدون فی

داخلها، فلهذا کانت أطول و أوسع من حوافل لندرة و هی أشقّ علی الخیل، غیر أن الفرنسیس لما کان دأبهم و ولعهم التبدیل و التغییر، صاروا الآن یصنعون حوافلهم کحوافل الإنکلیز فی الصغر، و فی جعل مقاعد لها علی ظهرها.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۳

سوّاق العواجل فی کل من لندرة و باریس

و سواق العواجل فی لندرة ذوو شطط و جفاء، فإنهم یتقاضون الغرباء أکثر من المرسوم علیهم من المیری، و حیث أنهم یعلمون أن أصغر القضایا لا تفصل إلا بحضرة القاضی بعد قال و قیل، و أنه لیس کل أحد یروم التشرف بمجلس الأحکام، فلا یألون جهدا فی غبن الراکب، و أخذ شیء منه زائد علی المرتب، و من لؤمهم أیضا أنهم قلما ینبهون الماشین فی الطریق قبل أن یدرکوهم، و إذا تکلفوا ذلک نبّهوهم بنوع من الشتم. أمّا فی باریس فإن للسواقین شیخا فی کل خط، فمتی حصل بین أحدهم و بین المستأجر نزاع فصله الشیخ، و متی دخلت العاجلة أعطاک السائق ورقة مطبوعة فیها عدد عاجلته لتهدیک إلی معرفته عند الاقتضاء.

أجور النقل فی کل منهما

و الجعل علی المضمار فی باریس بعیدا کان أو قریبا نحو شلین، و لا فرق فی عدد الرکاب، فأما فی لندرة فعلی کل میل نصف شلین إذا کان راکب واحد، و لکن إذا کانت المسافة مثلا میلین، و ادّعی السائق أنها ثلاثة، لم یفصل بینک و بینه غیر البأس و البطش، فإن رآک أضعف منه ألزمک ثلاثة. فأما إذا اکتریت بالساعة فسیر ساعة فی لندرة جعله شلینان، و فی باریس فرنکان، غیر أنه یوجد فی هذه عواجل مفتوحة تشبه عواجل الأمراء و الکبراء، و ربما جرها حصانان. و فی لندرة لا وجود لها، و من الغریب أن الحوافل التی جعلها فی لندرة أغلی تکون أبدا مشحونة بالرکاب، و الرخیصة یعرض عنها.

اختراع العواجل بین الفرنسیین و الإنکلیز

و عن بعضهم أن هذه العواجل الکبیرة هی من مخترعات الفرنسیس فی زمن فرنسوا الأول، و لکن لم یکن منها حینئذ إلا اثنتان، و فی سنة ۱۵۵۰ کان منها ثلاث

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۴

و واحدة لهنری الرابع، و لکن من غیر سیور، و لم تتقن إلا فی عهد یوحنا دولافال، فإنه لعظم جثته لم یکن یقدر أن یسافر إلا بها، و کانت ملوک فرنسا من قبل ذلک تسافر علی الخیل، و الملکات فی محفات، و الخواتین یرکبن وراء الأمراء، و أول عاجلة رئیت فی إنکلترة کانت فی زمن الملکة مارى، و ذلک سنة ۱۵۵۳ و فیه نظر.

إمداد لندرة بالماء

و فی لندرة تسع جمعیات لإمداد سکانها و ما یلیها بالماء، ینفد منه فی کل یوم ستة و أربعون ملیون کالن، منها عشرون ملیونا من نهر التامس، و ستة و عشرون ملیونا من النهر الجدید، و من موارد أخری. و هذا النافد موازٍ لنهر عرضه تسع أقدام و عمقه ثلاث و جریه فی کل ساعة قدر میلین، و مشروب السکان کله من النهر الجدید، و من نهر آخر یسمی «لی لا» من نهر التامس، و طول النهر الذی حفر حدیثا ثمانیة و ثمانون میلا، و قد تم حفره فی سنة ۱۶۲۰، و اسم من نهره «سر هف میدلطون».

الحوافل فی إنکلترة

قال و کان سیر مراکب البر فی إنکلترة بطیئا جدا، حتی أن أحد المؤلفین قال إن الخوری آدم علی ترهله کان یمشی أسرع منها، و کانت کثیرا ما تنشب فی الوحل و تقرقع. و قال آخر لم تکن الحوافل من قبل سنة ۱۸۲۸ معروفة عند الإنکلیز، فقدم إلیهم فی التاریخ المذکور رجل من فرنسا اسمه شلیبیر فاستعملها عندهم، و الآن یوجد لها جمعیة إیرادها نصف ملیون فی العام، و رأس مالها نحو ۰۰۰. ۰۰۰. ۳، و عدد الحوافل التی لها رخصة ۰۰۰. ۳، و کل حافلة فی لندرة یلزم لها عشرة رؤوس من الخیل، و علف الحصان یقوم فی الیوم نحو شلینین.

جمعیات التأمین فی لندرة

و یوجد أیضا فی لندرة ۷۶ جمعیة لضمان الحریق و الغرق و المعیشة و غیر ذلک،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۵

و قلّ أن یوجد دار عظیمة أو حانوت کبیر، أو شیء آخر نفیس من دون ضمان، و صورتها إذا خاف إنسان علی داره أو سفینته أو أمتعته من النار أو السرقة، ذهب إلی جمعیة منها و ألزم نفسه أن یدفع لهم فی المائة شیئا معلوما إلی أجل مسمی، فإذا هلک ماله غرّمت الجمعیة قیمته. فأما ضمان المعیشة فهو أن الإنسان یلزم نفسه أن یدفع فی کل سنة شیئا، حتی إذا مات قامت الجمعیة بمؤنة عیاله، و لکل سن مبلغ، فإن الشاب القوی المظنون تعمیره یدفع أقل مما یدفع الطاعن فی السن، و قبل تدوین اسمه فی دفتر الضمان یکشف الطبیب عن بدنه لیعلم هل فیه داء خفی أو لا، فإن علم أن به علّة لم یقبل، أو یکلف دفع مبلغ وافر. و للمیری أیضا شیء مما تأخذه الجمعیة، إذ لا یصح انعقاد جمعیة شرعیة أو إحداث شیء شرعی فی بلاد الإنکلیز من دون غرم للخزنة. و فی المحترفات الکبیرة و الدیار العظیمة یتخذون أصونة من حدید لصون المال و الحلیّ، و کواغد المصرف و غیرها. و عن بعض المؤلفین لم تعقد جمعیة ضمان الحریق من قبل ۱۷۰ سنة، فکان من یرزأ بالنار یجمع له مدد من الناس، إلی أن انعقدت الجمعیة المسماة الید بالید فی سنة ۱۶۹۶، ثم اقتدی بها جمعیتان أخریان، فلما أن نجحت مساعیهما تابعتهما علی ذلک أخری، حتی بلغت الآن فی المملکة ۷۴ جمعیة. و فی سنة ۱۸۰۵ قوّمت الأملاک التی ضمنت من خطر الحریق بمائة واحد و ثمانین ملیون لیرة، و فی سنة ۵۵ بلغت ۰۰۰. ۰۰۰. ۹۲۷، و قد أطفأوا فی سنة واحدة ۳۹۰ حریقة، و أنجوا سبعین نفسا.

محلات الصیارفة فی لندرة

و فی لندرة ۸۸ محلا للصیارفة، و لکن لا ینبغی أن تفهم من لفظة الصیرفی هنا ما تفهمه منها فی البلاد الشرقیة، فتظن أنه یصرف اللیرة مثلا بشلینات و یأخذ علیها فلسا أو فلسین، و إنما الصراف هنا هو من تأتمنه الأغنیاء و الکبراء علی أموالهم، فیدفعونها إلیه و یأخذون منه فائدتها فی العام، و کل واحد من هؤلاء الصیارفة عنده عدّة من الکتّاب و الحسّاب و الخدمة، فمحترفه عبارة عن دیوان یدخل فیه الناس أفواجا أفواجا.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۶

منشئات البر و الاحسان فی لندرة و ما یلیها

و فی لندرة من المواضع المنشأة للبر و فعل الخیر ما یصعب عده و یعسر حده، قال بعض المطرین علی الإنکلیز و أظنه أمرصون الأمیرکانی المشهور، إن الإنکلیز أکثر الخلق فعل خیرات، و أظن ذلک یصدق علیهم من دون مراء، وها أنا أبیّن لک بوجیز من القول عظم ما تفعله هذه الأمة من البر و الإحسان، فإذا سمعته فاقض لنفسک بما تراه الحق، فأقول: إن فی لندرة مستشفیات للمجانین، و الجذمی، و ناقصی الأعضاء، و للمرضی و الجرحی، و السّقط، و الصّم و البکم و العمی، و المحتاجین و الأشقیاء، و لسائر من حلّت

به نکبة و فدحته مصیبة، و للمحرومین من الرزق، و للعاجزین من الشیوخ و للأیتام و للنغول و للغرقی و الأرامل، و لإرشاد الضالین، و تحریر الرقیق، و الرفق بالحیوان، ما عدا محال التعلیم و العبادة و نشر الکتاب المقدس، و غیر ذلک مما یبلغ مئات. ففی مارستان صان برثولومی ۵۸۰ فراشا، و یوزع منه أدویة و غیرها علی سبعین ألف شخص فی کل سنة، منهم أربعة آلاف بداخله. و فی غیر مستشفی آخر ۵۳۰ فراشا، و توزع منه أدویة و غیرها قدر ما یوزّع من ذلک، و فی مستشفی صانت جورج ۳۱۷ فراشا، و یوزع منه أدویة و غیرها علی کثیر من المرضی و الزمنی، و یوجد مثلها ستة أخری لشفاء الأمراض و الجراح و لتربیة النغول، یربی فیه نحو ۴۰۰ ولد، و آخر لأجل تربیة أولاد العساکر البحریة و أولاد أهل اسکوتلاند، و آخر لتربیة أولاد العساکر البریة فیه ألف ولد، و محال أخری للأیتام أکثر من أن تعد. هذا و للجمعیة البشریة مساع حمیدة لاستنقاذ الغرقی، فإنها تستخدم أناسا لاستخراج الغارقین بآلات مخصوصة، و تبذل جهدها فی مداواتهم و شفائهم، و تجود بالجوائز علی کل من ینقذ أخاه فی البشریة، و کذلک یوجد جمعیة لإغاثة الذین یصابون بالنار، و فی کریست هسبیتال یربی أکثر من ألف ولد، و قل کذلک فی الباقی. قال صاحب الکتاب الذی منه نقلت: إن جملة المستشفیات و المنشئات الخیریة من عند لندرة و ما یلیها، إلی حد کرینتش و هی علی عشرین دقیقة من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۷

لندرة، لا تنقص عن أربعمائة و أحد و تسعین محلا، و تفصیلها کما یأتی:

مستشفیات عمومیة. ۱۲

موزعات مخصوصة للأدواء کالجدری و السل و نحوهما. ۵۰

موزعات عمومیة (و هی المواضع یعطی منها الدواء). ۳۵

جمعیات و منشآت لحفظ الحیاة و الأدب و حسن السیرة. ۱۲

جمعیات لمنع الجرائر و الشر. ۱۸

جمعیات لإغاثة الذین هم فی الضیق و الفاقة علی العموم. ۱۴

جمعیات نظیرها علی الخصوص. ۱۲

جمعیات لمساعدة ذوی الکد و الکدح. ۱۴

جمعیات للصم و البکم و العمی. ۱۱

مدارس و مستشفیات و محال للصدقة علی العاجزین من الهرم. ۱۰۳

جمعیات خیریة تجری أرزاقا عمومیة مما یعرف عند العامة بعلوفة. ۱۶

جمعیات خیریة خاصة بطبقات من الناس مخصوصة. ۷۴

مستشفیات للأیتام و لغیرهم من الأولاد المخذولین. ۳۱

محال للتربیة و التعلیم. ۱۰

محال أخری مثلها. ۴

جمعیات للمدارس و الکتب الدینیة و مساعدة الکنائس و عیادة المرضی. ۴۰

جمعیات للتوراة و الانجیل و المرسلین. ۳۵

مصروفات و تبرعات

تبلغ مصاریفها فی وجوه مساعیها المتنوعة فی کل سنة ۷۳۳. ۷۷۴. ۱ لیرة یجمع منها أکثر من ملیون من المتطوعین لفعل الخیر، و یقال أیضا إن جملة ما فرّق علی الفقراء فی بلاد الإنکلیز من سنة ۱۸۱۶ إلی سنة ۱۸۴۹ بلغ مائتی ملیون لیرة، و إیراد المستشفیات الکبار من

الوقف وعدتها أربعة عشر يبلغ ۶۸۹. ۱۰۹، و يقال إن فی مستشفی صان برثولومی يصرف فی كل سنة نحو ثلاثمائة ليرة ثمن خمر تسقی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۸

للمرضی، و نحو ۰۰۰. ۲ رطل من زيت الخروع، و ۲۰۰ كلن من الأرواح، ثمن الكالن ۱۷ شلينا، و ۱۲ طنا من بزر الكتان، و ۱۰۰۰ رطل من السنا، و ۲۷ قنطارا من الملح، و ۰۰۰. ۵ يارد من البفت للربائط، و ۷۰۰. ۲۹ علقة، و طن و نصف من الربّ، و ۵۰ رطلا من العشبة فی كل أسبوع، و قس علی ذلك. و مصروف مستشفی كرينج فی السنة عشرون ألف ليرة، و فی هذه السنة صرف علی التعليم فی بريطانية ۲۲۳. ۵۴۱ ليرة، و علی العلوم و الفنون ۸۵۵. ۷۳، و لما سنّت الإنكليز تحرير الرقيق فی سنة ۱۸۳۸ تطوعوا بعشرين مليون ليرة تعويضا لمواليهم، و بلغ ما جمع لهم فی لندرة فی عام واحد ۴۶۴. ۳۶۰. ۱، و فی سنة ۱۸۴۸ كان منهم فی المستشفيات ۳۲۳. ۵۶ منهم ۵۸۷. ۹ نغلا أمهاتهم فی المستشفی و ۱۷۵. ۴ أمهاتهم فی الخارج.

فقراء لندرة

و جميع الجمعيات تنال مددا من الملكة و من زوجها، و علی قدر هذه الجمعيات المتواطئة علی البر و الإحسان، فإذا رأيت الفقراء فی لندرة توهمت أن ليس أحد فيها يعمل الخير، فإنك ترى نساء يمشين علی الثلج حافيات بأخلاق ثياب يظهر منها مواضع كثيرة من أبدانهن، و كثيرا ما تراهن يلتقطن الجذور من الطرق، و نفاية ما يرمی به من الطعام من الديار.

منع التسول

و لا يباح للفقير هنا أن يتكفف، و إذا وجد أحد الشرطة إنسانا مادّا كفه أخذه و أودعه السجن، غير أن بعضهم لا يتحرج من ذلك ليلا إذا علم أن الشرطی لن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۲۹

يبصره، و أكثر من يفعل ذلك النساء، و خصوصا نساء إرلاند فهن يجرين مع المارين و يلحفن فی الطلب إلحاف الغريم، فإذا لم تنل إحداهن شيئا من غريمها لعنته و انصرفت، و كذلك لا يباح لأحد أن يكسب مالا بغير الوجه الذی يؤهله إلی ذلك، فلا يسوّغ مثلا لأحد أن يتعاطی الطب و هو جاهل به، أو صنعة من الصنائع من دون أن يأخذها عن آخر، و يشهد له أستاذه بأنه أتقنها، و لكن هم فی ذلك أقلّ ضبطا و تحرزا من الفرنسيس، و أكثر عرضة للتدجيل و المخرقة.

زی أولاد المدارس

و بقی لی أن أقول إن زیّ الأولاد الذين فی المدارس و المستشفيات الخيرية بهذه المدينة من أقبح ما يكون، فإن الأولاد الذين فی بلوكوت سكول، أعنی مدرسة الرداء الكحلی، و هی من أشهر المدارس، يلبسون أردية من هذا اللون طويلة إلی أوساط سوقهم، و يتحزمون بالجلد كالرهبان عندنا، و لهم جوارب صفر، و لا تزال رؤوسهم مكشوفة صيفا و شتاء، مع أنهم من أبناء الوسط، فأين هم من أولاد مدارس باريس الذين يلبسون لباس ضباط العسكر، فتحسب كلا منهم ضابطا أو ضويبطا!؟ و يقال إن اللون الكحلی فی بلاد الإنكليز كان فی السابق خاصا بالخدمة و الصبيان، فلم يكن أحد من الخاصة يستليقه لنفسه، حتی استعمله ضباط العساكر البحرية أولا فصار مرغوبا فيه، ثم استعمله الوكس و هم فرقة من الأشراف من أهل المجلس فصار الآن خاصّا بالعظماء و النبلاء.

و ذكر مؤلف أبجدية الأوقات جماعة تعرف بجمعية الببل، قال من شأن هذه الجمعية فی فرنسا و إنكلترا جمع الأموال لمقاصد خيالية علی أی وجه من السحت كان، و غير مرة تقع فی العنت و سوء العاقبة، و قد انهمكت بإنكلترة فی هذه الأيام فی رأس مال بلغ

ثلاثمائة مليون ليرة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۰

الجمعيات و المصالح الجليلة فی لندرة أهلية

و الحاصل أن فی لندرة جمعيات كثيرة للخير و الشر، و كل ما يدار فيها من المصالح الجسيمة و المساعی الجليلة، فإنه يكون بواسطة جماعة لا بواسطة الدولة، بخلاف مصالح باريس كما سبقت الإشارة إليه. و أقدم جمعية للتجارة هی الجمعية المسماة ستيل يارد، كان انعقادها فی سنة ۱۲۳۲، و أقدمهن فی المساعی الدينية جمعية انتشار المعارف المسيحية، كان انعقادها فی سنة ۱۶۹۸، و فی الستی وحدها إحدی و تسعون لجنة أی كومبانية لأصناف التجارة و المبايعة، منها اثنتا عشرة لجنة تنعت بالهونورابل أی المكرمة.

الشرطة فی لندرة

و فی لندرة نحو سبعة آلاف شرطی و هم يتناوبون عسّ المدينة ليلا و نهارا، و فی كل طريق شرطيان منهم، فی كل طرف واحد. و هم علی غاية من النظافة و الوضاءة، و لا يكون مع الشرطی سلاح بخلاف شرطة باريس، و إنما يكون بيده عصا قصيرة عليها صورة التاج، فإذا عصاه أحد من ذوی الشرور ألقاها عليه ايجابا للطاعة فلا يمكن بعدها الخلاف، و يكون معه فانوس مضلّع، فإذا أراد أن يتعرف شخصا عن بعد أداره فوقع النور علی وجهه حتی يراه كأنه بجنبه. و لا يسمح للشرطی بأن يتعاطی الدخان فی حال مباشرته الخدمة، خلافا لشرطة مرسيلية و غيرها، و لا أن يلطأ من المطر أو الثلج، و لا أن يرفع فوق رأسه ظلّة تقيه منهما أو من الشمس. و من هؤلاء الشرطة من يتزيا بزیّ العامة حتی لا يكون معروفا و يسمی الثقاف، و يجب علی كل منهم أن يتعهد أبواب الديار و الحوانيت ليلا، ليعلم هل هی محكمة القفل أو لا، فإذا رأی أحدها غير مقفل نبّه مالكها عليه، و أن ينظر إلی أنوار الغاز فی المواضع المذكورة و ينبّه علی إطفائها بعد فوات الوقت، و أن يمنع من رمی المياه القذرة و غيرها من الشبابيك، و ييسّر المرور فی الطريق للماشين و الراكبين، و أن يبذل جهده فی فضّ الجموع و منع الخصام فی الطرق و فی إزالة كل ما يخل بالحياء و الأدب، و ليس له أن

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۱

يدخل البيوت إلا باستدعاء سكانها، و قد يدخلها فی بعض الأحوال بأمر رئيس الديوان، و ذلك عند التفتيش علی أشياء مهمة، و إذا طلب منه أحد أن يدله علی طريق أو دار فلا يألو جهدا فی إرشاده، و يجب عليه أن يتعرّف أهل الشرور و المساوئ و يراقبهم، و لا سيما إذا اجتمع منهم اثنان أو ثلاثة. و إذا أراد أحد مثلا أن يشتری شيئا من حانوت، أو يستكری عاجلة، فامتنع مالك الشیء من بيعه أو إكرائه فللشرطی أن يلزمه بذلك نفيا للمحاباة، و يجب حضور واحد أو أكثر من الشرطة فی جميع المحال التی يكثر انتياب الناس إليها، منعا لما عساه أن يحدث من الجلبة و الخصام. أمّا فی باريس فإن الشرطی يتبوأ موضعا فی داخل المحل، و أما فی لندرة فإنه يقف خارجا أو فی دهليز المحل، و ربما دخل أيضا للتفرج كآحاد الناس، و لكن حده فی ذلك معروف عند المنتابين. و يجب علی الشرطی أيضا أن يمنع الفقراء من التكفف فی الطرق، أو من الاضطجاع أمام الأبواب و فی الأماكن المطروقة، و إذا وجد ولدا تائها عن مأواه أرشده إليه، فإن لم يعلم له مأوی آواه فی ديوان الشرطة، و كتب اسمه و صفته فی صحف الأخبار حتی يأتی من ينشده. و إذا بلغه أحد الأهلين شكوی عن لص أو ذی عدوان تتبع اللص و المتعدّی حتی يثقفهما، فإذا وجد المذنب ساقه إلی الديوان برق، إلا إذا كان شرسا فحينئذ يستدعی بشرطی آخر لإعانته، و يكون معه آلة يصوّت بها لإحضار من استدعی به، و عليه أيضا أن يری الكلاب مقيدة، و لا سيما فی زمن الصيف، و أن يمنع الرعيّة من حمل السلاح ظاهرا أو خفية، و من أذی الحيوانات و تحميلها مالا تطيق. و يجب علی كل منهم أن يكون معه كتاب فيه أسماء الطرق المسلوكة و المواضع المشهورة، و حدّ أجرة العواجل حتی يفصل ما بين الغريمين، و أن يعرف قدر المسافة من طريق إلی غيرها. و فی كل يوم صباحا ينظر رئيس الشرطة فی ملبوس المستخدمين فی

هذا الديوان، و فيما يلزم إبقاؤه نظيفا، فإذا رأى أحدا منهم قد أهمل نظافة شيء أو تصليحه غرّمه على ذلك، و فی يوم الأربعاء يكون تفتيش عام على الملابس، و مرتب الشرطی فی لندرة من ستة عشر شلينا فی الأسبوع إلى خمسة و ثلاثين، و أكثرهم يموت بداء الصدر من طول الوقوف، و هم أنفع طائفة للمدينة و الناس.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۲

مفاضلة بين شرطة لندرة و شرطة باريس

و فی الجملة فإن شرطة لندرة خير من شرطة باريس، فإن جلّ هؤلاء من الفلاحين، و هم على غاية من الفظاظة و التكبر، و لا سيما الذين يلبسون برنيطة نابليون. و فی سنة ۱۸۴۸ بلغ عدد الشرطة فی إنكلترة و ولس ۷۱۶. ۲ أكثرهم فی إنكلترة، و بلغت مصاريفهم ۹۴۴. ۱۶۳ ليرة، منها ۲۰۲. ۱۳۱ مرتب وظائف لهم، و ۷۴۴. ۳۲ لدواع اقتضتها الضرورة، و بلغت مصاريفهم فی سنة ۵۶- ۰۸۱. ۴۳۴ لكن عددهم زاد على ما تقدم. و فی لندرة نحو ثلاث فرق من المشاة و كتيبتان من الفرسان، و هؤلاء الفرسان نخبة من جميع المملكة فهم على غاية من الجمال و الاعتدال، فإذا رأيت منهم نفرا حسبته رئيس عسكر، و لهم سراويل من جلد أبيض، و جزم طويلة تفوت ركبهم، و عامة نساء لندرة من السفلة يذهبن معهم مجانا.

المطاعم و المقاهی و المسارح و دور الأوبرا

و فيها ۶۰۰ موضع للأكل، و ۹۰۰ موضع للقهوة، و ۱۸ ملهى و هو المسمّى عندهم ثياطرا، أعظمها الملهى الكائن فی «هاى ماركت» يقال إنه أكبر ملهى فی الدنيا، و مثله أو أكبر منه ملهى بميلان فی إيطاليا يسمى «لا سكالا» كان بناؤه فی سنة ۱۷۹۰ عن رسم رجل من النمسا، ثم غيّر بعض التغيير فی سنة ۱۸۱۸، و أكرى بعض أكنانه العلياء بثمانية آلاف ليرة، و بعض مقاعده فی الحضيض بأربعة آلاف.

و من ذلك الأوبرة الطلياتيّة الملوكية فی كافن كاردن، أسّست فی سنة ۱۸۰۸، و فتحت فی سنة ۱۸۰۹، و اقتضى لإنشائها و تهيئتها مبالغ وافرة، و بلغ مصروف محل الغناء فيها فی سنة ۴۸- ۳۴۹. ۳۳ ليرة، و محل الرقص ۱۰۵. ۸ ليرات، و محل الموسيقى ۰۴۸. ۱۰ ليرة، و صرف على الآلاتية ۰۰۰. ۷ ليرة، و إجارته فی العام ۰۰۰. ۶ ليرة، و استخدمت فيه إمرأة لاعبة من الفرنسيس على ثمانية أشهر بمبلغ ۵۰۰. ۱۲ ليرة، و حسب أن نفقته فی كل ليلة بلغت ۸۴۵ ليرة، و قد احترق الآن ثم بنی.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۳

و أقدم ملهى بلندرة هو المسمى «دروری لان ثياطر»، و لكن بناءه غير قديم، فإنه أحرق مرتين و هدم مرة واحدة، و أخسّها المحل المسمى فيكطوريا ثياطر، كما أن فيكطوريا بارك هو أخسّ الغياض، و فيكطوريا كافی هوس أخسّ محال القهوة، و أكثر مواضع اللهو هذه تشرف بحضرة الملكة، و حينئذ يمكن للغنی و الصعلوك أن يراها و زوجها و أولادها، إلا أن الغالب أنه متى ذهبت إلى ملهى ما تنافس الناس فی الذهاب إليه، فتغلو المقاعد بحيث لا يعود يتبوأها إلا أهل الاستطاعة، و ربما أرخيت ستارة المحل الذی تقعد فيه، و ليس حضورها بمانع مما ألفها اللاعبون و المتفرجون، فقد شاهدت مرة بحضرة زوجها و أولادها زمرة اللاعبين مقبلين بعصیّ عليها أصناف كثيرة خسيسة من جملتها زوج نعال.

عن التمثيل و الممثلين

و اعلم أن التمثيل فی الملهى يتجاذبه نوعان من التاريخ و الأدب، و فيه تمثل الحوادث و الوقائع الماضية فتصير كأنها مشاهدة بالعيان، و فيه تنشد الأشعار الرائقة و القصائد البليغة، و يقع من المحاورات الأدبية جدّا و هزلا ما يسرّی به عن الثكلى حزنها، و كل ما يقال فيه

فهو من الكلام الفصيح الذى تستعمله علماؤهم و أدباؤهم، فإن أعظم شعراء الإفرنج ألّفوا فيه، و ما من خطيب مصقع أو أديب بارع إلا و دوّن شيئا من هذه المحاورات.

و من طريقة اللاعبين فيه أن يخصّصوا كل شخص منهم بحال، فمن كان مديد القامة، جهير الصوت، أبتع، خصّصوه بأن يمثل الأمور التى فيها الحماسة و وعيد و تذمير، و من كان لطيفا رخصا خصّ بما شأنه الاستشفاع و الملاطفة و التملق، و من كان حزقّة خصّ بالأمور السخريّة المضحكة، و قس على ذلك. و لو عرفت

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۴

قدر ما يسرده هؤلاء اللاعبون عن ظهر القلب لأعظمته جدا، فإن كلا منهم يحفظ من القصص و النوادر ما يكون أكبر حجما من ديوان المتنبى، و لا يكاد أحدهم يتلعثم فى عبارة، و قد يوارون شخصا بيده الكتاب الذى تحفظ منه تلك الحكايات فى مكان، حتى إذا ذهل المتكلم عن شىء ردّه، و لكن وقوع ذلك نادر. و يقال إن هؤلاء الفصحاء فى ملعبهم أولوا عىّ فى غيره.

و فى هذه المواضع من الآلات و الأدوات و المناظر ما يحيّر الناظر، لأنه على قدر اختلاف الوقائع و الحوادث ينبغى أن يكون اختلاف الأدوات اللازمة لتمثيلها، مثال ذلك إذا أريد تمثيل ما جرى بين السموأل و بين الحارث بن ظالم، حين طلب منه أن يسلّمه الدروع التى أودعها عنده أمرؤ القيس، نصبوا مكانا شبيها بالقلعة و جاءوا بدروع و سيوف، و شخصين مثيلى أمرئ القيس و السموأل، فيكون هذا لابسا لباس الملازم لبيته المشتغل بأمور نفسه، و ذاك بلباس البطل المحارب المزمع على السفر، و يشرع الشخص الممثل لامرئ القيس فى أن يخاطب الآخر بأنه قام له هم فى النفس اضطره إلى مفارقة الوطن و مباينة السكن، فإن المعالى لا تدرك إلا بجهد النفس و المخاطرة، و إدانة المصون من النفائس و الرغائب و ما أشبه ذلك من الكلام الحكمى، و ينشد فى خلال ذلك أبياتا يتمثل بها كقول المتنبى مثلا:

تريدين إدراك المعالى رخيصة و لا بدّ دون الشهد من إبر النحل

أو قول الآخر:

يغوص البحر من طلب اللآلئ و من رام العلى سهر الليالى

و يتأوه فى أثناء الخطاب و يحرك رأسه و ينظر نظر المبتئس الشافن، إلى أن يفرغ من الإنشاد و الناس منصتون لا تسمع لأحد منهم نأمة، ثم يأتى بالأدرع و السلاح و يسلمها للسموأل فيأخذها منه، و بعد أن يتوادعا و ينشد كل منهما أبياتا دعاء لصاحبه على ما يقضيه المقام، يدخل السموأل حصنه و يرخى الحجاب، و بعد قليل يرفع و يأتى الشخص الممثل به الحارث بلباس فاخر يدل على صفته، و معه جند و أعوان شاكى السلاح، و يطلب الدروع من السموأل و هو متهدد له و متوعد، و يتمثل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۵

بأبيات تدل على شدة بطشه و سطوته بين أقرانه، كقول الفرزدق مثلا:

و كنا إذا الجبار صعّر خدّه ضربناه حتى تستقيم الأخادع

أو كقول المتنبى:

الخيل و الليل و البيداء تشهد لى و الرمح و السيف و القرطاس و القلم

فيجيبه السموأل من حصنه بالمنع و ينشد أبياتا تدل على وفائه، و صدق نيته و شرف نفسه، ثم تدور بينهما المحاورة إلى أن يقنط الحارث من أخذ الدروع، فيعمد إلى ابن السموأل فيأخذه و يذبحه بمرأى منه، و هنا يرخى السجف، و بعد قليل يظهر السموأل و بيده الدروع، و يذهب بها إلى أقارب امرئ القيس و يسلمها لهم، و ينشد أبياته المشهورة، و هنا يتم الفصل. و هذا التمثيل يجرى فى أكثر من ساعة لما يتخلله من المحاورات كما ذكرنا و ليس الخبر كالعيان.

التراجيدى و الكميدى

ثم إنّ التمثيل عندهم على نوعين: الأول تمثيل ما يحزن من نحو الحروب و أخذ الثأر، و يقال له عندهم «تراجيدى». و الثانى و هو عكسه و يقال له «كوميدى»، و كلاهما يعدّان من الأدبيات، غير أن النوع الثانى يكثر فيه التوريات و المؤاربات و التجنيس، و لغة الإنكليز فيما أظن أطوع على ذلك من غيرها، و إن اللغات فى هذه الملاعب و إن اختلفت و فضل بعضها بعضا، إلا أن الحركات و الإشارات جميعها واحد، و أشهر اللاعبين عند الإفرنج أهل إيطاليا، و لعلّ ذلك بالنظر إلى الإنشاد و الغناء، فإن اللغة الإيطالية أطوع على ذلك من غيرها، لكثرة ما فيها من الحركات، و هم أول من أحيا طريقة التراجيدى و ذلك القرن السادس عشر، و لكنهم كانوا يحفظون النغم عن ظهر القلب، كما هى العادة عندنا الآن، ثم اقتدى بهم أهل فرنسا، لكن الحلوق وقتئذ كانت مثل العقول غليظة جافية. و أول من ألّف فى هذا الفن من اليونان أوروبيدوس، و ذلك قبل الميلاد بأربعمائة و ثمانين سنة. فأما فى

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۶

تمثيل المحزنات و نحوها، و فى خفة الحركات و اللباقة، فالمزية لأهل فرنسا و الإنكليز تبع لهم. فأما فى المضحكات فهؤلاء هم المتبوعون و ذلك لسعة لغتهم. و من العجب هنا أنه مهما يظهر فى وجوه الإنكليز من العبوس و الانقباض، فإن لسانهم أدعى إلى البسط و الضحك من ألسنة سائر الإفرنج، و من الطليانيين من ينشد فى هذه المواضع أبياتا بل قصائد على البديه، بأن يختار أحد الحاضرين لفظة و يقول للّاعب أنشد أبياتا على هذا الروى، فينشده دون توقف، و قد سمعت أحد الإنكليز ينشد أبياتا زعم أنه مرتجلها، و ذلك بأن يصف مثلا أحد الحاضرين بأنه لابس لباسا بلون كذا، أو أن بيده عصا أو أنه متكئ، و عند التحقيق علم أنه إنما كان راويا لها فقط، على أن ارتجال الشعر عند أى جيل كان من الإفرنج هيّن لأن كلامهم كله مجزوم، أى خال عن الإعراب. و ليس بين الكلام المتعارف عند خاصّتهم و بين كلام الكتب من فرق كبير، إلا أن يقال إن مهابة الجمع تفحم الشاعر. غير أن من ألف رؤية الجموع فى كل ليلة تساوى عندهم قلّهم و كثرهم، فمثله كمثل العائم فى البحر يستوى عنده قاموسه و ضحضاحه، و على كل حال لهم المزية الكبرى فى كثرة الحفظ و فى حسن الأداء، ثم إنه كما يتعلم من هذه المشاهد كثير من المحامد و المكارم و الفصاحة و الخطابة، كذلك يتعلم المترددون عليها و لا سيما النساء، كثيرا من الحيل و الأسباب الموصلة إلى الوصال، و تبديل البعولة بالعشاق، لما يرين من فتور الزوج و حرارة العاشق الممثلين نصب أعينهن، و خصوصا تكلف العجب و التيه من اللاعبات على الرجال، فإنهن يبدين من هذه الحركات و الصفات ما يغرى كل امرأة بمحاكاتهن، و كذلك اللاعبون يبدون من الحماسة و التجبر ما يشوق كل امرأة إلى أن يكون لها بعل، أو عاشق نظيره، و لا سيما حين يلبسون الديباج، و يتقلدون السيوف، و يأمرون و ينهون، و أعظم ما يعجب النساء من تلك المناظر هو أن يرين الرجال يتضاربون بالسيوف و نحوها، أو أن يأخذوا ثأرهم ممن افترى على حرمهم، و قد تلبس الرجال فى هذه الملاعب ملابس النساء، و النساء ملابس الرجال، و أحسن ما تبدو المرأة به ما إذا لبست لباس الكمى، و على رأسها خوذة، و فى الواقع فإن كل ما يلبسن هناك يليق بهن.

و من أعجب ما يرى من أحوال هؤلاء اللاعبين و اللاعبات، هو أن الشيخ منهم يتفتّى فى زيّه و أطواره و كلامه حتى لا تحسبه إلا فتى، و الفتى يتشيّخ بحيث

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۷

تحسبه همّا هرما، فلو ظهروا فى المرة الآتية ما عرفت منهم أحدا، بل يغيّرون أيضا أصواتهم و لهجتهم و سحنتهم و شعورهم، و يتحادبون و يتعارجون و يتمارضون، و يتناومون و يتعامون و يتساكرون، و يتباكون و يتضاحكون و يتحامقون و يتجانون، و يحاكون الملوك و القضاة و العلماء و الأطباء و الفقهاء و المتحذلقين و الحمقى و كل صنف من الناس، و من أعظم ما أضحكنى من محاكاة التثاؤب تمثيلهم أميرا من أمراء باريس قد قدم إلى لندرة و استوخم هواءها، فكان كلما قال كلمة تثاءب و تناعس، إشارة إلى أن هواء البلد قد ثقل عليه، و أن جميع الإنكليز ذووا وجوه كالحة، و من يرهم أول وهلة فربما حسدهم، أو تمنى أن يكون فى زمرتهم، إذ

یراهم مغازلین للنساء الحسان و متردّین باللباس الفاخر، و ربما أکلوا فی الملعب الطعام القدیّ، و شربوا الشراب اللذیذ، إلا أنه عند التروّی یعلم أن حرفتهم لمن أشقی الحرف، لأن اللاعب یلزمه أن یعید لعبته عدة لیال متتالیة کما هی، و کذا المغنی و المنشد، و الشیء إذا تکرر تکرّج. و ربما لزمهم فی اللیالی الباردة أن یلبسوا الثیاب الرقیقة و فی الصیف عکس ذلک، و خصوصا إنهم یعلمون من أنفسهم أنهم إن هم إلا مستأجرون، و أنّ استبرقهم إلا عاریة و هی عار.

نقد و تعلیق

و حیث قد جرت العادة بأن ابتداء اللعب یکون غالبا فی الساعة السابعة، و ختامه بعد الحادیة عشر، کان کثیر من ألعابهم سخیفا، فلو قصّروا الوقت و أجادوا اللعب لکان أولی، و هذا کالتزام بعض المؤلفین عندهم لنوع یسمّی نوفل، و هو أن یجعلوا الکتاب ثلاثة مجلدات فیسفسفون و یدنقون و یأتون بالغث و السمین، و قد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۸

رأیت غیر مرة امرأة تبرز فی ثیاب رثّة، ثم تغسل وجهها و تمشط شعرها و الناس یغربون من ذلک فی الضحک. و أعرف أناسا کثیرین یحرمون أنفسهم من لذّة الأکل و الرب حتی یمکنهم مشاهدة هذه الملاهی، و لا یملّون من أن ینظروا تمثیل واقعة واحدة عدة مرار، و فی الواقع فإن نصف تمثیلهم إنما هو هزء بالمتزوجین، و کذلک أکره من تمثیلهم أنهم یجعلون المرأة الضعیفة الصوت تنشد أشعارا فیها حماسة و وعید، و کذا یجعلون الإنسان مشترکا، أی یحدث نفسه فیقول المحب مثلا و قد أعیته الحیلة فی وصال محبوبته: کیف أفعل الآن و قد سدّت علیّ مذاهب الآمال، فلم یبق لی إلا هذه الوسیلة، و هی کذا و کذا. أو یقول: أنا لا أستحم اللیلة قبل أن أنام. و کذلک أستحمق بروز المرأة مثلا- فی الملعب و بیدها کنارة أو آلة أخری للطرب، و لا تعزف بها، و إنما یعزف عنها بعض العازفین من تحت الملعب، و هی مع ذلک تمر یدها علی الآلة و توهم الناس أن الصوت خارج من آلتها.

العرب و المسرح الیونانی

و بودّی لو کانت العرب نقلت عن الیونانیین شیئا من هذه المحاورات کما نقلوا عنهم الفلسفة، أو أنهم ألّفوا فیها، و لا یبعد عندی أن شعراء العرب حین کانوا یتناشدون الأشعار فی عکاظ، کانوا یجرونها علی وجه یکسبها حرکا فی النفوس مع اقترانها بالحرکات و الإشارات، و لا شک أن فی هذا التمثیل یکتسب کلام الشاعر رونقا أکثر مما لو بقی فی الکتب، أو إنشاد مجرد إنشاد، و لا شک أن مبدأ الملاهی عند الیونانیین کان مثل اجتماع العرب فی عکاظ ثم توسعوا بها، فإن جمیع العلوم و الفنون بل الأدیان نفسها تکون فی مبدأها ضعیفة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۳۹

نماذج من تمثیلهم

و من أنواع هذه الألعاب اللعب الذی یقال له بنطومیم، و هو لعب بالإشارة و الحرکة من دون محاورة، و لا یلعب فیها الرجال و النساء إلا- بما یضحک و یسر، و الواقع أن للإشارات شجونا و فنونا أکثر من الکلام، و لا تکاد تدخل تحت حد و تعریف و لا تنتهی إلی مدی، و أحسن هذه الأضاحیک ما وقع بعد عید المیلاد، و صفتها أن یبرز رجلان أو أکثر بلباس سخریة، و آخرون علیهم لباس مذهّب فی هیئة الجسم، و نساء بأیدیهن شبه عصا الساحر و هن بلباس الرقص، فکلما ضربت المرأة بالعصا علی الحائط خرج منه شیء، أو انشقّ، أو علی صندوق انفتح و استحال إلی هیئة أخری.

و قد جیء مرة بقفص کبیر فیه صورة دیکین فضربته امرأة بالعصا، فإذا هو قد استحال إلی عاجلة ملیحة مزخرفة فسارت فیها، و ربما

انقلب المکان کله بسقفه و حیطانه و أثاثه فاستحال بیتا بدیع الاستحکام، و ربما رأیت کل ما فیه یدور و یتحرک أو یصعد فی الجو و یغیب عن النظر. و من أحسن ما رأیته فی هذه المواضع علی کثرة ترددی إلیها، تمثیلهم فتح الاسبانیولیین مدینة بیرو فی أمیریکا، و اجتماع أهلها فی هیکل لهم یسمی هیکل الشمس للاستغاثة بها علی العدو، فجعلوا دائرة جهة المشرق شبیهة بالشمس و لها شعاع بهی، و بین یدیها مذبح علیه شعلة نار ستیّة، و قام کاهنهم یحضهم علی القتال، ثم اندفعت الرجال و النساء یرتلون للشمس ترتیلا مطربا، و کانوا جمعا عظیما حتی کاد المکان یتزلزل لأصواتهم، ثم جعلوا محلا یأتی علیه ضوء القمر، و جاء نحو ستین جاریة من الحسان بلباس الکماة، و علی رؤوسهن أکالیل، و کان یری لهنّ ظل فی ضوء القمر، ثم أطلعوا شجرة نخل من وسط الملعب، ثم رمت بما کان یری فی جمتها شبیها بالسعف فصارت کالشرائط، فأمسکت کل جاریة بشریط و جعلن یرقصن بالتقابل و التدابر و التزاوج و الانفراد، و بکل شکل من الأشکال بما یدهش الناظر. و من ذلک أنه برز فی الملعب مائة و ثلاثون جاریة بلباس الرقص الشفاف، و بعد أن رقصن هنیهة أرخی الحجاب ثم فتح، و إذا بهیکل سنیع یتلألأ بالأنوار الملونة البهیجة الساطعة، و قد وقف عشر جوار من هذا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۴۰

الجانب، و عشر من الجانب الآخر بأثواب من الخز شفافة بلون القرنفل، و بدت رؤوس ستّ جوار من فوق حیز، فصفقت الناس تعجبا و استحسانا، ثم أصعدت هؤلاء الست و ظهر صف آخر من فوقهن بثیاب من قصب مرصعة بحجارة تلمع، و عدّتهنّ اثنتا عشرة جاریة، فزاد تعجب الحاضرین، فلما تکامل الإصعاد إذا بالجواری الست متکئات کل اثنتین منهن متقابلتان، ثم أصعد ثلاث جوار و وقفن بلباس مذهّب، و بأیدیهن صوالج تلمع، ثم زادت الأنوار تدبجا و سنا و زاد تعجب الناس، ثم أصعدت ثلاث جوار أخر و وقفن فوق الصف الثانی، و بأیدیهن صفائح لماعة، ثم أدلی ثمان جوار من کل جانب أربع، فکنّ یدرن متدلیات فی الهواء المنیر، و بعضهنّ أعلی من بعض، ثم أصعدت جاریة واقفة علی شبه قبة مرصّعة بقطع من جواهر تتألق کأنها الثریا التی تعلق فی السقف، و هی فی داخل الهیکل و بیدها صولجان فکانت أعلی من الجمیع، و کانت ثیابها تتألق تألق القبة، و کان علی حائط الهیکل صورة امرأتین أیضا بصفة هؤلاء الجواری، فلم یکن الناظر یمیزهما من النساء، و حینئذ بلغ العجب أقصاه و أخذ أصحاب البنطومیم یلعبون و النساء علی تلک الحالة. و قد یصعدون النساء و الأشجار من أسفل الملعب إصعادا، و ینزلونهن من السقف إنزالا، و یجعلون جمیع الحجب و الحیطان تتحرک بنفسها، و یمثلون الشمس و القمر و البحر و الشجر و الجبال و الضباب و الثلج و المیاه و سائر المخلوقات و المصنوعات. و مرة أخری رأیت سفینة فی بحر أو شیء شبیه بالبحر، ثم أخذت الأمواج ترتفع و تتلاطم حتی علت علی السفینة فغرقت فیها أصلا. و یطلعون قببا مذهبة محفوفة بالأنوار المتألقة و البرق یحفها، ثم تنشقّ عن رؤوس نساء ثم تأخذ فی النزول و النساء فی الظهور، إلی أن تغیب القبب بالکلیة و تبرز النساء فی الملعب، و یلبس الرجل هیئة دیک و المرأة هیئة دجاجة، و تری شیئا یستحیل طاووسا یمشی، و آخر بقرة تتحرک، و غیر ذلک بما یقصر الوصف عنه.

و مما أعجبنی أیضا تمثیل عرس بعض ملوک الهند، بأن زینوا فیلین أحدهما کبیر و الآخر صغیر، و علی کل منهما قبة کزخرفة، فدخل الملک فی قبة الفیل الأکبر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۴۱

و دخلت الملکة فی قبة الآخر، و أمام الفیلین و وراءهما جمع لا یحصی. و مرة أخری مثلوا حالة المتزوج مع امرأته بعد عقد الزواج بیوم واحد، و ذلک أن رجلا غضوبا تزوج امرأة مثله، و کل منهما کان یعلم حال صاحبه، و کان فی نوبة غضبه یرکس من أمتعة البیت ما یمکن رکسه، و یکسر ما یمکن کسره، و الرجل یدعو خادمه و یعبث به و یؤذیه، و کذلک المرأة تفعل بخادمتها، فلم تأت علیهما لیلة إلّا و قد أتلفا جمیع ما فی الدار، فکنّا نری أوراق الکتب تتناثر فی الجو و القماش یمزق، و الکراسی و الموائد ترکس، و کان مرة أخری یؤتی لرجل آخر غضوب بطبق فیه طعام فیرمی به فی الملعب، فحیث انتهی لطبق یطلع رأس إنسان من کوّة فی الملعب و یدخل فیه.

الرقص فی مسارحهم

و اعلم أن الرقص فی هذه الملاهی مخالف للرقص المعهود فی المراقص، فإنه هنا أکثر خفة و صنعة و موازنة، فقد ترقص المرأة علی رؤوس أصابعها عدة دقائق، و تمشی کذلک القهقری، و قد تتخلع و تتفککک تخلع الراقصات فی بلادنا تقریبا، بحیث لا یبدین شیئا مخلا بالحیاء، إلّا أنه کثیرا ما یرفعن سیقانهن فی وجوه الناس، و حین یدرن دورا متتابعا یری الرائی أفخاذهن المستترة تشف من الخز، و مع ذلک فلا یعد هذا مخلا بالحیاء، و کذا التقبیل فإن الرجل یلثم المرأة فی فمها و خدّیها و لا حرج.

و تعلم الرقص فی بلاد الإنکلیز أصله من بلاد أیطالیا و ذلک فی سنة ۱۵۴۱.

مبدأ التمثیل

و نقلت من کتاب معجم الأوقات أن مبدأ هذه التمثیلات فی بلاد الإنکلیز کان لأشیاء روحیة دینیة، و أول تمثیلة أجریت متقنة کانت علی عهد الملکة الیصابت، و أن أول تمثیلة أجریت منتّسقة و منتظمة کانت فی رومیة بحضرة البابا لیو العاشر

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۴۲

و ذلک سنة ۱۵۱۵.

دور البانورامة

و فی لندرة اثنان و عشرون موضعا یری فیها صور البلاد و المدن و الأشخاص من وراء الزجاج، و یقال لها بانورامه. أعظمها المحل الذی یسمّی کولیسیوم، یصعد إلی قبته فی درج أو فی قبة صغیرة مزخرفة علی شکل بیوت الصین، لا تسع أکثر من اثنین، فإذا استقر فیها حرّکت بآلة من تحتها کآلة الباخرة فتنبعث صعدا، فإذا بلغ الإنسان القبّة و هی ذروة المحل رأی صورة لندرة أو باریس بکل ما فیهما من الدیار و الطرق و الأنوار و المواضع المرتفعة و المنخفضة حتی یظن أن المرئی شیء محسوس، و یخیل له أن المسافة التی بینه و بین أطراف المدینة بعیدة کمسافة المصور، و یری أیضا القمر یسیر و النجوم تنقضّ و تزمهرّ، و الثلج یتساقط، و یسمع زمزمة الرعد و غیر ذلک مما یذهله.

دار الاختبارات العلمیة

و من المواضع الشهیرة دار الاختبارات العلمیة، و هو موضع یشرح فیه خواص الأشیاء، و کیفیة العلوم و الصنائع. و من أعظم الآلات فیها جرس کبیر ینزل الناس فیه فی حوض ماء، و هناک ماء رأیت الناس یغمسون فیهم أصابعهم و ینزعونها بعجلة لأن فیه خاصیّة الإرجاف الکهربائیة.

مجلس المشورة: تفاصیل و أرقام

و أعظم بناء فی لندرة بل فی الدنیا کلّها مجلس المشورة، أول حجر وضع فی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۴۳

أساسه کان فی السابع و العشرین من نیسان سنة ۱۸۴۰ و دام بناؤه عشرین سنة، و مساحته أکثر من ثمانیة جربان، فیه أکثر من ۱۸۰. ۱ حجرة، و ۱۹ دیوانا و ۱۲۶ مرقی، و هو یشبه کنیسة صغیرة لکنه من دون کوی، و علی مدار حیطانه زجاج ملون علیه صور ملوک الإنکلیز، و ارتفاع مجلس النواب ۴۵ قدما و عرضه کذلک، و طوله ۶۲ و هو یفتتح فی شهر شباط و یغلق فی تموز، فتکون مدة

انعقاده ستة أشهر.

من التقاليد المتبعة

و قبل الشروع فی المذاکرة و النظر فی المصالح تقام الصلاة، و کذا هی العادة عند الإنکلیز قبل کل أمر ذی بال، و لا سیما قبل القتال، و حین تحضر الملکة لفتحه أو لإغلاقه یقدم لها أحد أرباب المناصب العلیة خطابا و هو جاث علی رکبتیه، فتأخذه منه و تتلوه إیذانا بما ذکر، و قبل حضورها بساعتین تفتش أسرابه و دهالیزه جریا علی العادة من سنة ۱۶۰۵، و ذلک أن أهل مجلس المشورة حین کانوا مجتمعین یوما، و کان دین البروتستانت قد استتبّ حدیثا، حاول بعض من الکاثولیکیین أن یحرق المجلس و أهله ببارود کان قد خزنه تحت أسسه، فانتبه لهذه المکیدة بعض الحاضرین و فسدت علی الرجل حیلته. و قد فرضت کنیسة الإنکلیز المتأصلة صلاة معینة لذلک الیوم، و هو الخامس من شهر نوفمبر، و فیه یخرج رعاع الناس بتصاویر و تماثیل کثیرة یمثلون بها ذلک الرجل و البابا و غیرهما ممن یحسبه الإنکلیز عدوا لهم، و بعد أن یطوفوا بها المدینة بضجة وزأط یحرقونها عند برج لندن و یسمون هذا الیوم کی فکس.

و اعلم أن أهل المجلس ینقسمون إلی قسمین: الأول یقال له مجلس الأعیان، و الثانی مجلس النواب. أما أعضاء مجلس الأعیان فقد یکونون من أصحاب الوظائف العالیة، سواء کانت دینیة أو دنیویة، و عدّتهم ۴۶۲ منهم ۲۶ من مطارنة إرلاند و ۲۸ من أعیانها، و ما حکم به هؤلاء السائدون لا ینقضه أصحاب مجلس النواب إلا فی

أمور مخصوصة، و لکل منهم أن یحتجّ عن نفسه حین تقام علیه الدعوی، و یبدی الأسباب التی یستصوبها خطا، و إذا لزم إثبات ما قرره یکتفی بمجرد قوله علی شرفی، و فی غیر ذلک یحلف. و إذا قضی أهل مجلس النواب بشیء فلا بد و أن یعرضوه علی مجلس الأعیان، و للملکة أن تبطل حکم المجلسین، و لکن قلمّا تتجرأ علی ذلک.

و لکل من الوزراء ۵۰۰۰ لیرة فی السنة، و لأحد الدوکات من رزقه فی کل یوم ألف لیرة، و لرئیس المجلس ۸۰۰۰ لیرة و دار یسکنها. و عدّة أعضاء مجلس النواب ۶۵۸ ینتخبهم أهل أقالیم إنکلترة و هی ۵۲ إقلیما، و أهل المدن و المدارس. و لا بد من أن یکون لنائب الإقلیم إیراد ۶۰۰ لیرة فی العام من رزقه، و لنائب المدینة ۳۰۰، و الحکمة فی ذلک أن یکونوا قادرین علی التفرغ للنظر فی مصالح الرعیّة. و أول مجلس مشورة عرف للإنکلیز کان فی عهد هنری الثالث سنة ۱۲۶۶ و فی سنة ۱۳۴۰ انقسم إلی مجلس الأعیان و النواب کما تقدم. و مصاریف المجلس تبلغ فی السنة نحو ۱۶۲.۲۳۰ لیرة، منها مصروف الطبع یبلغ ۹۵۴.۷۵. و عروض الحال التی تقدم لمجلس المشورة یبلغ عددها فی السنة نحو ۱۲۸.۱۰، و عدد التوقیع أو الإمضاء ۹۳۳.۶۸۷.۱.

المتحف البریطانی

و من المبانی العظیمة فی لندرة المتحف البریتانی، و هو الموضع الذی فیه التحف الغریبة، و الأشیاء العادیّة، و الحجارة المعدنیّة، و یقال له بریتش موزیوم، بنی من سنة ۱۸۲۳ إلی سنة ۱۸۵۱، و أصل إنشائه أن رجلا من الأعیان اسمه هانس سلون توفی سنة ۱۷۵۳ و أوصی بعشرین ألف لیرة لمشتری تحف توضع فی محل مخصوص للتفرّج علیها، فأعجب ذلک مجلس المشورة. و فی ذلک التاریخ جمع ۳۰۰۰۰ بأمر المجلس لإنشاء ذلک الموضع. و فیه من الغرائب حجر یقال إنه سقط من الجو فی ولایة السّاک حین کان الأمبراطور مکسمیلیان عازما علی أن یوقع بالفرنسیس، فحفظ فی

کنیسة أنسسهم إلی أوائل فتنة الفرنسیس، ثم نقل بعد ذلک إلی مکتبة کلمار زنته ۲۷۰ رطلا- إنکلیزیا. و یوجد فیه أیضا حجارة سقطت من الجو بعضها سقط فی سنة ۱۷۹۰ و بعضها بعد ذلک بأربع سنین و بخمس. و فیه جمیع الحیوانات مصبّرة، و صور تماثیل و

کسی أهل البلاد الأجنبیة و آلات طربهم و أاثهم، و العصافیر المصبّرة و الطیور و الوزغ و الأسماک و الأصداف و العظام و القرون و الجماجم و أسنان الفیّلة و البیض. و من هذه الحیوانات ما انقرض نسله، من جملتها سلحفاة جلبت من الهند و قد دفع فی ثمنها ۱۰۰۰. لیرة. و فیه موضع آخر لجمیع أصناف الجواهر المعدنیة، و آخر لأصناف الدراهم و الدنانیر القدیمة رأیت فی جملتها دنانیر ضربت علی عهد هارون الرشید بالخط الکوفی و هی کبیرة رقیقة.

مکتبة المتحف

و فیه موضع آخر للکتب تبلغ أکثر من ۶۵۰۰۰ کتاب، و إذا اعتبرتها بحسب الأجزاء تبلغ أکثر من ۹۰۰۰۰ و هذا القدر یساوی مقدار کتب برلین و ویانه، و لکن دون القدر الموجود فی باریس و مونیش. و هذه الکتب موضوعة علی رفوف تشغل مسافة ۱۵ میلا، من جملتها الکتب التی کانت لملوک الإنکلیز تبرّعوا بوقفها علی المحل المذکور، منها کتب مجلّدة بالمخمل کانت للملکة الیصابت و لجامس الأول و لشارلس الأول و غیرهم، و کتب کانت لجورج الثالث و هی ۸۰۰۰. و أعظم موضع فی هذه المکتبة هو ما وقفه الملک جورج الرابع یبلغ ثمنه ۱۳۰۰۰ لیرة، فیه توراة قدیمة طبعت فی متس سنة ۱۴۵۵، و أمثال لقمان الحکیم طبعت فی میلان سنة ۱۴۸۰، و أول نسخة طبعت من أشعار أومیروس طبعت فی فلورانس سنة ۱۴۸۸، و نسخة أشعار فرجیل طبعت فی فینیسیا سنة ۱۵۰۱، و فیها صوانات قیمة ما فیهما من الکتب ربع ملیون. و هذه المکتبة یدخلها الناس بإذن من ناظرها لأجل المطالعة و المراجعة و فی کل نصف سنة یتجدد الإذن، و لا یؤذن للمطالع أن ینسخ کتابا منها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۴۶

برمته، و إنما ینسخ منه جملا، و لا أن یستصحبه، و لا أن یطلب کتابین فی تذکرة واحدة، و قد بلغ عدد المطالعین فی سنة واحدة ۷۰۰۰، و عدد کتب الخط ۳۰۰۰، و ثمن خزانتین منها فقط ۲۵۰۰۰، فی جملتها کتاب توراة کتب لشارلمان، و کتاب صلوات للملکة الیصابت غشاؤه من صنع الإبرة عملته بیدها، و فیها ۳۱۷ کتابا باللغة السریانیة.

رأی و تعقیب

قلت لم یذکر المؤلف عدد الکتب العربیة جریا علی عادة أهل بلاده من عدم المبالاة بلغتنا، و إن یکن قد قد دوّن بها من العلوم و الفنون ما لم یدوّن فی لغة شرقیة قط. و حین کنت أذهب إلی هذا الموضع للمطالعة لم یتهیأ لی أن أعرف أسماء الکتب العربیة بجملتها، لأن أکثرها مکتوب بالحروف اللاتینیة، و معلوم أن الاسم العربی لا یظهر بها حقّ الظهور. و مما رأیت فیها من الکتب الجلیلة أدب الکاتب لابن قتیبة، و النوابغ للزّمخشری، و مدح الشیء و ذمّه للجاحظ، و دیوان أبی تمّام. و هذا المتحف هو من بعض ما تمکن رؤیته مجانا بلندرة، یفتح ثلاثة أیام فی الأسبوع و هی الاثنین و الأربعاء و الجمعة، من السابع من سبتمبر إلی أول شهر ماى، و لا یدخله من الأولاد من کان سنّه دون ثمانی سنین، و عند بابه عسکریّان بالسلاح اعتبارا للمحل. و قد ضمن بعض الکتب بلندرة بثلاثة آلاف لیرة، و بیعت نسخة من بوکاتشو بألفین و مائتین و ستین لیرة، و قومت نسخة من توراة مکلین بخمسمائة و کسور.

متاحف أخری

و من ذلک متحف آخر یعرف بمتحف الخدمة المتحدة بنی فی سنة ۱۸۳۰، و هو یشتمل علی تحف نفیسة من جملتها سیف کان یتقلده اکرامول المشهور، و جثّة الحصان الذی کان یرکبه نابولیون الأول فی حرب و اطرلو یقال له مارنغو ذو اللحیة،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۴۷

و فیه أیضا صورة تلک الواقعة، و لوح من وجه السفینة التی انتصر فیها نلسون.

و آخر یعرف بمتحف خصائص الجیولوجیا بنی فی سنة ۱۸۳۵، و فتح فی سنة ۱۸۵۱، بلغت نفقته ۳۰.۰۰۰ لیرة، و هو یشتمل علی الجواهر المعدنیة، و علی ما یوجد من أصناف الحجر فی بلاد الإنکلیز و غیرها من البلاد، و علی الآلات المتعلقة بهذا العلم.

و آخر یعرف بمتحف المرسلین یشتمل علی أشیاء کثیرة مما یتعلق بعلم حیاة الحیوان، و علی مشاهیر آلهة الوثنیین، و أشیاء أخری عدیدة جلبها هؤلاء المرسلون من البلاد التی جالوا فیها.

و آخر یعرف بمدرسة الجرّاحین بنی فی سنة ۱۸۳۵ و بلغت نفقته ۴۰.۰۰۰ یفتح لأهل المدرسة و لمن یکون له إجازة من أحدهم، و ذلک فی أیام معلومة من الأسبوع، و هو یشتمل علی ثلاثة و عشرین ألف قطعة من الأجسام المصبّرة و من الأعضاء و الآراب، و علی جثّة جبار من أهل إرلاند طولها ثمانی أقدام، مات و هو ابن اثنتین و عشرین سنة و ذلک سنة ۱۷۸۳، و لما مات قیست فکانت ثمانیة أقدام و ربعا، و فیه جثّة رجل حزقّة من صقلیة طولها عشرون إصبعا.

تعلیق

قلت و من مشاهیر القصار فیلیطوس الکوسی، کان من صغره إذا خرج یضع فی جیبه کرات من الرصاص خیفة أن تطیّره الریح، و کان شهیرا أیضا فی عصره بالعلم و نظم الشعر. و آخر یسمی البیوس الإسکندری کان طوله قدما و خمس أصابع و نصف إصبع، و کان له شهرة أیضا بالمنطق و الفلسفة. قال و فیه جثّة جبار آخر من إرلاند طولها ثمانی أقدام و سبع أصابع و نصف، و قدر ذراع من جثة جبار فرنساوی کان طولها سبعة أقدام و أربع أصابع، و جثة فیل جلب من الهند و کان یؤذی الناس لداء اعتراه، فکان لا بد من قتله برشق من الرّصاص، و لما أرید قتله أناخ علی صوت قائده لیصوب بعض المقاتل فی جسمه، فلم یمت إلّا بعد أن أطلق علیه مائة رصاصة. و ثم جثث أجنة أسقاط و أختان توأمان، ولدتهما أمهما و هی بنت سبع

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۴۸

عشرة سنة من دون مقاساة ألم، و لم تزل أجسامهما متّحدة. و فیه شکل أحشاء نابولیون مظهرة لانتشار الداء الذی أودی به.

و آخر یقال له متحف صون بالقرب منه، بنی فی سنة ۱۸۱۲ یشتمل علی أربع و عشرین مقصورة، فیها تماثیل و تصاویر و حجارة ثمینة و غیر ثمینة و تحف و کتب، فمن جملة تماثیله تمثال أحد آلهة المصریین المسمی إزیس ثمنه ۲.۰۰۰ لیرة، و فیه فرد مرصّع (طبنجة) کان الملک بطرس الأکبر أخذه من قائد الجیوش الترکیة فی بحر الخزر سنة ۱۶۹۶، ثم أهداه الملک الکسندر إلی نابولیون عند الهدنة التی وقعت فی تلسیت سنة ۱۸۰۷ و استصحبه نابولیون إلی جزیرة صانت هیلان، ثم جاد به علی بعض ضباطه و انتقل أخیرا إلی لندرة.

و من ذلک الموضع الذی یقال له روشن الأمة، بنی فی سنة ۱۸۲۴ و بلغت نفقته ۹۶.۰۰۰ لیرة، و هو یشتمل علی ۳۹۰ صورة، منها ۳۸ صورة قومت بسبع و خمسین ألفا و ست عشرة لیرة ثمنها ۷.۵۰۰ و هو دون نظرائه فی بلاد أوربا.

و یوجد أیضا محال أخری عدتها خمسة عشر محلا لجماعات الجغرافیة و البناء و معرفة المعادن و التصویر و لإلقاء الخطب و غیر ذلک.

من المبانی الجلیلة: البنک و محتویاته

و من المبانی الجلیلة البنک أنشئ فی سنة ۱۶۹۴، مرت ناظره فی السنة أربعة آلاف لیرة و للوکیل ۳.۰۰۰ لیرة، و لکل من المباشرین و هم ۲۴ رجلا ۲.۰۰۰ لیرة، و عدد المستخدمین فیه ۱.۰۱۶ منهم ۸۱۴ کتّاب و سنویتهم من الخمسین لیرة إلی الألفین، فجملة مرتبهم فی السنة ۱۹۰.۰۰۰ لیرة، و کل کاغد یعاد إلیه یلاشی. و دین الدولة للبنک یبلغ ۱۰۰.۰۱۵.۰۱۱ و لا یسمح بأن کواغده تزید علی ۱۴.۰۰۰.۰۰۰ لیرة، و قیمة ما یتداول منها فی ثلاثة أشهر تزید علی ثمانیة عشر ملیونا، و من هذه الکواغد ما تساوی قیمته ألف لیرة، و

أظن أن أغلی کواغد فرنسا لا یساوی أکثر من ألف فرنک، و فیه سبائک ذهب منها ما وزنه ستة عشر رطلا، و قیمته ثمانمائة لیرة، و فیه عدة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۴۹

موازین من جملتها میزان یزن من سبائک الفضة من خمسین رطلا إلی ثمانین، و آخر یزن فی کل دقیقة ۳۳ لیرة، و قد جعل بحیث یزن الدینار الرائج و یرمیه فی صندوق، و الزائف فی صندوق آخر. و فیه آلة لطبع الکواغد و رسم أعدادها من الواحد إلی مائة ألف بغایة ما یکون من الضبط و الإحکام، و بجانب هذا المحل الدار التی تجتمع فیها التجار، فتحتها الملکة فی سنة ۱۸۴۴ و بلغت نفقتها ۰۰۰. ۱۸۰ لیرة، و فی وسطها تمثال الملکة و علی حیطانها روامیز ما عند أصحاب الصنائع و التجارة من الأدوات و التحف، و أمامها ساحة مبلطة فیها تمثال و یلنکطون من نحاس راکبا علی فرس فوق عمود من المرمر. و قال صاحب المعجم کواغد البنک التی تداولها الناس فی سنة ۱۸۵۵ بلغت ۶۲۷. ۶۱۶. ۱۹ لیرة، و فی بعض الأحایین زادت علی هذا القدر. و قیمة السبائک التی فیه بلغت فی سنة ۵۳- ۶۶۲. ۵۲۷. ۲۰ و فی سنة ۱۸۲۸ تفرع عنه فی المملکة عدة فروع.

الکمرک

و من ذلک الکمرک بنی من سنة ۱۸۱۴ إلی سنة، ۱۸۱۷ و فی سنة ۱۸۴۹ بلغ عدد المستخدمین فیه ۲۲۸. ۲ شخصا، یصرف علیهم من المرتبات ما یبلغ فی السنة ۲۱۳. ۲۷۱ لیرة. و دونه کمرک لیفربول کان فیه من المستخدمین فی ذلک التاریخ ۱۴۱. ۱ نفسا، و إیراد الکمرک الأول وافر جدا و فیه مقصورة طولها ۱۹۰ قدما و عرضها ۶۶.

التبغ

و نقلت من بعض صحف الأخبار أن ما دخل من التبغ فی سنة ۱۸۴۸ بلغ ۱۳۴. ۳۰۵. ۲۷ رطلا، و مقدار ما دفع علیه من المکس ۲۳۳. ۳۶۵. ۴ لیرة، و عدد من ثقفوا من مدخلی الصنف المذکور من دون مکس ۱۱۵. ۲ و فی سنة ۱۸۵۰ بلغ المجلوب منه نحو ۰۰۰. ۵۰۰. ۴۳ رطل، و أما اسم التبغ فیقال إنه منقول عن اسم إقلیم فی إسبانیا الجدیدة بأمیریکا، و أول ما علم أمره کان فی سنة ۱۶۹۴ و فی سنة ۱۷۲۰ استعملته

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۰

الإسبانیول فی یوکاتان و أکثروا منه، و فی سنة ۱۵۶۵ جلب إلی بلاد الإنکلیز، فکان یصنع فیها أولا لأجل إرساله إلی الخارج، و فی سنة ۱۵۸۴ شهر استعماله فی أزلنطون ثم منع. و فی سنة ۱۶۱۴ ضرب علیه أداء علی کل رطل نحو سبعة شلینات، و فی عهد شارلس الثانی منع تنبیته و غرسه ثم أبیح.

مبنی البرید العام (المألک) إحصائیات و أرقام

و من ذلک المألک العام أی البوسطة، بنی من سنة ۱۸۲۵ إلی ۲۹، یبلغ عدد المستخدمین فیه ۰۰۰. ۲، و عدد المستخدمین فی ضواحی لندرة ۲۰۰. ۱، و بلغ الصافی من إیراده فی سنة ۵۶- ۳۹۸. ۱۹۴. ۱ لیرة، و بلغ مصروف المحل ۸۱۵. ۷۲۰. ۱ منها للجامکیات ۵۷۳. ۹۴۸، و للمرتب ۳۶۷. ۲۹ و للبناء ۹۴۳. ۴۲۲ و لإرسال المآلک (المکاتیب) فی سکک الحدید ۸۲۳. ۱۶۷ و لإرسالها فی عجلات و نحوها ۲۹۸. ۱۲، و بلغت کمیة المکاتیب التی أرسلت لأصحابها فی بریتانیا فی سنة ۵۷- ۰۰۰. ۰۰۰. ۵۰۴ فیکون لکل واحد نحو ۱۷ و المحسوب أن کل واحد فی إنکلترة یتسلم ۲۱ رسالة، و فی سکوتلاند و فی إرلاند ۷، و فی سنة ۵۶ بلغ عدد الجرنالات التی سلّمت فیها، أی فی بریتانیا ۰۰۰. ۰۰۰. ۷۱ و صدر منها حوالات بمبلغ ۷۰۲. ۳۸۹. ۶ قیمتها ۲۷۲. ۱۸۰. ۱۲ لیرة، و عدد مراکز

البوسطة فی المملکة کلها یبلغ ۸۶۶. ۱ منها ۸۴۵ أصول و الباقی فروع، و فی لندن وحدها یوضع فی کل یوم نحو ۰۰۰. ۵۰۰ رسالة. قال بعضهم و ما یفرق الآن من الرسائل فی مسافة ۱۲ میلا حول عموم مرکز البوسطة الأصلی یکون قدر ما کان یوزع منها فی الزمن القدیم فی جمیع جهات المملکة، و أجرة المستخدمین فی بوسطة صقع لندرة تبلغ فی الأسبوع ۰۰۰. ۱۵ لیرة، و عدد المباشرین لهذه المصلحة العظیمة فی المملکة کلها سنة ۵۷ و ذلک ما بین رؤساء و نظّار

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۱

و مباشرین و کتاب و حمّالین و خدمة ۷۳۱. ۲۳ منهم ۱۰۱. ۱۱ مدیرون، و ۶۱۰. ۱ کتاب، و ۲۰۵ حراس، و ۵۸۲. ۱۰ لتبلیغ الرسائل و غیر ذلک. قال و المحسوب أنه من کل ۲۰۰ رسالة ترجع واحدة إلی مرسلها لعدم العلم بمقر المرسل إلیه، فإذا وقع أمر مثل هذا أبقیت الرسالة فی المحل، و فی العام الماضی کان من هذه الرسائل نحو ۷۰۰. ۰۰۰. ۱.

إحصائیات مقارنة

قال و جملة الرسائل التی سلّمت فی الروسیة فی سنة ۱۸۵۵ بلغت ۰۰۰. ۴۰۰. ۱۶ و هو نحو القدر الذی سلّم فی مدینة منشستر و ضواحیها فقط، و جملة الرسائل التی فرّقت فی فرنسا فی سنة ۱۸۴۷ بلغت ۰۰۰. ۴۸۰. ۱۲۷ و فی سنة ۵۶- ۷۰۰. ۹۹۶. ۲۵۱ ما عدا ۹۰۴. ۸۶۷. ۲ رسالات بقیت فی البوسطة لعدم بیان عنوانها.

و عدد المستخدمین فی بوسطة هذه المملکة أی فرنسا ۸۱۵. ۲۵ نفسا.

أول من رتّب البرید

و أول من رتب البرید لویس الحادی عشر ملک فرنسا، و لکن لیس علی هذا المنوال الذی نراه الآن، و إنما کانت الکتب تبلّغ إلی أصحابها علی ید رسل من الملک من بلد إلی آخر، و بقی هذا الترتیب مجهولا عند غیره من الملوک مدة طویلة. و هو الذی عدل المیزان و الکیل، و أول من نعت بنعت ما جستی أی عظمة، و أول من اخترع هذا الطابع الذی یلصق بالرسائل رجل من أهل السوید اسمه ترینکبر، و ذلک فی سنة ۱۸۲۲، و بقی أهل هذه البلاد إلی القرن الحادی عشر خالین عن المعارف، و کان دأبهم التنقل و الترحل إلی البلاد الأجنبیة.

نوادی لندرة

و فی لندرة ۲۶ منتدی و یقال لها الکلوب، و هی دیار رحیبة یجتمع فیها أغنیاء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۲

الإنکلیز للمذاکرة و المعاملة و المطالعة و الأکل و الشرب، منها ما یجتمع فیه ۳۰۰ و منها ۰۰۰. ۱ و أکثر، و لا یدخل فیها أحد إلا بشهادة بعض من أهلها، و أداء الدخول من ۹ لیرات إلی ۳۲ لیرة، و فی کل سنة یدفعون أیضا شیئا لمصاریف خدمتها و فرشها و أنوارها، و ذلک من خمس لیرات إلی اثنتی عشرة لیرة. و کلها حدیثة عهد بالبناء، و هذه المحال لا یدخلها النساء، و إذا رضی أحد من أهل هذه المواضع عن أحد من الغرباء أدخله فی زمرتها إکراما له.

کنائسها العظام

و فیها عدة کنائس عظام أقدمها و ستمینستر التی کانت فی الأصل دیرا للرهبان الباندکتیین، أسّست فی سنة ۶۱۶ ثم وسّعت و جدّدت، و فیها تتوج ملوک الإنکلیز و ملکاتهم من عهد إدورد الملقب المعترف إلی الملکة فکطوریا، و قد جلست علی الکرسی الذی تتوج

علیه الملوک و هو کرسی عال قدیم مغشّی بالجلد ککراسی الکنائس و الأدیار فی الزمن القدیم، خال عن الزخرفة مطلقا. و کثیر من ملوک الإنکلیز و أعیانهم و علمائهم قد دفنوا فیها من جملتهم هنری الثالث، و ماری ملکة سکوتلاند، و کنکراف الشاعر صنع له قبر فبلغت نفقته عشرة آلاف لیرة صرفت من هانرته زوجة الدوک أودتشس مالبولور، و فیها قبر لسر إسحاق نیوطون کلّف خمسمائة لیرة و آخر لشکسبیر، و لما سئل بوب الشاعر أن یکتب تأبینه کتب ما ترجمته هکذا:

«أهل بریتانیا یحبوننی و یحفظون صیتی سالما عن اسم بربر أو بنصون». یعنی أن هذین الرجلین کانا لا یحسنان الرثاء و التأبین مع کونهما کانا متعارضین له. و من ذلک کنیسة صان بول، أی مار بولس و قد تقدم ذکرها، أول حجر وضع فی أساسها کان فی سنة ۱۶۷۵ و آخر حجر فی سنة ۱۷۱۰، و ذلک بعد ۳۵ سنة فی عهد أسقف واحد، و بلغت نفقتها ۹۵۴. ۷۴۷ لیرة و ۲ شلین و ۹ بنس، جمعت من مکس جعل علی الفحم، و لذلک یقال إنها تردّت بلباس أسود کما نراها الآن. قلت بل جمیع مبانی لندرة متردّیة بهذا الریاش، حتی أن مجلس المشورة مع کون البناء فیه متواصلا یظنه الناظر قد مضی علیه أحقاب من الدهر. قال و شکلها علی شکل صلیب

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۳

لاتینی، و طولها من الشرق إلی الغرب ۵۰۰ قدم و عرضها ۱۰۰، و طول صومعتها ۲۲۲ قدما، و ارتفاعها من الحضیض إلی ذروة الصلیب ۴۰۴ أقدام، و عدد قضبان درابزینها المحیطة بها ۵۰۰. ۲ بلغت نفقتها ۲۰۲. ۱۱ لیرة و نصف شلین، و دورتها ثلاثة أرباع میل.

قلت جمیع التربیعات و الحدائق و الغیاض بلندرة و معظم الدیار محاطة بدرابزین من حدید لعل ثمنها یوازی ثمن مدینة بأسرها. و داخل الکنیسة مبلط بالرخام الأسود و الأبیض، و سقفها عقد من دون زخرفة، و لها قبة عظیمة دورتها من داخل ۳۱۶ قدما، و إذا طلعت إلی أعلاها من داخل الکنیسة خطوت ۶۱۶ درجة. و من شأن هذه القبّة أنه إذا وقف رجل فی جهة منها، و وقف آخر فی جهته المقابلة له، و أسرّ إلیه کلاما بأن یضع فمه علی حائط القبة سمعه الآخر. و فی داخل الکنیسة تماثیل الملوک و المشاهیر من الإنکلیز، و أبطالهم عندها تماثیل ملائکة بصورة نساء یقدمون لهم الأکالیل إشارة إلی أنهم ماتوا شهداء فی سبیل الله، و ثم أیضا تماثیل نساء بارزة نهودها و لها أربعة أبواب فی کل جهة باب، و قدّام الباب الأکبر اثنا عشر عمودا من أسفل و ۸ فی الطبقة الثانیة، و لکل من الباقی ۴ أعمدة و لها قبّتان متقابلتان فی کل منها ساعة دقّاقة، و فی یوم معلوم من السنة یهیئون موضعا فیها لترتیل الأولاد تبلغ نفقته ۳۰۰ لیرة، و فی الیوم الثانی یزاح. و هذه الکنیسة هی أکبر کنیسة للبروتستانت فی الدنیا، و هی دون کنیسة رومیة، و تشبه بعض الملاهی فی أنها لا تفتح إلّا فی ساعة معلومة من النهار، و لا یمکن رؤیة جمیع ما فیها إلّا بأداء نحو خمسة شلینات.

إیرادات و مصروفات و شیء عن الأساقفة و رجال الدین

و إیراد رئیس أساقفة کنتربوری فی السنة ۰۰۰. ۲۵ لیرة، و إیراد رئیس أساقفة یورک ۰۰۰. ۱۵ و لیس لمطران باریس من الإیراد ثلث ما لمطران لندرة. و جملة ما یصرف علی الکنائس نحو ۰۰۰. ۵۰۰ لیرة، و إیراد أسقف لندرة فی السنة ۰۰۰. ۱۵ لیرة، و لکن خلیفته یکون له ۰۰۰. ۱۰ فقط، و إیراد باقی الأساقفة من ۰۰۰. ۴ لیرة فصاعدا، فهم بمثابة وزراء الدولة، فإن سنویة أول لورد فی دیوان نظارة البحریة ۵۰۰. ۴ لیرة. ثم إنه کما أن هؤلاء الرعاة المتبتلین إلی الله تعالی ماثلوا الوزراء و الأمراء فی أخذ الأرزاق

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۴

و الوظائف، کذلک ماثلوهم فی الرفعة و الشأن و الإنفراد عن الرعیة، فإن مواجهة رئیس أساقفة الإنکلیز أصعب من مواجهة البرنس البرت زوج الملکة. و قد اضطررت مرة إلی أن أکتب إلیه فی أمر ما فورد الجواب منه فی رقعة قدر نصف الکف، و کان خطابه بضمیر الغائب، و نفی فیه ما لم یکن محله النفی احترازا من أن أکلفه بخطاب آخر، و لکن أی لوم علیه إذا لم یجاوب أحدا لأن رئیس الکنیسة الذی إیراده ۰۰۰. ۲۵ لیرة فی السنة، لیس علیه أن یجاوب من لیس له صلدی واحد من کل لیرة تدخل خزانته

الرسولیة. و قد کان الخوری میخائیل شاهیات حضر إلی هذا الطرف، و کتب ثلاث رسائل إحداها إلی البرنس البرت، و الثانیة إلی اللورد بلمسطون، و الثالثة إلی المطران المشار إلیه، فجاءه الجواب من الأولین و من الأخیر لم یرد سلب و لا إیجاب، و أقسم لو أن یهودیا غنیا من أمستردام وفد علیه فی عاجلة و رواء لاحتفل به و أکرمه غایة الإکرام، و لکن لیت شعری ما معنی کلام من قال: أمّا الذین یرومون الغنی فإنهم یقعون فی المحنة و الفخ، و فی شهوات کثیرة سفیهة ضارة تغرق الناس فی العطب و الهلاک، لأن حب المال أصل کل شر، و هو الذی اشتهاه قوم فضلوا عن الإیمان و طعنوا أنفسهم برزایا کثیرة، فأما أنت یا رجل الله فاهرب من هذه الأشیاء، و اقتف البرّ و التقوی و الإیمان و المحبة إلخ. و قال أیضا: من حیث إن لنا القوت و الکسوة فلنقتنع بهما، أمّا التقوی مع القناعة فإنها مکسب عظیم. و ربّ معترض هنا یقول إن الکنیسة الآن لیست کالکنیسة فی مبدأ النصرانیة، إذ لم یکن للنصاری وقتئذ دولة و لا سطوة، فأما الآن فإن عزّها یرجع إلی عز الدولة، و إن رئیس الأساقفة الآن یلزمه أن یکون من أهل مجلس المشورة، و أن یزور الوزراء و یکون مزورا منهم، و أن یصنع مآدب للأعیان و یتکلف نفقات کثیرة، فلا بدّ له و الحالة هذه من رزق وافر یجری علیه، و من صرح و عاجلة، و خدم و أوانی فضة و نفیس أثاث. قلت إذا کان الأسقف تزوره أرباب الدولة و تدعوه إلی الولائم مع اقتصاد حاله أو بالحری مع تقشفه، کان ذلک أدعی إلی کرامته و تعظیمه، فأما تکلفه النفقات و الولائم و غیر ذلک، فإنه شاغل له عن أداء ما یجب علیه من تعهد الرعیّة و تفقد أحوالهم، و هذا هو أصل معنی الأسقف. فإن قیل إن أمور الکنیسة الآن قد استتبت و انتظمت، فلم یبق حاجة إلی تکلیف الأسقف أو رئیس الأساقفة بالنظر فیها و التعهد لها، قلت إذن هو

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۵

إقرار علی أنفسهم بعدم لزومهم، علی أنی لا أتعرض لمثل هذه المسائل، فإن لکل کنیسة أساقفة و مطارنة، و حیث أن أمامهم قد ذکر اسم الأسقف فلا بد من وجود مسماه، و لکنی أری شیئا علی من یعیّر غیره شیئا و هو متلبس به، فإن الإنکلی ینسبون الکنائس الشرقیة إلی العظمة و التبذخ و السرف و الشطط، مع أن رؤیة بطارکة أنطاکیة ممکنة لکل أحد، و لا یخفی أن أنطاکیة فی الدین أشرف من لندرة.

بیت الهند

و من المبانی العظیمة بیت الهند، أی بیت الجماعة التی بیدها تدبیر مملکة الهند، بنی فی سنة ۱۷۹۹ و فی سنة ۱۸۳۳ حصل فیه تغیرات جمّة، و حینئذ صدر أمر من مجلس المشورة بإقرارها علی حالها. و فیه متحف و أصنام من فضة و ذهب جلبت من تلک البلاد و کتب و سلاح و دنانیر و غیر ذلک. و نقلت من بعض الکتب أن جمعیة الهند استتبت للتجارة فی تلک البلاد سنة ۱۶۰۰، ثم صارت تاجرة و محاربة معا فطردت الجمعیة الفرنساویة و ذلک سنة ۱۷۵۰، حتی تغلبت علی أکثر البلاد. و قال آخر إن أول سعی أبدته الإنکلیز فیما یخص الهند کان تجهیز ثلاث سفائن و ذلک فی سنة ۱۵۹۱، و لکن لم یصل منها إلّا واحدة فقط، و بعد سفر ثلاث سنین رجع الربّان فی سفینة أخری لأن الملاحین غلبوه علی سفینته، فلما أن رجع أخبر الأهلین بما جری له و بما رأی، فجدّ بهم الحرص لإرسال سفن أخری تجاریة، و تم انعقاد ذلک فی سنة ۱۶۰۰، فجمعوا ۰۰۰. ۷۲ لیرة جهّزوا بها أربعة مراکب، و نالوا أربهم، و استمرّوا یتجارون و یتاجرون هکذا. و فی سنة ۱۶۹۸ عقدت جمعیة أخری ثم التحمت مع الأولی فصارتا جمعیة واحدة، و ذلک فی سنة ۱۷۰۲، ثم بنی بیت الهند فی سنة ۱۷۲۶، و فی سنة ۱۷۹۹ وسّع و کبر. و فی سنة ۱۷۸۴ استقر دیوان جماعة الهند.

مذهب البراهمة

قال فلتیر: إن براهمة هذا العصر ما زالوا علی مذهب أسلافهم الذمیم من إغراء

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۶

النساء بإحراق أنفسهن بعد موت بعولتهن، و العجب أن هؤلاء الناس الذين لا يستحلون دم الإنسان أو البهيمة، يرون أن أبرّ المناسک هو إحراق نسائهم، و لكن هذا شأن الوساوس و الأضاليل أبدا تأتى بأفعال متناقضة. و من زعمهم أنهم يقولون إن برهام هو ابن الله نزل إلى الأرض، و اتّخذ أزواجا كثيرة، فلمّا مات تطوعت أحب أزواجه له إلى أن تحرق نفسها رجاء أن تلحقه فى نعيم السماء، و مذ ذلک الوقت سرت هذه العادة السمجة، و لكن ليت شعرى كيف يتأتى للنساء أن يعرفن بعولتهن و قد صار بعضهم خيلا، و بعضهم فيلة، و بعضهم بوما؟ و كيف يمكن لهنّ أن يميزن الحيوان الذى دخل فيها روح الميت؟ غير أن هذا الإشكال لا يعسر على هؤلاء الكهّان، فإن التناسخ عندهم إنما يكون للعامّة فقط، فأما أرواح الخاصّة فمن حيث أنها كانت من جملة الملائكة الذين مردوا، فلا بد من أنها تسعى فى التنقى و التطهر، و كذا أرواح النساء اللائى أحرقن أنفسهنّ تنعم بالنعيم السماوى، حتى يجدن بعولتهنّ على حال الطهارة و الغبطة. و هذا المذهب القبيح قد عرف عندهم منذ أربعة آلاف سنة مع كونهم قوما ودعاء لا يتجرأون على قتل الجرادة، و لكن لا يمكنهم أن يجبروا الأرملة على الإحتراق لأن سر الشريعة إنما هو أن تتقدم المرأة إلى ذلک عن طيب نفس، و التى تكون أقدم عند زوجها لها أن تأبى الإحتراق، و كذا التى بعدها إلى الأخيرة. و يحكى أن سبع عشرة امرأة دخلن النار مرة بعد موت رجل واحد، و كان من الرجاة، ثم من بعد استيلاء المسلمين على بعض بلادهم قلّ استعمال هذه العادة، ثم قلّت أيضا بمخالطة الإفرنج لهم، إلّا أن هذا المنظر السيء المحزن قلّ أن فات واحدا من حكام مدراس و بنديكرى، فقد قال مستر هلول إن أرملة لم يزد سنّها على تسع عشرة سنة أحرقت نفسها بمرأى من زوجة الأميرال رسل، و كانت بديعة فى الحسن و لها ثلاثة أولاد، و لم تلن لدموع الباكين عليها و لم تقبل طلبتهم، فأقسمت عليها الست المذكورة لتعدلنّ عمّا نوته شفقة على أولادها، فما كان منها إلّا أن قالت: إن الله الذى خلقهم لا يتركهم. ثم شرعت فى تنضيد الحطب بيديها، فلمّا احتدمت دخلت فيها حتى احترقت و هى صابرة متجلّدة. و رأى أحد الإنكليز مرة أخرى فتاة حسناء سائرة إلى النار، فلما كادت تضرمها اجتذبها قسرا و ساعده على ذلک بعض أصحابه، ثم سار بها إلى منزله و تزوجها، فكان ذلک عند الهنود بمنزلة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۷

انتهاک المحارم. و لكنى أقول ما بال الرجال لا يحرقون أنفسهم ليلحقوا بأزواجهم؟ و لم وقعت هذه القرعة على هذا الجنس الضعيف الهيوب؟ أفكان ذلک لأن الرواية لم تذكر أن بعض الرجال تزوّج ابنة برهام، بل ذكرت أن برهام تزوج أمرأة هندية، نعم إن قدماء البراهمة كانوا يحرقون أنفسهم، و لكن إنما كان ذلک ليتخلّصوا من مضض الهرم و طوله، بل بالحرى ليعجب منهم الناس، و لعل كالانوس لم يكن يدنو من النار لو لا أن الإسكندر كان ناظرا إليه، و لو أن شرع البراهمة حكم بأن المرأة لا تحرق نفسها إلا و معها واحدة من العجائز لبطلت هذه العادة من قبل الآن. قلت زعم الذين لهم معرفة بلغة البراهمة و يسمونها صانسكريت، أنها أفصح اللغات و أوسعها أساليب فى التعبير، و أنها أم للغة اليونان، فلا يبعد إذن أن تكون محاسن هذه اللغة هى التى مهّدت الطريق للبراهمة حتى سادوا على العامّة، فإن أهل البلاد الشرقية أبدا عبيد الفصاحة و البلاغة. فأما قول فلتير إنهم قوم و دعاء لا يتجرؤون على قتل الجرادة، فما وقع فى هذه الأيام الأخيرة يناقضه و هو كثيرا ما يتعصّب لهم، و لأهل الصين أيضا.

فأمّا عدد المسلمين فى بلاد الهند فقيل ۰۰۰. ۰۰۰. ۳۵ و قيل أكثر.

النزاع على الهند

قال فى الأبجدية أول من كشف السفر إلى الهند على طريق الرجاء الصالح فاسكوداكاما، و ذلک فى سنة ۱۴۹۷. و بعد أن استولت عليه دولة هولند ضبطته دولة الإنكليز، ثم ردّ، ثم قرّ الرأى على أن يبقى فى ملكها و ذلک فى سنة ۱۸۱۴. و ذكر فى تاريخ مصر أنه فى حدود العشرين بعد التسعمائة ظهرت الفرنج البورتغال على بلاد الهند، استطرقوا إليها من بحر الظلمات من وراء جبال القمر بمنبع النيل، و غاصوا فى أرض الهند، فوصل أذاهم و فسادهم إلى جزيرة العرب و بنادر اليمن و جدّة، فلما بلغ ملک مصر ذلک جهّز إليهم

خمسین غرابا مع الأمیر حسین الکردی، و أرسل معه عسکرا عظیما من الترک و المغاربة، و جعل له جدّة إقطاعا و أمره بتحصینها إلی أن قال: ثم توجه بعساکره إلی الهند فی حدود إحدی و عشرین و تسعمائة، فهربت الفرنج من البنادر حین سمعوا بوصوله.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۸

معلومات إحصائیة عن الهند

و علم من خلاصة حدیثه من مجلس المشورة أن مساحة بلاد الهند تبلغ ۵۷۶. ۴۶۶. ۱ میلا مربعا، لدولة الإنکلیز منها ۴۱۲. ۸۳۷، و للأهلین ۹۱۰. ۶۲۷، و لفرنسا و البورتغال ۲۲۴. ۱ و عدد سکانها ۲۹۷. ۸۸۴. ۱۸۰، تت دولة الإنکلیز منهم ۹۰۱. ۹۹۰. ۱۳۱، و تحت حکومة الأهلین ۲۴۷. ۳۷۶. ۴۸، و لدولتی فرنسا و البورتغال ۱۴۹. ۵۱۷، و علم أیضا من خلاصة أخری أن عدد ضباط الإنکلیز فیها یبلغ ۲۴۹. ۵، و عدد عساکر الإنکلیز و غیرهم من الإفرنج ۱۴۹. ۴۳، و عدد عساکر الأهلین و من جملتهم الشرطة ۵۹۶. ۲۸۸، و إذا أضفت إلیهم عدد العساکر القائمة التی جری علیها شروط بین الأهلین و الدولة یبلغ العدد ۹۱۸. ۳۹۷، و فی الجملة فکل عسکری واحد من الإنکلیز لخمسة عشر من الهنود. و نقلت من صحف الأخبار أن عدد من دخل فی طاعة دولة الإنکلیز من الهند و ما یلیها بلغ ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۶۳ من النفوس، و جمیع ما فیها من الإنکلیز ۰۰۰. ۵۰ منهم ۰۰۰. ۳۰ فی الخدمة العسکریة، و العساکر المستخدمة فی دولة الهند تنیف علی ۰۰۰. ۲۰۰ و قد زادوا الآن بسبب الغیرة من دولة الروسیة، ففی سنة ۱۸۲۷ بلغوا ۰۰۰. ۳۰۰ منهم ۷۸۲. ۱۵ مدافعیة و ۰۹۴. ۲۶ من فرسان من الهنود و ۴۱۲. ۲۳۴ من المشاة منهم أیضا، و ۵۷۵. ۴ مهندسا، و عدد العسکر الملکی، ۹۳۴. ۲۱ فجملة ذلک ۷۹۷. ۳۰۲، و أن إیراد دولة الهند یبلغ فی السنة نحو ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۵ لیرة، و کل عسکری یبعث من إنکلترة إلی هناک یکلف الدولة خمسمائة ریال، و أن جمیع أدوات الحرب و جهاز العساکر تصنع فی إنکلترة، و ترسل إلی تلک البلاد، و أن حاکم الهند له فی السنة ۰۰۰. ۲۵۰ روبیة، و لکل من أهل دیوان المشورة ۰۰۰. ۱۰۰ و للقاضی ۰۰۰. ۲۵ و لکل من کتاب الدیوان ۰۰۰. ۲۵ و مثلها لناظر الملح. و من العجب أن أهل هذه الدار الذین یحکمون علی هذه المبالغ من الناس

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۵۹

و البلاد و العساکر، لیس یبالون بأن یعینوا عسکریا واحدا أمام الباب کما یفعل لسائر الدواوین المیریة، و لو کانت هذه الدار فی باریس لکنت تری عندها جوقا من العسکر یحرسونها لیلا و نهارا.

ما بلغته دولة الإنکلیز من السطوة و العز

و فی أخبار العالم أن إیراد الدولة من الهند یبلغ ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۶ و مصاریف العساکر تبلغ ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۰ و قدرهم نحو ۰۰۰. ۲۵۰، و أن دولة الإنکلیز متسلطة الآن علی بر واحد و علی ۱۰۰ جزیرة متصلة بالأرض، ۵۰۰ قب أو رأس، و ۰۰۰. ۱ بحیرة و ۰۰۰. ۲ نهر، و ۰۰۰. ۱۰ بضیع، أی جزیرة غیر متصلة بالأرض. و إذا اضطرت إلی الحرب جهزت ۰۰۰. ۵۰۰ عسکری و ۰۰۰. ۱ سفینة حربیة و ۰۰۰. ۱۰۰ بحری. و أنّ دول الأثوریین و الرومانیین و الفرس و العرب و قرطاجنة و إسبانیا لم تحصل علی هذا العزّ و البسطة و السعة، و أنه لیس من أطیلة أو إسکندر المقدونی أو نابلیون أو تیمور أو هولاکو، من بلغ ما بلغت إلیه من الفخر و السطوة. قلت فی سنة ۱۸۵۰ بلغت البواخر المختصة ببلاد الإنکلیز و إرلند و سکوتلاند ۱۸۱. ۱ سفینة. و فی سنة ۱۸۵۲ بلغ جملة ما دوّن منها فی مراسی تلک البلاد کلها ۲۲۷. ۱ سفینة.

مخترعون و مخترعات

ثم إن أول من فکّر فی استنباط أداة لإصعاد الماء بواسطة النار کان مرکیز ورسستر، و ذلک فی سنة ۱۶۶۳، و هو الذی ینسب إلیه

إیجاد تبلیغ الأخبار من بلد إلی بلد بواسطة خارجیة، و لکن الظاهر أن فکره هذا لم یهم أهل عصره لأن یتعلقوا بالأسباب الموصلة إلیه.

و قال آخر لا شک فی أن مرکیز ورسستر هو مخترع آلة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۰

البخار، و ذلک فی زمن شارلس الأول. و فی سنة ۱۶۶۳ ألّف کتابا سماه عصر الاختراع، و ذکر فیه استنباطات عدیدة علی سبیل الاختصار و الغموض، إلّا أن أهل عصره لم یبالوا بذلک، و کذلک ذکر بالتدقیق بعضا من مخترعاته. و أول تجربة أجراها کانت فی مدفع، و ذلک بأن ملأ نحو ثلاثة أرباعه ماء، ثم سدّ خرقه و فمه ثم أدناه من النار أربعا و عشرین ساعة، فانفلق بدفع شدید، فدلّه ذلک علی أن قوة البخار هی أعظم مما یدرکه الإنسان. و روی عنه أنه قال: قد جعلت الماء ینبعث من الجدول ارتفاع أربعین قدما، و الإناء الذی فیه بخار یرفع أربعین إناء ملئت ماء بارداا، إلّا أن الناس لم ینتبهوا لذلک إلّا فی آخر ذلک القرن.

ثم اخترع القبطان صفری آلة لرفع الماء فی سنة ۱۶۹۳، فهذان الرجلان هما المخترعان لهذه الطریقة. و قد نسبت الفرنسیس استنباط ذلک إلی أحد فلا سفتهم المسمّی دکطر بابان و ذلک سنة ۱۶۹۵، و الحقّ أن عملیته لم تجر عندهم إلا بعد مدة طویلة. و أول ما أجریت عملیة القبطان المذکور کان فی معادن کورنوال، ثم قام مستر نیو کومن، و مستر کین فتزجرالد، و هودن بلور، و وط، و بلطون. و بعد ذلک قام القبطان شانک فأنشأ سفینة لتسافر إلی کندة فی مدّة حرب الأمیرکانیین و نجح. و فی سنة ۱۶۸۱ اخترع بابان آلة من هذا القبیل، ثم قام صفری فصنع أداة لإصعاد الماء و ذلک سنة ۱۶۹۸، و فی سنة ۱۷۸۱ اخترع واط السکوتلاندی آلة مزوجة، ثم قام غیرهم کثیرون، و کل منهم زاد شیئا أو أتقن آلة. و قال الفاضل لارندر إنه یمکن إصعاد البخار من طاستی ماء بأوقیتین من الفحم، و فی حال تبخیرها تکثر فتصیر ۲۱۶ کالونا من البخار، فیمکن و الحالة هذه أن ترفع بقوة آلة معها سبعة و ثلاثین طنا ارتفاع قدم واحد. و یقال إن جملة القطع التی ترکّب فی آلة النار تبلغ ۴۱۶. ۵ قطعة.

من تاریخ الملاحة

و أول تجربة عملت علی نهر التامس کانت فی سنة ۱۸۰۱. و أول باخرة أنشئت فی إنکلترة کانت فی سنة ۱۸۱۵، و فی إرلندة سنة ۱۸۲۰، و أول باخرة سافرت إلی بلاد الهند کان فی سنة ۱۸۲۵، و کان إنشاء البواخر الحربیة فی إنکلترة سنة ۱۸۳۳،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۱

و اعلم أن أول من عرف فنّ الإبحار أی رکوب البحر هم أهل فینیقیة، و ذلک منذ سنة ۱۵۰۰ قبل المیلاد. و أول سفر طویل عرف منهم کان سفرهم إلی إفریقیة و ذلک سنة ۶۰۴ قبل التاریخ المذکور. ثم عرف فی الإسکندریة إلی أن صار کأنه من خصائص الرومانیین. ثم عبر من أهل فینیسیا و جینوی إلی أهل البورتغال و إسبانیا، و منهم إلی إنکلترة و هولاند، و لم یکن الیونانیون یعرفون الإبحار فی بحارهم الضیقة إلّا علی الطوف، و هو عبارة عن خشبات یشد بعضها إلی بعض، إلی أن عرفوا رکوب البحر فی السفائن من داناوس المصری حین قدم علیهم هاربا من أخیه راماسیس و ذلک سنة ۱۴۸۵ قبل المیلاد. و هذا الطوف الذی یستعمله النوتیون الآن هو دون ما کان یستعمله الیونانیون، فإن ذاک کان مجعولا بحیث یمکن تدبیره و إدارته عند هیجان البحر. و أول ما عرف للإنکلیز مراکب حربیة ملکیة مرتبة تحت دیوان معین، کان فی عهد هنری الثامن سنة ۱۵۱۲. و کانت عدة البوارج فی زمان الملکة الیصابت ثمانیا و عشرین. و فی سنة ۱۸۱۴ کان لبریتانیا الکبری تسعمائة سفینة، و فی سنة ۱۸۳۰ کان لها ۶۲۱ سفینة، و فی سنة ۱۸۴۱ کان مجموع سفائنها الکبیرة و الصغیرة ۱۸۳، و فی سنة ۱۸۵۰ بلغت مراکب الإنکلیز الملکیة ۵۰۰ من جملتها ۱۶۱ باخرة. و فی سنة ۱۸۵۴ زاد هذا القدر فبلغ ۵۲۶ ما عدا سفائن أخری کانت تستعمل فی مصالح أخری. و فی سنة ۱۸۵۵ بلغ مجموعها ۶۰۲.

غنائم و خسائر

و عدد ما أتلفت أو غنمت من السفائن فی فتنة الفرنسیس إلی غایة سنة ۱۸۰۲ کان ۳۴۱ من سفن الفرنسیس، و من سفن هولاند ۸۹، و من سفن إسبانیا ۸۶، و من دول أخری ۲۵، فجملتها ۵۴۱ سفینة. و عدد ما أتلفته أو غنمته فی حربها مع دولة فرنسا إلی غایة سنة ۱۸۱۴ کان ۵۶۹ سفینة، منها ۳۴۲ لفرنسا و ۱۲۷ لإسبانیا و ۶۲ لهولاند و ۱۷ للروسیة و ۱۹ للأمیریکانیین، فمجموع ذلک کله ۱۱۰. ۱ سفائن. فأما بوارج فرنسا فیمکن أن یقال إنها بلغت أعلی شأنها فی سنة ۱۷۸۱ و لکن باد کثیر منها فی حربها مع الإنکلیز. و فی سنة ۱۸۵۴ بلغ مجموعها ۶۹۷ منها ۴۰۷ بواخر.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۲

ما أنشأته إنکلترة من البواخر

و فی الإحصائیات أن عدد البواخر التی أنشئت من سنة ۱۸۴۳ إلی سنة ۱۸۵۷ بلغ ۱۸۰۵ سفن، و فی سنة ۵۷ کان من منها فی خدمة البلاد و مصالح البلاد الأجنبیة ۸۸۹، و من سفن الریح ۴۲۹. ۱۸ سفینة.

اختراع البارود فی أوربا

فأما إحداث البارود فکان سنة ۱۳۳۶ و ذلک قبل استعمال المدافع بعشر سنین، و لا یعرف محدثه و إنما یظن أنه من مخترعات راهب من بروسیة اسمه مخائیل شوارتز.

الصینیون و البارود

و الحق أنه کان معروفا عند أهل الصین من قبل تاریخ المیلاد بأحقاب کثیرة، إلّا أن استعمالهم له کان للصلاح لا للتدمیر، و ذلک کتمهید الطرق و دکّ التلال و حفر القنی، و إن یکن قد ظهر من أدوات سلاحهم ما یحقق أنه مجعول له، إلّا أنه لم ینقل عنهم أنهم استعملوه قط فی حرب.

استعمال البارود فی الحرب

قال و أول ما استعمل فی الحروب فیما علمناه کان فی الحرب التی وقعت بین الإنکلیز و الفرنسیس، و ذلک فی سنة ۱۳۴۶. و قد نبغ فی الإنکلیز عن قریب ضابط من ضباط العسکر اسمه «ورنر» أدّاه الاجتهاد و التبحّر إلی أن اخترع شیئا یقدر به علی إتلاف أی سفینة کانت، من مسافة ثلاثة أرباع میل من دون مماسة البارود إیاها، و قد جرب ذلک بحضرة مأمورین من طرف الدولة عند مدینة بریطون، و صحّت تجربته، لا بل زعم أنه یتلف المرکب من مسافة خمسة أمیال. قلت فلا یبعد إذا ما

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۳

ذکره لوقیان و غالن عن أرشمیدیس من أنه أحرق مراکب الرومانیین فی حصار سیراقوسة بواسطة الزجاج، و ذلک قبل تاریخ المیلاد بمئتی و اثنتی عشرة سنة. قال و قد أراد الضابط المذکور أن یبیع هذا السر للدولة لکنه أشطّ فی الطلب فلم تشتره منه.

اختراع بدیل عن البارود

قال و قد نبغ أیضا شنبین الکیمیاوی من برلین فی هذا الفن، و أحدث شیئا یفعل فعل البارود بل أکثر، و هو أن یغمس القطن فی أجزاء متساویة من النطرون و الکبریت، ثم ینشف فیأتی کالبارود فی الثقل و الدفع و هو أسلم عاقبة منه. و قیل إنه باع هذا السر فی بلاد الإنکلیز بأربعین ألف لیرة، إلّا أن دولتی فرنسا و إنکلترة أبتا استعمال القطن فی البنادق بدل البارود، و ذلک لکثرة سخونته، فإن

البندقیة إذا ملئت منه مرات تشتد بها السخونة بحیث أنها تنطلق بنفسها من قبل أن تطلق.

و یقال إنه استعمل أیضا نوع من النبات یسد مسدّ البارود.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۴

بدء استعمال الأسلحة الناریة الطبنجة و المدفع

و فی سنة ۱۵۴۴ استعملت فرسان الإنکلیز الفرد أی الطبنجة. و زعم بعض أن استعمال المدافع کان فی سنة ۱۳۳۸. و زعم آخر أنها عرفت فی حرب کرسی و ذلک فی سنة ۱۳۴۶. و قیل إن الإنکلیز استعملوها فی حصار کالی سنة ۱۳۴۷، و قیل إنها استعملت فی الموضع المذکور فی سنة ۱۳۸۳. و قال فلتیر إن برنس والس المعروف بالأسود لسواد درعه و ریشته، انتصر علی فیلیب فلوی ملک فرنسا عند نهر سم، و کان من أقوی الأسباب التی أعانته علی ذلک استعمال بعض مدافع کانت مع عسکره، فإن المدافع لم یشهر استعمالها قبل تلک الواقعة إلا بنحو ۱۲ سنة، و لم یعلم من کان المخترع لها. قلت فیلیب المشار إلیه ولی الملک فی سنة ۱۳۲۸. و أکبر مدفع فی الدنیا فیما علم مدفع نحاس صنع فی بلاد الهند سنة ۱۶۳۵. و فی برج فی جرمانیا مدفع طوله ثمانی عشرة قدما و نصف قدم، و وسع قطریه قدم و نصف، و وزن کلته ۱۸۰ رطلا و ملؤه من البارود ۹۴ رطلا. و یعلم من نقش رسم علیه أنه صنع فی سنة ۱۵۲۹. و کلة المدفع الصغیر تذهب مسافة ۴۰۰ یارد، و أبعد ما تذهب إلیه من ۵۰۰ إلی ۶۰۰، و هو عبارة عن نصف میل، و من المدفع الکبیر من میل و نصف إلی میلین.

عودة إلی المبانی العظیمة و انتخاب ضابط البلد

و من ذلک أی من المبانی العظیمة، بیت ضابط البلد فی الستی، و یقال له منشن هوس بنی سنة ۱۷۳۹، و بلغت مصاریفه ۷۱ ۰۰۰ لیرة، و بعض أثاثه من مائة سنة و بعضه من ستین. و هذا الضابط تنتخبه الجماعة المنوط بها تدبیر هذه المحلّة فی کل سنة، و ذلک فی التاسع من تشرین الثانی، و یوم انتخابه یجعل فی الطرق حواجز لمنع مرور الحوافل، و تغصّ المدینة بالزحام فیضغط الناس بعضهم، فلا یبقی أحد من أهل البطالة إلّا و یخرج للتفرّج أو بالحری للتلزز، فیخرج الضابط من الدیوان المسمی کلدهال

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۵

فی موکب عظیم، و یجلس فی عاجلة مذهبة فاخرة تجرها ستة أفراس، ثمنها فی الأصل ۰۶۵ ۱ لیرة، و یصرف علی زینتها فی کل سنة ۱۰۰ لیرة، و یجلس معه رئیس المحاکم بقباء أحمر، و هو متقلد سیفه و شعار سلطته، و تقف فی ذلک الیوم شرطة الدیوان لمحافظة الطرق، و تمشی صفوف شتّی و هم یحملون أعلاما مختلفة، و آخرون یضربون بآلات الطرب، و آخرون ینفخون فی الأبواق، و آخرون متکمّون بالدروع علی منوال المجاهدین الأقدمین، و توضع أمامه آلات الحرث علی عجلة مزیّنة، و ما تنبت الأرض، و سفینة ذات قلوع تجرها ستة أفراس، و یسیر معه أصحاب المراتب السنیة و المناصب العلیّة و ضابط البلد المعزول، و عند وصولهم إلی محل معلوم تلاقیه سفراء الدول و وزراء الدولة و القضاة، و أرکان مجلس الشوری و غیرهم من ذوی الشأن، حتی إذا رجع إلی مقرّه دعا أولئک النبلاء إلی ولیمة فاخرة، تشتمل علی ۶۳۷ ۲ صحفة کبیرة و صغیرة، و لا بد من أن یوضع أمامه صحفة فیها نوع من السمک الصغیر إشارة إلی أنه ضابط نهر التامس، الذی هو عند الإنکلیز أعزّ من نهر کنکا عند الهنود.

مأدبة فاخرة

و علی ذکر الولیمة یحسن هنا إیراد ما وجدته مکتوبا فی أوراق تسمّی تعلیقات و مسائل، من أن ضابط نوریش من أعمال إنکلترة صنع مأدبة فاخرة فیعهد الملکة الیصابت سنة ۱۵۶۱ و دعا إلیها جماعة من أعیان ذلک الصقع و کبرائه، فبلغت مصاریفها لیرتین و ۱۳

شلینا و ۱۱ بنسا، کان ثمن الوزّة فیها ثلث شلین، و فخذ الضأن ربعه، و کذا ثمن الدجاجة و ۱۲ بیضة، و ثمن ۱۶ رغیفا ثلث شلین، و ثمن برمیل من الجعة شلینان، و ثمن ۴ أرطال من السکر سدس شلین، و فواکه و لوز ۷ بنس، و قس علی ذلک. و الولائم التی یصنعها أهل الستی تکون فاخرة جدا، تشتمل علی صحاف من الذهب و أکواب من الفضة، و سنویة الضابط ۸۰۰۰ لیرة، و لکنه یصرف فی مدة ولایته أکثر من هذا القدر. و إیراد تلک الجماعة ۱۵۶۰۰۰ لیرة یستوردونها من ضرائب علی الفحم و الأسواق و الدیار و السماسرة. و هذه الجماعة ینتخبهم الأهلون الذین لهم عقار و دیار.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۶

عودة إلی ضابط البلد و مهماته

و من خصائص الضابط مدّة ولایته أن یتولی أمور المدینة غیر معارض، و قد نازع الملک جورج الرابع فی هذه السلطة و حاول إبطالها، غیر أن الإنکلیز کما ذکرنا سابقا لا یحبون تغییر العادات القدیمة، فمن ثم بقی الحال کما کان. و إذا اتفق موت الملک فی أیامه فله أن یجلس فی دیوان الشوری الخاص و یوقع قبل أربابه، و له أیضا أن یغلق باب الموضع المعروف بتمبل بار، و هو أول خط المدینة فی وجه الملکة حین تذهب إلی المدینة، و لکن لیس بقصد ردّها عن الدخول، بل بقصد إدخالها جریا علی العادة.

و تفصیل ذلک أن صاحب الملک إذا أراد التوجه إلی المدینة یصل إلی ذلک الباب فیجده مغلقا فینفخ بین یدیه رجل فی البوق، و یقرع الباب آخر، و یقع بینه و بین الضابط محاورة و کلام هنیهة، ثم ینفتح الباب و یدنو الضابط من صاحب الملک، و یقدم له سیف المدینة فیأخذه منه الملک ثم یعیده إلیه، ثم یدخل و معه الضابط سائرا برکابه. و هذا الباب هو مبدأ خط الستی، بنی فی سنة ۱۶۷۰، و عنده تمثال الملکة الیصابت، و الملک جامس الأول، و کرلوس الأول و کرلوس الثانی، و هو لا یغلق إلّا فی ذلک الیوم، غیر أن توجه صاحب الملک إلی المدینة لا یقع إلّا نادرا، و ذلک کأن یذهب إلی کنیسة مار بولس لیهدی الشکر لله علی فتح أو ظفر بالعدو، أو لیفتح بناء عمومیا کدار مجتمع التّجار أو دار الصرف و نحو ذلک. و الحاصل أن تدبیر هذا الخط الذی یقال له ستی، و هو عبارة عن أول ما أنشیء فی لندرة من الأبنیة و الحوانیت و المحترفات، مفوض بالاستقلال إلی الضابط و إلی أولئک المدیرین. و مصاریف محکمة هذا الخط تبلغ ۱۸۲۰ ۱۲۰ لیرة فی العام، و مصاریف شرطته ۱۱۸۰ ۱۰، و مصاریف محل فیه اسمه نیوکات ۲۲۳۰ ۹، و مصاریف الحبس فیه ۶۰۲۰ ۷، و مصاریف حبس المدیونین ۹۵۵۰ ۴، و مصاریف النهر ۱۱۷۰ ۳. و شعار المدینة هو سیف ماربولس و صلیب مار جرجس.

و فی العام الماضی کان الضابط یهودیا. و قیل إن الضابط الذی نصّب فی هذه السنة کان نفرا من العسکر. و من الغریب هنا أن الضابط یعزل فی کل سنة و خدمته یبقون إلی ما شاء الله، و سیأتی بقیة الکلام علی الستی.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۷

من المبانی العظیمة

کلدهال

و من ذلک کلدهال و قد تقدم ذکره، و هو دیوان أحکام الستی فیه توقیع بخط شکسبیر من شعراء الإنکلیز اشتراه المدیرون بمائة و سبع و أربعین لیرة، و بالقرب منه دار عظیمة أیضا لختم ما یصاغ من الذهب و الفضة، فیها الکأس التی شربت بها الملکة الیصابت عند تتویجها.

برج لندن: تاریخه و محتویاته

و من ذلک البرج الذی یقال له «تور أف لندن» أی برج لندن، و هو أعظم برج فی بریتانیا، و هو حصن للمدینة و مقر لصاحب الملک عند عقد هدنة و نحوها، و سجن للمجرمین من أرباب الدولة، لا یعلم متی کان أنشاؤه، و إنما یظن أنه بنی فی سنة ۱۰۷۸، فیه امتحن کای فوکس الذی عمل علی إحراق مجلس المشورة علی ما تقدم ذکره، و الملکة مریم ملکة اسکوتلاند، و یوحنا ملک فرنسا، و کرلوس دوک أورلیان، و أبو لویس الثانی عشر، و الملکة أنّه أو حنة بولیان ضرب عنقها سنة ۱۵۳۶، و الملکة کاترین هاورد زوجة الملک هنری الثامن، و الأمیرة رشفورد، و سر توماس مور، و رئیس الأساقفة کرانمر، و رئیس الأساقفة لود، و سبعة أساقفة آخرون و غیر ذلک. و قتل فیه هنری الخامس و إدورد الخامس و غیرهما. و هو یشتمل علی الدروع و السلاح التی کانت تستعمل فی الزمن القدیم، و علی مدافع ثمینة من جملتها مدفع أخذ من نابولیون الأول، و کان هو قد أخذه من مالطة و هو بدیع الصنعة، و مدفعان عظیمان أخذا من البلاد الإسلامیة، طول کل ۲۳ شبرا، و فیه دروع جامس الأول و هنری الرابع و إدورد الرابع و الملکة الیصابت و غیرهم. و تاج یقال له تاج صانت إدورد، صنع لتتویج کرلوس الثانی، ثم توارثته جمیع الملوک من بعده، و هو التاج الذی یضعه رئیس الأساقفة علی رأس صاحب الملک عند المذبح. و فیه أیضا تاج جدید صنع للملکة،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۸

و هو نحو طربوش من مخمل أحمر، یحیط به إطار من فضة مرصّع بالألماس، زنته رطل و ثلاثة أرباع، و فی التاج یاقوتة غیر مجلوة یقال إنها کانت فی تاج الملک إدورد الملقب بالأسود، و قیمة التاج کله ۹۰۰. ۱۱۱ لیرة. و فیه تاج لأمیر والس من ذهب غیر مرصع بالجواهر. و آخر لزوج الملکة مرصع بالألماس و الدر و غیرهما من الجواهر. و فیه صولجان یسمی صولجان العدل، أو صولجان الحمامة لأن فیه حمامة، و طوله ثلاث أقدام و سبع أصابع، و هو من ذهب مرصع بالألماس و غیره. و آخر للملکة علیه صلیب بدیع الصنعة مرصع بالألماس. و آخر یسمی صولجان الملک علیه تفاحة مرصة بالیاقوت و الزمرد و الألماس، طوله قدمان و تسع أصابع، و فیه صلیب من ذهب مرصع بالجواهر المتنوعة. و آخر یسمی قضیب صانت إدورد من ذهب مطرق، طوله أربع أقدام و سبع أصابع، فی أعلاه دائرة و صلیب، و یقال إن فی الدائرة قطعة من صلیب المسیح. و فیه أیضا سیوف العدل الکنائسیة و المدنیة و رکب (جمع رکاب) من ذهب تستعمل یوم تتویج الملک أو الملکة، و وعاء للماء المبارک فی شکل نسر، و ملعقة من ذهب للمناولة یوم التتویج، و طست من فضة مذهب یستعمل یوم معمودیة ولد صاحب الملک، و غیر ذلک من التحف مما یطول شرحه. و قیمة ما فیه من السلاح بلغت فی سنة ۴۹- ۰۲۳. ۶۴۰ لیرة. قلت لما رأیت هذا الموضع أخبرنی الدلیل بأن الیاقوتة الحمراء التی فی مقدم تاج الملکة و هی نحو البیضة الصغیرة تساوی ۰۰۰. ۵۰ لیرة، و ثمن التاج کله ملیون، و ثمن التیجان الأخری ملیونان و الله أعلم. و قد جرت العادة بأن تاج الملکة یودع فی هذا الحصن، و عند الحاجة إلیه یؤخذ منه ثم یرد إلیه.

و قد سرق مرة مع سائر الجواهر و ذلک فی سنة ۱۷۸. و أعجب من جمیع ما ذکرت أن هذا البرج الأمیری الملکی التاجی لا تمکن رؤیته إلّا بعد أداء شلین.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۶۹

قصور صاحب الملک

قصر باکنهام

و فی لندرة أربعة قصور لصاحب الملک أعظمها و هو الذی تسکنه الملکة فی الشتاء القصر المسمی باکنهام، فی اسطبله عاجلة لها تساوی نحو ثمانیة آلاف لیرة. و طول حدیقة القصر ۳۴۵ قدما، قال فیه بعضهم قد لزم لترمیمه و تصلیحه ۰۰۰. ۵۰ لیرة، مع أنه لا

یصلح لسکنی الملوک، و بنی فیه قنطرة من رخام صرف فیها ثمانون ألف لیرة، مع أنه لا یمکن إبقاؤها حیث هی، و قبلا صرف علی القصر ۲۲۱. ۷۶۳ لیرة، ما عدا ما لزم له من الفرش و الأثاث، و قد کان یمکن أن ینشأ بهذا المبلغ قصر جدید فاخر خیر من هذا القصر الذی إن هو إلّا عبارة عن مواضع ملفقة، و بعد أن صرف ذلک المبلغ المذکور علی القنطرة لزم الآن صرف مبلغ عظیم، و الله یعلم إلی أین. و صرف أیضا علی قصرها الذی تسکنه فی الصیف فی و نصروهو علی مسافة نحو أربع ساعات من لندرة ۰۰۰. ۱۰ لیرة، و ذلک لإجراء الماء إلیه، و ثانی مرّة صرف علیه ۵۰۰. ۶ لیرة لوقایته من النار. و قد تبین من دفاتر المصروف أنه من سنة ۱۸۲۵ إلی سنة ۱۸۳۱ بلغ المصروف علی القصر ۵۱۶. ۴۹۸. ۱ لیرة، فإذا أضفتها إلی المبلغ اللازم الآن بلغت جملة ذلک ۰۰۰. ۵۱۵. ۱ ما عدا ما یصرف علی الغیاض و الشجر الملحقة به، و بلغ مصروف الأثاث ۰۰۰. ۲۱۶، و مصروف التحف ۰۰۰. ۳، قال فهذان ملیونان صرفا علی قصرین هما سخرة و هزء لأهل أوربا جمیعا. و یقال إنه صرف فی السنة علی ترمیم القصور و المبانی المیریة ۷۸۰. ۱۷۰ لیرة.

قصر صان‌جامس

و القصر الثانی و یسمی قصر صان جامس أصله مستشفی للبرص، ثم صار مقرّا للملک هنری الثامن، و منه تصدر الآن الأوامر الملکیة. و هو مبنی من الآجرّ، و ما تحته طائل و نحوه الباقی.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۰

عن ملوک الإنکلیز و غیرهم

و فی تاریخ بلاد الهند أنه لما مات هنری الخامس، أحبت زوجته الملکة کاترین رجلا والسیا من العسکر الذین یحرسون الملک اسمه أوین تودور، فتزوجته سرا فهو أبو ملوک الإنکلیز من بعده، و کانت وفاتها فی سنة ۱۴۳۷. و أول أولاده قیل له أولا أدمند أرل رشموند ثم عرف باسم هنری السابع. و هذه الملکة الجالسة الآن علی کرسی الملک اسمها الیکساندرینا فکطوریا بنت دوک کنت، ولدت فی الرابع و العشرین من شهر أیار سنة ۱۸۱۹، و ولیت الملک فی العشرین من حزیران سنة ۱۸۳۷، و تزوّجت فی الثامن و العشرین منه سنة ۳۸، و تزوجت ابن عمها البرنس ألبرت من صکس فی العاشر من شباط سنة ۱۸۴۰، و یقال إنه لم یقم قبلها ملکات نلن الملک بالاستحقاق سوی أربع. و کان لأهل هنکاریا کراهة لتملیک النساء زائدة حتی إنه حین کان یتولی علیهم ملکة کانوا یسمّونها ملکا. و أول ملکة عرف لها الولایة فی الدنیا سمیرامیس ملکة آثور و ذلک فی سنة ۲۰۱۷ قبل المیلاد، و هی التی حسّنت بابل و کبرتها حتی صارت أعظم مدینة فی العالم.

الملکة فکتوریا

و للملکة فکطوریا أخلاق حمیدة و احترام لیوم الأحد عظیم، یحکی عنها أن بعض الوزراء ذهب مرة إلی قصرها فی و نصر فی لیلة السبت متأخرا، و هو عندنا لیلة الأحد، فعرض لها أن معه أوراق مهمة تتوقف علی مطالعتها قال:

- و لکن لا أکلفک اللیلة تصفحها، فإنها طویلة و قد فات الوقت، و لکن فی صباح غد.

فقالت له:

- کیف فی صباح غد و هو یوم الأحد؟

قال:

- لأنها من مصالح الحکم.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۱

قالت:

- أجل یجب مدارکتها، و لکن سأتصفحها بعد الخروج من الکنیسة.

فلما کان الغد ذهبت إلی الکنیسة و ذهب الوزیر أیضا، فلما انقضت الصلاة قالت له:

- کیف أعجبتک الخطبة؟

قال:

- لقد أعجبتنی جدا.

فقالت:

- لست أکتم عنک الآن أنی أوعزت البارحة إلی القسیس، فی أن یحرر الخطبة علی محافظة یوم الأحد، و قد سمعت ما سمعت، و لکن تعال غدا فی أیة ساعة شئت.

قال:

- فی الساعة التاسعة.

قالت:

- من حیث هی أوراق مهمة کما ذکرت، فتعال فی هذه الساعة تجدنی مستعدة.

و کان کذلک. و هذه الساعة باعتبار أیام البلاد هنا باکرة جدا. و من ذلک عدم الإسراف فی الملابس و الأبّهة، فإنها لا تتمیز به عن کرائم خوادمها. و إسراف الملابس منع فی بلاد الإنکلیز فی عهد إدورد الرابع سنة ۱۴۶۵، ثم فی عهد الیصابت فی سنة ۱۵۷۴. و أشهر من عرف فیه سر ولطر والی، کانت کسوته تساوی ۶۰۰. ۶ لیرة، و کان له دروع من الفضة و سیفه مرصّع بالألماس و الیاقوت و الدر. و کان دوک باکنهام صفی الملک جامس یلبس حلّة مرصعة بالألماس ترصیعا غیر وثیق بحیث إذا شاء ینفضها فتلتقطها خواتین القصر.

شیء عن إیراد الممالک و ما خصص للملوک

و لا بأس هنا بإیراد جملة من الکلام مفصلة نذکر فیها إیراد الممالک و ما خصص

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۲

للملوک منها، فنقول إن إیراد الملکة فی السنة ۰۰۰. ۳۸۰ لیرة، و لکن لا یدخل فی کیسها من ذلک کله غیر ۰۰۰. ۶۰ لیرة، و الباقی یصرف فی أبهة الدیوان و ملاهیه، و إذا لزم لها زیادة مصروف علی القدر المذکور أخذ من الخزنة علی سبیل القرض إلی إیراد العام القابل و هکذا. و بلغت وظائف الحشم و الخدام و حساب التجار فی سنة واحدة ۸۰۰. ۳۷۱، و بلغ إیراد الدولة من المکس و الضرائب و الأتاوة فی العام الماضی ۰۶۶. ۳۴۸. ۷۱ و المصاریف ۴۷۷. ۳۰۷. ۸۸، و فی سنة ۱۸۴۸ کان إیراد الدولة ۶۹۲. ۹۳۳. ۵۲ و مصروفها. ۳۴۰. ۵۶۳. ۵۲ و خرجت خلاصة من مجلس المشورة فی مبلغ ما صرف فی عامی الحرب، و ذلک من ۱۳ آذار سنة ۵۴ إلی غایة آذار سنة ۵۶ مضمونها أنه فی سنة ۱۸۵۴ بلغ الإیراد من جمیع موارده ۰۰۰. ۰۹۱. ۶۴ و بلغ المصروف ۰۰۰. ۲۳۶. ۷۰.

و نقلت من کتاب آخر أنه فی سنة ۱۸۴۲ بلغ الإیراد:

من دیوان الکمرک ۳۷۴، ۵۱۵، ۲۳

و من التبغ و المسکرات ۸۴۷، ۶۰۲، ۱۴

و من المألک أی البوسطة ۵۴۰، ۴۹۵، ۱

و من أتاوة الأرض ۴۳۰، ۲۱۴، ۱

و من أشیاء متفرقة ۴۰۲، ۴۲۰، ۱۱

فجملة ذلک نحو ۶۴۴، ۲۴۸، ۵۲

و کانت أتاوة فرنسا علی الأرض ۰۰۰، ۲۰۰، ۲۳

و سائر الضرائب و المکس ۰۰۰، ۵۰۰، ۱۷

و أتاوة الروسیة ۰۰۰. ۹۹۰، ۳

و سائر الضرائب ۰۰۰، ۶۶۷، ۳ لیرة

و أتاوة أوستریا ۰۰۰، ۷۹۵، ۸

و سائر الضرائب ۰۰۰، ۷۰۰، ۷

و من ضمن تلک المتفرقات التی وردت إلی خزنة دولة الإنکلیز فی سنة ۱۸۵۶ ما أخذ علیترکات ۸۷۳. ۸۵۰. ۲، و علی الخیل ۸۹۸. ۳۴۰، و علی العقود و الصکوک

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۳

۲۳۴. ۲۲۵. ۱، و فی سنة ۱۸۵۲ أخذ علی نحو أحد و سبعین ملیون رطل من الشای ۴۳۳. ۹۰۲. ۵ و فی سنة ۱۸۵۱ أخذ علی نحو أربعة و خمسین ملیون رطل منه ۶۴۱. ۴۷۱. ۵، و یصرف فی کل سنة علی أشخاص مرزقین لا عمل لهم نحو ۰۰۰. ۰۰۰. ۴. و فی بعض الإحصائیات الرسمیة أن ضریبة الإیراد وحده تبلغ ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۶، و المراد بالإیراد هنا ما یدخل للناس من کسبهم و سعیهم و أرزاقهم. و کان إیراد دیوان المکس فی أیام الملکة الیصابت ۰۰۰. ۲۰ لیرة، و فی أیام شارلس الثانی ۰۰۰. ۳۹۰ لیرة. و کان جمیع إیراد الملکة الیصابت ۰۰۰. ۶۰۰ لیرة، و إیراد شارلس الأول ۰۰۰. ۸۰۰، و کان إیراد دولة الإنکلیز فی زمان ولیم الفاتح ۰۰۰. ۴۰۰ لیرة، و فی زمان هنری الرابع، ۹۷۶. ۶۴ و فی زمان الملکة مارى ۰۰۰. ۴۵۰، و فی زمان جامس الأول ۰۰۰. ۶۰۰، و فی زمان شارلس الأول ۸۱۹. ۸۹۵، و فی سنة ۱۸۵۰ بلغ ۸۰۰. ۸۱۰. ۵۲، و فی سنة ۱۸۵۲- ۳۰۰. ۸۷۱. ۶۲.

قال فلتیر و کانت أملاک سلیمان بن داود تساوی ۰۰۰. ۵۰۰. ۱۲۹. ۱ فقد رأیت مما تقدم أن إیراد دولة إنکلتره و مصاریفها یأتی نحو إیراد دولتین أو ثلاث من الدول العظام، فإن إیراد دولة فرنسا کان شأنه أن لا یزید علی ۰۰۰. ۰۰۰. ۴۰ و إیراد دولة أوستریا ۰۰۰. ۵۰۰. ۱۵ و مصروفها یزید علی ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۷، و إیراد الدولة العلیّة نحو ۰۰۰. ۰۰۰. ۸ تقریبا، إلّا أن کثیرا من إیراد دولة الإنکلیز یذهب فی فائدة الدین و جملته ۰۰۰. ۰۰۰. ۷۸۰ لیرة.

مدیونیة الدول

و اعلم هنا أنه إذا قیل إن دولة إنکلترة مدیونة فلا تتوهم من ذلک أنها ضعیفة، فإن نفع هذا الدین یؤول إلی رعیتها، حتی أن جلّ الدائنین لا یریدون استیفاء دینهم مرة واحدة لأنهم یأخذون فائدته فی کل سنة، و هو مأمون لهم ما دامت الدولة قائمة. و معلوم أن غنی الدولة یکون من غنی رعیتها و سعادتها من سعادتهم. و لا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۴

یخفی أن جمیع الدول مدیونة، فدین دولة أوستریا یبلغ ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۲۰ و فائدته فی کل سنة ۰۰۰. ۵۰۰. ۴، و دین الدولة العلیّة یبلغ نحو ۰۰۰. ۰۰۰. ۲۰ لیرة، و دین دولة فرنسا لعلّه زاد الآن عما ذکر ضعفین. فأما دولة أمیریکا فقد کانت قبل هذه الحرب الأخیرة علی غایة من الاقتصاد، فکان دینها نحو ۰۰۰. ۰۰۰. ۱۰ لیرة، ثم لّما تهورت فی الحرب تمادت فی الاسراف المشط فصار مصروفها فی کل یوم ۰۰۰. ۰۰۰. ۱ ریال، و بلغ دینها ۰۰۰. ۰۰۰. ۰۰۰. ۶۰۰ ریال (۳۴۹). و هذا الدین علی الدول هو من قبیل لجام للرعیة یکبحهم عن المعامع و الفتن، فإن الدائنین الذین هم بالضرورة وجوه أهل البلاد و أغنیاؤها لا یرضون بإنقلاب الدول، مخافة أن یؤول الحکم إلی

الرعاع فيحرموا منه.

نبذة عن الملک عند الإنکلیز

و نقلت من بعض الکتب أن ملک الإنکلیز وراثة، و لمجلس الشوری أن ینقله من عیلة إلی أخری. و أنه بعد أن خلع جامس الثانی نفسه عن الملک و ذلک فی سنة ۱۶۸۸ صار الملک محصورا فی الملوک الذین علی دین البروتستانت. و لما لم یکن لشارلس الأول خلف نقل الملک إلی نسل جامس الأول، و هم من البروتستانت أیضا. و هذه العیلة المستولیة الآن هی من نسل صوفیا بنت ملک هنوفر.

واجبات الملک و حقوقه

و الواجب علی الملک یوم تتویجه أن یحلف علی محافظة ثلاثة أمور:

«الأول» سیاسته بحسب القوانین و الأحکام. «الثانی» إجراء الحکم بالرحمة، و «الثالث» إقراره مذهب الدولة و هو دین البروتستانت. و للملک خصائص و مزایا ینفرد بها عن غیره بحسب ما ارتقی إلیه من الشأن و الشرف، منها أن له قدرة علی أن یأذن بالحرب و الصلح، و أن یبعث من قبله سفراء إلی الدول و یرضی بسفرائها، و أن (۲۴۹)

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۵

یعفو عن ذوی الجنایات، و أن یخصّ من شاء بالشرف و الألقاب الستیّة، و أن ینصب الحکّام و یولّی الوظائف العسکریة برا و بحرا لمن یراه أهلا، و أن یرفض ما یقدم له أهل المجلس من الدعاوی و القضایا لیوقع علیها. و هو رأس الکنیسة التی علیها رجال الدولة، و هو الذی یولّی الدرجات و المراتب للأساقفة، إلّا أنه لا یمکنه تنفیذ هذه الأمور إلّا علی ید الوزراء، فهم المطالبون بکل ما یصدر عنه من الأوامر، و لهذا یقال إن الملک لا یخطیء. و له أیضا خصائص أخری منها أنه لا یغرم شیئا فقد لأحد الأمة، و أن دینه یقدم علی دین غیره، و لا تقام علیه دعوی، و لکن لکل من الرعیة حقّ فی أن یعرض له علی ید وزیره ما یدعی به من الأملاک. و لعیلة الملک أیضا مزایا امتازت بها، فیحق لزوجته أن یقال لها ملکة، و أن یحترم مقامها و لو بعد وفاة زوجها، و لها استطاعة علی أن تشتری و تبیع ما تشاء باسمها، و أن تحیل ما یرد علیها من الدعاوی إلی أی دیوان دولة شاءت. و لابن الملک البکر حق من یوم ولادته أن یدعی أمیر والس، و من منصبه أن یدعی دوک کورن وال، و أرل شستر. و جمیع أولاد الملک ینعتون بالنعت الملکی، فیقال مثلا جنابه الملکی، أو حضرته الملکیة.

حدائق لندرة

و فی لندرة ستّ غیاض أعظمها الغیضة التی یقال لها «هید بارک» أی غیضة لهو، و هی فسیحة عظیمة، مساحتها من الأرض عبارة عن ۳۸۷ فدانا. بأسفلها قنطرة بلغ مصروفها ۰۶۹. ۱۷ لیرة، و بأعلاها قنطرة أخری أنفق فیها ۰۰۰. ۸ و کانت أولا فی غیضة صان جامس فنقلت، و بلغت مصاریف نقلها ۰۰۰. ۱۱، و فی هذه الغیضة تری کبراءها و عظماءها فی أحسن المرکوب و الملبوس و الحشم، و خصوصا من شهر نیسان إلی تموز، و أکثر النبلاء یسکنون هناک. قال فیها بعض الفرنسیس صور لنفسک سهلا فسیحا ذا أشجار و برک و حقول، و مرج تمرح فیه الثیران و الشاء سربا سربا کأنک فی إقلیم دوفنشیر الأنیق، فتلک صفة هید بارک. ثم صان جامس بارک و هو المتصل بقصر الملکة، و مع أن المظنون من وضعه وصفته أن یکون منتاب ذوی الفضل و الشأن، فهو مجمع الخدمة و الحرافیش و الأولاد. ثم کرین بارک، و ریجنت بارک، و باترسی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۶

بارک، و فکطوریا بارک، و هو أخسّها کما أن فکطوریا ثیاطر هو أخس الملاهی. و ما عدا هذه الغیاض فثم حدیقتان إحداهما لتنبیت النباتات کبستان النباتات فی باریس، غیر أن دخولها مقصور علی أصحابها، أو علی من یؤذن له منهم. و الثانیة للحیوانات الحیّة و المیتة، و الأداء علی دخولها شلین. و فی ضواحی لندرة أیضا متنزهات ینتابها الناس فی الصیف و ذلک کرتشموند، و کیر، و همستد، و کرافزان، و همبطون کورت، و أحسنها کریستل بالس فی سدنام، و هو القصر الذی نقل من غیضة هید بارک و هو یعزّ عن النظیر.

ما تتصف به لندرة مقارنة بباریس

و قد حان الآن أن أتکلم علی أحوال لندرة الخصوصیة ممهدا لذلک بمقالة قالها بعض الفرنسیس ثم أشرح جمیع ما یتعلق بها. قال أمّا لندرة فإن کل ما فیها إنما جعل للتمتع بمداخل الدیار، و أما باریس فإن طیب عیشها إنما هو فی الأسواق و الشوارع، و إن الأولی تحیّر الناظر باحتتان حالاتها و بکثرة فیها من الدکاکین، و بترفّه الأعیان و العظماء و إسرافهم. و إن الثانیة تسحر بتفنن شؤونها و اختلاف المشاهد فیها، و بما یتنعم به أهلها من العیش الذی یحکی عیش النّور (الجنکنه) المتنقلین من حال إلی حال. و فی الجملة فإن لندرة تحکی خلیة العسل، و باریس تحکی منهلا عذبا لکل وارد، و ما أحسب جمود الإنکلیز الذی یصفهم به أهل باریس إلّا من هذه الحالة التی تفاوت فیها.

المطاعم و المقاهی

و قال آخر لیس فی لندرة مطاعم أنیقة، و محال قهوة فاخرة کما فی باریس، فیلزم الغریب أن یأکل فی المنزل الذی یسکنه، أو فی بیوت الأکل، و هی عبارة عن مواضع مظلمة لا تأنق فی فرشها و لا فی مطابخها، و إذا دخلت أحدها مما یتردد إلیه وجوه الناس أحضر لک الخادم فی وقت الغداء خمس صحاف مغطاة بأغطیة مفضّضة،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۷

فتحسب أن فیها شیئا یفتح منک اللّهی، فإذا کشفت عن إحداها ظهر لک الشواء، و یلیه البطاطة، ثم الخلّ علی حدتهما ثم خسة. و فی الخامسة زبدة مزابة مع آنیة الأباریز، و إذا شئت التفنن أحضروا لک سمکا مسلوقا. أما الشراب فالجعة لأنک لو أردت أن تشرب الخمر لزم أن یکون دخلک فی العام دخل أمیر فی غیرها.

السکن

قلت قد أشرت فی وصف باریس إلی بعض ما بینها و بین لندرة من الفرق فی السکنی و المعیشة، و الآن أستوفی ذلک بناء علی ما قال الفرنساوی من أن طیب العیش فی لندرة إنما هو داخل الأبواب، و فی باریس بخلاف ذلک. فأقول إن أهل الاستطاعة فی لندرة کالتجار و غیرهم یستأجرون بیوتا و یستقلون بها، و ذلک لصغرها خلافا لدیار باریس، فلهذا کان صاحب العیلة یؤثر التنعم فی بیته مع أهله علی الخروج. أما الغرباء الذین ینزلون فی الدیار فیکون لأحدهم حجرة أو حجرتان، فیمکنهم أن ینالوا طعامهم صبحا و مساء فی منزلهم، و ذلک بأن یشتروا ما یریدون أکله و یأمروا الخادمة بطبخه، و یعطوها شیئا زهیدا فی مقابلة خدمتها، و ذلک أولی من أنهم یأکلون فی المطاعم، بل هو أنظف و أرخص. و فی هذه الخطة تفضل لندرة باریس، فإن الغرباء فی هذه لا ینزلون إلا فی منازل کبیرة مشاعة، فیضطرون وقت الأکل إلی الخروج إلی أحد المطاعم، فإن الأکل فی المنازل غال جدا. و هناک مزیة أخری، و هی أن النزیل فی لندرة یستأجر الحجرة فی الأسبوع، و فی باریس یستأجرها مشاهرة، و إن کان میاومة لزم أن یدفع الضعف ضعفین،

و أیضا فإن صاحب الدار فی لندرة یعطی النزیل مفتاح داره لیمکنه أن یدخل و یخرج أیان شاء، و فی باریس لا بد من قرع الباب بعد نصف اللیل لیفتح له البواب، غیر أن النزیل فی دیار لندرة لا یمکنه أن یخلو بالنساء فی حجرته، و فی باریس لا حرج فی ذلک، فإن

طلوع المرأة إلى حجرة النزيل فيها أهون من طلوع رغيف الخبز، كما أن طلوع المرأة فى لندرة إليه أصعب من طلوع الفرن بناره، و هذا شذوذ عن الأصل المتقدم إن قلنا بأنه من طيب العيش. إلا أن أكثر المنازل هنا يقوم بخدمتها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۸

نساء حسان يغنين النزيل عن الخروج. و لأصحاب هذه المنازل عادة ذميمة و هى أنهم يستولون على مفاتيح عديدة متنوعة يفتحون بها صناديق السكان، حتى إذا علموا أن ليس فى صناديقهم ما يقوم بأجرة المسكن أنذروهم بالخروج. و هناك طريقة أخرى للسكنى فى كلتا المدينتين و هى أنّ من شاء أن يمكث طويلا يستأجر حجرة أو حجرتين فى دار من غير أثاث، و يؤثثها كما أحب. و لكن يلزمه فى لندرة ان يفتح الباب لقاصده و ينور له فى الدرج، و فى باريس لا يلزمه ذلك. هذا و لما كان أرباب الحكومة فى لندرة لا يعنون بما فيه تحسين المدن و تنظيم ديارها، كانت ديار لندرة بالنسبة إلى ديار باريس حقيرة جدا، إذ كل إنسان يبنى داره كما تقتضيه حاله، فمنها ما كان مشتملا على طبقتين فقط، و منها على ثلاث طبقات من دون مراعاة رونقها و هندمتها و مساواتها، أو يقال إن الديار هنا لما كانت عرضة للحريق، كان هم صاحب الملك مجرد الانتفاع بالبناء دون الزخرفة. و ناهيك أن فى لندرة ۲۶۰. ۲ دارا مشرفة على السقوط، و ما عدا ذلك فإن من يكون قاعدا فى حجرة يرى مبلطها يهتز به كلما مرت عجلة من تحتها. فمحاسن لندرة كلها مقصورة على الحوانيت، فإذا رفعت نظرك ما فوقها قابلك سواد الحيطان، و حقارة الطوب و تفاوت الطيقان، و خساسة المداخن البارزة من السطوح من الخزف، وضعة البناء و ما أشبه ذلك.

و أعظم ما يشعر الناظر بهذا ما إذا قدم من باريس، فإنه يرى الفرق عظيما جدا، و خصوصا إذا اتفق قدومه فى يوم الأحد حين تكون الحوانيت مغلقة، فيحسب نفسه أنه فى قرية صغيرة، إلاـ أن فى داخل الديار هنا مرافق لا توجد فى باريس، منها حسن المواقد و قد سبقت الإشارة إليه، و كونها مشتملة على صهاريج من الماء على طيبه، و فى باريس يلزم الساكن أن يشترى الماء من السائقين على رداءته. و منها قلة درجها و ذلك نتيجة كونها غير شاهقة، و لعلّ صاحب العيلة إذا استأجر دارا من بابها يهنئه العيش هنا أكثر مما يهنئه فى باريس على كثرة ما يوجد فى هذه من البدائع، فإن الغيور على عرضه لا يهون عليه إذا كان نازلا فى الدرج ليخرج إلى محترفه، أن يرى آخر صاعدا مجاورا له. و لهذا تقول الإنكليز إن هناءهم جوّى، و إن ديارهم أدعى إلى السكون و الهناء من ديار غيرهم. و إذا سكن هنا فى الدار ۲ أو ۳ و اتفق تلاقيهما فى الدرج فما أحد يكلم صاحبه، و إذا زاره أخوه أو أخته و أطالا المكث

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۷۹

عنده إلى نصف الليل، فما يدعوهما إلى المبيت عنده. أما قوله باحتتان حالاتها، و بكثرة دكاكينها، و بترفّه الأعيان و العظماء فيها، فاحتتان حالاتها هو كون جميع الأزمنة و الأمكنة فيها متساوية، أمّا فى الأزمنة فليس عند الإنكليز فى أيام السنة كلها يوم للحظ و اللهو، فلا تعرف فيها رأس السنة من ذنبها، و ليس عندهم أيام للبطالة، ما عدا أيام الآحاد سوى عيد الميلاد، و يوم الجمعة الكبيرة. و لكن يوم البطالة هنا هو يوم الإنقباض و الإكتئاب إذ لا ترى شيئا يقرّ العين، فقد أسلفنا أن جميع الحوانيت تكون يومئذ مغلقة. و من العجب هنا أنه يؤذن لباعة التبغ فى فتح دكاكينهم يوم الأحد، و لا يؤذن لباعة الخبز و اللحم، فكأن التبغ ألزم للمعيشة من غيره. ثم لا مثابة للناس ينبسطون بها سوى التردد على تلك الغياض، و هى خالية من المطاعم و المشارب و آلات الطرب على قلة ما فيها من المقاعد، و هى فى الغالب بعيدة عن سكنى العامّة و الوسط، و إنما هى مجعولة لحظ الكبراء القاطنين فى الديار المجاورة لها، فإن كل شىء هنا معن به اسم العلية، و قد مرت الإشارة إلى هذا. نعم إن فى صباح الأحد فى لندرة لذّة لا تقدر، و لا تنظر بالنسبة إلى نحس الأيام الأخر، و هى قلة قرقعة العجلات و سائر المراكب، فقد كنت أحسب نفسى فى صباح كل أحد أنى ساكن فى الريف، فأما فى سائر الأيام فإن توالى هذه القرقعة داهية من أعظم الدواهى، فمن لم يتعود عليها لن يهنئه نوم و لا قعود، و لن يمكنه أن يجمع أفكاره فى رأسه، و إذا مشى اثنان فى الطريق لزم المتكلم أن يصرخ بأعلى صوته ليسمعه الآخر، فأعوذ بالله من ذلك.

الحوانيت

فأما کثرة الحوانیت فقد تقدم ذکرها فی أول الکلام علی لندرة، و بقی هنا أن أقول إنک فی جمیع حوانیت لندرة تجد ما یلزم للملبوس و المفروش ناجزا عتیدا، فإذا دخلت مثلا حانوت إسکاف وجدت عنده عشرة آلاف زوج نعال معرضة للبیع، فاخترت منها ما شئت، و قس علی ذلک سائر أصناف الملبوس. و من شاء أن یفرش صرحا فی ثلاث ساعات وجد کل ما یخطر بباله من الأدوات و الأوانی، و نحو ذلک

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۰

حوانیت باریس، فأین هذا من البلاد التی لا تجد فیها حاجتک إلّا بعد أن توصی علیها، فإذا حضرت وجدتها علی غیر المراد، فنغصک ذلک و أفضی بک إلی القیل و القال.

أعظم طریق فی لندرة

و أعظم طریق فی هذه المدینة هو ریجنت سرکوس، و یذکر غالبا باسم ریجنت ستریت، و هو علی خط منحن نحو نصف دائرة، طوله ۷۳۰. ۱ ذراعا، و هو یشتمل علی دکاکین فاخرة بهیّة أکثرها مشرّف بشعار الملک، و ذلک أن الملکة إذا اشترت شیئا من صاحب الدکان، ساغ له أن یضع علیه صورة الأسد و وحید القرن، و أدّی إلی المیری شیئا علیه فی کل سنة. و ثمّ تری الثیاب الفاخرة من کل صنف و لون و من کل صقع و مکان، و قد یکون طول لوح الزجاج فی عرض الحانوت نحو ست أذرع فأکثر، و عرضه نحو ذراعین، فیکون العرض کله من أعلاه إلی أسفله لوحین أو ثلاثة، و ثمن اللوح نحو عشر لیرات. و دیار هذا الطریق مبیّضة الخارج، أو یقال نصفها أبیض و نصفها أسود، و ثم تری أجمل نساء لندرة یخطرن بالدیباج و الثیاب الفاخرة، و یجررن أذیالهنّ علی الأرض جرّا، و لا سیما لیلة الأحد و هی لیلة السبت عندهم، فإذا رأیت واحدة منهن جزمت بأنها أجمل من رأیت، ثم تری أخری فتجزم بأنها أجمل من تلک و هلمّ جرا، و کذلک هنّ فی کافن ستریت و های مارکت.

لیلة الأحد فی لندرة

و الواقع أن هذه اللیلة فی جمیع أسواق لندرة هی لیلة البهجة و القصوف و الفرح، و هی أبهج اللیالی، أمّا عند العلیّة فلعلمهم أن الیوم القابل هو یوم الإنقباض فینصبّون فیها إلی اللهو و الخلاعة فی جمیع الأماکن المقصودة، و أما عند السفلة و الفعلة فلکونهم یأخذون أجرتهم فی مساء کل سبت، فمتی انصرفوا من المشاغل أقبلوا علی الحانات و الأسواق لشراء مؤونة یوم الأحد، فتری جمیع الدکاکین غاصّة بالرجال

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۱

و النساء، و کثیرا ما یتفق أن الرجل حین یقبض أجرته یذهب إلی الحانات و ینفقها فیها، فیرجع إلی أهله صفر الیدین فیقوم النقار بینه و بین زوجته، أو أن یعطیها لزوجته فتذهب هی و تنفقها فی المسکرات. ففی هذه اللیلة تری النساء یتضاربن بعضهن مع بعض أو مع بعولتهن أو مع غیرهم، و کذا شأن الرجال. و کثیرا ما رأیت النساء یغلبن الرجال و یجررنهم بنواصیهم، و کثیرا ما تری امرأة مشرومة الأنف أو مملوقة العین أو مخلوعة الید، أو صرعی فی الطریق من الخمر و الضرب، کل ذلک من برکات هذه اللیلة. و لو لا أن أصحاب الحانات مشروع علیهم أن یقفلوا حوانیتهم فی نصف اللیل، و من خالف ذلک یغرّم خمس لیرات، لبقوا و بقین علی الجن و الروم و الجعة إلی الصباح. و الواقع أن العملة من الإنکلیز و ذوی الحرف أقرب إلی مزیة الکرم منهم إلی البخل، فإنهم فی تلک اللیلة ینفقون إنفاق من لا یخاف الفقر، و یشترون قطع لحم کبیرة و یتخذون حلواء من الفاکهة و غیرها. و فی یوم الأحد یشربون القهوة بفناجین مخصوصة و بالسکر الأبیض المکرر و هلمّ جرا. و أما عند أصحاب الدکاکین فلعلمهم أن یوم الأحد لیس فیه بیع و لا شراء

فیطیلون المکث فی دکاکینهم، رجاء أن یکسبوا شیئا زائدا یکون عوضا عن بطالة الأحد، فلهذا تری للطرق و الأسواق فی تلک اللیلة بهجة لا تراها فی سائر اللیالی، و کذلک لیلة عید المیلاد و بعض لیال قبلها، فإن الدکاکین تبقی فیها مفتوحة و بعضها یکون مزیّنا، و فیها تسمع آلات الطرب من جهات شتّی، و تری الناس فی إقبال و إدبار و مرح و ارتیاح.

طریق أکسفورد

و دون الطریق الذی مرّ ذکره فی الغنی و الرونق طریق اکسفورد، إلا أنه أطول و أقوم، و هو یفضی إلی هید بارک و طوله ۳۰۴. ۲ أذرع، و قد تری فی هذا الطریق و فی غیره عشرین دکانا للبرانیط، و مثلها للنعال، و مثلها للکتب، و نحوها للخزّ، و لا تری من مطعم واحد أو نصف محل للقهوة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۲

طریق استراند

ثم الطریق الذی یقال له استراند، طوله ۳۶۹. ۱ و هو أکثر الطرق ملاهی، فیه فرع من المألک الکبیر عنده جرس ذو مادة کهربائیة یدل علی أوقات البلدة، و علیه تضبط مواقف سککک الحدید الساعات و الأوقات، و فی الساعة الحادیة بعد الظهر یهبط عن مرکزه بنفسه.

طریق بیکادیلی و طرق أخری

ثم بیکادیلی طوله ۶۹۴. ۱ ذراعا، ثم نیو رود، أی الطریق الجدید، طوله ۱۱۵. ۵ و لکنه لیس من الطرق المنتابة، و نحوه ستی رود و طوله ۶۹۰. ۱، ثم نیوبون ستریت فیه دکان جوهری رأس ماله خمسمائة ألف لیرة، و تحت یده من الصاغة و الصنائعیین ما یزید علی خمسمائة رجل، و هو أغنی جمیع صاغة المملکة، و کثیرا ما تستخدمه ملوک الإفرنج من جمیع الأقطار فی صوغ آنیة لقصورهم. ثم هوبرن و هو أوسع الطرق لکنه غیر طویل، فیه دکانان للبزّ و الحریر، لا ینقص عدد المستخدمین فی أحدهما عن مائة نفس. و من هوبرن فصاعدا نحو الشمال بنی فی سنة ۱۶۰۷ و فی زمن الملکة الیصابت منع من تکثیر البیوت، و أمر بأن کل عیلة تسکن فی بیت واحد. ثم هلوی ول ستریت مشهورة بالدکاکین التی یباع فیها کتب الفسق و صور النساء و ما أشبه هذا. ثم طرق أخری حسنة أیضا و لکنها لیست نظیر هذه. و عدد الطرق المبلطة فی لندرة یبلغ ۵۰۰۰ و تمتد أکثر من ۰۰۰. ۲ میل، و یوجد فیها نحو ۵۰ طریقا باسم کین ستریت، أی طریق الملک، و مثلها کوین ستریت، أی طریق الملکة. و نحو ستین طریقا باسم ولیام ستریت، و مثلها جون ستریت، و أکثر من ۴۰ طریقا باسم نیو ستریت.

وسائط النقل

و قد تذاکر الناس هذه السنة فی إنشاء سککک الحدید فی قلب لندرة بدل

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۳

الحوافل، فإن جعل هذه یبلغ فی السنة ۰۰۰. ۳۰۰ لیرة و السیر فی الأول لا ینفق فیه أکثر من ۰۰۰. ۳۰ لیرة فقط.

أضواء لندرة

و جمیع أسواق لندرة و شوارعها و أزقتها تنوّر بجمال النساء عامّة اللیل، و ناهیک أنه فی محلة واحدة و هی محلة مارلابن من جملة نحو ۶۰ محلة یوجد ۰۰۰. ۲۰ مومسة، منهن ۲۰۰. ۲ لهنّ بیوت خاصّة بهنّ، و حیثما تکثر أنوار الغاز یکثر ترددهن.

و لكثرة الأنوار فی الدكاكين و الطرق تكون المدينة فی الليل أدفأ منها فی النهار، و كذلك مدينة باريس. و الغاز فی طرق لندرة يوضع فی فوانيس علی عمد قائمة من حديد، فهی من هذا القبيل أحسن من باريس لأن كثيرا من فوانيس هذه تجعل فی الحائط، إلا أنه ليس فی طرق لندرة شجر و لا محال للقهوة، علی نسق ما فی باريس، لأن الشرطة لا يأذنون لأحد فی أن يضع كرسيا فی الطريق و يقعد عليه.

اختراع الغاز و استخدامه فی الإضاءة

ثم إن اختراع الغاز هو من أعظم البركات التی يتنعم بها الإنسان فی الليل، و من أقوی الوسائل المعينة علی الأمن و السلامة، و لا سيما فی المدن الكبار، فإن لندرة منذ مائة سنة كانت ممتهة باللصوص و النهّاب فی مسالكها بعد العتمة، حتی أن السالك فيها كان يعرّض نفسه إمّا للقتل و إما للسلب، و كانت الأولاد تحمل بأيديهم مشاعل و يجرون بها بين يدی المارين، و يأخذون منهم شيئا. و فی أيام الملكة مارى كان العسس يتخذون أجراسا يضربون بها للتنبيه و التحذير، و ذلك لقلة الأنوار. و فی سنة ۱۷۶۲ وضعت الفوانيس، و أوقدت بالزيت، فقلّت اللصوص. و أول من جرّب استخراج الغاز قسيس اسمه كلاطون، و ذلك فی سنة ۱۷۳۹، إلا أن تجربته هذه لم يعمل بها، و فی سنة ۱۷۹۲ تصدّی لهذه العملية رجل من كرنوال اسمه مردوك، و فكر فی أنه إذا صان الغاز المستخرج من الفحم أو الحطب فی وعاء، ثم أجراه فی

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۴

قصب من الحديد يكون مغنيا عن المصابيح و الشمع. و فی سنة ۱۷۹۸ أتم تجربته هذه و أجراها فی بعض المعامل فی برمنهام إلا أنه كان يعرض لها بعض الخلل أحيانا.

و فی سنة ۱۸۰۲ انتبه الناس إلی إحكام ذلك و تعميم منفعته. و بعد هذا التاريخ بسنة واحدة نوّر ملهی ليسيوم فی لندرة بنور الغاز، و فی سنة ۱۸۰۴ و ما بعدها وسّع مردوك دائرة مشروعه هذا فی منشستر. و زعم الفرنسيس أنهم هم مخترعوه، إلا أن هذا النور لم يعرف عندهم إلا فی سنة ۱۸۰۴ و كان ذلك فی باريس، و قد عرفت أن مردوك صنعه قبل هذا الوقت بعدة سنين، و من سنة ۱۸۰۲ إلی سنة ۱۸۲۲ اشتهر استعمال الغاز، و أعجب جميع الناس، حتی إن رأس المال الذی جمع لتنوير لندرة فقط بلغ أزيد من ۰۰۰. ۰۰۰. ۱ ليرة، و شغلت قصبات الغاز فی إيصال النور إلی محال مختلفة مسافة ۱۵۰ ميلا، و بعد ذلك بسنين قليلة اشتهر فی سائر مدن المملكة لتنوير الطرق و الحوانيت و الديار. و هو علی بقائه و عدم نقصه خلافا لنور الشمع و الزيت أرخص سعرا و أخف كلفة، فإن رطل الشمع الدون مثلا يساوی ثلاثة أرباع شلين، و مدّة اتقاده لا تزيد علی أربعين ساعة، و إن غالونا من الزيت يساوی شلينين، و ينير ما تنير ستمائة شمعة فی ساعة واحدة، و الشمع العال أغلی من الشحمی بثلاثة أضعاف، و ألف مكعب من الغاز يساوی تسعة شلينات فتحصّل من ذلك أن ما قيمته مائة من الشمع العال يكون خمسة و عشرين من الشحمی، و ما قيمته خمسة من الزيت يكون من الغاز ثلاثة، و بالجملة فإنه من ألزم الأشياء و لا يعلو عليه نور إلا نور الشمس، و إذا أوقدت نورا منه فلا ينطفیء إلا إذا أطفأته، و ذلك بأن تدير لولبه إلی جهة الشمال، و إذا أردت إيقاده أدرته إلی اليمين، و أدنيت النار من فوهته فيبقی كذلك إلی ما شاء الله. و كيفية تنوير الطرق فی لندرة هو أن يرتقی الرجل فی سلم إلی الفانوس، و فی باريس يجعل الرجل النور فی عود طويل، ثم يدنيه من فوهة الفانوس من دون أن يرتقی إليه، و لا يخفی أن ذلك أسهل و أسرع.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۵

منازل الأعيان و العظماء فی لندرة

و أما قوله بترفّه الأعيان و العظماء و إسرافهم فقد سبقت الإشارة إلی ذلك عند الكلام علی أخلاقهم و أحوالهم. و إنما نقول هنا إن

هؤلاء الأماجد یسکنون فی حارات معلومة من المدینة فرارا من الزحام و من اختلاطهم بالأوباش، فتری بقعة فسیحة عظیمة فی لندرة لیس فیها سوی دیار متصافّة متصاقبة، و هی بالنظر إلی وسط المدینة مظلمة موحشة إذ لیس فیها حوانیت و لا مطاعم و لا ملاهی، لکنها نظیفة سالمة تکاثف الأوحال، و ضغط السائرین و قرقعة العجلات. و مع ما هم فیه من البحبحة و النعیم فیها و الإنفراد، فلا بد و أن یکون لکل منهم دار فی الخلاء یسکنها فی الصیف، ففی هذا الصقع الجلیل تسطع أنوار السعادة من أبراجهم العلویّة، و هناک تری الخدم و الحشم، و الخیل المطهّمة و العواجل النفیسة، و هناک تمید الموائد بما علیها من الأطعمة الفاخرة المجلوبة من جمیع البلدان، و هناک تتیه الکلاب علی کثیر من بنی آدم ممن یتضورون جوعا، و یهلکون من الوسخ و البرد و العریّ و من أکل اللحوم المنتنة فی أزقة لندرة القذرة، فلیس بین الجنة و الجحیم فی هذه المدینة بعد ما بین الجنّة و الجحیم فی الآخرة.

جحیم لندرة

و هاک مثالا علی سقر لندرة، قال فی بعض الصحف إن مائة و ثمانین نفسا ما بین رجل و امرأة و ولد یسکنون فی أربع و ثلاثین حجرة. و فی أخبار الکون کان یمکث فی حجرة واحدة من أربعة عشر نفسا إلی عشرین لیلا و نهارا، و کان یسکن فی حجرة أخری رجلان مع زوجیهما و أرملتان و ثلاث بنات و عزب و ثلاثة أولاد، فجملتهم أربعة عشر نفسا قد جعلوا أنفسهم عیلة عیلة، کل عیلة تبوأت زاویة من الحجرة.

و فی موضع آخر یسمی ساحة فلتشر حجرتان لا تزیدان علی سبع أقدام عرضا فی عشر طولا، و قد اشتملتا علی ثمانیة و عشرین نفسا، ما أحد منهم یعرف القراءة، و لیس تحتهم وطاء سوی التبن إلا واحدا منهم، و لا غطاء لهم فی اللیل سوی ثیابهم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۶

التی یلبسونها فی النهار، و مع ذلک فإن هذین المحلین إذا قیسا بغیرهما من البیوت المجاورة لهما کان لهما حرمة، فإنه وجد فیها ۲۰۸ أولاد قد أدرکوا، و لم یدخل منهم المکتب سوی ثمانیة و ثلاثین فقط، و هم غارقون فی الفساد و الخساسة و القذارة و الوباء، و فی هی هوبرن ثلاثون بیتا یسکن فیها مائة و ثلاث و ثلاثون عیلة، کل ثلاث عیال أو أربع فی حجرة واحدة، و قد تناهوا فی السکر و السفاهة و فی کل نوع من الرذائل.

و کثیرا ما تری النساء یمشین فی الشتاء حافیات، و یلتقطن الجذور و فتات الخبز، و غیر مرة رأیت رجلا علی ذراعه طفل، و امرأته بجانبه صفراء منجردة علی عتبة إحدی الدیار فی أشد لیالی الشتاء بردا. و فی کل سنة یبقی ألوف من ذوی الحرف معطلین، ففی سنة ۱۸۴۹ کان ۱.۴۰۰ خیاط و ۹۰۰ إسکاف بلا عمل، و کان ۱.۷۰۰ إسکاف یعملون بنصف الأجرة، و کذا الصاغة و صنّاع الجلود و قس علی ذلک.

و فی لندرة ۲.۲۶۰ دارا مشرفة علی السقوط، و الحاصل أنه لا فقیر أشقی من فقیر لندرة، کما أنه لا غنی أترف من غنیها. و کما أن طرف لندرة من جهة الشمال موسوم بحضرة الکبراء، کذلک کان طرفها الجنوبی مختصا بأهل الضعة و الخمول، فلا تری هناک شیئا یعجبک غیر حسن النساء، فإن الله تعالی جعل لهن هذا النصیب عامّا.

جهل الإنکلیز بالطبخ و میلهم إلی الغش

و أما قول الآخر إنه لیس فی لندرة مطاعم أنیقة.. إلخ، فهو فی محله، إلا أنه لم یذکر سبب ذلک، و هو جهل الإنکلیز بصنعة الطبخ، أمّا فی البیوت فیمکن للواحد أن یعتذر عنهم بقوله إنهم لا یتأنقون فی الطبخ حرصا علی الوقت أن یضیع فی الحشو و التکبیب و ما أشبه ذلک، إلّا أنه لا یمکن الإعتذار عن أصحاب المطاعم العمومیة الذین لا شغل لهم إلّا إطعام الناس. و ما عدا ذلک فإن المنتقد لم یذکر أنه لا شیء فی لندرة مما یؤکل أو یشرب إلّا و هو مغشوش مخلوط مشوب. أو لیس من العار علی أهل هذه المدینة مع کونهم

أغنی الناس و أقدرهم و أتجرهم، أن یرخصوا لواحد من

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۷

الأجانب فی أن یفتح دکانا فی أعظم الطرق، و یبیع فیه نحو الجبن و لحم الخنزیر و الخردل و اللبن، و لآخر فی أن یبیع المثلوج و الحلواء، و لآخر فی أن یبیع الخل و الزیت، و لآخر فی أن یفتح محل قهوة تغنّی فیه نساء بلده، و نحو ذلک مما یمکن لکل أحد أن یصنعه؟ فهل لهذا من تأویل أخر سوی أنکم یا أهل لندرة خرق حمق أو غشاشون غبّانون؟

سبق الفرنسیین و تخلّف الإنکلیز

و فی الواقع فإن کل شیء یصنعه أهل فرنسا هو مفخرة للإنکلیز، فإن الحریر الفرنساوی للستات من الإنکلیز نصف جمالهنّ، و النصف الآخر من الشریط و الجوارب و الکفوف و القیطان و نحوه، و نصف أدبهن هو التکلم باللغة الفرنساویة، و النصف الثانی العزف علی البیانو. و طباخو أمراء الإنکلیز إنما هو فرنسیس، و کذا شرابهم و جلّ تحفهم، و أهل الحوانیت یکتبون علی کل شیء أنه فرنساوی کما مر ذلک، فما معنی اتساع لندرة إذا و کثرة دکاکینها، وسعة طرقاتها و تعدد مراکبها و زحامها و ضجیجها و جلبتها؟ و لیس فیها من یحسن عمل الخردل، و لیس فی مطاعمها مرقة فی الشتاء و لا سلاطة فی الصیف، و لا أرز، و لا عدس، و لا حمص، و لا فول، و لا مقر، و إنما هو الشواء و البطاطس، أو شیء من البقل مسلوق سلقا.

طعامهم و طریقتهم فی الأکل

و من الغریب أنهم إذا طبخوا البطاطس مع اللحم سموه إداما إرلاندیا، و ملؤه من الفلفل و الأبازیر حتی یحرق اللسان، و إذا جلس أحد فیها للغداء رأی بینه و بین جیرانه حاجزا من خشب حتی لا یقع التعارف بینهم، و هو أشبه بحاجز الحیوانات التی یجمعونها فی بستان النباتات، و تری کلا منهم قد جلس للطعام و بیده صحیفة أخبار یطالعها، و إذا أراد أخذ شیء من بین یدیک تلقفه من غیر أن یستأذنک فیه، خلافا لما تفعل الفرنسیس و غیرهم، علی أن کثیرا من هذه المطاعم یأکل الناس فیها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۸

و هم وقوف، فکأنما هم جماعة یهود یأکلون خروف الفصح.

المقاهی و روادها

فأما محال القهوة فأکثرها مجتمع الأراذل، فتری فیها واحدا راقدا و آخر سکران، و آخر وسخا. و إذا طلبت فنجان قهوة خلطوا القهوة بالحلیب و السکر فی محل لا تراه، و قدموه لک هکذا، فلا تدری ما وضع فیه.

ملاحظات و مآخذ

فیا ألفی ألف، و نصف ألف ألف من الناس، متی تعیشون فی هذه الدنیا الصغیرة عیشة مائتین و نصف مئة، من سکان القری فی فرنسا و إیطالیة و الشام و برّ مصر؟ بأن تأکلوا خبزکم غیر مخلوط بالبطاطس و الشب و جبس باریس، و لحمکم طریئا سلیما لا من حیوان أصابه داء فذبح، و لا مما یرد إلیکم من أمریکا موضوعا فی الثلج، و لا مما خمّ و أنتن فتحشون به المصارین و الحوایا؟ فلعمر الله إن کان هذا الغش نتیجة التمدن و الترقی فی العلوم فللجهل خیر، فإن أهل بلادنا و الحمد لله علی جهلهم ما یعرفون شیئا من هذه الفنون الکیمیاویة، و الأخلاط غیر المتناهیة التی توجب علی الشاری أن یستصحب معه مرآة من المرایا المکبرة لیری بها تلک الأجزاء و المرکّبات فیما یؤکل و یشرب فی وطنکم هذا السعید، أو ما کفی أن هواکم مخلوط بالدخان؟ و شتاءکم یدوم ثمانیة أشهر تقضی

بالإصطلاء علی نار الفحم الحجری؟ و ما أدراک ما الفحم الحجری، و بخوض الوحول و استنشاق الضباب، حتی زدتم علی هذا البلاء الطبیعی بلاء صناعیا تعافه الحیوانات، فإن الکلاب و السنانیر تأبی أکل هذه الجاجب التی تحشونها بلحومهن.

ثم أقول أو لم یکف أن نسّاجیکم و خیّاطیکم و أساکفتکم و صاغتکم و صباغیکم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۸۹

و سائر أهل الصنائع منکم، یغشّون و یموّهون و یلبّسون و یشبّهون و یضلّون و یغوون، فما یدری الحریر عندکم من القطن، و لا الجدید من القدیم المصبوغ، و لا المخیط من الملصق!؟ و أن المومسات یتطاولن علی الرجال و یشممنهم المسبت ثم یسرقنهم.

المسبت (الکلوروفورم)

و المراد بالمسبت هنا الدواء الذی یقال له کلوروفورم أو أثیر. قیل إن خاصیته کانت معروفة عند الکیماویین الأقدمین و ذلک من سنة ۱۶۸۱، و أول من عثر علیه فی التاریخ المذکور کنکل. و أول من عرف خاصیته فی الإسعاط ثوماس مرطون من بوستان فی أمیریکا، ثم استعمله دکطر سیمصون فی أیدنبرغ، و من بعده دکطر جامس روبنصون فی إنکلترة، ثم شهر فی سائر الممالک، و نشأ عنه الموت بعض الأحیان، و فائدته تغییب الموجع عن حسّ ما یؤلمه، حتی أنه یمکن للجراح أن یقطع عضوا منه أو یحرقه و لا یشعر به، و قد استعملته الملکة عند ولادتها غیر مرة.

عودة للملاحظات و المآخذ

و إن منکم نباشین للقبور یسرقون أکفان الموتی و یبیعونها، و إن الأولاد یختلسون فی کل طریق مظلم و فی کل زحام، و إن سفلتکم عارون عن الأدب و الحیاء و دأبهم التعدّی علی الغریب و الإساءة إلیه. و إن کثیرا من بیوتکم القدیمة و حیطانکم العهیدة تتهدم و تسقط علی الناس فتهلکهم، و إنه قد یمکث الإنسان عندکم شهرا و لا یری الشمس إلا مرة أو مرتین، و إن ربیعکم أبرد من شتائکم و صیفکم أمطر من خریفکم.

و إنه لا فرجة عندکم و لا مشهد و لا موسم و لا ملهی، إلا و یغص باللئام الطغام و الأوباش و الأوغاد و السفلة الأرذال، حتی عمدتم إلی إفساد ما خلقه الله منا لمأکول و المشروب طیبا مریئا، أفلیست لکم ألسنة تذوق هذا الرجس و تنطق بالحق، و حلوق تستبشع ذلک الخبیث من الطعام کما تستفظع حروف الحلق؟ فإن کان خلو لغتکم عنها هو مسبّب من استطیابکم لهذا الخبیث، فمناها الله بضعفیّ ما فی لغتنا منها.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۰

أهکذا علّمکم أهل الشرق أن تختبزوا الخبز مخلوطا بأصناف شتّی؟ أهکذا علّمکم أهل فرنسا أن تطبخوا هذه اللحوم المنتنة فی مطاعمکم و تخفوا فسادها بکثرة الفلفل و الأفحاء؟ أهکذا علّمکم باسکت الرومی فی سنة ۱۶۵۲ أن تصنعوا القهوة مخلوطة بجمیع أنواع الحبوب؟ فما معنی کثرة دکاکین الکتب و المؤلفات التی لا عدد لها عندکم فی کل فن و صنعة، و أنتم لا تحسنون أن تطبخوا بضیعة من اللحم ببویقة من البقل؟ فکل لحم مشوی و کل بقل مسلوق، و یا لیت کان ذلک اللحم لحما و ذلک البقل بقلا، فاعجب أیها القارئ من أن هؤلاء الناس الذین یملکون ما ینیف علی ۵۰۰۰ باخرة، منها ما هو أکبر من فلک نوح کما زعموا، و عندهم أکثر من ۲۰۰۰ صحیفة للأخبار، منها ما یطبع فی کل یوم و منها فی کل أسبوع، لا یعرفون أن یأکلوا، و لیس لهم ذوق یعرفون به الطیب من الخبیث من الطعام، و یرضون أن یأتیهم رجل من فرنسا أو إیطالیا لیبیعهم الخردل و الخل و الجبن مما یجلبه من بلاده، و لیس منهم فی تلک البلاد أحد یعلّم أهلها من صنعة الطبخ، فکل شیء دخل فی حلوقهم طاب استراطه، و کل ما عرض للبیع فی حوانیتهم حلّ بیعه و شراؤه بحیث یؤدّی علیه مکس للدولة، و إنی لأعجب کیف أنهم لا یختبزون خبزا من البطاطس وحدها، أو من الشعیر

وحده، أو من الأسماک کما فی إیرلاند؟ و کیف لا یتّجرون فی طین الأرض القریبة من المسکوب الذی یقال إنه یختمر مع الدقیق!؟ و قد حان لی الآن أن أختم الکلام علی لندرة فیما یؤول إلی المأکول و المشروب، و أذکر ما فاقت به سائر مدن العالم فیما یطبع فیها من صحف الأخبار و الکتب.

الصحافة فی لندرة

فأقول إن أول جرنال فی الدنیا بأسرها هو الجرنال المسمّی تیمس، و معنی هذه اللفظة الأوقات، و معنی الجرنال یومیة، و هی لفظة فرنساویة. و هذه الصحیفة تحوی جمیع أخبار المسکونة، إلا أنی رأیت فیها عیبا کبیرا و هو عدم استقصاء أخبار البلاد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۱

الشرقیة و سائر الممالک الإسلامیة، فإذا کان فیها خبر عنها فإنما هو مخصوص بالتجارة، و لها عدة کتّاب، و کاتب جملها السیاسیة یعدّ من أعظم أدباء الإنکلیز، و مرتبه فی السنة أکثر من ألف لیرة، و هذا الجرنال هو لسان الأمة و الدولة. و یلیه الجرنال المسمّی مورنن أدفرتیسر، و معناه معلن الصباح، و هو لسان الرعیة و کأنه نقیض ذاک.

حریة الصحافة بین لندن و باریس

و فی لندرة أکثر ۳۲۰ جرنالا للأخبار الطارئة و الأدبیات و العلوم، و وزن ما یطبع منها فی کل یوم و کل أسبوع یبلغ فی الأسبوع من ۲۵۰ إلی ۳۷۰. و فی باریس ۳۵۰ صحیفة للأخبار، إلا أن کتابها مقیدون عن الجری فی مضمار الکلام فلیس لهم حریة کما لکتاب الإنکلیز، فإن هؤلاء یشهرون فی أخبارهم کل ما استحسنوه و استقبحوه، و لیست هذه الرخصة لأصحاب جرنالات فرنسا. و کذلک یشهرون کل ما حدث فی مجلس المشورة من المذاکرات و المفاوضات بأن یبعث کل رئیس جرنال کاتبه إلی المجلس، و یکتب ما یقال فیه حرفا حرفا. و لهم فی ذلک طریقة غریبة یسمونها الید القصیرة، فإن الکلام یکتب مختصرا بنوع من الإشارة، و لو لا ذلک لم یکن ممکنا للکاتب أن یستوعب جمیع الأقوال. و کل ما حدث شیء فی قصر الملکة یطبعونه، حتی أنهم لا یتحاشون من أن یکتبوا أنها حبلی و أنها تلد فی الشهر الفلانی. و فی بعض هذه الصحف أن الملکة أهدت إلی أحد العسکر منذیلا من حریر، و فیه رقعة مضمونها أنه مکفوف بید ابنتها الکبیرة، و لو کان مثل ذلک یشاع فی بلادنا لأصبح مشغلة للألسن کما سبقت الإشارة إلیه. و أفحش ما یکون من تلک الجرنالات الجرنال المسمی بول بری، قرأت فیه فی عدد ۱۶ ما نصه: «إن کان الله قد قصد أنّ منحه فی هذا الأمر تکون غیر مستعملة، فلم منحنا إیاها؟ و إن کان إنما قصد أن تکون مستعملة من المتزوجین فقط، فلم آتاها غیر المتزوجین أیضا؟ أم

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۲

یقول قائل لا خشیة له من الله إنه إنما أعطانا إیاها لیبلونا بها، أفلیس هذا یفضی إلی أن نجعله ممتحنا؟ إلا أنی لا أبرئ المتزوجین فی استعمالهم هذه المنح فی غیر محلها.

أمّا الاقتران الطبیعی بین الرجل و المرأة و هما غیر متزوجین و لیسا من عائلة واحدة، فحلال شرعی، و الحاصل أن شرائعنا الأدبیة حائدة عن الصواب، و أن الفضیلة علی ما تفهمها العامة شین و تدلیس». إلی أن قال: «فکل امرأة غیر متزوجة یحل لها علی مذهبی أن تخالط أیا شاءت من الرجال، من دون خوف من أن توسم بالعار و الفضیحة أو الخروج عن الأدب، و لو جرت العادة بأن تعیش الرجال مع النساء من دون زواج، لأغنانا ذلک عن کثیر من الشرور التی تحدث بین المتزوجین کالسم و القتل و نحوه، بل عن کثرة المومسات و عمّا یقاسین من الموبقات و الرذائل. و فی بعض الجرنالات من بعض العامة إلی کاتب الجرنال ما نصه: «اسمح لرجل مسکین أن یقول کلاما و جیزا علی أمر موجب لشکوی الإنکلیز، فأقول إنّا معاشر أهل إنکلترة ما برحنا معنّین بما لقینا من مصاریف الحرب الأخیرة و من المکوس التی لا تطاق، و مع ذلک فقد خطر الآن ببال بعض أهل الدولة طریقة أخری لإفقار الرعیة، و هی إمداد

مملکة أجنبیة بمال سمّی جهاز ابنة الملکة، و ناهیک أن ملکتنا لما تزوجت أحضرت إلی رعیتها رجلا لا ثروة له، و أن ملک البلجیک رتّب له وظیفة تجری علیه من أهل هذه المملکة، و ما ذلک إلا لکونه تزوّج بنت الملک جورج فصارت بلادنا موردا لصیادی البخت و الجدة، و إنها لتبقی کذلک ما دام جلب المال هینا علی طالبیه، أو لیس لملکتنا من الإیراد الجزیل ما یقدرها علی أن تقوم بمؤنة ذریتها؟ و لو أنها قترت علی نفسها قلیلا لأمکنها أن تجهزهم، إن کان لا یوجد من کرام الناس من یتزوجهم لمجرد المحبة، و کیف کان فمن الظلم الواضح أن یکلف أهل بلادنا إغناء بلاد أجنبیة. ألا تری أن لی زوجة و عشرة أولاد، و أن إیرادی کله لا یزید علی ۱۱۰ لیرات، أؤدی منها لتنظیف البلدة شیئا، و لأجل الفقراء شیئا، و للکنیسة شیئا، و لغیرها شیئا، فهل إذا أردت أن أزوّجهم یجهزهم أهل الشوری عنی؟.. إلخ.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۳

اعتماد الصحف علی الإعلان

و ثمن هذه الجرنالات کلها مع ما فیها من الأخبار و الفوائد، و مع حسن طبعها و ورقها، لا یفی بثمن الورق فقط، و إنما یکسب أصحابها من الإعلامات التی یطبعونها للتجار و غیرهم فعلی سطرین أو ثلاثة من هذه الإعلانات خمسة شلینات.

بدایات الصحافة المطبوعة فی الغرب

و أول طبع بالبخار ظهر فی مطبعة التیمس و ذلک سنة ۱۸۱۴، و أول جرنال طبع فی بلاد الإنکلیز کان فی أکسفورد و ذلک فی سنة ۱۶۶۵، و کان دیوان الملک یومئذ هناک لأجل الطاعون الذی وقع فی لندرة، فلما رجع إلی لندرة سمّی ذلک الجرنال کازت، و ذلک بعد التاریخ المذکور بسنة واحدة و بقی هذا الاسم خاصّا بالجرنال المشتمل علی أخبار الدولة، و المصالح الملکیة، فلا معوّل فی أخبارها إلّا علیه، فهو بمنزلة المونیتور فی باریس. و أصل اسم الکازت أنه فی سنة ۱۶۲۰ طبع فی صحیفة فی فینیسیا أخبار مختلفة، و کانت تشری بقطعة من الدراهم تسمّی کازتة فلزمها هذا الاسم.

و کان اشتهار الجرنال فی فرنسا سنة ۱۶۳۱، و فی جرمانیا سنة ۱۷۱۵، و فی دبلین سنة ۱۷۶۷، و أول جرنال اشتهر فی هولاند کان فی سنة ۱۷۳۲، و فی أمیریکا سنة ۱۷۱۹، و عدد جرنالات هذه ۸۰۰ منها ۵۰ جرنالا تطبع فی کل یوم، و جملة نسخها ۶۴ ملیون. و أول ما یصح تسمیته بجرنال لاشتماله علی أخبار عمومیة فی بلاد الانکلیز، هو ما طبع فی سنة ۱۶۶۳ و بقی کذلک نحو ثلاث سنین ثم خفی بظهور الکازت. و فی زمان الملکة الیصابت و ذلک سنة ۱۵۸۸ شهر أیضا شیء مثله و لکنه لم یکن علی هذا النسق. و أعجب العجب کثرة أوراق التعریف و الإعلان فی هذه المدینة فی کل موضع یباح فیه إلصاقها، و قد یستخدم بعض التجار خدمة مخصوصین لیطوفوا بها و یفرقوها علی المارین مجانا، و ما أحد یرید أن یأخذها، و منها ما یطبع بحروف فاحشة الکبر حتی یمکن قراءتها من مسافة بعیدة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۴

اختراع الطباعة

أمّا صناعة الطبع فقد اختلفت الأقوال فی مخترعها، فبعض المؤرخین نسبها إلی منتز، و بعضهم إلی استرازبورغ و هارلم، و بعضهم إلی فینیسیا و رومیة، و بعضهم إلی فلورنسه و باسیل. و فی روایة أدریان جونیوس أن مخترع الطبع هو یوحنا کستر من هارلم، طبع علی خشب کتابا فیه حروف و صور علی وجه واحد، و ذلک فی سنة ۱۴۳۸. قال و فی سنة ۱۴۴۲ أنشأ یوحنا فوست مطبعة فی منتز و طبع فیها کتابا، و زعم بعض أن أول کتاب طبعه کان کتاب المزامیر. و قال آخر لا شک أن الطبع علی قطع الخشب کان معروفا عند أهل الصین، و ذلک قبل تاریخ النصاری بأحقاب عدیدة. و کذلک کان معلوما عند الرهبان فی بلاد الإنکلیز و فی غیرها من بلاد أوربا،

فإنهم كانوا ينقلون الكلام من ورقة إلى أخرى على الخشب، و لكن كان ذلك قليلا.

فأما استعمال هذه الحروف مصفوفة واحدا بعد واحد فلم يعرف إلّا فی متأخر الزمن.

دخول التمدن و المعارف إلى بلاد الإفرنج

قال و لم يكن أحد فی الزمن القديم يشتغل بالعلم و بترجمة الكتب و النسخ إلّا الرهبان، فهم الذين أدخلوا التمدن و المعارف فی بلاد الإفرنج. و كانت رومية و بلاد اليونان معدن الكتب و العلوم، و كان الصكصونيون آباء الإنكليز يسافرون مسافات بعيدة فی طلب العلم، و تحصيل بعض تلك الكتب النادرة و يشترونها بثمن غال، و عند رجوعهم يترجمونها إلى اللغة الصكصونية، و كانت الناس تتنافس فيها لندرتها غاية المنافسة، و كان للأسقف «و لفريد» نسخة من كتاب الإنجيل مكتوبة بحروف من ذهب على ورق أرجوانی، فكان يضعها فی صوان من ذهب مرصّع بالجواهر النفيسة.

و ما عدا هؤلاء الرهبان فلم يكن أحد من العامة من يحسن الكتابة غير أفراد قليلين، و ناهيك أن توقيع «و ليترد» ملك «كنت» على مجلة كان علامة الصليب، و أمر كاتبه بأن يكتب تحتها أن الملك إنما رسم تلك العلامة بدلا من اسمه لجهله الكتابة.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۵

الدانيزيون و عداؤهم للعلم

و لو لا تخريب الدانيزيين و تدميرهم لكان العلم بين الصكصونيين قد تقدم كثيرا، إلّا أن ملوك البحر أولئك كانوا على جانب عظيم من الجهل و الجفاء، و كانوا و هم على أصناماتهم ينظرون إلى الصكصونيين المسيحيين كأنهم مرتدّة، لأنهم كانوا أولا مثلهم عبدة أوثان، و لهذا كانوا يرون أن فروض دينهم توجب عليهم إبادة أديار الرهبان و كتبهم، و ما كانوا يعرفون شيئا من جهة السماء سوى أنهم يشربون فيها المزر فی جماجم أعدائهم، و يأكلون من مأكول لا ينقص الآكل منه شيئا مهما أكل، فمن ثم أتلفوا كتبا كثيرة كانت كلفت الصكصونيين أتعابا عظيمة فی تحصيلها، و لو أنها بقيت لنا لكنا ندرى منها أمورا كثيرة نجهلها فی تاريخ جميع البلاد.

عودة إلى الطباعة و انتشارها

قال و اتفق فی القرن الخامس عشر أن شابا اسمه «جون غانسفليش» و يعرف بغاتنبرغ، من صقع سلغيلوش، سافر إلى استراسبورغ و كانت مشهورة حينئذ بأنها سوق الكتب، فأخذ يفكر فی إحداث طريقة لتكثيرها، فخطر بباله أنه إذا صنع حروفا تتركب و تنحل يبلغ بها أربه، ثم رجع إلى ماينس، و اجتمع برجل اسمه فوست فتواطئا على إبطال نسخ الكتب لما فيه من المشقة بطريقة الطبع بتلك الحروف، فسبكاها كما خطر لهما و كان ذلك فی سنة ۱۴۴۰، إلّا أن عملهما هذا لم ينتج فائدة إلّا بعد عشر سنين، و يظن أن تلك الحروف كانت من رصاص أضيف إليه بعض أجزاء كيمياوية لجعلها صلدة قابلة للعمل المراد، ثم دخل فی شركتهما بطرس شوفر، ثم طبع غاتنبرغ عدة كتب من جملتها التوراة المعروفة الآن بتوراة مازارين، و قد راج بيعها و اشتهارها كثيرا حتى إنه كان يقال إن طبعها من عمل الشيطان. و فی سنة ۱۸۳۷ نصب له مثال على قبره إكراما له، و أرسلت نواب من جميع دول الإفرنج لتحضر مشهده. و لما تفرّق الذين كانوا مستخدمين فی مطبعته ذهب بعضهم إلى سوبياكر فی إيطاليا فاشتهرت هذه الصناعة فيها فی سنة ۱۴۶۵، ثم سرت إلى باريس

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۶

و ذلك فی سنة ۱۴۶۹، و بعد سنة اشتهرت فی إسبانيا، و بعد نحو خمسين سنة عمّت جميع أوربا. و يظهر مما قاله بادان أحد مشاهير الطباعين فی باريس فی أوائل القرن الخامس عشر، و كذا مما قاله شكولوكر الإنكليزى أن الأمهات و الأبهات فی تلك الحروف لم

تختلف کثیرا عن المستعمل منها الآن، و کانت العادة إذ ذاک أن سبک الحروف مختصّ بالطبّاعین فقط، و فی سنة ۱۶۳۷ صدر حکم من دیوان الإنکلیز بأن لا یزید عدد الطباعین علی أربعة نفر، و أنه إذا مات منهم أحد لا یقوم آخر فی محله إلّا بإذن رئیس أساقفة کنتربری، و فی سنة ۱۶۹۳ حین صدرت المجلة بإقرار حقوق الأهلین بطل هذا الحکم.

الرقابة و حریة الطبع

و کانت الکتب سابقا تفحص قبل أن تطبع ثم یکتب علی صفحة عنوانها «تطبع». و فی سنة ۱۷۹۵ أطلقت الحرّیة فی الطبع من دون فحص، و أمر بأن تطبع أسماء الطبّاعین فی أوائل الکتب و أواخرها.

اشتهار الطباعة فی بلاد الإنکلیز و تطورها

و أول من شهر الطبع فی بلاد الإنکلیز کاکسطون و ذلک نحو سنة ۱۴۷۴، و کان قد سافر إلی البلاد الواطئة و حصل معارف کثیرة، و أول کتاب طبعه کان «تاریخ طروة» ترجمه من اللغة الفرنساویة، و کان جامعا لثلاث خصال جلیلة، و هی کونه مؤلفا، و طبّاعا، و ناشرا، و بسعیه و معارفه حصل له فی أدب لغة الإنکلیز تقدم عظیم. إلا أن هذه الصناعة الجلیلة کانت غیر عامّة المنفعة عندهم، و خصوصا أنهم کانوا یشترون الحروف من بلاد أوربا القارّة و لا سیما من هولاند، إلی أن قام کسلون فی أوائل القرن الماضی و سبک حروفا حسنة و کثر الأدوات. و فی سنة ۱۷۲۰ استخدمته الجمعیة المعروفة بجمعیة انتشار المعارف المسیحیة فی سبک حروف عربیة، ثم اشتهر صیته فی الآفاق حتی صار أهل البلاد القارّة یستمدون منه، فلما مات باعت زوجته ما

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۷

کان عنده من الحروف لجمعیة العلوم فی باریس، فکانوا یطبعون بها أجلّ المؤلفات فی الأدب و العلم. ثم قام دکطر فری و سبک حروفا فی جمیع اللغات المشرقیة، و یقال إنه سبک فی مسبک برسکیف أربعمائة شکل من الحروف الهجائیة، و إن بروبنکاندة رومیة مع شهرتها لیس فیها أکثر من ذلک، و سبک أیضا فی معمل دیدو فی باریس أبدع ما یمکن صوغه من الحروف فی العالم بأسره، حتی إن بعضها لا یمکن قراءته إلا بالزجاجة المکبرة. و کیفما کان فإن طبّاعی الإنکلیز فی عصرنا هذا لا یعلو علیهم أحد. ثم إن أحد النمساویین و اسمه هرکونک رأی أن الطبع بالبخار غیر مستبعد، فعرض رأیه علی أهل بلاده فأعرضوا عنه، فقدم إلی بلاد الإنکلیز و أسعفته جماعة منهم لإجراء ما قصده، فصنع آلة صغیرة طبع بها ألف صحیفة فی ساعة واحدة بمساعدة ولدین فقط، فلما تحقق صحة استعمالها عزم علی اتخاذ آلة کبیرة لطبع الأخبار، فرآها صاحب جرنال التیمس فواطأه علی أن یصنع له آلتین مثل تلک و لکن أکبر منها، و فی سنة ۱۸۱۴ طبع فی ذلک الجرنال إعلان بأنه مطبوع بقوة البخار. ثم قام جماعة و حسّنوا هذه الآلة، فکان یطبع بها علی الوجهین فی کل ساعة من ثمانمائة صحیفة إلی تسعمائة، و کانت الآلة المفردة تطبع علی وجه واحد فی کل ساعة ألفا و أربعمائة صحیفة. ثم قام مستر لتل و اخترع آلة مزوجة یطبع بها فی الساعة من عشرة آلاف صحیفة إلی اثنی عشر ألفا. و فی بلاد أمیریکا مطبعة تطبع فی الساعة عشرین ألف صحیفة ما بین جرنال و غیره.

أهمیة اختراع الطبع

و فی الحقیقة فإن جمیع ما اخترع من الصنائع فی هذا العالم هو دون صناعة الطبع. نعم إن الأقدمین بنوا أهراما، و نصبوا أعلاما، و شادوا هیاکل، و حصنوا معاقل، و حفروا خلجانا و أقنیة للماء، و مهدوا مسالک للعساکر، إلا أن صنائعهم تلک بالنسبة إلی صنعة الطبع إن هی إلا درجة ترق فوق درجات الهمجیة، فإنه بعد اشتهار الطبع لم یبق احتمال لإضاعة المعارف التی ذاعت و شاعت، أو لفقد الکتب کما کانت الحال حین کانت تکتب بالقلم. و قد قیل إن المعرفة قدرة، فإن المتصفین

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۸

بالمعارف و هم الأقل یتولون الأمور، و یسوسون الجمهور و هم الأکثر.

اختراع الورق و تطور صناعته

أمّا إحداث الورق، فقال فلتیر إنه کان فی القرن الحادی عشر، إلا إنه کان مشهورا فی الصین من عهد لا یعلمه إلا الله، و هو أبیض رقیق یتخذونه من البمبو المغلی، أو من قصب السکر. قال و قد عرف استعمال الزجاج عندهم من ألفی سنة. و قال آخر إن إحداث الورق فی الصین عرف فی سنة ۱۷۰۰ قبل المیلاد، و فی سنة ۱۰۰۰ بعد المیلاد کان یصنع من القطن، و فی سنة ۱۴۱۹ صار یصنع من الخرق. و أول من صنع الورق الأبیض الخشن فی بلاد الإنکلیز رجل نمساوی و ذلک فی سنة ۱۵۹۰، و قبل ولیم الثالث کان الإنکلیز یشترونه من فرنسا و هولاند، فکانوا یصرفون کل سنة فی ثمنه ۱۰۰ ۰۰۰ لیرة. فلما قدم بعض الفرنسیس إلی هذه البلاد للاستئمان علّموا الإنکلیز صنعة الورق، و کانوا من قبل ذلک یصنعون ورقا خشنا أسمر. و فی سنة ۱۶۹۰ صنعوا الورق الأبیض بالید، و اتخاذه بالآلة کان من مخترعات لویس روبرت، ثم باعها لطبّاع اسمه دیدو، فجاء بها هذا إلی بلاد الإنکلیز و من ثم شهر استعمالها، و فی سنة ۱۸۴۰ صنع بها طلحیّة بلغ طولها ۸۰۰ ۱۳ قدما، و عرضها أربع أقدام.

أمّا الورق المنقوش الذی یلصق علی الحیطان فکان إحداثه فی إسبانیا و هولاند فی سنة ۱۵۵۵. فأما البابیروس و هو الورق المتخذ من القصب، فکان یصنع فی مصر و الهند إلی أن عمل الرق، و ذلک فی سنة ۱۹۰ قبل المیلاد، و کان بتولومی قد منع إخراجه من مصر، و علیه کتب تاریخ یوسیفوس و هی نسخة جلیلة ثمینة، أخذها نابولیون من جملة ما أخذ و بعث بها إلی باریس، و فی سنة ۱۸۱۵ ردّت إلی موضعها.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۴۹۹

فصل فی الستی

مرکز لندن التجاری

قد تقدّم الکلام علی هذا الخط من حیث اشتماله علی أعظم المبانی الکائنة فی لندرة، فإن البنک و البوسطة و البورس، و دیوان الضابط و داره، و دار السکة و کنیسة مار بولس، جمیعها فیه. و هو فی الواقع لندرة القدیمة و ما بنی من بعده فهو حادث.

و بقی الآن هنا أن أقول إن هذا الخط الفرید هو مرکز الأشغال العظیمة و المبایعات الجسیمة لأغنیاء تجار الإنکلیز، فما من بناء فیه إلا و هو مصدر للحرکة و العمل، و ما أحد یخطو فیه إلا للکسب و الشغل، و لا یتحرک به لسان إلا للنفع و الفائدة، و لا تطلع علیه شمس و لا یوقد فیه نور إلا للسعی، و لا یخلج صدر مخلوق خاطر إلا للتحصیل و الاقتناء، فتری کل واحد من أهله فاتحا عینیه و فمه لأکل الدنیا و ما فیها، و کثیرا ما تری فی مسالکه مصحبین یحدّثون أنفسهم فیما هم فیه من المباشرة للأعمال، فهنا تجد الغلام شیخا فی معرفة الإدارة، و الشیخ غلاما فی النشاط و الاستعداد، و الشاب قبیلا.

مرکز عالمی لتجارة الجملة

و کیفما توجهت و أینما سلکت رأیت نهم الخلق و حرصهم شاغلا لحواسهم الباطنة و الظاهرة بالحرث و الادخار، و لیس من قطر فی الدنیا إلا و یمدّه أهل هذا الخط بالبضاعة و المهمات، و هو و إن خلا عن الحوانیت الرحیبة البهیجة مما یری فی سائر شوارع لندرة، إلا أن الأرباح التی تجنی هنا فی یوم واحد لا تجنی فی غیره فی شهر، لأن العقود الخطیرة و المراسلات الجزیلة إنما تصدر عن هذا

المشغل الحافل. و لا یخفی ن التاجر الذی یراسل تجار البلاد الأجنبیة و یبعث لهم، و یجلب من عندهم،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰۰

یربح أکثر من التاجر الذی یقعد فی حانوته و ینتظر شاری شقة من الحریر، أو ثوب من الخز.

تجار أغنیاء و لیسوا ظرفاء

و من هؤلاء التجار من یکسب فی السنة نحو ملیون لیرة کذا قیل، و منهم من له عدة سفن تجری فی البحر من بلد إلی بلد، و منهم من یستخدم فی إدارة مصالحه مائة شخص، و قد ذکرنا سابقا أن واحدا من هؤلاء له محل فی إرلاند فیه أربعة آلاف من الرجال و النساء لعمل القمصان لا غیر، و أن تاجرا مات و خلّف سبعة ملایین لیرة. و لا بد لکل منهم من أن یکون له کتّاب و حسّاب و صیرفی و ما أشبه ذلک، و الغالب أن یکون له محترف یشتمل علی ثلاث حجرات، إحداهما للأشغال الخاصة به، و الثانیة للکتّاب، و الثالثة مشترکة لهم، و لوضع الروامیز و المتاع و نحوه.

و لا شک أن تجار لندرة عموما، و تجار هذا الصقع خصوصا، أغنی من جمیع تجار أوربا، إلّا أنهم دونهم فی الظرف و الکیاسة و عبارتهم رکیکة، بخلاف تجار فرنسا فإنهم مشارکون لذوی العلم و الدرایة، و عبارتهم و إن تکن دون عبارة علمائهم، إلّا أنها بالنسبة إلی کلام تجار الإنکلیز عالیة.

الفرق بین تجارنا و تجارهم

کما أن عبارة هؤلاء بالنسبة إلی عبارة تجار بلادنا فی غایة الفصاحة، و لعمری إن تاجرا یکتب: لق، أی لا. و قمضه، أی الإمضاء. و السالسی، أی الثالثة. و منقول، أی نقول. و أعرض عن هذا الشیء، أی عرض هذا الشیء. و الخصارة، أی الخسارة.

و نبتدی بحسابا جدیدا، و بخیرا و عافیة، و السارره، و غث علینا، و حظونا علی، و فولابت و نحو ذلک، لجدیر بأن یستحی من حرفته. و من العجیب هنا أن العالم قد یسهو أحیانا و یغلط، و مثل هؤلاء التجار لا یغلطون أبدا فی تأدیة عبارة واحدة علی حقّها، فقد قرأت أکثر من ألفی رسالة وردت منهم، فلم أر فیها و لا جملة واحدة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰۱

تدل علی فکر لهم و رویة، فلمثل هذه الحال یدّخر قول الإنکلیز فی التوبیخ: ألا تستحی من نفسک. نعم إن التاجر لا یطلب منه أن یکون شاعرا أو رئیس دیوان الإنشاء، و لکن عار علیه أن یصرف إدراکه کله فی معرفة الثوب الخشن من الرفیع، و یرتدی بلباس الغفول عن أشرف ما میّز الله به الإنسان عن البهیمة و هو النطق، بل لیت هؤلاء یکتبون کما ینطقون، فإنی لا أحسب عجزهم فی الکلام بالغا إلی هذا الحد. و لعمری إن صاحب الذوق السلیم یمکنه أن یکتب عبارة رائقة من دون أن یدرس کتاب سیبویه، أو فقه اللغة للثعالبی، و المتفصّح من هؤلاء من یخلط العربیة بالترکیة أو الطلیانیة، فیکتبون مرکب یالکان، و علام مور، و برمق و جنابیر و ماکنة و بریمو، و یا لیتهم یکتبونها علی حقّها! فیا لیت شعری ما سبب هذا العدول عن لغتهم إلی لغة العجم؟ و ما سبب هذا القصور عن تأدیة عبارتهم بألفاظ متعارفة، أو عن سبک معانیهم فی کلام معجب مفصح؟ و ما عسی أن یقال فی تاجر فرنساوی یکتب رسالة و یحشوها بالألفاظ القبیحة، و الألفاظ الفاحشة فی الترکیب و رسم الخط؟ و ما یکون قدره عند أقرانه و معارفه، و عند أصحاب الجرنالات، و خصوصا ما یطبع منها للضحک و التهکم!؟ ألا فلیحمدوا البلاد التی خلت عن هذه الصحف، و عن رعایة حرمة العلم.

تنافسهم فی العمل فی هذا الخط

ثم إن تنافس الإنكليز فی حصولهم فی خط الستی، سواء كانوا تجارا فيه أو كتّابا أو غير ذلك، هو كتنافس القبط فی استخدامهم فی قلعة مصر. و قد ذكرت سابقا أن جميع الحوافل مكتوب عليها اسم البنك، لأنها جميعها ترد إليه إلا ما ندر، و بهذا تعلم ما يكون ثمّ من الزحام و التوارد. و فی الحقيقة فإن دوی المراكب فی مسالك هذه البقعة لممّا يذهب بالصبر، و ما أظن أحدا من سكانها يمكنه أن يعمل فكره فی شیء، إلا فيما هو بين يديه من الشغل.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰۲

فيه تم تأليف هذا الكتاب

و فی هذا المورد الوخيم قدّر اللّه لی أن أؤلف هذا الكتاب، لا فی مروج إيطاليا النضيرة، و لا فی رياض الشام الأنيقة، فأخال أن بين كل كلمتين منه دخانا متصاعدا، و ظلاما متكاثفا. و كنت كلما خرجت من حجرتی إلى هذا الموضع أوجس أن يصيبنی سوء، إمّا من تزاحم الناس أو البهائم، أو من رداءة الطعام الذی يؤكل فی مطاعمها، فإذا عدت إلى منزلی أجد نفسی كأنی نجوت من خطر غرق أو نار.

مكان كالحبس

و من يخرج من هذا الحبس إلى جهة ريجنت ستريت، كان كمن خرج من لندرة إلى باريس، لأنه يرى هناك بعض الناس يمشی على مهل، فيستشعر أن من الخلق من يخرج للتفرج و التنعم، و بعضهم يدخن بالتبغ و هو ماش، و بعضهم يتكلم و هو ضاحك أو مبتسم، و قد يسمع بعض آلات الطرب فيأنس بأن هناك ما ينفس عن القلب و يؤذن بالسرور، و أن من أوقات العمر ما يخصص للراحة و اللذة، بخلاف شوارع الستی، فإن الله تعالى لم يخلقها إلا للسّعی و الشغل، الشغل ليس إلا الشغل، العمل العمل. إن دين القوم العمل، فهم لا يستريحون منه إلا إذا استراح هو منهم، و ناهيك أن فيه دارا واحدة تشتمل على خمسمائة محترف، و عدة سماسرته تبلغ نحو ألف.

أرفع الأمكنة و أشرفها عندهم

و مع أن موقع هذا الخط سافل بالنسبة إلى سائر أخطاط المدينة، و طرقه ضيقه و بيوته حقيرة، فإن إجلاله عند الإنكليز جعله أرفع و أشرف من غيره، حتى إنهم إذا شخصوا منه إلى محل أعلى منه يقولون: إنّا نهبط إلى موضع كذا. و ليس فی هذا الخط كلّه ملهى و لا نزهة، و لا شیء آخر يبسط النفس، فلن ترى فيه إلا وجوها

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰۳

كالحة، و زحام عواجل و حوافل و محامل، و عجلات مقبلة و مدبرة، و طرقا ضيقة و حلّة، و جدرانا سودا، و مسالك غاصّة بالناس.

تمّت

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰۴

ملحق إشارة

هذا و لما تمّ ما قصدته من الفوائد، التی جمعت منها فی هذا المؤلف الصادر و الوارد، و النادر و الشارد، و أبرزت فيه ما عند القوم من المذام و المحامد، كما سبقت إليه الإشارة، و أفصحت به العبارة، هدانی الجد الجديد، و الطالع الرشيد، إلى أن أخدم به حضرة حاتم أوانه، و أحنف زمانه، المتوشّح بالفضل و الفضائل، و المتوّج بالمحامد، فكلّ فی مدحه و ظلّه قائل، سيّدی رفيع الذرى، رحيب

العرا، أمیر الأمراء السیّد خیر الدین، أدام الله علیه العزّ و التمکین، فتقبله من حسن شیمه، و استجاده بحلمه و کرمه، و أجازنی علیه جائزة سنیة، لا توجد إلا فی القصور الملکیة، و هی خاتم من الماس الفائق، یتألق تألق مناقبه فی المغارب و المشارق، فقلت فیه مترنّما، و أنشدت متنغّما.

إذا کان خیر الدین عنّی راضیا فما ضائری أن غضب الدهر و الوسعا

هو البحر جودا و الصباح صباحة و نور الدجی نفعا و لطف الصبا طبعا

هو الأوحد الفرد الذی من نواله یلاقی المرجی حین یقصده جمعا

کریم لو أن الدهر أبصر جوده لعاوده الإحسان و استهجن المنعا

همام متی یوعد یعفّ و إن یعد فغیث العطایا سابق برقه همعا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰۵

إذا رمت سعدا فارع مطلعه و ما علیک إذا ما کنت للنجم لا ترعی

و قل للذی ینحو سوی باب فضله لعمرک قد ضیّعت فی غیرة المسعی

تغربت بین العجم أطلب نده فلم أر من ذا الضرب أصلا و لا فرعا

فعدت إلی رأیی القدیم بأنه علا کل من فوق الثری بالندی فرعا

و مهما نجد فی الأرض منای و مرتعا فأنا إلی نادی نداه لنا الرجعی

تقرّ بمرآه العیون و تنجلی کما أن راوی مدحه یطرب السمعا

إذا حلّ فی فیفاء أرض رکابه فیا طیب ما مأوی و یا خصب ما مرعی

نصبت لواء خافقا فی مدیحه فسکن من روعی و أولانی الرفعا

إذا کنت لا أرجوه فی معنیی رجا فإنی إذا لا أعرف الضرّ و النفعا

تعوّدت منه الفضل فی کلّ حالة فما أنا إلا بابه قارع قرعا

و لکنما جدواه تطوی سباسبا إلی و إبحارا فلا أبرح الربعا

علی أننی منه لأقنع بالرضی فکیف و عندی الماس یحکی اسمه لمعا

ألا هکذا سن شاد مجدا موثلا و من صنع الإحسان أو حسن الصنعا

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰۶

تنزّه عن ذام سوی أن فرط ما حبانی به أشقی حسودی و لا بدعا

رأیت جمیع الناس تقصد بابه بما طاب من أقوالها و له تسعی

فألقیت دلوی مع دلائهم فلم تکن نهزة حتی علی طفت ترعی

و خلت لغیری من نضار و من جنی و فوز و إقبال کما نلته شرعا

کسانی فخرا ماسه و جوابه و شهرة ذا التألیف لا یقبل الخلعا

فحقّ علی الیوم واجب شکره فشکر الایادی واجب أبدا شرعا

هکذا برز الکتاب المذکور من زاویة الخمول، إلی قنة القبول، و نشر مطبوعا فی مطبعة تونس لتعمیم فوائده، و إطلاق عوائده، فالمرجو ممّن تصفحه و تأمله و أمعن النظر فیما أجمله أن یفضی عمّا یواجهه من الخلل، أو ینسبه إلی سقط الکلام و الزلل، إذ قلّما یخلو مؤلف من القصور، و إن یکن من أهل الصروح و القصور، فکیف بمن یؤلف و أفکاره من عدم وجود الشکل مکدره، و خواطره من هموم الغربة متحیرة، و شؤونه تتجاذبه یمینا و شمالا، و حسراته علی قصور همم أهل بلاده تسدّ علیه للقول مجالا، و تعسر

علیه فی التألیف مقالاً جیر لو لا أن الباری تعالی أراد بهذا التألیف نفع إخوانی، لما قدرت علیه بسعة إمکانی، فیجب علی و الحالة هذه أن أحمده عزّ شأنه علی الختام، و أن أعید الشکر و الثناء علی سیّدی الأمیر المشار إلیه علی نشر فوائده بین الأنام، ما سجع حمام، و نجع کلام.

کتبه العبد الفقیر إلی ربّه الرزّاق، أحمد فارس الملقّب الشدیاق

رئیس مصحّحی دار الطباعة السلطانیة بالآستانة العلیّة و محرّر الجوائب

فی أواخر شهر رجب الأصب سنة ۱۲۸۳.

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰۷

کشاف حضاری و فهارس

اشارة

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۰۹

الأعلام

(أ)

إدورد الثالث ۱۸۵

إدورد هرغافس ۱۵۰

سطو ۱۴۳، ۱۴۸

أرطمیسیا لموزلوس ۱۴۲

اللورد أرفورد ۲۹۹

اسحاق نیوطون ۱۹۷، ۴۵۲

أفا ملک مرسیة ۲۹۷

ألفرید ملک الإنکلیز ۲۳۵

الملکة أَلیصابت ۱۳۵، ۱۵۳، ۲۱۱، ۳۰۸، ۳۰۹، ۳۱۰، ۳۱۱، ۳۱۲، ۳۹۱، ۴۴۱، ۴۴۵، ۴۴۶، ۴۶۱، ۴۶۵، ۴۶۶، ۴۶۷، ۴۷۱، ۴۷۳، ۴۸۲، ۴۹۳

أومیروس ۳۴، ۱۵۳، ۲۹۷، ۴۴۵

(ب)

بترارک ۳۲۰

برسطون ۲۹۰، ۲۹۱

برون (أسقف کورک) ۲۹۵

برین البرسبیتاریان ۲۶۶

بطرس ۳۵، ۱۸۴، ۳۱۸، ۳۷۳، ۳۹۵، ۴۱۸، ۴۴۸، ۴۹۵

بطليموس فيلادلفوس ۱۴۲

بلير ۲۷۳

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۰

بلينيوس ۱۳۸

بناديكتوس ۱۳۸

الطبيب بوخان ۱۴۰

بوسوا ۳۷۲

بوكاشيو ۳۲۰

البابا ۵۵، ۴۹، ۲۳۶، ۳۱۹، ۳۷۳، ۴۴۳

الباب أوربان الثانی ۳۷۳

البابا إسكندر الثالث ۳۳۷، ۳۵۵

البابا بولس الأول ۳۲۲

البابا سلوتروس هانی ۳۱۹

البابا ليو العاشر ۴۴۱

البابا يوحنا الثامن ۳۱۸

(ج)

الملك جامس الأول ۱۲۲، ۱۵۲، ۱۵۳، ۳۰۸، ۳۱۰، ۳۶۱، ۴۴۵، ۴۶۶، ۴۶۷، ۴۶۹، ۴۷۱، ۴۷۳، ۴۷۴، ۴۷۵، ۴۸۹

جان دارک ۳۷۶، ۳۷۷

جورج ۴۹۲

جورج الثانی ۱۵۳

جورج الثالث ۱۵۳، ۴۱۸، ۴۴۵

جورج الرابع ۱۵۳، ۴۴۵، ۴۴۶

جورج فوكس ۴۸۰

جورج واشنطن ۳۷۳

جورج ساند ۳۸۶

جورج كری ۳۸۶

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۱

(ح)

الحريری ۹۴، ۱۳۳، ۱۹۱، ۲۹۰، ۴۰۷

(خ)

العلامة الخفاجی ۱۰۱، ۱۰۳، ۱۰۷، ۲۰۰، ۲۱۹

(د)

دافس ۱۵۸

دانتی ۳۲۰، ۳۲۱، ۴۴۵

(ر)

الرشید (هارون) ۳۱۸، ۳۱۹، ۳۲۰، ۳۷۲

روبرت أودن ۳۶۶

روبرت بارکلی ۲۸۲

روبرت بیل ۲۱۲

روبرت صوربون ۳۲۹

روبرتعون ۲۵۵

روبرت ملک سکوتلاند ۳۲۲

روبرت بارکلی ۲۸۲

روبرت هوک ۳۰۶

روجر ملک صقلیة ۳۴، ۱۱۵، ۲۹۷

ریت مخترع آلة الغزل ۲۹۶، ۲۹۷

ریشاردهارس ۳۲۲

(س)

البابا سلوستروس إسکندر سبینا ۳۱۹

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۲

(ش)

شارلس الأول ۱۷۳، ۱۸۰، ۳۱۵، ۴۱۶، ۶۱۷، ۴۴۵، ۴۶۰، ۴۷۳، ۴۷۴

شارلس الثانی ۱۸۲، ۴۵۰، ۴۹۳

شارلس الثامن ۱۸۰، ۳۷۷

شارلس السابع ۳۲۹، ۳۳۷

شارلس العاشر ۳۳۰، ۳۶۰

شارلس المعتوه ۳۲۹

شارلمان ۲۹۷، ۳۱۸، ۳۱۹، ۳۲۲، ۳۵۱، ۳۷۱، ۴۴۶

شیشرون ۱۸۲

(ص)

مستر صال ۱۹۱
صنطوریا ۱۴۹

(ط)

طاخیطوس ۱۵۲
طوبال قاین ۱۵۲
طوست ماستر ۲۶۷
طیبیریوس ۱۳۹

(ع)

عبد اللطیف البغدادی ۱۴۲
عقیل بن علقمة (عقیل بن علّفة) ۱۹۱
عمر بن عبد العزیز ۱۹۱
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۳

(غ)

غیوتو ۳۲۰
غیدو أوتزو ۳۲۰

(ف)

فالنتاین ۱۴۶
الکردینال فتری ۱۵۸
الملک فرانسوا الأول ۳۲۳، ۴۲۳
فرانکلین ۳۰۵، ۳۷۳
فرنسیس الأول ۳۲۸، ۳۳۵، ۳۵۲، ۳۶۱
فلتیر ۱۳۹، ۱۴۳، ۱۹۱، ۲۱۶، ۲۳۵، ۲۶۵، ۲۷۵، ۲۷۹، ۲۹۸، ۳۰۰، ۳۱۸، ۳۱۹، ۳۵۵، ۳۷۲، ۳۷۳، ۳۷۶، ۳۸۰، ۴۵۵، ۴۵۷، ۴۶۴، ۴۷۳، ۴۹۸
فنسنت دوبوفای ۱۵۸
فیلافیو جیوجیا ۱۵۸، ۱۵۹
فیلیب أغوسط ۳۲۸، ۳۲۹
فینیلون مؤلف تلیماک ۳۷۲

(ق)

قیصر ۹۳، ۱۵۹، ۱۸۲، ۳۰۰، ۳۲۸

(ک)

کاسیلیوس أزیدوروس ۱۶۰
کرستوفر کولمبوس ۱۵۱
کرنیلیوس دریبل ۱۴۹
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۴
کلابروت ۱۵۸

(ل)

مستر لان ۱۹۱
لویس: الحادی عشر ۳۲۹، ۳۳۹، ۴۵۱
لویس: الثالث عشر ۳۲۹، ۳۳۳، ۳۵۲، ۳۶۱
لویس: الرابع عشر ۱۸۸، ۲۹۸، ۳۲۳، ۳۲۸، ۳۲۹، ۳۳۵، ۳۳۶، ۳۴۸، ۳۴۹، ۳۵۲، ۳۵۶، ۳۶۰، ۳۶۱، ۳۷۲
لویس: الخامس عشر ۳۲۹، ۳۵۳، ۳۵۵
لویس: السادس عشر ۳۲۹، ۳۳۱، ۳۴۸، ۳۵۲، ۳۷۳
لویس: الثامن عشر ۳۳۰، ۳۵۳، ۳۷۵
لویس روبرت ۴۹۸
لویس فیلیب ۱۲۱، ۳۲۸، ۳۳۰، ۳۳۵، ۳۴۸، ۳۵۲، ۳۵۵، ۳۵۷
الدکطر لی ۲۷۶

(م)

مرکوس باولوس ۱۵۹
معاویة ۲۷۱
موللیر ۳۷۲
مونتسکیو ۳۷۲

(ن)

نابلیون الأول ۲۹۷، ۳۲۸، ۳۴۹، ۳۶۰، ۳۷۲، ۳۷۴، ۴۴۶، ۴۶۷
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۵
الدکطر نیکلسون ۲۹۱

(ه)

هنری کورت ۱۵۹
هنری الرابع ۲۹۷، ۳۲۹، ۳۴۹، ۳۵۱، ۳۵۱، ۳۵۲، ۳۵۳، ۳۶۱، ۳۷۲، ۳۷۴، ۴۲۴
الدکتور هوک ۳۰۶، ۳۲۲

(و)

ولطر سکوت (الشاعر) ۳۰۷
ولیم باولو ۱۵۹
ولیم الثالث ۱۳۹، ۴۹۸
ویتسطون ۳۰۶

(ی)

یعقوب دوندی ۳۲۱
یهودا ۲۰۰
یوحنا ۳۲، ۳۵، ۱۸۴، ۲۶۶، ۳۱۸، ۳۷۴، ۴۲۴، ۴۶۷، ۴۹۴
القیصر یولیوس ۱۵۷
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۶

الأجناس و القبائل

(ب)

البراهمة ۴۵۵، ۴۵۷
البروتستانت ۳۲۳، ۳۲۵، ۳۲۶، ۳۵۱، ۴۴۳، ۴۵۳، ۴۷۴

(ت)

التتر ۱۴۳

(ر)

الرومانیون ۳۴، ۱۱۹، ۱۳۸، ۱۵۶، ۱۵۷، ۳۱۸، ۴۷۳

(ط)

الطلیان ۵۵، ۹۸، ۱۸۳، ۱۹۷، ۲۰۰، ۲۴۲، ۳۰۹، ۳۲۱، ۳۳۶، ۳۴۵، ۴۱۴، ۴۳۲، ۴۳۶، ۵۰۱

(ع)

العرب ۲۴، ۳۶، ۳۷، ۴۴، ۴۵، ۴۷، ۵۰، ۵۲، ۶۷، ۷۷، ۷۸، ۷۹، ۹۰، ۹۱، ۹۵، ۹۶، ۹۷، ۹۹، ۱۰۱، ۱۰۲، ۱۰۴، ۱۰۵، ۱۰۶، ۱۳۵، ۱۳۵، ۱۳۶، ۱۴۳، ۱۴۸، ۱۵۹، ۱۷۱، ۱۹۱، ۱۹۷، ۲۰۱، ۲۱۸، ۳۱۸، ۳۱۹، ۳۶۹، ۴۳۸، ۴۵۷، ۴۵۹

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۷

(ف)

الفرنسیس ۲۶، ۳۵، ۶۰، ۶۱، ۹۷، ۹۹، ۱۱۷، ۱۲۱، ۱۳۴، ۱۳۸، ۱۵۸، ۱۶۴، ۱۶۵، ۱۷۵، ۱۷۶، ۱۸۱، ۱۸۲، ۱۸۳، ۲۱۵، ۲۱۸، ۲۲۲، ۲۳۸، ۲۳۹، ۲۴۲، ۲۴۳، ۲۴۷، ۲۵۴، ۲۶۰، ۲۶۵، ۲۷۲، ۲۷۷، ۲۹۹، ۳۰۰، ۳۰۶، ۳۱۹، ۳۲۷، ۳۴۳، ۳۴۸، ۳۵۸، ۳۶۲، ۳۶۹، ۳۷۱، ۳۷۳، ۳۷۴، ۳۸۱، ۳۸۲، ۳۸۳، ۳۸۶، ۳۹۰، ۳۹۳، ۴۱۱، ۴۱۴، ۴۱۷، ۴۲۰، ۴۲۲، ۴۲۹، ۴۳۲، ۴۴۴، ۴۶۰، ۴۶۱، ۴۶۲، ۴۷۵، ۴۷۶، ۴۸۴، ۴۸۷، ۴۹۸

الفینیقیّون ۳۳، ۳۴، ۱۱۵، ۱۹۰، ۲۰۰

(ق)

القسیسون ۱۷۸، ۱۹۸، ۲۱۶، ۲۲۸، ۳۳۲، ۳۴۹، ۳۶۶

(ک)

کاثولیک ۷۹، ۲۷۲، ۳۰۹، ۴۴۳

(م)

المسلمون ۳۳، ۳۷، ۱۱۵، ۱۱۸، ۱۹۰، ۳۱۸

الموحدون ۲۸۳

(ی)

الیهود ۷۶، ۷۸، ۱۷۴، ۱۹۲، ۲۳۰، ۲۵۶، ۲۷۶، ۳۱۵، ۳۱۷، ۳۱۸، ۳۲۶، ۴۱۴

الیونانیون ۳۳، ۱۱۵، ۱۵۴، ۱۵۷، ۴۶۱

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۸

الأماکن

(أ)

- إرلاند ۷۸، ۸۳، ۱۲۵، ۱۵۰، ۱۵۷، ۲۴۳، ۲۴۴، ۲۶۶، ۲۶۷، ۲۷۵، ۲۸۷، ۲۹۳، ۳۰۷، ۳۹۲، ۴۱۴، ۴۴۷، ۴۵۰، ۵۰۰

- إسبانیا ۴۴، ۶۷، ۱۱۵، ۱۱۷، ۱۳۲، ۱۵۲، ۱۵۴، ۱۵۸، ۱۷۳، ۱۸۰، ۱۸۳، ۱۹۷، ۲۶۹، ۲۹۷، ۳۲۳، ۳۵۱، ۳۷۲، ۳۷۴، ۴۱۹، ۴۴۹، ۴۵۹، ۴۶۱، ۴۹۶، ۴۹۸

- استورد ۲۸، ۲۸۹

- أسطراخان ۱۳۶
- اکسفور ۱۲۴
- الأناطول ۱۵۳
- انجو ۱۲۱
- الأندلس ۹۶، ۱۹۷، ۱۹۸، ۳۱۸، ۱۴۸
- أوروبا ۴۶، ۵۰، ۵۴، ۵۷، ۶۷، ۱۰۰، ۲۹۸
- أوسترالیا ۱۵۰، ۱۵۴، ۲۵۹، ۲۹۵
- إیدنبرغ ۳۰۱، ۳۰۴، ۳۱۲، ۴۱۴، ۴۸۹
- إیطالیا ۴۴، ۵۴، ۶۳، ۹۱، ۱۱۵، ۱۳۹، ۱۴۹، ۱۵۳، ۲۱۶، ۲۹۷، ۳۱۳، ۳۲۳، ۳۲۶، ۳۵۱، ۳۵۴، ۳۷۲، ۳۴۲، ۴۳۵، ۴۴۱، ۴۹۰، ۴۹۵، ۵۰۲

(ب)

- باث ۲۸، ۱۲۴، ۲۸۸
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۱۹
- بارلی ۲۷، ۱۲۳
- بدوی ۱۴۹
- برستول (مدینة قدیمة) ۲۸، ۱۲۴، ۱۶۳، ۱۹۵، ۲۷۶، ۲۸۳، ۲۸۸
- برلین ۲۹۳، ۴۴۵، ۴۶۳
- برمنهام ۱۲۴، ۴۸۴
- بریتانی ۱۲۱، ۱۲۴، ۱۲۵، ۱۵۶، ۱۶۱، ۱۶۲، ۱۶۳، ۱۶۴، ۱۷۰، ۱۸۰، ۲۰۰، ۲۱۳، ۲۷۷، ۲۸۷، ۲۹۴، ۳۰۰، ۳۲۷، ۳۷۳، ۳۹۱، ۳۹۶، ۴۱۳، ۴۴۲، ۴۵۰، ۴۵۲، ۴۶۱، ۴۶۷
- بلاد فارس ۲۹۷
- بلجیک ۱۵۷، ۱۶۱، ۴۹۲
- بلیموث ۱۲۴
- بمبای ۸۲
- بنریث (بلدة) ۲۸، ۲۸۸، ۲۹۱، ۲۹۲
- بواتو ۱۲۱
- بورتسموث ۱۲۴
- البورتوغال ۱۳۱، ۱۵۹
- بولون ۱۲۱، ۳۱۶، ۳۱۷، ۳۱۹، ۳۲۳، ۳۳۰، ۳۴۷، ۳۵۰، ۳۹۹، ۴۱۱

(ج)

- جرمانیا ۱۶۱، ۱۶۲، ۱۷۳، ۲۹۹، ۳۰۰، ۳۲۲، ۳۷۲، ۴۶۴، ۴۹۳
- جزیرة غودش ۳۶، ۳۷

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۰

– جزیرة فلفلة ۳۷

– جزیرة کمونة ۳۶، ۳۷

– جلتنهام ۲۸۸

– جینوی ۱۱۷، ۱۵۱، ۳۱۹، ۳۲۲، ۴۶۱

(ح)

– حلب ۲۹۹، ۳۰۷

(د)

– دمشق ۴۷، ۱۱۷، ۱۸۲، ۲۹۵

– دوفر ۱۲۴، ۳۹۱، ۴۱۲

– دوفنشیر ۱۳۵، ۴۷۵

– الدول المتحدة (أمریکا) ۱۵۱، ۱۵۲، ۱۶۰

(ر)

– الروسیة ۱۳۳، ۱۵۰، ۱۵۵، ۱۶۳، ۱۸۰، ۱۸۱، ۲۱۳، ۲۹۴، ۳۲۷، ۳۷۴، ۳۷۵، ۳۷۶، ۴۵۱، ۴۵۸، ۴۶۱، ۴۷۲

– رومة ۳۸، ۷۹، ۱۶۰، ۱۸۲، ۱۹۴، ۲۷۵، ۲۹۷، ۳۱۵، ۳۱۸، ۳۲۲، ۳۴۹، ۳۵۷، ۳۶۸، ۴۱۳، ۴۱۴، ۴۱۸، ۴۴۱، ۴۵۳، ۴۹۷

– رودس ۱۴۲

– رویستان ۱۲۳، ۱۳۰

(س)

– ستراسبورغ ۳۲۱، ۴۹۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۱

– سکوتلاند ۱۲۲، ۱۵۷، ۲۵۵، ۲۵۷، ۲۷۲، ۲۸۲، ۲۸۷، ۲۹۲، ۲۹۴، ۳۰۶، ۳۰۷، ۳۰۸، ۳۰۹، ۱۱۰، ۳۱۱، ۳۱۴، ۳۹۲، ۴۱۳، ۴۱۴، ۴۲۶، ۴۵۰، ۴۵۲، ۴۵۹

– سوریة ۱۳۸، ۱۸۳، ۲۸۳، ۳۰۷

– السوید ۱۵۴، ۱۵۵، ۴۵۱

(ش)

– الشام ۳۷، ۳۹، ۴۰، ۴۲، ۴۴، ۴۷، ۴۸، ۶۴، ۶۶، ۹۰، ۹۶، ۹۸، ۱۰۳، ۱۰۴، ۱۰۵، ۱۰۸، ۱۰۹، ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۲۷، ۱۲۸، ۱۳۲، ۱۳۳، ۱۳۵، ۱۴۵، ۱۷۳، ۱۸۲، ۱۹۱، ۲۰۲، ۲۱۶، ۲۷۱، ۳۰۱، ۴۸۸، ۵۰۲

– شفیلد ۱۲۴

- شلتنهام ۱۲۴
- شیفتا فکیه ۱۱۶

(ص)

- صقلیة ۳۳، ۳۴، ۳۵، ۳۶، ۳۸، ۳۹، ۴۲، ۴۴، ۱۱۵، ۲۹۷، ۳۷۶، ۴۴۷
- صور ۳۴، ۱۳۸، ۱۸۲
- الصین ۹۰، ۱۱۹، ۱۴۳، ۱۵۸، ۱۵۹، ۱۹۸، ۲۵۱، ۲۹۵، ۲۴۲، ۴۵۷، ۴۶۲، ۴۹۴، ۴۹۸

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۲

(ط)

- طورین ۱۲۱، ۲۹۹

(ف)

- فالتة ۳۱، ۳۲، ۴۶، ۵۰، ۵۱، ۵۲، ۵۴، ۵۷، ۵۸، ۵۹، ۸۰، ۱۰۳
- فاندوم ۳۲۸، ۳۲۹، ۳۳۰، ۳۴۹، ۳۸۴
- فکطوریا ۱۵۳، ۳۹۶، ۴۵۲، ۴۷۰، ۴۷۶
- فلموث ۱۲۴
- فینیسیا ۱۹۹، ۲۹۸، ۳۱۹، ۳۹۳، ۴۴۵، ۴۶۱، ۴۹۳، ۴۹۴

(ق)

- قبرس ۱۳۱، ۲۹۳
- قرطاجنة ۲۹۸، ۴۵۹
- قرطبة ۱۹۷، ۳۱۸
- قسطیلیة ۶۷

(ک)

- کالی أو کالس ۱۲۱
- کالیفورنیا ۱۵۰، ۱۵۲، ۱۵۴
- کستیریدس (جزیرة القصدیر) ۱۵۷
- کلسکو ۳۱۲، ۳۱۳
- کلبروک دال ۱۶۱
- کلو (بإرلاند) ۱۶۱
- کلوستر (بلدة) ۲۸۹

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۳

- (کمبردیج) ۱۲۴، ۱۳۰، ۱۶۷، ۱۹۱، ۱۹۵، ۱۹۸، ۱۹۹، ۲۶۳، ۲۶۹، ۲۷۵، ۲۹۰، ۳۰۰، ۳۱۴

- إقلیم کنت ۱۳۵

- کوبنهاغن ۱۵۴، ۳۰۶

- کورنول ۱۵۰، ۱۵۲، ۱۵۴

(ل)

- لاباز ۱۵۲

- لندرة (لندن) ۲۷۵، ۲۷۶، ۲۷۹، ۲۸۹، ۲۹۰، ۲۹۱، ۲۹۲

- لوکسبور ۳۵۲

- لیدیا ۱۵۳

- لیسبون (لشبونة) ۲۹۳

- لیفربول من أعمر مدن إنکلترا ۱۲۴، ۱۶۱، ۲۹۲، ۳۰۳، ۳۰۴، ۴۴۹

- لیفورنو ۱۱۶، ۱۱۷

- لیون الفرنسیة ۱۱۹، ۱۲۰

(م)

- مالطة ۴۲، ۲۹، ۳۱، ۳۲، ۳۳، ۳۴، ۳۵، ۳۶، ۳۷، ۳۸، ۳۹، ۴۱، ۴۲، ۴۳، ۴۴، ۴۵، ۷۴، ۴۸، ۴۹، ۵۰، ۵۲، ۵۴، ۵۵، ۵۶، ۵۷، ۶۰، ۶۱، ۶۲، ۶۳، ۶۴، ۶۵، ۶۶، ۶۷، ۶۷، ۶۸، ۶۹، ۷۰، ۷۲، ۷۳، ۷۷، ۸۱، ۸۲، ۸۳، ۸۴، ۸۵، ۸۶، ۸۷، ۸۹، ۹۵، ۹۷، ۹۸، ۹۹، ۱۰۰، ۱۰۱، ۱۰۳،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۴

۱۰۸، ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۵، ۱۲۱، ۱۲۴، ۱۳۲، ۱۴۵، ۱۴۶، ۱۹۵، ۲۱۰، ۲۱۶، ۲۳۸، ۲۴۵، ۳۱۴، ۳۹۵، ۴۶۷

- مدرید ۲۹۳

- مرسی سیروکو ۳۳

- مرسی لیفورنو ۱۱۶

- مسینة ۱۱۵

- مرسی مشطو ۳۲

- مرسیة ۲۹۷

- مرسیلیة ۱۱۸، ۱۱۹، ۱۲۰، ۲۷۲، ۳۷۶، ۴۳۰

- المسکوب ۲۷۵، ۳۷۵، ۴۹۰

- مصر ۱۳۵، ۱۳۸، ۱۴۲، ۱۴۳، ۱۷۲، ۱۷۳، ۱۷۸، ۱۸۲، ۱۹۱، ۲۰۶، ۲۱۲، ۲۳۱، ۲۷۱، ۲۸۳، ۳۰۴، ۳۱۳، ۳۱۷، ۳۳۰، ۳۴۷، ۳۴۸، ۳۵۱، ۳۵۴، ۳۹۲، ۳۹۲، ۴۱۷، ۴۵۷، ۴۹۸، ۵۰۱

- منشستر ۱۲۴، ۱۶۱، ۲۹۲، ۲۹۳، ۳۰۰، ۳۰۶، ۳۱۳، ۳۱۸، ۴۵۱، ۴۸۴

- مین ۱۲۱

(ن)

- نابولی ۱۱۵، ۱۱۶، ۱۵۸
- نرویش (النورویج) ۱۲۴
- النمسا ۷۰، ۲۶۹، ۲۸۸، ۳۱۹، ۳۴۸، ۳۷۲، ۳۷۶، ۴۳۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۵

- نوتنهام ۱۲۴
- نورثمبرلند ۱۵۶
- نورماندی ۱۲۱، ۲۳۵، ۲۳۶، ۳۷۴
- نیوکاستل ۱۲۴، ۱۵۶، ۱۶۰

(ه)

- الهند ۸۲، ۱۱۵، ۱۴۸، ۱۵۹، ۱۷۴، ۲۳۱، ۲۵۱، ۲۶۴، ۲۶۵، ۲۸۸، ۲۹۵، ۲۹۷، ۲۹۸، ۳۷۱، ۳۷۴، ۴۴۰، ۴۴۵، ۴۴۷، ۴۵۵، ۴۵۷، ۴۵۸، ۴۵۹، ۴۶۰، ۴۶۴، ۴۷۰، ۴۵۸
- هولانده ۳۹۱

(و)

- والس ۱۲۴، ۱۳۶، ۱۵۶، ۲۱۱، ۲۷۷، ۲۸۵، ۲۸۷، ۴۶۴، ۴۶۸، ۴۷۵
- ویانه ۱۴۹، ۳۳۳
- ویت هافن ۱۶۱
- ویر ۱۲۲

(ی)

- یابان ۱۵۰
- یورک شیر ۱۵۷
- الیونان ۳۳، ۲۹۷، ۴۳۵، ۴۵۷، ۴۹۴

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۶

التضاریس

(ب)

- بحر البلتیک ۱۵۵
- بحر مرسیلیة ۱۲۰

(ج)

- جبال أورال ۱۵۰
- جبل ایدای ۱۵۴

(ن)

- نهر التیمز (التامس) ۱۲۲، ۱۴۲، ۴۲۴، ۴۶۰، ۴۶۵
- نهر رون ۱۲۰
- نهر صون ۱۲۰
- نهر الهند ۸۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۷

النباتات

(أ)

- الإجاص ۳۲، ۱۳۱، ۱۳۲
- الآس ۱۳۲

(ب)

- الباذنجان ۴۳، ۱۳۱
- البامیا ۱۳۱
- البردقان ۱۲۰، ۱۳۱، ۱۳۲، ۲۷۰
- البصل ۴۳، ۶۹، ۱۲۹، ۱۳۰، ۱۳۱، ۲۶۶
- النطاطس ۲۷، ۱۲۹، ۱۳۱، ۱۳۵، ۱۴۸، ۲۰۴، ۲۶۳، ۲۶۶، ۲۶۷، ۲۷۰، ۲۸۹، ۴۸۷، ۴۸۸، ۴۹۹
- البطیخ ۱۴۱

(ت)

- التبغ ۴۱، ۵۹، ۷۴، ۲۷۵، ۲۹۶، ۳۳۳، ۳۴۷، ۴۱۶، ۴۴۹، ۴۷۲، ۴۷۹، ۵۰۲
- التفاح ۳۲، ۳۷، ۴۳، ۱۲۹، ۱۳۱، ۱۳۲، ۲۷۰، ۲۷۱
- التمر ۴۲، ۱۳۱، ۹۸
- التوت ۳۲، ۱۳۲
- التین ۳۷، ۱۰۸

(ج)

- الجزر ۱۳۱، ۲۷۷، ۳۱۶، ۳۷۱
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۸
- جوز الکوکو ۸۲

(ح)

- الحمّص ۲۶۸

(خ)

- الخرشف ۱۳۲، ۱۷۱
- الخس ۱۳۱
- الخوخ ۶۱
- الخیار ۱۳۲

(د)

- الدراق ۱۳۱

(ذ)

الذرة ۲۵۹

(ر)

- الرشاد ۱۳۱، ۱۸۹
- الرمّان ۳۲، ۴۲، ۱۳۱

(ز)

- الزیتون ۶۸، ۱۲۰، ۱۳۱، ۱۹۸

(س)

- السفرجل ۱۳۲
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۲۹

(ش)

- الشعیر ۱۲۷، ۱۳۱، ۱۴۸، ۴۹۰

(ص)

- الصّبّار ۴۲، ۱۳۱
- الصنوبر ۱۳۱

(ع)

- العدس ۱۳۲، ۲۶۸
- العنب ۳۲، ۴۲، ۴۳، ۱۲۰، ۱۳۲

(ف)

الفجل ۴۳، ۱۲۹

الفستق ۱۳۱

الفول ۱۳۱، ۲۶۸، ۲۷۰، ۳۰۸، ۳۳۴

(ق)

القثاء ۱۳۱

قصب السکر ۴۲، ۱۳۱، ۴۹۸

القمح ۳۷، ۴۲، ۱۳۱، ۱۳۹، ۲۷۰، ۳۳۴، ۴۱۵

القنبیط ۱۳۱

(ک)

- الکرفس ۱۳۱
- الکراث ۱۳۱

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۰

- الکرنب ۴۳، ۱۲۶، ۱۲۹، ۱۳۱، ۲۶۷، ۲۷۱

(ل)

- اللوبیاء ۱۳۱
- اللوز ۱۳۱، ۲۷۰
- اللیمون ۴۲، ۱۲۰، ۱۳۱

(م)

- الماش ۱۳۲

- المشمش ۴۲، ۱۳۱
- الملوخیة ۴۳، ۱۳۱
- الموز ۱۳۱

(ن)

- النعناع ۱۳۱

(ه)

- الهندباء ۲۷۰

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۱

الحیوانات

(أ)

- ابن آوی ۱۳۵
- الأرنب ۱۳۶، ۲۶۸، ۲۶۹
- الأسد ۱۳۶، ۴۰۳، ۴۸۰
- الإنکلیس (الحنکلیس) ۱۲۶

(ب)

- الببغاء ۱۳۶، ۱۳۵
- براغیث ۴۱
- بعوض ۱۳۵
- البغال ۵۷
- البق ۶۳، ۱۳۶
- البقر ۴۲، ۱۳۱، ۱۳۴، ۱۸۲، ۲۶۲، ۲۶۶، ۲۶۷، ۲۶۸، ۳۳۳، ۳۸۱، ۴۱۵

(ث)

- الثعلب ۱۳۶

(ج)

- الجرذان ۱۳۵
- جمل ۲۹۱، ۳۵۸

- جواميس ۱۳۵

(ح)

- حمير ۳۷، ۵۳، ۶۰، ۱۰۹، ۱۲۹، ۱۳۵، ۳۳۸، ۴۰۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۲

- حيّات ۶۳، ۱۳۵

(خ)

- الخنانيص (صغار الخنازير) ۱۲۹

- الخنزير ۴۳، ۶۷، ۱۳۵، ۱۳۶، ۳۴۳، ۴۸۷

- الخيل ۴۹، ۵۳، ۸۷، ۱۲۹، ۱۳۱، ۱۳۵، ۱۳۷، ۱۷۳، ۱۹۸، ۲۳۹، ۳۴۷، ۳۷۶، ۳۷۷، ۴۱۹، ۴۲۱، ۴۲۲، ۴۲۴، ۴۳۵، ۴۷۲، ۴۸۵

(د)

- الدب ۱۳۶

- الدجاج ۵۹، ۶۹، ۹۱، ۱۳۵، ۱۷۳، ۴۱۵، ۴۶۵

- الدخس (نوع من الحيتان) ۱۳۶

- الدلفين ۱۳۶

- دود القز ۳۲، ۲۹۷

(ذ)

- الذئب ۱۳۶، ۲۳۰

(ر)

- رتيلا ۱۳۵

(س)

- السرطان ۱۲۶، ۱۳۱، ۲۷۰

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۳

- السلاحف البحرية ۶۸

- سوام أبرص ۱۳۵

(ض)

- الضفدع ۶۸

(ط)

- الطیور ۱۴۶، ۲۶۸، ۳۵۸، ۴۱۳، ۴۴۵

(ع)

- عقارب ۶۳، ۱۳۵

(غ)

- الغراب ۱۳۶
- الغزال ۱۶۸، ۲۶۸، ۳۹۲
- الغنم ۱۳۴، ۱۳۵، ۱۳۶، ۴۱۳، ۴۱۵

(ف)

- الفأر ۶۸
- فیل ۴۴۷

(ق)

- القط ۱۳۶

(ک)

- کرکدن ۱۳۶

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۴

- الکلاب ۱۰۹، ۱۷۰، ۱۹۵، ۴۳۱، ۴۸۵، ۴۸۸

(ل)

- لبستر ۱۲۶

(م)

- المحار ۳۴۳
- المعزی ۱۳۵

(ن)

- النسر ۱۳۶، ۴۰۱
- نمر ۱۳۵

(و)

- الوز ۱۳۶، ۲۰۳، ۴۶۵
- الوعل ۱۳۶، ۱۴۶

(ی)

- الیمام ۱۳۶

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۵

المواد و المعادن

(أ)

الآجر الأحمر و الأبیض ۱۱۶، ۱۳۶، ۱۳۸، ۳۳۹، ۳۴۰، ۳۸۷، ۳۹۲، ۴۶۹
الأرجوان ۵۵
الإستبرق ۵۵، ۳۴۵
الألماس ۱۵۹، ۱۶۸، ۲۰۵، ۳۹۳، ۴۶۸، ۴۷۱

(ب)

البارود ۳۵، ۳۵۹، ۴۰۱، ۴۶۲، ۴۶۳، ۴۶۴

(ت)

توتیا ۳۰۱، ۳۰۲، ۳۰۳، ۳۲۵

(ح)

الحدید ۱۶۰، ۱۶۱، ۱۶۲، ۱۶۳، ۱۷۹، ۱۹۷، ۲۱۱، ۲۸۹، ۲۹۱، ۲۹۲، ۳۰۱، ۳۰۲، ۳۰۴، ۳۰۶، ۳۱۳، ۳۲۵، ۳۲۶، ۳۳۵، ۳۳۶، ۳۴۱، ۳۶۱، ۳۸۸، ۳۹۲، ۳۹۳، ۴۱۲، ۴۱۵، ۴۲۰، ۴۲۱، ۴۵۰، ۴۸۲، ۴۸۴
الحریر ۶۴، ۱۲۰، ۱۶۰، ۲۷۹، ۲۹۳، ۲۹۴، ۲۹۷، ۳۶۲، ۳۹۴، ۴۰۸، ۴۸۲، ۴۸۷، ۴۸۹، ۵۰۰

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۶

(خ)

الخشب ۴۸، ۵۳، ۶۹، ۸۴، ۱۳۷، ۱۳۸، ۳۰۲، ۳۰۸، ۳۱۲، ۳۱۹، ۳۳۵، ۳۴۱، ۳۹۴، ۴۱۶، ۴۹۴

(ذ)

الذهب ۵۵، ۵۸، ۶۰، ۶۱، ۶۴، ۶۶، ۸۴، ۱۴۹، ۱۵۰، ۱۵۲، ۱۵۳، ۱۵۴، ۲۰۲، ۲۲۴، ۲۲۵، ۲۳۴، ۲۴۴، ۲۷۵، ۲۹۸، ۲۹۷، ۳۲۵، ۳۴۱، ۳۴۶، ۳۵۴، ۳۸۷، ۴۶۵، ۴۶۷

(ر)

الرخام ۴۷، ۵۵، ۳۵۰، ۳۵۴، ۳۵۵، ۴۵۳

الرمل ۵۲، ۱۴۶، ۲۷۰، ۲۷۱، ۳۲۱

(ز)

الزیت ۴۲، ۴۷، ۶۸، ۱۲۰، ۱۳۱، ۱۹۸، ۲۳۶، ۲۶۸، ۲۷۰، ۲۷۱، ۳۴۴، ۳۹۵، ۳۸۳، ۴۸۴، ۴۸۷

(ش)

الشحم ۳۹، ۲۶۸، ۳۴۳

شمع ۳۹، ۱۰۶، ۱۲۷، ۱۲۹، ۳۲۰، ۳۳۳، ۳۳۶، ۳۴۴، ۳۶۰، ۳۹۵، ۴۱۶، ۴۸۴

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۷

(ص)

الصوف ۴۱، ۶۳، ۶۹، ۱۳۴، ۱۶۰، ۲۶۴، ۲۹۴، ۲۹۵

الصفر ۱۴۹، ۱۵۳، ۲۷۰

(ط)

الطین ۱۳۸، ۱۸۴، ۲۷۰، ۲۷۱

(ع)

العاج ۳۳

(غ)

غاز ۵۰، ۱۴۹، ۱۵۶، ۳۳۱، ۳۳۹، ۳۴۴، ۳۹۰، ۳۹۴، ۳۹۵، ۴۱۳، ۴۱۵، ۴۳۰، ۴۸۳، ۴۸۴

(ف)

الفحم (فحم الحجر) ۱۲۰، ۱۵۵، ۱۵۶، ۳۴۰، ۴۸۸

الفضة ۵۵، ۵۸، ۶۰، ۶۱، ۶۴، ۶۶، ۱۴۹، ۱۵۲، ۱۵۳، ۱۵۹، ۲۲۴، ۲۳۴، ۲۴۱، ۲۷۵، ۲۷۸، ۳۱۸، ۳۲۵، ۳۳۴، ۳۴۶، ۳۵۴، ۳۸۷، ۴۴۹،

۴۶۵، ۴۶۷، ۴۷۱

(ق)

القصدیر ۱۲۴، ۱۴۹، ۱۵۷، ۳۰۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۸

(ک)

الکبریت ۲۷۰، ۳۰۲، ۳۴۲، ۳۴۴، ۴۶۳، ۳۴۲

الکتان النفیس ۱۳۸، ۲۶۳، ۲۹۴، ۳۱۹

الکرباس الخشن ۲۹۶

الکلس ۱۳۶

(م)

المرمر ۱۱۷، ۱۳۸، ۱۴۲، ۱۶۸، ۳۴۶، ۳۵۵، ۴۱۶، ۴۱۹، ۴۴۹

(ن)

النحاس ۳۹، ۴۹، ۱۲۴، ۱۵۳، ۱۵۴، ۳۰۱، ۳۰۲، ۳۰۳، ۳۰۶، ۳۲۵

النشادر ۱۵۴

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۳۹

أدوات و وسائل

(أ)

أباریق القهوة و الشای ۶۰

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة؛ ص۵۳۹

رة المغناطیس ۱۵۸

أبواق من فضة ۲۷۸

أجراس ۴۹، ۵۰، ۵۶، ۶۱، ۱۲۹، ۲۷۴، ۲۷۵، ۳۷۵، ۴۸۳

الأرغن ۹۵

الأطباق ۶۰

الأعلام (لهدایة السفن) ۱۴۱، ۳۴۷

أغطیة الفرش ۶۰

الأقداح ۶۰، ۱۵۴، ۲۶۷

آلات الطرب العسکریة ۵۳

آلة البخار (البخار) ۲۹۳، ۲۹۴، ۳۷۱، ۴۶۰، ۴۹۷

آلة تقویم حرکة الساعة ۳۰۶

آلة طرب ۸۲، ۱۱۹، ۱۲۹، ۱۶۷، ۳۲۳، ۳۴۶، ۳۴۷، ۳۶۰، ۴۶۵، ۴۷۹، ۴۸۱، ۵۰۲

آلة الغزل ۲۹۶

أنابیب الغاز (انابیب) ۳۹۵

أنوار من الغاز ۴۳۰، ۴۸۳

أوعیة السکر ۶۰

(ب)

البارومتر ۱۴۹

البسط ۱۳۷، ۳۴۰، ۴۳۶، ۴۵۹

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۰

البواخر ۱۱۸، ۱۲۲، ۱۴۹، ۱۵۵، ۱۶۵، ۲۴۳، ۲۷۷، ۲۷۱، ۴۱۲، ۴۲۱، ۴۵۹، ۴۶۰، ۴۶۲

بوقال (دواة من خزف، یونانیة) ۱۰۸

(ت)

التابوت الذی ینقل فیه الدمان (الزبل) ۱۲۹

التلغراف ۱۶۱، ۱۶۲، ۳۰۱، ۳۰۲، ۳۰۴، ۳۰۵، ۳۰۶

(ث)

ثریات ۳۳۷، ۴۴۰

(ح)

حجر السفر (المغنطیس) ۱۵۸

حیزوم السفینة ۴۹

(خ)

خرج (الأخراج) ۱۲۲، ۳۱۷

الخزائن ۶۰

(د)

دعیصة (قارب) ۵۲

الدیلیجانس (عربة) ۱۲۱
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۱

(ر)

الرتل (القطار) ۱۲۲، ۱۲۳، ۱۶۱، ۱۶۳، ۲۷۶، ۲۷۱، ۳۰۴، ۴۱۱
رفوف ۴۷، ۴۴۵

(ز)

زرابی ۲۳، ۳۲، ۷۰، ۱۳۷، ۱۳۸، ۲۷۹، ۳۴۰، ۳۵۲
الزمر ۹۴، ۴۶۸

(س)

ساعات (ساعات الجیب) ۶۰، ۳۱۹، ۳۲۰، ۳۲۱، ۳۲۲، ۳۲۳، ۴۸۲
السدة (الفراش) ۱۰۸
سرر النوم ۶۰
سروج ۵۲، ۳۵۱
السفن (و القلاع) ۵۷، ۷۷، ۸۲، ۱۲۲، ۱۴۱، ۱۴۲، ۱۵۸، ۱۶۰، ۱۶۴، ۲۹۲، ۳۵۱
سفّود (حدیدة یشوی علیها اللحم) ۱۰۹
سکة الحدید ۱۱۹، ۱۲۱، ۱۲۲، ۱۳۰، ۱۵۱، ۲۱۱، ۲۹۱، ۲۹۲، ۳۰۱، ۳۰۶، ۳۲۶، ۳۳۶، ۳۶۱، ۳۸۸، ۴۱۲، ۴۱۵
السکین ۶۸، ۲۰۹، ۲۶۳
السنطیر (آلة موسیقیة) ۲۸۸
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۲

(ش)

الشاروخ (صنف من القطارات) ۱۶۱
شربة (إناء من خزف یشرب منه) ۱۰۹
الشوکة ۲۶۳
شون القمح ۵۹
شیش (قضیب من حدید یشک فیه اللحم) ۱۰۹

(ص)

الصابون ۱۲۹، ۱۶۹، ۱۷۰، ۲۷۱، ۳۳۶، ۳۳۴، ۴۱۶
صاری المرکب ۵۳

الصناديق و الأصونة ۶۰

(ط)

طست ۱۴۰، ۳۵۱، ۴۶۸

طواحين الهواء ۳۱۹

طيار النار (صنف من القطارات) ۱۶۱

الطيارة ۳۰۵

(ظ)

الظلل (المظلات) ۱۷۱

(ع)

عاجلة صغيرة مفتوحة ۱۲۹، ۲۳۴، ۲۳۹، ۲۴۸، ۲۷۴، ۲۷۸، ۲۹۳، ۴۱۶، ۴۱۹، ۴۲۳، ۴۲۴، ۴۳۱، ۴۳۹، ۴۵۴، ۴۶۵، ۴۶۹

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۳

العجلات ۴۹، ۱۶۰، ۳۶۳، ۴۱۶، ۴۷۹، ۴۸۵

عجلة تحرک بالأرجل ۱۱۸

علب الكبريت ۳۴۲، ۳۴۴

العود ۹۴، ۹۵

(ف)

فانوس مركوز على دعائم من حديد ۵۰

فرن ۱۵۵

فوانيس العواجل ۳۲۴

فوّارات ۴۷

(ق)

القانون ۹۶

قوارب (قوارب مصبوغة) ۳۶، ۵۲، ۵۳، ۵۹، ۸۴، ۱۲۰

قوارير الزهور ۴۸

(ک)

الكانون (موقد) ۲۴۴، ۳۱۹

الكبش ۳۱۶، ۱۹۷

الکدنیق (المطرقة) ۹۴

کرسی ۴۳، ۴۴، ۴۷، ۵۲، ۷۰، ۸۴، ۸۷، ۱۰۰، ۱۰۱، ۱۸۸، ۱۹۵، ۲۰۱، ۲۰۲، ۲۴۴، ۲۶۳، ۲۸۴، ۳۰۳، ۳۱۲، ۳۴۱، ۳۴۷، ۳۸۶، ۴۲۲، ۴۵۲، ۴۷۰، ۴۸۳

الکمنجة ۹۳

الکنشرتینة ۹۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۴

الکهرباء ۴۷

الکومباس ۱۵۹

(م)

متکآت ۴۴، ۵۲، ۶۰، ۷۰

المرآة ۲۰۲، ۳۹۳

مراکب البر ۱۶۴، ۴۱۹، ۴۲۴

مرقاة (المصعد) ۱۰۱

مزجیة (محرک) ۱۶۲

المسارج ۶۰

المصابیح ۲۹۰، ۴۸۴

المطارق ۵۰، ۲۰۷، ۳۴۲

المعزقة ۱۵۲

المغارف ۶۰، ۱۵۴

مغاطس من قصدیر أو خشب ۵۱

مقاعد ۴۳، ۴۴، ۵۲، ۱۶۵، ۱۷۵، ۲۷۷، ۳۴۵، ۳۴۶، ۳۴۷، ۳۴۹، ۳۶۱، ۳۸۸، ۴۲۲، ۴۳۲، ۴۳۳، ۴۷۹

ملاعق الفضة ۶۰

المنایر (لهدایة السفن) ۴۶، ۱۴۱

منشفة ۱۴۰

المنطاد ۳۹۴، ۳۹۵

المنفخ ۹۵، ۲۰۲

میزان الهواء (البارومتر) ۱۴۹

میقاتیة الرمل ۳۲۱

میقاتیة الشمس ۳۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۵

میقاتیة الماء ۳۲۱

المیل و المکحلة ۲۵۵

(ن)

ناموسیة ۳۴۱
النای ۹۳، ۹۴، ۹۶، ۳۲۲
نجم الشمال (صنف من القطارات) ۱۶۱
نظارات العیون ۳۱۹
نعارة (مشربة من فخار تصوّت إذا شرب منها) ۱۰۹
نواعیر السانیة ۴۴
نورج لدرس القمح ۳۷

(ه)

هودج ۳۷، ۱۷۳
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۶

الأسلحة

(ب)

- بارود ۳۵، ۳۵۹، ۴۰۱، ۴۶۲، ۴۶۳، ۴۶۴
- بندقیة ۳۵، ۸۶، ۴۶۳
- بوارج حربیة ۳۲، ۳۵، ۱۱۵، ۲۲۳، ۳۴۳، ۳۷۶، ۴۱۷، ۴۶۱

(د)

- درع (دروع) ۸۶، ۲۷۶، ۳۸۲، ۳۸۴، ۴۳۴، ۴۳۵، ۴۶۴، ۴۶۵، ۴۶۷، ۴۷۱

(س)

- سیف (سیوف) ۸۶، ۱۸۶، ۲۳۰، ۲۷۸، ۳۰۸، ۳۵۱، ۳۵۷، ۳۵۹، ۳۷۹، ۳۸۰، ۴۰۳، ۴۳۴، ۴۳۵، ۴۳۶، ۴۴۶، ۴۶۵، ۴۶۶، ۴۶۸، ۴۷۱

(ط)

- طبنجة ۸۶، ۴۴۸، ۴۶۴

(م)

- مدافع النحاس ۴۹
- مدفع ۳۵، ۳۴۹، ۳۹۱، ۴۱۷، ۴۱۹، ۴۶۰، ۴۶۴، ۴۶۷

- مزراق ۸۶، ۲۷۸

- المنجنیق ۱۸۷

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۷

الصناعات

(أ)

- إنشاء المراکب ۶۰، ۳۱۳

(ب)

- بیوت من زجاج (لزراعة العنب و سواه) ۱۳۲، ۳۵۸

(ص)

- صبغ الثیاب ۲۹۵

- صبغ الزجاج ۴۸

- صناعة الزهر من الورق ۳۳۶

- صناعة الدیباج (الدماسک) فی دمشق ۲۹۵، ۳۴۵، ۴۳۶، ۴۸۰

و انتقالها إلی أوروبا

- صناعة الساعات و الزجاج و الأدوات ۶۰

الحربیة و الصباغة

- صناعة قمصان بأدوات النار ۲۹۵

- صناعة نسج الحریر ۲۹۷

- صناعة النسیج فی الصین ۲۹۵

- صناعة الورق الفاخر المنقش ۴۹۸

- صنعة نقر التماثیل ۳۲۰

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۸

النقود

(ب)

- بنی ۱۳۰

(ج)

- الجینی ۱۵۳

(د)

- الدراهم ۷۱، ۸۳، ۱۵۳، ۲۰۰، ۲۰۸، ۲۳۶، ۲۴۲، ۴۲۲، ۴۴۵، ۴۹۳
- الدنانیر ۱۵۳، ۲۳۴، ۳۵۴، ۴۴۵، ۴۵۵

(ر)

- روبل ۲۹۵
- ریالات أمیرکانیة ۱۵۰

(ش)

- شلن ۲۲۴، ۲۲۵

(ص)

- الصنتیم ۱۳۴

(ف)

- فرنک ۱۱۹، ۱۲۲، ۱۳۴، ۲۹۴، ۲۹۵، ۲۹۹، ۳۰۵، ۳۱۷، ۳۲۵، ۳۳۲، ۳۳۳، ۳۳۴،
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۴۹
۳۳۵، ۳۳۶، ۳۳۷، ۳۲۶، ۳۲۸، ۳۲۹، ۳۳۰، ۳۳۱، ۳۸۷، ۴۱۱، ۴۱۴، ۴۱۵، ۴۱۸، ۴۲۳، ۳۵۳، ۳۵۴، ۳۵۶، ۳۶۰، ۳۶۳، ۳۸۴، ۳۳۸، ۳۴۳،
۳۴۸، ۳۴۹
- فلورین ۲۹۵
- الفلوس ۱۰۹، ۱۵۳، ۲۰۰، ۲۱۱، ۲۲۴، ۲۴۷، ۴۱۰

(ل)

- لیرة ۳۷، ۵۶، ۷۱، ۷۷، ۸۲، ۸۶، ۱۲۵، ۱۲۸، ۱۳۳، ۱۳۵، ۱۳۸، ۱۴۱، ۱۴۲، ۱۵۰، ۱۵۱، ۱۵۳، ۱۵۴، ۱۵۵، ۱۵۶، ۱۵۸، ۱۵۹، ۱۶۰،
۱۶۱، ۱۶۲، ۱۶۳، ۱۶۵، ۱۶۷، ۱۸۱، ۱۹۱، ۱۹۹، ۲۰۴، ۲۰۹، ۲۱۰، ۲۱۲، ۲۱۳، ۲۱۴، ۲۲۵، ۲۲۸، ۲۳۱، ۲۳۴، ۲۳۵، ۲۳۶، ۲۴۵، ۲۵۰،
۲۵۵، ۲۵۹، ۲۶۹، ۲۷۳، ۲۷۴، ۲۷۵، ۲۷۷، ۲۷۸، ۲۹۴، ۲۹۶، ۳۰۲، ۳۲۶، ۳۲۷، ۳۲۸، ۳۳۰، ۳۶۰، ۳۷۴، ۳۹۲، ۳۹۳، ۴۱۵، ۴۱۷، ۴۱۸،
۴۱۹، ۴۲۰، ۴۲۱، ۴۲۵، ۴۲۸، ۴۲۹، ۴۳۲، ۴۴۴، ۴۴۵، ۴۴۶، ۴۴۷، ۴۴۸، ۴۴۹، ۴۵۰، ۴۵۲، ۴۵۳، ۴۵۴، ۴۵۵، ۴۵۸، ۴۶۳، ۴۶۴، ۴۶۵،
۴۶۶، ۴۶۷، ۴۶۸، ۴۶۹، ۴۷۱، ۴۷۲، ۴۷۳، ۴۷۴، ۴۷۵، ۴۸۲، ۴۹۱، ۴۹۸، ۵۰۰
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۰

أمراض و کوارث

(ح)

حمی ششیر فهرول ۱۵۳

العقاقیر و العطور و البخور

(ح)

الحناء ۱۹۷

(ک)

الکحل ۱۱۱، ۱۹۷

(ن)

النشوق ۴۱، ۱۷۱، ۲۷۱

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۱

الأطعمة و المشروبات

(أ)

الأبازیر ۲۶۴، ۴۸۷

(ب)

البت لک (لحم مشرح و متبل بالبصل) ۲۶۶
البردقان ۱۲۰، ۱۳۱، ۱۳۲، ۲۷۰
البطاطس ۱۲۷، ۱۲۹، ۱۳۱، ۱۳۵، ۱۸۴، ۲۰۴، ۲۶۳، ۲۶۶، ۲۶۷، ۲۷۰، ۲۸۹، ۴۸۷، ۴۸۸، ۴۹۰
البف ستیک (شواء البقر) ۱۸۲، ۳۴۲
البن ۱۲۶، ۱۲۹
البیض ۱۲۳، ۱۲۶، ۱۳۴، ۲۳۲، ۲۶۸، ۲۷۰، ۲۸۶، ۳۳۴، ۴۴۵

(ج)

الجبن المدود ۲۶۸
الجعة ۸۳، ۱۳۰، ۱۴۰، ۱۸۴، ۲۵۶، ۴۱۶، ۴۶۵، ۴۷۷، ۴۸۱
الجلّوز (البندق) ۱۰۹، ۲۰۲

(ح)

الحلواء ۱۶۹، ۲۰۳، ۲۶۴، ۴۱۶، ۴۸۱، ۴۸۷

الحلیب ۶۰، ۶۱، ۷۹، ۱۲۷، ۱۳۴، ۲۶۳، ۲۶۴، ۲۶۸، ۲۷۰، ۳۴۳، ۳۸۷، ۴۱۶، ۴۸۸

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۲

(خ)

الخبز ۴۷، ۶۱، ۶۷، ۶۸، ۷۲، ۱۱۷، ۱۲۳، ۱۲۶، ۱۲۸، ۱۳۰، ۱۳۱، ۱۸۰، ۲۰۱، ۲۶۱، ۲۶۷، ۲۷۰، ۲۷۱، ۲۸۶، ۳۳۳، ۳۴۴، ۳۸۱، ۳۸۵، ۴۱۰، ۴۷۷، ۴۷۹ ۴۸۶، ۴۸۸، ۴۹۰

الخبز المخلوط بالبطاطس ۲۷۰

الخردل ۲۶۴، ۲۷۱، ۳۴۴، ۴۸۷، ۴۹۰

الخل ۲۷۱، ۲۷۷، ۳۴۴، ۴۸۷، ۴۹۰

الخمر ۴۱، ۴۲، ۶۲، ۶۳، ۶۷، ۷۰، ۲۶۲، ۲۷۰، ۲۷۱، ۳۳۳، ۳۳۸، ۳۴۴، ۳۵۲، ۳۵۶، ۳۶۳، ۳۸۱، ۳۸۷، ۴۱۳، ۴۱۶، ۴۲۷، ۴۷۷، ۴۸۱

(د)

الدجاج ۵۹، ۶۰، ۶۹، ۷۱، ۹۱، ۱۳۵، ۱۷۳، ۲۶۲، ۴۱۵، ۴۴۰، ۴۶۵

الدقیق ۳۹، ۲۶۴، ۲۷۰، ۳۳۴، ۳۸۷، ۴۱۳، ۴۹۰

الدم مخلوطا بالشحم ۲۶۸، ۲۷۰

(ذ)

الذرة ۲۷۰

(ر)

الرز المسلوق (و صبّهم علیه الحلیب) ۲۶۸

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۳

(ز)

الزبدة المخلوطة بالجزر ۱۲۶

الزنجبیل ۲۷۰

الزیت ۴۲، ۲۶۸، ۲۷۰، ۲۷۱، ۳۴۴، ۴۸۷

(س)

سحیق العظم ۲۷۰

السکر ۴۲، ۶۰، ۱۲۶، ۲۶۳، ۲۶۴، ۲۷۰، ۳۳۶، ۳۴۳، ۳۴۴، ۴۱۶، ۴۶۵، ۴۸۱، ۴۸۸

السلاحف البحریة ۶۸

السلاطة (السلطة) ۶۷، ۳۴۳، ۳۸۷

السمک المسلوق ۲۶۳

السمن ۴۳، ۲۶۸، ۲۸۶، ۳۴۳، ۴۱۵

سیکار ۳۴۲

(ش)

الشای ۶۰، ۱۲۶، ۱۲۹، ۱۸۰، ۱۹۹، ۲۶۲، ۲۶۳، ۲۶۴، ۲۶۵، ۲۹۶، ۳۱۶، ۳۱۶، ۴۷۳

الشب ۲۷۰، ۳۴۴، ۴۸۸

شرب الفقاع ۱۸۴

الشواء ۱۸۲، ۲۶۱، ۲۶۷، ۲۸۹، ۳۴۲، ۳۴۳، ۴۷۷، ۴۸۷

الشوربة ۶۷، ۲۶۳، ۲۶۶، ۳۴۳

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۴

(ض)

الضفدع ۶۸

(ط)

طبخ الدم ۶۸، ۲۶۸

الطبیخ ۶۵، ۶۸، ۶۹، ۲۶۴، ۲۶۷، ۲۷۱، ۲۷۶

(ع)

العدس ۱۳۲، ۲۶۸

العسل ۲۵۸، ۲۷۰، ۳۴۴، ۴۷۶

(ف)

الفأر ۶۸

الفطایر ۶۸

الفقع (البطاطا) ۱۸۴، ۴۰۷

الفلفل ۳۷، ۲۶۳، ۲۶۴، ۴۸۷، ۴۹۰

الفول ۱۳۱، ۲۶۸، ۲۷۰، ۳۳۴، ۴۸۷

(ق)

القشطة ۴۳

(ک)

الکاکاو ۲۹۵

کرسمس بودن ۲۰۳

الکرنب ۴۳، ۱۲۶، ۱۲۹، ۱۳۱، ۲۶۷، ۲۷۱، ۳۴۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۵

(ل)

اللبن ۴۳، ۱۲۶، ۱۳۴، ۱۸۲، ۲۵۸، ۳۳۲، ۳۸۴، ۴۱۵، ۴۸۷

اللحم المملوح ۱۸۲

اللحم المنتن ۲۶۸، ۴۸۵، ۴۹۰

اللحم النیئ ۱۸۲، ۲۷۶

(م)

المرقة ۴۸۷

المزر (شراب) ۱۳۰، ۲۵۹، ۲۶۲، ۲۷۰، ۲۷۱، ۳۲۴، ۴۱۳، ۴۱۶، ۴۹۵

الملح ۱۲۱، ۱۳۱، ۲۰۰، ۲۰۱، ۲۶۴، ۲۷۰، ۲۷۱، ۲۷۶، ۲۷۷، ۴۲۸، ۲۵۸

(ن)

النبیذ ۲۷۱، ۳۱۹

(ه)

الهرطمان ۲۷۰

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۶

اللباس

(أ)

- الأحزمة ۶۴

- أزرار الصدریة ۴۲، ۶۴، ۲۸۲

(ب)

- برانیط ۱۷۱، ۲۵۸، ۲۵۹، ۲۷۹، ۲۸۰، ۴۱۴، ۴۱۶، ۴۸۱

- برنیطة ۶۴، ۱۷۱، ۳۶۲، ۴۳۲

(ث)

- ثوب ۶۱، ۱۳۷، ۱۹۹، ۲۰۳، ۲۴۰، ۲۵۱، ۲۷۹، ۳۵۹، ۳۶۲، ۳۹۳، ۴۰۳، ۴۰۸، ۵۰۰، ۵۰۱

- الثیاب ۵۴، ۶۲، ۶۳، ۶۴، ۶۵، ۶۶، ۶۷، ۷۲، ۷۴، ۷۶، ۷۷، ۱۲۰، ۱۴۰، ۱۴۴، ۱۴۶، ۱۷۰، ۱۷۱، ۱۸۷، ۲۰۲، ۲۱۳، ۲۴۰، ۲۵۸، ۲۵۹، ۲۶۶، ۲۶۷، ۲۷۷، ۲۷۹، ۲۹۲، ۵۹۵، ۲۹۶، ۲۹۷، ۳۱۱، ۳۱۳، ۳۴۰، ۳۴۱، ۳۴۲، ۳۶۲، ۳۸۲، ۳۸۵، ۴۲۸، ۴۳۷، ۴۳۸، ۴۴۰، ۴۸۰، ۴۸۵

(ج)

- جبّة ۶۷

- جزم طویلة تفوت الرکبة ۴۳۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۷

- جوارب ۶۵، ۱۷۱، ۲۶۴، ۴۲۹، ۴۸۷

- الجوارب و الشعار من الصوف ۲۶۴

- الجوخ ۵۱، ۶۶، ۱۸۳، ۲۸۹، ۲۹۸

(ح)

- حذاء ۶۱، ۶۴، ۶۵، ۱۷۱

(خ)

- الخمار ۶۴، ۳۳۶

(س)

- ستر الکفین بجلد أبیض ۲۴۰

- سترة ۶۴

- سراول (سراویل) ۵۱، ۶۴، ۶۵، ۶۷، ۴۳۲

(ش)

- شال کشمیری ۵۱، ۱۳۸، ۳۶۲

- الشملة (علی الأکتاف) ۲۹۲

(ص)

- صدریة ۶۴

(ط)

- طربوش (طرابیش) ۶۴، ۱۸۳، ۲۶۳، ۳۰۰، ۳۰۸، ۴۶۸

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۸

(غ)

- غطاء الرأس ۶۴، ۶۵، ۷۹، ۱۷۰، ۱۷۱، ۳۱۱

(ق)

- قباء أحمر و سیف و شعار (لباس رئیس المحاکم) ۴۶۵
- قباقیب ذات شسوع ۴۹، ۱۴۵، ۱۷۱
- قنطان (قفاطین) ۱۷۱، ۱۹۹، ۲۰۳
- قمیص (قمصان) ۶۷، ۱۵۲، ۲۹۵، ۵۰۰

(ک)

- کسوة مزرکشة بالذهب (خدام الأمراء) ۲۷۸
- کفوف من حریر ۶۵، ۴۷۸

(ل)

- لباس ۳۹، ۴۸، ۶۴، ۶۶، ۷۴، ۹۶، ۱۸۳، ۱۷۱، ۱۸۲، ۲۰۳، ۲۰۶، ۲۳۸، ۲۴۰، ۲۵۲، ۲۷۸، ۳۳۲، ۳۴۵، ۳۵۹، ۳۷۶، ۳۸۵، ۴۱۸، ۴۲۹، ۴۳۴، ۴۳۶، ۴۳۷، ۴۳۹، ۴۴۰، ۴۵۲، ۵۰۱

(م)

- المزرکش و المرقش من الثیاب ۶۶
- مسالت (شنوف) ۶۶
- مندیل (منادیل) ۱۱۹، ۱۷۱، ۱۷۵، ۲۰۱، ۲۲۲، ۲۹۵، ۳۱۲، ۳۱۷، ۳۹۴، ۴۹۱

(ن)

- نعال ۱۵۴، ۲۹۲، ۴۳۳، ۴۷۹، ۴۸۱
- و شاح من الحریر الأسود ۶۴، ۶۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۵۹

الحلی و المجوهرات

(أ)

- الأبازیم ۶۰
- الأسورة ۶۰، ۶۶، ۲۶۴
- الأقراط ۶۴

(ت)

- تاج الملک ۳۰۸، ۴۰۶، ۴۶۸

(خ)

- خلخال ۶۲
- الخواتم ۶۰، ۶۴، ۶۶، ۲۶۴

(س)

- السلاسل ۶۰، ۶۶، ۲۰۴، ۲۶۴
- سلسلة الساعة ۶۴

(ش)

- الشنوف (ما علّق فی الأذن أو أعلاها من الحلی) ۶۰، ۶۶

(ق)

- الألماس ۷۴، ۱۳۸، ۱۴۹، ۱۶۸، ۲۰۵، ۳۴۶، ۳۹۳، ۴۶۸، ۴۷۱، ۵۰۴، ۵۰۵

(ن)

- النیشان ۳۰۸، ۳۳۶، ۳۵۷

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۰

الهیئات و التنظیمات

(أ)

اتحاد سکوتلاند بإنکلترا سنة ۱۷۰۷ ۳۰۷

اتحاد بروسیا مع الانکلیز ۳۷۶

(ج)

جمعیات ۲۴۵، ۲۴۲، ۴۲۴، ۴۲۷، ۴۲۸، ۴۳۰

(ح)

حرس (حرس إمبراطوری) ۳۳۱، ۳۴۹، ۳۷۹

حرس الملکة ۱۸۱

(د)

دیوان الشرطة ۳۳۱، ۳۳۸

(م)

مجلس المشورة (مجلس الأعیان، و مجلس النواب) ۳۹۶، ۴۴۲، ۴۴۳، ۴۴۴، ۴۵۲، ۴۵۴، ۴۵۵، ۴۵۸، ۴۶۷، ۴۷۲، ۴۹۱

المنتدیات ۲۵۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۱

المنشآت و المؤسسات

(ب)

- البرید ۲۲۳، ۲۲۴، ۲۲۶، ۳۳۹، ۳۹۰، ۴۰۳، ۴۵۰، ۴۵۱
- بنسیونات ۳۳۱
- بنک الإنکلیز ۲۲۴

(ج)

جرنال التیمس ۱۲۵، ۱۵۳، ۲۱۱، ۴۹۷

(ح)

- حمامات ۵۱، ۳۳۶، ۳۴۱، ۳۴۶

(د)

- دار الاختبارات العلمیة فی لندن ۴۴۲
- دار الأوبرا ۳۳۷
- دار السکة ۳۵۳، ۴۹۹
- دار صرف الأموال ۵۷، ۴۶۶
- دار القضاء ۱۸۸

- دار النغول ۵۷، ۳۲۹، ۳۳۱، ۴۲۶

(س)

- سجون ۲۸۱، ۳۰۹، ۳۲۵، ۳۳۱، ۳۵۷

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۲

(ف)

- فنادق للمسافرین ۵۸

(ق)

- قصر الصنائع الظریفة و المحکمة الکبری ۳۶۳
- القصور الملکیة ۵۰۴
- قصور من المرمر ۱۱۷

(م)

- مآو للجند ۳۳۶
- مارستان السقط ۳۲۷
- مارستان النغول ۳۲۹
- متحف الخدمة المتحدة ۴۴۶
- مجتمع التجار ۳۵۴، ۴۶۶
- محال للقهوة مغشاة سقوفها و حیطامها بالمرایا ۵۱
- محطة سکة الحدید ۱۳۰
- محلات لجماعة الجغرافیة و البناء ۴۴۸

و معرفة المعادن و التصویر و إلقاء الخطب

- المرصد ۳۲۹
- المسارح ۴۰۹، ۴۳۲
- مستشفیات ۵۷، ۷۴، ۱۴۰، ۱۸۹، ۴۲۶، ۴۲۷، ۴۲۸، ۴۶۹
- مصانع للساعات و الزجاج و الأدوات ۶۰

الحریبة و الصباغة

- المصرف (البنک، بورس) ۳۵۴، ۴۲۵
- مصلحة التلغراف ۱۶۱، ۱۶۲، ۳۰۱، ۳۰۲، ۳۰۳، ۳۰۴،

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۳

۳۰۵، ۳۰۶

- مطابع دار صحف الأخبار ۵۶، ۵۷
- معامل ثیاب الحریر و القماش ۱۲۰، ۲۸۹، ۲۹۲
- معامل الثیاب المنسوجة ۳۱۳
- معامل الجوخ فی استورد ۲۹۴
- معامل حبک ۲۹۴
- معامل حریر ۲۹۴
- معامل قطن ۲۹۴
- معامل کتان ۲۹۴
- معمل دربی للنسیج ۲۹۷
- مکتبات ۳۳۴
- مکتبة عمومیة ۳۳۴
- مکتبة موقوفة ۱۱۶، ۱۱۸، ۱۲۰
- ملاجئ الفقراء و العجزة ۳۳۹
- الملاهی ۷۲، ۹۰، ۱۱۶، ۱۲۵، ۱۴۱، ۱۶۷، ۱۸۳، ۱۸۸، ۲۱۹، ۲۳۸، ۲۳۹، ۳۰۲، ۳۳۲، ۴۳۸، ۴۴۱، ۴۵۳، ۴۷۶
- المنشآت الخیریة ۲۳۳
- مواقف سکک الحدید ۴۸۲

(ن)

- النوادی ۳۳۷

(ه)

- هوتل دوفیل ۳۲۹، ۳۳۰، ۳۵۳

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۴

الأسواق

(أ)

أسواق بهیجة ۵۰، ۶۱، ۶۲، ۶۳، ۶۶، ۷۶، ۸۵، ۲۷۶، ۳۰۰، ۳۲۷، ۳۳۰، ۳۳۳، ۳۳۴، ۳۳۸، ۳۵۰، ۳۶۲، ۳۷۱، ۳۸۹، ۴۰۸، ۴۱۳، ۴۶۵، ۴۷۶، ۴۸۰، ۴۸۱، ۴۸۳

(ب)

الباساج (أسواق مسقوفة بالزجاج و مبلطة بالرخام) ۳۹۰

(س)

سوق القصارین ۹۴

سوق الکلاب ۳۳۸

سوق الهال ۳۳۴

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۵

المعالم الأثریة

(أ)

- أسوار بابل و حدائقها المتدلیة (المعلقة) ۱۴۲
- أهرام مصر ۱۴۲، ۱۴۳

(ب)

- بالی روایال (القصر الملکی) ۳۳۰، ۳۴۶
- برج صانت ألمو ۳۲
- برج لندن ۴۴۳، ۴۶۷
- بلاس دولاکنکورد ۳۳۰، ۳۴۸
- بلاس فندوم ۳۴۹

(ت)

- تمثالان للمسیح و سان جوان ۵۵

(ج)

- جرس کرملین ۲۹۵

(س)

- سد الصین ۱۴۳

(ش)

- شانزلزی (روضة الأصفیاء) ۳۲۹، ۳۴۶، ۳۵۴، ۳۵۹

(ص)

- صنم الشمس من نحاس ۱۴۲

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۶

- صنم حوبیتر ۴۱۴

(ع)

- عمود نلسون ۴۱۶، ۴۱۷
- عمود نابلیون الأول علی مثال عمود تراجان ۳۴۹

(ق)

- قصر بنتنبلو ۳۲۳
- قصر صان جرمان ۳۲۳، ۳۶۱
- قصر الغرانیق ۳۴
- قصر فلورانس ۲۷۵
- قصر اللوکسنبورغ (لوکزمبور) ۳۲۹، ۳۵۲
- قصر الملکة مارى ۳۰۸
- قلعة مدینة المسکوب ۲۷۵
- قنطرة شاهقة ۱۱۷
- قوس النصر ۳۲۸، ۳۵۴

(م)

- المتحف البریتانی ۴۴۴
- متحف صون ۴۴۸
- متحف کوبنهاغن ۳۴۵
- متحف اللوفر (أو قصر اللوفر) ۳۲۸، ۳۲۹، ۳۵۱، ۳۵۲، ۳۵۴
- مرقب بریستول فیه مقصورة عالیة مظلمة ۲۸۳
- مسلّة مصر ۳۳۰، ۳۴۸
- معرض التحف فی لندرة و المسمی ۳۹۱، ۳۹۲

فی باریس اکسبوزسیون

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۷

- منارة فیها فانوس لهدایة السفن ۵۷، ۱۴۱، ۱۴۲
- الموزلیوم ۱۴۲

(ن)

- نصب تمثال نابلیون علی عمود فندوم ۳۲۸

(ه)

- هیکل جونو ۳۳
- هیکل بروسربین ۳۳
- هیکل هرکولیس ۳۳
- هیکل أبولو ۳۳
- هیکل دیانة ۳۳
المعابد

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۸

(ج)

الجامع الأزهر ۱۹۸
الجامع الأموی ۱۹۸
جامع الزیتونة ۱۹۸

(ک)

کنیسة رومیة ۲۷۵، ۴۵۳
کنیسة ستراسبورغ ۳۲۱
کنیسة صان باولو ۷۹، ۲۷۵
کنیسة صان جوان ۵۵
کنیسة صانت إیفان ۲۷۲
کنیسة لامدلین ۳۳۰، ۳۵۵
کنیسة ماراسطفانوس ۳۲۸
الکنیسة المتأصلة ۱۲۵، ۱۲۸، ۲۷۱، ۲۷۴
الکنیسة المتفرعة ۲۰۹، ۲۷۳، ۲۷۴
کنیسة نطردام ۳۲۸، ۳۳۷، ۳۵۵، ۳۵۶، ۴۵۴

(م)

مسجد قرطبة ۳۱۸
معبد منیومنت ۲۷۹

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۶۹

الکتب

(أ)

- الإنجيل ۱۷۷، ۲۰۳، ۲۷۲، ۲۷۸، ۳۱۵، ۳۲۸، ۴۲۷، ۴۹۴

(ت)

- ترجمة حكايات ألف ليلة و ليلة ۱۹۱
- ترجمة القرآن ۱۹۱
- ترجمة مقامات الحريرى ۱۹۱
- التوراة ۱۹۶، ۱۹۷، ۲۰۸، ۲۳۸، ۲۳۹، ۲۵۷، ۲۷۲، ۲۷۴، ۲۸۳، ۳۱۴، ۳۱۵، ۳۱۶، ۳۶۶، ۴۹۵

(س)

- سفر راعوث ۲۰۳

(ک)

- كتب الشرع (القانون) ۳۸

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۰

فنون (ت)

- التصوير ۲۳۱، ۲۴۲، ۳۲۰، ۴۴۸

(غ)

- الغناء ۵۲، ۸۵، ۹۰، ۹۱، ۹۲، ۹۳، ۹۵، ۹۶، ۹۷، ۱۱۹، ۲۳۱، ۲۶۶، ۲۷۳، ۲۸۵، ۳۰۴، ۳۴۲، ۳۴۷، ۳۶۸، ۴۳۲، ۴۳۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۱

العادات

- اتخاذ ذنب معقود على قذلهم ۱۸۵
- التطيّر ۲۰۳
- إرسال و ضيمة إلى أهل الميت ۷۳
- اصطفاف الشرطة للاستقبال ۱۶۶
- أعياد الدرويدس ۲۰۰
- الأعياد الكنائسية ۵۳
- الأمانة ۲۳۲
- أيام المرفع (الكرنفال) ۵۳، ۸۳، ۳۳۷، ۳۵۹

- تأبط المرأة حذاءها ۶۴
- التجمل باللباس الفاخر ۲۵۲
- تزیین الغرف و البیوت لیلة عید المیلاد ۲۰۰، ۲۰۳
- تعظیم ألقاب الشرف عند الإنکلیز ۲۳۷
- التهادی بباقات الزهر ۱۳۲
- الدخول إلی البیوت بإذن الدیوان ۴۳۱
- ذر الرماد الأبیض علی رؤوس خدمة الأمراء و العظماء ۱۸۹
- الزائر یعطی الحاجب تذکرة مکتوبة باسمه قبل دخول المنزل ۲۴۱
- زواج المتعة ۳۶۷، ۲۳۸، ۲۷۴
- شرب الحلیب بالملح و الفلفل ۲۶۴
- شرب الشراب علی ذکر مشاهیرهم و زعمائهم ۲۶۵
- شرب القهوة و أکل الفجل و الرشاد معها ۲۶۴
- الفلاحون الإنکلیز یأکلون الحلواء قبل الطبیخ ۲۶۴
- عامة الإنکلیز یطبخون طعامهم بلا ملح، و یملحونه عند الأکل ۱۳۱

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۲

- عدم إقامة المآتم علی المیت ۷۳
- عدم قبول المصانعة و الرشوة ۲۲۸
- عجن الخبز بالأرجل ۶۸
- عید استئجار الخادمین و الخادمات ۲۸۹
- عید إلقاء جوز الکوکو فی نهر الهند ۸۲
- عید رأس السنة ۳۵۹، ۴۷۹
- عید کندلماس ۲۰۰
- الغناء فی موسم صان جرمان ۱۸۹
- لبس الأسورة فوق الأکمام ۶۶
- لبس الحداد ۷۳
- لحس أصابعهن بعد أکل الحلواء ۱۶۹
- المتعة و التسری أمر مستفیض ۷۳
- مخالطة الرجال و مماشاتهم و الذهاب معهم إلی المراقص ۷۲
- المرأة الإنکلیزیة تلعب بجرو کلب بحضرة الناس ۱۷۰
- مشی الرجل مع زوجته متحاذیین ۷۲
- میزلتو ۲۰۰
- میکلمس (عید میکال) ۲۰۳
- نساء الإنکلیز لا یسمحن بتعاطی الدخان ۲۴۱

- النساء فی إنکلترة یربّین أظفارهن، و یترکن شعورهن فی القفا منفوشة ۱۷۰
- نظافة الثیاب ۶۶
- وضع التبن تحت المولود ۷۳
- الوفاء بالوعد ۲۲۶
- یتهادون الأشعار علی طروس مزخرفة ۱۴۶
- یجعلون أقذارهم فی وعاء تحت السریر ۷۰
- یضعون فی أعناقهم شریطة فیها زجاجة ۸۷
- یوم مبایعة الملک ۱۸۸
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۳

فهرس المعلومات

- ادّعاء علم الغیب و رؤیة الکف و إحضار الغائب. ۲۰۶
- ازدهار علم الفلک و المساحة و الطب و الکیمیاء فی قرطبة. ۳۱۸
- الاعتمادیة ۱۹۷
- انتشار المذهب البروتستانتی فی فرنسا ۳۲۳
- الاهتداء بالنجوم. ۱۹۷
- التنجیم و الاعتقاد بالسحر و الشعوذة. ۳۲۱
- الجاذبیة ۱۹۷، ۳۰۲، ۳۰۶
- دلالة الطربوش علی جنسیة صاحبه ۷۶
- عنایتهم بالمزمرة (التنویم). ۲۸۳، ۲۸۵
- لقب دکطر یوصف به کل من الطبیب و الربانی و الفیلسوف ۷۶
- الملاکمة للعامة (البوکس) و المسایفة للعلیة. ۱۸۹

جمل لها دلالات خاصة

- إجراء الرزق علی من نبغ فی علم من العلوم. ۱۹۹
- إحراق السفن بواسطة الزجاج. ۴۶۳
- اختراع شیء یفعل فعل البارود من: (قطن، نطرون، کبریت). ۴۶۳
- أخذ الأوربیون علم الحساب عن العرب فی إسبانیا. ۳۱۹
- إسبانیا فی العلوم. ۳۲۳
- أطباء الفلاحین نفایة أطباء المدن. ۵۸۹
- الأطعمة الفاخرة عرفت فی الشام من زمن معاویة. ۲۷۱
- الأمن فی الخروج لیلا بلا فانوس. ۲۲۵
- الإنکلیز قبل اختراع البواخر کانوا أسخی و أنخی. ۲۴۳

- أهل سکوتلاند أشد تحمسا فی الدین من الإنکلیز. ۳۰۷

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۴

- أول ساعة دقاقة عرفت فی فرنسا أهداها الرشید إلی شارلمان. ۳۱۸
- أول ظهور التمدن فی أوروبا کان فی إسبانیا حین کان المسلمون مستولین علی الأندلس. ۳۱۸
- إیطالیا فی الصنائع. ۱۵۳، ۲۹۷، ۳۲۳، ۳۵۱، ۳۵۲، ۳۹۵
- إیقاد النار للاصطلاء مدة ثمانیة أشهر. ۱۶۴، ۲۶۴
- البابا سلوستروس سار إلی الأندلس و أخذ العلم من العرب، و هو الذی بثّ رقم الحساب العربی فی أوروبا. ۳۱۹
- البلفار: مطاعم للأغنیاء. ۳۴۳
- بیع النساء، لعدم إمکان الطلاق، بمحضر شهود. ۲۵۵
- تفوّق لندن فی الصحافة و الکتب. ۴۹۰، ۴۹۱، ۴۹۳
- تقبیل الشاهد الصلیب. ۸۵
- تقسیم الیوم إلی ۲۴ ساعة. ۳۲۱
- التکیس و التظرف عند نساء الفرنسیس. ۲۲۰
- الحمایة الجنسیة. ۸۶، ۳۸۹، ۳۹۵
- خدم المدارس من النساء. ۱۹۹
- الخروج من فرنسا یقتضی أداء عشرة فرنکات. ۳۱۷
- خط الستی مرکز الأشغال العظیمة و المبایعات الجسیمة لأغنیاء تجار الإنکلیز. ۴۹۹
- الدلالة علی الصوت بنقوش و رسوم معلومة. ۸۹
- دیار باریس: أبهة، فخامة، رواشن مذهّبة، جدران مزخرفة، أبواب مؤزّجة.

الکتابة فوق الحوانیت و الرواشن بماء الذهب. فی لندرة بالحبر. ۳۴۱

- الرجال یثقبون آذانهم و یتقرطون بأقراط من الذهب. ۶۴
- الرجال فی الشرع الإنکلیزی ولی أمر المرأة. ۲۳۹
- الرقابة الصحیة علی المأکولات و المشروبات فی باریس. ۳۴۴
- شراء الوظیفة من الدیوان. ۵۶
- الشرطة المتنکرون بزی العامة. ۴۳۰
- شرع الإنکلیز: دهاء فقهاء الشرع. عدم التظلّم. عدم بخس الناس حقوقهم. ۲۱۲
- صعوبة الطلاق. ۲۵۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۵

- غسل وجوههن و مسحها بالخرق التی یمسحن بها آنیة المطبخ. ۱۶۹
- الفرنسیون لا یأتمنون علی إناثهم ذکرا. ۲۳۹
- لفقهاء الشرع فی إیدنبرغ ید طویلة و کلمة نافذة. ۳۱۲
- کل دار فی باریس عبارة عن قصر. ۳۳۹
- لا فقیر أشقی من فقیر لندرة. و لا غنی أترف من غنیّها. ۴۸۶

- لندن فی منتصف القرن الثامن عشر ممتیّة باللصوص و النهّاب فی مسالکها. ۴۸۳
- لیس فی کمبردج سوی المدارس و الأساتذة و المتعلمین. ۲۹۰
- المداخن فی باریس من الحدید. المداخن فی لندرة من الخزف. ۳۴۱
- ملک الإنکلیز وراثة. ۴۷۴
- ملوک الإفرنج لا یقرؤون قصائد مدح فیهم. ۴۰۲
- ملوک الإفرنج یستخدمون الأطباء من العرب و الیهود. ۳۱۸
- النبیذ کان یباع عند العقاقیریة (الصیادلة). ۳۱۹
- نساء الفرنسیس یتعاطین الأعمال الخسیسة: تکنیس الطرق. حمل الأثقال. ۶۳۹
- تنظیف الأحذیة. صید السمک. مناظرة علی المراحیض. ۳۷۰
- نفوذ کلمة السیدات فی الأمور التی یشم منها رائحة الدیانة. ۲۴۶
- یبلغ الحرّ ثمانین درجة إنکلیزیة. ۱۴۶
الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۶

المصطلحات

(أ)

أوقیة انکلیزیة ۱۵۰، ۴۱۵

(ب)

الباسبورت ۳۱۷
البانوراما (بانورامة) ۴۴۲
البیات ۴۳، ۹۱، ۹۳

(ج)

الجرنال ۱۲۵، ۱۵۳، ۱۶۷، ۲۰۰، ۲۱۱، ۴۵۰، ۴۹۰، ۴۹۱، ۴۹۲، ۴۹۳، ۴۹۷، ۵۰۱
جریب ۱۳۴، ۱۵۷

(ذ)

الذراع ۳۳۰، ۳۳۷، ۳۳۸، ۳۴۶، ۳۵۴، ۳۵۵، ۳۵۸، ۳۵۹، ۴۱۴، ۴۲۱، ۴۴۷، ۴۸۰، ۴۸۲

(ح)

الحجازی ۹۱، ۹۳

(ر)

الرصد ۹۱، ۹۲، ۹۵

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۷

الرطل ۳۵، ۶۸، ۱۲۷، ۱۲۸، ۱۳۱، ۱۳۵، ۱۵۲، ۱۵۴، ۱۸۰، ۲۶۴، ۲۶۵، ۲۷۵، ۲۹۳، ۲۹۶، ۳۱۶، ۳۱۸، ۳۳۲، ۳۴۸، ۳۵۳، ۳۵۶، ۴۱۵، ۴۲۸، ۴۴۵، ۴۴۸، ۴۴۹، ۴۵۰، ۴۶۴، ۴۶۸

(س)

السیکاه ۹۱

(ص)

الصبا ۹۱، ۹۲

صکوک ۵۸، ۸۱، ۱۲۵، ۱۹۸، ۲۱۱، ۲۱۴، ۲۱۵، ۲۳۶، ۳۳۱، ۴۷۲

(ط)

طنلاته (طن) ۱۵۰

(ع)

العقاقیریة ۴۱، ۵۸، ۲۶۱، ۳۱۹

عقود ۵۸، ۳۳۱، ۴۷۲، ۴۹۹

(ق)

قیراط ۱۵۳، ۱۵۹، ۳۲۱

(ک)

کیلو غرام ۱۳۴، ۳۳۲، ۳۳۳، ۳۳۴

الواسطة فی معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۸

(م)

المیل ۳۱، ۳۶، ۱۱۸، ۱۲۴، ۱۳۵، ۱۴۲، ۱۴۳، ۱۵۱، ۱۵۶، ۱۵۷، ۱۶۱، ۱۶۲، ۱۶۳، ۲۹۳، ۳۰۱، ۳۰۴، ۳۳۰، ۴۱۲، ۴۱۳، ۴۱۴، ۴۲۳، ۴۲۴، ۴۴۵، ۴۵۰، ۴۵۳، ۴۵۸، ۴۶۴، ۴۸۲، ۴۸۴

(ی)

الیارد ۱۶۲، ۳۳۰، ۴۲۸، ۴۳۰، ۴۶۴

الأجناس و القبائل

ص ۵۱۵

الافرنج، الفرنجة، الافرنجى (يرد هذا الأسم فى معظم صفحات الكتاب)

الانكليزى: (يرد هذا الاسم فى معظم صفحات الكتاب)

الأوروبيون: (يرد هذا الاسم فى معظم صحفات الكتاب)

ص ۵۱۷

انكلتره (يرد هذا الاسم فى معظم صفحات القسم الثانى من الكتاب)

باريس: (يرد هذا الاسم فى معظم صفحات القسم الثانى من الكتاب)

ص ۵۲۰

فرنسا: (يرد هذا الاسم فى معظم صفحات القسم الثانى من الكتاب)

الواسطة فى معرفة أحوال مالطة، ص: ۵۷۹

المحتويات

استهلال ۷

المقدمة ۱۱

ديباجة المؤلف ۲۳

مسار الرحلة ۲۷

القسم الأول: الواسطة فى معرفة حوال مالطة: ۲۹

- فصل فى تخطيط مالطة معربا. ۳۱

- فصل فى هواء مالطة و منازهها و غير ذلك. ۳۸

- فصل فى فالتة قاعدة جزيرة مالطة. ۴۶

- فصل فى عادات المالطيين و أحوالهم و أخلاقهم و أطوارهم. ۶۴

- فصل فى الإنكليز، و حكومتهم فى مالطة. ۸۱

- فصل فى موسيقى أهل مالطة و غيرهم. ۸۹

- فصل فى لغة أهل مالطة. ۹۸

القسم الثانى: كشف المخبا عن فنون أوربا: ۱۱۳

- فائدة فى عمر الحيوان. ۱۳۶

- وصف باريس. ۳۲۷

- فصل فى الستى ۴۹۹

ملحق ۵۰۴

كشاف حضارى و فهارس ۵۰۷

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَیْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ یوم.

مركز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (كتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الكمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمكِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مكتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب كشك، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماكن الدینیّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المكتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹